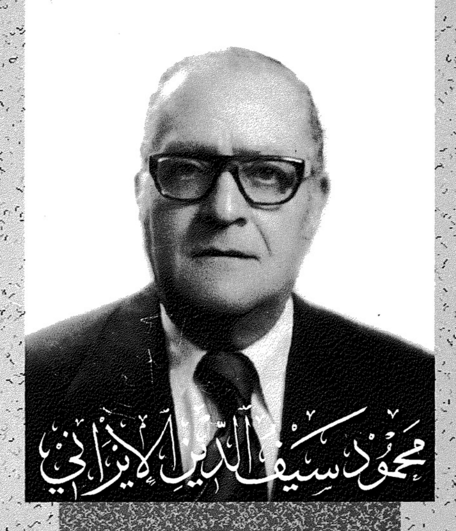


محمود سيف الدين الإيراني

الأعمال الأدبية الكاملة



مؤسسة عبد الحميد شومان
عمان - الأردن



في ثلاثة مجلدات

المجلد الأول



مَحمُود سَيف الدِّين الإيراني

الأَعمَالُ الأَدبيَّةُ الكَامِلَةُ

في ثلاثة مجلدات

المجلد الأول



منشورات مؤسسة عبد الحميد شومان

عمان / المملكة الاردنية الهاشمية

١٩٩٨

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(١٠٠١/٧/١٩٩٧)

رقم التصنيف : ٨١٣
المؤلف ومن هو في حكمه : محمود سيف الدين الايراني
عنوان الكتاب : محمود سيف الدين الايراني: الأعمال الكاملة
الموضوع الرئيسي : ١- الآداب
٢- القصة العربية
رقم الايداع : (١٠٠١/٧/١٩٩٧)
بيانات النشر : عمان: مؤسسة عبدالحميد شومان

* - تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

الصف والاخراج : قبعة للاعلان.

مؤسسة عبد الحميد شومان

الطبعة الأولى ١٩٩٨

الفهرس

المـــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

تقــديم

تعتـز مؤسسـة عبدالحميـد شومان بأن تقـدم للحركـة الأدبية والقـراء الكرام هذا الاصـدار الجـديد. الذي يـضم بين دفـات مـجلداته الثلاثـة الأعمال الكاملـة للمبدع المـرحوم سيف الدين الايـراني، أحد الرواد الأعلام في الثقافة والأدب.

ولأن المؤسسـة تدرك مبلغ ريادة الايراني، فقـد أخذت على عاتقها طباعـة واصدار أعمـاله الكاملة، إذ أن النقاد والدارسين، وان اخـتلفوا حول المدرسة التي انتمى إليها فقيدنا المبدع، إلا أنهم مجمعون على ريادته ومبلغ تأثيره وتميزه وابداعه.

وقد بذل جامعا الأعمال جهـداً آربيا معه على الغاية، في سبيل تقديم صورة مـستوفاة، تنم عن تنوع وخصـوبة عطاء الايراني، القاص والناقد والمترجم والذواقة، فأفردا المجلد الأول للمجموعات القصصية – أظهر آثار الفقيد وأكثرها استئثاراً باهتمام الدارسين – واستوعبا فيه كل ما سبق نشره أو وقفا عليه من متناثر ومخطوط للفقيد.

كمـا أفردا المجلد الثـاني لجهـود الايراني النقدية، بما تنطوي عـليه من آراء لافـتـة فـي الأدب والفن الأردني والعـربي والعــالمي، ولمقـالاته وتراجمه ومراجـعاته وخواطره التي تحله محلاً مرمـوقاً بين كتاب هذه

الألوان من الابداع، لما تميزت به من رصانة وامتاع ونفاذ.

أما المجلد الثالث، فقد أفرداه للقصص المترجم الذي حاول الايراني من خلاله، أن يؤثر على ما بدا له مثيراً وجديراً بالاهتمام من الأدب العالمي.

ان قارىء هذه المجلدات، سيقف -بلا ريب- على مدى استغراق الايراني في الواقع واحتفائه الفائق بالحياة وصروفها الحلوة والمرة، بالانسان ولحظات ضعفه وقوته، سيقف على تجربة ثرة لأديب مجتهد حاذق، لم يأل جهداً في الارتقاء بأدبه النابض بالحياة التي خبرها جيداً. ما بين سنة ولادته في يافا عام ١٩١٤ وسنة وفاته في عمان عام ١٩٧٤ الكثير من المرارات والتحديات والفتوحات والانجازات التي امتزجت في وعيه وجعلت منه رمزاً من رموز الحياة الأدبية في فلسطين والأردن.

وإذ تقدم المؤسسة هذا الانجاز الأدبي للقراء، فانها تود أن تتوجه بالشكر لكل من الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب ورابطة الكتاب الأردنيين، لاهتمامهما باخراج هذا العمل إلى حيّز الوجود، ولما أبدياه من تعاون. كما تشكر كلاً من الأستاذين: ناصر علي ويوسف عبدالله محمود، اللذين اضطلعا بمهمة جمع الأعمال وتدقيقها، وتقدر لهما جهدهما الملحوظ، والفنان الأستاذ عدنان الشريف الذي قام برسم الفقيد. وتتقدم أخيراً بالشكر من أسرة الفقيد، لتجاوبها بتقديم أصول هذه الأعمال تمهيداً لنشرها.

آملين أن نكون قد أسهمنا في احياء ذكرى وأدب مبدع كبير.

عبدالمجيد شومان

رئيس مجلس الادارة

مقابلة صحفية مع الأديب

محمود سيف الدين الإيراني

أجراها الأستاذ سليمان موسى

مع أهل الفكر في الأردن*

حلقة اليوم نعقدها مع الأستاذ محمود سيف الدين الإيراني الذي يعمل في حقل الفكر والأدب منذ أكثر من عشرين عاماً.

س – أستاذ ايراني. هل لك أن تحدثنا عن نشأتك ؟

ج – قد تعلم أن هذا السؤال ينطوي على شيء من الاحراج، ولهذا السبب سوف أقتصر في حديثي على وقائع مجردة ما أمكن ذلك.. ولدت في مدينة يافا سنة ١٩١٢ من أب ينحدر من أصل ايراني وأم عربية، بل هي سليلة احدى العشائر العربية. ولقد غلب اسم البلد الذي جاء منه الوالد أصلاً فعرفت باسم "الايراني"، نشأت نشأة عربية محضة في البيت لأن والدي كان يقيم في يافا منذ صغره ولذلك غلب عليه طابع البلاد. وبهذه المناسبة، قد يحسن بي أن أذكر أن جدي لوالدي وجدي لوالدتي كان كلاهما شيخاً من ذوي العمائم ومن المتعمقين في الشؤون الدينية، ومن هواة الأدب والفكر.

تأثرت طفولتي بأحداث الحرب العالمية الأولى، وما تزال بعض ذكرياتها تلوح في خاطري كالأطياف، إذ اضطر والدي للانتقال بنا من يافا إلى القدس، فذقنا مرارة الهجرة والحرمان وجميع ما يرافق الهجرة من متاعب ومصاعب... لم أدخل المدرسة إلا سنة ١٩٢٠، عندما كنت في الثامنة من عمري. ويعود سبب ذلك

---

* أنظر: مجلة رسالة الأردن. كانون الثاني، ١٩٦١، ص ٦ .

بطبيعة الحال إلى عدم توافر المدارس حتى ذلك التاريخ. والمدرسة التي أرسلت إليها هي كلية الفرير في يافا. وقد أنهيت دراستي الثانوية فيها. وكانت كلية الفرير تدرس الفرنسية والانجليزية بالاضافة إلى العربية، ومن هنا معرفتي بهاتين اللغتين الأجنبيتين.. كنت أعد نفسي لدراسة الطب في فرنسا، ولكن حال دون ذلك اصرار والدتي على بقائي قريباً منها، لأني كنت الابن الوحيد للعائلة. وحيث أنه لم يكن بالمستطاع نقل العائلة كلها إلى فرنسا فقد اضطررت ووالدي للقبول بما ارتأته الوالدة رحمها الله.

س - أذكر انني عرفتك لأول مرة في مدينة يافا سنة ١٩٣٨ عندما كنت تصدر مجلة "الفجر"، كما انني قرأت لك مقالات ممتعة في مجلة الطليعة الدمشقية، وخاصة تلك السلسلة من المقالات عن الفنان الايطالي المشهور "مايكل انجلو".. فهل لك أن تحدثنا عن بداية تعلقك بالأدب وهوايتك له وبواكير انتاجك فيه ؟

ج - السؤال طويل ومتفرع على أى حال : بدأ تعلقي بالأدب وأنا طالب. كنت أحب الشعر العربي حباً جماً، وعن طريق الشعر أخذت أحب النثر. وعندما قويت حصيلتي من اللغة الفرنسية، أخذت أقرأ شعر هذه اللغة وأدبها. ويبدو اني كنت ذا ميل أدبي بالفطرة (وليت هذا الميل كان للعلوم). بدأت محاولتي في الكتابة قبل انهاء دراستي، ووجدت جرائد تفتح صفحاتها للنشر (وليتها لم تفعل) فشاقني ذلك وشجعني على الاستمرار. يمكن أن أذكر من هذه الجرائد: "فلسطين" و"الاقدام" وغيرها من صحف يافا في ذلك العهد. وأستطيع الآن أن أقول جازماً لناشئتنا ممن يحاولون الكتابة اليوم: انني أنفقت على الأقل عشر سنوات من عمري في قراءة أدب العالم، حتى لم أدع كاتباً مرموقاً إلا وقرأت له. وبعد أن تزودت بهذه الذخيرة واختمرت في نفسي عصارة الروائع الأدبية التي قرأتها واستوعبتها - أخذت أكتب شيئاً يمكن أن يرضيني إلى حد ما. وأنا

أعتقد أنه بدون ذخيرة كافية من هذا النوع، يستحيل أن يكون الإنسان أديباً وكاتباً، وخاصةً في أيامنا هذه، بسبب اتساع الآفاق الثقافية والتقارب بين ثقافات الشعوب الراقية. وأنا ما زلت أعد نفسي قارئاً في الاعتبار الأول وكاتباً بعد هذا، لاعتقادي بأنه لا غنى لأى كاتب يحمل القلم عن متابعة الحركة الفكرية في العالم واتجاهاتها وانطلاقاتها.

س – لا بد أنك قرأت خلال هذه السنوات العشر عدداً طيباً من أمهات الروائع الأدبية العربية والأجنبية، فهل لك أن تذكر بعض الكتّاب الذين تأثرت بكتاباتهم وبعض المؤلفات التي تركت في نفسك انطباعات قوية؟

ج – أود أن أذكر أولاً القرآن الكريم، فقد تأثرت به منذ نعومة أظفاري، ذلك أن جدتي لوالدتي كانت شديدة التدين، وقد رتبت مع شيخ من المقرئين أن يزورنا مرة في الأسبوع فيرتل آيات الذكر الحكيم بصوت رخيم، واستمر على ذلك ثلاثين عاماً حتى توفاه الله (واسمه الشيخ خميس)، ثم عندما كبرت عكفت على قراءة القرآن أكثر من مرة ولا أزال حتى الآن أقرأ القرآن. وهكذا انطبعت بلاغة القرآن في نفسي انطباعاً قوياً وكان أول الكتب التي تأثرت بها.

تأثرت من الكتب العربية بمؤلفات ابن المقفع: كليلة ودمنة، والأدب الكبير والأدب الصغير، ورسالة الصحابة. وأيضاً بكتب الجاحظ وأخصها: البيان والتبيين، والحيوان، ورسائل الجاحظ. ومن الكتب التي أعجبت بها: العقد الفريد، والأغاني، والكامل، وسمط اللآلي والمزهر. أضف إلى هذا شعر أشهر العرب في مختلف العصور.

أما من كتاب الغرب فقد أعجبت من الكلاسيكيين براسين وكورنيل وموليير، ومن الرومانتكيين: الفريد ديموسيه ولامارتين، كما قرأت لكثيرين غيرهم وعلى الأخص بلزاك، وأناتول فرانس وهيجو ومارسيل بروست. ويمكن

القول انني من المعجبين بالأدب الروسي الذي سبق نشوب الثورة البلشفية، خاصة انتاج دستويفسكي وتولستوي وتورجنيف وتشيكوف وقد قرأت أدب هؤلاء في ترجماته الفرنسية.

س - حدثتنا عن نشأتك حتى تخرجك من المدرسة. فأرجو أن نعرف شيئاً عن حياتك بعد ذلك.

ج - بعد تخرجي من مدرسة الفرير، عملت موظفاً في حكومة فلسطين لمدة ست سنوات، ثم استقلت وأسست مطبعة كبيرة للأعمال التجارية والصحافية. وفي ذلك الحين أصدرت مجلة "الفجر" الأسبوعية التي لم تعمر طويلاً بسبب انصرافي فيها لمعالجة شؤون الفكر والأدب، وفي هذه الأثناء عملت أيضاً في حقل التعليم، ثم صفيت أعمالي في المطبعة، نتيجة لظروف الحرب العالمية الثانية. وانتقلت إلى الأردن سنة ١٩٤١، حيث عملت في سلك التعليم معلماً بمدارس الحكومة ثم مديراً في المدارس الثانوية. وما زلت أعمل حتى اليوم في وزارة التربية والتعليم بوظيفة مفتش للغة العربية.

س - هذا عن حياتك العامة. فما رأيك بمعلومات موجزة جداً عن حياتك الخاصة، مع الاعتذار عن الاحراج ؟

ج - أستطيع أن أقول أنني عشت حياة حافلة، واتصلت أسبابي بأسباب الناس على اختلاف نماذجهم وبيئاتهم وعرفتهم في مآسيهم ومسراتهم. وهذا كله كان ذخيرة كبيرة لي في عملي ككاتب قصة... ولا أجد حرجاً في أن أقول أنني عشت سنوات الشباب كما كنت أحب، فلم أفطم نفسي عن مرح ولهو بريئين. ثم تزوجت على أبواب الثلاثين. وأنا مدين لزوجتي بالكثير من الاستقرار والهدوء اللذين أتاحا لي جواً طيباً لمواصلة عملي الأدبي. ولا بأس أن أذكر أن لي ثلاثة أبناء وابنتين. وابني الكبير يدرس الآن في النمسا، وأنا أحاول أن أتيح له تحقيق

الهدف الذي لم أتمكن من تحقيقه، أي دراسة الطب.

س - يبدو لي أننا أخذنا فكرة لا بأس بها عن نشأتك وحياتك الخاصة وبواكير اهتماماتك الأدبية. فهل للأستاذ الايراني أن يحدثنا عن كتابته للقصة مع العلم انني قرأت المجموعة القصصية والأدبية الأولى التي صدرت عام ١٩٣٨، كما أذكر بعنوان "أول الشوط" والتي ما أزال محتفظاً بها في مكتبتي حتى اليوم؟

ج - المعروف أنني أكتب قصة، وأحب أن أؤكد أنني أكتب المقال والبحث الأدبي والنقد كما أكتب القصة. ولكن غلبت صفة القصّاص على صفة الناقد والباحث. وأؤكد مرة أخرى أنه لأيسر وأسهل أن أكتب خمسة بحوث في النقد والدراسة الأدبية من أن أنشىء قصة قصيرة واحدة. ومن هنا نرى مسؤولية الكاتب الذي يتصدى للخلق القصصي، وشتان بين بحث ودراسة يعتمدان على أصل موجود، وبين خلق كيان قائم بذاته - وهو عمل القصّاص - لا سيما إذا كنت تحب لذلك الخلق أن يأتي سوياً صحيحاً.

وإذا أحببت أن أعرفك بكتابي "أول الشوط" قلت انه يضم مجموعة من القصص القصيرة ومجموعة أخرى من البحوث والدراسات الأدبية والفكرية، التي كانت تشغل ذهني في ذلك الزمن، أي سنة ١٩٣٧. أما كتابي الثاني "مع الناس" فقد صدر سنة ١٩٥٦ ويضم مجموعة من القصص القصيرة. وأستطيع ول أنني لو وجدت الناشر الذي يحترم الفكر والأدب ولا يغمط الكاتب حقه - دمت للمطبعة ما لا يقل عن عشرة كتب بين قصص موضوعة ومترجمة وأبحاث راسات.

س - عندما صدرت مجموعتك الثانية "مع الناس" كتبت دراسة عنها في مجلة الأديب، وأذكر أنني أعلنت اعجابي بقصة "الخروج من الجنة" و"الأرض

الطيبة". فهل لك أن تحدثني عن رأيك بقصصك - مع الاعتذار مرة أخرى عن الاحراج - وهل لك أن تحدثني عن رأيك في الانتاج القصصي في البلاد العربية والذي يغمر المكتبات في أيامنا هذه ؟

ج - فيما يتعلق بالقصص التي أكتبها: قد يكون الناقد أبصر مني بها. وعلى أي حال أعتقد أن الأداء القصصي فيها - من الناحية الفنية - لا بأس به. ويمكن أن أقول أنه على الرغم من أن قصتي "الخروج من الجنة" و"الأرض الطيبة" تعالجان جانباً من بعض جوانب النكبة - فقد أفضل أنا شخصياً قصة "شعرة بيضاء" أو "حطام" أو "عود على بدء" بسبب أنها أقرب إلى الكمال الفني من غيرها، ومهما يكن من أمر فأنا غير متحمس جداً لانتاجنا القصصي في البلاد العربية. ففيه الكثير من الغثاثة، أما جيده فقليل. ولعل مقارنتي هذا الانتاج بما ينتجه أساتذة هذا الفن في العالم هي التي تميل بي إلى عدم الرضا عن انتاجنا.

وسبب ذلك أننا في القصة - كائناً ما كان شكلها ونوعها - تلاميذ الأوربيين. وأرجو أن لا يطول الزمن حتى نرى أدبنا القصصي يقف على صعيد واحد مع الاداب القصصية الممتازة في العالم.

س - أحب أن أعرف رأيك في انتاج من تقرأ لهم من كتاب القصة المعاصرين في البلاد العربية ؟

ج - قرأت لأكثرهم وأعتقد أن أفضلهم في مجال القصة الطويلة: نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم، وفي مجال القصة القصيرة أرى أن أبرع من كتبها في مصر هما: يحي حقي ويوسف جوهر وفي سوريا: عبد السلام العجيلي، ومن الفلسطينيين: جبرا ابراهيم جبرا وأمين ملحس وسميرة عزام. وبهذه المناسبة أقول أنه من المؤسف أن بعض كتاب القصة يستهوون القراء بقصص جنسية تافهة، وكم أود لو لم يجد أبناؤنا هذه القصص المسمومة سهلة المنال في الأسواق، لأنها من

ناحية تدمر أخلاقهم، ومن ناحية أخرى تعطيهم فكرة سيئة عن البناء القصصي الجيد...

س - أرجو أن تذكر أمثلة على ذلك؟

ج - يتبادر إلى ذهني لأول وهلة اسم احسان عبد القدوس، ويوسف السباعي واخوان هذا الطراز..

س - سؤال أخير. ما رأي الأستاذ الايراني في الحركة الأدبية في الأردن؟

ج - الأردن غني بامكاناته الأدبية، وأعتقد أن أدباءنا لو وجدوا التشجيع وسبل النشر الكافية لوقف الكثيرون منهم في طليعة أدباء العرب. فمع قلة التشجيع وضيق المجال يقدم هؤلاء الأدباء ألواناً من الأدب تدعو إلى الرضا والاطمئنان إلى مستقبل الفكر والأدب في هذا البلد.

"سليمان موسى"

أول الشـوط

(مجموعة قصص)

مقدمة

تتطور الحياة الأدبية في البلاد العربية جميعاً، بسرعة لم تكن معروفة منذ بضع سنين، وهذا التطور لا يقف عند الظواهر الخارجية، مكتفياً بالتجديد «الشكلي» المحض، قاصراً جهده على هذه الألوان العرضية التي تكسب العمل الأدبي ضرباً من الفتنة «السطحية» قد تحول دون الجوهر وتقضي على فضائل الشمول والاحاطة والعمق والنفاذ، بل ان هذا التطور ليتناول الصميم ويحاول أن يخط للحياة الأدبية اتجاهاً جديداً يكون الانسان وتكون حياته - بكل آلامها وآمالها بكل عذاباتها وتشوفاتها بكل ما فيها من قوة وارادة واشرئباب وتطلع إلى الخير والسعادة والنقاء والتطهر - الغاية التي يسفر عنها هذا التطور. ونحن نعيش في ظرف يفور بأسباب الظلم، ولم تكن «حياة» الانسان مهددة في يوم من الأيام بمثل ما هي مهددة به اليوم. فإذا لم يتجه رجل الفكر - وهو بحكم وضعه الاجتماعي أقوى صلة وأوثق أسباباً وأعمق ادراكاً وأشد احساساً بشقاء الانسان وتعاسته ومختلف ألوان محنه وفواجعه - هذا الاتجاه الذي يجعل من جهوده جميعاً قوة لها شأنها وخطرها في تقرير مصير الانسان والقضاء على أسباب اذلاله وقهره جميعاً، فانه حينئذ يخون نفسه وينكر انسانيته وتكون رسالته شراً خالصاً ولعنة أبدية. الجيل الجديد من المفكرين في البلاد العربية غدا شديد الشعور بهذا كله، عظيم الوعي والادراك، يحس على منكبيه بوطأة هذه المسؤولية نحو مجتمعه ونحو انسانيته وضميره، ويحاول جهده أن ينهض بهذا

العبء الخطير، متجهاً ببصره نحو النور والسعادة من صميم عذاباته وآلامه وتشوفاته النيرة.

هذا هو السبب الأصيل - فيما أرى - الذي يحفر الهوة ويعمقها يوماً بعد يوم بين مفكر الأمس الذي لا يحاول أن يخرج عن الدائرة الضيقة التي رسمها لنفسه والتي قوامها: أن ينظر إلى ما هو «كائن» كقدر محتوم ومصير مقرر لا معدى عنه ولا مفر منه، فيرتضيه ويلتذه ويروح جهد طاقته يفتن في تصوير مظاهره الخارجية وتحليل تفاعلاته السطحية مبتعداً، ما استطاع، عن تقليب النظر فيما عدا ذلك كأنما تخيفه الأعماق ويفزعه ويدير رأسه النظر إلى قرارها السحيق حيث تصطخب وتتفاعل البواعث الأصيلة التي يقوم عليها شقاء الانسان وتعاسته وآلامه جميعاً. وأما مفكر اليوم - الجيل الجديد - فانه ينظر إلى ما هو «كائن» بعين يومض فيها ذكاء نادر وادراك عميق ووعي لا مثيل له، فاذا به فجأة تعروه رعشة من يفزعه كل هذا الهول الانساني فيسخط ويتمرد ويثور ويشرئب ببصره إلى ما «سيكون» فلا يرى أية قيمة لكل ما يند عن قلمه وفكره إلا إذا كان يؤدي مباشرة إلى ما يكون فيه الخلاص النهائي للانسان من قيود آلامه وهوانه وذله. هذه هي «نقطة الانطلاق» التي تنبعث منها جهود الجيل الجديد ليجعل مما «سيكون» سعادة وخيراً ونوراً، واعزازاً لحياة الانسان وسمواً بكرامته إلى غاية السمو.

وهذا الكتاب الذي أدفع به إلى النشر إلى جانب ما يذيعه اخواني وزملائي وينشرونه كل يوم لا يكاد يعطي إلا معنى ضئيلاً مما قدمت، وغيره كثير مما نشر اخواني أبلغ دلالة وأقرب إلى الغاية وأشد اتصالاً بالفضائل التي ذكرتها من هذا الكتاب، غير أن له لقيمة أخرى عندي قد تكون هي وحدها التي أغرتني بنشره. ذلك أنه أشد ما يكون تصويراً للتطور الذهني الذي ساور حياتي الفكرية - مدى

عـشـر سنوات – في غـمـوض وابهـام بادىء ذي بدء حتى توكـد واتضح لحـيـاتي الفكرية محور خاص لا قيمة عندي «للفكر» إذا لم يكن متصلاً أشد اتصال بهذا المحور وقد بينت هذا فيما تقدم وفيما قررته في كثير من الوضوح في فصول هذا الكتاب. ولولا ذلك لما قدر له أن يظهر إلى الوجود.

محمود سيف الدين الايراني

المجموعة القصصية

أول الشوط

(مجموعة قصص)

نداءُ البدَنْ

« مهداة إلى الاستاذ ابراهيم المصري »

١

قالت دلال: - لا أستطيع الهبوط إلى الوادي بهذا الحمل... حسبي اني أنهكت قواي لأصنع لكم هذا... وأشارت إلى الأطباق الحافلة بألوان الشواء والأسماك والخضر...

ثم أردفت وهي تحدج أختها: هي تستطيع ذلك - وأومأت إليها - فقد أضاعت يومها في ما لا فائدة فيه، الرسم، والتطريز، وفي ما لا أدري ماذا أيضاً... وأنا أموت في المطبخ... »

فارتعشت "ندى" ارتعاشة خفيفة وتورد خداها... وهمت أن تهضب بكلام كثير، وكأنما طاف بذهنها خاطر، فكظمت غيظها وردت لسانها وقالت غير مبالية وكأنها تخاطب نفسها:

- إن كان يعجبك...!

ودارت على عقبيها برشاقة متعمدة، واتجهت إلى النافذة المطلة على الوادي العميق. فتقدم "قاسم" زوج دلال بقامته الفارعة وجسمه الضخم الهائل، وقال وهو يجيل بصره في أفراد الأسرة وينفض أطباق الطعام بعينيه المتنفختين نفضاً:

- « هذا جميل... ومثير جداً للأعصاب. ما رأيكم في أن أحضر قفازات الملاكمة. هه؟! ونجعل من نزهتنا في الوادي حفلة ملاكمة. أنني كفيل بدعوة المصطافين جميعاً ليشاهدوا هذه الحفلة الشائقة؟! فابتسم الضيف المريض وقال موجهاً الكلام إليه ليستفزه ويثير حنقه ويجري لسانه.

- أما كان أولى بك أن تدع هذا الهذر وتقوم بشيء مفيد... أن تحمل شيئاً من هذه الأطباق وتهبط بها إلى الوادي مثلاً... وان عز عليك حمل الطعام. فهناك الفونغراف. أو هذه الوسائد، فانك أحق منا جميعاً بأن تصغي إلى نداء معدتك أم ينبغي أن أقول...

فقاطعه "قاسم" دون أن يفطن إلى ما وراء كلامه. - أصبت والله، لا بد أن أكون أول من يتحرك وأول من يعمل وأول من يسير في كل شيء.. حتى أسخف الأمور.. والحمد لله الذي لا.. فصاح به والد زوجته ورب الأسرة وكبيرها وقد نيف على السبعين: - أما تدعنا يا هذا من الكلام الفارغ. هيا احمل «الفونوغراف» وبعض هذه الوسائد. وسنكون على اثرك بعد هنيهة يحمل كل نصيبه...

وإذا تكلم الشيخ، كما يدعونه عندما يحشر نفسه في كل شيء، أو «شيخنا» حين يلتفون حوله ويتكأ كأون عليه طلباً لرضاه وتملقاً له، أو "عبد الهادي أفندي" كما يدعوه أصدقاؤه وزملاؤه في السن حين تضمهم قهوة "عبد السميع" المتواضعة يشربون القهوة السادة ويدخنون "النرجيلة" ويذكرون أيام زمان ويروون نوادرهم وحوادثهم إذ كانوا في ربيع العمر وعنفوان الشباب، فيترحمون على الماضي ولياليه الملاح، وينقمون على الحاضر وما فيه من شر كثير وخير قليل، ويذكرون أن من آيات الله التي تدل على اقتراب الساعة ضلال أبناء هذا الجيل... وتهتك الشباب والنساء. نقول إذا تكلم الشيخ وجب الصمت والطاعة، فان نظرته نهي وهمسته أمر، والويل لمن يخالف أو يجادل... فسيناله من قارص

كلام الشيخ ما لن ينسى مرارته على الأيام، أو من عصاه القديمة الغليظة ما يشج الرأس أو يكسر منه الساق... فهو لا يوقر أحداً ولا يقيم وزناً لكبير أو صغير، لهذا الاعتبار وحده تناول "قاسم" الفونوغراف وبعض الوسائد وراح يقول وهو في طريقه إلى الوادي:

- : هيا أيها السادة.. فليحمل كل منكم نصيبه، سأبقى في الوادي أنتظركم.. لن أصعد إليكم إذ لا يبعد أن تضطروني إلى حملكم واحداً واحداً على ظهري لأهبط بكم الوادي... هيهات أيها السادة، استعمل عصاك أيها الشيخ إذا تباطأوا...

وانطلق مهرولاً...

أما أفراد الأسرة فقد انفجرت ضحكاتهم المكتومة وتناول كل منهم ما وسعت يداه من معدات النزهة. إلا الضيف فقد أبوا عليه أن يحمل شيئاً إذ قال الشيخ -وكانت له عليه دالة-:

- «لو لم تكن مريضاً لما رحمناك..» فأجاب على الفور: أو لما رحمتني عصاك على الأصح.. فقال الشيخ وهو يقهقه وقد ملأ السرور نفسه: صدقت والله يا بني..

وأخذوا طريقهم إلى الوادي. الشيخ أولاً يساعده ابنه أمين، ويجعل باله إليه حين الهبوط ثم زوجته "زهر" ومعها حفيداها "توتو" و"سري" ثم "دلال" وأختها الصغرى "حياة" وتأخرت "ندى" وتأخر معها "أكرم" - وهذا اسم الضيف - ليحضرا آلة التصوير وبعض أواني المائدة.

قال أكرم وهو يرنو إلى نشاطها وحيوية حركتها باعجاب: لم هذا الجفاء بينك وبين أختك يا آنسة؟ بالطبع لم تكن تقصد أن تسيء إليك إنما هو التعب

الذي أنطقها... فالتفتت إليه موردة الخدين يشع في صفحة وجهها الوضيء نور ابتسامة - :

أختي !؟ انها هكذا أبداً... وهزت كتفيها ومطت شفتها السفلى فعل من لا يكترث أو من يتعمد عدم الاكتراث. ثم انصرفت تجمع ما تريده من الأواني وفي ضميرها سؤال يحيرها «كيف؟ ما زال يدعوني بيا آنسة! ألم يفهم بعد؟!...»

وظل واقفاً يشرب بعينيه هذا الحسن. ماذا لو أنها التفتت فجأة ورأت نظراته النهمة يتقد فيها لهب غريب؟!

انها تفتن وتأسر، وتضل وتخبل بهذا الجسم.. فقد طفر ذراعاها في حدة وعنف تشعان نوراً وناراً.. وبان ردفاها في امتلاء مثير وقد زادهما اغراء أن ضاقت بهما البيجامة حتى كادت لفرط الحبك أن تتمزق وتشي بما يخفيان من فتون. وثدياها، ثدياها المتمردان الطانشان في ظمأ وجنون. على صدر عامر يزخر ويمور! كل هذا يدعوه ويضله ويغويه. «لمن خلقت كل هذه الفتنة يا الله!» أجاب قلبه: «لو طلعت بهذا الجسم على جيش بألوية لهزمته... يا مسكين...»

وأفاق على ذهوله على صوتها يناديه: أكرم.. أكرم أفندي. لا شك أنهم ينتظروننا.. أسرع.. لا تنس آلة التصوير.. ولحق بها فأدركها وهي تهتم بالانحدار فقال: لا تغامري يا آنسة.. يحسن بك أن تتأكدي من موضع قدمك. فالطريق منحدر وتكثر فيه العثرات. دعيني أساعدك..

قالت وهي تبتسم.. خذ بيدي إذا شئت. واحذر أن تزل قدمك فنهوي كلانا. ومدت إليه براحتها الرخصة الطرية، فتناولها بلهفة وطوى كفه عليها وشرعا يهبطان.

قالت عيناها: أنت الرجل الذي انتظرت. لقد تأخرت وكدت أنا أفقد الأمل..

ولكنك أتيت أخيراً..

فأجابت عيناه: لقد بحثت عنك طويلاً. ولم أهتد إليك، ولما يئست أخذت أول امرأة اعترضت سبيلي.

فعاودت عيناها الكرة: فلنتمرد.. ولنصدع القيود.. ولنأخذ حظنا من مائدة الحياة الحافلة.

فردت عيناه: ونشبع نحن وتقتلنا الكظة.. وغيرنا يموت جوعاً وظمأ..

فقالت عيناها: انطلقنا في عرض العالم تبحث عني وابحث عنك وقد التقينا هنا بعد طول التشرد وفرط العياء... فلننصف الحياة ولنأخذ ملء اكفنا من زادها ولنعب حتى نرتوي من فيضها.. فان من العدل أن تنصب الجداول الصغيرة في انسجام واتساق في المحيط الأكبر وتمتزج في هذه الوحدة التي هي مظهر للوحدة الكبرى.. وما ذنبنا أن يعترض طريقنا من يحول دون وصولنا إلى غايتنا فننحيه فيشقى؟!

فأجابت عيناه في حيرة: ومتى استطاع آدم أن يعصي حواء؟

وزلت قدمها وسقطت وكادت تهوي لولا أنه تلقاها بسرعة غريبة حال دون أن ترتطم رأسها بصخرة هائلة تعترض الطريق. وراح يتمتم في اضطراب واشفاق «عفواً يا.. آ.. نسة.. فقالت في غيظ « : - لا أراك ستكف عن مناداتي بيا آنسة حتى في أحرج الظروف. ألا ترى أن الأولى بك أن تتدبر الأمر حتى تجد لنا وسيلة للهبوط إليهم لقد تأخرنا عنهم جداً.. وأنا كما ترى لا أستطيع الحراك أو الوقوف على قدمي»، وهذه دعوة صريحة.. وسيكون غبياً لو تجاهلها وصم أذنيه من دونها. فانحنى ورفعها على ساعديه وسار بها خطوات ثم كف عن السير. وظل واقفاً هنيهة يتأملها وهي على ساعديه.. فراعته أسارير وجهها تناديه من

الأعماق. وفي لحظة حاسمة أهوى بفمه على صفحة وجهها وغمرها بقبلات سريعة عصبية، نهمة، ثم دفن وجهه في شعرها الأسود وأخذ يستروح شذاه في نهم ثم التقت شفتاهما في قبلة مستغرقة.

قالت في نشوة طامية وهو ينحدر بها وهي إلى صدره: لقد قاومت يا خبيث ولكنك.. فقاطعها وهو يضمها ضماً عنيفاً: ولكني انهزمت.. يا.. حواء...

٢

كان كل شيء مهيئاً، فقد مد القوم خواناً حافلاً، تتخلل أطباق اللحوم المنوعة والشواء المغري، أكوُس النبيذ تنعش الصدر الصادي وتبعث النشوة في الروح وانصرف (امين) (وحياة) يوقدان ناراً من الغصون والأعواد اليابسة، وراح الطفلان (توتو) و(سرى) يلهوان ويعبثان ويطفران خفيفين في كروم الوادي لا تسعهما الدنيا لفرط النشاط والمراح. ولاح من بعيد (أكرم) و(ندى) يسيران بتؤدة كأن لا شيء هناك يحتثهما من طول انتظار القوم فقال الشيخ محنقاً:

ظننت والله أن قد هويا في احدى الحفر أو على احدى الصخور فتحطما... ولكن خاب الأمل.. فالتفتت إليه زوجته في غيظ وقالت كمن ينوي أن يثير شراً:

- كفانا الله شرك يا شيخ.. أما أمسكت لسانك عن هذا السفه؟ فاحتقن وجهه المتغضن المتهضم وهم أن يثور بها. ولكنه لمح ابنته والضيف يقتربان، فكبح نفسه وردها عن الاندفاع وقال مغمغماً:-

سترين يا امرأة.. ووالله لأؤدبنك

وأقبل الاثنان وتحركت شفاههما بكلام أرادا أن يكون اعتذاراً عن تأخرهما فاذا هو تبرير للتأخر.

قالت ندى: - كنت التمس الأواني هنا وها هنا.. فلا أجدها فاضطر إلى اللف والدوران في غرف البيت جميعاً..

وقال أكرم: وكنت أنا سبباً في التأخر أيضاً.. لغبائي، وجهلي إذ كنت اضطر ندى.. الآنسة ندى إلى التماس الآنية في غير نطاق وجودها، وقد ضاع الوقت في هذا.. فاغفروا لي هذا الـ..

فنفد صبر قاسم وصاح بهما: - لم يبق إلا أن نشكل محكمة وننظم قضية ضد كما ما رأيك يا سيدي الشيخ - والتفت إلى عبد الهادي افندي - إني أحكم عليهما بـ... بأن يأكلا حتى الاكتظاظ والتخمة.

وعلت الضحكات في أرجاء الوادي والتف الجميع حول الخوان يأكلون بشهية.. وتعمد أكرم أن يجلس بجانب ندى وتعمدت هي أن لا تنأى عنه..

* * *

قال قاسم، وقد عبثت أصابعه النهمة بالأطباق كلها وأخذت أحسن ما فيها وبعد أن جرع من النبيذ جرعة رويه:-

لو لم تكن لك سوى هذه الحسنة يا امرأة - موجهاً الكلام إلى زوجته - في طهي هذا الطعام وإنضاجه وتنويعه واعداده لكانت حسبك في اكتساب عطفي ورضاي و... فقاطعه والد زوجته في سخرية حادة.. -

وهل أنت أبقيت لنا شيئاً من هذا الطعام لنشاركك في الرضاء والعطف على زوجتك؟ أصدقني القول يا هذا، أأنت ترضى عن زوجك وتمحضها العطف والود أم.. أم معدتك؟.. وضحك القوم مرة أخرى حتى كادوا يشرقون. وتلاغطوا وأسر كل إلى رفيقه الجالس بجانبه كلاماً عن ظرف الشيخ وسرعة بديهته وكيف أن

النكتة حاضرة أبداً بين يديه. ولكن هذا كله لم يكن ليخجل قاسماً، وعلى أنه كان الهدف لسهم الشيخ ومدار النكتة والهزء فما ارتج عليه وما وقع في حيرة وما أخذ عليه الطريق، ولم يحبس لسانه عن الكلام بل قال لزوجته معرضاً بالشيخ:

هل توافقين أباك على هذا يا امرأة؟ أرأيت كيف يملأ فمه من زادي ويكظ معدته من انتاج تعبي وكدحي ثم.. ثم يسخر مني بمزاحه.. هذا كثير يا امرأة ويحز في النفس.. و.. و.. ولم يجد شيئاً آخر ليقوله.. فطوى راحتيه على زجاجة النبيذ ورفعها إلى فمه وراح يعب منها ويعب.. وأغرق القوم في الضحك ونهض الطفلان «توتو» و«سري» يضجان ويخرجان لسانهما لأبيهما ويدوران حوله. فما تحرك وما أعار كل هذا الضجيج التفاتاً وما ألقى إليه بالاً وكأن سواه المقصود به، وظل رافعاً رأسه وقد طوى شفتيه الغليظتين على فم الزجاجة يكرع ويكرع حتى ارتوى ونضب ما في الزجاجة فوضعه بتؤدة على الخوان وقال وهو يسترق أنفاسه استراقاً:-

أجل هذا جزاء الاحسان.

وكان أكرم وندى قد انتهزا فرصة انشغال القوم بالمزاح واللهو فتساقيا كؤوس الراح، فشرب من كأسها وشربت من كأسه، وقبل موضع شفتيها على الكأس وقبلت موضع شفتيه..

رفع الخوان وقام أمين وأخته حياة يعدان القهوة على نار الأعواد اليابسة ويجمعان عن الأشجار «حب قريش» ينضجانه في اللهب.

وتفرق القوم. فذهبت "دلال" وتبعها زوجها قاسم إلى ظل شجرة مديد وانطرحا هناك على الأعشاب النامية يتحدثان أو يتناجيان على الأصح - بصوت

خفيض لا يسمعه أحد ولم يهتم بهما - أو على الأصح - لم يرقبهما أحد سوى ندى. فقد أحست لذلك بغيرة خفية وتمنت لو أنها تستطيع أن تصفع أختها بقوة. وانسحب الشيخ بتثاقل يجر جسمه المتهدم جراً وتمدد بقرب زوجته الكهلة وجلست ندى وأسندت ظهرها إلى دوحة ضخمة عتيقة تشهد جذوعها وفروعها بأنها قاومت الأعاصير والزعازع وصمدت للرياح الهوج والعواصف المجنونة. وأخذت ندى كتاباً وفتحته وأجالت بصرها في صفحاته هنيهة فلم تقرأ شيئاً بل أحست أنها لا تفهم ما تقرأ فطرحت الكتاب جانباً بعصبيّة وحدة.. وكان أكرم لا ينفك يرقبها ويسعى بحذر إلى الاقتراب منها. وانطلق الطفلان «توتو» و«سري» يطفران في الوادي ويلاحقان الفراش، ثم بدا عليهما الكلال ففترت حركتهما وأخذا يدلفان نحو أبويهما ليرقدا بجانبيهما. وأديرت القهوة وفاحت رائحة البن ممزوجة برائحة «الحبهان» الزكية. وشرع القوم - وقد استووا في مجالسهم - يشربون القهوة في حسوات متمهلة ويدخنون في هدوء وصمت وذهول...

والوادي عميق عمقاً يستهو له القلب، وقاعه فسيح يضل فيه البصر وتزخر فيه الخضرة المريعة. وهنا وها هنا دوالي العنب مبعثرة ومثقلة بقطوف دانية ينعكس عليها نور الشمس فتشع وتضيء بين أوراقها يتخلل هذا كله شجر السرو الساهم الذاهب في السماء، وأدواح باسقة منيفة ذات أفياء وارقة.. ويمر بين حين وآخر طير شارد في عرض السماء يرف بجناحيه رفيفاً متداركاً سريعاً ثم يكف ويسبح في الفضاء فترة وجيزة ثم يعود جناحاه إلى الرفيف. وهكذا في تعاقب مستمر إلى أن يغيب عن النظر ويضيع في فجاج السماء.. والجبال العاتية الجبارة.. تبدو من بعيد كأنها ملفوفة في ما يشبه الضباب الأبدي، هاته الجبال انها هنا تحرس القرية منذ أجيال وأجيال...

والشمس تنحدر في موكب من نور أخذ يخبو ونار راح يخمد لظاها وتبترد وقدتها ونسمات ندية شاعت فيها رائحة أعشاب الوادي وخضرته، تهفو رفيقة

رقيقة على وجوه القوم.. وكانوا في حال من الحلم واليقظة.. هنا الشيخ الراقد بجانب زوجته الكهلة ولكنه لم ينم.. إنما هو يحلم.. حلماً.. من أحلام اليقظة.. انه يرى انساناً متهدماً.. مكدوداً.. متقوس الظهر كأن عبئاً خفياً يبهظه.. انه يسير بخطى وئيدة مترنحة حيرى.. وها هو يقترب من الهوة العميقة المظلمة التي لا قرار لها.. عما قريب ستبتلعه، وارتعش الشيخ وسرت في جسمه رعدة. هو يعرف هذا الانسان. يعرفه تماماً، فقد عاشره سبعين عاماً كاملة. لم يكن هكذا لا يقوى على السير، بل كان فتى في اهاب من الشباب الطرير. لقد كان وكان. ولكن ماذا هو الآن؟ لا شيء، لا شيء مطلقاً ذبالة تحترق ولا تلبث أن تفنى. واختلج الشيخ مرة أخرى وانثنى فكره إلى أفراد أسرته. ماذا؟. انهم بعيدون عنه. وهو بعيد عنهم. بعيد جداً، انه يعيش بينهم وكأنه واحد من أهل الكهف، له زمانه وعصره وعيشه. ولهم زمانهم وعصرهم الذي يعيشون فيه. أجل انه غريب. وقد آن أوان الرحيل.

وهنا زوجته "زهر" بجانبه.. انها تحلم أيضاً.. أحلام اليقظة كان أعذب أمانيها – في عنفوان شبابها – أن يكون لها زوج تحبه وأطفال تعبدهم.. ولقد تحقق كل هذا.. وهل هذا يعني أنها أدت دورها.. وانتهت؟! أوه! كلا.. ما زالت أماني الحياة تجيش في صدرها.. تريد أحفاداً يملأون دارها.. أحفاداً كثيرين.. ها ان بين يديها اثنين. ولكن أول الغيث رذاذ ثم ينهمر.. ولكن هل هذا كل شيء أيضاً؟ والتفت قلبها إلى زوجها الشيخ. مسكين انه ضعيف، ضعيف جداً. انها بدأت تكرهه. أدركت ذلك بغريزتها فقط. لم؟ لا تدري. لعلها ليست على حق في هذا الكره فهو لم يسيء إليها. وهو اليوم أشد ما يكون عطفاً عليها وحباً لها ولكن الكره بدأ على كل حال يدب في قلبها، ما أبعده اليوم عن قلبها، شيء يشبه الجوع والظمأ تئن له أحشاؤها. لقد كان هذا الشيخ يستطيع أن يشبع هذه الأحشاء النهمة ويروي ظمأها. أما الآن. فهو عاجز وما زال الظمأ يستعر ويطلب ريا. ولاح في بهرة خيالها طيف "قاسم" زوج ابنتها الكبرى. أنه شاب قوي.

تصرخ الرجولة في صفحة وجهه. وتنبعث من حركاته ولفتاته حيوية زاخرة متدفقة. ولكن هذا الرجل ليس لها. انه ملك لامرأة أخرى. وتحرك في قلبها شبه حقد على ابنتها. وأحست كأن نصلاً حاداً يمزق أحشاءها وجاشت في مآقيها الدموع الخرساء.

"دلال" هي الأخرى تحلم مفتوحة العينين. هناك عند جذع الشجرة، ها هي منطرحة على العشب في كلال وسأم. ان جسمها الذي كان ظمآن قد وجد من يعبده. انه رجل أحلامها. كانت تحلم به وهي بعد تلميذة تدلف إلى السابعة عشرة. كان طيفه لا يفارقها لحظة واحدة أثناء الدرس وفي الشارع. أجل في الشارع. في كل رجل كانت تراه وتدعوه. وفي غرفتها في فراشها فراش العذراء، هذا الفراش الذي تراه الآن بعيني خيالها. بسيط صغير الحجم، ضيق لا يتسع لغير جسم واحد. لقد كان كل شيء فيه أبيض ناصعاً. الأغطية. الوسائد. كل شيء كان بسيط النسيج لا وشي عليه ولا ترقيم. عقدة من الحرير الأزرق فقط. شد ما ضج هذا الفراش بأحلامها، أحلام العذراء. لقد كانت تتعمد أن تدخله نصف عارية. لم؟ لا تدري. إنما هو احساس. غامض مبهم. كان يدفعها إلى ذلك. وغرفتها، الغرفة الخضراء الصغيرة؟ وأثاثها القليل، دولاب ومرآة ورف صغير للكتب آه.. كادت تنسى أصابع (الأحمر) التي كانت تشتريها خفية ولا تستعملها إلا في نزهاتها مع صديقاتها اللواتي كن يتجملن مثلها. وعند عودتها إلى البيت تزيل عن شفتيها الدقيقتين كل أثر لهذا اللون الصارخ فتبدو أمام ذويها كملاك. وكتبها كتبها المختارة. كانت تخفيها هي الأخرى عن الأعين، كم شغفت بكتاب (رسائل إلى فرانسواز) لمارسيل بريفو، وكتابه الآخر (رسائل نساء) وشعر (بيير لويس) كانت تحبه وتحب ذلك الغموض الذي يشيع فيه، لأن كل لحن فيه وكل نغمة. كانت تهزها.. تهز أعصابها هزاً وتدعوها إلى عالم غريب زاخر تلتمع فيه ألوان شتى خاطفة وتشيع في أفقه عطور مسكرة. وتتدافع في أرجائه أجسام حارة ثائرة. تسعى إلى شيء مجهول. بعيد. ثم تتهافت

منهوكة متهالكة في شبه اغماء. وأشياء أخرى في ذلك العهد كانت تحيرها، فان نفراً من الشباب، ممن تربطهم بعائلتها وشيجة نسب أو سبب قرابة، كانوا يضايقونها بأشياء كثيرة بنظراتهم النهمة التي كانت تحدق في نواحي خاصة من جسمها وتطيل التحديق والتأمل. بأحاديثهم الجريئة، بفضولهم، أوه... لم تكن لتطيق هذا أو شيئاً منه. انها متأكدة. كانت تنفر منهم وتتحاشاهم أجل لم يخفق قلبها لأحدٍ منهم، لا ريب في هذا ومع ذلك فانها كانت تحب. من؟ لعله ذلك التلميذ الهزيل الحائر الذي كان يطالعها كل صباح من النافذة المقابلة لنافذة غرفتها بوجهه الشاحب وعينيه الغائرتين ككهفين.. كلا. على وجه التحقيق، شد ما كانت تكرهه وتسخر منه وتخرج له لسانها. لم تكن تحب شخصاً معيناً فان قلبها كان يهفو إلى كل بطل من أبطال السينما، كانت أبداً تتصور نفسها بين ذراعي واحد منهم يوسعها قبلات ثائرة مجنونة ثم تنفر من بين ذراعيه وتشرد ويظل يلاحقها ثم ينالهما الاعياء فيتهافتان معاً على اريكة في عناق مستغرق، وفجأة، أجل فجأة جاء هذا الرجل الغريب من مكان مجهول وانتزعها من بين هذا كله انتزاعاً لقد كان هذا في سرعة غريبة، فقد أصبحت زوجة وربة بيت، صحيح أنها تهيبت زوجها بادىء الأمر وعاشا فترة لا يتفاهمان وان هذا كان ينذر بشر ولكنها الفته والفها ثم تفاهما...

لقد هدأ أخيراً هذا البدن الفائر وأصبح له سيد. قوي مسيطر وهذان الطفلان (توتو) و(سري) هما ثمرة هذا الزواج الموفق.. وغمرت صدرها موجة من نعيم مباغت.. ثم تمطت وتثاءبت وأن شيء في احشائها... فالتفتت إلى زوجها أنها تشتهيه الآن. ولكن زوجها بجانبها نائم. وله غطيط. فأي اخفاق!

وندى. أين هي؟ انها ما تزال في جلستها مستندة إلى الدوحة العتيقة، وقد أتكأ أكرم بقربها. وهما يتحادثان

هي : - كان مرضك خطيراً، وكنا نخشى عليك.

هو : - أجل كان شبح الموت لا يفارقني لحظة..

هي : - ولكنك مع ذلك هزمته

هو : - الرغبة في الحياة. لا أكثر.

هي : - مسكين. لقد تألمت.

هو : - لا تكتمل الرجولة إلا حين يدهمها ألم كبير

هي : - لقد قرأت.

هو : - ماذا ؟

هي : - ما كتبته بعد مرضك

هو : - (ضاحكاً) من أطلعك عليه ؟

هي : - اني أتتبع ما تكتب منذ زمن طويل. لقد كان مقالك (الألم الكبير) خارجاً من الأعماق

هو : - انك تبالغين. وتبغين أن تحرجيني

هي : - وأحفظ منه على الخصوص قولك : أن سرير المرض قمة يشرف المريض منها على حقائق الحياة

هو : - هذا هذر. وكلام فارغ فلا تصدقي. ان زياراتك لي. وباقات الزهر الأنيقة التي كنت تحملينها إلي. ثم تضعينها برشاقة في الزهريات. وتلك الابتسامات المشرقة التي كنت تجودين بها علي هذا كل ما خرجت به من ذكريات مرضي.

هي : - ألا تذكر امتعاض زوجتك حين كانت تراني مقبلة وفي يدي تلك الباقات؟

هو : - زوجتي ؟! انها على الأقل ليست هنا.

وصمت - هو لا يكره زوجته ولكنه يظن أن لا سبيل إلى الاتفاق بينهما. لقد حاول جهده وهي حاولت أيضاً ولكنهما أخفقا. هو لا يستطيع أن يحدد تماماً لم لم يتفقا، وهي لا تستطيع ذلك أيضاً. لكن مما لا ريب فيه أنه يحس أن نفوراً

كامناً متأصلاً بين جسده وجسدها يباعد بينهما، انها حين تعاطيه القبلة يشعر تماماً كأنها تلقمه قطعة من الحلوى لتلهيه وتملأ فمه بها، وحين يأخذها بين ذراعيه ويدنيها من صدره الظمآن. ماذا؟ انها تصبح مجرد جثة فاترة لا تجيش فيها حياة ومنذ لحظة فقط كان هذا الجسم يحيا وكان حاراً. ومن ذا يظل يفتك الجو ... ي أحشائه وزاد الحياة أمامه لا يستطيع أن يمد إليه يداً؟ فهل هذا هو الذي دون أن يكونا سعيدين؟!

والتفت قلبه المحروم إلى (ندى) وصاح جسده: من الأعماق أناديك...
جاب جسدها: أنا لك...

وانهزم النهار وراحت الشمس تتوارى في كلال واعياء وراء الجبال الصامتة، وقد تركت أنفاسها الأخيرة في حواشي السماء جمراً ولظى فترة وجيزة ثم انتشرت الظلال وقد نهض أفراد الأسرة وراحوا يصعدون الجبل

همس قاسم في اذن ندى - اتفقنا غداً سأعد كل شيء ستكون غرفتي على رأس الجبل معبداً صغيراً لنا.

٣

قال : - لقد انتظرت.. وانتظرت.. واشتعلت النار في قلبي ولكنك جئت أخيراً..

قالت : - كادوا يحولون بيني وبينك.

قال : - كيف؟

قالت : - لم يكن يسيراً أن أقنعهم بأن أخرج وحدي. ولو للنزهة وترويح النفس. فقد أصروا وأصررت. وثرت بهم وأفهمتهم أني لست بعد طفلة يخشى عليها أن تضل الطريق..

وكانا على رأس الجبل والقرية تحتهما ساكنة هادئة مستسلمة. لا يعكر صفوها إلا سيارة تمر بين حين وآخر تحمل المصطافين. لحظة من الزمن. ثم يعود الهدوء شاملاً كما كان. وقد فرغ الفلاحون من أعمالهم في الأودية. يجمعون الأعناب والفاكهة ألواناً شتى ويعبئونها في سلال صغيرة. فيبيعون منها ما يبيعون للمصطافين ويأخذون منها حظاً لأنفسهم ويصدرون ما تبقى - وهو كثير - إلى المدن القريبة فإذا لهم من ورائها ربح الا يكن وفيراً فهو على الأقل يقيهم العوز والفاقة ويتيح لهم أن يعيشوا وادعين مطمئنين في كنف هذه الطبيعة المحسنة التي تنمي أجسامهم هكذا فارعة متينة الأسر شديدة المنة وتدفق في عروقهم دماً نقياً خالصاً، كانا على رأس الجبل ومن حولهما الجو ينبيء بأن ريحاً غريبة ستشتد بعد قليل وسيكون لها دوي وزئير.

وهذه هي بكل فتنتها وسحرها واقفة قبالته تعبث الريح بشعرها الفينان فتهدل خصلاً منه على صفحة وجهها الوضيء في فوضى آسرة، وانه ليحدق بها وان شفتيه لترتعشان وتتمتمان صلاة.. الثمرة ناضجة مغرية. وتنبىء بأن رحيقها سيكون ثراً، حلواً، مسكراً، لن يحول شيء دون ذلك.

قال وهو يأخذ صفحة وجهها بين راحتيه ويثيرها بقبل خفيفة مختلسة على خديها:

«لقد عنيت باعداد عشنا. عش غرامنا. ما وسعني ذلك في هذا المصيف النائي وما تهيأت لي أسبابه ألا ترين أن نلجأ إليه؟»

وهي تسمع كلامه كأنها في حلم. كيف لم تفكر في ذلك قبل. كيف؟ لم لم تشعر بهذا إلا في هذه اللحظة؟ هناك هاتف يهمس من بعيد. من الأعماق القصية، يقول لها انظري.. انك على وشك أن تهتكي بيديك هاتين حجاباً يقيك السوء..

قالت العزيزة بحدة وعنف: «لن أظل في ظمأ إلى الأبد. اني أريد رياً. لن أنثني ولن أرتد..»

قال الهاتف البعيد في خضوع: قد تسقطين! قالت العزيزة في اصرار: لن أموت جوعاً والمائدة ممدودة والزاد وفير..

وارتعش جسمها. وغمرتها موجة من نور. فتألق محياها وضحكت أساريره واختلجت شفتاها هنيهة ثم مالت على صاحبها وفي عينيها اشعاع خاطف وقالت في نشوة.

امض بنا إلى عشنا. إلى عش غرامنا..

* * *

الطريق كما ترين غير مستوية وهي ذات التواءات تصعد حيناً وتنحدر حيناً آخر. وستزداد التواء وتعقيداً كلما أوغلنا في قلب هذه الغابة. ويحسن يا صديقتي أن تحني رأسك قليلاً فإن هذه الفروع والغصون المتشابكة المعقدة هي الأخرى لا ترحم. وسواء عندها أكان الرأس الذي تصدمه وتشجه رأساً ضخماً غليظاً صلباً أو.. رأس أميرة معبودة..

قالت في ضحكة مكتومة وهي تحني رأسها قليلاً وتنحي بيديها الأغصان الصغيرة التي تعترضها وتتلمس الطريق بتؤدة وحذر: - ما كنت أحسبك تؤثر هذا الغار الصامت المهول على النواحي الدمثة التي لا ترهق ولا تقصم الظهور..

قال في غموض : - أنا..؟ اني هكذا خلقت.. اعني اني هكذا أبداً أبغي ما يشق على الناس وأطلب ما يضيقون به وأسعى إلى ما يجدون فيه حرجاً وعسراً. قد لا يكون هذا مزية أو فضيلة. ولكنه مزاجي.. ولست أضيق به. ولا يشق على

أن أكون غير الناس، ما علينا.. أليس آمن لنا أن نخلو بنفسنا على هذه الربوة في عش مجهول كهذه الطير التي ترين وادعى إلى أن تكون فترة متاعنا ونعيمنا بين يدي هذه الطبيعة أحفل وأملأ. وأن يكون تذوقنا لهذا النعيم أتم وأكمل وأعمق وقعاً وأبقى أثراً؟

فقالت في سذاجة نقية كطفل: - ما كنت أعرف أن في الحياة كل هذه السعادة الغامرة، وما كنت أحسب اني سأجد مثل هذا النعيم

وكانا قد انتهيا إلى فناء البيت في آخر الغابة، وهو يقوم هناك كواحة ظليلة في صحراء تائهة محرقة. يجد المجهد المكدود في كنفها راحة ونعمة بعد شديد عياء وطول برح. ولحظ أكرم أن صاحبته قد نالها شيء من الاعياء فهي غير خفيفة الخطوات، وفي حركتها بعض الفتور والتراخي.. وفي تنفسها ضيق وصعوبة.. وآية هذا انها تتنفس بسرعة.. وصدرها يعلو وينخفض بعصبية ظاهرة.. وفي عينيها ما يشبه الحيرة، ليس اذن تعباً ما بها..

وفي التماعة ذهنية سريعة فهم أكرم سبب هذا الفتور الفجائي وهذا التردد المبهم. وهذا الذي يبدو عليها من اعياء وفقدان القوى، ورأى أن خير ما يفعله وهي تترجح بين الإقدام والاحجام، أن يخطو بها هذه الخطوة الباقية التي تباعد بينهما والتي ما زالت على قربها ويسرها أقوى حائل دونهما.. ولكن كيف؟! بسرعة، يجب أن يفاجأها.. أن يذهلها، أن يغمرها بألوان متراكمة، صارخة، تخنق هذا الهامس الذي يكاد يفسد كل شيء. لا يجب أن يدع لها وقتاً للتفكير والا ضاعت الفرصة وأفلتت من بين يديه إلى الأبد..

«عُشّنا ينتظرنا يا صديقتي. وقد بدا عليه الملال لفرط الانتظار.. لقد أعد لنا في أرجائه لذة ومتاعاً وحياة مفعمة» ولف خصرها بساعده وخطا بها خطوات سريعة واقتحم الباب اقتحاماً. فإذا هما في قاعة غير فسيحة ينهزم فيها النور

بتؤدة وصمت. وهنا وها هنا أصص الزهر تشيع في الجو شذى فياحاً يعبق في الصدر ويملأ الرئتين وهنا وهناك مقاعد قليلة من «القصب» ومناضد صغيرة. ولا شيء غير هذا إلا السكون الجاثم والحلم الدائم.

قالت في حيرة : - أين ؟ ولم تزد..

فقال في قوة وحزم: - من هنا.. أعني هذا الباب. وخطا نحو أحد البابين على جانبي القاعة، ونحى بيديه الستائر الحريرية وقال مرة أخرى في ارادة: من هنا.. وتقدمت «ندى» في وجل موزعة الارادة بين غريزة جائعة ملحة وبين هاتف بعيد يحاول أن يكبح الغريزة ويثنيها ويردها عما تريد. وإذا هي في لحظة حاسمة تندفع إلى الغرفة المجهولة كمذعورة قد حطت عن كاهلها عبئاً يعوقها ويوقر ظهرها. وقفت هنيهة مبهوتة تحاول عبثاً أن تملك روعها وترد قلبها الذي يكاد يثب من صدرها ليفيض ويملأ الدنيا بجيشانه وطميه. وراحت تجيل في الغرفة نظرات حائرة قلقة... وكل شيء فيها يثير الأحلام الراقدة البعيدة.. وكل شيء فيها أعد لرجل وامرأة. كان.. السرير أول ما وقع بصرها عليه. عريض، فسيح، كل ما فيه من وسائد لينة وفراش وثير وأغطية هادئة اللون كأنها سحب رقيقة تجلله وتضفي عليه لوناً من الحنان المستسلم في رفق ودعة وحلم، كل هذا يجيش صدرها ويلهب دماءها، ومن حول السرير وفي أركان الغرفة منبثة الأرائك اللينة الطرية. ونمارق رخصة مبرقشة ملقاة هنا وهناك، ومنضدة صغيرة عليها زجاجة خمر وكأسان، وغلائل الورد منثورة على البساط والأرائك وعطر فائح ينبعث في جو الغرفة وينساب في هدوء ورفق إلى الصدور يخدر الأعصاب.. والشمس المنهزمة تنسل أشعتها الواهنة من خلال الستائر الحريرية المسدلة والظلال تزداد كثافة

شردت «ندى» حيال هذا كله. ثم التفتت إلى أكرم. وندت عن صدرها تنهدة خافتة وقالت وعلى شفتيها طيف ابتسامة: - أهي غرفة عرس؟.

فقال في نشوة زاخرة: - ولن يحتفل بهذا العرس أحد سوانا.. وتقدم إليها وفي عينيه وميض الرغبة والاصرار العنيد وقال: - دعيني أساعدك في نضو هذه الملاءة، فانها تربكك وتخفي محاسن جسمك. وأجابته إلى ما يريد في اذعان وتسليم. وقف أكرم يتأملها كعابد مؤمن. وقد نضت ملاءتها، في ثوبها الحريري الأزرق المنسجم وبان ذراعاها يصرخان بنداء البدن وأريق على صفحة وجهها لا أدري أي أضواء مشوشة فاتنة. وانتابت شفتيها اختلاجات سريعة مطردة منهومة، لم يقو أكرم على احتمال كل هذه الفتنة المميتة. فقد اكتسحته أنوثتها اكتساحاً فاندفع نحوها وأخذ ذراعها وأهوى عليها بشفتيه الملتهبتين وظل كذلك مغمضاً عينيه، يشتف اللذة اشتفافاً كمن يشرب كأس خمر، هنيهة غاب فيها دنياه ثم فتح عينيه كمن يستيقظ من نوم عميق وأراد أن يرفع رأسه فإذا هي الأخرى كمن أخذتها نشوة مفاجئة فقد حنت على رأسه برفق تقبله بحنان حالم، وتمر بأناملها على عنقه وخديه بتؤدة ورقة وقد سبحت في عينيها الواسعتين سحابة رقيقة من الدموع..

ولم يستطع في هذه اللحظة الزاخرة أن يقول شيئاً غير هذه الكلمة الأبدية: «أحبك» قالها في همس عميق مؤمن كأنه يردد صلاة في تضرع وخشوع. أي سحر في كلمة الحب هذه وأي عمق وأي اجلال! كان يحسبها مبتذلة سخيفة ولكنها الآن على شفتيه وقد ندت عن قلبه الزخار ما أعذبها وما أروع جدتها وما أفتن وقعها في لفائف القلب. وعرته فجأة اختلاجة ومال على صاحبته وقال كالملهوف: - ندى.. اني أخشى كل هذا النعيم.. فقالت في ابتسامة غامضة: اني أحق منك في أن أخشاه وأستريب في ما يخبيء لنا في حواشيه وثناياه، وأراد أن يقول شيئاً.. ولكن ذهنه انثنى إلى الفكرة الثابتة.. ولاح في خياله البدن كأفتن ما يكون.. البدن العاري.. تنبعث منه رغبات ظامئة.. وأحس بالجوع ينهش أمعاءه ويكاد يمزقها.. وعادت دماؤه تجيش في عروقه ملتهبة مندفعة تصعد إلى رأسه وتخبله. فالتفت إلى صاحبته كحيوان جائع وقد اتسعت حدقات

عينيه وقوي تنفسه وشاعت في أنفه رائحة واحدة، رائحة المرأة.. وقال كذئب يعوي: تعالي، كلام فارغ.. لا يجب أن نخشى شيئاً.. تعالي وأخذها بين ذراعيه وعصرها على صدره بقوة عاتية.. وراح يهوي بالقبل على وجهها وفمها وعينيها كمجنون.. وكان يستمرىء القبل ويحس لها بنكهة لذيذة مسكرة ثم حملها إلى اريكة عند المنضدة الصغيرة.. وأخذ زجاجة الخمر وصب في الكأسين وناولها أحدهما وأخذ الآخر وقال في جنون:

«هيا.. فلنشرب نخب.. نخب.. - وبدرت منه التفاتة نحو السرير الكبير - فلنشرب نخب السرير.. » وانطلقت من صدره ضحكة فاجرة في قهقهة متقطعة ثم أفرغ الكأس في جوفه..

والظلام ينتشر بتؤدة ورهبة وأشجار الغابة صامتة.. كأنها هي تستجم بعد عراكها الطويل مع العاصفة، والسماء كابية لا يومض في فجاجها نجم.. والقرية في سفح الجبل نائمة نومها العميق المطمئن والغرفة تتكاثف فيها الظلال وتشتد حلوكة الظلام، وليس يسمع فيها غير همهمة واضحة آنا وغامضة مبهمة آناً آخر. ثم همسات خافتة:

«أنت لي ولن تكون لسواي.. » ثم عربدة مضطربة.. ثم كلام غير واضح.

أنا سيدك.. أنا سيد هذا البدن..

ثم حركة واضطراب يشبهان العنف، ثم كلمات متقطعة كأنما هي تعقيب على كلام سابق:-

ولكني مع ذلك عبدك.. عبد هذا البدن..

ثم لا شيء على الاطلاق، لا شيء غير أنفاس سريعة مضطربة..

٤

من مذكرات أكرم

١٥ سبتمبر ١٩٣٠

استفقت هذا الصباح وقد شاع الضعف في جسمي كله. فقد قضيت الليل ساهراً ضائع الرشد، مخبولاً. ما أن يأخذ الكرى بمعاقد أجفاني هنيهة حتى يعاودني الأرق والسهد فاستوي على فراشي مذعوراً أحاول عبثاً أن أثني فكري عن حوادث هذه الليلة وأرده عن هذا الاضطراب الذي يستبد بي ويرهقني ويأبى إلا أن يغمر ذهني بهاته الصور المشوشة المضنية.. إني أعتبر هذه الميل حداً فاصلاً في حياتي، لا أدري كيف اعترضت «ندى» سبيلي.. لا أدري كيف التفت بدني إليها.. كل ما أدريه اني كنت أشعر بفراغ هائل في حياتي، كان شيء كالجوع والظمأ يفتك بي ويخبلني ويدفعني في ثورة مجتاحة إلى التماس المرأة.. أو على الأصح التماس «البدن» لقد كانت المرأة بجانبي وهي زوجتي.. مسكينة! ولكن البدن الذي كنت أحن إليه، البدن الذي يشبعني ويروي ظمأي ويلهب دمائي.. كنت أفتقده في زوجتي.. ولقد وجدت هذا كله في هذه العذراء المسكينة «ندى» كان يلوح لي أنها هي الأخرى تطلب الرجل، الرجل الذي يستطيع بقوته ورجولته أن يملأ راحتيها بزاد الحياة. لقد اندفعنا كلانا إلى المجهول بقوة خارقة مستبدة.. لم يكن هناك سوى رجل وامرأة ولم يكن هناك سوى رغبة ملحة عاتية.. هي اشباع البدن.. اكتسحت في سبيلها الفضائل جميعاً في جبروت وطغيان.. واحتوتنا غرفة واحدة وضمنا سريرٌ واحد. ولأول مرة في حياتي أحسست بحيوية البدن المحموم الذي يتأهب للانفجار وينذران الانبجاس سيكون غامراً مدمراً و.. عندما رفعت الكأس إلى شفتي وأردت أن أعب وأعب إذ فجأة ينبثق في الظلام الرهيب الذي يحيط بي ضوء صارخ، وإذا بي أنحي الثمرة عن شفتي في جهاد مميت وصراع فاجع.. انها عذراء و.. يجب أن تظل عذراء

تركت.. السرير كمجنون.. وقبعت هي في ركن من الغرفة تئن أنيناً ممزقاً في حشرجات متقطعة أليمة..

٢٠ سبتمبر ١٩٣٠

كانت شاحبة اللون.. هزيلة.. ذابلة العود.. غاض الاشراق الذي كان يشيع في محياها نضرة الحياة.. حزينة في كآبة مرة. نظرت إلي طويلاً واختلجت جفونها وكادت دموعها تنفجر لولا أنها تداركت الأمر والتفتت إلى الراقصين من المصطافين ينسابون في رشاقة وخفة على أنغام التانجو، يغمرهم موج من نور مختلف الألوان، وخيل لي أن هذا النعيم الدافق الذي يبرق على شفاه الراقصين في ابتسامات رقيقة عذبة وتفيض به انثناءاتهم الرشيقة.. وهاته الموسيقى التي تملأ أرجاء القاعة فرحاً ونشوة، خيل إلي أن هذا كله يسخر بنا في حقد وشماتة.. فلم أطق المكث في هذا الجو المتناقض، فنهضت واستأذنت أهلها ومضيت.

٢٩ سبتمبر ١٩٣٠

عادت الحمى.. حمى البدن.. تعصف بي عصفاً، لجأت إلى الصلاة أدعو الله من أعماق روحي أن ينقذني من هذا العذاب وأن يمدني بقوة من عنده.. ولكنها كانت فترة قصيرة، إذ استفاق الحيوان المفترس الذي يقبع في أعماقي يثيرني ويطوح بي.. انها تملأ حسي وتغمر خيالي بصور فاتنة خلابة. أرى البدن في أبعد أغوار نفسي يفتن في تعذيبي وإيلامي وإلهاب دمي. اني بعد أن عرفت هذا البدن وامتلأت عيناي بمفاتنه وأحسست بناره اللافحة في صدري غدا حنيني إليه أشد وأقوى واستشرى الجوع الذي ينهشني ويفتك بي، لا بد لا بد من أن أعود إليها.. ذليلاً.

لا شك في أنها تتألم هي الأخرى وتذوب..

١٥ اكتوبر ١٩٣٠

كل شيء في هذه القرية السعيدة - رام الله - أخذت تشيع فيه مسحة من الكآبة الخرساء. رائحة الخريف الحزين تفوح وتملأ الأرجاء والنفوس ضيقاً وكآبة الريح تئن وتتناوح، والأشجار تتعرى من أوراقها في استسلام وخضوع، والغيوم الدكناء تتجمع في عرض السماء وتحجب الشمس ثم تتداح عنها وتذهب سابحة في هذه الفجاجة المهولة.. والمصطافون يعودون لاستئناف حياتهم في المدن بآمال جديدة ونفوس متفتحة للحياة، وأنا وحدي في صدري كل ما يحمل هذا الخريف من كآبة وحزن. وتمر في ذهني ذكرى الأيام الأخيرة. فقد قضيناها - أنا وهي - في جحيم من الألم، نمثل كل يوم مأساة الليلة الأولى أو مهزلتها، لا أدري، حتى تمزقت أعصابنا.. ولم ينقذنا من هذا الجحيم إلا الرجل الذي جاء من مكان مجهول يطلب يد «ندى» إلى أهلها، وهو شاب في نحو الثلاثين بادي القوة منيف الجسم. ورأيت أن خير ما أفعله هو أن لا أظهر أمامها في هذا الظرف الدقيق.. وقد تم كل شيء - لا أدري كيف - وعادت الأسرة إلى المدينة لتتأهب للعرس..

٢٠ فبراير سنة ١٩٣٠

في المدينة استطعت أن أشبع رغبات البدن. والميدان هنا واسع الرحاب، الفارس المحنك يستطيع أن يغترف بالراحتين.

وقد تهيبت هذا الميدان بادىء الأمر وخشيته، ولكن ما ان خطوت فيه كنت من مداخله ومخارجه حتى ألفته وأحببته ورحت أفتن كل يوم في اكتشاف جديدة فيه. وقد مددت يدي إلى موائد كثيرة وأكلت من زاد غيري حتى ت ولم تعد لي رغبة إلا في مائدة واحدة، انها غنية حافلة هذه المائدة، وهي غير شحيحة ولا مقترة، وتقدم لي كل يوم ألواناً جديدة مدهشة...

بيني وبين هذا البدن تجاوب عميق. وكأنما هو أعد لي وكان ينتظرني من أمد بعيد. وكلما حاول الضمير أن يهمس في روحي خنقه دوي بدن حوائي الجديدة وصعقه وأغرقه في طميه وتدفقه.

١٧ ابريل سنة ١٩٣٠

رأيتها الليلة. عذرائي القديمة.. ندى. في حفل عائلي. وقد جاشت بي الذكرى واغتنمت فرصة اختلائي بها برهة فهمست في أذنها بذكري الماضي وسألتها عن زوجها، فارتدت عني وهي تضحك ضحكاً عريضاً يهتز له صدرها. لقد شبعت يا مسكين والذكرى باهتة.. باهتة في نفسي.. وأعطتني ظهرها في سخرية لاذعة ومضت وهي تقول في همس: لقد وقعت إلي أخبارك يا سيد أكرم. لا يغرين عن بالك أن تملأ دائماً راحتيك وتعب حتى ترتوي، وأرسلتها ضحكة عالية ساخرة..

٨ يونيو سنة ١٩٣٠

كنت الليلة أنا وزوجتي في غرفة مكتبي، أنا أعمل هادئاً في بحوثي الفكرية التي يزعم النقاد أنها تحمل في المدة الأخيرة طابعاً واضحاً من الاتزان والعمق، وزوجتي تشغل نفسها فيما لا أدري من شؤونها الخاصة. وقد التقت عيوننا مرات في هذه الأثناء، ها أنا أسجل هنا ما خيل إلي انني فهمته من نظراتها وما أجبتها عليه:

عيناها: أعرف كل شيء.. هنيئاً لك ما أنت فيه.

عيناي: لك الشكر، أرجو أن تكون الحياة قد أنصفتك وأرشدتك إلى الرجل الذي أعدته لك..

عيناها: هو ذاك واني لسعيدة

عيناي: لقد عشنا حيناً من الزمن أشقياء، ولكن وجد كل منا سبيله أخيراً..

عيناها: ألا يحسن أن ننفصل لنستكمل حريتنا؟

عيناي: أليس كذلك؟

عيناها: هوذاك.

صراع

أطرق صاحبي قليلاً وبدت على ملامحه امارات التفكير فعل من يكد ذهنه ليتذكر حادثاً بعيداً غام النسيان على تفاصيله.. ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة مبهمة وقال يحدثني حديثه الغريب:

سم ما سأقصه عليك حكاية أو قصة أو حديث خرافة أو ما تشاء من هذه الأسماء المختلفة المتباينة.. ولكن كن واثقاً من أن حديثي حديث صدق وقد وقع بتفاصيله الدقيقة لا ريب البتة في ذلك... وقد شهدت كل ما حصل وتتبعته حتى النهاية أو ما اعتبره النهاية لأن الحادث انقطع بصورة غريبة مدهشة. ولعل أغرب ما في الأمر أن ما بين ابتداء الحادث وانتهائه على الصورة التي ذكرت سنوات ثلاثاً طويلة كانت تفاصيل الحادث تقع خلالها ببطء وعلى شكل شاذ.. أعني أن النتائج لم تكن لتتفق وطبيعة المقدمات. أي أنها كانت تجيء دائماً عكسية مباغتة..

* * *

لعلك تعتقد مثلي أن لبعض الأماكن تأثيراً علينا وسلطاناً خفيا كما لبعض الأشخاص أو العادات المتحكمة المستبدة. أجل كأن لهذه الأماكن روحاً مستتراً مبهماً يسيطر على ارادتنا ويجتذبنا إليه دون وعي أو ارادة. وأريد أن أكون واضحاً فأقول أنك قد تترك بيتك وتقصد مكاناً معيناً تحب أن تمضي فيه شطراً

من فراغك فإذا بالرغم منك تتجه بك قدماك إلى مكان آخر كنت تحسب نفسك مللته لكثرة ما أويت إليه..

لعلك تريد أن تقول أن ليس في هذا كله شيء من الغموض والابهام وأن المسألة لا تعدو أن تكون عادة.. أو أن هناك ألواناً معينة تحبب إليك هذا المكان حتى لتفضله على غيره وتنساق إليه دون وعي. ولكن اسمح لي أن أرفض هذا الرأي فاني أكاد أؤمن أن للأماكن بل أن للألوان والأنغام.. روحاً كما قلت لك.. روحاً قوياً غلاباً كما لبعض الأشخاص...

* * *

أنت تعرف كيف يمضي معظم الموظفين عندنا أوقات فراغهم. حياة مشابهة مملة ما بين المكتب والبيت والمقهى!

وأنا من هؤلاء الموظفين الذين لا يعرفون كيف يصرفون أوقات فراغهم في غير لعب «النرد» والتحدث في الترقيات والعلاوات - وكنت أحب أن آوي إلى هذا المقهى الصغير الواقع في نهاية شارع (جمال باشا) والمشرف على حي (النزهة). ليس في المقهى شيء معين يغريني إذا استثنيت وجود بعض الموظفين وتلك الحديقة الصغيرة المتواضعة وهذا الهدوء المبهم يخيم في أرجاء المقهى وبعض مدمني الخمر من غير المعربدين الصاخبين.. ولم يكن حتى منظر الشارع الطويل - الذي يقوم المقهى في نهايته - بما فيه من أدواح باسقة وأفياء مديدة...... ليغريني على الجلوس في ذلك المقهى... إنما شيء حائر خفي كان يحببه إلي رغم مظهره المتواضع وبعده عن قلب المدينة الصاخبة.. كنت أشعر أن هناك اتصالاً مبهماً بيني وبين هذا المقهى يزهدني في كثير من ألوان الترف التي تعج بها مقاهي البلد الفخمة...

أرجوك أن لا تقاطعني فان تأثير الأمكنة أمر ثانوي في قصتنا وحين أخبرك عنه إنما أريد أن ألفت نظرك إلى ما يتصل منه ببطل القصة وقد جاء عرضاً ما ذكرته عن ايثاري للمقهى دون سواه.

كان ممن ألفت رؤيتهم هناك رجل مديد العود عريض المنكبين في تثاقل وتراخ.. نحاسي اللون في نظراته ابتسام ومرح يحمل صندوقاً صغيراً ويمر بالزبائن جميعاً من آن لآخر وهو يسأل كلاً منهم بابتسام (أمسح يا بيه؟) فمنهم من يجيبه إلى طلبه دون اكتراث ومنهم من يرده رداً جميلاً... وكان يخيل إلي أنه راض بحاله وبما يأتيه من كسب ضئيل..

ولا أدري كيف أحتك بي وكيف ألفته ورحت أوثره بتنظيف حذائي دون سواه، ربما كان ذلك لأني أميل بطبعي إلى النكتة المصرية. وكان هو بارعاً فيها. وكان حديثي معه لا يتعدى حدود هذه الفكاهة البريئة. غير أنه فاجأني في أحد الأيام بسؤال غريب انكشف لي بعده كثير من أسرار حياته وعدد المهن التي يمتهنها. قال لي بعد تفكير قصير: (والنبي تقوللي يا بيه. سعادتك متجوز واللا لا.) ودهشت حقاً لهذا السؤال. ولحظ علي امتعاضي وشعر أنه أساء إلي فأردف مبتسماً بخبث: «ما فيش حاجة إن كان البيه ما بيحبش يقول لكن كنت بفكر حاجة قوي لسعادة البيه بس. بس. لو ما كنش متجوز» ولست متزوجاً يا صاحبي كما تعلم، وأنا أعتقد أن الزواج كارثة، كارثة كبيرة تقع في حياة الإنسان بمحض ارادته. هذا رأيي. ما علينا، فإن دافعاً من الفضول وعبث الشباب واستهتاره جعلني أندفع مع أحمد المصري، وهذا اسمه، وكان هو ذكياً يعرف كيف يرضي زبائنه.. ولا أطيل عليك فاني وثقت به وكنت، كلما عاودني شيطان العبث والمجون الآثم أعتمد عليه، وكان ان نشأ بيني وبينه لون من الألفة الوثيقة كانت تدفعه لأن يفضي إلي بأسرار حياته وهجسات نفسه... فعلمت أنه يشتغل أيضاً مع عصابة قوية من مهربي المخدرات متصلة بعصابة قوية مثلها

في القاهرة وأن هذه العصابة تعتمد عليه كثيراً.. وانه يضطر في كثير من الأحيان أن يرتكب جرائم فظيعة قد يستنكرها هو إذا خلا بنفسه ولكنه على كل حال مضطر.. مضطر بحكم مهنته «لكن والله يا بيه أنا برضُه راجل طيب وما أحبش الحاجات الوسخة دي ولي ضمير.. بيوبخني لكن ما أقدرشي.. انت فاهم يا بيه ما اقدرشي أبداً. دول يقتلوني إذا خالفتهم» ثم يتجهم وجهه بعد هذا الكلام وتربد أساريره ويحمل صندوقه وهو ينظر إلى الأفق البعيد ويقول بخفوت «اهي برضه العيشة محمولة، على كل حال. سعيدة يا بيه، ما تنساش اني في خدمتك دائماً...،» ثم ينصرف ليؤدي عمله كماسح أحذية.

ومرت الأيام ثقيلة متباطئة لا تحمل في ثناياها جديداً. وكان أحمد المصري يواظب دائماً على خدمتي إلى أن كان عصر أحد الأيام بينا أحمد ينظف حذائي وأنا أقرأ أخبار اليوم في احدى الجرائد واختلس النظر إليه فإذا هو على غير عادته. مكتئب، صامت، في عينيه شرود وفي حركاته فتور.. دهشت ولم أشأ أن أسأله عما به ليقيني أنه لا بد أن يطلعني على ما يدور في نفسه وبعد برهة قال وفي صوته رنة حزينة «تعرف يا بيه صحيح الدنيا دي ما فيهاش خير.. بس الواحد يعمل ايه.. يقتل نفسه وخلاص. أنا لازم أموت نفسي...»

يحب امرأة من هاته النسوة الغامضات ذوات التاريخ الحافل قال أنها جميلة وإنه عاش واياها سنة كاملة حافلة «أنا والله كنت أحس نفسي في جنة.. وما اعرفش ازاي تركتني وهربت، ضحكت علي يا بيه وراحت تعيش مع راجل ثاني. دي كانت بتقول انها بتحبني وانها بتفضل تموت تحت رجلي ولا تعرف راجل غيري.. وآهي عملتها بنت الكلب.. ويمكن بتقول للراجل الآخر الكلام اللي كانت بتقوله لي»

غاب أحمد المصري عن المقهى عشرين يوماً جاءني بعدها بحديث غريب. قال إن الرجل الذي تعيش عنده بشقته قد أذلها كثيراً وهو يشتغل اليوم عليها

وأنه ذهب هو بدافع الانتقام ليقضي لبانته عندها ثم يقتلها بخنجر أخذه معه لهذه الغاية. «لكن ما تقدرش تتصور يا بيه. لما دخلت علي البنت دي في غرفتها حسيت رجلي جمدت. والحب اللي كان ملان قلبي به واللي جعلني أحتم على قتلها، الحب ده يا بيه راح. ووقفت قدامها لا أنا بحبها ولا بكرهها. وشعرت أن البنت دي تنقصها حاجة.. علشان تكون جميلة ومحبوبة، يعني يا بيه ما اقدرتش أتصور اني بحبها إلا إذا كانت في بيتي... في فراشها هناك... ما أكذبش عليك لو قلت لك يا بيه أن سر حبي للبنت دي هو في بيتي أنا... ويمكن تعدني مجنون لو قلت لك أن لبيتي ده روح يستحيل أحب البنت دي بدونها.. رجعت يا بيه بعدما كنت عاوز أنتقم منها وأنا أحس أنها بعيدة، بعيدة.. عن قلبي..

لكن برضه لما أكون في بيتي يرجع حبي لها ثاني... وأروح أكلم حاجاتها السرير.. المرايا.. كل حاجة يا بيه..»

ومرت أيام كنت لا أرى فيها أحمد المصري إلا مطرقاً في صمت وذهول يحمل صندوقه ثم يدور على زبائن المقهى في خمول ويأس يستجديهم استجداء.

ساءت حاله وأصبح يهمل ملابسه فتراكمت عليها الأوساخ.. وهزل جسمه وكان يطل من عينيه ما يشبه الغباء.

وعبثاً حاولت بعد ذلك أن أظفر منه بحديث فقد أمسك عن الكلام إلا بضع كلمات كان يناجي بها نفسه من آن لآخر. «الدنيا دي ما فيهاش خير، دنيا غدارة ملعونة.».

وأقبل موسم الحج وكان المزمعون على السفر يخرجون من بيوتهم في حفل حافل من أعلام كبيرة مبرقشة وطبول وموسيقى وزغاريد وقد ارتدوا ملابس

بيضاء وأحاط بهم ذووهم من زوجات وأولاد وأحفاد.. تخترق هذه المواكب أسواق البلد والطبول تدوي والموسيقى البلدي تضج والنسوة يزغردن في نشوة وهذيان والاعلام الكبيرة تخفق فوق رؤوس الجميع.. إلى أن يبلغوا المحطة.

وكان مما استرعى انتباهنا وأثار دهشتنا أن أحمد المصري كان كلما لمح موكباً من هذه المواكب آتياً من بعيد يعدو بقوة حتى ينضم إليه ويسير مع جمهور المودعين حتى المحطة.. ثم يرجع منهوك القوى محمر العينين لشدة ما بكى، وتكرر منه هذا العمل مراراً كثيرة.

ولشد ما كانت دهشتي حين جاءني ذات يوم وقد زال عنه بعض خموله وغبائه وأسر إلي بخفوت وهمس «خلاص يا بيه أنا عاوز أحج. ربنا هداني وعيشة البهايم اللي أنا عايشها لغاية دي الوقت عاوز أتخلص منها.. مين يعلم.. يمكن ربنا يغفر لي.. معايا فلوس تكفيني أحج وأرجع تاني..».

تطورت حياته بعد الحج تطوراً كبيراً. فقد أرخى لحية كثيفة سوداء ووضع على رأسه عمامة بيضاء وارتدى أيضاً الملابس البيضاء فوقها جبة خضراء وحمل سبحة طويلة.. وانضم إلى المشايخ وأصحاب الطرق والزوايا وأصبحنا نراه في حفلات المولد والذكر يدق الصاجات بحماس وقوة إيمان! كان هذا التطور في حياة الحاج أحمد المصري مثار دهشتنا. وكنا نشك في كل هذه المظاهر التي اتخذها لنفسه وان كنا نرجو أن يكون صادق السريرة.

مضى على ذلك نحو الستة الأشهر نسيت خلالها أحمد أو على الأصح الحاج أحمد المصري. وكانت أخباره لا تقع إلي إلا عرضاً فإذا هو ما يزال شيخاً معمماً مواظباً على العيش مع الدراويش والمشايخ أصحاب الطرق.

ولكن يا صاحبي عاد الحاج إلى صندوقه القديم فجأة ورجع إلى المقهى

المألوف بشكل يثير الضحك فقد احتفظ بالعمامة على رأسه ولم يمسس لحيته السوداء بسوء وما دون ذلك فقد تغير. وجعل يدور كعادته على الزبائن وقد نشط للشغل وعاد إليه مرحه. وحدثني عن سر هذا الانقلاب «والله يا بيه دانا كنت تبت تمام وكنت عايش عيشة شريفة والناس يحترموني لكن ما اعرفش جرى ايه لما ربنا حط البت اللي كنت أحبها من زمان في وجهي تاني، ودي يا بيه بقيت حالتها تقرف بعدما طردها الراجل الآخر. مش ملاقية حتة عيش تأكلها. ووقعت على رجلي تبوسهم وتقول أنا تبت خلاص يا أحمد لازم تخدني ثاني عندك وحابقى خدامة في بيتك طول عمري، ما تقطعش في ربنا ما يقطع فيك - الكلام ده يا بيه فتت قلبي.. وأخذتها لبيتي، أيوه لبيتي وهناك رجع حبي لها زي ما كان من أول. وقلعت يا بيه الهدوم الطاهرة ورجعت اهو زي ما كنت. ما فيش فايدة.. أنا بحب البنت دي قوي واللي عاوز ربنا يعمله في يعمله..»

ورجع الحاج أحمد يزاول المهن القديمة وكأن توبته وذهابه إلى الحج، كأن كل ذلك كان حلماً ضائعاً في حياته...

مر على ذلك عام كامل لم يطرأ خلاله على حياة صاحبنا ما يوجب الالتفات، لكنني كنت الحظ في أواخر العام أنه رجع إلى ذهوله القديم ثم تحول الذهول إلى نوبات عصبية شديدة فكان يثور في المقهى ويرفع عقيرته بالصياح دون موجب، أجل كان يتردد في فترات متباعدة بين الهدوء والثورة والهذيان...

وكان لما أقبل موسم الحاج الثاني كلما سمع من بعيد ضجيج الصاجات يرتعش ارتعاشاً خفيفاً وهو ينظف حذائي - ثم تتقلص ملامح وجهه ويسرع في عمله وهو يتمتم ببعض كلمات مبهمة. مرت الأيام وقد زاد اهتمامي بمراقبة أحمد المصري وملاحظة ما يطرأ عليه من تطورات... ولم أعرف سر انقلابه الفجائي إلا حين جلس ينظف حذائي في ذات يوم.. وكان في المقهى (فونغراف) تدور عليه اسطوانة جديدة اسمها (عودة الحجاج) أذكر منها هذين البيتين:

امتى نعود لك يا نبي   ونمتع الأنظار

والسعد يرجع يا نبي   والطبل والمزمار

وكان صوت المغني حنوناً فيه خشوع وتشوف وقد أصغى إليه أحمد المصري وفتح عينيه بصورة غريبة وقوي تنفسه وتوقف عن التنظيف مأخوذاً مبهوتاً. ولما أخذ الصوت يردد بخفوت وتشوف «والسعد يرجع يا بني» تشنجت يدا أحمد المصري واربدت أسارير وجهه واختلجت شفتاه وأخذ جسمه يرتعش ارتعاشاً قوياً متداركاً.. ثم انبجس الدمع من عينيه غزيراً.. بقي على حاله هذه التي تشبه الصرع ما يقرب من العشر دقائق.. أفاق بعدها وقد عاوده هدوء نوعاً.. وقال بعبارة مقتضبة أن عشيقته قد تركته هذه المرة أيضاً وذهبت لرجل آخر وأنه أصبح يكره الدنيا وكم حدثته نفسه أن ينتحر «ولكن يا بيه كل ما هميت بقتل نفسي أو بقتل الخاينة كنت أسمع صوت بهد في قلبي يقوللي: لا، وأتصور ساعتها نفسي وأنا في الكعبة المشرفة مع الناس أبكي واستغفر ربي. واهو موسم الحج جه وأنا عاوز أرجع ثاني للحج وما عمريش أترك البلاد دكه أبداً لو يقتلوني. خلاص يا بيه. فلوسي خلصت. لكن ربنا ما ينسانيش. أشحد من هنا وأشتغل هناك. ويبقى معايا لوقت الفرج اللي يكفيني أما أوصل.» ومددت يدي إلى جيبي وأعطيته الجنيه الوحيد الذي كان فيه.

ومضى على هذا الحادث ما يقرب من الثلاثة الأشهر علمت بعدها أن أحمد المصري بقى في مكة وهو يستجدي آنا ويخدم آناً آخر. وقد أصر أن يبقى هناك حتى يموت.

رغيف خبز

انبثق الفجر بعد أن ظل شارداً في ضمير الليل، سادراً في هذا التيه الضرير من الظلام يلف الوجود كله ويلقي الإنسان والطبيعة: أدواحها، غدرانها، طيرها حتى النبت الضعيف، والعشب النامي والحشرات المختلفة النشيطة.. في سبات عميق.. يجدد القوى ويرد النشاط ويبعث الحياة.. وكان النور ينبجس في عرض السماء في ومضات متتابعة تجلو صفحتها وتشيع في حواشيها الابتسام والاشراق... والديكة يتردد صياحها من بعيد وهي تستقبل الفجر الوليد في نشوة وطرب تعبر عنهما بهاته الصيحات الطويلة المتتالية.. وصوت المؤذن ينبعث في الفضاء قوياً حنوناً.. فيه رهبة وجلال يدعوان إلى الخشوع والتأمل والتسبيح

وساروا جميعاً في وجوم وصمت. لا يتحدثون بشيء وان كانت صدورهم تنطوي على كلام كثير وتزخر بشتى الخلجات.. لخطوهم الوئيد على أرض الشارع وقع كثيب يهمس في هذا السكون الشامل بنغم يائس وايقاع رتيب مستسلم: «هذا ثقيل على النفس.. ثقيل.. ثـ.. قيل..»

وغمر صوت المؤذن الأرجاء كلها، وسبح في الفضاء الوسيع الشاسع قوياً متدفقاً ثم خافتاً حلواً ثم أضحى همساً، فانجاب عن الصدور ما ران عليها من أسى. وانحدر هذا الصوت رفيقاً ناعماً في ثنايا القلوب فأفعمها إيماناً وثقة وذاب فيها نوراً وهدى. فاختلجت الشفاه تسبح لله وتطلب الرحمة والغفران. وترجو العون والصبر على كل مكروه..

أوسع الوالد خطاه يحمل بيده اليمنى حقيبة كبيرة. ويد ابنه الصغير بيده اليسرى يسير متعثر الخطى. والتفت إلى زوجه يستحثها: «عجلي يا شريفة الوقت ضيق. ولا بد العربة بتنتظرنا من زمان. عجلي.» وكان في صوته ألم وفي لهجته مرارة ولوعة، إذ رآها تخطو مجهدة مكدودة تحمل طفلتها بين ذراعيها. ملتفعة بملاءتها الحريرية السوداء، وهي آخر ما بقى لها من أيام اليسر..

أسرعوا جميعاً. الأم تفكر في المستقبل: فاذا هو مظلم. مظلم. لا تبدو في ثناياه أية بارقة تبعث على الأمل والرجاء. والأب يحمل هماً جاثماً على صدره كالطود.. وولدهما الصغير - لما يتخط العام الرابع - لا يفهم شيئاً كثيراً مما يقع حوله. ولكنه يلوذ بأبيه يستشعر الثقة والطمأنينة والقوة في كنفه.

وخفق مصباحان من بعيد. فقال الرجل «هذه هي العربة تنتظر» ولم يزد ولكن قلبه اختلج يائساً بين جنبيه. ثم أصبحوا على بعد خطوات من العربة وكان الحوذي -وهو ألماني الجنس- واقفاً ثمة يرسل من غليون من فمه العريض سحباً من الدخان يبددها نسيم الفجر الندي. وقد دس يديه الغليظتين في جيبي سترته الخشنة. واندفعت كرشه إلى الأمام كأنما تريد أن تفلت وتنطلق متدحرجة على الأرض ككرة كبيرة لولا أن قوة خفية تمسكها وتكبح جماحها، وجرى في خاطر الصغير أن يركل بقدمه هذه «الكرش» وتملكه في هذه اللحظة عبث الطفولة فود لو أن يتسلق هذا الجبل من اللحم ويعبث بشاربي الحوذي الكثين الطويلين. أو أن يغرس أصابعه الصغيرة في صفحة وجهه المنتفخة فتغوص فيها: وشاعت في أسارير وجهه، لهذا الخاطر الغريب، ابتسامة بريئة ساذجة.

أخذ الحوذي أجرته سلفاً. ووضعها في احتراس زائد في جيبه. ثم راح يهيء الخيل للسفر وكانت قد ملت الانتظار وهي مشدودة إلى العربة الكبيرة تضرب الأرض بقوائمها وتصهل في فترات متقاربة.

صعدت «شريفة» إلى العربة، فاختار لها زوجها مقعداً مريحاً توعاً ما في الصدر. وأجلست ابنها الصغير إلى جانبها ثم احتضنت طفلتها، وكان الحوذي في هذه الأثناء قد كظ العربة بأشياء كثيرة: أوعية اللبن الكبيرة، صفائح الزبدة، أكياس البطاطس، ومختلف الحقائب. ثم استوى على مقعده بهيبة وجلال يثيران الضحك، وأطلق من صدره المكتنز الوسيع «آهة» طويلة منغومة. وأمسك عنان الخيل في يد وتناول السوط الطويل باليد الثانية ولوح به في الفضاء، وكان الرجل في هذه البرهة يودع امرأته وولديه فأيقظته حركة الحوذي، فضم امرأته إلى صدره وتلاقت شفاههما في قبلة يائسة. ثم التفت إلى ابنه الصغير وأخذ صفحة وجهه الوضيء بين راحتيه ونظر إليه بعينين حزينتين تغالبان الدمع وتريدان أن تبوحا بأشياء كثيرة مرهقة. ولكنهما تأبيان أن تخذلا هذا الرجل القوي في هذه اللحظة القاسية المريرة. كان يريد أن تبقى صورته في ذاكرة ابنه في لحظة الوداع هذه، كما كانت دائماً عزيزة قوية، واثقة، معتدة بنفسها لا يريد أن يتطرق إلى قلب هذا الصغير أي وهن ولا يدلف إلى نفسه المتفتحة الغضة أي شك أو خور ثم حنا عليه وقبله قبلة فيها ألم ولوعة.. ثم حسر عن وجه طفلته واختلجت شفتاه أسى وهو يقبلها والتفت إلى زوجه يخاطبها بصوت خفيض معذب «اوعي لصحتك يا شريفة، وهبة ونعمة أوعيلهم كمان. هم أعز من أرواحنا. شهرين أو ثلاثة أكون عندكم. ويمكن ربنا يكون فرجها.. مين يعلم. على بركة الله..»

قالت وقد طفر الدمع من مآقيها: «مايكولكش فكر أبداً.. بس انت كمان ما تفرطش بصحتك وأمي المسكينة اوعالها كمان يا ابرهيم ما ليش حد غيرها في الدنيا بعدك»..

انطلقت العربة تعدو بقوة. وقد خلفت وراءها رجلاً محطماً شارد الذهن غائباً عن دنياه، ظل واقفاً يتبع العربة – تجرها جياد أربعة – بنظره وحواسه وقلبه وهو يلوح لها بمنديله الأبيض بحركة طائشة كمخبول.. وهم أن يعدو وراء العربة وأن

يصيح بملء فيه.. ولكن قوة خفية سمرته في مكانه.. وارادة مسيطرة غلابة أقوى من ارادته، كبحت جماحه وهدأت ثورته. ولاح له في أفق نفسه «رغيف خبز..».

غابت العربة عن الأنظار. وظل وقع سنابك الخيل على الأرض ينبض مؤلماً في أذنيه ثم قفل راجعاً مهدود القوى زائغ البصر. وقد خيم في نفسه ظلام وشاع يأس. وسرت في روحه رعدة المقرور..

٢

انبلج الصبح. شمسه ضاحكة ونسماته فاترة وطيره تسبح في السماء مرحة نشيطة وكانت العربة قد قطعت مسافة بعيدة.. وأشرفت على بساتين البرتقال.

بعثت هذه الحياة الدافقة في الكون كله، شيئاً من الهدوء في نفس الأم. وبددت سحباً من الكآبة كانت تتكاثف في صدر الصغير.. وكأن هذا الهدوء قد وصل ما انقطع من تفكير «شريفة». فعادت تتأمل هذه المنغصات التي أفسدت حياتهم منذ مدة قريبة. وتحاول ما استطاعت أن ترتبها في تساوق منطقي. إذ أنها جميعاً تهاجمها الآن حشداً مشوشاً وتغمر ذهنها بعنف وتدفق...

لقد وقع كل ذلك بسرعة مدهشة! كأنه حلم مزعج.. من كان يظن ذلك؟ كل شيء كان رائقاً مشرقاً منساباً في هدوء ودعة.. كهاته السماء المصحية النقية المشرقة.. وفجأة هبت ريح العاصفة قوية مجتاحة. وأربد الأفق وزأرت الأعاصير.. ولف الكون ظلام.. أجل على هذه الصورة تماماً يبدو لها كل ما حدث..

كل ما تذكره الآن هو أن نار الحرب اندلعت على حين غرة. كهاته الصواعق تقذفها السماء والناس في غفلة وأمن.. وكل ما تذكره هو أن هذه الحرب

أفسدت كل شيء في بلدهم الهادىء الوادع. لم يكن ليجري لها ببال أن الحرب تحمل في تضاعيفها كل هذا الشر. أجل! فقد رأت بأم عينها كيف كان الجند يدأبون على اقتحام الدور.. فيروعون ساكنيها بوحشية. يدورون في البيوت غرفة، غرفة، وحجرة حجرة. حتى إذا عثروا بشاب أخذوه وضموه إلى «القطيع» ثم ساقوهم جميعاً.. إلى أين؟ إلى الحرب.. أما السلطة فلم تكن لتحفل شيئاً.. عويل الأمهات. صراخ الزوجات.. بكاء الأطفال ماذا؟ كل هذا يلقاه رجال «السلطة الأتراك» بالسخرية والهزء حيناً وبالسوط والتشريد أحياناً كثيرة.. يا للسماء! إن كل هذه الصور البشعة القاسية.. تلوح الآن واضحة في خيالها.. حتى صرخات اليأس الأليمة المنبعثة من القلوب المروعة تدوي في أذنيها كأنها تسمعها لأول مرة..

أجل. كل ما تذكره هو أن الحياة السهلة اللينة الرضية انقلبت جحيماً من الضنك والعوز، والعيش اليسير المؤاتي.. غدا عسراً كله.. وزوجها. الرجل القوي. الجلد الذي «ينزع القرش من بين فكي سبع» هو أيضاً كالآخرين أجل. كالآخرين. أي اخفاق هذا. رغيف الخبز. كم هو ثمين وكم هو غال. إن زوجها ليبذل في سبيل الحصول عليه - ليعولهم - شبابه ويجود بنفسه.

كل ما تذكره هو أن زوجها أنفق في مدى سنة واحدة بعد نشوب الحرب كل ما ادخره من مال قليل. ولم يعد يملك أي شيء حيال «الجوع» الذي يهددهم. كان الجميع يظنون أن الحرب لا بد أن تنتهي في شهور. وها هي تستمر. ونارها تمتد. وتمتد. ولا شك ستأكل في سبيلها كل شيء. ولن تبقي على شيء. هناك أمل وحيد في كل هذا اليأس الحالك. فإن المصلحة التي يعمل فيها زوجها مدينة له برتب خمسة أشهر عجزت عن دفعها له. ومركزها الرئيسي «القدس» وقد وعدوه بالمساعدة إذا هو أرسل امرأته وأولاده يقيمون هناك. أما هو فيجب أن يبقى في يافا يؤدي عمله. ريثما ترى «المصلحة» أن نقله يفيدها في القدس..

عندئذ تستقدمه.. وشيء آخر يعزيها في هذا الظلام هو أن السلطة لم تستطع أن تأخذ زوجها «للحرب» لأنه أجنبي. وابتسمت بالرغم منها. فقد ذكرت تلك الضجة التي أثارها أهلها حين رضيت به زوجاً وفضلته على شباب العائلة جميعاً.. لقد ثاروا بها.. وأفهموها أنه أجنبي غريب لا يستحقها. انها تذكر تماماً كيف قاومتهم. وانتصرت عليهم. لقد مضت أيام سعيدة هنيئة كلها حب وابتسام، أيام كثيرة. وكان ثمرة هذا الزواج الموفق السعيد هذان الطفلان بل هذان الملاكان. وهذه أيام الضنك والعوز تكاد تطغى على أيام السعادة والصفاء وتكاد تطويها في تضاعيفها السوداء، واختلطت الصور في خيالها مشرقة باسمة. وعابسة قاتمة. يتخلل ذلك كله قصف المدافع المرعب والقنابل المدمرة تقذفها البوارج الحربية على معامل الحديد الألمانية في يافا ترج القلوب وتخلع الأفئدة.

وأحست أن شيئاً مبهماً يجوس في صدرها يكاد يخنقها. وانفجرت مآقيها بالدموع. فتركتها تسح. حتى كادت تشرق بها.. وأعقب ذلك هدوء صامت، أخرس، وعاد تنفسها طبيعياً متئداً. وخف عن صدرها جبل كان يجثم عليه. وأحست أن يداً رحيمة رفيقة تكفكف دموعها. ونفحة من عزاء عميق فيه ايمان وتسليم ورضوخ تفعم قلبها وتهدهده بحنان. فحنت مدفوعة بعامل غريزي على طفلتها وقبلتها في جبينها بشفاه راعشة. ثم عطفت على ابنها وابتسمت له وأقبلت عليه تطوق عنقه بذراعها وتوسعه قبلات مختلجة ثم اغرورقت عيناها بالدموع وندت عن صدرها تنهيدة خافتة وقد أراحت رأس طفلها على ساعدها وراحت تتأمل الطبيعة من حولها، فبهرتها روعتها ولم يعد يلفت انتباهها شيء آخر غير بساتين البرتقال وكأنها لامتدادها على جانبي الطريق أبعاداً لا نهاية لها وقد اختلطت الخضرة القاتمة بالزهر الأبيض الناصع بحر لجي، فائر، مزبد.. تتخلل هذا كله الحين بعد الحين، الأراضي الزراعية المنبسطة وقد نمت سنابل القمح وصوحتها شمس «مايو» وأنضجتها وانتشر الفلاحون هنا وهناك يؤدون عملهم المرهق في الحصاد. هؤلاء الفلاحون الخانعون على قوتهم،

الراضخون للعنت والأذى. هؤلاء الأشقياء. أي شيء هذا الذي يقعد بهم عن التمرد؟ أي شيء هذا الذي يجعلهم يقنعون بالرغيف الأسود وما هو دون الرغيف الأسود دون تذمر. أي شيء هذا؟ انه الإيمان! نعم هو الإيمان بالله ومشيئته. هذا الإيمان الذي لا حد له هو الذي يعمر قلوب هؤلاء وهو الثغرة المشرقة في حياتهم المظلمة..

قطعت العربة نصف الطريق تقريباً. وكانت الساعة الواحدة بعد الظهر ثم وقفت عند «باب الوادي» وهو يقع تماماً في منتصف الطريق وفيه تجد العربات ما تريد من ماء ومؤونة. وترجل الحوذي الألماني وقد نال منه التعب ففك الخيل بحركة بطيئة منهوكة. ثم سقاها وبعد فترة صب عليها ماء كيما ينشطها وعلق لها وتركها حرة... ثم جلس يحشو معدته وفي هذه الأثناء كانت شريفة قد تناولت هي وصغيرها طعاماً خفيفاً.. وبعد مضي ساعة شد الحوذي الخيل ثانية.. وانطلقت العربة بين جبال القدس الجرداء، في طريق تصعد حيناً ثم تنحدر ثم تلتوي صاعدة ثم تنحدر بدون التواء. وجبال القدس هذه تبعث في النفس لوناً من الكآبة.. يثقل على الصدر. سامقة. مهولة.. تنعب البوم والغربان على قممها وتأوي الوحوش إلى كهوفها ومغاورها. والمسافر تظل نفسه حبيسة هذا الانقباض إلى أن يتخطاها ثم ينحدر في طريق ملتوية إلى القدس.

وتنفست شريفة الصعداء حين بدت من بعيد قباب المساجد والكنائس ورؤوس المآذن الذاهبة في السماء وقد مالت الشمس إلى المغيب تاركه وراءها حمرة قانية في حواشي السماء تخالطها زرقة قاتمة تلقى على القباب والمآذن جميعاً ضوءاً باهتاً يضيف إلى جلال هذه المدينة القديمة المقدسة معنى آخر من الرهبة والخلود،

٣

هي غرفة مظلمة جوها ثقيل كأن هناك قوة غير منظورة تضغطه، حارة من حواري البلد القديمة، الحواري الضيقة القذرة المعتمة تنضح جدرانها المغبرة رطوبة مهلكة، أمضت شريفة ثمة شهوراً ثلاثة مرهقة كم أراقت أثنا ها كرامتها على أعتاب المصلحة لتمنحها بضعة قروش حقيرة تستعين بها على العيش، العيش المهين، كانت تستجدي هذه القروش استجداء، كأن زوجها لا يفني في سبيل الحصول عليها كل شبابه، هذه القروش لا تكاد بشق الأنفس تكفي لتدرأ عنهم الجوع فكيف بها تنفع في معالجة الطفلة الصغيرة، انها مريضة تتألم، شبح الموت يحوم ملحاً يريد فريسته! كانت شريفة تنتظر ذاهلة، شاع الخبل في عينيها وحركاتها، تنتظر مجيء زوجها فقد استدعته المصلحة أخيراً. كل نأمة، كل همسة، تبعث في نفسها الفزع وتلقى في روعها الرعب، انها ضعيفة، ضعيفة حيال هذا الشر الكثير، لم تعد تحتمل، جالدت العوز، وصمدت للارهاق ووقفت في وجه العاصفة، ولكنها صرعتها أخيراً.

«ما عدتش أقدر يا ابرهيم، صبرت كثير، مسحت وجهي على أعتاب المصلحة، والبنت عيانة، عيانة تقيل، ويادوب نلاقي رغيف الخبز، أنا أحمد ربنا اللي جابك»

ماتت الطفلة بعد صراع طويل مع الموت، ماتت فجأة وهي في حضن أمها ومرت الأيام سوداء، كانت «شريفة» تحمل ملابس زوجها الثمينة، وتذهب هي وأمها المسنة الضعيفة وتظل في السوق النهار كله تبيع ما معها بثمن بخس، ثم أثاث البيت، ثم أوعية الطبخ، ثم، لم يبق شيء، يعيشون على ما تتيحه الظروف لابراهيم، يؤدي بعض الخدمات الشاقة الخطرة ليحصل على بضعة قروش يعول بها عائلته، يحمل الأثقال، يلم «أعقاب السجائر»، بل ذهب في مهمة - كان يرجو من ورائها شيئاً من الخير، كان عليه أن يقطع المسافة بين القدس والخليل

سيراً على الأقدام ليؤدي ما كلف به، كانت حياته في خطر، أيام ثلاثة بلياليها قضاها مرعوباً - في الذهاب والاياب - بين دوي الرصاص وفرقعة القنابل. وقد أصيب في ذراعه بشظية كادت تودي بحياته، تغلب على الموت وظل في الميدان يكافح.

في يوم، من أيامه الموفقة، استطاع أن يعمل جاهداً، وكان نصيبه «رغيف خبز» يستلمه بعد الغروب، هو قوت العائلة تلك الليلة أرسل ابنه ليأتي به، كان الليل قد هجم يلف الدنيا بسواده، والريح تئن وتتناوح تارة ثم تزفر وتعصف تارة أخرى، والسماء تساقط ثلجها في فترات متقطعة، يملأ الشوارع ويتكدس في الأركان وجوانب الجدران تلالاً صغيرة بيضاء فتدثر الصبي بثياب خلقة بعضها فوق بعض تمنع عنه عادية البرد، وذهب يعدو مخترقاً الأزقة والحواري المظلمة كالمأخوذ وقد تمثلت له الدنيا كلها رغيفاً من الخبز

في عودته كان يشعر كأنه يحمل كنزاً، وقد أقفرت الشوارع وخلت الأزقة إلا من بعض العائدين إلى بيوتهم، والصبي يجد في السير وقد استشعر الخوف لدى هذه الوحشة الرهيبة، وخيل إليه أنه سيفقد رغيف الخبز، يسقط منه أو ينتزعه أحد المارين، وفجأة اعترض طريقه جندي، ثيابه الرسمية خلقت ممزقة، باهتة اللون لكثرة ما تراكم عليها من الغبار والأوساخ، هزيل الجسم بارز عظام الوجه بصورة بشعة مفزعة، وهو يرتجف من البرد وخيل للصبي أن هذا الجندي قريب عهد بمدينة الأموات، وهم أن يصيح ولكن صوته اختنق في حلقه، وأراد أن يعدو هارباً ولكن ساقيه لم تطاوعاه، تقدم الجندي إليه وقد مد يده إلى الأمام يستجديه «جوعان.. جوعان..» دوت هذه الكلمة في سمع الصبي.. وانحدر صداها عميقاً قصياً في صدره.. وشاع في نفسه احساس عميق.. رحيم.. خير.. وتقدم إلى الجندي وأعطاه الرغيف وهو لا يدري ما يفعل.. في ذهول.. في غيبوبة..

أخذ الجندي الرغيف بلهفة.. ثم غاب في الظلام.. أما الصبي فتابع سيره إلى البيت متئد الخطى.. والظلام المحيط.. ورذاذ المطر.. وأنين الريح.. كلها تهمس في أذنيه «جوعان.. جوعا..ن جو.. عا.. ن..»

أما أبوه وأمه فلم يحنقا ولم يثورا.. بل انكفآ إلى فراشهما في صمت ويأس ونام هو نوماً متقطعاً كان يرى خلاله الجندي خارجاً من قبره يستجديه الرغيف وشفتاه تهمسان «جو.. عا.. ن..»

٤

انتهت الحرب وانتهى معها العسر وانقضى عهد الشقاء ونسي الناس أو تناسوا آلامهم ومصائبهم.. وأقبلوا على الحياة من جديد يسعون ويكدون يوفقون ويخفقون.. ينالون ويحرمون. واستطاع ابراهيم أن يجد في ظل الحياة السعيدة كنفاً أوى إليه هو وزوجه وابنه. وقد كبر هذا الابن وشب عن الطوق وأصبح رجلاً يضرب في مناكب الأرض. ويسعى فيها سعي أهلها وينال منها ما ينالهم. وكان مولعاً بكتابة «يوميات» له يضمنها خواطره وتأملاته في نفسه وفي غيره. وما يقع له في يومه. وما يجيش به صدره.. وما يلوح في أفق ضميره من ومضات ويطوف في روحه من هجسات. وهذا بعضها:

....

لشد ما أدهش من نفسي! اني ألحظ أن بي ميولاً غريبة مخيفة. وان هذه الميول لتستبد بي وتسلبني كل ارادة للمقاومة. اني ضعيف حيال هذه الميول. لست أستبين الآن حقيقتها. هي غامضة حتى لتبدو لي كأنها ضائعة في سحب كثيفة حائرة. هائمة. انها تجوس في صدري وتملأ روحي.

يخيل لي أن هذه الميول قديمة. خلقت قبلي. وعاشت في صدر انسان آخر.

لشد ما أنا عاجز عن صد تيارها.

....

يخيل لي اني غريب عن كل ما يحيط بي... كل هؤلاء الناس الذين أعرف. والذين اتصلت بهم بأسباب مختلفة متباينة.. أشعر وأنا بينهم بقلق ونفور.. ورغبة ملحة في الانطلاق من بينهم.. أجل فما أكاد أفترق عنهم وأدخل غرفتي.. حتى أنساهم. لشد ما هم بعيدون عن نفسي. هم يعيشون في دنيا محدودة الآمال والمطامع. واني لأتخيلهم راسفين في أغلال وقيود صلبة يقدسونها ويعبدونها. بلى. اني أتخيلهم هكذا سائرين جميعاً في تيه ضرير لا نهاية له.. يسوقهم قزم مشوه ما يفتأ يلسع أجسامهم بسوطه.. ثم يختفي في أحشاء الظلام مقهقهاً، أية سخرية هذه!!

....

رغبة مجنونة جائحة تطوح بي، أصنام عديدة.. أصنام معبودة.. هذا كل ما أرى في وجهي اني ذهبت.. أي شيء هذه الأصنام الفارغة، انها أصنام من طين حقير.. أولى بها أن تحطم وتلقى شظايا تحت الأقدام تدوسها بشماتة وانتقام. أجل. هذا ما أريد، أن أحمل معولاً رهيباً أحطم به هذه الأصنام

....

يزداد الحاح هذه الرغبة المجنونة.. انه يعصف بي، انه يطوح بي في مهاوي مخيفة مظلمة.. حتى لا أعود أحفل شيئاً فأمضي في الهزء والسخرية بكل هذه المخلفات القذرة التي أبقتها لنا الأجيال.. أية راحة.. أية غبطة هاته التي تسري في جسمي كله حين أدوس بعض هذه القاذورات..!

....

هي امرأة ككل امرأة. علاقتي بها كانت حقيقة أن تنقطع منذ طويل إذ أن قلبي لم يخفق بحبها قط. وما أظنها تحبني هي الأخرى. إنما هي تلك الرغبة المستبدة التي طوحت بنا بادىء الأمر في هذا الدرك هي نفسها هذه الرغبة ما تزال منهومة ظمأى تريد الارتواء.. هي «الانتقام»

....

أجل. الانتقام. انني أشعر أن كل حركة، كل ارتعاشة. كل قبلة تبادلني اياها وهي بين ذراعي.. ان هي إلاّ سهام مسمومة مصوبة إلى قلب رجل أجهله يسمم حياتها ويسلبها شبابها.. كنا معاً الليلة.. في السرير الدافىء الحالم، الحافل بالذكريات.. وكانت هي ثائرة.. في عينيها العميقتين ومضات سريعة متتابعة مخيفة.. وشفتاها تختلجان كأنهما تهمسان بكلمات غامضة.. وذراعاها تهصرانني بقوة مجنونة.. وجسمها كله يرتعش محموماً. إن المسكينة لا تدري انني أيضاً أنتقم لنفسي. من كل هذه الحماقات.. من كل هذا الغباء. من كل هذه القيود. من كل هذه الأصنام.

....

ماذا.. أنا الذي لا أحفل مما يقدسه غيري ويعبده، شيئاً.. أنا الذي أسخر من كل نظام.. وأدوس كل خلق - مما هو خلق في عرف الناس فحسب - أنا.. ان ميولاً ونزعات أخرى خفية تعيش في نفسي.. كنت أجهلها.. طيبة.. رحمة.. حنان.. من يصدق؟! كنت سائراً في طريقي.. وكانت الليلة مظلمة غائرة النجم.. والرياح تضج.. والبرد ينفذ في الجسم كالابر.. وقد اعترض سبيلي صبي.. بائس.. تستر جسمه الناحل.. المريض.. فضلة من ثياب خلقة يرتجف مقروراً..

قال بصوت مخنوق «جوعان» فخيل إلي اني سمعت هذا الصوت من قبل.. ولكن أين؟ متى؟ لا أذكر.. ان بيني وبين هذه الكلمة «جوعان» صلة وثيقة.. بل خيل لي اني «كنت في يوم من الأيام هذا الصبي البائس..»

ماذا.. لقد أثارت هذه الكلمة في نفسي كوامن بعيدة متأصلة.. ورواسب انبعثت من مرقدها تغمر ذهني.. أشرت إلى الصبي أن يتبعني.. فسار بجانبي كحيوان أليف، وقد أطعمته بل جلسنا نأكل على مائدة واحدة. ثم أعطيته من ثيابي ما يستر به جسمه الهزيل العاري. ووضعت في جيبه نقوداً.

....

كان هذا الحادث كالزيت تصبه على النار.. فيندلع لهبها.. يأكل كل شيء، أجل. فقد اندفعت في سبيلي متمرداً. مجنوناً. واني اليوم لأشد اغتباطاً مني في أي يوم آخر.. فقد وجدت مجنوناً مثلي.. وثانياً وثالثاً. ونحن نتفاهم بسهولة.. وميولنا تلتقي وأغراضنا تتحد وأمزجتنا تتواءم.. لا شك في أن هناك موجبات خفية قديمة راسبة في الأعماق تسيطر على حياتنا وتوجهها.. فما أسعدني!

سحابة.... ومرّت

لا بد لهذه السيئة من نهاية على أي شكل، هذا التسكع الأبدي في الشوارع تحت المطر المنهمر وفي هذا البرد اللاذع، شيء لا يطاق على وجه التحقيق.
استند بظهره إلى عمود الكهرباء المحاذي للرصيف وأخذ يتأمل السماء المكفهرة سك عن المطر المتصل خمسة أيام كاملة، ثم حول بصره إلى عرض الشارع ـ ـده منظر «الاسفلت» وقد صقلته المياه المتدفقة، وأكسبته أنوار الكهرباء على جانبي الطريق «لمعة» اطمأن إليها ذهنه المكدود، وفجأة قطع عليه تفكيره وقع حوافر الخيل على الأرض فشعر بما يشبه الخنق المكتوم وهم أن يأخذ نفساً طويلاً من لفافته الرخيصة انتقاماً لنفسه ولكنه لمح داخل العربة المسرعة رجلاً سميناً عليه معطف ثخين وفي فمه لفافة ضخمة من نوع «السيجار» وهو في جلسته المطمئنة يوحي بلون من الترف الوقح.. ولوح السائق بالسوط في الهواء وأطلقه على الخيل بقسوة ووحشية فذعر «عبد الواحد» وانتفض وشيع العربة والسيد الذي فيها بهذه العبارة:

«كلب.. خنزير.. كلكم كلاب»

وتنحنح بغضب وبصق على الأرض ومسح فمه بكمه وأردف: «الواحد منا مش لاقي يأكل.. وأولاد الكلب بيركبوا عربيات ويتبرحوا.. اخص تفوه» وأخذ من لفافته آخر نفس ملأ به رئتيه ثم أرسل الدخان من فتحتي أنفه ونظر إلى عقب اللفافة بين اصبعيه بأسف وحسرة، ثم ألقاه إلى الأرض ودس يديه في جيبي

سترته وتابع سيره وهو يلتذ رائحة الوحل يحمله السيل على جانبي الطريق.. وثنى خطواته نحو عطفة صغيرة ووقف تجاه قهوة الحاج مصطفى المتواضعة ودار ببصره بالمكان - من خلال زجاج النافذة - فإذا أصحابه «عثمان واسماعيل وحمدان» يشربون الشاي في صمت وهدوء فنازعته نفسه أن يدخل ولكنه تردد لحظة.. وتحسس «القرش» الوحيد في جيبه وفكر قليلاً ثم تقدم وفتح الباب وخطا نحو أصدقائه وأخذ كرسياً بجانبهم وقال وهو يهم بالجلوس «السلام عليكم» فردوا بصوت واحد منغوم «وعليكم السلا.. م ورحمة اللـ.. ـه وبركاته» ثم سأل اسماعيل بلهفة «انت فين ما بتبنش من زمان يا عم عبد الواحد نحن والله اشتقنا لك، حرام عليك يا شيخ تحرمنا انسك» فندت عن صدر عبد الواحد تنهدة عميقة فيها حسرة ويأس، وأجاب كالغائب «أنا والله يا جماعة مش صاحي على نفسي هالأيام، مش لاقيين لقمة نأكلها.. الولية والأولاد حالتهم مجننانى.. العيش الحاف مش محصلينه»

* * *

يوم فكر عبد الواحد في الزواج كان يقدر المسئولية الكبيرة التي سيواجهها ويخضع لها كرجل له بيت وأهل. ولكن إيمانه بأن الله يبارك في الحلال ويرزق الطير في وكناتها ولا يغفل عن النمل في مساربها.. هذا الإيمان الراسخ بأن التراب يصبح تبراً يتوهج في كف من رضي الله عنه، فأكمل شطره الآخر أتى بذرية صالحة.. أسرع به إلى الزوج المدبرة وانتهى به أخيراً إلى هؤلاء الأطفال الثلاثة يقتطع لهم من كبده ليعولهم ويقوم بأودهم

«كان ربنا رازقنا ومحنن علينا، وعايشين في نعمة وراحة بال، لكن ما اعرفش ايش اللي حصل لما الراجل الملعون ريس الورشة قال لي مالكش شغل عندي، يا لله بره»

وصمت عبد الواحد

لا بد وأن تكون وشاية سافلة همس بها زميل حقير في اذن هذا الرجل الظالم «ريس الورشة» والا فأين جريمة عبد الواحد التي استحق بسببها الطرد والتشريد في هذه الأيام السود؟

كان عبد الواحد يقوم بعمله خير قيام يكسر الحجارة الصلدة ويصقلها ويحملها على ظهره إلى حيث ترتفع جدراناً ضخمة ويمزج الرمل بالطين ويهيء منه خليطاً صالحاً للبناء وهو إلى هذا كله لم يحجم قط عن مد يد المعونة إلى اخوانه وزملائه في العمل، هل كان أعمى «ريس» الورشة، ألم تكن له عينان يرى بهما هذا الجهد المضني يقوم به عبد الواحد بصبر ورضى؟

وماذا كان جزاؤه آخر الأمر؟ الطرد والتشريد

الزمن لئيم غدار له ألف وجه والناس أوغاد بدون ضمير ولا قلب..

الناس في عرف عبد الواحد هم هؤلاء السادة الأغنياء يملكون سيارات يركبونها ويسكنون قصوراً منيفة، ولهم حدائق وأموال كثيرة مودعة في المصارف ويتحكمون بمعاش أمثاله العمال الفقراء ينزعون من أفواههم ما يسد الرمق ويدفع غائلة الجوع..

واتجه ذهن عبد الواحد اتجاهاً آخر، هناك لصوص يجدون ألف وسيلة ليمدوا أيديهم إلى حيث يريدون فإذا أكفهم يلمع فيها الذهب لا يحجمون عن أية جريمة تحقق أغراضهم، يذبحون الرجل كأنه دجاجة ثم ينامون ملء جفونهم لا يزعجهم الدم المراق ولا يقض مضاجعهم تخريب البيوت وازهاق النفوس

كل شيء يهون أمام هذا المعبود، هذا الاله الهائل: المال!

ومع ذلك فان السادة يحترمون هؤلاء المجرمين وهو هو الرجل الفقير المسكين الذي يكد ويتعب ويأكل خبزه بعرق جبينه يطرد ويلقى به في الشوارع هكذا لا يجد ما يتبلغ به هو وامرأته وأطفاله الثلاثة.

إن كلاب هؤلاء السادة تأكل اللحم الذي لا يذوقه هو وعياله إلا مرة في الشهر. كلابهم أنظف من أطفاله يا للهول!

ماذا؟ لم يبق عليه إلا أن يتسول، أن يمد يده يستعطي الناس، يمرغ وجهه في التراب ويريق هذه البقية الباقية من كرامة النفس كماء قذر..

أوه! كلا. كلا.. كل شيء إلا هذا وانبثقت في رأسه شرارة واختلج في نفسه احساس حاد كسكين. سيكون لصاً، يسرق وينهب ولا يتورع عن الاجرام.

والتفت إلى أصدقائه بعد هذه الغيبوبة الطويلة!

الواحد منا لازم يكون مجرم، مالوش شرف ولا دين ولا ضمير. علشان يعرف يعيش في الدنيا الزفت» ثم أردف بغيظ «كلابهم أحسن منا بياكلوا خبز ولحم، ونحن نتعرى ونجوع وندور في الشوارع بطالين. وورانا عيال وفي رقابنا أطفال»

فبدت على ملامح الأصدقاء الثلاثة دهشة وقالوا بصوت واحد «كلاب!!» فأجاب بغضب كمن يريد أن يثير شراً «لما تجوعوا وما تلاقوش خبز وتدوروا مثلي في الشوارع تحت المطر والبرد ساعتها بتعرفوا الكلاب اللي بتكلم عنها»

ثم نهض وألقى على أصدقائه نظرة احتقار وتركهم في حيرة وعاد يجوب الشوارع ويخوض في الوحل وفي صدره جرح كبير

الجريمة في رأسه لا يبرح شبحها ذهنه. سيشتري خنجراً ذا حدين يغمده في

صدر «ريس الورشة» يخمد به أنفاسه النجسة وبعدها لا يهمه أن يقتلوه أن يشنقوه أن يضعوا الحديد والأصفاد في يديه ورجليه يجب على أي حال أن ينتقم لنفسه ولهذه المعد الجائعة تصيح بوجهه تريد طعاماً كلما أوى لحظة إلى بيته..

ولكن.. أوه! أية سخافة هذه! يزعم أنه سيشتري خنجراً ذا حدين، من أين له الثمن؟ لو كان يملك ما يشتري به هذا الخنجر لكان أولى أن يبتاع به طعاماً لامرأته وأطفاله

«سخيف سخيف هذا أنا، كيف أعدم وسيلة لقتل هذا الخنزير؟ ان في ساعدي قوة بعير، وفي قبضتي هاتين ما هو أحد وأشد مضاء من أية مدية سأنقض عليه كالموت، وأضع يدي في مخنقه فأعصره عصراً كالليمونة. ثم ألقيه على الأرض وأبصق عليه وأدوسه كجيفة نتنة»

ارتاح إلى هذه الفكرة وسار بقوة واعتداد يتنفس ملء رئتيه وهبت العاصفة من جديد تئن وتتناوح من بعيد، ثم تزأر كأسد جائع يبحث عن فريسته فارتعدت فرائص عبد الواحد وأسرع وهو لا يدري كيف يتقي هذه الريح المجنونة تصفعه صفعاً وتجلده بما يشبه السوط وتكاد تلقيه على الأرض! ولاحت له من بعيد أنوار تتلألأ فحث خطوه إليها فإذا هي تنبعث من ملهى تضج في أرجائه موسيقى معربدة مشوشة تصاحبها ضحكات قصيرة فاجرة.

وقف هنيهة يتأمل كمشدوه، خطفت بصره الأنوار، أذهلته الأصداء، لم لا سعد؟

ها هو على باب ردهة واسعة الأرجاء، وهنالك موائد مبعثرة جلس إليها س تتفاوت مظاهر الترف والنعيم على وجوههم يلهون ويقصفون ويشربون الخمر دون حساب، ويغازلون بنات الملهى، ومنهم من انتبذ ركناً بعيداً في الصالة

واحتجز هناك مائدة عريضة وأشرك في شرابه غانية أو اثنتين يتحبب إليهما ويراودهما، ويبذل لهما من جيبه ومن كبده! ومن يدري؟ فقد ينجح فيستميل احداهن ويقضي معها ليلة فاجرة! هؤلاء محرومون ويبحثون عن الانثى بأنوفهم كحيوانات ضالة جائعة، وقف عبد الواحد ينفض المكان نفضاً ببصره المنهوم، بعينين جائعتين راح يلتهم كل ما في المكان ثم استدار وواجه المسرح تسطع في أرجائه أنوار متعددة الألوان، حمراء متأججة،، زرقاء صارخة، صفراء، خضراء، تتموج في غمرها أجسام عارية مثيرة كلها فتنة وجنون وشهوة، اختلطت الألوان في نظر عبد الواحد وتراكمت ودار رأسه وبدت له السيقان، الأفخاذ، الأرداف، الأثداء، الأبدان كلها ثائرة فائرة من خلال ضباب كثيف، ترقص بجنون على أنغام موسيقا فاجرة معتوهة!

ثقل رأس عبد الواحد، وجثم على صدره ما يشبه الطود، وكاد يصيبه غثيان ولكنه تدارك الأمر، وأخذ نفساً عميقاً وراح يهبط السلم بسرعة فجائية كمن يفر من عدو جبار، ثم وقف في أسفل السلم يستريح، وينفث عن صدره ما يشبه الدخان الكثيف الخانق، وأراد أن يخرج إلى الشارع فاعترضه خط طويل من السيارات الفخمة. تنتظر أصحابها الأثرياء، لم يركب عبد الواحد في حياته سيارة من هذه السيارات، كان يكتفي بأن يراها تمر أمامه، تقل السادة المترفين، شد ما كان يشعر في قرارة نفسه أنه لا بد وأن يكون انساناً غير هؤلاء الناس من فصيلة منحطة، وجدت لتخدم هؤلاء السادة!

وتابع عبد الواحد سيره وفي نفسه رغبة غامضة: خمر، وامرأة، وسيارة، ولكن هيهات، هيهات

* * *

الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ورطوبة الجو - بعد العاصفة - ثقيلة

تؤذي الأعصاب، وتنفذ في الجسم كالابر، والعائدون إلى بيوتهم بعد عبث الليل، يحلمون بفراش وثير ونوم عميق تعاودهم فيه أشباح لذاتهم ولهوهم، وعبد الواحد يسير بخطى مترنحة، وقد ملأت صدره هذه الأزمة العصبية الحادة، واختلطت صور هذه الليلة في رأسه، مشوشة مضطربة، وأن قدميه لتسوقاه دون أن يدري إلى بيته، دار متداعية، متوارية في عطفة مظلمة لا يدخل إليها النور، كهف مهجور ينضح رطوبة مهلكة، وإذا بخطوات مسرعة وراءه وصوت يناديه «عبد الواحد، أبو عثمان، وقف يا شيخ» فعرف عبد الواحد صوت صديقه «أحمد أبو دراع» فالتفت إليه مندهشاً وقال «الله! انت هون ايش اللي جابك،» فأجاب محمد «المعلم عاوزك تشتغل عنده لما عرف ان ريس الورشة الثانية اطلعك بدون سبب»

- صحيح! ندت عن صدر عبد الواحد هذه الصيحة، فيها أمل مشرق منبثق من هذا الظلام المتراكم..

فأجاب محمد: صحيح. وبكره الصبح تعال امسك شغلك الجديد، عمارة كبيرة قاول عليها المعلم، ثمانية أشهر، عشرة، سنة، مين يعلم؟

فقال عبد الواحد: الله يخليك يا محمد، أنا ممنون كتر خيرك انت أخ صحيح فرد عليه محمد وهو يبتعد «كلنا اخوان، تصبح على خير»

***

وأحس عبد الواحد وهو يتجه إلى الغرفة، الغرفة الوحيدة التي يرقد فيها أطفاله وامرأته بأن سحابة كثيفة ثقيلة قد ارتفعت عن صدره. ومرت مسرعة خفيفة!

وأوى إلى فراشه القذر بقرب امرأته وهو يعجب لنفسه كيف كان غبياً يريد

أن يقـتل «ريس» الورشـة، يخنقـه ويزهق أنفـاسـه وارتعش لهـول هذه الفكرة الاجرامية.

«أنا طول عمري سخيف وحمار»

وكان يجوس خلال رأسه - وهو بين النوم واليقظة - هذا الأمل «ما يزال في الدنيا أناس طيبون كلهم خير وبركة!»

حياة إنسان

أي حال أبعث على القلق وأشد اثارة للحيرة وأدعى إلى التردد والاحجام من الحال التي هو فيها الآن؟ ماذا! انه يحيا منذ شهر تقريباً حياة مضنية، عقيمة، جافة، أجل انه لم يشعر قط بمثل هذا العجز عن الادراك والتمييز، ولم يعهد في نفسه من قبل هذا الخور الشامل في التفكير، خور كانما هو الشلل المفزع يدب في أعصابه كلها ويشرد ذهنه في فوضى مظلمة ليس ينتهي فيها إلى يقين وليس يجد في مضطربها قراراً ولا يلتمس في حيرتها وتخبطها اتزاناً أو هدى!.

وفي التفاتة خاترة ألقى من النافذة المطلة على الشارع نظرة باهتة، فأحس بخمول ثقيل لدى خلو الشارع إلا من عربة قديمة مغبرة اللون، يجرها جوادان هزيلان بتؤدة وملال عبثاً يحتثهما الحوذي المسكين يتثاءب من فرط النعاس وفرط الجهد والاعياء.

والأضواء الحزينة الواهنة تفعم أرجاء الشوارع نوراً يتراقص كئيباً فاتراً والسماء كابية غاض الاشراق في صفحتها الكالحة العميقة الغور كالهاوية لا يأخذ البصر في فجاجها إلا بضع نجوم خابية مشردة في هذا المحيط الأسود الصامت.

مضت هاته الصور كلها تطرد في بهرة خياله مشوشة، وراعته كآبة هذه الليلة من ليالي الخريف الذابل، وأثقل عليه هذا العبوس من الطبيعة، عبوس

يضني النفس ويبعث فيها احساساً غامضاً، قاتماً، أشبه شيء بالفناء.

فارتد بصره عن الشارع القفر والسماء المهولة وفي صدره شعور التائه في صحراء، وبدا له المقعد المستطيل المريح بجانب السرير مغرياً للأعصاب المتعبة، فاشرأبت إليه قواه الخائرة وهفا إليه جسمه المنهوك. اندفع نحوه برغبة وجشع ثم تهافت عليه متهالكاً كأنه جدار قديم متداع أصابته صدمة فانهار...

راح يجيل في الغرفة عينين ذاهلتين يطل منهما غباء كثيف، فتراءى له - على ضوء المصباح الخافت - الأثاث ومختلف الأشياء التي تكظ الغرفة أشباحا صامتة كأنها قضت ثمة قروناً عديدة لا تبرح مكانها في وجوم أبدي فتثاءب ومط شفتيه في سأم وملال ثم منح جسمه الناحل كل حريته فانسجم في المقعد برخاوة يائسة متعبة.

وان خواطره الآن أشد ما تكون نزوعاً إلى الانطلاق من هذا الحيز الضيق الذي حصرها فيه كل هذه الأيام المرهقة، أجل انه يشعر تماماً بتمرد تفكيره عليه ومراوغته له ومحاولته الافلات من هذا اللون بعينه من التأمل المضني المتشابه، ليتشبث بأية صورة من صور التفكير في سبيل الانعتاق والتحرر.

وراقه أن ينصرف تأمله إلى ماضيه، هذا الماضي العجيب المتناقض المتعدد الألوان المختلف الحيوات، بلى! ان لكل مرحلة من مراحل ماضيه كانت لها حياة خاصة، هذه الحيوات جميعاً مهما تباينت ومهما تعددت وجهاتها تكمن في أطواء شخصيته وترسب في أغوار روحه لا تتنافر ولا تتصادم، بل تشترك وتتحد في التأثير عليه وتوجيه كل خطوة من خطاه في حياته الحاضرة، والأغرب من هذا أنه هو نفسه قد لاحظ أنه يتصرف في بعض الأحيان تصرفاً آلياً لا تفكير فيه، كأنما هناك شيء خفي قديم يجثم في ناحية مستسرة من نفسه يدفعه ويحثه دون أن يكون لارادته في ذلك أي تأثير، وأغمض عينيه ومضت أدوار ماضيه كلها تمر

مراً خاطفاً في خياله، يلمح في كل منها فلذة من نفسه ومعنى من معاني وجوده، وصورة من صور حياته.

ها هو يرى بنفسه صبياً من صبيان الأزقة الأشقياء القذرين يتعرضون كل يوم بألوان غريبة من الأذى لهذا الشيخ ذي الثياب الرثة المتعددة الألوان العجيبة الباهتة يسير بقامته المديدة في وهج الشمس يجر نفسه جراً ساهم النظر كمعتوه، باللّه لشد ما كانت نسوة هذه الأزقة تضج بالضحك الفاجر لمرأى هذا الشيخ يتعثر بما يلقيه الصبية تحت قدميه من حجارة فيختل توازنه ويميل عوده الفارع حتى ليكاد يتقصف! فيثور محنقاً ويعدو وراءهم لعله يمسك بأحدهم ويصفقه في الأرض صفقاً، ولكن هيهات! فانهم في عدوهم أسرع من الريح ولن يظفر الشيخ إلا بالاوبة الخائبة واللهاث يشق صدره ويمزق رئتيه، وهذا سبب آخر ألذ وأمتع لهاته النسوة، فينفجرن بأصوات مختلطة مشاغبة مرددات بشماتة وسخرية «الشيخ المجذوب!» - الشيخ المجذوب ؟ لقد حير هذا الاسم صبينا وأراد يوماً أن يستفسر عنه من احدى هاته النسوة فأجابته في ابتسامة غامضة: «انت نسيت زينب جارتنا الحلوة القديمة اللي سرقتله عقله؟» لم يفهم يومها ماذا تعني، وكيف يمكن للنساء أن يسرقن العقول، وهل العقول نقود أو متاع يسرق ويسلب، لا ريب أن هذا غباء وخليط وقلب لأوجه الأمور الصحيحة.

مرت هاته الفترة من حياته على هذا النحو في الحارة المعتمة المغبرة الضيقة والبيت القاتم المتداعي، بين أبيه السكير المتلاف وأمه الضعيفة الحادبة الحنون هذه الأم لقد أحبها كثيراً من كل قلبه الصغير، بقدر ما كان يشمئز من أبيه الفظ تفوح أبداً من فيه رائحة الخمر الكريهة

* * *

وهذا دور آخر من حياته:

كان في نحو الخامسة عشرة، نظر إليه أبوه ذات يوم نظرة متوعدة يقدح فيها الغضب والتهديد وقال له مزمجراً «انت كبرت يا اسماعيل وما عدش اللعب يفيدك حاجة حاتسيب المساخر وتنتبه لنفسك، أنا عاوزك تجيب فلوس، انت فاهم، بكرة الصبح ابقى حضر حالك نروح سوى للمعلم مقصود الحداد ، واللا والنبي اخنئوك واخلص منك» هذه الكلمات ما كان أقساها وأمرها على قلبه الصغير لقد بكى كثيراً في تلك الليلة، وأحس بحقد يوغر صدره على هذا الأب على هذا الوحش.

وهل قضي عليه أخيراً أن يصبح صبي المعلم مقصود الحداد ، أيةَ ليلة من ليالي النحس ولد فيها حتى يكون له هذا الحظ العاثر، وماذا بعد هذا الشقاء والذل عند المعلم مقصود ، كم كان يفزعه منظر تلك الدكان المتوارية في عطفة بحارة الحدادين، دكناء تملأ جوها رائحة الحديد المحمي، يتأجج في أحد أركانها أتون النار يزفر فيه اللهب وتسلب البصر جمراته اللاظية، ثم تلك الطرقات المطردة المتواصلة تصم الآذان وتصدع الرأس وتصفع الأعصاب، لم يمر على وجوده عند «المعلم مقصود » أكثر من سنة تمرس خلالها وأصبح ابن المهنة وعرف كيف يجالد التعب ويصمد للارهاق وكيف يكافح وكيف يكسب أيضاً.

وكان حين يعود من عمله المضني بعد الغروب ويرى الصبية من لداته على وشك أن ينفرط عقدهم بعد أن شبعوا لعباً سحابة يومهم، كان حين يمر بهم يشعر بشيء من الزهو والخيلاء لأنه يأتي لأبيه وأمه «بفلوس» ولأنه يرى أنه أصبح بحكم مهنته أصلب منهم عوداً وأقوى ساعداً وهو لو أمسك بأحدهم بكلتا يديه يستطيع أن يرفعه في الفضاء ويقذف به قذف قوي جبار، كان يشعر حيالهم أنه رجل.

ولكن هذا الدور من حياته يتميز بلون خاص غير هذه الألوان العادية فان الزمن بعدوه الجبار وشتى صروفه ومختلف غيره يستطيع أن يأتي على كل شيء

ورحى الحيـاة الثـقيلة قـد تسحق في دورانهـا الأبدي كل ذكرى، غيـر هذه، ليس يستطيع الزمن بقسوته ولا الحياة بجبروتها وعتوها أن يسلباه إياها، ستظل أبداً حياة تطوف برأسه بكل ألوانها الصارخة:

كـان يومـهـا في حـال أدنى إلى الاضطراب وأقـرب إلى الفـوضى والتـهـور والخروج عن الاتزان، وكان من قبل يحس هذا الاضطراب وتلك الثورة يبتدر بهما الناس جميعاً لأتفه الأشياء حتى لكأن شيئاً لا يقاوم يعصف في كيانه يسلبه كل ارادة ويخضعه بجبروت إلى هذه العاطفة تجيش في صدره مضطربة ملهوفة وتندفع ثائرة نحو الانوثة ماثلة في كل امرأة. لكن الانهماك في العمل كان يلهيه ويصرفه عن تأمل نفسه. إلى أن كان يوم العطلة هذا لم يبرح فيه البيت أشد ما تكون غريزته الجنسية ظمأ وتضرماً. تسري في جسمه كله حمى لافحة ونار آكلة، ودمه يركض في عروقه بعنف وتدفق حتى يصعد إلى رأسه فائراً منبجساً، فيذهل هنيهه ثم يدور في البيت كمجنون وتمتد يده بعصبية وغيبوبة إلى أي شيء يقذفه دون وعي حيث لا يدري أين يستقر.

وفجأة، سمع طرقاً على الباب فذهب ساخطاً ليرى الطارق وماذا عساه يريد وقد خرج كل من في البيت لقضاء واجب الزيارة للأهل والأصدقاء.

ولكنه وقف ذاهلاً عندما فتح الباب ورأى على عتبته (سعدية) جارتهم القديمة حاسرة عن وجهها الخمري ترف على صفحته بسمة حلوة مشرقة وهي تقول له بدون تكلف:

- أنا جايه أعتب عليكم، وأشوف ليش ما بتزروناش، إذا نسيتوا الجيرة القديمة نحنا ما ننساش أبداً.

- سلامات، والله أبداً ما ننساش الجيرة الطيبة. ونتذكركم دائماً لكن..

ومضت الكلمات تتعثر في فمه وهو يحاول أن يختلق الأعذار ويلتمس ما يبرر هذا القصور من جانبهم ويؤكد أنه غير مسؤول، فهي قد تزوجت من نحو سنتين وتركت بيت أبيها ودخلت في عائلة جديدة، عائلة زوجها واذن فقد أصبح من المتعذر أو على الأقل من الصعب بحكم هذه الظروف أن تستمر العلاقات القديمة دون أن يصيبها بعض الفتور ويلحقها بعض الوهن. وأخته هو أيضاً تزوجت.. وأمه امرأة ضعيفة تدلف إلى شيخوخة متهدمة عاجزة.. ولم تخرج لزيارة أحد منذ وقت طويل إلا اليوم

وهو يرجوها أن لا ترهق نفسها فتعود راجعة دون أن تأخذ حظها من الراحة. وسيعد لها القهوة ولعل أمه تأتي في هذه الأثناء وهي تقبل ذلك برضا مدهش:

«أنا تعبانه من المشوار وصحيح عاوزه أستريح. وأنت زي أخوي..»

وهيأ لها مقعداً متواضعاً مريحاً جلست عليه وأطلقت من صدرها تنهدة خافتة. كان أشد ما يثير عجبه ويبعث في رأسه خواطر غريبة مذهلة – وهو يعد القهوة – هو هذه الجرأة في الخروج عن المألوف في مخاطبتها إياه سافرة بدون أي تكلف وتحفظ. وكيف انها لم تمانع في الدخول حين دعاها إلى ذلك و. و.. هذه أشياء كلها مذهلة محيرة. وقدم لها القهوة وأراد أن يخرج ليدع لها حريتها. غير أنها استوقفته وهي تقول في ابتسامة «رايح فين؟ حاتسيبني لوحدي هنا، أبقى أكلم مين؟ خليك نتكلم سوى ونتذكر أيام كنا صغار، أيام كنا نلعب كثير مش حاسبين للدنيا كلها حساب انت فاكر؟»

وجلس قبالتها وهو يحاول أن يحتفظ بهدوئه واتزانه. كانت برهة صمت لم يجدا خلالها ما يقولانه، هي تشرب القهوة بحسوات متمهلة وهو يختلس إليها النظر.. فيرى أن في جلستها اغراء. وأن شبابها الفاتن وأنوثتها المكتملة الآسرة وروحها الظمأى المتفتحة.. كل هذه تتدفق من عينيها المنهومتين في ومضات

ثائرة تراق على صفحة الوجه متتابعة مشوشة. فإذا عضلات الفم تنتابها ارتعاشات خفيفة عصبية وعلى سائر الوجه تتراقص معاني الغل والحقد وتتوالى صور الاستهتار والهزء والجسم كله يبدو في اغرائه وتهتكه وثورته كأنما يريد الانطلاق في وثبة جامحة مكتسحة. كانت (سعدية) في هذه اللحظة بركاناً لن يلبث أن ينفجر ويقذف بحممه المدمرة وشواظه اللاظية

«انتزعته فجأة من تأمله وهي تقول بصوت متهدجة نبراته: (انت كبرت يا اسماعيل. وصرت شاب قوي. جميل. وحقك يا خوي تتجوز..) قالت ذلك بيأس ومرارة ثم انحنت حتى كاد وجهها أن يلمس وجهه، فعلت ذلك دون ما ارادة كأنما هناك قوة خفية تدفعها دفعاً.. وأحس هو بأنفاسها المحمومة تحرق وجهه. وفي لحظة مذهلة عاوده احساسه الجنسي يعصف في كيانه عصفاً مجنوناً ولم يشعر إلا أنه يأخذها بقوة بين ذراعيه ويهصرها الى صدره بعنف ورجولة.. ويهوي بفمه دون وعي على وجهها وسائر جسمها بنهم ووحشية..

أما هي فكانت تنتظر هذه اللحظة الحاسمة. وكان كيانها كله في استسلامها وذهولها بين ذراعيه الجبارتين يرتوي من فيض متدفق بعد طول ظمأ، وتنبعث فيه الحياة جائشة فائرة بعد ركود أشبه بالموت

أجل! في لحظة واحدة أراقت على التراب كماء قذر عرض ذلك الشيخ الهرم الفاني الذي اتخذها بجبروت المال زوجاً له تفني حياتها وتعصر شبابها بين ذراعيه الكليلتين وعلى صدره المريض

ماذا يهمها؟ هو يمزق شبابها ويخنق أنوثتها اذن فلتسحق عرضه.. وليكن شرفه موطئاً لنعالها، وليكن ثمرة هذه العلاقة ولد من صلب «اسماعيل العامل، الشاب، القوي.. يرث مال الشيخ ويحمل بين الناس اسمه ويأخذ مكانته..»

استمرت هذه العلاقة تعيش في الظلام مدى عامين كاملين عرف اسماعيل خلالها كيف تستطيع المرأة أن «تسرق» العقل وتفري الكبد. وكيف تكون ناراً لافحة آكلة، ونوراً غامراً ونعمة سابغة...

وفجأة! أجل فجأة! انقطعت هذه العلاقة! وعبثاً حاول أن يجد لذلك تفسيراً مريحاً... إلى أن قيل له ذات يوم «ان سعدية وضعت طفلاً جميلاً قرت بمولده عينا أبيه الشيخ المثري. وظل الناس بعد ذلك يتحدثون طويلاً عن ليالي الفرح الشائقة التي أحياها الشيخ احتفالاً بمولده السعيد!..

* * *

ثم ماذا؟ ثم مضى في الحياة يتلكأ.. ويشك في كل شيء. ويرسل بصره وراء كل ظاهرة يحاول أن يستقصي كل ما يكمن في الأعماق ويرسب في القاع السحيق.. ولكن بسخرية ولكن بمرارة وانتقام.. فقد علمته الحياة أن صوراً مغرية فاتنة أخاذة وألواناً مذهلة متجردة خفية تعيش الانسانية في غمرتها وتنغمس في صميمها.. ولا يطفو منها على سطح اليم إلا الزبد والا ومضات باهتة خادعة! ماذا؟ ألم يكن له أيضاً حظه في هذه الحياة المتجردة؟ وما يدريه؟ أليس أمامه من فسحة العمر ما قد يفجأه بصور طريفة أمتع وأخلب من تلك التي عرفها حتى الآن. ولعله يشترك أيضاً في المتاع بأداء دور جديد على مسرح هاته الحياة الخفية العجيبة؟ أجل ما يدريه؟

على هذا النحو راح يضرب في الحياة تعمر رأسه هذا التأملات الغريبة والأخيلة الهائمة المتمادية.. وكان في أثناء ذلك قد حذق مهنته وأصبح فيها من ذوي الخبرة وأراد أن يستقل في عمله فاتخذ دكاناً متواضعة وراح يعمل فيها عملاً متواصلاً أكسبه ثقة الكثيرين وجعله في مدة قصيرة يصيب من التوفيق والنجاح حظاً ما كان يتصور أنه مدركه بهذه السرعة. فازداد نشاطه

وشرع يضع للمستقبل خططاً محكمة ناجحة، وفي مدة سنوات ثلاث فقط أجل، سنوات ثلاث، كان لاسماعيل الشربجي «ورشة» حديد كبيرة يجري فيها العمل على آلات حديثة يديرها عمال كثيرون... وطبيعي بعد هذا الاستقرار أن تتطور حياة العائلة الصغيرة فتنتقل إلى مسكن جديد في ناحية جميلة من نواحي المدينة وأن تتوفر لديها أسباب الرفاهية. لكنها ظلت تحافظ بغيرة وارادة عنيدة على أساليب حياتها القديمة..

وبدأت الأم العجوز تفكر تفكيراً جدياً بزواج ابنها ففاتحته ذات يوم برغبتها «أنت وحيدنا يا بني. ولسانا ما فرحناشي فيك. ومشتاقين نشوفلك عروس حلوة تتفتل قدامنا مثل غصن البان، وأولاد صغار يملوا دارنا.. ربنا يا بني منعم ومتفضل من خيره. أيوه يا بني خلينا نفرح فيك قبل ما نموت. أنا والله يا اسماعيل شايفالك عروس حلوة وبنت ناس طيبين..»

وكان هو حقاً يفكر بالزواج ويشعر بحاجته إلى زوجة يأوي إلي حنانها ويعيش في كنف حبها ويجد الاستقرار والهدوء في ظل عطفها واخلاصها..

ورحب الشيخ «سليمان المتولي» بهذه المصاهرة.

«البنت على حبل أيدكم جياكم خدامة للمطبخ ومين أحسن منك يا اسماعيل يا بني والله انت زينة الشباب وسيدهم. هي البنت اللي تكون في بيتكم تنضام؟! أبداً. حاتعيش مهنايه وسعيدة أحسن من بيت أبوها وزيادة..»

ودخلت زكية بيت زوجها اسماعيل وملأت البيت كله بهجة ونوراً. وأحبت زوجها وأحست بغريزتها أنه رجلها القوي. وأنها واجدة في كنفه لذة الجسم ولذة الروح ولذة الحياة كلها وفاء هو إلى ظلال حنانها وحبها. وراح يعب من هذه الفيض، فيض أنوثتها ينبجس جياشاً غامراً

أعوام خمسة مرت على هذا النحو، مرت كحلم منهل زاخر بأسباب الحياة السعيدة إلى أقصى حدود السعادة

- أجل سنوات خمس.. ما أدري كيف مرت! هي أهنأ سني العمر وأصفاها...

مضى يقول بخفوت وهمس، بعد أن انتهى من استعراض ماضيه، وتأمل أدواره المختلفة الغريبة المتباينة..

وشعر أن حيرته قد فارقته.. وأنه يستطيع الآن أن يستقر على رأي حاسم. فما الداعي إلى كل هذا الاضطراب. ولماذا يفني نفسه في تفكير مضن عقيم؟ وماذا وراء هذا التردد والتخبط، ماذا وراء الحيرة المذهلة والذهن المشرد المكدود ؟.. ماذا وراء هذا كله غير ارهاق الأعصاب وغير الخبل المفزع!...

وهل هو يلام لو اتخذ زوجة ثانية؟ نعم هو يحب زوجته حباً يشعر بحرارته وتدفقه في كل قطرة من دمه وكل ارتعاشة من ارتعاشات روحه وكل خفقة من خفقات قلبه..

لكن ما قيمة النجاح يواجهه في كل متجه؟ ما قيمة كل هذا الاشراق والابتسام تلقاه بهما الدنيا كلها ؟.. ما قيمة كل هذا بغير «أولاد» وهل هو جاء إلى هذه الدنيا الغادر يجرع حنظلها المر ويكتوي بسياط لؤمها ويتقلب في مهاد البؤس والضنك ليغتصب آخر الأمر حظه من الدنيا اغتصاباً ويرغمها على الابتسام له والاقبال عليه.. ثم يخرج منها دون «خلف» كأنه ما جاء إليها ؟ أية سخرية هذه!..

وشعر لدى هذه الخواطر تكظ رأسه بدوار. فقد راعته هذه الحقيقة المرة:

«ان كل سعيه في الدنيا باطل.. تذهب به الريح»

وخيل إليه أن الغرفة كلها تزحمها أشباح مروعة تهمس بهزء حاقد وشماتة قاهرة:

«إلى الفناء أيها المغرور.. الفناء مصيرك.. الفناء يطويك كأن لم تكن..»

فاستولى عليه جمود غلاب شل حركته. وتمثل له الفناء كصحراء لا نهاية لها.. صحراء مقفرة يدوي في متاهاتها زئير يصم الآذان ويرج القلب ويذهب باللب

ولاح في أفق نفسه هذا العزم:

«لا بد من اتخاذ زوجة ثانية. زوج الاثنتين! ولكن ماذا يهم؟... «لن أخرج من الدنيا دون خلف. دون أن يظل اسمي حياً وذكري باقياً.. إلى أبعد ما يمكن أن يبقى ذكر ويخلد اسم.. وما هو ذنبي إذا كانت «زكية» عاقراً لا تحمل؟ لا بد.. لا بد.. لقد تلفت أعصابي. ولم تعد لي قدرة على الاحتمال»

* * *

وهل تنتظر سميحة أن ترسل إليها السماء بأعجوبة الزوج الذي تحلم به؟ وهلا تزال تعلل النفس بهذا الأمل؟ وها هي قد تخطت الثلاثين وأصبحت في عداد العوانس «البائرات» وهل هناك ما يغري الشباب بها؟ فهي فقيرة وحظها من الجمال على (قدها)! فلم اذن لا تقبل أن يكون اسماعيل بعلاً لها. وماذا يضيرها أن تكون له زوجة غيرها أن هذا بلا ريب أفضل من هذه الحياة المملة القاحلة التي تحياها. لقد طال عبوس الحياة وتجهمها لها وأزورارها عنها. وها هي الفرصة سانحة، فما عليها إلا أن تغتنمها ولا تدعها تفلت. ومن يدري

فلعلها الفرصة الوحيدة التي يتوقف عليها نصيبها الضئيل من السعادة في هذه الدنيا... وكانت حفلة العرس بسيطة لم يدر بها أحد واجتهد اسماعيل أن يوفق بين زوجيه وأن يرضيهما. ولكنه كان في الحقيقة أحرص على مرضاة زوجه «زكية» وأسرع إلى تلبية رغائبها فهي على كل حال زوجته الأولى وهي أقرب إلى قلبه وأحب إليه من كل امرأة أخرى مهما بلغ شأنها وهل كونها لم تلد له ولداً يكفي «لكسر» خاطرها واذلالها وازوراره عنها. كلا. كلا

* * *

وتم لاسماعيل ما كان يتمناه إذ حملت امرأته الثانية سميحة. وكان هذا النبأ أول سهم سدده القدر الساخر إلى قلب «زكية» فاصماه. ومن تلك اللحظة بدأت همومها وهواجسها وراحت الغيرة تجد مرعى خصيباً وتربة صالحة في نفسها. ولكنها كانت تكظم هذا كله. وتحاول أن تظهر هادئة عاقلة غير مبالية ولكن هيهات؟ ففي كل يوم شجار عنيف بين المرأتين لأتفه الأسباب تتصل ناره بكل من في البيت. فإذا هي ثورة مدمرة لا يخمد ضرامها إلا حين يفد اسماعيل من عمله فيحاول التوفيق بينهما ولكن دون جدوى إذ تنكفىء «زكية» إلى غرفة نومها باكية بكاء مراً. وتنصرف الأخرى جبارة، شامتة، متوعدة.. وهكذا لا تهدأ الثورة إلا لتنفجر ثانية أشد وأمعن في بث الضغائن واثارة الأحقاد وتمكين الغيرة والهابها..

وآن أوان الوضع فاستعدت له الجدة استعداداً غريباً. حركة دائمة نشيطة وجلبة تملأ البيت.. ملابس الطفل يجب أن تكون جميلة تسر العين. وأسباب الراحة والهدوء يجب أن تكون متوفرة للأم. والدجاج لا بد من علفها بكثرة وسخاء لتسمن وتصبح صالحة لغذاء الأم مدة «النفاس»..

وأصبحت الجدة ترى الدنيا كلها ترقص لها وتبتسم لغدواتها وروحاتها.

وطفقت تناجي الجنين في نفسها. فإذا كان انثى فان اسمها لا شك سيكون «حميدة» وهي بلا ريب سمراء خفيفة الدم. آه انها تكاد تجن لمجرد تصورها كيف انها ستحملها بين ذراعيها وتوسعها بقبلاتها العديدة وتضمها إلى صدرها وتناغيها وستمر الأيام وتكبر وتصبح زينة البيت تملأه فرحاً وضياء. وتتزوج وتلد بنات وبنين الخ. الخ. وأما إذا كان ذكراً. فليست تدري ماذا يكون شأنها؟! فلعلها ترقص ولعلها تقبل كل من يسوقه «الحظ السعيد» في طريقها، ستضيق الدنيا بفرحها على كل حال...

ووضعت الأم. وضعته ذكراً بعث في هذه العائلة الصغيرة اشراقاً متدفقاً وسعادة غامرة وأحيا اسماعيل ثلاث ليالي فرح لم تعرف الناحية التي يسكنون فيها أبهر منها وأروع. ولم يروا اسرافا مثل هذا الاسراف وألواناً من البذخ تعادل هاته الألوان

ثلاث ليالي فرح لم تنقطع فيها أصوات المغنيات ودوي الزغاريد ورقص الراقصات حتى مطلع الفجر

* * *

وتغيرت خطة اسماعيل في معاملة زوجه الثانية. فهو يتودد إليها كثيراً ويختصها بعطفه ويوليها عنايته وحدبه. فهي بعد أم هذا المولود الذي يعبده ويرى سعادة الحياة كلها في ابتسامة من فمه الصغير. وكان انصرافه وابتعاده عن زوجه الأولى بادياً بأجلى معانيه. وان حاول أحياناً أن يطيب خاطرها ويحنو عليها. افتعال فاضح. وتكلف بين ظاهر

ولكن الغريب أن ثورة «زكية». التي كانت تنفجر بها أبداً قد هدأت. وعاودها سكون ذاهل ووجوم ساهم حزين واعتراها نحول يزداد يوماً بعد يوم.

وأراد زوجها أن يراقبها ذات ليلة. فقد رابه هذا التطور الفجائي وأثار الفضول في نفسه. يا لله! أنه لن ينسى أبداً الدهر هذا المنظر المؤلم شد ما راعه وأفزعه:

«امرأة في مخدعها مخبولة، تبكي بكاء مراً في صرخات مكظومة تخرج كفحيح الأفعى وتشد بين الآونة والأخرى شعر رأسها حتى تجتث بعض خصلاته بين أصابع يدها الجامدة المتشنجة. ثم تهوي بفم مغفور وبحالة وحشية على وسائد السرير وتمزقها بنواجذها بغل وجنون

رأى اسماعيل أن امرأته زكية تخطو نحو جنون مؤكد، ربما تكون من ورائه كارثة تعصف بهذا البيت الوادع المطمئن. وأحس بحراجة موقفه ودقته وراح يتدبر أمره ويقلب النظر في هذا الخطر الذي يهدد سعادته وسعادة عائلته.. ولكنه اطمأن إذ لاحظ أن سورة هذا الجنون بدأت تفتر وتهدأ.. بينما ازداد وجومها وتملكها ذهول تام ونزوع إلى الانزواء والوحدة والصمت المطلق.. وساد البيت نوع من الحزن الأخرس. وشعر الكل أن حياتهم تكاد تفسد وتكاد تصبح شيئاً أشبه بسجن رهيب لا يدخله نور ولا تخفق فيه حياة..

وكان يوم من أيام الشتاء المتجهمة والريح صرصر تجلد الجسم بسياط لاذعة والمطر ينهمر ثم يكف ليعود بعد فترة أشد انهماراً. أجل كل شيء كان ينبىء أن فترة العاصفة المدمرة على وشك الانفجار وانصرف كل من في الدار إلى شأنه «سميحة» منهمكة في تنظيف البيت واعداد الطعام والجدة بعد أن فرغت من مداعبة حفيدها وتدليله راحت تؤدي فريضة الصلاة في خشوع وانكسار وابتهال إلى الله أن يديم نعمه عليهم ويبارك فيهم ويبعد الأذى عنهم. وزكية في ركن من أركان غرفتها في ذهولها وغيبوبتها

وفجأة سمع صوت الطفل في الغرفة المجاورة خافتاً حلواً. فأصغت زكية إلى هذا الصوت النائم. وكأن ذهولها قد فارقها هنيهة فانتصبت واقفة واتجهت

مأخوذة نحو الغرفة الراقد فيها الطفل. ووقفت على العتبة تشرب اذناها صوته بنشوة مستغرقة! وكانت ابتسامة الطفولة البريئة الساذجة تضيء صفحة وجهه ويداه الصغيرتان لا تهدآن عن الحركات الطائشة وجسمه كله يهتز مغتبطاً جذلان فاندفعت زكية كنشوى نحو السرير الصغير وحدقت في عيني الطفل. فتملكها حنان غريب مستبد واستولى عليها نعيم مبهم حائر وأحست أن موجة من نور تفعم صدرها وتسري في سائر جسمها رجفات خفيفة مخدرة. فأخذت الطفل بين ذراعيها وراحت تغمر وجهه وكل عضو من أعضائه بالقبل العنيفة المنهومة وتدفن وجهها في صدره وعنقه تشمهما بشراهة وأنانية. وفي ومضة خاطفة طغى عليها احساس غلاب هو مزيج من القهر المرير والحنان المتدفع من البغض الطاغي والحب الغامر، من الطيبة المتسامحة والحقد الآكل... احساس كأنه النصلة المشحوذة القاطعة تتراقص في بريقها معاني الموت.. تمزق القلب وتخطف الحياة بأسرع من لمح البصر

عندئذ لم تع شيئاً. فقد كان كيانها كله في صراع هائل مخيف، ترتعد كالمقرورة التائهة في عاصفة مجنونة مكتسحة. وجحظت عيناها وخبا فيهما نور الذكاء والعقل، وتشنجت عضلات وجهها. وراحت تضغط على الطفل - يختلج بين ذراعيها - بقوة ساحقة وهذيان فاجع.. وفي دقائق معدودة.. كان الطفل جثة هامدة بين ذراعي مجنونة...

جراثيم

«مهداة إلى هذا العامل التعس الذي يخَرج كل
يوم إلى حيث يفني حياته ويتلف قوته وشبابه،
ويعود إذا ما جن الليل يحمل في صدره هم
طبقة شقية بأسرها كل حياتها قصة طويلة هائلة
من القهر والحرمان والموت»

لا يدري انسان كيف قام حزب الأمة ولأية غاية وجد وما هو برنامجه السياسي على وجه التحقيق... أغراضه، أهدافه، روحه الوطنية، الأعمال الوطنية التي حققها، وجوه الاصلاح التي يدعو إليها.. كل هذه أسرار مبهمة لا يمكن الوقوف على حقيقتها ولا سبيل إلى استكناهها والاحاطة بها... ومع ذلك فإن حزب الأمة وهم في أذهان الجماهير، وهم كبير، ضخم متربع في عقولهم، جاثم في نفوسهم بقوة واصرار كمرض مزمن!

كل ما يعرفه الناس عن هذا الحزب هو أن له داراً كبيرة، فخمة، وأن رئيسه «جلال بك مجدي» واسع الثروة، عريض الجاه، تلازم اسمه في الصحف هذه «الكليشة» الأبدية «الزعيم الكبير والمجاهد العظيم» أما أنه زعيم كبير فهذا لا شك فيه! أمر مسلم به، واضح، حار كهذه الشمس الحادة المحرقة التي تصهر الأجسام في آب «اللهاب» أليس هو رئيس حزب الأمة. الا تظهر الاحتجاجات الطويلة العريضة ذات الطنين والرنين مذيلة باسمه على الصفحات الأولى في

الجرائد اليومية بأحرف جليلة، ضخمة، تضج وتدير الرأس؟؟ ومن ذا ينسى «خطب» الرئيس النارية يلقيها في ردهة دار الحزب الكبرى في المناسبات والأزمات السياسية والوطنية، والجموع الحاشدة تتجمع احساساتها وجوارحها ونبضات قلوبها في آذانها تتلقى كلمات الرئيس، وفي أعناقها تمطها مطاً وتشرئب بها إلى منصة الخطابة حيث ترتفع قامة الزعيم جليلة، مهيبة، منيفة، تسيطر على الجموع وتفرض عليها الاحترام والاذعان وتوحي إليها بالتصفيق والهتاف... كلا لن ينسى الناس كلمات الرئيس الخالدة وهذا الوحي الجبار في لحظات الالهام والانجذاب الوطني:

«نحن لكم وأنتم لنا... ونحن جميعاً للوطن!. إن لم نستطع أن نعيش ونكافح في سبيل وطننا، وبلادنا، فان لنا جوف هذه الأرض، جوفها الرحيب الواسع خير مأوى لنا، إن عجزنا عن الكفاح ومدافعة الظلم، القبور آمن لنا وأبقى»
(تصفيق حاد، حماس واندفاع من الجمهور أصوات من القاعة تردد عشت، لا فض فوك..)

وهذه الكلمات الذهبية أيضاً:

«ليس لنا إلا إيماننا أيها السادة، إيمان أجدادنا وآبائنا، إيمان الأولين، هذا الإيمان خير ما نعتصم به وأقوى ما يرد عنا غارة الظالمين، ايماننا هو سلاحنا الذي لا يفله سلاح.. الغرب قوي بدباباته وطائراته ومدرعاته وغازاته ومدافعه ورصاصه، ونحن أقوياء بايماننا، الغرب هو السيف القاطع ونحن الهواء الخالد وهل يستطيع السيف مهما بلغ من مضاء حده أن يقطع الهواء ويحز في الخواء!؟

صيحات حادة من القاعة: كلا. كلا.
يعش الرئيس. هتـــاف «يعش
الرئيس...»

الرئيس يستأنف خطبته بعد هدوء العاصفة:

«أوصيكم خيراً، أيها الاخوان، بتقاليدنا الصالحة، أوصيكم خيراً بعاداتنا الرحيمة، أوصيكم خيراً بتراثنا الاجتماعي، أوصيكم خيراً بما تركه لنا السلف الصالح، فانها لكنوز غالية، ثمينة لا تعدلها كنوز الأرض جميعاً، هذه الحكم والنصائح التي تركها لنا أجدادنا الثاوون في قبورهم العزيزة. تأملوها ملياً هذه الدرر الزاهية (ليس في الامكان أبدع مما كان) (مال الدنيا في الدنيا) (القناعة كنز لا يفنى) (من ضربك على خدك الأيسر فأدر له الأيمن) (من ليس معه يؤخذ منه ومن معه يعطي ويزاد) وغيرها، كل هذه ركائز قوتنا ودعائم منعتنا، هي دستورنا في الحياة والكفاح، هي دستوركم، مستقرها في أعماق صدوركم، فلنبحث عن أنفسنا أيها السادة على ضوء هذه الحكم الأبدية، فلتكن النور الذي يهدينا إلى حقيقة نفوسنا لنسوسها بحكمة وتدبر قبل أن نفكر في سياسة غيرنا، فليكن شعار كل منا: فلأهتم بنفسي ولأعرف نفسي. نفسي فوق الجميع وكل ما عدا هذا باطل، باطل الأباطيل...»

(الجمهور تأخذه النشوة ويستبد به
الحماس فيهتف (يحيا الرئيس، يدم

الزعـيم، هتـاف مـتـواصل يبلغ عنان
السـمـاء، الجـمـهـور يندفع إلى منصة
الخطابة ويحمل الرئيس على أكتافه..)

الجماهير تعرف هذه المواقف الحاسمة للزعيم الكبير جلال بك مجدي وتحفظ هذه الكلمات الخالدة وأين فيها مواطن الاستحسان والحماس وأين تقع منها الهتافات العالية تماماً طبق الأصل عما تنشره الجرائد وتعلق عليه

أما أن جلال بك مجاهد عظيم فهذا هو السر المغلق، علمه عند العارفين المطلعين، فهم يؤكدون سر هذه العظمة في جهاد الرئيس، الدليل الواضح والبرهان الناصع تجده في هذه الصحف التي تفتن في هذا اللقب وتتأنق في اختيار الحرف الملائم له والوضع اللائق به وليس عن عبث أن تخلع الصحف هذا الاسم الكبير على سعادة الرئيس. ان تاريخ حياته حافل، مليء بآيات الجهاد لقد كان خدين جمال باشا في العهد التركي يسير أبداً في ركابه ولا يكاد يبرح عتبة قصره فكم مرة زار «استامبول» وتشرف بمقابلة الباب العالي وكم مرة شغل وظيفة قائمقام وكان له في الحكومة النفوذ البعيد والباع الطويل. وفي العهد الجديد، شخصيته أوضح وأبرز. كان أكثر من مرة عضواً في هيئات ولجان وطنية معروفة، لم يكن يهاب قط أن يمضي الاحتجاجات الكثيرة ويطير البرقيات العديدة إلى المقامات العالية وبعد هذه الأعمال العظيمة والمهمات الخطيرة لا يكون أهلاً لزعامة حزب الأمة ولا يخلع عليه هذا اللقب المتواضع «المجاهد العظيم»؟!

وهناك أيضاً ساعد الرئيس الأيمن نائبه المحترم عثمان بك لطفي الرجل الرصين الحصيف القليل الكلام العميق الصمت ذو البأس الشديد وروح الحزب والمحرك الأكبر في ادارة شؤونه، والأستاذ «مطيع علوي» سكرتير الحزب وساعد الرئيس الأيسر ومثال النشاط والحيوية...

ولا يشك أي انسان بأن سائر الأعضاء على جلال قدرهم وعراقتهم في الحزب وطول باعهم وقوة نفوذهم فإن أسماءهم تصغر وتتضاءل أما عظمة الرئيس، فتظهر جميعاً في الصحف اليومية متواضعة، مذعنة، تحف باسم الرئيس تشير بنفسها إلى تبعيتها ورضوخها... كلها متممات وحواش ببنط صغير تحت اسم الرئيس زعيم الأمة «جلال بك مجدي» وللحزب أيضاً جريدة بثماني صفحات كبيرة (جريدة الوطن) رئيس تحريرها انسان غامض الشخصية، لا لون له يعرف به، يبدو غريب الأطوار شاذ الميول له قدرة غريبة على اخفاء ما يضمر تحت مظاهر خادعة من الطيبة والصفاء. يطالعك بقامته الشوهاء وسحنته النحاسية ووجهه الطويل المسنون ذي الأخاديد والتعاريج، ورأسه الضخم فيه نواتيء ظاهرة تقذى العين، رأس حمار، تبرق فيه عينان صغيرتان خبيثتان تشيان بكثير من لؤم الرجل وانحطاطه الخلقي؟ كلمة واحدة تحدد شخصيته «ضميره في جيبه»! ومدير الجريدة قمأة، بدنه همه إلا كبر في حياته، كحيوان شره، رأسه في معدته، كله شحم أبيض طري رخص، كخروف العيد يعرف كيف يمد يده فارغة خاوية لترجع قبضته صلبة متورمة حشوها الذهب يتشمم (القرش) وله في (خياشيمه) رائحة خاصة لذيذة كرائحة جيفة نتنة يتشممها ويسعى إليها ككلب جائع ضال... احساسه نحو (القرش) احساس ديني حاد، تقديس عميق وعبادة خاشعة! كم شهدت ادارة هذه الجريدة من مؤامرات ودسائس بارعة ومكائد محبوكة الأطراف وهذه الجريدة لم ينشئها الحزب من ماله الخاص بل استمالها إليه وأغراها بالمال الكثير فانحازت إليه بعد أن ناوأته مدة طويلة، حالها هذا المثل السائر القديم «عصفوران بحجر» من ناحية تبتز من مال الحزب ومن ناحية أخرى تشبع حفيظتها على هيئات وطنية أخرى لأغراض مبيتّة في نفسها لها علاقة متينة بصنم الذهب الذي عبده بنو اسرائيل من وراء موسى في خلوته على طور سيناء! والحزب نفسه يخشاها ولكن يده ممدودة أبداً في حلقها «اطعم الفم تستحي العين» وعلى الأخص إذا كانت عيناً وقحة محملقة جشعة فارغة لا يملؤها إلا

التراب كعين مدير الجريدة وصاحبها ومحرريها الذين يكونون عصابة خطيرة مرخصاً لها!

ولحزب الأمة لجان وفروع في كل بلد تضم (عينات) مختارة ثم نفعيين ووصوليين ومهرجين لكل وجهه الذي يتغير ويتبدل في كل مناسبة وعند كل من ورائها خير يعود عليه، نهازو فرص وقناصو غنا* مهرة في الصيد ي الواحد منهم شباكه وحبائله فلا ترتد إلا مثقلة تنوء بحملها، أجلاف ـمائرهم في أحذيتهم، على وجه كل منهم قناع انساني يخفي تحته خطوطاً ـصميمات اجرامية فاتكة، يهتدون بسرعة، بغريزة حادة، إلى الكتف السمينة ينهشونها بتؤدة وصبر وحذق عجيب. هم أذناب الحزب، أعمالهم الوطنية (جوازات) فعالة يعبرون بها إلى أغراضهم

عضو لجنة حزب الأمة في بلد (...) معنى ذلك: «حامل هذه الصفة مسموح له أن يغش ويخدع وينافق ويضلل ويقتنص ويملأ جيوبه تحت رداء من الاصلاح والخدمة العامة والجهاد المتصل لوجه الله والوطن»!! الكل شركة مساهمة «رأسمالها ضمائر وقلوب ونفوس في الوحل» ولكن حزب الأمة مع ذلك كله وهم، وهم كبير ضخم، متربع في عقول الناس، جاثم في نفوسهم بقوة واصرار كمرض مزمن...

٢

تصميم بارع، خطة مدبرة، مدروسة بدقة وبعد نظر ولؤم أصيل، خطة هائلة ولدتها رأس محنكة كثيرة التجارب، أبرز ما فيها الارادة الملحة، ارادة مجرمة، صلبة، أمامها غاية اما تبلغها فتقر ويتحقق الحلم واما تفشل فتلجأ إلى مناورات وأبواب أخرى مدخرة.. من عشر سنوات وعزيز أفندي العيوطي يسعى إلى تحقيق خطته هذه. كان كاتب محام باجر زهيد «ستة جنيهات في الشهر» كان يقتر على

نفسه فيحرمها الكثير ويعيش على الكفاف ويرضى بالقليل يقطع عن فمه ليدخر قرشاً فوق قرش، جنيهاً فوق جنيه، عشرة، خمسين، ماية، مايتين، مايتين وخمسين جنيهاً... جنى عشر سنين طوال، عجاف، كان أثناءها يشتغل ويختلط بالناس ولا يدع فرصة تفوته دون أن يستغلها ويمتصها كديدان «العلق» فحذق الغش والتزوير والاجرام وجعل شعاره «أنا فوق الجميع» استعداد طبيعي في نفسه شحذه وأرهفه طول المران والتدريب، وقد خطر له خلال هذه السنين أن يدرس المحاماة فانها عون على الشر في يد من خنق ضميره ووضعه تحت حذائه. أجل، بعد عشر سنين ظفر بمائتي وخمسين جنيهاً وشهادة محام في صدر مكتبه يصافحها كل داخل وبجعبة عميقة من الاختبارات الواسعة وأسباب الختل والمخادعة والاقتناص، خطته بسيطة وتبدو ساذجة لأول وهلة «ثروة ضخمة وجاه عريض، وصفة ممتازة في حزب الأمة، وكرسي وجيه في المجلس البلدي، أحلام أليس كذلك؟ ولكنها بالنسبة له ممكنات لا أثر للخيال فيها، وإلا فيا خيبة الأمل ويا ضياع التجارب ويا خسارة ما أذهب من عمره في تلقي أصول الاجرام المحبوك... ثلاث سنوات - بعد استقلاله في العمل وممارسته المحاماة - كانت كافية لتعود عليه «ببيارة» واسعة (ماي وخمسون دونماً) من أخصب الأراضي وأنداها، وثلاثة قصور فخمة لا يقل دخل الواحد منها عن مائتي جنيه في السنة... المسألة بسيطة ولكنها جريئة، انتزع البيارة دون ما كد أو تعب، لقمة سائغة لم يجهد نفسه في تناولها وضعت في فمه وضعاً، توكل في قضية لرجل عليه ديون كثيرة له هذه البيارة، أراد مالكها أن ينقذها من الطامعين فيها فلم يجد آمن من محاميه فنقلها إلى اسمه فأنكرها المحامي بعد تسوية مشاكل موكله ولم يجد معه توسل أو تهديد فمات الرجل حزناً وألماً... الجريمة مزدوجة «مال حرام» وموت رجل لا ذنب له إلا ثقته بالمحامي الشريف! ولا سبيل للقضاء على المحامي هو مجرم ولكن لا سلطة للقانون عليه، أما القصور الثلاثة فمن ريع البيارة ودخلها السنوي، المسألة جريئة لا يقدم عليها إلا رجل محنك باعه طويل

في الاجرام... السلطة والنفوذ والشرف والجاه والوجاهة والاحترام للمال فقط... في هذه الأيام. كن مجرماً فاتكاً، كن لصاً خطيراً.. مهما تكن. حسبك أن تكون ذا مال وثروة لتكون مساوئك وعيوبك واجرامك حسنات في نظر الناس، لك صدر المحل أين حللت والرأي السديد كيفما تحدثت والاحترام والتبجيل أين ذهبت والتلبية والطاعة والاذعان لأصغر اشارة تبدر منك... كلهم أذناب وأتباع وحواشي! قد يكون الأستاذ «عزيز العيوطي» معذوراً أو لعل وقائع الأيام وحوادثها تعطيه هذا العذر وتسوغ له الاقدام على الاجرام واللصوصية. لقد شاهد بأم عينه كيف تنهض القصور الباذخة على أنقاض البيوت الآمنة المطمئنة، وكيف يرتفع القناصون على أكتاف الغافلين، وكيف تكون ضربة قوية جبارة تسددها يد مجرمة صلبة إلى صدور الآمنين كافية لأن يصبح صاحب هذه اليد في لحظة واحدة فوق الجميع تنحني له الهامات، وها هو قد استطاع أن يسدد مثل هذه الضربة... فإذا كانت المصائب لا تأتي - كما يقولون - فرادى، فان النعم والخيرات تأتي يزاحم بعضها بعضاً... وغدا تتم له هذه الصفقة العظيمة... منذ شهرين دخل في «عملية» سمسرة كان هو رأسها «عشرة آلاف دونم» في القضاء الشمالي، تمكن هو وأذنابه أن ينتزعوها من مواطنيهم بالدهاء والمكر واغراء المال ويقدموها لليهود بأثمان باهظة - (خمسة آلاف) من الجنيهات حظه من هذه الصفقة! عمل شهرين فقط، ولكنها جريمة الدهر، فلذة من قلب وطنه قدها قدآ وراح يساوم عليها كما يساوم على حذاء... ومع هذا كله فان قدره يعلو في عيون الناس واسمه يرتفع حتى أصبح في صدور الصحف «الوجيه الكبير والمحامي القدير والوطني الفاضل الأستاذ عزيز العيوطي»...

«الوجيه الكبير، والمحامي القدير هيه؟ ولكن متى يقولون الأستاذ عزيز العيوطي عضو المجلس البلدي وعضو هيئة حزب الأمة المركزية متى؟..

أجابه صوت مجرم عميق في قرارة نفسه: «عما قريب. تأهب انك من هدفك

على قاب قوسين أو أدنى..»

٣

الليل في الخارج رابض شديد الوطأة كأنما هو يضغط بقوى خفية سوداء، على الكون والانسان، والفيلا الجميلة، الأنيقة المترفة راقدة وراء أشجار الحديقة، وليس ثمة ما يدل على اليقظة إلا نور ضئيل خافت، يخفق من بعيد خلال الأغصان الكثيفة، ينبعث من نافذة عريضة تطل على الحديقة، ولا صوت هناك إلا نقيق الضفادع المتصل، وهذه الأنغام ينفثها المعزف خافتة، واهنة تارة، قوية متوفزة لها هدير وجيشان تارة أخرى... البهو العريض، ألبسه الذهب المختلس، وأضفت عليه اللصوصية المجرمة، رونقاً ورواء، بهو مترف، عريق، قائم على أكتاف طبقات شقية، محرومة، تكد وتكدح وتعيش على الضنى والحرمان لتقوم أمثال هذه القصور، منيفة، باذخة. جلس في ركن من هذا البهو رجلان يتناقض مظهرهما، أحدهما ناشف العود معروق كأنما اعتصرته يد قوية جبارة وقد غاص في مقعده الوثير العريض حتى لا يكاد يبين، والآخر سمين منتفخ حتى ليكاد يتفتق، كلاهما يدخن ويتعبب (الويسكي) ويصغي في شرود إلى هذه الألحان العذبة، الرخوة تند عن صدر (المعزف) وتتفلت من بين أنامل بضة، متراخية على العاج تمسه برفق واشفاق فيئن ويشكو، ثم تضغط عليه بقسوة فيتمرد ويثور ويرسلها صيحات جائشة متموجة لها أصداء بعيدة تتردد في الخارج... تنهدت المرأة وقامت عن المعزف وقالت وهي تدنو من الرجلين:

«متعب.. أعني واضع هذا اللحن. ما هي مزية هذا التعقيد، وما الفائدة من مراكمة الأنغام بعضها فوق بعض مختلفة، متباينة، لكأني به مخبول، أليس كذلك!» وأطلقتها ضحكة جريئة توقظ في البدن رجفات ورغبات...

ولم يدر الرجلان.. إلى أي منهما السؤال ولا ما هو المقصود منه.. فتململ السمين وأجاب ببله وارتباك «أ.. أ.. صحيح.. متعب وثقيل أيضاً ثقيل جداً.. لقد أتلف لي أعصابي...»

«أعصابك؟! تقول أعصابك، أوه؟ أين هي؟..» وردت لسانها عن الاسترسال وأمسكت ما دار في ذهنها وبقي هذا المعنى مكبوتاً في نفسها: كأن له اعصاباً تحت هذا الشحم...

ولكن لا يليق بها أن تصدمه أو تخزه بتهكمها المعروف فانه قبل كل شيء (رئيس حزب الأمة) وصديق زوجها الأستاذ عزيز العيوطي، هذا الرجل الضئيل المعروق الغائص في مقعده، ثم ان رئيس الحزب يبذل جهده ليمهد الطريق لزوجها في انتخابات المجلس البلدي القادم، كما أنه سيدخله حزب الأمة عضواً في الادارة العليا... كلا على التحقيق، فان الأفضل مجاملته، بل تدليله وملاطفته، تماماً كما تفعل مع هرها العجوز حين تربت له على ظهره وتدغدغ له بدنه، وتصورت نفسها في هذه اللحظة تمسح بيدها على صفحة وجه هذا البدين المتورم، وتفرق له شعره وتفليه، فينتشي ويزوم وتتعثر الكلمات في فمه.. كطفل يحبو.. فشاع اشراق قرير في أسارير وجهها ورفت على شفتيها ابتسامة حلوة لهذا الخاطر، وجلست بقربه تنفذ مشيئة زوجها.. «جلال بك.. أنت رجل مدهش، نشاطك العظيم، عملك المتواصل في الحزب، جهادك القوي الجريء عن هذه الأمة المسكينة، كل هذا يدعو إلى الاعجاب والتقدير»

فاهتز جلال بك واعتدل في جلسته وقال في ارتباك:

«اوه. لا داعي أ.. إلى الفخر.. هذا.. واجب.. وأقل ما يستطيع الانسان أن..» فقاطعته بسرعة بأن أرخت أناملها على فمه السمين، بجرأة وتحكك قصد اثارته وإيقاد النار في بدنه وأردفت تسح:

«كلا.. هذا تواضع.. كمن يريد أن يحجب الشمس بكفه.. اني معجبة، معجبة جداً بك.. شد ما أثارني خطابك المنشور في الصحف والذي ألقيته أمس في دار الحزب، لقد تمثلتك جليلاً، منيفاً، رجلاً بأقوى معاني الكلمة دعني أقل الحقيقة أنت مثلنا الأعلى، أنت قائدنا.. أنت.. أنت كل شيء.. والتفتت إلي زوجها: أليس كذلك؟ كان الجواب مهيئاً على طرف لسانه «لا شك البتة في ذلك..»

وأراد جلال بك أن يقول شيئاً ولكن ارتج عليه ولم يفتح الله عليه إلا بهذه الكلمات يرددها بغباء وبله «العفو.. العفو.. إني لا أستحق هذا انني.. أ.. ي..» ولكنه ظل مأخوذاً.. بهذه النظرة الحنون المصوبة إليه.. ثم ابتسمت له رت جفنها باغراء...

امرأة محنكة.. داهية.. تعرف كيف تخضع الرجل ليحني لها ظهره ويلقي قياده في يديها...

نهض الأستاذ عزيز وقال معتذراً، سأغيب لحظة.. أريد أن أبحث عن سند هام في مكتبي ومضى عنهما مرتاحاً وهو يردد في نفسه:

«قبلة مختلسة، ضمة سريعة، لمسات هنا وهناك، ثمن كرسي في المجلس البلدي وعضوية ممتازة في حزب الأمة... ما أبخس الثمن....»

٤

وحده في بهو الاستقبال بعد انصراف المهنئين وبين يديه جريدة الوطن يقرأ فيها للمرة المائة اسمه مكتوباً بحروف ضخمة في صدر الصحيفة «فوز المحامي الكبير والوطني المخلص الأستاذ عزيز بك العيوطي في انتخابات المجلس البلدي» ثم افتتاحية طويلة تعدد مناقب العضو الجديد وتشدو بأخلاقه العالية

ووطنيته العظيمة وعلمه الغزير ثم تختم نفاقها بهذه الكلمات:

(اننا حين نغتبط بفوز الأستاذ عزيز بك العيوطي إنما نلمح من وراء ذلك عهداً جديداً فيه قوة واخلاص للمجلس البلدي! ولا نشك لحظة في أن هذه الأمة ستظفر من هذا كله بالخير العميم يعود عليها وعلى مصالحها، ولا نخالنا نفشي سراً إذا قلنا أن حزب الأمة يهتم كثيراً في ضم الأستاذ عزيز بك إلى هيئته العاملة ليخدم أمته في جهادها السياسي بما عرف عنه من قوة ونشاط وحزم واخلاص)

وراحت حوادث الأسبوع الماضي تمر بمخيلته بصخبها وضجيجها وحركتها الفائرة. اجتماعات، خطب، مناشير، دعاية، ضمائر تباع وتشترى، لقد بذل كثيراً.. لو لم تكن قبضة رئيس الحزب في ظهره تسنده وتشجعه وتدفعه دائماً لانخذل وباء بالفشل فان خصمه في منطقته قد بذل أيضاً مثلما بذل ولكنه لا يتكىء على دعامة ولا يسنده نفوذ.. وابتسم ابتسامة خبيثة وقحة، لقد تذكر أن لامرأته في هذا كله ضلعاً قوياً.. ماذا يهم.. ان الغاية تبرر الواسطة هذه حكمة ذهبية معلقة في صدره.. ثم عاد ثانية إلي الصحيفة.. كلمة واحدة لها عى قلبه مثل السحر، هذا اللقب الجديد «بك» سخت به عليه صحيفة الوطن، يا للنشوة! ما أعذب هذه اللحن، انه ينحدر في نفسه رقيقاً، حلواً، يخدر أعصابه ويشبع اللذة في أوصاله. «بك.. بك.. بك..» ألوف الكلمات تتزاحم كلها وتستقر في تلافيف دماغه مشوشة، مختلطة، تصرخ بقوة عاتية» بيـ.. ـك.. وراح يضرب على الأرض بقدمه ضربات رتيبة منسجمة كأنما هو يتابع في ذهنه لحناً شجياً توقعه يد قديرة، بارعة، ثم تثاءب وتمطى وتجمعت اللذة كلها في حلقه وخياشيمه!

في هذه اللحظة دخل الخادم يعلن إليه قدوم رجل فقير يطلب مقابلته، لعله عامل، يبدو ذلك في هندامه وخشونة راحتيه ومعاني الضنى والشقاء على

أسارير وجهه

- هل أدعه يدخل ؟
- أوه! كلا. اصرفه، فانك ذكي.. قل له مثلاً اني لست هنا؟
- ولكنه يصر... وهو يعلم أن سعادتك هنا
- كيف ؟
- لقد أخبرته بذلك
- غبي، هذا أنت.. أدخله

ما شأن هذا الرجل؟ انه عامل أيضاً، ذبابة، حشرة تقذي العين المترفة، ما أحقر هؤلاء الناس ويطلبون أيضاً مقابلتنا والتحدث إلينا.. وانتفض الأستاذ عزيز بك العيوطي... «متى يفهم هؤلاء أن لهم حدوداً ينبغي لهم أن يقفوا عندها.؟.»

ودخل الرجل مرتبكاً يخشى أن يخدش السجاد الثمين بحذائه الضخم، وسلم باحترام زائد ووقف يتكلم وفي نفسه شعور غامض، خيل إليه أنه مضى يقول كانما هو يستجدي:

«... أنا والله مبسوط يا سعادة البك من يوم ما دخلت سعادتك البلدية، الله يديمك ويخليك... رضى الله يا بك.. كنت دايماً بتمنى أنك تكون في البلدية علشان يكون لنا ضهر وصوت و...»

فقاطعه بفتور «ممنون يا حضرة... بس أنا مشغول وما عنديش وقت...

- كلمة واحدة يا بيك، جاري الظالم عاوز يبيع الحوش اللي بين داري وداره ويقول الحوش كان تابع لداره وأنا يا بك لما اشتريت الدار بمالي وعرق جبيني وشقاي طول حياتي كنت فاهم الحوش بيني وبينه مناصفة
- طيب وأنا أعملك ايش؟

- البلدية هي اللي تفصل في الموضوع ولجاري أصحاب كثير يساعدوه وأنا ما ليش إلا الله وانت

- أنا... أنا ما دخلتش في الموضوع... رح شفلك محامي

- محامي! أنا رجل فقير وما بحصلش إلا طعام عيالي يا بك

فنفذ صبر الأستاذ عزيز وصعد الدم إلى رأسه واهتز بدنه كله وصاح بالرجل:

- سبحان الله! ما دخلتش في الموضوع وبردك بتعود للكلام الفاضي

- لكن يا بك لما كنت تخطب في الانتخابات كنت بتقول انك عاوز تساعدنا وتدافع عنا وتداري مصالحنا، كنت بتحلف وتشهد الله عللي في صدرك وأنا ضعيف وما ليش حد يدافع عني إلا الله وأنت»

فاحمرت عينا الأستاذ عزيز وتشنجت أعصابه وارتعدت أوصاله كأن يداً قوية لطمته على وجهه فأطارت له عقله وصرخ بالرجل:

- اخرس يا وسخ، انت جاي تحاكمني في بيتي، انت مين، واحد حقير، خدام، حشرة، اطلع من بيتي يا حمار أحسن أكسر رأسك وأرميك زي الكلب.. انت يا محمد، ارمي هالتيس بره...»

ودخل الخادم يلهث وأخذ يدفع الرجل المسكين وهو يشتمه ويلكمه إلى أن أخرجه إلى الشارع. كانت الصدمة عنيفة قتلت كل ارادة في الرجل فانحلت أعصابه وهوى قلبه ولم يعد يستطيع أن ينطق بشيء فانكفأ عائداً إلى بيته وهو يحس أن بينه وبين هؤلاء الذوات برزخاً هائلاً وأنه قدر عليه هو وأمثاله أن يظلوا أبداً تحت مواطيء نعالهم..

***

وقف أمام المرآة يتأمل نفسه في صقالها فتعكس له المرآة صورة من نفسه لم يألفها قبل ذلك في هذه البذلة السوداء «سمو كنغ» والقميص الأبيض المقوى والياقة الصلبة مثنية الطرفين والحذاء الأسود اللامع، يقترب من المرآة ويتفرس

بوجهه الهضيم ثم يبتعد ويسوي السترة على بدنه ويرفع «البنطلون» قليلاً ثم يعطي ظهره للمرآة ويلتفت من اليمين واليسار ليتحقق من جمال قيافته وأحكام البذلة وانسجامها عليه. ثم يجلس تجاه المرآة ويصطنع الوقار باهتمام كأن ثمة انساناً يخطب في حضرته وبعد برهة صفق تصفيقاً خفيفاً ثم تنحنح ونهض بتثاقل وحنى رأسه قليلاً إلى اليمين وإلى اليسار كأنما يرد بهذه التحية على المعجبين من المصفقين وراح يقول بتؤدة وجلال «سادتي اخواني أشكر لكم هذه الحفاوة وهذه العواطف النبيلة الخ الخ..»

وابتسم لنفسه ابتسامة الرضاء والطمأنينة ونظر في ساعته فإذا هي الثامنة والنصف مساء لم يبق على موعد ذهابه إلى دار حزب الأمة إلا نصف ساعة ليشهد الحفلة التكريمية التي يقيمها له حزب الأمة ويعلن فيها رسمياً انتخابه عضواً عاملاً في هيئته المركزية. دخلت عليه امرأته، متزينة، متبرجة، يفوح عطر مسكر من اردانها، ممشوقة القد، وضاءة المحيا، ترفل في ثوب حريري ثمين، امرأة ماهرة، خبيرة في صنعتها، يساعدها في ذلك ضرب من الفتنة العميقة المحيرة وهذا النداء الجنسي المفعم يند عن بدنها في اشعاعات شهوية حادة تقهر الرجل وتحيله عبداً خاضعاً، اقتربت منه في دلال وقالت «ألا تقبلني أيها الرجل؟ فأجاب باهتمام «بدون شك... تعالي... هاتي بوسه» وتطاول إليها وطبع قبلة وقحة مقرقعة على هذا الخد ثم بلع ريقه وتمتم ببلاهة: ما أحلاك... يا روحي...»

قالت: ما رأيك بهذا الفستان؟

قال: ماذا؟

قالت: عشرة جنيهات ثمن هذا الفستان.

فغص وكاد يشرق بريقه وراح يردد في ذهول عشرة جنيهات... عشرة تمام والكمال انت متأكدة أن الثمن عشرة جنيهات؟

فاحتدت وصوبت إليه نظرة فاتكة وقالت باحتقار «عشرة جنيهات. تماماً. يعني مش عاوز تدفع؟

فأجاب وقد انخلع قلبه:

- أوه! سأدفع بالطبع إنما أعني... فقالت بحدة:

- لا تعني شيئاً من فضلك»

فمد يده - صاغراً - إلى جيب سترته وأخرج محفظته وتناول عشرة جنيهات وقدمها لها بذل وخنوع وهو يقول:

- لا داعي للغضب... لا تكوني قاسية، ابتسمي هكذا، هذا ادعى للطمأنينة»

ثم أردف بعد أن رآها قد فاءت إلى الرضا:

- ستذهبين إلى عرس كريمة صديقنا حامد بك أليس كذلك؟ حسن. أخشى عليك البرد ضعي معطفك على كتفيك عند الخروج. فأجابت باهمال:

«لا تخش شيئاً»

فودعها بقبلة وخرج إلى سيارته لتمضي به إلى دار حزب الأمة.

* * *

تنهدت كمن زالت عن صدره غصة ونظرت في ساعة يدها وتمتمت «لا يلبث أن يأتي...» ودنت من مرآتها وراحت تصلح من شأنها وتصفف شعرها وتضع قليلاً من الأبيض هنا وهاهنا، وتمر باصبع «الأحمر» على شفتيها لتزيدها فتنة واغراء على التقبيل... وطاف ببهرة خيالها الرجل الذي تحبه، فبدا لها قوياً، جباراً، بقامته المرتفعة وكتفيه العريضين وهذه الرجولة الصارخة تنبعث واضحة من

لفتاته وحركاته... هو عامل حداد، قوي العضل، تكمن في ساعديه قوة عشرة رجال، وقارنته بزوجها، الرجل الهزيل المعروق ولاحت لها هذه الفكرة الوامضة:

«هذا قوي يبطش بماله ودهائه وقوته على الاجرام والفتك، وذاك بجسمه وصراحته وسذاجته فأيهما أفضل؟»

وأحست بحقد، بكره متأصل لزوجها واشتهت لو أنها تستطيع أن تصفعه صفعات متوالية وتركله ككلب قذر... ولكنها امرأة.. ولا قبل لها بالعيش الخشن والحياة العسيرة، وهذا العامل لا يمكنه أن يتيح لها مثل هذه الحياة الناعمة، المترفة التي تحياها في كنف هذا الزوج البغيض، إذن فلا ضير عليها غريزتها تسوغ لها هذا، فلتنعم بهذه الحياة المترفة والجاه العريض وان كان هذا كله قائماً على الاجرام والفتك، ولتكسر من ناحية أخرى شره هذا البدن الفائر ولتشبع هذه الغريزة الصارخة الملحة في طلب الرجل الفحل في أحضان هذا العامل الشاب القوي يرقرق فيها الحياة وينضر عودها ويحيي شبابها...

....

....

كان الأستاذ عزيز بك العيوطي في الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل يرد بخطاب على خطباء الحفلة التكريمية التي أقيمت له بمناسبة انتخابه عضواً عاملاً في هيئة حزب الأمة العاملة في حشد كبير من الذوات ذوي البذلات السود والأقمصة البيض المقواة والأحذية اللامعة والأجسام المتورمة كان يقول في هذه اللحظة:

«ان أثمن ما نعتز به في هذه الحياة هو الشرف انني أعاهدكم أيها السادة أن

يكون عملي في الحزب لخدمة هذه الأمة المغلوبة على أمرها قائماً على الشرف والكرامة، أجل أيها السادة اني...»

وفي هذه اللحظة نفسها كانت «الفيلا» الأنيقة و«البيارة» الواسعة والقصور الثلاثة والمال المكدس في المصارف ثمرة الاجرام واللصوصية، والزوجة في أحضان العامل الشاب، كل أولئك يشهد بأن حياة الأستاذ عزيز بك العيوطي المحامي القدير والثري الكبير والوطني الفاضل وعضو المجلس البلدي وعضو هيئة حزب الأمة... سخرية كبيرة، مفضوحة من أولها إلى آخرها!!...

احتمال الحياة

خفتت الأنغام فجأة.. وغدت أنيناً ممزقاً وشكوى متوسلة مضنية.. ثم ماتت تحت أناملها في انتحاب بطيء فاجع.. وعم صمت مذهل - ومنذ برهة فقط كان اشراق دافق وحياة نابضة متدفعة وموسيقى لها دوي وهدير

قامت في تراخ وفتور وعدم احتفال.. وألقت نظرة شاردة على «البيان» وهزت كتفيها في سخرية حانقة ولوت شفتيها في عصبية مكبوتة ودارت في سرعة فجائية وقد عرتها اختلاجه ثم دلفت إلى صاحبها القابع في ركن قصي من هذا البهو الفسيح الجنبات - «يأس.. يأس مميت» ند هذا عن صدرها في آهة منهوكة ماتت على شفتيها، وانهدت على أريكة بقرب صاحبها الذي يحلم وهو مفتوح العينين يقظان، الذي أضنته أعصابه لفرط ما استبدت به، وأشقاه حسه لفرط ما استدق واسترهف

قال «لقد أردت هذا، فلا مرد لارادتك» قالت «أردت ماذا؟» قال هذا «اليأس ماذا بل هذا الموت، اشاعته أنغامك، إني أشعر به يدب في روحي ويتفشى في جثماني، هذا كثير أيتها الملكة! كثير أن تجودي بالحياة الفوارة الدافقة على عبيدك - أو على الأصح - على عبدك، فمالك عبد سواي، ثم تقذفين باليأس والموت لو صح أن هذا يقذف - إلى هذا القلب المؤمن بعدلك الخاضع لسطوتك، لسلطة جمالك القاهر، على الأرجح» قالت «وان يكون هذا في لحظة من لحظات الزمن» وضحكت عيناها، قال وهو مأخوذ «أي شيء هذه

اللحظات كم وددت لو أن أكظ بها جيوبي واملأ بها بيتي وأبعثرها في غرفاتي لتكون أبداً تحت بصري وفي متناول حسي فما فتنتني لحظة من تلكم اللحظات إلا تمنيتها أن تكون بعض متاعي أعني شيئاً مثل أصص الزهر أو هاته الآنية أزين بها ما هو عاطل من كل زينة خال من كل وشي لتستجيش ما ركد في النفس ورسب في قاع الوجدان من فلذات الذكرى التي انطوى عليها الزمن ومضى

قالت «ويأبى عقلك المحدود إلا أن يحس ما لا سبيل إلى الاحساس به إلا على المجاز والتخيل والا أن يقيس بمقياس المادة العاجز ما لا يدركه إلا التأمل الطويل المجرد وما لا تصل إليه إلا الروح المتشوقة في سبحاتها ومعارج آبادها»

قال: وما اصرارنا على تقطيع الزمن كما هو الواقع إلى أجزاء تختلف طولاً وقصراً وتتباين عمقاً وضحولة، ألا يكون هذا اقراراً آمناً بالعجز حيال هذا الزمن وشعوراً صادقاً بأنا ضائعون في فجاجه مغرقون في عبابه هالكون في أغواره وأنا لذلك نحاول أن نستهدي ونسترشد بمعالم يقيمها هذا الذي نزعمه عقلاً والذي يزعمون أنه يعمر هذا الخواء القائم بين أكتافنا ؟

قالت جادة وقد أدركت ميل صاحبها إلى العبث والسخرية: على أنه ان فاتنا أن ندرك الزمن ونشعر به فانا على الأقل نستطيع - أو على الأصح استطعنا - أن ندرك الحياة ونحس بتيارها الأبدي وآية ذلك هذا التراث الضخم من الفنون والآداب والعلوم والفلسفات جميعا، هذا التراث ما فتيء يربو ويتضخم ويغمرنا بطميه وجشيانه وسيظل كذلك إلى ما لا نهاية. اننا مدينون لعباقرة الحياة ان أتاحوا لنا أن نحس بتيارها ونفتح صدورنا لأصدائها المتجاوبة الدوي، في سبيل اكتشاف مجاهل الحياة وتحليل رموزها وألغازها ضحى هؤلاء فمنهم من بلغ غايته ومنهم من أصابه الوهن والعياء في أول الطريق فانصرف إلى ما هو أجدى وأنفع له وأعود عليه بالفائدة ومنهم من كاد يدركها فانصرم حبل حياته من

دونها فقضى وفي نفسه حسرات

قال في رفق متحاشياً أن يصدمها: يؤلمني أن لا نتفق وأن يبلغ بنا الحديث حداً تثور معه الأعصاب، كيف نستطيع أن نفصل الحياة عن الزمن؟ تصوري هذا، تصوري أن الزمن شيء والحياة شيء آخر...

فإذا لم يخطىء فهمي فأنت تريدين أن تقولي أن الزمن أبدي غير محدود، بينا الحياة غير ذلك، مهما اتسعت وامتدت آفاقها فهي إلى انتهاء وهي محصورة في حدود نستطيع أن ندركها ونصل إليها - وهذا في اعتقادي خطأ إذ الحياة والزمن وحدة كاملة بحيث لا سبيل ان الاحساس بأحدهما منفصلاً عن الآخر.. ويكون أصح وأقرب إلى الصواب أن نكون نحن محمولين على لجج الحياة والزمن تتقاذفنا وتهبط بنا إلى الأعماق والأغوار حيناً وتطفو بنا على السطح حيناً آخر... ونحن بين هذا وذاك لا نملك غير أن نطوي أكفنا على بعض ما نعثر به في هبوطنا إلى القاع من حجارة فيها الكريم النادر وفيها الرخيص المبتذل... وأن نأخذ الزبد الجافي في صعودنا إلى سطح اليم ونحن في كلا الحالين نعبث ونلهو فلن يستقر بنا التيار الجائح، وقد يركبنا الغرور أحياناً فنزعم أن ما عثرنا به وقبضت عليه أكفنا هو بعض هذه الحياة وموجات من تيار الزمن) قالت في كمد (ما أبشع أن نتصور هذا أعني أن نكون هكذا لا خطر لنا في محيط الحياة والزمن كما يحلو لك أن تتخيلهما ألا نحس بالفشل والاخفاق حيال هذا؟ كلا يا صاحبي أنا أرفض هذا ولا أريد أن أتخيله.. فانه على ما يبدو لي فظيع.. وشبيه بالموت.. اننا نحيا حقاً ونشعر بالزمن والحياة حقاً وإذا تعذر علينا أن ندركهما تمام الادراك فان لدينا على الأقل ومضات خالدة وموجات حية منهما في الأعمال الانسانية المجيدة... وأنا أستطيع أن أحيا الماضي - ماضي العصور والأجيال - في حاضري المحدود، كل هذا على ضوء هاته المخلفات التي تريد أن تجحدها وتنكرها...) قال في اصرار (هو السأم والملال... وهي الرغبة في «احتمال

الحياة» حيال ماركز في احساسنا من اننا سائرون إلى فناء محتوم.. وما هذه المخلفات من فنون وعلوم وفلسفات إلا أدوات نلهو بها كلما أحسسنا بالسأم يغشى وجودنا. أتذكرين (بودلير) الشاعر السأمان؟ قد سجل في شعره الذي أطلق عليه هذا الاسم الصارخ (زهور الشر) هاته الأمواج الطاغية من الملال والسأم... لم يكن يدري ماذا عساه يعمل بحياته... وقد انتهى به التفكير إلى أن يذيب هذه الحياة في الكاس والطاس وفي أحضان البغايا.. وفي شعره الذي يتجاوب بأصداء اليأس والسأم.. قالت (عنيد لا تريد تريد أن تقنع هذا أنت.. وأية فائدة من حديثنا إن كنا لا ننتهي إلى رأي نأخذ به أو غاية نقف عندها.. ألا يحسن بنا أن نقصر؟) قال وإذا كانت الانسانية لم تنته إلى غاية معلومة ولم تدرك غرضاً معيناً في جهادها الطويل الشاق في أجيالها وعصورها المتعاقبة فأحرى بنا نحن الضعيفين أن لا ننتهي إلى شيء) قالت (هذا لا ينفي كونك مكابراً ترى الحق وتحجب عينيك براحتيك كي لا تراه) قال (ليس مكابراً من يجيل بصره في نواحي نفسه ليتفهم أسرارها ويكتنه معانيها ويتقصى آفاقها... ولو تأملت نفسك منذ برهة وقد غشيتك موجة من اليأس والملال فأنعمت بهوك هذا أنغاماً تشيع الموت في السامعيها بعد أن أطلقتها قبل ذلك صاخبة داوية لراعك ما كنت فيه... كنت إذ ذاك ذرة من هذه الانسانية التي يعذبها السأم. والتي تجعل من رغبتها في احتمال الحياة فنوناً وآداباً وفلسفة وعلوماً... قالت وقد فتنها صاحبها فاندفعت نحوه أنوثتها الظامئة (خذني بين ذراعيك يا رجلي.. لأنت خير من أدفع به سأم الحياة..) قال حسبي أن فزت من الحياة بك يا فاتنتي.. كم أنت آسرة في هذا الثوب البنفسجي الكامد، يحوطك هذا الجو المبهم من أضواء خافتة، وأرائك من دمقس وعطور غريبة مسكرة وموسيقى مخدرة مميتة... وهذا القلب الخاشع...

(وكان ليل أعقبه نهار...)

مع الناس

(مجموعة قصص)

هذه المجموعة

عرفت في فترات متباعدة من الزمن اشباهاً لشخوص هذه القصص في حياتنا، والحياة هي مصدر الهامنا،فإذا لم نسوٍّ شخوص قصصنا على مثال أحيائها فلست أدري ماذا عسانا نفعل ومن أين نلتقط مادة إبداع أولئك الشخوص وبث الحياة فيهم وإدارة الحوادث بينهم وتصوير الجو الذي يعيشون فيه.

وإذا كانت ملامح شخوص هذه القصص لا تخرج عن حدود الصحة والصدق، وإذا كانت سماتهم سوية الخلق سليمة الأداء، وإذا كان الجو القصصي الذي يعيش في نطاقه كل منهم هو الجو الملائم لبيئته ووسطه وللعوامل النفسية والاجتماعية التي توجه تصرفه وتؤثر في سلوكه، إذا كان هذا كله مما يتصف به هؤلاء الشخوص، وتتخذ الحوادث والأزمات ألوانها المميزة منه، فإن هذا حسبي، وهو فوق ما أرجو من بواعث السعادة والاطمئنان.

وسأدع للقارىء بعد هذا أن يفهم ما يريد من هذه القصص، وأن يترجم لنفسه مراميها ومقاصدها على الوجه الذي يطيب له. ولكن إذا أثبت شخوصها وجودهم في ذهنه وخاطره بعض الوقت، وإذا وسعهم أن يشغلوه ويثيروا في نفسه القلق أو التساؤل أو يشيعوا فيها الغبطة والسلامه فيحب بعضهم ويكره بعضهم الآخر أو ينفر منه، ولا يلقاه لقاء الصديق... فهذا ما لا علاقة لي به، وإنما يسعدني أن يكون شأنهم شأن الأحياء الذين يعايشهم، يخلط بنفسه من يصفيه الود منهم ويباعد بينه وبين من ينكر من أمرهم ما لا يحمده أو ما لا تطيب به نفسه، لأنهم عندئذ يكونون قد استوفوا شروط الخلق الفني الاستيفاء المنشود.

وبعد فهذا حديث قصير - حديث تعارف ولقاء بيني وبين القارىء وليس بمقدمة، فما أحب كتابة المقدمات، ولا تستهويني قراءتها كذلك، فهي تلهيني عن الأصل، وتصرف ذهني عنه، فكأنها وجهة نظر خاصة توحي للقارىء بأن يتقيد بها ويقرأ الكتاب على ضوئها، ولا يعدو فيما يريد فهمه ما يحدده له المؤلف. وفي رأيي أن القارىء ليس طفلاً تعوزه اليد التي تقوده أو تنهض به إذا كبا وتقيله إذا تعثر؛ وهو خليق أن يسير وحده بلا معين، وقد يكون أذكى من الكاتب وأبعد بصراً وأصح حكماً.

محمود سيف الدين الايراني

١٦-١٢-١٩٥٥

الخروج من الجنة

في يافا... أيام الخير عرفت «أبوخميس»، بائع الفاكهة. اني ما أزال أذكر دكانه الصغير، الضيق، في المنعطف المؤدي إلى طريق الميناء، وقد امتلأ بصناديق الفاكهة: تفاح ورمان وعنب، عملت يد مفتنة على عرض كل صنف منها عرضاً حاذقاً، مغرياً، هي يد «أبوخميس»، الرجل الطيب الذي يخرج من بيته مع الفجر، يستقبل عربات الفاكهة في باحات سوق الخضار، فيأخذ منها حاجة دكانه؛ ولا تكاد تشرق الشمس حتى تكون عناقيد العنب وقطوف الموز معلقة فوق مدخل الدكان، تتلقى تحية الصباح: ابتساماً ونضرة وضياء.. عناقيد العنب تلك، في موسمها، تبهر العين في دكان «أبوخميس»، لكأنها ثريات صغيرة متلألئة أبداً بالنور.. والبهجة...

والنور والبهجة نبع يفيض من فم «أبوخميس» وقلبه، وكثيراً ما كان يخيل إليَّ أنَّ حديثه أشهى من فاكهته، وتحيته أحلى من أعنابه وتفاحه تلقي إليه تحية الصباح:

- أبوخميس... صباح الخير...

وعلى الفور تنفرج شفتاه عن ابتسامة تقطر رضاً وحلاوة ويجيب متهللاً: كما يحسنه هو، والذي كان أبداً يعرف كيف ينتقي لزبائنه الكثيرين ألذَّ الفاكهة وأطيبها من دكان أبي خميس. وكان أحسن ما يكافىء «أبو خميس» به جهد

يومه طبق الكباب يصنعه له الحاج مصطفى عشية كل يوم ويضيف إليه كثيراً من المشهيات كالخيار المكبوس والسلاطة الطحينية، عدا كوباً من اللبن الرائب والرغفان الساخنة... وكان أبو خميس، حين يجلس إلى طبق الكباب وسط دكانه وقد أخذت المصابيح الكهربائية العديدة تسكب نورها الساطع على فاكهته وتحيل دكانه شعلة من الأنوار، يشعر أعمق شعور وأتمه بسعادته وبأنه حقاً «أبو خميس» الذي تشهد له يافا كلها، أنه أبرع من تناول عنقود عنب بين راحتيه وراح يتغنّى به بصوته الذي يسيل رقة وحلاوة: «يا طالب الزين ميِّل حدينا يا عنب... اللي له حبيب يميل حدينا يا عنب...»

ويحدثنا دكان «أبو خميس» أنه كان قبل الحرب لا يكسب أكثر مما يفي بنفقاته اليومية، وأنه كان سعيداً بهذا الرزق الحلال، قانعاً به، شاكراً نعمة ربه عليه، ولما وقعت الحرب وارتفعت الأسعار وكثرت الأعمال واغتنى الكثيرون: كأنما كانت الثروة تهبط عليهم من السماء، ازداد بالطبع دخل «أبو خميس» وادخر ثروة صغيرة واستطاع أن يرفه عن نفسه وعن أمه العجوز الحاجة نفيسة، وأصبح في وسعه أن يكون له أكثر من شروال واحد من الجوخ الثمين. ويوم ذهب إلى القهوة المطلة على البحر وقد لبس شرواله البني الفاخر وأمال طربوشه الجديد إلى اليمين... يومها رأى زبائن القهوة جميعاً سلسلة ساعته الذهبية تلمع على صدره. سلسلة غليظة ذات زرد مبروم من الذهب الخالص تتأرجح على صدره في خط متقّوس، وتقول لمن لا يعرف أن «أبو خميس» قد استطاع بتوفيق اللّه وعرق جبينه أن يكون له مال وعز وجاه... في ذلك اليوم، في تلك اللحظة بالذات، بعيد غروب الشمس بقليل، لم يكن في الدنيا كلها انسان أكثر منه سعادة. وكانت أنفاس «نار جيلته» يستلها على هينة ومهل، ورشفات قهوته الحلوة المعطرة يستمرئها بلذة ونشوة؛ تشهد أن أبا خميس رجل جدير بما أفاء اللّه عليه من الخير والنعمة... جدير بهذه السعادة التي ملأت نفسه رضاً وسكينة ومسرة...

وفي الحرب تزوج «أبو خميس»، وأتاح لأمه العجوز أن تفرح، وترى في حياتها يوماً هنيئاً حقاً، وكانت زوجه كما حلم دائماً أن تكون: «صغيرة، حلوة، بنت ناس...»

ومع ذلك فقد كان «لأبو خميس» ماض، إن لم يكن حافلاً بالأحداث فهو على الأقل يستحق أن يذكر. ماض شهده هذا الدكان جملة وتفصيلاً، وشهدته ساعة البلد القائمة في رأس برجها الشامخ، تشرف على أسواق، المدينة وتسجل حركة الزمان ببطء وقسوة واستمرار، لا تهن لحظة عن عملها الشاق. ولقد شهدت هذه الساعة الكثير من أحداث هذا البلد وفواجعه ومآسيه وأفراحه القليلة النادرة. شهدت مهازل السياسة ثلاثين عاماً أو تزيد، وشهدت شعباً بأسره يفور ثم تهدأ فورته ويثور ثم تنطفىء ثورته، ليعود يفور ويثور من جديد ويريق دمه في فسحة تلك الساحة تتفرع منها أفواه الدروب والأسواق إلى ما لا نهاية... يريق دمه في سبيل ما يفهم وما لا يفهم على السواء. لقد كانت يافا، حقاً، مطية ذلولاً لكل راكب من محترفي التهريج... وشهدت هذه الساعة كذلك أفراح هذا الشعب في مواسمه البلدية، شهدت جموعه الحاشدة تزف صوب النبي روبين، وتحتفي بالمولد النبوي الشريف في مواكب من الحماس والبهجة والمرح تقرع فيها الطبول وتصدح الموسيقات وتخفق البيارق... إنه شعب يعرف كيف يفرح، انه يملك عبقرية السرور، كان يعوزه فقط أن يكون أقل سذاجة، كان يعوزه شيء من الخبث والدهاء ليكشف الستار عن خساسة المتلاعبين بمصيره، العاملين باسمه، المجرمين بحقه... ولم تغفل هذه الساعة أن تختلس مع ذلك النظر حيناً بعد حين من قمة برجها الشاهق إلى «أبو خميس»، وإلى دكان «أبو خميس»، وكان يعجبها منه قامته المنتصبة أبداً، وجده ونشاطه وأمانته، وعكوفه على عمله دون وناء في النهار وشطراً كبيراً من الليل. وكان يعجبها ويزدهيها على الأخص، صوت «أبو خميس، صوته العذب يرتفع متغنياً بفاكهته، واصفاً حسنها، مغرياً بشرائها، كانت تستطيع أن تميز صوته وتستخلصه من بين ضجيج العربات والسيارات

والخلق في تلك الساحة الواسعة، كما كان هو أيضاً يستطيع أن يميز الحين بعد الحين دقاتها الرنانة المتزنة، تمزق حجاب الصمت ليلاً، وتختلط بضجيج العيش وحمى الكد والسعي نهاراً... ولكنها رغم هذا كله ما كان يدخل في طوقها أن تغضي عن أشياء تبدو لها مريبة من «أبو خميس» كان إذا تقدم الليل وخلت الطرقات من أكثر السابلة والعائدين إلى بيوتهم، بقي دكان «أبو خميس» مفتوحاً تشع منه الأنوار، وكانت تلك الساعة تلحظ بوضوح من رأس قمتها العالية انجذاب «أبو خميس» إلى ما يجري داخل ملهى «الظريفية» القائم في الجانب الاخر من الساحة مقابلاً لدكانه... الحياة في هذا الملهى لا تدب إلا ليلاً فتسطع فيه ثريات الكهرباء وتنبعث منه أنغام الموسيقى ساحرة، لينة، حلوة، تمس القلب، وتسكر الحس حيناً وتصخب وتعربد وتضج أكثر الأحيان... وكان سرعان ما يمتلىء بالرواد والباحثين عن اللذة والمستجيبين لنداء الليل... ولم يكن هذا كله هو الذي يفتن «أبو خميس» ويدير رأسه ويجعل بصره مشدوداً أبداً إلى هذا الملهى، بل كان المسرح المزدان بالثريات الكبيرة والاعلام وثعابين الورق الملون هو محط أنظاره... وكان ما يجري فوق ذلك المسرح مهوى قلبه ومثار حسه، كان يرى كل شيء من خلال النافذة العريضة بجانب المسرح. كانت الراقصات يلحن له، هكذا من بعيد، كأنهن يسبحن في غمر من الأضواء الباهرة... كان أبو خميس يحترق من وقفته تلك وراحته مبسوطة فوق جبهته... كانت الأبدان الناصعة، إذ تتلوى وتموج ثم تنفرط منسابة ثم تعود تترنح وكأنها تتخلع، وتكاد تتهالك من فرط الحنين، كانت تلك الأبدان الناصعة... من بعيد... ترسل سيلاً من النار في أعماق «أبو خميس»... وكان هو كل ليلة في وقفته المتولهة تلك... كأنه يتضور جوعاً... كأنه يستجدي ما لا سبيل إليه... وكان هذا كله يحزن تلك الساعة في برجها العالي... كان يحزنها أن تلحظ صديقها يضل وتعصف به الفتنة... وكان رنين دقاتها في مثل ذلك الوقت من الليل كأنما يشد به الأسى... كان كأنه النذير... ولكن «أبو خميس» لم يرعو، وأصبح ذات يوم

فاذا له خليلة... من هاتيك الراقصات اللواتي كن يلحن لعين «أبو خميس» كأنهن ينقلن خطاهن بين نجوم السماء في ليالي أرقه وحنينه... اختلبت لبه بغمز عينيها وتثنيها، إذ تسير وسنها الذهبية البراقة تومض، إذ تبتسم ابتسامتها الغاوية الماكرة، ولقد كساها «أبو خميس» حريراً وملأ معصميها ذهباً ووضع في أذنيها قرطاً من الماس يتلألأ أبداً... لقد أراق تحت قدميها كثيراً مما كان يكسب في الحرب... ومع ذلك فان «فتحية» ما كان يرضيها شيء... كانت لعوباً، ماكرة، بغمزة عين وضحكة سن كانت تستطيع أن تحيله عبداً خاضعاً... لقد شقي معها، وذاق العذاب، كان حبها كأنما هو تنكيل به، وعلى الأيام فقد «أبو خميس» بشره ومرحه واعتاد جبينه التقطيب وساءت أخلاقه، وضاق صدره من الحرج، وانسلت تلك الحلاوة التي كانت كانما تتقطر من صوته إذ يتغنى بفاكهته. لقد كان هلاكه محققاً لولا أن جاء الخلاص... فقد ملّته فتحية وعنَّ لها أن تلقيه... دفعة واحدة، أن تثفله كأنه بقية شيء امتص واعتصر... كأنه مضاغة لا خير فيها... تركته وتبعت فتى يلبس البنطلون، ويحلق شاربيه، ويحف حاجبيه، ويرجل شعره ويذر البودرة على وجهه ويتخطر إذ يسير... وقد أيقن (أبو خميس) بعد أن أفرغ روعه، وهدأ واستكان، أن اللّه قد كتب له الستر والسلامة فعصمه من شر هذه المرأة. ولما تزوج بعد ذلك تلك التي حلم دائماً أن تكون «صغيرة وحلوة وبنت ناس» عاد البشر إلى تلك الساعة الكبيرة المستقرة في قمة برجها، وعاد إلى رنين دقاتها الصفاء الخالص، وأضحى في وسعها أن تتبين البهجة والرقة والحلاوة وتترقرق من جديد في صوت (أبو خميس) وهو ينادي: «جواهر يا عنب... اللي له حبيب يميل حدينا يا عنب...»

ايه... تلك الأيام ما كان أحلاها وأشهاها...

وكان يمكن أن تستمر حياة (أبو خميس) رخية، لينة: ينعم بما أفاء اللّه عليه من خير، ومن حب تفيضه عليه «زهية» زوجه الحبيبة، الخجول، والتي لا يدخل

في وسعها مع ذلك إلا أن يثب قلبها فرحاً في صدرها، وتبرق عيناه اعجاباً بزوجها... (أبو خميس)... إذ يبرم شاربيه... ويختال أمامها بسرواله البني الفاخر، ويزهى بسلسلة ساعته ذات الزرد المبروم من الذهب الخالص، تتأرجح على صدره في خط متقوس.. كان يمكن أن تستمر حياة (أبو خميس) رخية لينة، لولا أن القلق أخذ يساوره، ويخزه بمثل الابر.. وكانت يافا... مدينته... الرابضة في شموخ واعتزاز على شاطىء البحر الأبيض المتوسط... سبب قلقه...

ما كان أبو خميس يتصور في يوم من الأيام أن يافا... الجميلة... يمكن أن تغلب وتقهر... انه المستحيل بعينه.... كانت يافا في رأيه هي يافا... الجبارة... وحماتها هم حماتها الأباة... يافا تلك العروس التي ما فتئت أمواج البحر الأبيض منذ القدم تتهالك غراماً عند قدميها... تغسلهما صباح مساء، لا تكاد ترتد لحظة حتى تعود أكثر هياماً وأعنف غزلاً... يافا تحف بها جنات البرتقال ينفث زهرها طيباً... ويمج ثمرها شهداً... هل يمكن أن تغلب؛ لقد انتصرت دائماً.. في الماضي... كانت تذود فتحسن الذود... كانت تعرف دائماً كيف تسدد الضربة القاصمة... كان اسمها يثير الرعب وينذر بالهول... وما كانت تفعل أكثر من أن تُعمل حذاءها الضخم في اقفية بني صهيون... حتى حين كانت ترى يد العدوان والغدر تمتد إلى أطرافها تقتطع منها فلذات غالية... كانت واثقة أنها في النهاية تستطيع أن تسترد كل شيء... كانت جراحاتها لا تزيدها إلا قوة وعناداً وعزماً وصموداً لا يهين أبداً...

كان (أبو خميس) يحس بهذا كله احساساً فطرياً، كان ايمانه بيافا لا يزعزعه شيء، كانت يافا هي الدنيا في نظره، وما كان للأشخاص أية قيمة... واحد يأتي وآخر يذهب... يتنازعون زعامتها... كان يبدو أنها لا تبالي أحداً... انها تسخر بهم إذ تسلس لهم قيادها... وتمضي هي في مرحها وبحبوحة عيشها، لاهية إلى أبعد حد حين يدعوها اللهو، وممعنة في الجد حين لا يكون لغير الجد متسع؛ ومع

ذلك فأبو خميس طفق يُحس منذ عهد غير بعيد احساساً غامضاً، إحساس من يتوقع خطراً ما لا يتبينه، أنه يَحْسُن بهذه المدينة، بمدينته، ان تفيق قليلاً، ان تنظر حولها، ان تفتح عينها شيئاً ما، ان لا تسلس قيادها هكذا دون حساب... كان يداخله الريب فيما يرى من مظاهر «البحبحة» والرفاه... كان قد بدأ يفقد طمأنينته و... ثقته... لقد وهب يافا في السابق قطرات من دمه، وخرج من ثورة ١٩٢٩ . بجرح عميق في صدره كاد يودي بحياته... وهو الآن مستعد أن يهب يافا دمه كله... لقد أصبح على ثقة بأن الأعداء يكيدون لمدينته ولوطنه كله، وكان، من حين إلى حين، يبدو له في غموض كمن يتلمس طريقه في الظلام، ان اليوم الذي تحتاج فيه يافا إلى كل واحد من أبنائها يذود عنها ليس ببعيد، كأنما كان للخطر المقبل فحيح ينفذ إلى أذنيه من حيث لا يدري، ويلفحه بمثل ريح السموم... فينتفض وتسري الرعدة في أوصاله ويهبّ مذعوراً يرسل بصره هنا وهناك يتفقد مدينته ويستوثق من أنها ما تزال سالمة لم يمسسها سوء... فيطمئن إلى حين، ولا يلبث أن يرسل صوته المنغوم في تلك الساحة الواسعة الغارقة في ضجيج العيش: «جواهر يا عنب... عنب يافا يا عنب...»

ومع ذلك فان فراسة (أبو خميس) لم تخب... لقد جاء اليوم الذي كانت يافا تحتاج فيه إلى كل واحد من أبنائها يذود عنها ويجود بنفسه في سبيلها... هذا اليوم عمل على تقريبه الدخلاء... شد ما نال وطنه من أذى الدخلاء... ان المؤامرة على يافا وعلى وطنه كله كانت قد أحكمت بخبث ودهاء... منذ بعيد... كانت هذه المؤامرة تدبر وتحاك شباكها سافرة حيناً... وخفية أحياناً كثيرة... في هذا اليوم... بدأ «أبو خميس» يفهم أشياء كثيرة ما كان ليفهمها في الماضي... تلك المدينة - تل أبيب - التي تقذف الآن يافا بحمم مدافعها ما كان أهون شأنها يوم بدأت ترفع رأسها في ذلة ومسكنة، قبالة مدينته على شاطيء بحر الروم... كانت هناك في ضعفها وضآلتها وهوان شأنها... كمن يستجدي، وكانت يافا في شموخها وقوتها وتاريخها كأنها تَعفُّ أن تذودها فترحم ضعفها وذلها، وتمنّ

عليها بالفتات وعلى شفتيها ابتسامة عريضة، ضخمة، كلها ثقة واعتزاز، لأنها تعلم أن تلك الدخيلة لن تكون أكثر من حصاة تحت نعلها... تستطيع أن تسحقها في كل لحظة، ولكنَّ يافا تسامحت أكثر مما يجب، وأذنت لتلك الدخيلة أن تطمئن وتستقوي... في جداها... فتمتد لها جذور بعيدة... وتكبر... وتتضخم... على الأيام... وتشمخ بأنفها... ويل للناس من ضعيف يستقوي... ليت يافا سحقت تلك الحصاة تحت نعلها قبل أن يشتد عودها...

لقد فهم «أبو خميس» أشياء كثيرة ما كان ليفهمها من قبل... وكاد ييأس لولا أنه رأى بأم عينه أن كل واحد من أبناء يافا قد هب ليذود عنها ويجود بنفسه في سبيلها..!

هل تستطيع يافا أن تدك تل أبيب؟ أن تصرع التنين؟ وأن تحطّم الصخرة التي نشأت، في يوم من الأيام، حصاة تحت نعلها؟

قد تستطيع ذلك... ولكن بالثمن الفادح، هذا الثمن رآه «أبو خميس» يوم خرج يشيع أحد أبناء يافا من المناضلين... فتى في العشرين... وحيد أمه... أردى الكثيرين من الأعداء قبل أن تمزق جسده شظية من قنابلهم... لقد رأى «أبو خميس» تلك الأم وهي تتلقى في راحتيها سيل الدم المتفجر من جسد ابنها تشربه ولا تدع قطرة منه تسقط على الأرض... بكى ساعتها «أبو خميس» كما لم يبك في حياته قط... وتحقق من فداحة الثمن...

يا الله، شد ما تدافعت الحوادث بعد ذلك وتشابكت وتعقدت... كل شيء كان يوحي أن اليد العربية في فلسطين ستبطش بعدوها الذي استباح حماها وعاث فيه ولوثه... ولو كان الثمن ثقيلاً، فادحاً، إن «أبو خميس» لم ييأس من ذلك حتى يوم رأى السرايا القديمة الرابضة في قلب يافا تنهار أمام عينيه وقد استطاع العدو أن يدكها بمتفجراته بعد أن تسلل إليها خفية... هذه المأساة المروعة

في رائعة النهار شاهدها «أبو خميس»، وشاهد ضحاياها الكثيرين وقد عادوا خليطاً من أقدام وأرجل وأيد ورؤوس فصلت عن أجسادها، كما شاهدت هذا كله ساعة البلد القابعة في رأس برجها تشرف على أسواق المدينة، وتسجل حركة الزمان وأحداث هذا البلد... لم ييأس حتى يوم بدأ الخوف يتسلل إلى النفوس ويطل من الأحداق... ذات صباح دار بينه وبين جاره الحاج مصطفى بائع الشواء حديث:

- كيف الحال يا جار؟

- الحمد لله... في خير من الله...

- رأيك فيما يحدث؟ نسف اليهود أمس السرايا... واليوم فجّروا لغماً بالقرب من سينما الحمراء... ما رأيك؟

فاقترب «أبو خميس» من جاره ووضع يده على كتفه وقال:

- رأيي... بصراحة... لازم نصمد... هنا وفي كل مكان... قد يموت منا الكثير... لا شيء بدون ثمن... هذي حرب يا حاج مصطفى

- لكن

- مالك؟

- خايف

- ليش؟

- كلام في سرك... سمعت أن ذخائرنا قليلة... وسلاحنا غير كاف...

- مش صحيح...

- لا... صحيح... بس انت مش واعي من يومين ثلاثة... رح إسمع ما يقال...

- على فرض هذا صحيح، فستأتينا الذخائر والأسلحة قريباً... لا تيأس أبداً... خليك رجل... فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا...

وعاد «أبو خميس» إلى دكانه واجماً يفكر. أيمكن ما قاله الحاج مصطفى

صحيحاً، كل شيء يهون إلا أن تفقد الأسلحة والذخائر... أولادنا، البركة فيهم، شجعان، أبطال، لا يهابون الموت؛ إنهم أبناء يافا حقاً... انهم وراء بنادقهم في الليل والنهار، لا يفارقون استحكاماتهم ويذيقون اليهود الموت الأحمر... أمَّا إذا فقدوا السلاح والذخيرة...

كانت أنباء المعارك كثيراً ما تشد من عزم «أبو خميس» على الأخص المعارك السافرة التي يقابل بها العرب اليهود وجهاً لوجه... بالسلاح الأبيض... تلك المعارك، كان العربي فيها كأنه النسر المنقض، كان يستطيع بقبضة يده وقوة جنانه أن يجندل خصمه، أن يسحقه سحقاً، معارك رجال... شد ما كان الأعداء يرهبونها ويعصف الذعر بقلوبهم إذ يسمعون أنباءها.

وذات يوم اعتزم «أبو خميس» أمراً. حدثته نفسه في لحظة هدوء «لماذا لا يفعل شيئاً ما، هل يكتفي بأن يبيع موزه وأعنابه وفاكهته... ويرقب أنباء القتال؟ لماذا لا يشتري بندقية؟ ثمنها فادح... بضع مئات من الجنيهات؟ أي بأس في هذا... فليشتر إذن بندقية... ورصاصاً لها...» أحسَّ أبو خميس وهو يقلب بندقيته بين يديه بكثير من الزهو... بندقية جديدة، من نوع ممتاز، وبضع مئات من الرصاص، يكمن الموت وراء كل واحدة منها... كل رصاصة يجب أن تستقر في صدر أحد الأعداء أو في رأسه تحطمه...

وتطوع «أبو خميس»، الرجل الكهل، في الحرس الوطني... كان يبيع فاكهته نهاراً ويتحدث إلى جيرانه ويتلقف أنباء القتال هنا وهناك... وفي الليل يكمن في استحكامه على حدود بلده في جهة الجنوب في أطراف (الجبالية) مقابل (بيت يم) المستعمرة الصهيونية، وكانت كل رصاصة تنطلق من بندقيته تجد مقتلاً في صدور الأعداء ورؤوسهم، كان يسمع صياحهم، ويتبيَّن الذعر ينفجر من حناجرهم... ومع ذلك فانهم يملكون من السلاح ما لا يملكه العرب... ألف رصاصة منهم تنطلق في لحظة، لا يقابلها أكثر من عشر طلقات من الجانب

العربي... وما يكاد يلوح الفجر حتى تكون جثتهم تغطي تلال الرمال هناك أو تتقاذفها أمواج البحر من الناحية الأخرى... من الغرب... .

كان «أبو خميس» إذ يسير مساء متنكباً بندقيته ليتخذ مكانه من الاستحكام يشعر أنَّه أسعد الناس... وأنه يجاهد في سبيل اللّه... وكان قرآنه الصغير لا يفارق مكانه من صدره تحت قميصه... كان يشعر أن هذا القران يحميه ويمده بالقوة والعزم، وأن الموت لن يجد إليه سبيلاً ما دام كلام اللّه مستقراً بالقرب من قلبه... المليء بالايمان... ولقد تحقق «أبو خميس» من قلة الذخائر التي يملكها زملاؤه، ولكنه كان يجد من عزمهم وثقتهم بأنفسهم وشدة بأسهم، وكان يجد من حماس المشرفين على العمل وتفاؤلهم ما كان يهوّن عليه الأمر. العبرة بالروح القوية، والنفوس التي لا تهون؛ والقلوب الجريئة الصلبة التي كأنما قُدَّت من الصخور الجاثمة على صدر شاطيء يافا.

وهكذا مرَّت الأيام... كانت يافا، في الواقع، في شبه حُمَّى فائرة، متصلة، وكانت واثقة من النصر؛ كانت واثقة من قدرتها في النهاية على سحق تل أبيب، التي كانت حصاة تحت قدمها الجبارة في يوم من الأيام... وكان «أبو خميس» من أشد الناس ثقة باللّه، وثقة بأبناء بلده وبالنصر الذي ستحرزه يافا التي كان اسمها يلقي الذعر في قلوب الأعداء ثلاثين عاماً أو تزيد...

حادثان إثنان عصفا بقلب «أبو خميس» وألقيا اليأس في صدره: سقوط مدينة ومصرع بطل. المدينة التي سقطت غدراً بسكانها العرب وتآمرا على طردهم والتنكيل بهم هي حيفا. والبطل الذي أشعل نار أكبر معركة عرفتها جبال القدس ثم انتحر في ميدانها هو أبو موسى...

أما لماذا سقطت حيفا... وكيف سقطت... ولماذا انتحر البطل وسط الميدان والمعركة سجال... فليس مما يسع «أبو خميس» أن يفكر فيه كثيراً... وأن

يهتدي إلى الأسباب المرتبطة بغاياتها... إنه لم يفهم من هذا إلا شيئاً واحداً هو أن التآمر على وطنه كان أبعد مدى مما كان يظن... لقد خيل إليه أن الدنيا كلها قد تآمرت على هذا الوطن... لقد ألقوا بسكان حيفا إلى البحر... أجل البحر... فغرق منهم الكثير... وذبح اليهود منهم الكثير... والذين نجوا لا يعرفون كيف ... لقد ضلّ أكثرهم أياماً وليالي في البحر، قبل أن يصلوا إلى عكا... أو بيروت أو غيرهما من الثغور... وقد فقدوا كل شيء... فقدوا المال والكرامة وفقدوا وطناً... دفعة واحدة...

والبطل لماذا انتحر؟ إنه قد انتحر على التحقيق، لقد ألقى بنفسه منفرداً وسط المعركة إبان احتدامها... لا يفعل ذلك إلا من يريد أن ينتحر... همسات سمعها «أبو خميس» إنتحر لأنه أدرك في اللحظة الأخيرة أن الذخائر والأسلحة ليست قليلة وغير كافية وحسب، بل إنها توشك أن تنفد... وسيأتي يوم قريب لن يجد فيها المناضل رصاصة واحدة... وفي أي وقت؟ في أحرج الأوقات... في الوقت الذي اشتدت فيه المعارك... وكثرت... وحمي الوطيس... في الوقت الذي يجب أن يجد فيه المجاهد في سبيل وطنه أسلحة وعتاداً وذخائر لا تنفد أبداً... لقد عرف «أبو موسى» كيف يموت... قبل أن يشهد العار... قبل أن يقتله الخزي... قتل نفسه...

وألقي في روع «أبو خميس» أن دوْر يافا قد قرب... وأن جيوش الدول العربية السبع لن تفعل شيئاً كثيراً... ستحارب وتخضب دماء أبنائها ثرى فلسطين... ولكنها لن يُخلّى بينها وما تريد... حتى لو وصلت إلى أبواب تل أبيب... إن الدخلاء... الذين يلبسون البرانيط... ويرطنون بلغات لا تفهم... لن يمكنوها أن تفعل شيئاً... كان «أبو خميس» يحسّ بهذا كله... كان يدركه باحساسه... فطرته الذكية ألهمته أن الأمر قد انتهى... ومع ذلك بقي «أبو خميس» كالعهد به يناضل مع زملائه ليلاً، ويغدو في النهار إلى دكانه... لقد

كان «أبو خميس» في تلك الأيام الرهيبة يحترق... كان يقف في فسحة تلك الساعة الواسعة الى تقوم في وسطها ساعة البلد وراحته مبسوطة فوق جبينه يتأمل تلك الساعة الجاثمة في قمة برجها تسجل حركة الزمان ببطء وقسوة واستمرار، وكان يخيل «لأبي خميس» في وقفته تلك، أن هذه الساعة تسجل أيضاً الحوادث الأخيرة من مأساة طويلة... استغرق تمثيلها ثلاثين عاماً أو تزيد... ان دقاتها الآن... حزينة... يائسة... لكأنها تشكو... لكأنها توشك أن تنعى مدينة بأسرها... لقد كان «أبو خميس» في وقفته تلك يحترق، كأن سيلاً من النار كان يندلع في جسده كله... يافا كلها كانت كأنما هي تحترق... لقد بسط الهول فوقها جناحين مروعين... كان «أبو خميس» في وقفته المتولهة تلك يتذكر أيام شبابه... في يوم بعيد... بعيد... وقف مثل هذه الوقفة... كان يحترق لأنه كان يحب... وهو الآن يحترق لأنه يحب... يحب مدينته، ويحسّ أنه يوشك أن يفقدها... لقد بدأ بعضهم يرحل... يتخلّى عن مدينته... يافا... في وقت محنتها يتركونها... ما أتفه الانسان حين يبلغ حرصه على حياته هذا الحدّ...

لم تكن يافا فيما يرى «أبو خميس» والكثيرون من أمثاله هي هذه الدور والمنازل، وهذه الشوارع، وتلك الأسواق، كانت أعظم من هذا وأضخم وأجل، كانت فيما يرون، بساتين فيحاء تنبت البرتقال ذهباً خالصاً، ومغارس سخية تهب الخير والبركة، وتجارة واسعة، وعيشاً رغيداً، طيباً، ومدينة غيداء... تنفحها بالطيب جنات البرتقال ويتهالك بحر اليروم عند قدميها غراماً...

لقد سقطت حيفا... فهل تسقط يافا؟

وتولّتْ مدافع الميدان وقنابل «المورتر» الجواب، فأراحت «أبو خميس» من حيرته وقلقه خمسة أيام بلياليها، كانت خلالها تلك المدينة، تلك الغريبة، الدخيلة، التي نشأت حصاة حقيرة تحت نعل يافا: ترمي المدينة العربية الجبارة

بحممها... وما كانت يافا تملك مدفعاً واحداً... أو قنبلة واحدة... تصفع بها تلك الدخيلة. لقد كان ذلك المدفع - لو امتلكته يافا - خليقاً أن يفعل المعجزات. كان خليقاً أن يردّ تل أبيب - مرة أخرى - حصاة تافهة تحت قدم يافا!

لن ينس «أبو خميس» ما عاش كيف ترك الناس مدينتهم... لقد ألقوا بأنفسهم إلى البحر - والبحر جبال تتقلع - منهم من نجا ووجد له مكاناً في سفينة ما، ومنهم من غرق فابتلعه البحر هو ومتاعه جميعاً، ومنهم من مات على أرصفة الميناء جوعاً وعياء ومهانة... ولقد ألقوا بأنفسهم في سيارات الشحن فانطلقت بهم تحت وابل من رصاص العدو وقذائفه، فقتل منهم عدد كبير، وتشعّبت السبل بالناجين... قوافل من الآدميين... لا يعلمون مصائرهم، ولا يدرون أنهم منذ تلك اللحظة قد كتبت يد القدر الصفحة الأولى من تاريخ تشردهم الطويل، المرير، من تاريخ جوعهم وعريهم ومذلتهم... .

خمسة أيام بلياليها السود الحالكات عاشتها المدينة في ظلال الذعر والموت، ثم خَلَتْ من أهلها، فضاع وطن وهانت أمة.

وكان «أبو خميس» قد خرج من يافا مع آخر من خرجوا، وقد ترك وراءه داراً صدّعتها قنابل المورتر، وأشلاء أمه العجوز الحاجة نفيسة، وابنه خميس... فقد فتكت بهما شظايا القنابل في ساحة الدار... وبقيت له زوجة «زهية». إن مصيبتها بولدها قد أفقدتها رشدها، فهي إلى جانبه في سيارة الشحن التي انطلقت بهما إلى الأردن، شاخصة البصر، شاردة اللب، جامدة لا تختلج لها جارحة، كأنها تمثال مروع للحزن الأخرس. وما كانت تفعل أكثر من أن تميل على إذن زوجها الحين بعد الحين، تتوسل إليه أن يعود بها إلى يافا لتأخذ خميساً الذي نسيته هناك كما نسيه هو، إنه لصغير عاجز، وإنهما لأنانيان إذ يتركانه وينجوان بنفسيهما... وما كانت الكلمات التي ينتزعها «أبو خميس» من روحه ليهدّيء بها من روع زوجه، ويطمئن من عذابها ويرد إليها رشدها تفعل شيئاً، فيرسل

عندئذ بصره إلى الأفق البعيد أمامه، فيتراءى له القطيع البشري وقد جنَّ جنونه، فاندفع شارداً لا يلوي على شيء، ثم لا يلبث أن يقع في روعه أنه يسمع الدقات الأخيرة تدقها ساعة البلد الجاثمة في قمة برجها الشامخ وسط ساحتها الواسعة... تلك الدقات كانت آخر ما سمع وهو خارج من يافا... وها هو يسمعها مرة أخرى... تنعى مدينته!... هل يمكن بعد اليوم أن تظل أمواج البحر تتهالك غراماً عند قدميها، لا تكاد ترتد لحظة حتى تعود أكثر هياماً وأعنف غزلاً؟ وهل تظل جنات البرتقال من حولها ينفث زهرها طيباً ويمج زهرها شهداً؟ وهل تعود أيام العز والخير، فيرجع «أبو خميس» إلى دكانه في المنعطف المؤدي إلى طريق الميناء فتحتضن راحتاه في أويقات سعادته عنقوداً من العنب، ويروح يتغنى به بصوته الذي يسيل رقة وحلاوة «يا طالب الزين ميل حدينا يا عنب... اللي له حبيب يميل حدينا يا عنب...»؟

كانت هذه الخطرات تدور في نفس «أبو خميس»، وتمتزج بأحساسه بفداحة ما فقد من وطن ومال وولد، فيزداد ألمه ويعظم حزنه، ويتوهج ما يشبه الجمر في صدره، فينفجر الدمع من عينيه، وينسكب غزيراً حاراً يبلل وجهه وشاربيه؛ في حين كانت سيارة الشحن قد اجتازت «غور الشونة»، وأخذت تصعِّد في الجبل متجهة بمن فيها إلى السلط فعمان التي اختار «أبو خميس» أن يلجأ إليها مع أكثر من ستين ألفاً من اللاجئين أمثاله... .

على أنه لم يكن في وسع «أبو خميس» أن يتبيَّن ما سيكون من أمره في الأيام المقبلة، والوضع الذي ستستقر عليه حياته - إذا قدر لها أن تستقر - وما عسى أن يلقى هو ومواطنوه من خير أو شر بعد هذه الهزة التي رجَّتْ حياتهم بمثل هذا العنف... وعلى أنه لم يدخل في حسابه قط - على أسوأ الافتراضات - أن الجوع والمرض والعري والموت تترصد الكثيرين من هؤلاء... الذين سموهم... لاجئين... فان «أبو خميس» كان يُحسُّ في أعماق روحه، وهو يرسل بصره من

نافـذة السيـارة إلى أقـصى الأفق في ذلك السـهل الذي تمتـد على صـدره الأقح مغارس مُستَنبت «الجبيهة»، وأشجار الموز والرمان والتفاح المتألقة بنورها، انه لن يكون سعيداً بعد اليوم؛ وإن أيام الخير قد ذهبت ولن تعود، وإنه لن يستطيع أبداً أن يعـود يبـرم شاربيـه ويُزهى بسلسلة ساعـتـه من الذهب الخالص تتأرجح على صدره في خط متقوس... كان يُحسُّ في الواقع كأنما قد خرج من الجنة، كأنما قد طرد منهـا... وعندما أشرفت السيـارة على عـمان، وبدتْ من بعيـد جبالها التي تقـوم عليـهـا منازلها وقـصـورها... كـان «أبو خـمـيس» قـد أدرك تماماً أن دون العودة إلى الجنة متاعب وأهوالاً وشقاء كثيراً... .

الأرض الطيبة

البحر أمامها، وجنّاتُ البرتقال خلفها، وهي بينهما تنعم بما لم تنعم به مدينة من قبل. لياليها ملاح زاهرات، ونهاراتها كدٌّ وسعي ورزق كبير، حبة البرتقال 'بحر: مورد خيرها.

شجرة البرتقال، كان صاحبها يغرسها بيده في المنبت الطيّب، ويظلُّ يتعهدها ويرعاها ويفيض عليها من ماله وحبه، عينه أبداً عليها، وقلبه مشغول بها، وكلما امتدت جذوعها في الأرض؛ وغلظت ساقه وكثرت فروعها، ورفَّ ورقها الأخضر، وانتشرت من حولها الظلال والأفياء، تَهلّلَ فرحاً، واستبشر خيراً، وحَمِدَ الله وصلّى على نبيه الكريم.

وكانت فرحتُهُ الكبرى يوم يرى البرعمة تطلُّ من بين الأوراق الخضر، بيضاء، ناصعة، لها عبير فوّاح، يتقطر منها الندى، ويضاحكها النور: سرُّ البرتقالة في البرعمة، والماء سرُّ الحياة في الاثنتين، وللماء قنوات: شرايين منبثّة يتدفق فيها الماء، من الفجر إلى الضحى، ومن مغرب الشمس إلى أن تنهزم الظلال ويقبل الليل، وتتفتّق البرعمة وتنبثق منها حبة خضراء، لا تكاد العين تتبينها، ثم، تنتثر البرعمة وتظل الحبة عالقة بفرعها، يغذيها الماء والنور، وتحنو عليها أوراقها الخضر وتصونها من الأذى، وتدفع عنها السوء. وتنمو الحبة... وتكبر... وينمو الأمل فيها ويكبر... أياماً وليالي... وتصبح ذات يوم فإذا هي حبة كبيرة ملساء، ذات مسام، وبعد أن كانت الشمس تغمرها بقبلاتها الدافئة، تعود وتبثُّ

فيها حرارتها، وتبقي فيها كل يوم من ذهبها... وما أن يقبل الشتاء حتى تتلقّى تلك الحبة أولى قطراته وقد غدت كرة من الذهب ملء الراحتين بين أوراق مخملية، مزهوة بكنزها الثمين، ويحين أوان القطاف، وتمتد إليها الأيدي، وتتناولها برفق، وتلفها بورق ناعم، ملون، شفاف، وتضعها في صندوقها واحدة بجانب الأخرى وصفاً بعد صف، تنظّمها يد صَناع، حاذقة، ثم ترسل إلى عنابر السفينة حيث تحمل إلى ما وراء البحار، هدية نفيسة من يافا، من الشرق، فيها قبس من شمسه ودفئه، ونفحة من طيبه وعطره، ونبعة حلوة، شرّةٌ، من رحيقه.

والحاج داود لم يكن كغيره من أصحاب «البيّارات»، الحاج داود رجل ابن أصل، وقد ورث بيّارته عن أبيه؛ يوم كان الناس ناساً؛ والخير خيراً، وقد نشأ يحب التربة الحمراء، وشجرة البرتقال، ولم يكن يخامره شك في أن هذه التربة ذهب خالص؛ بل أثمن من الذهب فهي ينبوع الخير كله ومصدر البركة كلها؛ ولم يكن يتصور أن في الدنيا تربة خصبة كتربة أرضه الحمراء، التي أنبتتْ له هذا الشجر الفينان يحمل كرات الذهب عقوداً تخلب النظر.

والحاج داود يخاف الله ويتقيه، ويرى أن الغرور إثمٌ كبير، والكبرياء من سبل الشيطان، ولكنه، مع ذلك؛ كان إذا تحدّث عن برتقاله الذهبي وعن تربته الحمراء تملّكه الزهو وتطلّقت أساريره، وضحكت عيناه، واعتدلت قامته، وراح يقول والابتسامة العريضة تملأ وجهه: «أي نعم، بيدي هذه كنت أحفر الأرض وأغرس الشجيرات واحدة بعد أخرى وصفاً إزاء صف.» «كنت إذ ذاك فتى قويّ الساعد، وكان أبي رحمه الله شيخاً، ولكنه لم يكن يرحم نفسه... كان» «يقف معنا على قدميه من الفجر حتى غروب الشمس يشرف على العمل، ويراقب كل صغيرة وكبيرة، يرشدنا» «ويسدي إلينا النُصحَ. وكانت أسعد ساعات النهار هي التي كنت أرى فيها الابتسامة يستضيء، بها محياه، وهو يمدُ طرفه فيقع على هاتيك الشجيرات الغضّة، في صفوف عديدة لا نهاية لها» «لا تكاد تمس

ذؤاباتها انسام الماء حتى ترتعش وريقاتها الندية وترف وتتماوج على امتداد البصر، سكرى برحيقها... ثم لا يلبث أن يراها في خياله، وقد اشتدَّ عودها، واستطالت، والتفَّت أغصانها، واغتنت بورقها المونق، وأثقلها كنزها الذهبي... ولقد توفاه الله بعد أن شهدها بعينيه حقيقة رائعة، وتفيَّأ ظلالها الوارفة وأكل من ثمرها...»

ولقد أبى الحاج داود ان يفارق بيارته،أبى أن يعيش في المدينة... ما كانت المدينة بأضوائها، وليالي أنسها، وضجيج العيش فيها، تعدل في نظره جلسته في الفجر أو عند الأصيل قريباً من الساقية، يستمع إلى لهاث - وابور - الماء المتلاحق، يصل إليه من بعيد، ويشاهد «قواديس» الناعورة تنقلب على دولابها وتريق ماءها في البركة الواسعة، فيتدفق منها في المجاري والقنوات الممتدة في كل اتجاه، ويصل إلى كل شجرة يرويها من ظمأ، ويشيع فيها الحياة والنمو والازدهار، وينفث في جذوعها وغصونها وورقها وثمرها النضارة والحلاوة.

وكان الحاج داود حريصاً كل الحرص أن ينشأ أولاده الثلاثة كما نشأ هو: يحبون التربة الحمراء، ينعمون بسخائها، ويسعدون ببركتها وخيرها، وتزدهيهم شجرة البرتقال الخارجة من أحشاء هذه التربة، مكتنزة بورقها الأخضر المخملي، مزهوة بكنزها الذهبي؛ حريصة على أن تترامى من حولها الظلال والافياء، وأن تظل دائماً تنفث عبيرها يتضوع به الهواء، ويشيع في الفضاء حتى يصل إلى المدينة الساهرة في ليالي لهوها، فتنعم بما لا تنعم به مدينة قط؛ تنعم بالطيب، تنفحه شجرة البرتقال من مغارسها الخضيلة فتنام سكرى بشذاه؛ وتستفيق إذا تنفس الصبح على عقبه المتأرجح لتستأنف الكدَّ في ضجيج عيشها، بين جنَّات البرتقال من خلفها، وحُمَّى العمل الموصول على شاطيء بحر الروم من أمامها.

ولقد أفلح الحاج داود فنشأ أولاده كما أحبَّ لهم أن ينشأوا. فأحبوا التربة الحمراء غاية الحب؛ حتى لكأنها هي التي أنبتتهم، فكانت لهم هذه السمرة

المحببة المشربة بما يشبه لون النبيذ، وكانت لهم هذه القامات الفارعة، وهذه السواعد المفتولة كأنها قدّت من جذوع شجر البرتقال، وكان لهم هذا البريق ينبعث من عيونهم كأنه رؤوس السهام.

ولقد استراح الحاج داود، وقرّت عينه بفتيانه الثلاثة، وحمد الله، ووثق أن أرضه الطيبة، هذه التي تنبت له كرات الذهب، لن تضيع أبداً.

هل كان يخشى أن تضيع؟ كان ذلك همّه المخامر وشقاءه الذي يرزح تحت ثقله قبل أن ينشأ أولاده على ما أحبّ لهم. ذلك أنه كان يرى بأم عينه كيف كانت تضيع الأرض الطيبة وتنتقل إلى الدخلاء. لم يكن الحاج داود يفهم شيئاً كثيراً في السياسة، ولكنه كان يؤمن أن الوطن أرض... أرض قبل كل شيء... وبعد كل شيء... وعلى الأخص إذا كانت أرضاً طيبة، سخية معطاء، كأرضه، وأرض بلاده كلها، وكان يؤلمه ويؤرقه الليالي الطوال أن يرى هذه الأرض تذوب، تضيع، تذهب إلى الدخلاء، تذهب لكي لا تعود أبداً. كان يُحسُّ أنه لن يتردد أبداً في أن يضحي بكل شيء، بنفسه بماله، بأولاده؛ في سبيل أن تبقى هذه الأرض... أن يبقى كل شبر فيها... له... ولقومه... كان إذ يتحدث في هذا يتهدّج صوته، وتحمر عيناه، وترتعش يداه:

- ليس في الدنيا كلها... أرض... كأرضنا...

ثم يلتفت إلى أبنائه وأصدقائه من حوله ويعود ويقول وبين راحتيه حبة برتقال كبيرة ملساء غنية برحيقها:

- ولا بلاد... كبلادنا... أين الأرض التي يخرج من أحشائها مثل هذا الذهب... وأين التربة التي تسخو بعناقيد العنب كما تسخو بها تربتنا... إنه ليس عنباً... إنه جواهر... فكيف يبيعونها... لقد فسق أهل هذا الزمان...

وضلوا... فلا حول ولا قوة إلا بالله...

وفي الواقع: كان الحاج داود، لا يجد إثماً أعظم من أن يبيع الانسان أرضه... ولمن... لهؤلاء الغرباء... الافّاقين... أن يتخلى عن أرضه هكذا... وينفض منها يديه... كمن لا تاريخ له في وطنه، كمن لا ذكريات له تربطه بهذه الأرض... كأن لم ينعم يوماً بمائها وهوائها وظلالها وثمارها وخيرها كله... كان يسميهم - هؤلاء الذين يهون عليهم أن ينفضوا أيديهم من تربة وطنهم - خونة، مُنْبَتّين... وكان يقع في حسه أنه إذا يتخلّى الواحد منهم عن أرضه فقد تخلى عن عرضه... ومروءته... ودينه... إلى الأبد ولهذا كله كانت نقمته على المدينة... وأهلها... الملاّك منهم على الأخص... عظيمة... هؤلاء الافندية، الذين يركبون السيارات الفاخرة، ويسكنون القصور المنيفة، ويجترحون ما حرم الله... إن الكثيرين منهم يملكون الأرض... يملكون التربة التي تنبت ذهباً وجواهر... ولا يثقل عليهم أن يبيعوها لتمتلىء أيديهم بالمال، يذيبونه على موائد خمرهم، ومراح صبواتهم... يتخمون... وتتكرش بطونهم... في حين يفتقر وطنهم... ويتضاءل... ويذل.... ألم يجلس الواحد منهم مرة في حياته في ظل وريف من ظلال شجر البرتقال ينعم بما أفاء الله على هذه الرقعة من الأرض من خير وجمال ونماء وازدهار؟ ألم تمتلىء رئتاه بهذا العبير يفيض على الدنيا بهجة وطيباً ورواء؟ ألم يستفق في فجر يوم من أيام الربيع ليرى السماء والشجر والماء تتفتح للنور والضياء، فينتشي الحس، ويخشع القلب، وتمتلىء النفس مهابة وجلالة... وحباً... لهذه الأرض الطيبة؟

«انهم لا يحبونها... انهم لا يحبونها... لو أحبوها... لو عرفوا كيف ينعمون بخيرها وجمالها، لو عرفوا كيف ينظرون بعيونهم إلى عنقود العنب المكتنز بحباته المتلألئة بين أوراقه الحريرية، لو عرفوا كيف ينظرون إلى عرائشها وكرومها النائمة على صدر هذه التربة العطوف، وإلى كرات الذهب تتوهج بين

أحضان أمها شجرة البرتقال... إنهم لو أحبوها لما فرّطوا بها، ولأطلعتهم على سرّ الجمال فيها، ولأعطتهم من فيض خيرها وبركتها وسحرها ما يزري بمال الدنيا ومتاعها جميعاً»

بهذا كان الحاج داود يناجي نفسه أحياناً كثيرة وعلى هذا نشأ أولاده. لقد علمهم كيف يحبون هذه التربة، كيف يخلصون لها الحب... وماذا كان في وسعه أن يفعل أكثر من هذا؟ كان يحزنه أن تفتك الخلافات بأبناء قومه... كان يفزعه أن يراهم يتناحرون فيمكّنون بذلك للعدو الدخيل... كان يريدهم أن يحبوا هذه التربة كما أحبَّها هو وأمثاله الذين يُحسُّون أنها قد أنبتتهم حقاً كما أنبتت برتقالها وعنبها ورمانها وفاكهتها وشجرها جميعاً... وكان هذا الحب وحده - في رأيه - خليقاً أن يأتي بالمعجزات. ولكن... ويصر الحاج داود عند هذا الحد من التفكير على أسنانه، ويضغط شفتيه، وتترقرق عيناه بالدموع ثم يرسلها نفثة حارة ويتمتم: «لا حول ولا قوة إلا بالله... ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا...»

وفي الماضي، في كل ثورة انتفض فيها وطنه المعذب، بذل الحاج داود كل ما كان يدخل في طوقه، جاهد بماله، وجاهد بنفسه، فخاض معارك، وتعرض للأذى، وسجن هو وأبناؤه وهو راض، قرير العين، فكل شيء يهون في سبيل الأرض الطيبة... أمّ الخير...

وفي النضال الأخير، على الرغم من شيخوخته، فعل ما لم يقو عليه إلا الأقلون. تلك الأيام، أيام النضال، منذ أكثر من عام، ما كان أعذبها وأحلاها، وما كان أشقها أيضاً. كان الحاج داود فيها على رأس نفر قليل من الرجال، احتفروا الخنادق والاستحكامات على حدود «بيّارته» في «أبو كبير» وأمامهم القسم الجنوبي من تلك المدينة البغيضة «تل أبيب»، حفنة من الرجال الذين أخلصوا الحب للأرض الطيبة، وأرخصوا الأرواح في سبيلها... كان الواحد منهم

لا يفارق مكانه، لا يترك استحكامه، أبداً وراء بندقيته، في الليل وفي النهار، يده على الزناد، يطلق رصاصاته بحساب... كانوا يشعرون أن ذخيرتهم قليلة، شحيحة، وكانوا يتلقون رصاص العدو؛ رصاصه الكثير المنهمر، ساخرين واثقين أن في استطاعتهم أن يردوا الوالغين على أعقابهم خاسرين... حفنة من الرجال كانت تدكُّ حصون الأعداء هناك دكّاً... لقد كان صياح الجبناء يدوّي في آذان الليل البهيم من الذعر، وهم يتهاوون تحت أنقاض حصونهم، كأنما كانت الأرض تنخسف بهم... حفنة من الرجال الصابرين، المؤمنين، كان يزحف بعضهم في جنح الليل يحمل الألغام... ويفعل المعجزات... لقد ألقوا الذعر في قلوب الجبناء... وأجلوهم إلى داخل مدينتهم... حفنة من الرجال كانوا كأنهم كألف بطل... وكان الحاج داود على رأسهم؛ وكان أولاده الثلاثة يجاهدون في خنادقهم مع الآخرين، وراء بنادقهم، في الليل وفي النهار، أيديهم على الزناد أبداً... يتربصون ويطلقون قذائفهم... فلا تخيب أبداً، تجد مستقرها دائماً في صدور الأوغاد.

وذات يوم؛ كان الحاج داود يطوف برجاله في خنادقهم واستحكاماتهم، يشجعهم؛ ويستثير هممهم، في يده منديل فيه رصاصات قليلة يوزعها عليهم باسم الثغر. متهلل الأسارير، لا يفتر عن ذكر الله، ولا ينسى أن يؤكد لرجاله، الحين بعد الحين، أن الذخيرة وفيرة، وأن الصناديق في بيته، داخل البيارة ملأى بالرصاص الكثير، وهو يعلم أنها فارغة لا شيء فيها على الاطلاق، وأن كل ما يملكه من الذخيرة هو هذه الرصاصات الشحيحة في منديله يوزعها عليهم في حرص شديد... فيبدو عندئذ على رجاله أنهم يصدقونه ويتلقون كلامه مستبشرين، فرحين، متهللين مكبرين... في خنادقهم دائماً... وراء بنادقهم أبداً... في ذلك اليوم كان بعض الجبناء من الأعداء قد تسللوا متلصصين عند حدود «أبو كبير»، فأطلقوا رصاصهم وأرخوا سيقانهم للريح... واستقرت احدى الرصاصات في صدر الشاب عليّ الابن الأكبر للحاج داود فأردته في خندقه... شاهده أبوه يترنح وراحته على صدره ثم يسقط، لم يقل الحاج داود شيئاً... لقد

كان يتوقع هذا... وأكثر منه... لقد وهب نفسه وأبناءه لله، وللذود عن الأرض الطيبة... لم يزد على أن رفع عينيه إلى السماء وبسط راحتيه واختلجت شفتاه بقول الله: «ان الله اشترى من المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فَيَقْتُلون ويُقتَلون...» ثم أوعز بأن يُحمل ولده ويجهّز ويُدفن... وبقي هو مع رجاله، في استحكاماتهم، لم يتركهم، لم يذهب ليدفن ابنه، لقد احتسبه عند الله... في سبيل الأرض الطيبة... وان وعد الله حق... لم يبرح الحاج داود تلك الاستحكامات، انه مع رجاله يطوف بهم، يستنهض عزائمهم، ويواسيهم بالكلمة الطيبة ويمسح عن قلوبهم الأسى والمرارة بابتسامته الوضيئة؛ ويعطيهم تلك الرصاصات القليلة من منديله، استطاعوا بها أن يلقوا الذعر في قلوب خمسين ألفاً من الأعداء، في تلك الناحية ستة أشهر كاملة...

ماذا حدث بعد ذلك؟ ان الحاج داود لا يكاد يفهم شيئاً مما حدث... كان يتوقع كل شيء إلا أن ينزح الناس عن بلادهم وقراهم وبيوتهم... كان يتوقع أن تزلزل الأرض زلزالها وتخرج حممها وأثقالها... ولا يترك الناس وطنهم وبيوتهم، ولا ينبذون أرضهم، الأرض الطيبة السخية، المعطاء!

يافا، تلك المدينة الجبارة، الشامخة، ذات التاريخ الطويل في النضال المرير العنيد... كيف تخاذلت... كيف لفظت أهلها... لكأنها قاءتهم دفعة واحدة... وألقت بهم في البحر، وفي السهل، وعلى رؤوس الجبال... هائمين... مشردين...

ما الذي حدث... ما الذي حدث...؟ ان الحاج داود لا يكاد يفهم شيئاً... إلاّ أن وطناً قد ضاع، وأرضاً طيبة... قد ذهبت... ولا يكاد يفهم شيئاً إلا أنه مشرّد، يحمل اسم «لاجيء» هذا الاسم البغيض... كأنما حفرته يد القدر على جباه مليون من البشر بقسوة خارقة!

في أيام الشتاء الأخيرة... كثيراً ما كان الناس يمرون في مدينة «أريحا» أمام رجل قد عَلتْ به السن، واتسخت ثيابه، وبهت لون عمامته «الغباني» حول طربوشه، واستطالت لحيته واغبّرت... رجل مسكين، لا يذكر أحد أنه رآه يتكلم أو يبتسم أو يغير جلسته... فهو أبداً جالس القرفصاء، عند كوم من برتقال أريحا يبيع منه للمارة... وفي راحة يده المعروقة المرتعشة: برتقالة لا تفارقها أبداً... يحدّقُ فيها النظر من حين إلى حين. كالمأخوذ بلونها الذهبي الفاتن... ثم يتحسسها براحة يده الأخرى في كثير من اللطف والرفق والرقة...

إنه الحاج داود، يحلم ثمة بالأرض الطيبة... والفردوس المفقود... .

قصة لم تتم

وهذا مقطع من قصة لم تتم. وأغلب الظن أنها لن تتم، لأنه ليس مما لا معدى عنه، أن يكون لكل شيء نهاية معلومة، وكل نهاية في قصة «عجز في الأداء» هو عجز «المبدع الصغير»، إذ يستشعر ضعفه وتخاذله و«لاشيئيته» حيال المبدع الأعظم، فاطر الأرض والسماء، وخالق هذا الانسان... وإليك - بعد - هذا المقطع من القصة التي لم تتم... وان كنت تحب النهايات والخواتيم... فضع لها - أنت - الخاتمة التي تريد... ان استطعت وطاوعك الخيال... وكانت لها نهاية تعرف... .

«.. وأنا اليوم مشرد. بل نحن اليوم مشردون: أمي العجوز؛ وزوجي الشابة، وأطفالي الثلاثة. لقد أقمنا في السلط، هذه المدينة الصغيرة، القديمة، من مدن الأردن، ان فيها خمسة عشر ألف لاجيء ومشرد أو يزيدون. من كان يتصور أن تتسع السلط لهذا العدد الضخم! لكأنها - وغيرها من المدن - كن مدخرات لمثل هذه النازلة! منذ أيام فقط بدأت أفهم معنى هذه الكلمة البسيطة... الصغيرة... «مشردون» تزمّ الشفاه زما إذ تنطق بها، وإذ ترسلها ارسالاً هيناً، ليناً، مهموساً في أغلب الأحيان! »

نحن اذن مشردون، ليس في هذا ريب البتة، هذه الغرفة الصغيرة المنزوية في عطفة من حارة «الخضر»، وهذه الجدران المغبرة القاتمة العارية، وتلك الحشايا الثلاث المطوية في الركن تقوم فوقها حقيبتان فيهما بعض ملابسنا... أجل...

هذا كله يشهد بأننا مشردون حقاً! هل هذا كل ما هنالك؟ اننا لم نعد في الواقع نملك شيئاً. لم يعد في وسعي أن أقول عن شيء: «هذا لي» لم يكن هذا شعوري أو لم يكن هذا شعورنا، على الأصح، في بادىء الأمر، انه ليبدو لي الآن في وضوح تام اننا يوم خرجنا من... يافا... لم نكن نحلم في أكثر من أن ننجو... النجاة فقط كانت كل همنا... وأما ماذ يكون بعد النجاة... فهذا ما لم نفكر فيه أبداً... هذا ما لم يفكر فيه واحد منا على الاطلاق.

كيف أستطيع أن أتصور ما أريد أن أقوله هنا... انني لا أقوى حتى على أن أذكر الأشياء والحوادث كما ينبغي أن تكون منظمة، مرتبة، متساوقة... أنّى لي القدرة على مثل هذا الأمر الآن!

يخيل إليّ أننا خرجنا من يافا... كأنما كنا خارجين إلى نزهة لن تدوم أكثر من أيام معدودة. سنمكث هنا أو هناك أياماً نرى فيها وجوهاً جديدة، وأشياء جديدة، وأحوالاً جديدة... ثم نعود كأن لم يحدث شيء وكأن لم تقع كارثة...

انني أرى الآن أننا كنا متفائلين أكثر مما ينبغي.

كان يجب أن نفهم أننا وحدنا المسؤولون عن كياننا، عن الدفاع عن أنفسنا، عن الاحتفاظ بمدينتنا، بأرضنا بوطننا... ما قيمتنا بدون وطن، بدون أرض، لست أريد هنا أن أتهم أحداً، لست أريد أن أعدد الأخطاء... نحن جميعاً متهمون، وما من أحد منا مبرأ من الخطأ، وما من أحد منا لم يعمل عامداً أو غير عامد على إضاعة الأرض الوطن... يكفي أن أضرب مثلاً واحداً، لقد رأينا الأعداء يطوقون يافا من الشمال والجنوب والشرق. كانوا يعملون دائبين على تطويقها وفق خطة مرسومة، كانوا يعملون على مهل، بصبر، دون ما وناء.

كانوا يضفون على عملهم ثوباً انشائياً، عمرانياً، ولكنهم في الواقع كانوا

يحكمون حول يافا طوقاً فولاذياً، خانقاً، ولقد أفلحوا، ولم يبق من منفذ ليافا إلا البحر غرباً... تل أبيب وما وراءها من مستعمرات تسد الشمال، وبيت يام، وما وراءها في الجنوب تقوم كالحصن المنيع، ومن تل أبيب - الوحش الخرافي الجاثم في الشمال - تمتد مخالب كاسرة تتصل بمخالب أخرى جارحة لا تكاد تترك ليافا متنفساً في الشرق... أجل لقد ضربوا حول يافا... وقراها... هذا الطوق المحكم... وماذا كنا نصنع نحن... كنا نشاهد هذا كله بعيون زائغة لا تبصر... كان شأننا توقيعاً على نغمة نشيد الانشاد الذي لسليمان «صنع سليمان لنفسه عرشاً قوائمه من فضة، وروافده من ذهب، ووسطه مفروش محبة من بنات اسرائيل»

ومع ذلك - ورغم الأخطاء - فقد كانت ثمة قوى أخرى، قوى كانت تفتّ في عضدنا، تناهضنا وتشد أزر عدونا، ولا ريب في أن الأعداء كانوا كُثراً. كان لنا أعداء من أنفسنا، وأعداء من شذاذ الآفاق، يفدون إلى بلادنا، يأخذون أرضنا، يحتلون وطننا، تسلحوا بالمال والفتنة والإغراء والجريمة... وكانوا يستندون إلى حراب ممتدة من وراء البحار... وكان علينا أن نناهض هؤلاء، أن نقف في وجوههم جميعاً، أن نكافح كفاحاً مريراً، قاسياً؛ متصلاً... ولقد كافحنا وناضلنا، ولكنه يخيل إلي الآن انه كان نضالاً بنصف ايمان. بنصف إرادة، بنصف إدراك للخطر المحدق بنا لو صح التعبير. انه ليبدو لي - وأنا أبث هذه الصفحات أشجان نفسي - أن خلافاتنا، خلافاتنا الكثيرة المعقدة قد شغلتنا كثيراً هي الأخرى، بل أنهكت قوانا؛ ما أكثر ما كنا نواجه الأزمات والأخطار؛ بقلوب موزعة أهواؤها. لقد أوجدنا أحقاداً وضغائن ألقينا بذورها في كل قلب، ودسسنا بذورها في كل نفس، ورحنا من ثم نتعهدها ونرعاها وننمّيها على الأيام، حتى عظم أمرها، واستطار شرها، وتأرثت نارها ولقينا منها الهول!

ثم... هناك أمر لا أحب أن أنساه أو أتناساه... هناك الترف... الذي عمل

هو الآخر عمله في توهين نفوسنا، والفتك بعزائمنا، يخيل إلي أن أسبابه قد أعدت لنا بحذق ودهاء ماكر خبيث. لقد أعدت لنا أسباب هذا الترف المميت كما يمكن أن يعد المخدر القوي للمريض الذي أضنته آلامه لكي ينسى هذه الآلام، لكي لا يعود يحس بها، لكي تظل تفتك به... وفي وهمه أنه نجا... ما أكثر المال الذي تدفق بين أيدينا، بين أيدي الكثيرين منا... مال أكثره حرام، بعنا به الأرض الطيبة، أم الخير والبركة. وحين بعنا الأرض بعنا ذكريات وأمجاداً، بعنا تراثاً ضخماً بلله عرق الأجداد، بللته دموعهم ودماؤهم... .

اننا لم نفهم أن حفنة الرمل من ثرى الوطن أثمن من كنوز العالم... لم نفهم أن النبتة الواحدة الرفافة على ساقها أغلى من كل نفيس... لم نفهم أن العطر الفواح تبثه زهرة البرتقال لا يضاهيه في الدنيا عطر، لم نفهم أن النسمة الندية المحملة بطيب تلك التربة الحمراء ليس كمثله طيب، لأنه منبعث من أحشاء أرضنا السخية المعطاء. آه لو عرفنا كيف ننعم بكل ذلك الثراء، اذن لما خطر لنا أن نبيع ذرة واحدة من تلك التربة المحسنة، وماذا نحن بدون أرض؛ ومن نكون بدون وطن... الوطن المضاع!

وكنا، أمي العجوز وزوجتي الشابة وأطفالي؛ نقيم في تلك الحارة بمدينة السلط؛ في تلك الغرفة العارية، المعتمة و«فرشاتنا» الثلاث مطويات في أحد الأركان... وقد سمانا الناس مشردين ولاجئين، ولا أدري ماذا أيضاً من تلك الأسماء التي تثير العطف والإشفاق، وتفيد معنى الضعف والذلة والانكسار. وكان أولى بهم أن يسمونا «منبتين» فقد أنبتّتْ بين وطننا وبيننا الأسباب!

ولقد أوجدوا لنا قضية جديدة... هي قضية اللاجئين ومشكلات جديدة هي مشكلة الخبز، ومشكلة العمل، ومشكلة المأوى، وحملونا بطاقات وعلمونا كيف نستجدي ونقف في صفوف طويلة، لكي نحصل على الفتات... وننسى أنه كان لنا وطن وكانت لنا بلاد وأسكنونا خياماً... وتولدت لنا من هذه الخيام مشاكل

في الأخلاق والسلوك والمعيشة، وعلى الأيام أيضاً انحطت آدميتنا وأخذ ينمو - منا - جيل ولد في الخيام، وتربى في أزقة البؤس وترعرع في «أكناف» الجريمة والعوز والجهل... إن الحقيقة الواضحة جداً هي أننا قد أضعنا وطناً... وأرادوا من ثم أن يصبح همنا - كل همنا - الحصول على الرغيف... الأسود... ولا شيء... غير هذا على الاطلاق.

وفي ناحيتي من «خيمتي» - فلم تبق لي نعمة الانزواء في ركن «غرفتي» المعتمة العارية في السلط - أبث هذه الصفحات أشجان روحي، وألعن الدنيا... وأبصق في وجه الحياة... .

الظمأ

كان البحر يمتد أمامنا إلى ما لا نهاية: هادئاً ساكناً، لا تكاد ريح الخريف الدانية تثير صفحته الداكنة الزرقة، ولم تكن هذه الريح لتبلغ في عبثها وهبوبها الفاتر أكثر من أن تنشر التجعدات المرتجفة الراعشة على سطح البحر، حتى ولا هاتيك الموجات الصغيرة المرتعدة، المتألقة في نصوع فاتن تتلوى هنا وهناك... فوق القمر، لم يكن في مقدورها أن تخرج البحر عن أتزانه وهدوئه العميق. وكان الشاطىء خالياً موحشاً، لا تأخذ العين منه شيئاً سوى رماله، رماله البيضاء الناعمة تمتد هي الأخرى وتمتد... إلى ما لا نهاية، ولولا بعض الصخور القديمة الجاثمة على صدر هذا الشاطىء لكان أشبه شيء بصحراء عجيبة بسطتها هنا يد خفية قادرة.

وكنا في هذه اللحظة قد لذنا جميعاً بتأملاتنا، بعد حديث فاتر تافه في الشؤون العامة، أعقبه صمت طويل، وكنا ننظر من حين لآخر إلى الأفق البعيد، وكان يلوح لنا أن السماء قد أسفت اسفافاً مروعاً عند الأفق، وأن البحر قد ابتلع قرص الشمس هناك، وغيّبه في أعماقه المخيفة، فلم يقو في اللحظة الأخيرة، على أكثر من نفث لهاثة محرقة توّرد بها الأفق ثم توهّج لحظات قصاراً... خبا النوم بعدها وانطفأ الاشعاع. وكان يخيل إلينا أن المركب البعيد الذي لا يبدو منه إلا شراعه كجناح طائر يرف عند الأفق القصي قد شهد هذه الفاجعة... فاندفع نحو الشاطىء لا يلوي على شيء من الهول.

لقد كنا في شبه حلم كئيب، بل يخيل إلي أننا لم نكن نشهد كل هذا إلا بعين العقل الباطن، ولم يوقظنا مما كنا فيه إلا صوت صديقنا الطبيب الشاب وقد ألقى عقب لفافته واستوى في مقعده قائلاً، كأنما يحدث نفسه، ولا يعنيه إن كنا نصغي إليه ونعي ما يقول:

«انه لعجيب حقاً أمر هذه الذاكرة... إن منظراً عرفناه فيما سبق من حياتنا، أو صوتاً خاصاً صافح سمعنا فيما غبر من العمر، أو رائحة ما كان لها شأن في ماضينا القريب أو البعيد... إن شيئاً من هذا لو عاودنا في حياتنا الراهنة، ولو مدى لحظة واحدة، بل أقل من لحظة، مدى ارتعاشة هدب مثلاً؛ لحقيق أن يردنا إلى الماضي لنحياه من جديد بخطوطه البارزة والخفية، وألوانه الساطعة والباهتة جميعاً».

ثم أطبق شفتيه. ونظر إلى الأفق في شرود، وعاد فأشعل لفافة؛ وراح يقول وعلى فمه ظل ابتسامة:

«كان مدرس اللغة الانجليزية انساناً جافي الطبع، قاسي القلب، شديداً غاية الشدة، ولم تكن عصاه الطويلة المعقدة لتفارق يده لحظة واحدة؛ ينهال بها علينا غالب الأحيان دون ما علة أو ذنب... لقد كان في الواقع وحشاً أفسد علينا طفولتنا. وكان هذا الإنسان السخيف يتعطر بعطر خاص لم يستبدله بسواه مطلقاً... كان عطراً حاداً، ثقيلاً، يفسد هواء الغرفة... كان مزيجاً من رائحة زهر القرنفل والياسمين... من هذه العطور الرخيصة، المبتذلة. وما أدري علاقة هذا العطر بعصا المدرس وقسوته، إنما اليوم، وقد مرَّ على هذا خمسة عشر عاماً طوالاً لا أزال كلما مرت بأنفي رائحة هذا العطر الكريه أو ما يشبهها، تمثلت لي وحشية هذا المدرس وعصاه الطويلة المعقدة. وانهياله بها علينا دون ما رحمة... واني اليوم لأكره هذا المدرس القذر. فانه ما زال مدرساً وقد شاخ وتهدم. ولكنه لا يفتأ مواظباً على استعمال هذا العطر!...»

ثم دار الحديث بيننا، وقام صديقنا صاحب الدار يقدم لنا الفطائر والحلوى ويسكب الشاي في أقداحه. وقال أحدنا:

- حقاً ان للذكريات لفتنة وسحراً.

وقال آخر:

- حتى هذه الذكريات الحزينة الشجية، لها روعتها وجمالها، هي الأخرى

وقال ثالث:

- ولكن... ألا ترون أن هذه الذكريات قد أفعمت قلب صديقنا حقداً؟

وقلت أنا.

- اني لمرتاع حقاً لأمر هذا المدرس المسكين، انه خليق بالرثاء والاشفاق. بل يخيل إلي أن شيخوخته البائسة لا بد أن تنتهي بفاجعة ما... بسبب هذا العطر المشؤوم.. تصوروا حياة خاملة تنتهي بفاجعة مروعة... بشيء سخيف كهذا العطر مثلاً... .

فأغرق الأصدقاء في الضحك، إلا صديقنا الطبيب، فلم تنفجر شفتاه إلا عن ابتسامة ساهمة، ابتسامته الخاصة، التي تنبيء دائماً أنه على وشك أن يفضي بسر ما، أو يروي حديثاً خطيراً!

وكانت غبشة المساء في هذه اللحظة أخذت تغشى الأفق، وأصداء البحر تصل إلينا خافتة في همهمة ريح الخريف. وبدا فوق القمر قارب شراعي صغير، ملفوف فيما يشبه الضباب، يخفق في رأس ساريته نور باهت يشي به ويدل عليه.

وقال صديقنا الطبيب وهو يعتدل في جلسته:

«لقد كنت منذ دقائق أنظر إلى هذه الحديقة القديمة، وإلى مقاعدها الخشبية العتيقة، وزهورها الذابلة، وهذه الشجيرات الهزيلة، المنكسة الأعراف.. هنا وهناك... وأتأمل هذه الدار الرحبة ونوافذها وشرفاتها المطلة على البحر المنبسط أمامنا في هدوء غادر... ولكأنما كانت أيام حداثتي تطل من خلال ذلك كله... بل ان هذه الجميزة الهرمة؛ العتيقة، القائمة هناك، في أقصى الحديقة ما وقع نظري عليها حتى عاودتني ذكريات وذكريات... انها وحدها لتروي قصة عبثنا الساذج، ولهونا البريء، في ذلك العهد البعيد...»

ثم التفت إلى صاحب الدار يتألق في عينيه نور ابتسامة حلوة:

- أتذكر هاتيك الأيام يا صاحبي؟ أما أنا فلن أنساها... لن أنساها، أبداً.

وعاد إلى حديثه:

«أي نعم. اني لأذكر هذا كله، ولا أزال أرى بعين الخيال بائع «الحلاوة السكرية» يتنقل في دروب حيِّنا بقامته المديدة العجفاء و«قمبازه» القذر ذي الخطوط الطويلة الصفراء، ووجهه الهزيل، وعينيه الكليلتين، وأنفه الافنى يتدلى تحته شاربان رفيعان متهدلان. ولا أدري لماذا كان هذان الشاربان، فيما أحسّ، أبلغ دليل على بؤسه، وما يزال صدى صوته الأجش يرن في اذني منادياً بنبرة منغومَة منكسرة: «غزل البنات... ياللاَّ... ياللاَّ...» أجل، كان يصف خيوط حلاوته السكرية الملونة بأنها غزل البنات... وكانت أنامل البنات التي تغزل شذرات هذه الحلاوة السكرية أشد ما يشغل ذهني ويثير خيالي وأحلامي... .

وأني لأذكر أيضاً بائع الخضر والفواكه بكرشه المندفعة المتكورة وقامته القصيرة المضحكة، ووجهه المنتفخ المتورم وشاربيه الكثيفين وعينيه النافرتين من وقبيهما، وحماره الهزيل يحمل له موزه وأعنابه وخضاره في صندوقين مشدودين إلى جانبيه... ولا يمكن أن أنسى ذلك الرجل الصامت صمتاً ثقيلاً، المطرق برأسه

دائماً، ذلك السقاء العجيب ذا الأسمال البالية لم يكن يني - سحابة نهاره - يمتح الماء من الآبار لقاء أجر زهيد تافه... ولكنه مع ذلك راض لا يتذمر لا تنفرج شفتاه عن شكوى... إيه... انها لصورة جلية، واضحة، في مخيلتي... انها كمعالم الطريق استدل بها على ذكريات حداثتي... ولكن الرجل الذي لن أنساه أبداً، والذي نقشت صورته بخطوط عميقة في ذهني هو صانع الأحذية.. أجل صانع الأحذية... انه يلوح لي الآن، إنه هو وأمثاله من الناس البسطاء، المستضعفين، الكادحين. أشرف من كثير منا وأكرم وأعلى انسانية... .

وصمت الطبيب وأغمض عينيه هنيهة، وبدت في قبة السماء نجمة متألقة... نجمة واحدة تائهة، وشعرنا نحن أن حديث صديقنا سيتخذ لوناً جديداً، ولم يلبث أن تابع حديثه بصوت خافت تعروه ارتعاشة خفيفة:

ليس فيما سأحدثكم به شيء يدعو إلى الدهشة، أو يثير الفضول، كلا. انها لحكاية بسيطة. ولكنّ لها في نفسي أثراً عميقاً. بل يلوح لي انني لن أنساها ما حييت، وما اقترنت صورة بذهني لكرامة الانسان في نسقها إلا على كهذه الصورة. بل اني على ضوئها غدوت أزن قيمة الحياة، إذ ماذا يمكن أن تساوي حياة لا يستهان بالموت في سبيلها؟

وأمسك الطبيب هنيهة كأنما كان ينظر خلالها في أعماق نفسه ثم عاد يقول بنبرة مؤسية:

«لقد كان مخلوقاً غريب الأطوار، أو هكذا كان يخيل إلي. وكنت إذ ذاك فتى يافعاً، وكانت الدنيا تتفتح لعيني كثيرة الأسرار. محفوفة بالغوامض... أجل كان لكل شيء إذ ذاك روعته الخاصة في نفسي. ووقعه العميق المبهم، بما يثيره في ذهني من رؤىً وأخيلة ضبابية عذبة تحمل لها طابع «الخفاء» المحير والحلم الشجي... .

كانت دكان صانع الأحذية تقع في حيّنا. اني ما أزال أراها، هذه الدكان الصغيرة المعتمة لا تكاد تتسع لأكثر من اثنين. وكان هو يجلس في أحد أركانها وراء منضدة صغيرة بالية، عليها كل ما يحتاجه عمله من أدوات، وبجانبه دائماً إبريق من الفخار الأسود، وتحت المنضدة وعاء للماء ينقع فيه الجلود، وما عدا هذا لم يكن النظر يقع إلا على بعض القوالب الخشبية العتيقة، وقطع من الجلد معلقة على الحائط، وعدد قليل من الأحذية البالية مبعثرة في أرض الدكان، تنتظر بصبر وإذعان يائس أن تمتد إليها يد الرجل لاصلاحها؛ إذا استطاع إلى ذلك سبيلاً! ولم يكن يصنع زوجاً جديداً من الأحذية إلا فيما ندر! كان معظم عمله محصوراً في اصلاح الأحذية القديمة لساكني الحي، وبعض الفقراء، الذين كانوا يقصدونه دون سواه. وكان دخله ضئيلاً جداً، لا يكاد يفي بحاجته الضرورية ودفع ايجار الدكان، ولكني لا أذكر اني سمعته يتأفف مرة أو يشكو سوء حاله، بل يلوح لي أنه كان راضياً مطمئناً في استسلام عجيب. ولكن هذا المظهر الوادع كان يتناقض تمام التناقض وبريق عينيه. رأيت كثيراً من العيون: العيون الحزينة الآسية، والعيون الضاحكة المشرقة، والعيون الماكرة الخادعة.. ولكني لم أرَ في حياتي مثل هاتين العينين. لم يكن شيء يميزهما عن سائر العيون. كانتا صغيرتين، ضيقتين، غائرتين، ولكن بريقهما الخاطف كان يرعشني. كان يلوح لي أنهما عينا محموم تتوهجان وتعكسان لهب نار تؤج في الداخل، في أعماق صدره... وتشيان بالقلق والظمأ. كنت في أحيان كثيرة أجلس بباب دكانه، أنظر إليه في اعجاب وصمت، وهو مكب على عمله، إما يشق قطعة من الجلد، أو يطرق النعال بقدومه، أو يصلح حذاء قديماً. وكنت أقرأ له أحياناً في جريدة معي حوادث اليوم وأخباره، ثم أعرج على بعض المقالات، الهامة التي تصف سوء حال البلاد ووضعها الشاق، أو تنتقد في أساليب تختلف بين الشدة واللين ما سيؤدي إليه هذا الوضع من عواقب... إلى آخر ما يمكن أن تعنى به جريدة يومية في بلد معذب.. ولم يكن هو ليزيد أثناء ذلك على أن يهز رأسه هزات متوالية...

ولكني كنت أحس أن بريق عينيه العجيبتين كان يزداد توهجاً، ويكاد ينطق بما لم يكن يجري به لسانه... بل كان يبدو لي إذ ذاك أن بريق هاتين العينين إنما يبعث من أعماق قصية؛ فطرية، مجهولة، مثقلاً بألم فاجع... لا تنوء به هاتان العينان، إنما تطلب في الحاح ودُؤوب - فيما يخيل إلي - ريّاً لهما يُطفيء هذا الظمأ... العجيب.

وما عدا هذا فلم يكن شيء يلفت النظر إلى صاحبنا أو يستدعي الانتباه. قصة حياته نفسها بسيطة، ولكنها غير تافهة؛ من هذه القصص الأبدية التي لو أمعنا النظر فيها لعرفنا أنها تخفي وراء شقائها وبؤسها الانساني قوى خارقة هي وحدها التي تغير وجه التاريخ في أكثر الأحيان!

كل ما أذكره من قصة حياته أنه قروي هجر قريته الجبلية إلى المدينة، وهو في أول شبابه ما يزال، بعد أن اجتاح الجوع والموت قريته تلك إبان الحرب العظمى. وقد تعلم في المدينة صناعة الأحذية، وتزوج ورزق أطفالاً ثلاثة ماتوا جميعاً، وتوفيت أمهم على الاثر. وبقي هو وحده لم يستطع المرض ولم يستطع الفقر ولا الهم أن يقضي عليه. ولقد سمعته مرة يصف قريته الجبلية النائية. ويذكر أيامه الحلوة فيها، ويتساءل في ابتسامة مؤسية: أما تزال أشجار الزيتون على قمة ذلك الجبل وفي شعافه وحناياه؛ تعطي ثمارها وتدر زيتها؟ وقطعان الضأن والمعز عادت تعمر أرجاء الجبل رابضة حيناً، طافرة واثبة أحياناً كثيرة؛ وهاتيك الكروم... كروم الوادي، أما تزال كالعهد بها خيرة، محسنة، تخرج أعنابها ورمانها وتفاحها؟... ثم التفت إلي فجأة وقد عاوده الارتداد والتجهم، وقال بصوت خافت عميق:

أتعرف! لو بقي لي واحد من أولادي لما أمكنني أن أربيه وأعلمه كما فعل لك أبوك، ولكان الآن فتى حداد أو نجار أو اسكافي؟

ثم أشاح بوجهه وراح يطرق نعاله بشدة وانفعال.

وصمت صديقنا الطبيب الشاب هنيهة ريثما أشعل لفافة وعاد يقول:

وأتى يوم نسيت فيه صانع الأحذية ودكانه الصغيرة المعتمة، فقد رحلت كما تعلمون إلى باريس لأتم تحصيلي وأدرس الطب، وأمضيت هناك ثمانية أعوام، عدت بعدها رجلاً تجيش الآمال الكبيرة في صدره وتطيف في خياله رؤى وأحلام حياة سعيدة. وشد ما كانت دهشتي عندما رأيت دكان صانع الأحذية ما تزال قائمة على ناصية الحي، وهو فيها كعهدي به؛ يشق الجلد، ويطرق النعال! وقد مررت به ذات يوم وحييته. فحدق بي لحظة، ثم صاح مغتبطاً وهو يهز لي يدي:

- أهذا أنت يا دكتور؟... الحمد لله على السلامة... أطلت الغياب يا بني... أنا والله مشتاق. الحمد لله على السلامة... الحمد لله.

وجلست بباب الدكان أتحدث إليه قليلاً وأستعيد ذكريات أيام قديمة. وقدم لي بحياء لفافة من لفائفه وهو يقول:

- لا مؤاخذة يا دكتور...

فتناولتها بسرعة وأشعلتها، ورحت أنفث دخانها بسرور. وبدا لي أن هذه الأعوام الثمانية لم يكن من أثرها إلاّ أنها أشعلت رأسه شيباً، وأحنت قليلاً قامته المديدة الصلبة، وزادت تجعدات جبينه وعينيه وعمقّتها. أما بريق عينيه فقد ظل كعهدي به حاداً متوهجاً... لكأنما يعكس دائماً لهب نار تؤج في الداخل... في أعماق صدره.

ولاذ صديقنا الطبيب بصمت طويل وأسبل جفنيه، وكأنما عاد ينظر في أعماق نفسه من جديد. وقلت أنا بنبرة راعشة:

وبعد؟

فرفع الطبيب الشاب رأسه وأجاب بهدوء:

وبعد! لقد عاد صانع الأحذية إلى الجبل.. منذ أسابيع... لا ليرى أشجار الزيتون وقطعان الضأن والمعز وأعناب الوادي وفاكهته... عاد إلى الجبل الأشم... انضم إلى رفاق له في الأعالي... ولقد لقي حتفه، علمت ذلك؛ ولكن ببطولة خارقة، معجبة، كبطولة الجبابرة الأولين... .

ثم أردف كأنما يناجي بنفسه: لقد وَجَدْتُ «ريهما» هاتان العينان الظامئتان المتوهجتا البريق، كأنما ينبعث من أعماق قصية «فطرية» مجهولة... .

وكان القمر في هذه اللحظة قد أراق أشعته الباهتة، هناك فوق الغمر... حيث كانت تتلوى متألقة في نصوع فاتن موجات صغيرة لم يكن في مقدورها أن تخرج البحر عن اتزانه وهدوئه العميق.

من وحي ثورة عام ١٩٣٨ بفلسطين

حذاؤه الجديد

من الصباح إلى المساء... بل قبل بزوغ الشمس إلى ما بعد غروبها بساعتين، فان صوت «عطيوي» لا ينقطع، دائماً يصيح «فلسطين» الدفاع... الأهرام... أهرام الطيارة...» وكان ربما يتساءل لماذا يجب عليه أن يلصق كلمة «الطيارة» بالاهرام؛ لقد أوصاه متعهد بيع الجرائد منذ زمن طويل «الطيارة، يا عطيوي، ما تنساش أبداً تنادي اهرام الطيارة، اياك...» واليوم في كل يوم كلما عنَّ له أن يدع الطيارة وشأنها ويذكر اسم الاهرام وحده في ندائه يبدو له وجه المعلم متعهد الجرائد، وجهه المكفهر المتغضن، ويده المعروقة مرفوعة في وجهه يهدده باصبعه وينذره... فلا يلبث أن يفغر فمه، ويرسلها زعقة مدوية: أهرام الطيارة!

ولقد استقر في روع «عطيوي» منذ بعيد، أنه لا بد من حاكم ومحكوم وسيد ومسود، وأن سيده وحاكمه ومالك رقبته أيضاً هو هذا المعلم، معلمه الخواجه «نصار». أجل لقد اندس الخواجه نصار في نفس عطيوي وتغلغل في طواياها، فهو بعد أن يشبع ويتخم من رؤيته في النهار يراه أيضاً في أحلامه، يطالعه بسحنته الصفراء الهزيلة وعينه الحولاء، ويسمع صوته الأجش وتطن في اذنيه صيحته الكريهة وهو يلعن له أمه وأباه ويهدده بطرده وقطع رزقه إذا لم يبع كل ما في عهدته من جرائد.

فكر عطيوي مرات كثيرة أن يترك بيع الجرائد، وأن يبحث له عن عمل آخر قد يكون أجدى وأنفع لكنه كان يشعر دائماً أنه لا يقوى على ذلك. بينه وبين هذه

الجرائد ألفة مودة، انها تستهويه بحروفها الدقيقة وعنواناتها الفخمة، ولا ينقضي عجبه منها ولها ولهؤلاء الذين لا يشق عليهم أن يقرؤها ويفهموا ما تهمس به في آذانهم، وهو لو استطاع أن يتحرر من سحر هذه الحروف الملتوية المتداخلة المنسابة سطوراً مستقيمة متوازية لا نهاية لها، فلن يستطيع أن يتحرر من فتنة هذه الصور الخلابة التي تزدان بها المجلات، صور كثيرة ملونة تثير في نفسه ألف هاجسة، وتغمر خياله بألف حلم: قنابل ومدافع ودبابات وطائرات وجنود ومجندات. الحرب كلها يراها من خلال هذه الصور. وعلى الأخص هاتيك المجندات، إن أمرهنّ لعجيب حقاً، صورهن تعكس له واقع ما يراه كل يوم: فتيات ونساء صبايا من كل صنف وطراز في ألبسة غريبة. قامات ممشوقة وقدود هيفاء تنسجم عليها البزات العسكرية انسجاماً حلواً، هن أبداً باسمات مشرقات الوجوه، منهن الشقر ذوات العيون الزرق والشعور الذهبية المتموجة، ومنهن السمر المرحات الخفيفات الدم... من كل جنس وعرق... ولشد ما كان عطيوي يكد ذهنه ليتصور كيف يكون في وسعهن أن يقمن بمجهودهن الحربي فلا يفلح أبداً! وإذا كان في هذه المجلات الكثيرة التي يَبحُّ صوته ويسيل عرقه وتهن قواه في سبيل بيعها، إذا كان فيها شيء يؤرقه في الليل ويعذبه ويعصف بأعصابه عصفاً فهو تلك الصور المغرية: صور نساء شبه عاريات، ما أكثر ما تقع عينه عليهن في هاتيك المجلات، فهن تارة متكآت على الأرائك أو الرمال وتارة سابحات أو راقصات، يعانقن رجالاً ويحتضنهن رجال يقبلوهن على شفاههن، وهن مستسلمات خائرات، مغمضات العيون... أوضاع ما أكثر ما تبدي وما أقل ما تخفي وما أهول عصفها بمخيلة عطيوي... قصارى ما يناله من هذه الفتنة أن يتحسس أحياناً برؤوس أنامله تلك الأبدان المرسومة، فيخيل إليه أنها تنبض بحرارة الحياة... هنيهة... ثم يفيق ويثوب إليه شعوره، ويدرك والحرقة تمزق أحشائه مبلغ خيبته!

لا سبيل إلى التحرر من عالمه هذا، سيظل يزعق «فلسطين، الدفاع، أهرام

الطيارة» وستظل تلك الأيدي الكثيرة تتناول منه نصيبها: زبائنه هؤلاء فيهم الكريم المتسامح الذي يهش له ويتناول صحيفته وينقده ثمنها وهو يبتسم، ومنهم الجشع، سحنته مقطبة ويده شرهة لئيمة تريد أن تأخذ ولا تعطي إلا بكرهها... ولكنه يحبهم هم أيضاً، انهم يؤلفون جزءاً من حياته، هم الذين يملأون جيبه... وأومضت في ذهنه خاطرة... انهم حقاً يملأون له جيبه، ولكنه يفرغه بعد الغروب على مكتب الخواجه نصار، ويقف ذاهلاً مكدوداً ينتظر أن يجود عليه المعلم بالفتات الحقير... إنه يربح كثيراً، هذا الرجل الكريه يربح كثيراً لا ريب البتة؛ فأين يذهب بالمال؟ انه لا يبدو عليه شيء من نعمة هذا الربح الوفير...

وعجب عطيوي لأمور الخلق ودهش واستغرب وتذكر وقفته الذليلة وهوان شأنه، وخطر له لأول مرة أنه محروم معدم يشتهي، وما أكثر ما يشتهي، ولكنه لا يكاد يجد إلا ما يشتري به لرغيفه حشوة الفلافل أو الفول المدمس مرة وأخرى الزيتون والبصل، وفي النادر اللحم أو الكباب أو شواء الكبد. وهذه هي ملابسه: خلقان وهلاهيل يحلم بالثوب الجديد فلا يجده، وعنّي نفسه بحذاء فيخفق ويخيب، وتظل أمنيته تصور له الحذاء بجلده اللامع ونعله السميك الفاخر، الذي يرى أمثاله في أقدام زبائنه، ثم لا يلبث أن يدرك أن هذا الحذاء من وراء قدرته فيتأوه وينسحق قلبه، ثم يطبق فكه ويحتضن صحفه ومجلاته ويرخي العنان لقدميه الحافيتين، وينطلق خارجاً في كل متجه زاعقاً كأنه يهذي: الاهرام... اهرا.. م.. الطيا.. رة..

هدّه التعب ظهر يوم، ونال منه الحر الشديد والشمس الكاوية، فجلس على رصيف دار البريد يستريح ويجفف عرقه المتصبب ويجنب قدميه الحافيتين وقدة «الاسفلت».. غير أنه حرص على أن يرتب صحفه ومجلاته ويبسطها بجانبه، ويضع فوق كل كومة مجلة تلفت النظر بغلافها الملون الزاهي أو صورها الفاتنة المثيرة، فقد يمر زبون.. من يدري.. وذهل هنيهة وهو يتأمل عمارة البريد الفخمة

ويصعد بصره إلى قمتها العالية، ويعجب للساعة الكبيرة المستديرة الخضراء في واجهتها كأنما هو يراها لأول مرة. ويبدا له أنه يلحظ عقربيها الكبيرين يتحركان ببطء، ببطء شديد.. ثم انتبه لزبون يقلب في صحفه ومجلاته ويفتح صفحات يدور ببصره فيها قليلاً هنا وهناك، ثم يلقيها دون احتفال ويأخذ غيرها. هذا طراز من الزبائن يعرفه: يتفرج ويقرأ ويساوم ثم لا يشتري، ولقد صدقت فراسته، فقد أخرج الرجل منديله من جيبه وتأفف قليلاً وراح يجفف عرقه وهو يرمق عطيوي بمؤخرة عينيه، ثم ركز عويناته على أنفه الغليظ وألقى ما بيده ولوى قدمه الثقيلة ومضى يدب، وعين عطيوي عليه.

رد عطيوي نظره، وفي نفسه أن هذا الرجل قد اختلس منه شيئاً، وطفق مرة أخرى يرتب صحفه ومجلاته ووقعت عينه على صفحة مفتوحة في مجلة، فبهت وفغر فاه واتسعت عيناه جداً وراح يتأمل باشتهاء صورة حذاء كبير، حذاء أسود لامع، لكأنما يتلألأ بفعل ضوء خفي منعكس عليه، أخذ عطيوي يدقق النظر بهذا الحذاء، إنه مخرم وعلى مقدمه خطان محفورة عليهما نقوش مزخرفة هي الأخرى بدقة ومهارة؛ يا له من حذاء معجب، إن العين لتنعم حقاً بمرآه، لا بد أن جلده رقيق أملس طري، ولا ريب في أن القدم التي تنزلق في هذا الحذاء واجدة اللذة والراحة، لذة وراحة لا يدري عطيوي كيف يتخيل فعلهما في النفس... ولكن ما شأن هذا الحذاء في المجلة، ولماذا يستغرق حيزاً واسعاً فيها، ولماذا هو ضخم الاتساع؟ فان قدميه الاثنتين لتغوصان فيه، وهل هناك من له قدم يتسع لها هذا الحذاء! وماذا تقول هذه السطور المنمنمة المكتوبة تحته، وهذه الأسهم الممتدة نحوه برؤوسها؟ لا بد أن يكون شيئاً عظيماً هذا الحذاء، وإلا لماذا احتفلت به المجلة ونشرت صورته!!

وبدا لعطيوي وهو لا يزال يتأمل الحذاء، انه لو وضعه في قدميه لغدا انساناً آخر يحترم، ولا ينهر، ولا يستطيع معلمه الخواجه نصار أن يهدده.

ذهل عطيوي عن نفسه وعن صحفه ومجلاته وعن حركة الشارع الكبير، وامتلأت نفسه بالحذاء وشرع خياله يصور له أنه وضع قدمه العارية في حذاء بديع، وأن هذا الحذاء ملكه لا ينازعه فيه أحد، وأنه يسير به في شوارع يافا «يوم العيد» معجباً به مزهواً أن يكون في قدمه، وأن ينظر إليه الكثيرون وإلى حذائه الثمين الفاخر في كثير من الدهشة والعجب والحسد أيضاً... ولكنه لا يلقي باله إلى هذا كله، ويمضي فخوراً بنفسه وحذائه وبما يثيره حوله من تطلع وفضول، إلا أنه ظل حريصاً على أن لا يتسخ حذاؤه أو يعلوه غبار الطريق أو يصيبه ما يتلفه، ويستمر هكذا في زهّوه وخيلاته وفرحته المكتومة، يطربه وقع حذائه على الأرض، ويبهجه رواؤه وتفرحه جدته، ويثير خيلاءه أنه مزخرف كثير النقوش وأن له لمعة، ويزدهيه لينه ووثارته، ويختلب لبه ان قدمه تجد فيه الراحة، ونعم بمسه الرقيق، خيل إليه أنه قد انقلب انساناً آخر بسبب هذا الحذاء، فها هو ذا يظفر باحترام الناس ومحبتهم، وهاهم أولاء تفتر ثغورهم عن الابتسام له، ويقبلون عليه عطوفين في أساريرهم رحمة وبشاشة ورقة، وفي عيونهم لين وحدب ورضاء؛ بعد أن كان لا يجد منهم إلا القسوة والانتهار والنظرة الصارمة... فلا يلبث أن يتهلل فرحاً ويمضي وهو أشد إعجاباً وزهواً بحذائه الفاخر، ولا تدع له فرحته الطارئة أن يفكر بملابسه الزرية التي لا تزال رثة بالية فالحذاء الجيد الفاخر لا يكفي وحده والملابس النظيفة الأنيقة قد لا يكون فيها كل الغناء ان لم تشبع المعدة الخاوية وان لم تمتلىء محفظة النقود بأوراق ذات أصابيغ وألوان.

وفي اللحظة التي كان عطيوي فيها أشد ما يكون إعجاباً بنقله قدمه في حذائه الجديد؛ إذ غدت أرشق وأخف وأحلى وقعاً، في هذه اللحظة عينها استفاق من ذهوله على لطمة قوية على صفحة وجهه أعقبتها لكزة في كتفه زلزلته، ثم انصبت في أذنيه لعنة لأمه وأبيه، اللذين خلفاه ثم هذه العبارة: «لقد أتلفت لي حذائي أيها الحيوان» بنظرة واحدة فهم كل شيء، لقد داس في ذهوله بقدمه العارية حذاء زبون كان يقلب في صحفه ومجلاته، من أولئك الذين يتفرجون

ويقرؤون ويساومون ثم لا يشترون.

لم يستطع أن يقول شيئاً، احتبست الكلمات في فمه، ذله وهوانه عقد لسانه، سحابة من الدموع سبحت في عينيه وهو يتبع الرجل الكريه نظره. ثم نهض متخاذلاً ولمّ صحفه ومجلاته ووقف هنيهة يجيل نظرة نهائية في الشارع الكبير، لا يكاد يسمع ضوضاء العربات والسيارات والمركبات الكثيرة المنطلقة فيه. ثم لم يلبث أن سرت في بدنه كله رعدة أرعشته، وأيقن أنه فقد حذاءه الجميل إلى الأبد، فأطبق فكيه واحتضن صحفه وأرخى العنان لقدمه الحافيتين وانطلق ضارباً في كل متجه، زاعقاً كأنه يهذي: الدفاع فلسطين... الاهرام... اهرا... م الطيارة... .

حطام

كان يسير دون اكتراث، غير عابىء، دون وعي، في شيء كثير من البلاهة الطارئة. في مثل هذه الحال، تستوي القيم جميعاً في إحساس الانسان: الأخلاق، القانون، النظام، العرف، جميعها أشياء تافهة، لا قيمة لها مطلقاً. الجريمة نفسها تبدو مغرية، فاتنة الخيال، لها نَغَم عميق القرار يستهوي النفس المكدودة... وارتعش ارتعاشة حادة، مؤذية من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، أيمكن ذلك؟ أتكون الجريمة في بعض الأحيان سبيلاً إلى الخلاص؟ ثم... هل تجد الجريمة – وهذا في رأس القمة – ما يسوّغها في أحوال معينة؟ لقد وجد البطل الروسي* مسوغاً مقنعاً لجريمته، بدا له أول الأمر قويَّ المنطق، شديد اللمعان، ولكنه أخفق في النهاية. كانت الفكرة فلسفية محضة في عقله. كانت شيئاً كمعادلة جبرية أو نظرية هندسية: «الخط المستقيم هو أقرب طريق بين نقطة وأخرى» – ليس في هذا ريب، تعادلها من ناحية ثانية هذه النظرية: «لا قيمة لحياة انسان عقيم إذا كان في القضاء على هذه الحياة ما يعود على الآخرين، الموهوبين، بالخير ويفسح أمام مواهبهم الموءودة الطريق على رحبه»! قياس حاذق، ولكن المسألة هنا لا تقاس على هذا النحو وفي مثل هذه الدقة الحسابية، محال أن تأتي نتيجة فكرة ذهنية في حالة نفسية موكول أمرها إلى الضمير؛ بل إلى مجموع القيم المعنوية لوجود الانسان. مطابقة تماماً لعاقبة نظرية مادية محدودة الأفق، كل نجاحها في تطبيقها العلمي الدقيق. محال، لا ريب في ذلك مطلقاً، لقد أخطأ

* روسكلنكوف بطل «الجريمة والعقاب» لدستيفسكي.

«رسكلنكوف» وظلت عواقب هذا الخطأ في أعقاب ضميره تلاحقه وتهاجمه وتبتليه بالصرع والهذيان: «أجل محال... محال أن يقوم الخير على أساس من الشر» أومضت هذه اللمحة الأخيرة في أعماقه ايماضاً خاطفاً، ثم غامت على فكره سحابة خمول بعد هذه الاشراقة السريعة، عاوده احساسه الحاد بتعاسته، دفع به مرة أخرى في أحضان بلاهته، وفجأة لاحت له هذه الفكرة الضبابية: ولكن الجريمة موجودة مع ذلك، رغم كل شيء. لا بد أن تكون ثمة حاجة إلى الجريمة لا يقوى على ردها ضمير، ولا يحول دونها خير أو شر. حاجة نفسية تهزأ بجميع الاعتبارات «والا فما هو هذا الحنين في نفسي إلى الجريمة» وخيل إليه لحظة أنه لو أعطي سكيناً أو مسدساً فهو خليق أن يرتكب جريمة القتل بكل ارتياح، في نشوة وظفر! «هأنذا قد عدت إلى التفكير من جديد. هل جميع الذين يقتلون يفكرون هكذا، يا للحماقة. انني لأعجز عن طفل وأحقر من ذبابة...» أحقر من ذبابة؟ لا ريب في ذلك البتة. وأحس بارتياح إلى هذه الكلمة، وراح يرددها ويلوكها بين شدقيه: «أحقر من ذبابة. أحقر من ذبابة.»

وعادت الجريمة، من جديد، تبسم له وتُغْريهِ وتكشف له عن عريها الفاتن. وتمتم، وقد زاد خفقان قلبه: «لم لا؟» وعلى الأثر سرت في بدنه رعدة، وغرقت الصورة في لجة فائرة، ثم عادت تطفو وتتأرجح فوق اللجة، مزهوة، يرقصها الموج، وصوبت إليه نظرة طويلة فاترة... كلها شهوة وشبق. تدعوه إلى لذة خارقة. فيها وعود ووعود... وتحرك في ضميره هذا السؤال: «أليس هذا معقولاً! لم لا تكون الجريمة سبيلاً إلى الخلاص؟» ولاح له أن الطريق قد انفسح أمامه بسرعة البرق، إلى مالا نهاية، ثم عاد بَغْتَةً وأطبق عليه بقسوة خارقة، وبدا له كأن ثعباناً مخيفاً قد التفّ حول مخنقه وراح يضغط ويضغط. فانبهت أنفاسه، واختفت الصورة الفاتنة وراء أفق قصي، ثم عادت - لا يدري كيف - تتراقص فوق موجة، وتبسم في سخرية وازدراء... ولم تلبث أن غرقت في أغوار سحيقة، أغوار نفس مكدودة، مهينة، استفاق بغتة، ولا يزال صدى فحيح بعيد يصافح

سمعه: «أعجز من طفل وأحقر من ذبابة»! وشعر بحقارته هذه المرة شعوراً واضحاً جداً. ولذلك - على ضوء لحظة نَيّرة - أن يزن ويقارن ويستنتج: «لو لم أكن حقيراً ومنحطاً... لما عجزت ولما كان الاخفاق يعرقل سيري كيفما سرت وايان اتجهت. والاّ فكيف صح لي أن أبلغ الأربعين وأنا في مثل هذه الصفة المهينة؟ ثم: لماذا يلاحقني الاخفاق؟ بل ويطاردني، ويأخذ بتلابيبي ويتشبث بأذيالي ولا يدع لي منفذاً إلى أي سبيل؟ وبماذا يمتاز جميع الناجحين في الحياة ليتقدموا وتثمر جهودهم ويكافأوا وأرتدّ مقهوراً ذليلاً؟ لا تعليل لذلك سوى اني حقير جداً، حقارة يشعر بها الجميع ويرونني مثلاً حياً لها»

ووقف هنيهة ذاهلاً مدهوشاً: لماذا لم يفكر في هذا من قبل؟ لِمَ لم يهتد إلى هذا السبب البديهي إلاّ في هذه اللحظة: «أكان عسيراً علي أن أفهم ذلك؟ لا ريب في أني حقير. وغبي أيضاً. والاّ لما اعوزني كل هذا الوقت الطويل لأتبين الحقيقة» وراح يتابع سيره كالهائم، كانسان مكدود مُضنى. وكان الهواء مكتوماً خانقاً، والليل حالكاً شديد الوطأة. وكان الشارع الكبير يمتد أمامه، لا تكاد المصابيح القائمة على جانبيه تتقلب بنورها الخابي، المحتضر، على حلوكة الليل الطاغية، وخيل إليه - في إحساس مفاجيء - أن هذه المصابيح أشبه ما تكون، فوق عُمُدها الهزيلة، برؤوس فلاسفة حمقى تحترق لتنير الطريق الأبدي أمام مشرد بائس مثله!

ولكنه لا يزال يسير، ولا يزال هذا الشارع الكبير يمتد أمامه ويمتد، وتتفرع عنه أزقة ومنعطفات وحارات متعددة. ثم تتصل به شوارع أخرى وغيرها وغيرها: كشرايين مخلوق خرافي جبار. في قلب هذه المدينة الصاخبة، تمتص دماء أبنائها، تستنفد حياتهم، تستنزفها قطرة قطرة. تزدري كل شيء: آمالهم، أحلامهم، أحقادهم، همومهم، تفتك بهم من حيث لا يدرون. ولا يفتأون يقدمون لها وقودها الأبدي، ولا يفلتون أبداً من شباكها، في تطاحن مستمر، أبدي الهول، مفترس

كوحش جائع، لا يشبع أبداً، ثم تسلمهم لمثل هذا الليل العابس، هذا الحيوان الأسود ، الرابض، العميق الصوت كمقبرة قذرة «أجل كمقبرة، مقبرة قذرة، لا ريب في ذلك». وأحسّ بشيء من الراحة لهذه الفكرة، كأنما قد أفرغ فيها كل ما في صدره من كراهية وغل قديم.

ورفع رأسه إلى السماء الكابية، وهو لا يني يسير؛ غدا سيره تسكعاً مملاً، شيئاً كالهرب، يدفعه احساس مبهم؛ كانما يريد أن ينجو. أي شيء هذا الذي يلاحقه بقسوة ويشرده في هذا الليل الطاغي؟ رفع رأسه إلى السماء بذهول كأنما قد وهن ذهنه. ولكن فجأة أومض في رأسه خاطر: قابل بين هذه النظرة المكدودة الذاهلة المرفوعة إلى السماء، وبين نظرة أخرى المفروض فيها - في مثل حاله ويأسه - أن تتجه بـ... بماذا؟ أوه! بالدعاء والابتهال مثلاً... .

أي دعاء؟ وانفجر ضاحكاً بسخرية، بمرارة عميقة مفجعة، ضحكة مجنون: ضحكة نادرة، تعبر إما عن أقصى شعور بالفرح والسعادة، وإما أنها تدوي بأهول أصداء العذاب والألم. وبغتة، وقف في عرض الشارع وراح يتحسس نفسه كمخبول. وانحدرت يده إلى جيبه، وأخرج منها بضع قطع فضية. كل ثروته. وراح يتأمل لمعانها تحت نور مصباح باهت. واختلجت شفتاه، وسرت في جسمه رعشة، وكأنما استقر على رأى فجائي وتمتم: «حسن. حسن جداً» وخَيّل إليه أنه يرى فوق رأسه في هوة السماء؛ نجماً يهوي بسرعة، وقد خطّ وراءه خيطاً متقوساً لامعاً لم يلبث أن غاض وامحى. فابتسم ابتسامة بلهاء، واختلجت في ذهنه عبارة شكسبيرية مشوهة: «ان على الأرض وفي السماء لأسراراً تعجز عقولكم عن ادراكها». وبرز النجم الهاوي. في لوح خياله - من جديد، ورآه يهوي مرة أخرى وهو يجر وراءه ذيله اللامع المتقوس.. وتبادر إلى ذهنه أنه صِنْوُ هذا النجم الهاوي ومثيله، ومصيره إلى الهوي والسقوط من شاهق كمصيره! وعادت هذه العبارة تملأ نفسه: «ان على الأرض وفي السماء...» أين قرأها؟ أفي هملت أم في

مكبث أم في العاصفة؟ ثم هل هو واثق بأنها وردت على لسان شكسبير. هكذا كما تبادرت إلى ذهنه هو؟ ولماذا كل هذا الاحتفال بها، أي جديد فيها مما لم يتفطّن إليه أحد من قبل؟ يا للحماقة! وهمّ أن يلقي عن صدره هذا العبء الجديد، ويطلق من أعماقه نفساً طويلاً، عريضاً، مريحاً، وينطلق مهرولاً خفيفاً، أسعد ما يكون بالرجوع إلى أحضان بلاهته، ولكنه حبس أنفاسه فجأة وراح يهذي كالمعتوه: «ليس ذلك كله مصادفة ومحض اتفاق! لا بدّ أن يكون لهذا معنى. معنى عميق!» وهلع قلبه، وتخلّعت ركبتاه من تحته، وغشيته غاشية، وتفصّد جبينه بعرق بارد، لزج كريه: فقد تمثل نفسه يهوي من حالق إلى حضيض قرار سحيق، وتحطم شظايا طائرة. ثم أفاق وكل عضو في جسمه يرتعش، وكل عصب يرتعد وينقبض، ومفاصله كلها قد وهنت وخارت، وقلبه يدق في قفص صدره ويكاد يثب من حلقه. واستند بظهره إلى عمود النور قبل أن يتهافت على نفسه وينهار. وبقي فترة على هذا الوضع إلى أن سكن طائره، وعاد إليه بعض روعه، واطمأنّ إلى الأرض الثابتة تحت قدميه. فتنفّس الصعداء، وأخرج منديله القذر وراح يمسح جبينه ووجهه وهو يردد: «أعجز من طفل وأحقر من ذبابة...» وشهدت بذلك وأمّنت عليه كلاب الليل بنباحها البعيد. وهبت نسمة لَيْليّة رطبة راوحت جبينه المحموم، فانتعش قليلاً وأشعل لفافة حقيرة، واستل منها نفساً عميقاً ملأ به رئته ثم أرسله من فتحتي أنفه وفمه في نفثة شديدة حرّى، وراح يغذّ السير وقد نسي فجأة كل شيء... عاد كل شيء منزلقاً إلى الأعماق، تحت طبقة كثيفة، يسبح نحو جحوره وسراديبه. وخيل إليه أن خوفه وقلقه وتطيره أشياء تافهة جداً.. حتى حقارته نفسها لم يعد لها في شعوره ذلك الوقع المؤلم، ولم يبق شيء يملأ نفسه وتنتبه له حواسه جميعاً إلاّ صورة لا تفتأ هي الأخرى تخايله من وراء سحابة رقيقة: «حانة ضيقة... بعض المقاعد... موائد صغيرة قذرة... وفتاة متبرجة!»

٢

هذه الحانة لها مزايا عديده تجعلها في رأيه نادرة المثال، فهي رخيصة جداً؛ أي أنه يستطيع أن يغرق فيها همومه ويذيبها كل ليلة بقروش يسيرة؛ ثم هي مأوى لأناس يلذُّ له أن يجالسهم ويستمع إليهم، قد يكون هذا عند غيره ولعاً بدراسة طبائع الناس وأخلاقهم واختبار ميولهم وأهوائهم وغرائزهم.. إلى آخر هذا الهراء... كلا ليس هنا السر؛ ولاثمة «مربط الفرس» المسألة عنده لذة خاصة، «كيف ومزاج» ولكنها تبقى مع ذلك حائرة تتذبذب بين أمرين، ليس من السهل الأخذ بأحدهما دون الآخر: فهو إما أن يغترف من همومهم وتعاساتهم ما يضيفه إلى رأسماله الخاص، هماً فوق هموم، قطرات يصبها في كأسه العامرة أبداً... قطرات لا تطفح بها الكأس ولا تفيض... ولكنها تَكثّفُ مادتها وتزيدها حرارة، وإما أنه يلتذ شقاءهم ويستمرئه، فيخدعهم بما يبدو عليه من الاهتمام بهم والاصغاء إليهم، وهم غافلون يمدونه من نفوسهم بوقود يلهب حفيظته ويشعل أبداً نار البغض والكراهية في صدره. وهو في هذا كأنما ينتقم لنفسه. لشقائه الخاص في هذا الشقاء العام، يتذوقه بشراهة كلب ينهش جيفة كلب آخر... .

أما أعظم مزايا هذه الحانة وأغلاها وأثمنها وأفتنها فهي هذه الفتاة المتبرجة دائماً... التي لا تفتأ تدور رائحة غادية بين الموائد توزع ابتساماتها على الجميع ولا تضنّ بغمزات عينيها على هذا وذلك وذاك... على طرف لسانها كلمة مهيأة لكل واحد، كلمة توافق مزاجه وتلائم نفسيته وتضاعف... نشوة الخمر في رأسه، إنها «روح» هذه الحانة، روحها المشرقة المتوهجة، تجذب الفراش من بعيد... يحوم حولها أسعد ما يكون بالوقوع في نارها والاحتراق بلهبها... هي الآمرة الناهية المتحكمة، وهي الطائعة الخاضعة المستسلمة، هي «الحبيبة» و«نور العين» و«ست الكل» وهي «البنت» الخادعة الماكرة التي تلعب على مائة حبل، هي الأمل والخيبة والنور والظلام، والصحو المشرق والاكفهرار المربد، هي التي لا تقوّم

قبلتها بعشرات الكؤوس، وهي التي تهب الفم وتجود بالعناق دون مقابل أو ثمن. هي التي. بسببها تشهر الخناجر والمدى وتقلب الموائد وتحطم المقاعد وأواني الخمر، وهي التي تستل أناملها البضة الماكرة من الجيوب ما يزيد ثروة الخمّار ويضخمها يوماً بعد يوم هي. هي. «فرحة»! التي لا تزال ابنة ثمانية عشر ربيعاً، وستظل كذلك إلى ما شاء اللّه. «فرحة» المحفورة صورتها على ألواح ألف مخيلة. فرحة التي يمكن لريشة الرسام أن تنقل صورتها في بضعة خطوط سريعة، والتي لا يحتاج القلم إلى أكثر من بضع كلمات لوصفها كأن يقول مثلاً: «ربعة القوام» بدينته في غير إسراف، عامرة الصدر، نافرة الثديين، ثقيلة الردفين، بيضاء البشرة، واسعة الفم، دعجاء العينين ... فرحة هذه لها ألف صورة وصورة غير هذه. ومع ذلك ليس ثمة ما يدعو إلى العجب والدهش، أما ما يذهل حقاً فهو هذا الحب، هذا العشق الملتهب، هذا التدله العجيب الذي تزخره «فرحة» في قلوب رواد الحانة، وتجيشه في نفوسهم وتحرق به دماءهم. الأنثى التي يشتهيها الكل. الأنثى الوحيدة التي تشع أنوثتها في كل رأس وتدور فيه مع الخمر، صورتها في كل كأس، ورخابها في كل رشفة. تخايل الواحد في عري مطلق فوق الحب، فيئن ويزوم ويبتلع ريقه. وتلوح للثاني، في سؤر الكأس؛ وكلها عيون تغمز ونهود ريانة تهتز وتخبل. وتبدو للثالث في شبه ضباب مخمور، تضحك، تضحك، تقهقه. ملقية رأسها إلى الوراء باسطة له ذراعيها. تدعوه. وتعده بما لا يخطر له على بال. ومع ذلك فليس من يعرف أسرار هذا البدن إلاّ أفراد قلائل. ثلاثة أو أربعة يرتعون في بحبوحة هذه الخطوة السعيدة فوق هاماتهم فيض نعمة سخية. والباقون. كوحوش الغاب يرودون حول الأنثى ككلاب الطريق الضالة، تبحث بأنوفها وخياشيمها عن الفريسة المنشودة!

٣

وقف بباب الحانة كعلامة الاستفهام. فلا هو يدخل ولا هو يلوي قدمه

ويمضي. ولم يلحظ وجوده أحد وسط الضوضاء والعربدة وسحب الدخان ونشوة الخمر. «فرحة» وحدها تدور بين الموائد تضحك... تقهقه... تغمز بعينيها... تتحكك بهذا بذراعيها العاريتين... فيسرع متلهفاً ويطلب كأساً أخرى... وتربت للآخر على خده بيدها الرخصة، وتمر بأناملها خلال شعره فيمص شفتيه ويطلق راحته على ردفها، أو يمس بحذر أحد ثدييها، فتنأى ضاحكة ضحكة وقحة، وتطلب له خمراً كغرامة مفروضة ومقدرة سلفاً... وهي بين هذا وذاك لا تفتأ تردد بعضاً من أغنية في صوت خليع:

ايه يعني لو ريحتني   وعملت غيري لعبتك
وتميل عليه وتقول ليه   طاوعتني ...

وحانت منها التفاتة فأمسكت عن الغناء بغتة، وانطلقت تجري نحو الباب، ووقفت قبالة الرجل، فلم يتحرك ولم يبدُ عليه أنه يراها؛ فذهلت هنيهة، ثم كأنما تفطنت إلى شيء ما فابتسمت وأمسكت بيده وصاحت:

- ادخل... يا أستاذ!

فارتعشت أهدابه وسرت في جسمه رعدة وتمتم وهو يحرك قدميه:

- أ... ء... صحيح... سأدخل...

وأعطته ظهرها وعادت إلى الحانة تتخلع وتتكسر وتلوك بصوتها الشبق:

وتميل عليـ......ـه ......

أستاذ! أيمكن أن يكون له اسم غير هذا؟ هو نفسه لا يكاد يعرف اسمه إلا بجهد. منذ متى يدعونه أستاذاً؟ لو أراد أن يتذكر هذا التاريخ بالضبط لكان حتماً عليه أن يعود إلى أول عهده بالزميل العزيز «بؤس»، منذ أول لحظة وضع يده في القيد مختاراً تشجعه وتغريه ابتسامة الزميل المخلص... إلى اليوم، إلى

هذه الثـانيـة... كلما ألقى نظرة من حوله وجد الزميل الأمين بجـانبـه خـاضعـاً؛ ضئيلاً، لاتنأ به أبداً، يتطلع إليه بعينين حزينتين وجلتين... يده بجانب يده في القيد الأبدي! حتى في فراش نومه... هو معه أبداً... بجانبه ملتصق به، وله من وراء ظهره غطيط لا ينقطع... ألفة قديمة وحب مقيم!

له في هذه الحانة منضدة خاصـة، وقْف عليـه. لم يفكر أحد أن يحتلها أو ينازعه اياها. فهي اما خالية، ومقعدها إلى جانبها في مسكنه وذلة، لا تحظى من العـابرين بأكـثـر من نظرة... أو لمحة سريعة؛ غيـر متـمـهلة، وإما يكون هو جالساً اليها على نحو لا يذكر أحد أنه تغير: يضع رجلاً فوق رجل ويتكيء بمرفق إلى المائدة من ناحيـة، ويعـتـمـد عـصـاه تحت ابطه من ناحيـة ثانيـة، وأمـامـه «النرجيلة» لا يفتأ يستل أنفاسها على ايقاع كركرة أشبه ما تكون بحشرجة محـتـضـر لا يموت... . وكأس العرق أبيض بلون الحليب - بعد كَسْره بالماء - يحتل أبداً وسط المائدة، كأمير معتز وحوله حاشيته الخاضعة من صحون صغيرة تحـمل «المزه» أشكالاً وألواناً... ولا سلطان عليـهـا إلاّ لأنامل الأسـتـاذ، امـا أن ترفع الكأس يشتـف منها جرعات متزنـة؛ حكيـمـة، مريئة،... أو هي تدور على صحون «المزه» تنتخب أجود وأشهى ما فيها. فاذا ما أتى على كأسين وشرع في الثـالثـة، انفرجت أساريره واحمرت عـيناه قليـلاً وصفق يدعو فـرحه! فـتـتـمـهل وتتباطأ مدة تعرف هي بدهاء أن الشوق قد بلغ منه خلالها أقصى حده، فتسرع إليـه إذ ذاك في اهتمـام واحتفال شديدين، فيشرق وجهه وتنّد عن صدره تنهدة خافتة ويتلقاها في ابتسامة حائرة:

- أهلاً بالأنس!
- أهلاً فيك يا روحي
- استغفر اللّه... استغفر اللّه...

فتكسر جفنها وتصوب إليـه من تحت أهدابها سهـمـاً نافذاً... يستـقـر في

أعماق بدنه، فينتفض ويتلعثم وتتعثر الكلمات الجوفاء بين شفتيه، ويمد يده في وجل وارتباك، ويتناول راحتها ويقبلها بنهم ويتشممها بأنفه الغليظ... بينما تغرق هي بالضحك «قه... قه... ها... ها... حاسب... يا استاذ... قه... قه... قه...» وجسمها كله يتهالك، وثدياها يطيشان ويهتزان، وعيناها تشعان... وتلمع ثناياها تحت قوس ارجواني، و«يحاسب» الأستاذ بعد لأي، وبعد أن تكون هي قد استوثقت من أن «الاستاذ» لن يبرح الحان إلا بعد كأسه السادسة... .

وهكذا دائماً...

أما الليلة... فالأمر على غير ما تعهده الحانة منذ زمن طويل. فان أول ما استدعى العجب ورسم على العيون والأفواه والوجوه عدداً وافراً من علامات التعجب والاستفهام والنقاط المعلقة، هو جلسة (الأستاذ) الجديدة، الطارئة، غير المعهودة. لم يضع رجلاً فوق رجل، ولم يتكيء بمرفق على المنضدة من ناحية، وألقى عصاه إلى أحد الأركان فأعفاها من وظيفتها في القيام تحت ابطه العزيز! ولكن الحدث الجلل الذي أثار الهمسات والغمزات في الأركان في الزوايا ونشر في الجو علامة استفهام عريضة، ضخمة، ثابتة... هو أن الأستاذ لم يطلب (نرجيلته)! كان هذا كثيراً... كثيراً جداً... شق عليهم أن يحرمهم هكذا دفعة واحدة... من أطيب مشهد (النرجيلة) وحدها لعنها الله - فضحته... أعلنت سره... وأحدثت ارتباكاً وفوضى

- الأستاذ مُش على بعضه...
- يمكن عيان...
- مهموم؟...
- مين يعرف!...
- ايش الحكاية؟... لازم يكون فيه شيء... لأ... أيوه... شف....

شف... هو... هي.... ها... وشـ... شـ.... شـ... شس...

من الأركـــان والزوايا والموائد من فم لأذن... من أفـــواه لآذان... من هنا وهناك... همـهـمـات... ووسـوسـات خـافـتـة ثم عـالـيـة... فـأعلى... ثم إذا هي جلبة... غرق فيها لحن خليع: (وتميـ...ـل... عليـ...ـه ...)

لحظة... لحظات... ثم مرت العاصفة واستكانت وعادت همساً خافتاً، خفـيـضـاً، ثم لا شيء... عـاد كلٌ يداعب كـأسـه ويتلمظ... وغـاضت عـلامـة الاستفهام العريضة. الضخمة الثابتة، وارتفع صوت خليع يلوك من جديد في مجون وتهتك

وتقوله ليه... طاوعـ... تني...

لقد كان في الواقع حدثاً جللاً... أثار وراءه غباراً ولغطاً في هذه الحانة... ثم مرّ يجر ذيله بشأن الأحداث جميعاً حقيرة أو جليلة... حين تُلمّ بعالمنا البائس ودنيانا الفانية!

العين تستطيع رؤيته الآن بوضوح؛ فان نوراً لا يرحم ينسكب عليه من أعلى السـقف ويجلو من حوله كل شيء ولا يدع من قـسـمـات وجـهـه ومـعـارفـه شيئـاً مستوراً، أو خافياً يتـألم له الفضول: ليس في الامكان أبدع مما كان... تبارك الخلاق (صلعة كوراء مجلوة لماعة ملساء تنزلق عليها الأكفُّ بفعل مادة دهنية لزجة لا تجد هذه الصلعة غضاضة في أن تفرزها من حين إلى آخر...) فإذا ما غامرت الكف وانحدرت قليلاً إلى أمام، تلقتها مرحبة بها جبهة نابغة فيها نواتيء وحزون وخطوط غائرة ونافرة ومستطيلة ومتعارضة... كلها ألسنة ناطقة بمجد الجهاد والجلاد عشرين عاماً، بجميع أيامها وأسابيعها وشهورها وساعاتها وثوانيها يداً بيد في قيد واحد، والزميل الأمين «بؤس»! أما أنف الأستاذ فانه

في غلظه وتفرطحه من الجانبين واتساع منخريه واحمراره صيفاً وشتاءً.. لآية... ومنار... للنبوغ والعبقرية، التي جار عليها محيطها وأنكرتها عشيرتها... عيناه فقط غير واضحتين لأول نظرة خلف «عويناته» السميكة، ذات الاطار المعدني الموصول بخيط أبيض عند استدارته حول الأذن... فاذا ما تفرس ذو طلعة بهاتين العينين هنيهة واحدة، وجدهما محمرتين ذابلتين لا أهداب لهما وتحتهما جيوب رهوة كحبات العنب الفاسد... إلا أنهما غير خابيتي الشعاع.. حتى إذا انحدرت العين لتشبع فضولها وجدت القامة عجفاء ممصوصة، وسائر ما يبدو من الجسم كله أدلة دامغة على ظلم الطبيعة، وشكاوي مرة تلهج أبداً بغبنها الفادح وخيبتها الأليمة... وتبحث عن واحد «كنيتشه» ليتخذها نموذجاً بارعاً، يخوله أن يصيح بحق: «ما زلتم إلى اليوم قروداً لا تضاهيها قرود...

- أتطلب شيئاً... يا أستاذ؟...

تقدمت إليه «فرحة» بهذا السؤال الحائر المتردد، وهي لا تدري أتعبس وتتجهم، أم تتودّد إليه وتمالئه أم تهزأ به وتسخر منه... .

- هاتي عرقاً...

لم يرفع رأسه ولم ينظر إليها ولم يتحرك ولم يختلج فيه عصب! وترددت وتمهلت قليلاً قبل أن تصدع بالطلب، كأنما هي تنتظر شيئاً لا يريد أن يقوله. ثم لوت أخيراً قدمها وصاحت: (واحد عرق!) وبقي هذا السؤال في نفسها لا يجد جواباً. (أين أهلاً بالأنس...) إلى آخر ما تعهد... لا بد اذن أن يكون الأمر أخطر مما تظن وتتوهم!

وشرب كأساً... وثانية... وثالثة... ولم يأخذ من الرابعة إلاّ رشفة أو رشفتين... ثم دارت رأسه وثقل جفناه ووهن جسمه وانحط عليه خمول ثقيل،

وبدا له أن كل ما في الحانة يدور بسرعة غريبة، وأن الأرض تميد من تحته، والحانة تتأرجح به، والأصوات تصل إليه مبهمة غامضة في همهمات بعيدة مختلطة... فاعتمد رأسه براحة يده واتكأ بمرفقه على المنضدة وأطبق جفنيه؛ ولم يعد يسمع إلاّ صوتاً متهتكاً يلوك من بعيد... من بعيد... من مكان قصي... (وتميل عليـ...ـه... وتقوله... ليه....) ثم لم يلبث أن راح يهوم... ويهوّم...

كان شعوره بادىء الأمر كشعور من هُزم في معركة... فإذا خرج منها مثخناً بجراح، تعباً، منهوكاً، محطماً... فانه على الأقل قد استراح واستكان... ولو كانت راحة أشبه ما تكون بالانهيار والتهدم... وخيل إليه أن أعصابه كانت خليقة أن تتقطع وتتمزق وتريق دمه كله دفعة واحدة... لو لم تسعفه الخمر بهذا الخمول الطارىء... وهذا التهويم الذي أرخى له أعصابه، وفكك ما كان ينذر بالانفجار في جسمه، والذي يدفع به، بيد ناعمة، لينة، مغرية، إلى ساعة من نوم بهيمي... وخالجته رغبة حائرة، ضبابية... (لو وجد نفسه في هذه اللحظة بعينها في غرفته بأعلى السطح، ومضطجعاً في فراشه بقدرة قدير...) ولكن هذه الرغبة ذابت بسرعة، وطفق يغطُّ ويصر على أسنانه من حين إلى حين. وانقضت فترة كأنها من العدم، طفقت من أعماقه خلالها سحابة سوداء حالكة انتشرت في أفق نفسه... وتصاعد منها بخار داكن إلى رأسه. وعلى حين غرّة راحت السحابة تنداح قليلاً قليلاً ذاهبة إلى مصير مجهول، ووجد نفسه فجأة جالساً إلى مكتبه الحقير في غرفة بائسة رطبة بادارة جريدة (المبادىء الحرة)، وعلى أرض الغرفة هنا وهناك... في الأركان والزوايا وفي كل مكان أعداد قديمة من جرائد مختلفة... وكمية غير قليلة من (المبادىء الحرة) تحت نعليه بالضبط! ألقى على كل ذلك نظرة ساخطة، ثم بصق وتنحنح وحاول أن يشعل لفافه فلم يجد ثقاباً فضرب الأرض بقدمه، ولعن الدنيا ومن فيها، وكال عدداً وافراً من الشتائم على رأس صاحب الجريدة، ثم هدأ واستكان على مضض، وتناول القلم وجمع أمامه كوماً من جرائد ومجلات، وراح يبحث عن المقص دون جدوى. وبدا له أنه إذا فقد

هذا المقص فلن يستطيع أن يلفق لجريدة (المبادىء الحرة) شيئاً من الأخبار والمقالات، فعز عليه ذلك واستشاط غضباً، ودفع يده تبحث في عصبية حادة تحت أكوام الورق والجرائد فاصطدمت بشيء فأخرجه، فاذا به طبق ما تزال فيه آثار باقية من (الفول المدمس) وفضلات من الخبز العفن... فبهت ووجم! هذا الفول اللعين يكاد يكون غذاءه الوحيد الذي لا يتغير أبداً... وانصرف غضبه إلى مجرى آخر، وتحرك في أحشائه حقد دفين، وهدد البشرية كلها بقبضة يده، وتدفقت اللعنات من فمه كالحمم يوزعها ذات اليمين وذات الشمال، ويقذف بها على رأس كل مخلوق، وانتفخت أوداجه وجحظت عيناه وتقبضت أعصابه، وتصبب العرق من جبينه، ثم قذفها بصقة كبيرة جداً في وجه (المبادىء الحرة)... وجميع المبادىء التي في الدنيا... ونظر من طرف عينه إلى النافذة التي إلى يساره، فاذا به فجأة يطل من شاهق، وخيل إليه أنه يرى فوق رأسه - في هوة السماء - نجماً يهوي بسرعة، وقد خطّ وراءه خيطاً متقوساً لامعاً... ففقد توازنه بغتة، وانزلقت قدمه وأوشك أن يهوي من شاهق، فارتعدت أوصاله، وجمد دمه في عروقه، وجفّ حلقه وانقطعت أنفاسه، وهوى قلبه إلى حذائه دفعة واحدة، ثم صعد إلى حلقه بأسرع من لمح البصر، وهو ما ينى يدق بشدة ويقرع له ضلوعه دون ما رحمة، وعلى حين غرة - دون أن يدري كيف وقع ذلك - وجد الحالم نفسه على الأرض الثابتة الرحبة يعدو بسرعة غريبة، ومن ورائه كلب جائع ينبح من أعماق حنجرة ملتاعة... وعلى جانبي الطريق وقف صبيان قذرون بخلقان بالية يضحكون ويهرجون ويشيرون بأيديهم ويتزاعقون... وظهر له إلى اليمين. باب مفتوح فلوى قدمه ودخل فاعترضه سلم طويل راح يصعده مذعوراً وهو يلهث، وفي أعلى السلم وجد باباً آخر دفعه بيده، فانفتح له فسارع بالدخول وصفق الباب وراءه، وهو ما يزال يسمع نباح الكلب الجائع يقرع اذنيه عن قارعة الطريق، لبث هنيهة لا يرى شيئاً من شدة الخوف... وكأنما هو قد اطمأن واستوثق من نجاته فلم يسعه إلا أن ينفث من أغوار صدره: زفرة عميقة، مريحة، وطفق يدير عينيه

في المكان الجديد، فاذا هو قاعة واسعة نظيفة ينيرها مصباح كهربائي معلق في السقف، وسمع من خلفه صوتاً حلواً، منغوماً يناديه، فاستدار على عقبيه، فاذا به وجهاً لوجه أمام غادة حسناء في غلالة ارجوانية كاسية، تبتسم له ابتسامة عذبة وتدعوه قائلة: «اتبعني!» فذهل ووجم! وتحركت قدماه وسار وراءها مسلوب الارادة، إلى حجرة بديعة أسدلت على نوافذها ستائر مخملية بلون الزمرد ، ونثرت في جوانبها الأرائك المريحة، وقامت في أحد أركانها خزانة بلورية فيها أوان من فضة وطرائف من الخزف والصيني، وبسطت الأرض بسجادة ثمينة نسجت فيها الورود والأزاهير بان ازدهارها الربيعي. وفي وسط الحجرة مائدة كبيرة تغص بالمآكل واللحوم على أنواعها، وصحاف الخضار والفواكه والحلوى... وعبقت بأنفه رائحة الشواء الشهي، فبهت وفغر فاه وسال لعابه وراح ينفض الأطباق بعيون منهومة، وبدرت منه نظرة إلى الغادة الهيفاء فرآها تبتسم أيضاً فحار واضطرب، ولكنها هزت له رأسها وأومأت إليه أن يجلس فتردد وخفق قلبه، فعطفت عليه وقالت «لم لا تجلس؟ أما زلت مرتاعاً...» فارتج عليه، وفقد لسانه، وأدهشه أنها تعلم أنه فزع ومرتاع... ورفع يده بغتة بحركة طائشة كأنما يريد أن يدفع عن نفسه شيئاً، ولكن يده اصطدمت بكوب من الماء على المائدة، فانقلب وأراق ماءه على الأطباق والصحاف فجمد دمه وزاغت عيناه، وانفجرت الحسناء ضاحكة بسخرية وازدراء، ثم سمعها تقول بزراية واستخفاف: «أعجز من طفل وأحقر من ذبابة...» فدار رأسه وتخاذل وغاب لحظة عن وعيه... ثم أفاق من غيبوبته فوجد نفسه يخطب بأعلى صوته في حشد من الجماهير:

«... لم نعد عبيداً أرقّاء، أيها الاخوان، هذا زمن تؤخذ فيه الحقوق أخذاً... إنما يجب أن نعرف كيف ننتهز الفرصة المؤاتية لننقّض على الظالمين انقضاض الصاعقة! علينا أن نكون يقظين أقوياء. سيكون النضال بيننا وبينهم حاسماً، قاطعاً، وسيكون النصر حليفنا في النهاية – ورفع يده بقوة ثم أهوى بقبضته على المنضدة وصاح – إن سواعدكم الفولاذية هذه هي التي ستهدم الحاضر بكل أوزاره

وآثامه وتبني – المستقبل القريب – فتيّاً زاهياً وضّاح الجبين...»

وبدل الهتاف والاعجاب ارتفع الصفير والدق بالأرجل من جميع الأركان، وعلت الضحكات الهازئة، وانبعثت من الزوايا همهمات مختلطة تردد كلها في زراية: «أعجز من طفل... وأحقر من ذبابة...»

وفي لمحة أمحى فيها كل شيء وغاض، وإذا هو يسير وحيداً في الشارع القفر وقد دسّ يديه في جيبيْ سترته، ينقل خطاه بوهن وإعياء، وقد غامت على فكره سحابة من البله والغباء... .

وتذكر بعد جهد أنه في هذه الساعة على موعد مضروب بينه وبين «فرحه»، فاندفع جازعاً وهو يقتلع أقدامه بجهد فاجع! فوجدها تنتظره عند باب الحانة المغلق، فأسرع إليها وتأبط ذراعها دون أن ينبس بكلمة، وسار يشق الظلام إلى أن وصل إلى عمارة شاهقة فاندفع يرقى السلم: وفرحة إلى ذراعه حتى بلغا غرفته بأعلى السطح. ها هي «فرحه» عنده أخيراً... وفي غرفته الحقيرة أيضاً... من يصدق؟... أنها حقاً لسعادة... سعادة قد تنسيه كل شي، وتردّه راضياً عن الدنيا... وطوّقها بذراعيه وانهال بالقبل على خديها وفمها وعينيها وشعرها كمحموم... ثم ضمها إلى صدره بظمأٍ وجنون، ودفن رأسه بين نهديها وراح يهذي ويغمغم: «أهلاً بالأنس... أهلاً بالأنس...» وكانت هي تضحك ضحكات قصيرة متقطعة بين ذراعيه، ثم أخرجت له لسانها وراحت تكايده: فغلى دمه في عروقه وطاش صوابه ودفعها إلى السرير، وراح ينضو عنها ثيابها كمخبول، وهي تتلوّى وتتخلع... انها لشوق أيامه ولياليه... ولهفة قلبه المحروم... ولكن... ما الذي حدث؟ يا للهول... لقد اختفت فرحة بغتة... ذابت... غارت بها الأرض... طارت بجناحين من النافذة... وها هو لا يضم إلى صدره شيئاً سوى وسادة... .

صعق في مكانه... وهرب دمه... وأحسّ في أعماقه بلوعة حادة، مؤذية

تأكل أحشاءه... ونهض متخاذلاً، ذليلاً، مقهوراً: وألقى من حوله نظرة حيوان جريح، ووقع بصره فوق منضدة عرجاء على كتاب مغبر يحمل هذا الاسم: «الصبر مفتاح الفرج»! ورفع رأسه قليلاً فصافع عينيه اطار متآكل، نخره السوس، وضمته هذه الحكمة الغالبة... بخط جميل... «القناعة كنز لا يفنى»! فارتعد جسمه كله وتقلصت عضلات وجهه وطفرت من عينيه الدموع، وشَعرتْ كل جارحة فيه أنه قد هزم إلى الأبد... وأنه قد قضي عليه وهوى من حالق... فنكس رأسه وأطرق واجماً... وعلى حين غِرَّة انتقض كمن به لوثة وأطلقها من صدره ضحكة مخيفة... نادرة... أشبه ما تكون بعواء كلب كلب... .

* * *

وفي هذه اللحظة كان الخمّار ممسكاً بالمكنسة بيد، ويَهُزُّ بيد أخرى كتف آخر زبون عنده ليوقظه. فقد طال عليه النوم والغطيط... ولكنه كوم من حطام لا يفيق...

هراء

قال صديقي يحدثني هذا الحديث الغريب:

كانت تلك البطاقة الأولى من نوعها وقد تلقيتها بالبريد، داخل مغلف كتب عليها اسمي بعبارة متخيرة منتقاة - عن عمد وقصد - فيما خيل إلي يومذاك: «حضرة الكاتب الأديب الأستاذ...»، وقرأت تلك البطاقة، قرأتها متلهفاً، عجلان، وهي لا تكاد تستقر بين أصابعي المرتعشة «يتشرف نادي (...) بدعوتكم إلى سماع محاضرة الكاتب اللوذعي (م) في قاعة النادي، يوم السبت الواقع في ٢١ نيسان سنة ١٩٣٠، الساعة السادسة مساء، الرجاء تشريفكم ولكم الشكر»

أعدت تلاوتها ثانية وثالثة ورابعة وعدداً لا يحصى من المرات، وفي كل مرة كنت أشعر بالفخر والزهو: فأنا كاتب أريب، وأستاذ أيضاً: ما في ذلك ريب، ثم أنا أدُعى إلى سماع محاضرة هذا الكاتب... اللوذعي... بل ويلح في دعوتي وينتظر تشريفي، والمحاضر لوذعي ما في ذلك ريب أيضاً، واني، وايم الحق، لأومن بلوذعيته، بل بعبقريته الفذة، وان كنت لم أسمع باسمه قبل أن أقرأه مكتوباً على رقعة الدعوة، وان كنت لم أقرأ له شيئاً يدل على أنه كاتب من الكتاب، أو أنه لوذعي عبقري، ولكنني استغفر الله، واستغفر الأدب والعبقريات ان استريب بلوذعيته، وهذه رقعة الدعوة تشهد له بذلك، وهذا هو النادي المحترم لا يتحرج من دعوة الناس، بل الأدباء وأساتذة الكتاب إلى سماعه في محاضرة

ي محاضرة لا شك في نفاستها، ولا أدنى ريب في قيمتها، وفي «لوذعيتها».
كبر النادي في عيني وتضخم وأصبح، بأسرع من رفة جفن، معقلاً للثقافة
مورداً للعلم ومنهلاً للمعرفة، ومناراً هادياً إلى النور. وكبر شخص المحاضر
للوذعي في خيالي وتضخم وعاد شيئاً عظيماً سامقاً تتطلع إليه، إلى أدبه
علمه ولوذعيته، الأعناق والأبصار والعقول والقلوب جميعاً؛ أسعد ما تكون لو
تاح لها أن تبلغ ذروة ذلك السموق المعجب... وكبرت أنا في عين نفسي
تضخم شخصي ورأيتني أجلس بين كبراء البلد وأعيانه فينظرون إلي - أنا
لكاتب الأريب - نظرات الاعجاب، ثم يتهامسون ويشيرون إليّ من طرف خفي
ائلين: «هوذا»، ثم يتوددّون إلي بابتساماتهم، وأسارير وجوههم ينّد عنها البشْر
البهجة والاعجاب العظيم، ثم يتشجعون ويخاطبونني، مخافتين بأصواتهم،
معداء أن يتقربوا إلي، مغتبطين أن أحادثهم وأتلقى إعجابهم. وأنا في كل هذا
ظهر التواضع وأرد على مظاهر الاعجاب وعبارات الاطراء بانحناءات خفيفة من
أسي، وبإيماءات لطيفة عن يمين وعن يسار مصحوبة بابتسامات أنيقة ظريفة، ثم
سألني بعضهم عن رأيي الخاص بالمحاضر، فما أسرع ما أجيب أنه دون ريب،
«لوذعي»، بل غاية في اللوذعية العميقة الأصيلة، قد لا يجاريه فيها كاتب من
لكتاب. ثم أروح أردد لوذعي... لوذع... لوذعية... وأدير معانيها بين شدقي
أجعلها، ترادف حدة الذهن مرة وفصاحة اللسان مرة أخرى، إلى أن أدير رؤوس
لقوم وأدعهم مفتونين مسحورين مأخوذين بهذا الفيض من العلم، حتى ليختلط
عليهم الأمر، وتلم بهم الحيرة: «أهذه اللوذعية لها أصول وفروع في اللغة، أم هي
ما ولدته مخيلتي الخصبة ومما تنزل وحياً على قلمي»؟

ولم أفق من ذهولي إلا على صوت آذن الوزارة التي أعمل فيها يناديني:
«يا أفندي» فانتفضت؛ انتفض كل عرق من عروقي، ورشقته بنظرة ازدراء بالغة،
أجبت وكأنما أتهدده وأتوعده: «يا أستاذ؛ أستاذ أفهمت، لست أفندياً أيها
لغبي، أستاذ، أستاذ، منذ هذه اللحظة. أفهمت أغرب عن وجهي!» نظر إلي

والعجب العجيب يطل من عينيه، ووثبت إلى شفتيه ابتسامة عريضة ملأت وجهه كله، وقال: «طيب معلش يا أفندي!!» وأدار ظهره ومضى ووقع قدميه الثقيلتين على الأرض يقول: «ماذا ترى قد ألم بعقل هذا الموظف الصغير؟!».

وحان موعد المحاضرة؛ وكان لا بد للاريب أن يظهر، في ذلك الوسط الثقافي الرفيع، بما يليق به، ويليق بالأدب الذي يمثله، فما أسرع ما حملت بزتي الكحلية إلى من أزال بالبنزين أوساخها وبقع «زيت الفول المدمس» عليها. وكواها وأصلح منها ما استطاع فنه ومكواته، ثم ما أسرع ما اشتريت ربطة عنق وردية زاهية ومنديلاً يلائمها وياقة مقّواةً وعصا أتوكأ عليها، و«عوينات» مزيفة - لن يتم منظري الأدبي المرموق إلا بها جميعاً.

وقبيل الموعد المضروب للمحاضرة، وقفت أمام المرآة أحاول عقد ربطة العنق حول الياقة المقواة فأفلحت بعد جهد، جهيد وبعد أن تفصد جبيني عرقاً مدراراً، ثم أثبت «العوينات» على أنفي وتأبطت كتابين متخمين، وخرجت أتوكأ على العصا وأزن خطوي وأنظر إلى خلق الله من وراء زجاج عويناتي، وأنا أرثي لجهلهم وأعجب بعلمي، وخيل إلي أنهم يفسحون الطريق إجلالاً واحتراماً لقطب أقطاب العلم - الذي أنا اياه - ثم تبين لي أن هذا وهم سببه الطوق الحديدي - بل الياقة المقواه - الملتفة حول عنقي، الآخذة بمخنقي حتى انبهرت أنفاسي، وانتفخت أوداجي، وتوترت عروق رقبتي، واختلطت المرئيات في نظري، وتداخل بعضها في بعض؛ ورحت أرى الحقائق مقلوبة والأوضاع معكوسة، وخيل إلي أن الذين يتزاحمون لمشاهدة كتلة الغرور السائرة بينهم، كأنما هم يفسحون لها الطريق اعجاباً وتقديراً واجلالاً... .

ثم... بعد لأي عادت إليّ الثقة بنفسي فتماسكت. وكانت ركبتاي قد تخلعتا - وعبست وشمخت بأنفي إلى السماء، وسرت قدماً لا أبالي أحداً ولا يباليني أحد، وإذا بي على مقربة من النادي فطامنت من اندفاعي. ورحت مرة

أخـرى أزن خطوي على الأرض وأثقل رجلي واصطنع الوقـار. ولمحت اثنين من أعضاء النادي واقفين على عتبة الباب لاستقبال الوافدين، وقد ارتديا ثياب السهرة. وعلى شفافهما ابتسامة مطبوعة. نسيا ان يمحواها، فجمدت حيث هي، لا تتغير ولا تتبدل، وخيل إلي أنهما سيسرعان إليّ مرحبين، بل لا ريب البتة في أنهما سيتلعثمان ويتجلجلان ويرتبكان إذ يصافحانني ويدعوانني إلى الدخول معتذرين، معجبين، مأخوذين... واقتربت ثم اقتربت، ثم أصبحت قيد ذراع منهما، فما تحركا ولا بدا عليهما أنهما يحتفيان بي أو يلقيان إلي بالاً، كأنما هما تمثالان جامدان من الآبنوس: قلت في نفسي: «لعلهما إن كنت أنا البادىء بالحديث أن ينتبها إلى ما تورطا فيه من اثم!» ورفعت رأسي على هينة ومهل وحييتهما وقلت: «أليس هنا النادي...» ونسيت اسم النادي ورحت أغمغم: «أي... نعم... النادي... النادي... نادي المحـاضـرة... أليس كـذلك؟» فضحكا... ضحكاً كثيراً... ضحكاً وقحاً قبيحاً، وأجاب أحدهما وهو يسترق أنفاسه: «أي نعم! هنا النادي... نادي المحاضرة...» ثم عاد يضحك، وقال الآخر وقد اعتدل وراح يسوي ربطة عنقه: «تفضل ادخل» ثم انصرف عني إلى استقبال بعض الوافدين، فدخلت وأنا ألعنهما في سري وألعن غباءهما وجهلهما. ووجدتني دون أن أدري كيف وقع لي ذلك؛ وسط قاعة واسعة قد ازدحمت بالكراسي، وفي أقصاها منصة الخطابة، عليها شرشف مطرز، وزهرية فيها ورود ذابلة وكوب وابريق ماء. وأدرت عيني في المكان فرأيت بعض المدعوين وقد تشاغلوا بالحديث ولم يلتفتوا إلى القادم - الأديب الاريب - ولم يبالوه. فتهافتُّ على أقرب كرسي ورحت أكفكف قطرات العرق المتصببة من جبيني، وأخرجت من جيبي رقعة الدعوة وطفقت أقرأ: «حضرة الكاتب الاريب الأستاذ...» وأحسست أن ريقي يجف في حلقي ورحت أسأل نفسي: «أليس في هؤلاء الجهلاء من يعرف الكاتب الاريب اياه، أليس فيهم من قرأ لي ولو مقالاً واحداً من ثلاثة أو أربعة هي كل رصيدي في عالم الأدب، هذا كثير، وأكثر من كثير، وانه لبلد جحود

ينكر الفضل والنبوغ! ولم ينقذني من هذه الخواطر السود إلا صوت يقدم المحاضر إلى السامعين:

«... والأستاذ قد اشتغل بالأدب، وهو في طليعة كتابنا الممتازين، وله جولات موفقة في الميدان الثقافي... فنعم الكاتب «اللوذعي» محاضرنا هذه الأمسية». اللوذعي!! واشرأببت بعنقي وعيني جميعاً لأرى هذا اللوذع اللوذعي؛ فاذا شاب أعجف، في نحو الثلاثين، معروق الجسم. مسنون الوجه، مدور العينين، قد ضاق به ثوب السهرة فهو يروح ويجيء، ثم يروح ويجيء، ثم يتناول الكوب ويكرع كرعة عصبية، ثم يدس يديه في جيبْي بنطلونه؛ ثم يلتفت إلى الحضور ويقول بلهجة مسرحية: أيها السيدات والسادة! ان الحياة التجدد، والتجدد الحياة» ثم هو يقف هنيهة وكأنما قد أُرتج عليه فهو يروح ويجيء مرة أخرى، ثم يقف ويمد يده نحو شيء غير منظور ويعيد قوله في نبرة مرتعشة حانقة هذه المرة: «الحياة التجدد، والتجدد الحياة». إلى ما لا نهاية!! واتضح لي على الفور - أكان ذلك الهاماً أو وحياً؟ - ان ياقتي المقواة وربطة العنق الزاهية وعويناتي الزائفة والعصا الغليظة التي أتوكأ عليها ولوذعية المحاضر والحياة التجدد والتجدد الحياة، اتضح لي أن هذا كله من مادة واحدة، كلها سخف وزيف وهراء مضحك، وبدا لي أن عضوي النادي إنما كانا يضحكان هما الآخران ويغرقان في الضحك من هذا السخف السخيف، وانهما هما الآخران قد اتضح لهما سلفاً أن لوذعية المحاضر وياقتي المقواه وعويناتي الزائفة، كل ذلك بعضه من بعض، سخف أصيل قد احتفل به النادي أيما احتفال ودعا الناس إلى الاحتفال به معه، ومشاركته في هذا العبث، على أنه جد من الجد وعلم من العلم... ولاح لي أن عضوي النادي كانا يدركان هذا كله، وأنه لو كان الأمر إليهما لما أحجما عن رد الوافدين واسداء النصح إليهم أن يرجعوا من حيث أتوا، إلا إذا شاؤا أن تكون مشاركتهم مشاركة لهو وعبث لا مشاركة جد وعلم... ولكن أنى لهما أن يفعلا ذلك؟ فاقتصرا على الضحك، الضحك العريض، يملأ

الوجه ويطل من العينين ويتفجر به الحلق والفم والأنف جميعاً... وانتهت المحاضرة فيما بدا لي، ونهضت أريد أن أصافح المحاضر، وأن أضع يدي في يد اللوذعية وأشاهدها من قريب وأملأ عيني منها، وتقدمت وأفسحت لي طريقاً بين أناس التفوا حوله يهنئونه، وسمعته يردد لهم بحماس: «أجل... ثقوا أن الحياة التجدد والتجدد الحياة...» ومددت له يدي، بل ذراعي كلها، وأنا أقول: (لا) بل اللوذعية الحياة والحياة اللوذعية، فمد لي يده يتلقى اعجابي، ولكنه بهت فجأة وراح ينظر إلي وقد اتسعت حدقات عينيه وفغر فاه، فقد كنت أضحك ساخراً، كل شيء كان فيّ يضحك، عيناي تضحكان، فمي يضحك، أسارير وجهي كلها تضحك، عويناتي الزائفة تضحك، وتهتز من الضحك ياقتي المقواة القابضة على مخنقي تضحك هي الأخرى. العصا التي أتوكأ عليها تضحك، الكتابان تحت أبطي يضحكان كياني كله يضحك. ضحكاً وقحاً، قبيحاً، ضحكاً نادراً، ضحكاً موحياً، غلاباً، قاهراً، آمراً بالضحك... وعلى حين غرة ضحك هو الآخر، وأغرق في الضحك، وراح جسمه، جسمه النحيل، المعروق، يتلوى من الضحك، كيانه كله غدا يضحك ضحكاً وقحاً، قبيحاً نادراً... لقد أدرك ما في الموقف من هراء، وفهم أن لوذعيته والحياة التجدد والتجدد الحياة؛ وأن عويناتي الزائفة، وياقتي المقواة، كلها أكاذيب، سلسلة من الكذب السخف، والزيف... وتأبط ذراعي وخرجنا من النادي ونحن نضحك ونهتز من الضحك... وسرنا في الشوارع والأزقة والدروب نضحك، ولا نتكلم. وقد ستر الظلام هذا الزيف كله، عن أعين الناس، وتحت مصباح يمجّ نوره الهزيل مجاً وقفنا. ومدّ كل منا يده يصافح الآخر دون أن تنفرج شفاهنا عن كلمة واحدة، ثم افترقنا وراح كل منا يغذ السير، وأنا موقن بأنه ذاهب إلى حيث ينضو ثوب السهرة الذي ضاق به، وينضو معه اللوذعية والحياة التجدد والتجدد الحياة، وهو واثق انني مسرع إلى حيث ألقي عويناتي الزائفة، وياقتي المقواه، ورقعة الدعوة التي تشهد لي بأنني الأديب الأريب... .

الاحتراق

وقفت تسجل درجة حرارة المريض، فرفع رأسه قليلاً يهم أن يحييها، ولكنه عاد وألقى رأسه على الوسادة اللينة، وهو يعجب لاكفهرار محياها وذهول نظرتها، ثم اتجهت نحو سرير آخر، ووقفت عند رأس المريض ودفعت مقياس الحرارة في فمه دفعاً، وتناولت اللوح المعلق فوق رأسه وراحت تنظر إلى الخطوط المتعرجة المرسومة عليه، وفكرت في أنها على وشك أن تضيف خطاً جديداً إما إلى أعلى أو إلى أسفل أو ما بين بين: ذبذبة غادرة قد تؤدي في أكثر الأحيان إلى هلاك المريض. ووجدت نفسها مرة أخرى تفكر في الموت ومصير الانسان وتفاهة حياته، وعاد حلمها الذي رأته في الليلة السابقة يزعجها ويقلقها. أتمت عملها وهي مضطربة الفكر، محزونة النفس، ثم غادرت قاعة الدرجة الثالثة في المستشفى إلى غرفتها المشتركة. فوجدت زميلتها «خيرية» قد سبقتها إليها. ودار بينهما حديث. الأولى فرحة، نشيطة، مستبشرة، باسمة الثغر، والثانية مهمومة: مكدودة، يائسة:

- ما رأيك في الذهاب إلى السينما الليلة؟
- قد لا أستطيع... كلا، لن أذهب!
- ولماذا من فضلك؟
- أوه! لا شيء. أحس اني متعبة قليلاً...
- هل تلقيت جواباً... من... منه...؟
- قد يحضر هو نفسه... في اجازة.

– ماذا تعنين؟

– وما قيمة الجواب إذا حضر... هو نفسه...

فضحكت الممرضة «خيرية» ضحكة مفردة، وقالت وهي تتوثب فرحاً «طبعاً! إذا حضر الماء بطل التيمم...» واندفعت نحو زميلتها واحتضنتها وقبلتها في وجنتيها، وجلست بجانبها وراحت تلاطفها وتمازحها وتسرّي عنها، ثم تناولت راحة يدها بين كفيها وقات لها: «سأروي لك قصة لطيفة فاسمعي. كان يا ما كان، في حاضر العصر والأوان، ممرضة حسناء اسمها كريمة، أحبها ضابط وسيم قسيم، وسيقترنان عما قريب، ويعيشان في ثبات ونبات وينجبان أولاداً وبنات» وما كادت خيرية تتم كلامها حتى انتفضت زميلتها «كريمة» واختلجت شفتاها، والتفتت إليها وقد اغرورقت عيناها بالدموع وقالت «أرجو... أن تكفي عن المزاح...» ثم نهضت متثاقلة وراحت تخلع ثياب التمريض، في حين كانت زميلتها تعجب لأمرها وتتساءل، ما بالها مهمومة مغتمة، وما هذا الذي شجاها وأغصها فأجرى دمعهَا، وردّها مكتئبة، ضيق الصدر، وأنه لحريّ بها أن تكون سعيدة، ضاحكة السن، مشرقة المحيا. وهي على الأخص موشكة أن تقترن بضابطها الذي أحبها، ولم يحفل بسنّها ولم يسائل نفسه عما إذا كانت قد نيفت على الثلاثين، وأن ما بقي لها من الشباب والجمال فضلة لا تغني عما فات، وماذا كان يكون من أمرها لو لم تحب وتخطب... إذاً لكانت خليقة أن تهزل وتضوي وتذبل ويجف عودها. ويغيض ماؤها على الأيام وتهرم وتشيخ، وتتهدم، وهي ما تزال ممرضة في هذا المستشفى، لا ينفك المرض والموت يلازمانها كظلها... وارتعشت أهداب الممرضة خيرية وارتاعت. أيمكن أن يكون مصيرها هي كمصير كريمة في يوم من الأيام، أيمكن أن تظل ممرضة في هذا المستشفى، يخلق المرض والموت شبابها يوماً بعد يوم؛ أيمكن هذا؟ ولم لا؟ أليست كريمة أمامها، تراها بعينها، مثالاً حياً لما يدور في خاطرها؟ ألم تدخل كريمة المستشفى في مثل سنها هي، ألم يكن لها من البريق في عينيها ما لها هي، ومن روعة

الجمال وسحر الشباب وحدة الاهاب ورقته ولينه وبضاضته نصيب موفور كنصيبها ؟ وماذا هي الآن؟ ثمرة تجف وزهرة تذبل وعود ييبس! وأشفقت خيرية على نفسها من هذا المصير المرقوب، وبدا لها أنها سوف تكون ضحية هذا المستشفى، وانها قد كتب عليها أن تظل تنظر إلى شقاء الآخرين، وأن تكون هي والمرض والموت على ميعاد لا ينقضي ولا يحول؛ وأن ترى، بأم عينها، جمالها وشبابها يعتريهما الذبول، وينطفيء سحرهما وينضب ماؤهما، «كلا هذا لن يكون أبداً» وخيل إليها أن فيها من القوة والعزم ما سوف يمكّنها من التمرد وصدع القيد في الوقت المناسب. والتفتت إلى صديقتها كريمة فرأتها تهم بالخروج وقد ارتدت ثوباً رمادي اللون، وهمت أن تحادثها وتفضي إليها ببعض ما يعتلج في صدرها ولكن نظرتها الحزينة ردتها، فاكتفت بتحيتها وتركتها تنصرف هي تتبعها نظرها، حتى اختفت بين أشجار حديقة المستشفى.

كان الليل قد أقبل، وكانت النجوم في السماء تتوامض وتتلامح كأنما قد ركب فيها زئبق رجراج؛ وقد ألف الناس الظلام، واعتادوا السير فيه، وغدوا لا يحسون حاجة إلى مصابيح النور. وكانت جنات البرتقال حول «يافا» تفيح عبيرها في الفضاء؛ وتفيض على ليالي نيسان أنفاساً حلوة قد ضمخها زهر البرتقال بالعطر والطيب، وكانت كريمة تسير وكأنما هي تخوض في الظلام، وكانت تملأ رئتيها من حين إلى آخر بهذا الهواء ذي العبير، وتحس له على جبهتها وخديها رقة وعذوبة، وكان هذا يناقض تفكيرها وهواجس نفسها، حين ترى صور المرض والموت تلح على فكرها، وراحت خطوط الترمومتر الصاعدة والهابطة والمذبذبة تعذبها وتضنيها، ولاحت لها في قرارة نفسها، عيون المرضى التي أنهكتها الحميات، العيون الحزينة، العيون البائسة، العيون التي تنطفيء على مهل، العيون المتوسلة المستعطفة، العيون التي تتشبث بآخر ومضة من الحياة... مرفوعة إليها، ترقب يدها وهي تسجل على اللوح تلك الخطوط... صعود وهبوط، ونحس وسعود، وحياة وموت... تلك هي حياتها...

وحاولت أن تُقْصي عن ذهنها هذه الخواطر، وأن تتمثل خطيبها الضابط ببزته العسكرية وقامته المرتفعة، وأن تقارن بين مظهره الصارم وبين رقة ملامحه الدقيقة وسحر شفتيه اللتين توحيان لمن يراهما أنهما موشكتان على طلب الصفح، والغفران... ولكنها تذكرت حلمها الذي رأته في الليلة السابقة، فخفق قلبها وتولتها رعدة، وطفقت صورة الحلم تراود خيالها... لقد كانت مذعورة مروعة في حلمها، تمد بصرها فلا تجد إلاّ الجفاف واليبس والاحتراق... كان كل ما تقع عليه عينها سرعان ما يجب وييبس ويحترق... الهواء الذي كانت تتنفسه كان ثقيلاً، خانقاً، حاراً، والسماء كانت مكفهرة نحاسية اللون، تتلظى الشمس في كبدها، وترسل شواظاً من نارها... وكانت تحس أنها هي نفسها تجف وتيبس وتحترق... امتد الحلم طويلاً، دهراً بأسره، كانت تشتهي خلاله نقطة من ماء، فقد كان الاحتراق يلهب أحشاءها وبدنها جميعاً، وكانت الأرض، الأرض أيضاً، تشتهي الماء، وتحن إليه ويتصاعد حنينها أنفاساً محرقة من أعماقها... وكانت مذعورة مروعة، تريد أن تبكي، أن تهرب. ولكن الدموع، الدموع التي ما أكثر ما نفّست عن صدرها في اليقظة لم تطاوعها البتة، وقدماها كانتا كأنما قد سمرتا في الأرض... ثم استيقظت، وبقيت مدة ترتجف في سريرها، وهي تحدق في الظلام، وما تزال مذعورة مروعة، ولم يكن في وسعها بعد ذلك أن تنام، كانت تخشى أن يستمر الحلم وتعود إلى ما كانت فيه إذا نامت... وبقيت حتى الصباح مفتوحة العينين، حائرة، قلقة، مشردة الذهن، لا يصافح سمعها إلا غطيط أمها العجوز في الغرفة المجاورة، ونقيق الضفادع يأتي إليها من بعيد... ولم تكن تستطيع أن تدفع الخواطر التي كانت تلح عليها فتشجيها وتزيد في وساوسها واضطراب حالها. فكرت في الحرب وويلاتها، واحتارت أتكون الحرب آفة لافكاك للانسانية منها، تنتابها من حين إلى حين، فلا تملك ردها، بل تندفع إليها في شبه حمى تغلي في أعصابها، وتظل تخوض فيها إلى أن ترتوي وتعود على أعقابها والدم يتقطر من أشداقها... أم أن الانسان قد فطر على الشر والحقد

والبغض، بغض جنسه، فهو لا يني يهيء للحرب أسبابها، ويعد لها العدة عن وعي وادراك وسابق اصرار... أم ماذا؟

وخطرت لها عبارة قرأتها في كتاب منذ سنوات: «لم يكن بد من مجيء من يعلمهم الحب، ولكنهم لم يكونوا بحاجة إلى من يعلمهم البغض» انها إذاً لعنة... لعنة الجنس... وتذكرت على الفور نبأ قرأته في أول الحرب... سفينة مستشفى... ألقت عليها الطائرات قنابلها فأغرقتها... وغرق معها خلق كثير... مرضى وأطفال معظمهم. تلك هي الحرب... وأحست أنها بحاجة إلى من يحنو عليها ويهدىء من روعها ويطامن من عذابها... وأمها... أمها العجوز تغط في نومها... وتمنت لو كان خطيبها الضابط الشاب بجانبها فتضع رأسها المتعب على صدره وتفضي إليه بهموم روحها... ولكن أين هو الان... ولماذا لم تصلها رسالته المرقوبة... وانتفضت وتمثل لها حلمها من جديد.. والجفاف واليبس والاحتراق... وعجبت وتساءلت لماذا يلتفت ذهنها أبداً إلى خطيبها كلما تذكرت حلمها؟

وفي الصباح ذهبت إلى المستشفى، وشرعت تقوم بعملها اليومي، وكانت ترتعد فَرَقاً كلما طالعها وجه محموم. ولا تسجل خطأً في لوح الحرارة إلا وهي تفكر في الموت ومصير الانسان وتفاهة حياته... وها هي الآن تعود إلى البيت، في جنح الليل، تعود إلى الوحشة والانفراد والهواجس. وانها لتفكر؛ وهي تغذُّ السير في يومها، وفيما رأت وسمعت ووجدت، وما يزال صوت خيرية زميلتها يرن في اذنها: «هل تلقيت جواباً... من... منه...» وعجبت لخيرية ولمرحها وزهوها... انها تحب السينما، والأثواب والحفلات، والرقص، انها تلهو، تلهو كثيراً، وأخلق بها أن تهدأ قليلاً وتتئد، أليس في قلبها ما يهمها... ما يشغلها على الأقل؟ وزميلاتها الاخريات: انها تتحاشى الاختلاط بهن كثيراً. انها لا تبوح لهن بأسرارها، ليس بينهن واحدة تعرفها منذ دخولها المستشفى. منذ خمسة

عشر عاماً. وجوه كثيرة أتت ثم ذهبت... وجوه لا تدري اليوم مصائرها. أما هي فقد ظلت وفية لهذا المستشفى ولثوبها الأبيض، إن طوعاً وان كرهاً... هذا الوفاء البغيض، شد ما يثقل على نفسها الآن... لا بد للانسان أن يبغض بعض الأشياء والأحوال والأشخاص أيضاً، لكي يستطيع أن يحب أشياء وأحوالاً أخرى وأشخاصاً آخرين... وأحست أنها تبغض زميلاتها وعملها بالمستشفى، وأنها تبغض أمها العجوز، بل وتبغض نفسها، وتبغض هذه الانسام الحلوة المعطرة التي تهفو على وجهها، وأنها لتسير ودموعها تسح على خديها في صمت... هذه الدموع التي امتنعت عليها في حلمها، انها تفيض الآن من عينيها اللتين شبههما بعض زميلاتها بعيني ممثلة السينما، «بتي ديفيز» لاتساعهما وصفائهما وبراءة نظرتهما... لقد شاهدت هذه الممثلة تقوم بدور حزين في أحد أفلامها، شاهدتها وهي تئد جمالها وشبابها، وتدفن قلبها وتهرم وتشيخ وتتحطم على الأيام، لكي يسعد الآخرون، وتصفو لهم الحياة، بينما هي تذوب وتحترق.

واقتربت من البيت، ولاحت لها أمها - في لوح خيالها - امرأة ضعيفة، واهنة ثقيلة الخطو، مرتعشة اليدين، محنية الظهر ممصوصة العود في ثوبها القاتم المسترسل حتى كعبيها، ونقابها الأبيض، ووجهها الصغير المغضن، وشفتيها الذابلتين اللتين لا تنفكان تتمتمان بأدعية لا تنتهي يوماً من الأيام... وهي اما قائمة تجر قدميها هنا وهناك عاكفة على عمل البيت، تشعل ناراً أو تغسل أطباقاً أو تطهو طعاماً... واما جالسة على حشية تشرب القهوة، وتدخن نارجيلها وتدعو لابنتها من حين إلى حين بالسعادة والستر وطول العمر... انها لا تكاد تعرف لأمها صورة غير هذه... .

ووقفت أمام البيت أخيراً وأخرجت من حقيبة يدها مفتاحاً صغيراً أدارته في الباب، فانفتح لها، فدخلت وأقفلت الباب وراءها، وأسرعت ترقى سلماً ثم انعطفت إلى اليمين وأطلت من بابٍ موارب هناك فوجدت أمها قائمة تصلي،

وقفت هنيهةً تتأملها، ثم استدارت وذهبت إلى غرفتها؛ وضغطت على زر الكهرباء فسطع النور في أرجاء الغرفة؛ وودت لو أنها تستطيع أن تفتح مصراعي النافذة دون أن يتسرب النور إلى الخارج؛ ولكن هيهات!

وأدارت عينيها في الغرفة، فإذا سريرها في مكانه وكل ما فيه أبيض ناصع، نظيف، وخزانة ملابسها، ورف الكتب الصغير، والمرآة المستديرة المثبتة في الحائط وتحتها نضد الزينة؛ والديوان الشرقي في صدر الغرفة، والسجادة الصغيرة على الأرض... كل شيء في مكانه لم يبارحه، ثم أطفأت النور وفتحت النافذة وراحت تطل على الليل، وأخذ الهواء المعطر ينشر قبلاته الحلوة على خديها وعينيها وشعرها وصدرها، واشتهت لو أنها تستطيع أن تضع حداً لاضطراب تفكيرها وبلبلة خواطرها، وأن تنسى وتجد الراحة والهدوء والأمن، وتراءت لها صورة خطيبها مرة أخرى ببزّته العسكرية، وقامته المرتفعة، وشفتيه المستغفرتين، وكلماته العذبة التي تشعرها الطمأنينة والهناوة... وتولاها احساس غريب... انه بعيد.. بعيد... وهي كاليائسة منه... كمن أضاع شيئاً نفيساً، عبثاً يحاول العثور عليه واستعادته.

وجاءها صوت أمها الواهن، انها تناديها وتلبثت قليلاً، لا تلبي النداء ثم استدارت وذهبت إلى حيث أمها... ورأتها تمد إليها يدها بخطاب، فتناولته وأبقته بين اصبعيها وقلبها يخفق بشدة. انها تخشى أن تفضّه، تخاف المجهول واختلطت الصور في ذهنها... حلمها... زميلتها خيرية... والمستشفى والخطوط الصاعدة والهابطة، وعيون المرضى وكوارث الحرب، وهذا الخطاب... ماذا عساه يحمل... هل تفضه أم تلقيه؛ تمزقه، تنساه، كأنه لم يكن... ولماذا يخشى المريض أن ينظر في المرآة، ولماذا يتوقع دائماً أن يسمع من الطبيب مايطمئنه... وهل الوهم خير من الحقيقة... وخيل إليها لحظة أنها قد تحررت مما يؤودها ويجثم على صدرها، وأن شيئاً قاتماً ينجاب عن عينيها فأشرقتا، ثم ما أسرع ما عادت ترزح

تحت عبئها كأثقل وأعنف ما يكون. ورجعت إلى غرفتها، لا تريد أن تشرك أحداً في شعورها... ومزقت طرف الغلاف... وأخذت تقرأ... كانت تتوقع ذلك أو شيئاً مماثلاً له... قلب الانسان لا يخطيء أكثر الأحيان.

كان الخطاب من صديق، صديق لخطيبها، جندي مثله، انه ينعاه إليها، بعبارات حزينة كأنها كانت تتحشرج في حلقه وهو يكتبها. لقد مات متأثراً بجرح عميق في خاصرته اليمنى، ولقد أبلى في الحرب بلاء حسناً، كان باسلاً لا يخشى الموت، ولم يأسف لشيء وهو يحس دنو الأجل، إلا لأنه سيفارقها، كان اسمها يرف دائماً على شفتيه، وقد لفظه مع آخر نفس... والصديق يثق بشجاعتها وقوة احتمالها، وهي ستعرف ولا شك كيف تصمد وتتجلد، لتكون مثالاً للأخريات. «وقد يكون مصيري غداً كمصيره... من يدري... كلنا معرضون للموت بين آونة وأخرى... لم يعد الموت يفزعنا. لقد ألفناه...»

لم تبك! لم تذرف دمعة واحدة، إنما أحست أن شيئاً قد انكسر في نفسها... إلى الأبد... وانها في الواقع تجف وتيبس وتحترق في لحظة... ولم تنفرج شفتاها إلا عن عبارة واحدة، فيها كل يأسها وحزنها «لم يكن يعوزهم من يعلمهم البغض»

وستغدو في الصباح إلى عملها، كأن لم يحدث شيء، وستسألها خيريه: «هل جاءك خطاب... من... منه» وستطالعها وجوه المرضى وعيونهم المحمومة. وستظل تسجل تلك الخطوط الصاعدة والهابطة والمذبذبة... غداً... وكل يوم... .

شعرة بيضاء

كان أديم السماء صافياً، خالص الصفاء، رقيقاً أملس، ناعماً، حتى ليشتهي لو أن راحة اليد تستطيع لمسه، وكان كل شيء غارقاً في حلاوة هدوء قرير. وكانت السيدة «جميلة» غارقة هي الأخرى في مقعدها الوثير، اللين، تعمل ابرتها في رقعة من النسيج، وقد فرغت منذ لحظة من تطريز فراشة كبيرة وسط النسيج، مبسوطة الجناحين المزدانين بخطوط وتعاريج موشاة ومنمنمه بألوان ذات بهجة ورواء، وشرعت بتطريز الخطوط الأولى لوردة حمراء في احدى زوايا مربع النسيج، وفي نيتها أن تجعل منها وردة تتفتق عنها أكمامها شيئاً ما، بحيث يخيل إلى الناظر إليها كأنها في كأس من أكمامها الخضر. ولكنها عدلت عن ذلك، وارتأت أن تكون الوردة قد تم تفتحها وازدهارها، فتوحي لمن يراها أول وهلة انها تتألق بلونها الارجواني، وتكاد تفيح أريجها. ولم تدر لماذا عدلت باديء الأمر عن الفكرة الأولى، إلا أنها ارتاحت إلى وردتها الكبيرة، المتألقة، وهي ما تزال خيالاً في خيالها. ثم لاح لها أن اكتمال تفتح الوردة أمتع للعين، وأبهج للخاطر، لأنها لا تخفي شيئاً من نضرتها، ولا من حسنها وروائها وحلاوتها، ولأن ماء الحياة يكون قد ترقرق في أوراقها المخملية فأشبعها ورواها، وأفاح عطرها وشذاها، وزادها فتنة ملمس وخلابة منظر، فهي بذلك تمنح الناظر المتذوق نشوة كاملة... وأما وردتها تلك؛ التي كأنها في كأس من أكمامها الخضر، فهي سر مطوي، وغيب محجوب، لا يعلم من تقع عليها عينه أي وردة سوف تكون: أريانة، رفاقة الورق، رخصة الملمس، يتضوع عطرها، ويسطع ألقها

فتفتن وتخلب، أم هزيلة، تافهة، ممصوصة الماء حائلة اللون، فلا عطر ولا أرج ولا فتون؟ وخليق أن يكون الشك في أمرها باعثاً على الزهد فيها، فما يبهر إلا ما يملؤها، ولا يشبع الحس إلا ما يرعشه ويهزه... وامتدت أصابع تتناول الابرة المغروزة في رقعة النسيج. وبدا لها الخيط الارجواني دقيقاً، فاتناً، بحمرته الرامية ينساب على النسيج انسياباً ليناً، وأومضت في ذهنها خاطرة طارئة، وهي مستغرقة في تأمل الخيط المنساب حتى اختلط الأمر عليها: أهو خيط من حرير أم قطرة من دم، قد انساحت في خط طويل دقيق متألق، ولكنها سرعان ما استحيت وارتعشت أهدابها وغصت بريقها، وحاولت أن تثني فكرها عما بدا له، ولكن الخيط الارجواني لم ينفك ماثلاً أمام ناظريها، عالقاً بهما شديد الألق والازدهار، ولاح لها - على الرغم منها - أن هذا اللون الأحمر كان له دائماً شأن كبير في حياتها، منذ كانت فتاة غريرة حتى أصبحت غادة هيفاء، غضة، بضة، ريانة الأعطاف، رفاقة الحسن، تتخذ من الحرير أناشيط لضفائرها، تفتن في عقدها ولفها وعقصها، ثم هي تعصب به هامتها بعد أن قصت جدائلها، واستعاضت عن جمال هذه الضفائر بفن الحلاق، يلوي ذهب شعرها بأصابعه الساحرة ليّا، فيصوغ منه جلقات ودوائر متلاحقة متشابكة تلقي هي عليها نقاباً شفافاً من الحرير الارجواني، لا يخفي شيئاً من هذا الذهب المصوغ أنماطاً وطرازاً بارعة، إنما يموهه ويعنت العين المتطفلة التي لا تقنع ولا تكتفي بما يختلسه الحظ اختلاساً، وإلى اليوم لا يزال اللون الأحمر يستهويها ويلهب خيالها... .

وساءلت نفسها عن سبب افتتان النساء بهذا اللون الأحمر، ولماذا تراهن يطلين شفاههن به وخدودهن، ولماذا هي على الأخص - كانت وما تزال - تصنع عصائب رأسها من الحرير الارجواني، وتتخذ منه شفوفاً ومناديل مطرزة ومخرمة، وحتى ستائر النوافذ في بيتها. وقطع النسيج المنشورة على الموائد والمقاعد وما تستعمل منها على صواني الشاي والقهوة وأواني الفاكهة لا تخلو من هذا اللون، بل هي تذكر أنها كانت تعنى دائماً أن يكون هذا اللون هو الظاهر البارز البادي

للعين دون سواه من الألوان. لماذا، لماذا؟

الهتها هذه الخواطر السانحة عن متابعة التطريز وأنستها وردتهما الكبيرة الفواحة بالعطر، والأخرى الصغيرة الضامرة، التي كأنها في كأس من أكمامها الخضر، وسمعت وقع أقدام خفيفة، رشيقة، تأتي نحوها من الردهة التي تلي البهو الجالسة فيه، ثم صافح سمعها جرس ضحكة فضية صافية، فعبست وتغيّم محياها. وراحت تعمل ابرتها في رقعة النسيج بسرعة وعلى غير وعي، ودخلت في هذه اللحظة ابنتها «ليلى» فتاة في الرابعة عشرة، أو دونها بقليل وابتدرتها هاتفة: «ماما!» فرفعت إليها أمها عينين تشع فيهما القسوة والصرامة، وأجابتها بهدوء: «ماذا تريدين؟» فماتت الابتسامة التي كانت تضيء محيا الفتاة وترف على شفتيها، وتخاذلت وغضّت من نظرها وتساءلت: «أتراها تكرهني؟» منذ أقل من شهر وأمها تنتهرها لأقل سبب ولأتفه بادرة،تغلظ لها الكلام ولا تتلقاها إلا عابسة. متجهمة الأسارير، محنقة، مغيظة، وعادت الأم تقول: «ليلى! ماذا تريدين؟» فأجابت الفتاة وهي تغص بريقها: «لا شيء، لا شيء، إنما أردت أن أراك بعد غيابي يوماً كاملاً في المدرسة» واستدارت واتجهت نحو الردهة التي أتت منها وهي مطرقة الرأس.

وتراءت للأم، على الأثر، صورة ابنتها «ليلى» وهي نائمة في سريرها ذات صباح، وقد انسدل شعرها الكث على كتفيها وذراعيها، وبان صدرها عارياً، وقد امتلأ الكتفان بعض امتلاء. واكتنز الذراعان بعض اكتناز، وأخذ الثديان الصغيران يستديران وينهدان، كان واضحاً أن المرأة الكامنة في الفتاة الصغيرة أخذت تستفيق وتُخرج طَلعها... منذ ذلك الصباح والسيدة «جميلة» لا تدري لماذا اغتمت واكتأبت واضطغنت على ابنتها... آذتها هذه الخواطر وعكّرت عليها صفو ساعتها، ولاحت لها، في بهرة خيالها، من جديد الوردة الكبيرة الريانة، والأخرى الصغيرة لما تتفتق عنها أكمامها، فهزت رأسها هزة عنيفة ونهضت عن

مقعدها الوثير، واتجهت صوب النافذة، وأطلت منها على الحديقة، ورفعت عينها إلى السماء فشاهدت سحباً صغيرة متفرقة تتقارب لتتجمع وتصبح غيمة كبيرة تحجب نور الشمس. ومنذ قليل كانت السماء مصحية، صافية، لا غيمة فيها... وكأنما قد فطنت إلى شيء فأسرعت إلى المرآة الكبيرة فظهرت لها في صقالها امرأة حلوة النظرات، فاتنة اللحظ، ممتلئة الشفتين، ذهبية الشعر، مكتنزة الصدر ذات عنق أتلع، عاجي البياض، ثم استدارت وراحت تختلس النظر من زاوية عينها إلى كشحيها وردفيها... فاطمأنت وعادت تحدق النظر في وجهها مرة أخرى. وهي ترجو في سرها أن لا ترى تلك الخطوط الدقاق المستسرة تحت جفنيها الاسفلين وحول عنقها الأتلع، ولكنها رغم المساحيق لاحت لعينها البراقة تلك الخطوط اللعينة، المؤذية، التي ناصبتها العداء وشهرت عليها حرب المساحيق صباح مساء، وفيما هي تصلح من شعرها وتسّويه، إذ بها تمسك بهوتة واجفة القلب، مستطارة اللب، فقد شاهدت تحت عصابة رأسها الحمراء شعرة بيضاء تلمع كخيط فضي دقيق، تلك أول مرة تشاهد فيها شعرة بيضاء تطالعها من قمة ذلك الموج الذهبي.

ارتعشت السيدة «جميلة» ارتعاشة حادة من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، وأحست بموجة باردة تنحدر على طول ظهرها وراحت تغمغم: «هذا ما كنت أخشاه!» ثم بادرت إلى تلك الشعرة الوقحة واجتثتها بيدها اجتثاثاً وأراحت نفسها منها، وقالت كأنما هي تتحدى قوة خفية مجهولة: «انني لا أزال جميلة... حلوة...» وانصرف تفكيرها إلى زوجها، وإلى ايثارها اللون الأحمر، وإلى ابنتها ليلى، وإلى السماء التي كانت صافية الأديم وهي تنذر الآن بالارېداد، واختلطت الصور في ذهنها وأضنتها، ودار في نفسها أن زوجها لم يعد يحبها، وهو على الأخص لم يعد اللون الأحمر يفتنه ويسحره ويختلب لبه. لماذا لم تفطن إلى هذا من قبل، لماذا الآن؟ وألقت على نفسها هذا السؤال في هذه اللحظة ولأول مرة في حياتها: «هل أنا سعيدة حقاً؟» هي لا ينقصها شيء من أسباب الرفاه ورغد

العيش، بل لعل الكثيرات يحسدنها فيما بينهن وبين أنفسهن. وهي في مجتمعها وفي وسطها وبيئتها زهرة غالية، نادرة، تثير الاعجاب والدهشة، والافتتان، ولا تغادر مكاناً إلا وتبقى فيه من طيبها وسحرها وحلاوتها... ومع ذلك: «هل أنا سعيدة حقاً؟» وخيل إليها أنها كانت سعيدة، في الماضي، الماضي القريب، هو الماضي ولو كان ابن ساعة، وراعها وأحزنها أن يقال عنها منذ اليوم: «كانت».. «كانت» هذه سوف تقتلها ولا ريب. وبدا لها أنها كانت تعيش في حلم حتى هذه اللحظة، وهذه هي قد أفاقت، قد فتحت عينها على قسوة الواقع ومراراته، وتمنت لو أن الحلم لم ينقض والسحر لم يتعطل، واغرورقت عيناها بالدموع، وأحست كأنها مريضة، متزايلة القوى، وأنها توشك أن تقع مغشياً عليها، فهرعت من فورها إلى غرفة نومها وأوصدت عليها الباب، واستلقت على سريرها وأغمضت عينيها. ولما خيل إليها أنها هدأت واستكانت وأفرخ روعها وذهب ما ألم بها، نهضت متثاقلة وتناولت من خزانتها أجمل وأحب ثوب إلى نفسها، ثوبها الارجواني الذي يظهر مفاتن جسدها كلها، فارتدته وانثنت إلى مرآتها فجلست قبالتها. وشرعت تدلك وجهها وعنقها بمعجون أبيض معطر. ثم راحت تتناول بيد حاذقة ملهمة حقاقاً وقوارير مختلفة الأحجام والشكول، فتغمس اصبعها هنا وهناك وتمر بها على جبهتها وأجفانها وثنايا جيدها وصفحة وجهها بتؤدة وعلى مهل، حتى أتمت عملها الشاق، ثم سرّحت شعرها ومشطته وطيبته وعادت تلوي خصله هنا وهاهنا بمهارة فائقة حتى تم لها ما أرادت، وأرخت عليه شفاً من الحرير الارجواني، وخطر لها على الاثر أن شعرة بيضاء واحدة، وبضعة خطوط دقاق تحت جفنيها وحول عنقها لن تخلق شبابها... ولن تذهب برواء حسنها ونضرة محياها، ولن تنضب الماء الذي يترقرق تحت أهابها ويكسبها هذه الفتنة البادية، ولن تطفيء هذا الالق في عينيها. ثم واجهت المرآة بثقة وعزيمة، فبدت لها وضاءة محياها وبضاضته، وتبينت ما في لحظيها من قوة على الاغراء، وما يرف على شفتيها الممتلئتين برحيق حار من نضرة وحلاوة، ووقع في

وهمها انها ما تزال حسناء ساحرة، وغيداء فاتنة، وانها لم تكن في يوم من الأيام أجمل ولا أفتن ولا أكثر اثارة للمشاعر، ولا أقوى تحريكاً للحس ولا أشد ابتعاثاً للرغبة والاشتهاء منها اليوم. وانها خليقة أن تحب وتعبد، وأن زوجها غبي جهول، وأنه هو الذي قد هرم وشاخ وولى شبابه ووهن عظمه وفترت همته: وما ذنبها هي، وما حيلتها؟ أم ترى في وسعها أن تعيد خلقه من جديد وترد إليه شبابه الذاهب، وعنفوانه القديم؟ وما كانت هذه الخطوط الدقاق تحت جفنيها وحول عنقها وما كانت هذه الشعرة البيضاء، قبل الأوان، في موج شعرها الذهبي إلاّ من عذابها معه واحتمالها الهم والغم دونه، وهو خليق أن يضويها ويهزلها ويذيبها، ولكنها لن تمكنه من هذا أبد الدهر، وسيرى كيف ستعتني بنفسها منذ اليوم، وتهمله وتهمل ابنته، ولا تعود وتفكر إلا بما يفرحها وينضر حياتها، ويبقيها مشرقة المحيا، باسمة الثغر، غضة الاهاب، مسكرة العبير، ريانة أبداً كوردتها، تلك الوردة الكبيرة التي تم تفتحها.

وسمعت فجأة وقع أقدام زوجها وسؤاله عنها، ثم رأته يفتح باب غرفتها ويدخل ويقف هنيهة يتأملها باشتهاء، وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة، غزلة: ثم يدنو منها بخفة ولهفة فيحتضنها ويعصرها على صدره، وهي مأخوذة بهذا كله، سكرى بعنفه ورجولته وقوة ساعديه. وكلمته المهموسة لا يني يرددها مع كل قبلة: «ما احلاك... ما احلاك...»

وتأبط ذراعها ومضى بها إلى غرفة الأكل وجلسا إلى المائدة متقابلين، وكان عنقود كبير من العنب الارجواني في طبق من البلور وسط المائدة يزينها ويعكس من حمرته القانية ظلالاً خفيفة على غطاء المائدة الأبيض الناصع، ورفعت إلى زوجها عينين ضاحكتين تفيضان بشراً ونعيماً. وافترت شفتاها عن ابتسامة حلوة. وفكرت: «ربما كنت واهمة، ولعلني ما أزال جميلة، أُحَبُّ وأُشتهى، وهذا زوجي لم يهرم ولم يشخ ولم يهن، ولمَ لا أكون سعيدة؟» وخيل إليها أنها كانت

واهمة حقاً، وأن الخطوط الدقاق تحت جفنها وحول عنقها، والشعرة البيضاء الوقحة في شعرها الذهبي المتموج، هذا كله كان وهماً لا حقيقة له ولا وجود... وانها قد جنت على نفسها بما توهمت... .

ولاحت منها التفاتة إلى النافذة القريبة، فرفعت لحظها إلى أديم السماء، فإذا هو أصفى ما يكون، أملس، ناعم، حتى ليشتهي لو أن راحة اليد تستطيع لمسه. وإذا كل شيء في الحديقة. وحولها ، غارق في حلاوة هدوء قرير. فارتاحت واطمأنت واستوثقت. وندّت عن صدرها تنهدة خافتة مريحة، وعادت تبتسم لزوجها ابتسامة من القلب، من الأعماق، تتألق على محياها وتضيئه وترف عليه، وفكرت مرة أخرى: «ستكون وردتي في زاوية النسيج كبيرة ولا ريب، ارجوانية، متفتحة الأكمام، خضلة، ريانة، تترقرق غلائلها المخملية بماء الحياة، أو تكون متعة للعين وفتنة للحسّ».

أبو جسار رجل رهيب

ومن لا يعرف في الحي كله «أبا جسار»؟ رجل مخيف رهيب، أبو جسار يصارع البحر بمجذافه وساعده القوي. ويقارع الرجال، ولا يتردد لحظة في اغماد مديته في صدر عدوه! ولا يمكن أن يذكره أحد الا ويذكر على الفور (مديته) هذه وساعده الذي لا يخيب

ولقد تفرد أبو جسار بزعامة الحي كله، فلم يجرؤ أحد على أن ينازعه سلطانه أو يقف في وجهه أو يعترض سبيله. وحتى في غيابه عندما يكون ضيفاً عزيزاً أو غير عزيز من ضيوف السجن، لا تحدث أحداً نفسه أن يحتل مكانه. وأهل الحي لا يخشون بأسه فحسب، بل هم يحبونه... أيضاً... لأنه يدفع عنهم الأذى ويحمي ضعيفهم، ولا يبالي السجن من أجلهم. وحسبه منهم الولاء والاحترام والمهابة.

والحي الذي يبسط عليه أبو جسار حمايته يتكون من بضع حارات قذرة ذات دروب ضيقة ملتوية معتمة في الليل والنهار، ودورها قديمة، متصعدة الأركان لولا أنها تتساند وتتماسك، ولولا أن أصحابها يقومون بترميمها من حين إلى حين،بما يدخل في طوقهم لانهار معظمها. ومن الصباح حتى غروب الشمس لا يسمع في هذا الحي إلا ضجيج الصبية وصياحهم وزعيق الباعة المتجولين.

وسكان الحي فقراء بالطبع. وهم بين فاعل في ورشة بناء، أو اسكاف أو أجير في قهوة، أو عتَّال، أو بحار من زملاء أبي جسار. والبحارة أحسن حالاً

وأرغد عيشاً؛ ولكن أبا جسار أوفر الجميع رزقاً وأوسعهم حيلة وأقدرهم على اقتناص الفرص، وهو بهذا كله يعيش في سعة وبحبوحة ، ولولا هذا لما كان في وسع أبي جسار أن يكون مثالاً للأناقة والوجاهة... في الحي. كما هو مثل في القوة وجرأة القلب.

وأكثر ما يكون أبو جسار انهماكاً في العمل أيام الشتاء، ففيه تصدّر «يافا» برتقالها إلى أوربا، ومن لم ير أبا جسار في أيام الشتاء والبحر يرغي ويزبد ويتدافع موجه كالجبال، وهو قائم على رأس «مركبه» المملوء بصناديق البرتقال يصارع الأنواء ويدفع مركبه بقوة ساعده، حتى يصل به إلى السفينة في عرض البحر، ومن لم ير أبا جسار على تلك الحال فانه لا يعرف شيئاً عن قوته وشدة مراسه، ولا يمكنه أن يتصور كيف تكون الابتسامة الظافرة المزهوة تملأ صفحة وجهه ،وتطل من عينيه في ومضات سريعة متتابعة سكرى بخمر الانتصار!

وإذا كان أبو جسار في أيام فراغه يلبس سراويله الفاخرة الفضفاضة إلى الركبتين والملتصقة بُساقيه حتى مفصل القدمين؛ وإذا كان يتمنطق بشملته الحريرية ذات الأصابيغ القرنفلية ويرتدي فوق قميصه الأخضر ذي الخطوط العريضة سترته القصيرة إلى ما فوق الردفين، وينتعل حذاءه الضيق اللامع ويُميل طربوشه إلى الجانب الأيمن، ويضع في عروة سترته وردة أو كرنفلة كبيرة وفي جيب سترته الأعلى منديلاً متدلياً فاقع اللون، وإذا كان شارباه مفتولين قائمين أبداً فوق شفته العليا بفعل مادة دهنية لا يبوح بسرها لأحد، وهو يَدَعُ للرائي أن يلمح مقبض مديته المفروزة في حزامه، إذا كان أبو جسار يفعل هذا كله في أيام فراغه فهو إنما يكافىء نفسه عن جهد موصول بذله قبل ذلك في مصارعة البحر، ومدافعة الموج والاحتيال على الرزق.

ولكن المصيبة أن تُحَدِثَهُ نفسه في مثل هذه الظروف أن يقضي سهرته في

ملهى «الانشراح»، فهو عندئذ يعب الخمر بلا حساب، ويريد أن يفرض حمايته على الراقصات؛ ويصخب ويعربد، ولا يفتأ يبرم شاربيه ويستل مديته وقد خيلت له الخمر أنه السيد الآمر الناهي! وأمثال هذه السهرات تنتهي دائماً بشجار عنيف يؤدي به إلى السجن. ويظل الحادث بعد ذلك مدار حدث أهل الحي، ودليلاً قائماً على قوة أبي جسار وعنفه واستهتاره بالمخاطر وجدارته بزعامة الحي كله!

وقد اكتفى أبو جسار، منذ مدة طويلة، أن تكون له حبيبة واحدة من بنات الحانات اسمها «ياسمين»، تعشّق فيها سمنتها المفرطة، فقد رآها ترقص وتغني ذات ليلة، وهو منذ تعشقها ندرت سهراته وندر معها دخوله السجن. ولقد بادلته «ياسمين» الحب... ووقفت نفسها عليه دون غيره، فهي لا تكاد تنتهي من رقص وغناء، حتى تهرع إلى بيتها فتجده في انتظارها!

وكان أبو جسار عائداً ذات يوم من البحر؛ وكان يومه كله جهاداً عنيفاً مع الموج والانواء، وكان يسير متمهلاً ثقيل الخطو، في أحد دروب الحي، وكانت احدى صبايا الحي ترقبه من الشباك، ورفع عينه بغتة فوقعت عليها وهي تبتسم له، ولكنها ما كادت تدرك أنه رآها حتى أسدلت حجابها وارتدت عن الشباك وتوارت. وقف أبو جسار مبهوتاً. أيمكن أن يكون مثل هذا الجمال في مثل هذا الحي؟ ثم تابع سيره وصورة الفتاة لا تبرح مخيلته! ولمن كانت تبتسم إن لم يكن له؟ لقد فتنته بغرتها على جبينها الأبيض الناصع، وبلبّتها الذهبية حول عنق لم ير مثيلاً له إلا في روايات «السولما»، وتراءت له «ياسمين» ذات الأرداف الثقيلة والمساحيق الكثيرة، وتذكر في هذه اللحظة أنه سمعها مرة تغط وهي نائمة، وكان غطيطها مرتفعاً عالياً، حتى لقد صافح أذنيه قبل أن يدخل الدار، فاشمأز وبصق على الأرض، وتبين له منذ تلك اللحظة أنه يكرهها، لم يعد يحبها، وانما هو يعاشرها بدافع الألفة! وهذه الفتاة الآن؟ من أين جاءت ومن تكون؟ وهل يمكن أن يظل كل هذا الوقت الطويل دون أن يُحِسَّ وجودها في

الحي؟

وفي اليوم الثاني لبس أفخر سراويله، وزاد من إمالة طربوشه، وضمخ شاربه بالدهن وثيابه بالعطر ووضع وردة كبيرة حمراء في عروة سترته وجعل يروح ويجيء قبالة شباك الفتاة، وهو يفتل شاربيه من حين إلى آخر، وأطلت فتاة الأمس ثم ارتدت من الشباك في مثل لمح البصر وهي تضحك ضحكة فضية النبرات. وراعه أن تضحك وترتد عن الشباك بمثل هذه السرعة، وخلب له رنين ضحكتها وَوطّن النفس على الظفر بها،خيل إليه أن من يصارع البحر ويقارع الموج يهون عليه الظفر بهذه الفتاة. وراح يراقبها ويسير في أثرها حيثما ذهبت، وكانت هي لا تفعل أكثر من أن تُنحِّيَ نقابها قليلاً وتبتسم له ابتسامة خاطفة ثم تحث خطاها وتختفي. وكانت هذه الحركة تشعل النار في صدره وتؤرقه الليل كله، وقد ازداد افتتاناً بها بعد أن شاهد قامتها المشوقة وخفتها وتثنيها إذ تسير، وابتسامتها... ابتسامتها هذه... انها تدير له رأسه وتخبله، وسمعها مرة تغني:

«جوزي العجوز عليّ وأنا لسه الحنة بايدي»

فجن جنونه واستخفه الطرب؛ وشاهدها بعين خياله وهي تسير في أرجاء الدار تغني بصوتها المتكسر النبرات، وتتثنى معجبة بغرتها ولبتها الذهبية وتبتسم... ابتسامتها الخلابة. وتنفرج شفتاها عن ثنايا لؤلؤية... ثم ترمقه من مؤخرة عينها لترى وقع هذا كله في قلبه... وبدا له أنها تغني له، له وحده؛ وأنها لم ترفع صوتها بالغناء إلا ليسمعه، وأنها واثقة من حبه، وأنها مزهوة بهذا الحب، وأية واحدة من صبايا الحي لا تطمع بحب أبي جسار؟!

وشاع في الحي أن أبا جسار يحب «زنوبه» وأنه يتعقبها، ويحاول اقتناصها. زنوبه... أم غرة ولبة. إن أبا جسار سيخفق ويخيب... ستعبث به

وتذله ولن تفيده مديته ولا قوة ساعده. لا ريب في أنها هي التي مدت له شباكها وحبائلها فأوقعته فيها... وستلهو به وتذيقه العذاب وتقضي على رجولته... ثم تلقيه كالحذاء البالي... هذا كان رأي الحي... ولن ينسى أحد أن أبا جسار قد أذل ابن عم لها في يوم من الأيام، وأنه انهال عليه ضرباً وصفعاً وبصق في وجهه وهو يجهل أن زنوبه ابنة عمه من ورائه... وأنها لا تنسى ولا تصفح، وأن لها من جمالها ودهائها سلاحاً يفل كل سلاح... يا ويله من زنوبه... زنوبة أم غرة ولبة!

وفيما كان سكان الحي يتهامسون بهذا كله... كان أبو جسار في أحسن حالاته وأهنأ أحلام حبه! كان يخيل إليه أن زنوبة لن تلبث أن تصبح ملك يمينه. وقد تفرغ لها، ومضى يتألق في اختيار سراويله الفاخرة كل يوم... أهمل عمله... وصار لا يفارق الحي، وهو يبرم شاربيه ويتحسس مديته ويميل طربوشه، ولا يني يختلس النظر هنا وهناك في انتظار مرورها... وحين يطول انتظاره يسائل نفسه ما بالها في هذه الأيام لا تطل من شباكها ولا تبتسم له، ولا يرتفع صوتها بغناء، ولا يلبث أن يضيق صدره وتتجهم أساريره ثم ينطلق هائماً على وجهه مشرد الفكر ذاهلاً عن الدنيا، لا يفكر إلا فيها، ولا يراها بعين خياله إلا سائرة تتثنى وتنحي نقابها قليلاً وتبتسم له، ثم تختفي بأسرع من لمح البصر، وغدا كلما نَفَدَ صبره وعجز عن فهم إعراضها يهرع من فوره إلى معشوقته القديمة «ياسمين»، وقد ملأ جوفه بالخمر واحمرت عيناه وانتفخت أوداجه والتهبت نار الغيرة في صدره، فيحتضنها ويقبلها، ثم ينهال عليها ضرباً وصفعاً وهو يخور ويزمجر ويلعن!

وفي بعض ساعات هدوئه كان يعجب لنفسه ولهذه القدرة الخفية التي تشل حركته، وتميت عزمه وقوته، وتحيله عبداً خاضعاً لهذه المخلوقة التي تعرض عنه وتتأبى عليه، والتي أصبحت تشيح بوجهها عنه كلما لمحته، وتغلق مصراعي الشباك بعنف كلما عَنَّ له أن يستجدي ابتسامة من ابتساماتها. وقطع الشك

باليقين ذات يوم، فقد رآها تخاطب الفتى «حمودة» بائع الفطائر وتضاحكه وتغمز له بعينها.. ثم تمضي ضاحكة على مرآى منه... فعصفت به الغيرة وطاش صوابه، وأحس أنها طعنته في قلبه، وخطر له على الفور أن يقتل بائع الفطائر، حتى يريها كيف أن في وسعه أن يستل أمعاءه بأصبعيه الاثنين، ولكن ما ذنب بائع الفطائر وما هي جريرته. لو لم تشجعه هي ولو لم تتصد له ولو لم تُغرِه... وإذا كان لا بد من قتل أحد وازهاق روحه.. فهي أحق بذلك وأولى!

وساورته هذه الفكرة الرهيبة منذ تلك اللحظة، وأصبح سكان الحي لا يرونه إلا مطرقاً مفكراً، ولا يلتفت إلا حين يمر أمام شباك زنوبة، فيقف ويطيل النظر إلى الشباك المغلق ويهز رأسه ثم يمضي.

وأيقن سكان الحي أن أبا جسار يدبر أمراً، وأن زنوبة قد تمادت.. وأنه كان يحسن بها أن تمسك عن إذلاله إلى هذا الحد؛ وأنها أخطأت باستخفافها به يوم اصطنعت «حمودة» بائع الفطائر، وأنه ما كان لها أن تهزأ به أمس وهو في زمرة من أصحابه، وتسخر من رجولته وبأسه وحكاية مصارعته أهوال البحر تلميحاً وتعريضاً، وهي تحادث جارة لها ولا تمسك عن الإغراق في الضحك!

وفي صبيحة يوم العيد، كان صبيان الحي وفتيانه يموجون بملابسهم الزاهية في الساحة، وفي أيديهم اللعب والحلوى، وهم يتضاحكون ويتصايحون ويبدو عليهم الزهو والخيلاء، وتبرق عيونهم فرحاً كلما سمعوا مدافع العيد تدوي في أرجاء المدينة... وكان أبو جسار لابساً سراويله البنية وقميصه الحريري المخطط وسترته الثمينة، في عروتها قرنفلة كبيرة ويتدلى من جيبه الأعلى منديله المعهود، وفي حزامه مديته، وكان يروح ويجيء سريع الخطو كثير الالتفات، وكان كلما لمح احدى الصبايا يقف هنيهة يتأملها ثم يبرم شاربيه ويلوي قدمه ويمضي... وعلى حين غرة لاحت له زنوبه من بعيد، عرفها من تثنّيها ومن قدها المشوق. فحث خطوه نحوها، فاسترعت حركته هذه أنظار اللاهين من أهل الحي،

فوقفوا يشهدون ما سيقع... واقترب أبو جسار من زنوبة ثم حاذاها وبادرها قائلاً وعيناه تقدحان شرراً:

- أنا أبو جسار... يا زنوبة

فوقفت ونحّت نقابها عن وجهها وصعّدت نظرها فيه، ثم قالت وهي تضحك استخفافاً به:

- تشرفنا:

فعاد يقول وهو يرتعد وينتفض كمن به حمى:

- أنت لي... لي... أنا وحدي

فشمخت بأنفها وهزت كتفيها وصوبت إليه نظرة ازدراء وقالت وهي تهم أن تمضي:

- فشرت... يا خايب...

ولم يكن يتوقع منها هذه الجرأة، ولم يخطر له أنها سوف تتحداه بمثل هذا القول الذي جرى على لسانها. فتفصد جبينه عرقاً مدراراً، وأظلمت الدنيا في عينيه، وانتفض من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وأطبق فكيه، واستل مديته ورفعها في قبضة يده في الفضاء وأهوى بها على صدر زنوبه وأغمدها فيه.

* * *

وكان أبو جسار في سجنه يشعر أنه بعمله هذا قد أعاد إلى نفسه الاعتبار الذي فقده منذ أحب زنوبة. وأنه لن يقال بعد الآن أن الرجل الذي كان يصارع البحر ويصمد لأنوائه وأهواله قد أذلته امرأة... وكان يشعر بالارتياح التام لأن زنوبه أم غره ولبة... لن تكون لأحد بعده. ولم يكن شيء يعكر عليه صفوه إلا تلك النظرة المذعورة التي رآها في عيني زنوبه وهو يغمد مديته في صدرها!

قيد لن يتحطم

مرت خمس سنوات ورؤوف أفندي الموظف المتقاعد، يذهب في كل آخر شهر إلى «الماليّة» حيث يمهر ورقة الصرف بامضائه المحترم، ويقبض راتبه وينكفيءُ راجعاً من حيث أتى. وكان صعوده سلم المالية وتوقيعه على ورقة الصرف وقبضه راتبه وأوبَتُه إلى بيته مع الظهر من أشق الأمور على نفسه، فان هذا اليوم من كل شهر يُجَددُ له ذكريات وآلاما تُمضُّهُ وتُبرحُ به. لقد أذاب في «الماليّة» نفسها شبابه وعمره كله، ثم لفظته لفظاً دون ما أسف... نفايَةٌ تافهة.. وكان يشعر دائما وهو يَمُرُّ بمكاتب الموظفين ثم يهبط السلم الواسع العريض متوكئاً على عصاه.. أنه قد امتص واعتصر، ثم ألقي به لانقضاء الحاجة إليه... فقد كان أحد القلائل الذين يحسنون التركية، وكان لا بد من استمراره في عمله بالمالية طالما أن آثاراً من النظام التركي القديم لم تزل باقية، ولم تكد هذه الآثار تتوارى وتختفي وتحل محلها نظم اوربية حديثة حتى توارى رؤوف افندي هو الآخر بجرة قلم، يحمل على منكبيه ثقل الستين من عمره، واختفى معه وقع أقدامه المتئدة الموزونة في أروقة المالية، ولم يعد شيء ينقص على الأذن ساعات استرخائه وتثاؤبه وتمطيه، فقد كان يشق عليه دائماً ويتنزعه من أحضان تبلده وخموله، اضطراره إلى الوقوف معتدل القامة كلما دخل أو خرج حضرة «الباشكاتب»، أو جعل يتنقل هنا وهناك وهو يعطس ويتمخط أو يتفقد شاربيه المصبوغين كجناح غراب، أو يتحسس صلعته النظيفة ويركز عويناته على أنفه، ويتأفف بملءِ شدقيه فيتراقص شارباه المبرومان ويهتز بطنه المتكرش.

وأصبح رؤوف افندي بعد ذلك زبوناً دائماً لقهوة «البوسطة»، يجلس عند بابها الخارجي يدخن نرجيلته ويرتشف القهوة السادة، تعطر له خياشيمه برائحة حب الهال الذي ينبعث منها. فينتشي وتأخذ الذكريات تنثال على خاطره، وتطل برؤوسها الدقيقة المهتزة على حاضره الآسن.

وإذا كان، قبل أن يحال إلى المعاش، يستمد وجاهته من وظيفته، فقد غدا يستجدي هذه الوجاهة من اختلاطه ببعض ذوي «الحثية»، والدخول في زمرتهم، أسعد ما يكون أن يراه الناس سائراً معهم، متألقاً مثلهم، مصطنعاً الوقار وجلال الشأن وحسن السمت، يبرم شاربيه، ويداعب سلسلة ساعته الذهبية المستديرة حول كرشه، ويدهور بين شدقيه العبارات التركية المنمقة، ويزهى أيما زهو إذ يحادثونه ويناودنه بأمثال هذه العبارات: «رؤوف بك... ما رأيك في هذه الحرب، ومتى تنتهي؟ «رؤوف بك أين عسانا نقضي سهرتنا؟» رؤوف بك... وهكذا... حتى يتنفخ وتأخذ عليه «البكوية» الطارئة كل متوجه.

وكانت «الست» في البيت، الست فاطمة، زوجته وأم ولديه حريصة على راحته ونظافة بدنه ووجاهة مظهره: ففراشه مرتب وثير تريح العين نظافته ويملأ النفس بهجة نصوع حشاياه ووسائده، وقمصان نومه المخططة حريرية ملساء تنبعث منها رائحة «التمر حناء» الزكية، وياقاته مقواة لامعة دائماً وأحذيته مجلوة، وحلله الشتوية والصيفية على السواء لا تنقطع صلتها بالمكواة، وصباغ شعره بضروبه وأنواعه موفور أبداً، وطعامه شهي. ولم تكن الست فاطمة تتأذى من شيء مثلما كانت تتأذى من إعداد خوان الشراب لبعلها في العشايا التي يشرب فيها رؤوف افندي كؤوس خمره في بيته. وحتى في هذا – وهي تعلم أنه رجس من عمل الشيطان – كانت تبذل جهدها لتعد له مائدة حافلة بصنوف (المزة) والمشهيات. وهي تدعو الله في سرها أن يهديه ويعافيه ويصرف عنه كيد الشيطان.

واستفاق رؤوف افندي ذات صباح فوجد زوجه تئن وتتوجع، وكأنما قد احتبس شيء في حلقها فانبهرت أنفاسها وارعشتها الحمى ثلاثة أيام بلياليها ثم انطفأت!

لم يخطر لرؤوف افندي أن موت زوجته سيترك في حياته هذا الفراغ، وأنه بعد موتها سيواجه حالة جديدة لا يدري كيف يتدبرها، فلم يسبق أن ماتت له زوجة، ولم يعرف فيما مضى من أيامه مثل هذا الخواء الذي يهوله، وعجب كيف أن كنته وابنه وابنته وصهره لم يفطنوا لحاله، وأنهم قلما يزورونه أو يسألون عنه أو يلقون إليه بالاً! وآثر الترفع والضن بكرامته فلم يفاتحهم بشيء، وكان يدور في نفسه أحياناً أن زوجته قد استعجلت المرض والموت قبل الأوان، وأنها باهمالها - ولعله كان مقصوداً من يدري - قد أوصلته إلى هذا الحد من الزراية وهوان الشأن.

وهاله الفراغ المطبق... حتى كان يقع في روعه - في بعض ساعات ذهوله - أنه يسمع خفق قبقاب زوجته على بلاط الدار، فيهب مذعوراً واجف القلب مستطار اللب مرتعد الأوصال، ولا يلبث أن ينطلق من الدار ويغرب في زحمة الناس، أشد ما يكون حاجة إلى الشعور بأنه مخلوق حي يضطرب بين الأحياء.

أخذت حاله تزداد سوءاً، كل يوم يمر ينتزع معه شيئاً من راحة رؤوف افندي؛ ويقتطع فلذة من نظام حياته ورفاهية عيشه ، ويرد إليه حقائق حياته ظلالاً ورؤى ورجع أصداء... وقد لزم بيته قلما يبارحه، وغدا لا يراه أصحابه من ذوي الوجاهة والحيثية إلا فيما ندر، يلمحونه لمحاً وهو يحث خطاه مطأطىء الرأس، زري الهيئة، يتعثر بحذائه القذر، ويتقلقل طربوشه الحائل اللون على رأسه، وينفض الهواء رباط عنقه المتسخ. إلا أنه ظلَّ مواظباً في آخر كل شهر على الذهاب إلى «المالية» وصعود سلمها الطويل العريض، وقبض راتبه والانكفاء خلسة إلى بيته، وهو يلعن في سره الدنيا والناس ويعجب للحظوظ والمقادير،

وتؤلمه سعادة الآخرين وتوجعه في صميم بدنه وروحه، فلا يطيق أن يرى انساناً يبتسم، أو مخلوقاً يتهلل وجهه فرحاً، ولا ترتاح عينه لمنظر جميل. ولا يسك أذنه شيء كما يسكها ويؤذيها صوت يرتفع بغناء. ولقد أغلق باب بيته في وجه كل طارىء، ولم يعد ابنه وبنته يجسران على السؤال عنه أو تفقد حاله، فقد طردهما شر طردة، وأغلظ لهما القول وتبرأ منهما ولعنهما، وقبع في عقر داره يعايش ذكرياته الماضية، وتتراءى له زوجته تروح وتجيء في أرجاء الدار، لرنة قبقابها ايقاع وصدى يملآن نفسه رهبة ويزيدانه انكماشاً وانطواء على ذاته واضطغاناً على الناس.

وحدث له ذات مساء، بعد الغروب بقليل، وكان متمدداً على فراشه القذر لا يدري أنائم هو يغط ويحلم أم مستيقظ يجتر ماضيه، حدث له أن رأى زوجته، زوجته فاطمة بعينها، وقد ازدانت وتبرجت وعاد إليها شبابها، فتضوأ محياها ورفَّتْ عليه ظلال من الحسن زادته عيناها الكحيلتان ونضرة خديها المتوردين فتنة وخلابة، وبهرت رؤوف افندي قامتها المنتصبة، وراعه بدنها الممتلىء الريان وخلب لبه وشوشة حليها وجرس ضحكتها المتكسرة الناعمة، وكانت تقبل عليه ضاحكة ثم تصدعنه بأسرع من لمح البصر، ثم تخطر أمامه وتتثني وتميس، وهي لا تنفك تضحك وتغرق في الضحك، وبدا له أنها تسخر منه، وأحس أن كل حركة وكل انثناءة وكل ضحكة سهام سخرية جارحة مصوّبة إلى قلبه. وأفاق من ذهوله ولا يزال يصافح اذنيه رنين ضحكات بعيدة ووشوشة حلي قصية، وحار في أمره واضطرب، كيف يمكن ذلك، وكيف عاد إليها شباب أجمل وأنضر من شبابها، وهل ما رآه حقيقة واقعة أم حلم عابر أم عساه كان محموماً يهذي، ولماذا تراها كانت تضحك كل هذا الضحك الساخر، وتتثني وتميس كأنها لم تمت ولم تشبع موتاً؟ وساقه هذا إلى التفكير في نفسه وفيما هو فيه من شقاء، وفيما جره على نفسه من الضعة والهوان، وأيقن أنها كانت تتحكم فيه وتفرض سلطاتها عليه من وراء قبرها، وهي مع ذلك، أجل وهي مع ذلك على مثل ما رأى نضارة شباب

ورواء محياً وفتنة طلعة، ونعيم مقيم، ولا تتورع أن تهزأ به وتسخر منه وتصد عنه وتتخطر وتميس كأنها في ليلة زفافها... وأطبق أجفانه وراح يهوم وفي نفسه إحساس موجع بما سلف من حمقه وغفلته.

وفي الصباح هب من فراشه نشيطاً كله عزم وقوة، وألقى على فراشه القذر وأثاث بيته المبعثر نظرة شزراء، ثم ارتدى ثيابه وأصلح من شأنه ما استطاع، وانطلق يجمع المتأخر من إيجار بيوته الثلاثة - فقد كان أهملها مدة طويلة ولم يراجع مستأجريها.

وكان رؤوف افندي، في المساء، وهو يحتل مكاناً ملحوظاً في قهوة «البوسطة» وأمامه خوان سكره يكاد ينكره من يراه، فقد أتقن صبغ شعره، وتعطر وحلق شاربيه، وحف حاجبيه ولبس الجديد القشيب، ورشق في عروة سترته وردة كبيرة حمراء، ووضع في عنقه رباطاً ثميناً زاهي اللون، وراح يصغي باهتمام لأنغام «إلجاز»، ويفتعل الطرب افتعالاً، ويتابع العزف بنقرات من أصابعه على المنضدة، ويدخن ويتعبب الويسكي، وقد خيل له أنه كان غبياً جهولاً حين كان يعجب ويطرب للبشارف القديمة والمواويل، ثم لا يلبث أن ينتشي ويمتلىء غبطة وسعادة، كلما شاهد احدى الراقصات تدور على المسرح بغلالتها الرقيقة وساقيها العاريتين، في غمر من الأضواء الباهرة. وهكذا جدد رؤوف افندي حياته، فغدت أيامه ولياليه سعادة خالصة، وراح يعيش منعماً يأكل الأرفه والأطيب وينام على المهد الوثير. يأمر فيطاع ويومىء فيلبى بأسرع مما يريد، ثم لم يلبث أن اتخذ لنفسه خليلة من راقصات (البوسته) أوقعته في حبائلها فانقاد لها مزهواً يحسب أنه فتنها واغتصب اعجابها وتسلط على قلبها. أجل، لقد أنكر رؤوف افندي ماضيه وأسدل عليه ستاراً كثيفاً من النسيان وعاش للساعة التي هو فيها.

وعاد ذات مساء فسمع خليلته تضرب على العود، وتغني لحناً قديماً وتردد بصوت خفيض «ملا الكاسات وسآني...» وعلى الفور اهتز ماضيه القريب

والبعيد من مرقده، وانبعثت تومض في مخيلته صور سهراته مع أصحابه الوجهاء ذوي الحيثية، وخيل إليه أنه يسمع قهقهاتهم ورنين كؤوسهم وأصوات طربهم واعجابهم بالبشارف القديمه يتغنون بها ويرددون إلى ما لا نهاية: ملا الكاسات وسآني...

بهت رؤوف افندي وتولاه الذهول هنيهة، ثم انتفض واختلجت شفتاه، وتقدم من خليلته وانتهرها: «أنا ما حبش الالحان الاديمة... بلا ملا كاسات... بلا هم...»

فانصاعت لأمره ونهضت تعد له خوان شرابه، وهي تعجب لهذا الذي أحنقه وأثار غضبه. وتقدم الليل، وعكف رؤوف افندي يشرب بكثرة ونهم، ويستمع إلى خليلته تضرب على العود وتنشد له الأغاني الحديثة، وما كاد ينتصف الليل حتى كان رؤوف افندي يقذف بنار آخر كأس في جوفه، وقد احمرت عيناه وراح يعطس ويمخط، ويلوذ بخليلته يحاول أن يقصي من أمام عينيه صورة امرأته فاطمة، وهي تتخطر وتميس وتضحك وتقبل عليه ثم تصد عنه، وعبثاً حاول الافلات من نظرتها الساخرة المصوبة، إليه، وأيقن وهو في شبه حالة ضبابية أنه سيظل إلى الأبد أسير قيد لن يتحطم!... .

عود على بدء

كان احساسه بأنه جدير حقاً بالسخرية والهزء عميقاً جداً. وكان يرى أنه كان مغفلاً إلى أقصى حد. ولقد تظاهر بالرثاء لحاله بعض الأصدقاء والمعارف. وبعد أن تَمَّ دفنها ووقف يتَلقَّى عزاء المشيعين، كان شعوره بأنه مهين... وتافه... وذليل... قد ملأ نفسه. وكان موقناً أن شيئاً، شيئاً كثيراً، من هذا كله قد بان على وجهه وأطلَّ من عينه. وكان لا يملك أن يقول شيئاً. ووقع في وهمه أنه واقف يتلقَّى عزاء الناس وقد فغر فاه، وشردت نظرته فهو لا يسمع ولا يعي ولا يُحس. ومع ذلك فقد كان مطبق الفم... وكان ينظر إلى المعزّين، بل يتفرس فيهم. وكانت تصافح سمعه كلُّ حركة وكل همسة. وكان يعي كل شيء، ويرى بعينيه الاثنتين المدافن التي تملأ الرحاب، والصُّوَى القائمة عليها، والأشجار القليلة الهزيلة المتفرقة حول المقبرة. وكانت عينه تلمح حتى قطع السحاب العابر في فجاج السماء... وكان يحس الدفء يسري في أوصاله من شمس أو آخر الشتاء، ويخيل إليه مع ذلك أنه مقرور، وأنه يرتعش بسبب ذلك من حين إلى آخر؛ ولقد استطاع أن يعرف بالدقة أين موقع قبرها بين القبور؛ ووسعه أن يتخيله بعد أيام أو أسابيع وقد بني بالرخام الأبيض الناصع؛ وقام على طرفيه شاهدان... وكان في أثناء ذلك لا يني يَمُدُّ يده ويصافح المعزّين، ويبدو له أنه يقول لهم شيئاً، شيئاً ما لا يدري كيف يخرج من بين شفتيه، وكيف يصل إلى أسماعهم، ومع ذلك فقد كان يتمنَّى لو يستطيع أن يفر، أن يفر من هذه العيون التي تتفحَّصُه، تتفحَّصُه جيداً، تفحصاً دقيقاً، حتى لكأنَّ نظراتهم تعرّيه وتتسلّلُ إلى أعماق

نفسه، وتتبيَّن ذلَّه وتفاهته، وتسخر منه، وتريد مع ذلك أن تتظاهر بالرثاء لحاله، ولكنها نظرات خبيثة، ماكرة تلمع فيها السخرية البالغة. وكان يقع في روعه أن ليس ما يمنع الكثيرين أن يُخرجوا له ألسنتهم هازئين به، لولا حرج الموقف... وانتهى كل شيء، وخلت المقبرة من الناس، حتى أقاربها الذين كانوا يتلقون عزاء المشيعين معه لم يجدهم، فقد ذهبوا كأنهم قد فروا منه. ووجد نفسه يسير وحيداً. وهبَّتْ من خلفه على حين غرة ريح غريبة باردة راحت تَسْفَعُ أذنيه وتدفعه أمامها بشدة. فسارع يغذُّ السير ونباح كلب ضال يتردَّدُ في مسمعه من بعيد، ويزيد احساسَهُ بمهانته وذله وتفاهة حاله. ووصل المدينة أخيراً. وحطَّ رحاله... في أحد المقاهي. بحيِّ الحمَّام. وأخذه العجب لهذا الاسم الذي أطلقوه على هذا الحي البلدي القديم، أتراهم سَمَّوْه كذلك لأن حمَّاماً عتيقاً يقوم عند نهاية جسر هناك يجري تحته سيل صغير؟ وكيف يكون الأمر غير ذلك؟ حقيقة بسيطة غابت عن ادراكه الحصيف! وتذكر أنه كثيراً ما كان يتردد على هذا الحمَّام منذ أكثر من عشر سنوات. كان إذ يتعرَّى هناك ويرى الآخرين عراة مثله يخيل إليه أنه بين جُثث لا ينقصها إلا الدفن... وانتزعته ضوضاء القهوة وجلبتها من التفكير في ذاته. وراح يدير عينيه في المكان، فإذا أناس يلعبون النرد بإقبال وحماسه، وحولهم جماعة يضجون، وآخرون يدخنون «الشيشة» وقد اندفعت لهم كروش إلى أمام، وفي أحد الأركان اثنان عاكفان على رقعة الشطرنج، وقد استغرقهما تفكير عميق، فلا يُحسَّان شيئاً مما حولهما، كأنهما صنمان شاخصان من حَجر، وزبائن يدخلون، وزبائن يخرجون وسُحب دخان السجائر و«التنباك» قد انعقدت في جو المقهى، ورائحة القهوة والشاي تملأ الأنوف، وخادم يزعق أبداً «قهوة... شاي... شاي... قهوة، صلح واحد قهوة مضبوط...» وقهقهات تنبعث من الأركان، وواحد يبصق على الأرض وآخر يتمخَّط، وثالث يسعل سعالاً متواصلاً... وبائع «الفلافل» على باب القهوة لا يني يقلي «فلافله»؛ ويرسل عبقها إلى الداخل فيتلمَّظ بعضهم ويرسل صبيَّ القهوة يشتري له شيئاً مما يُقلى، وامرأة ضريرة

باسمال بالية يقودها ولد صغير أعجف حافي القدمين، على بدنه ثوب قذر ممزق يبدو منه جلد بدنه الأصفر، يدور بالضريره بين الجالسين تسألهم أن يعطوها «مما أعطاهم الله» والخادم لا يفتأ يروح ويجيء حاملاً أكواب الشاي الحمراء كأنها اليواقيت المشعّة وسط القتام... وأحسّ ذلك الذي حطّ... رحاله... في هذا المقهى كأنه مسافر آب من غربته الطويلة وأصبح الآن في بلده بين اخوانه وأهله... أجل فان هذا لم يكن جديداً عليه. لم يكن شيئاً من هذا كله جديداً عليه البتّة... هذا المقهى... وهؤلاء الناس... وهذا الجو الصاخب المملوء بالدخان وروائح الشاي والقهوة والفلافل وأنفاس السجائر والتنباك... كلها أشياء كان قد ألفها من زمن بعيد... منذ أكثر من عشر سنوات، كان هذا المقهى وأشباهه، وكان هذا الحي البلدي الأصيل وما يجاوره من أحياء شبيهة به، الاطار الذي يَضم حياته... كان يلقى أصحابه في مثل هذا المقهى، ويلعب النرد ويضج ضاحكاً... بل مقهقهاً.. مثل هؤلاء الذين يراهم الآن تماماً... وكان يجوع فيأكل رغيفه محشواً بحبات الفلافل... وكانت له بدلة قديمة واحدة... وطربوش حائل اللون... وكان لا يحلق ذقنه إلا مرة أو مرتين في الاسبوع على الأكثر... ولم يكن يملك في جيبه أكثر من قروش قليلة... كان يقضي بعض وقته على باب المحكمة يكتب للأميين الفقراء استدعاءات وعرائض، ثم ينكفيء إلى القهوة يُبعثر فيها أيامه بين شاي وقهوة ونرد وأصحاب، يضج معهم أو يهرب من هذا كله إلى بعض أفكاره، فيرى الدنيا أحياناً مملة وتافهة ولا تستحق أن يشرفها بالعيش فيها، وتتراءى له أحياناً أخرى قاسية ظالمة، جانب الشر فيها أرجح جداً من جانب الخير، ويرى نفسه في تيهها مجاهداً لا يفتر عن دفع الظلم والاضطهاد، ويذوق من مرارة القهر والحرمان ما لا قِبَل له به وهو الخليق بالتكريم كله والهناءة كلها... وفي ظروف أخرى كان يبش للحياة ويتطلّق محيّاهُ سروراً بها واقبالاً عليها ويراها حلوة... حلوة... حلاوة خالصة! وحتى أشباه تلك الضريرة والصبي الأعجف القذر يقودها وهي تسأل الناس أن يعطوها... مما أعطاهم الله... كانت

تكمّل الصورة في ذهنه... صورة الحياة... فيوقن أن الأمور يجب أن تكون هكذا... هكذا دائماً... وحتى ذلك القبر الذي ترقد فيه... تلك المرأة... بشحمها ولحمها كله... ذلك القبر الذي نفض يديه من ترابه منذ قليل وهو يهمُّ أن يبصق عليه... هو الآخر مما تتُم به الصورة وتكتمل. وعاد من جديد يرى في بُهْرة خياله المشيّعين؛ ويرى المدافن وصواها المرتفعة، ويرى الأشجار الهزيلة القائمة في جوانب المقبرة، وقطع السحاب الذي يمر في فجاج السماء، ويرى نفسه وهو يَمُدُّ يده للناس يصافحهم وتهمس لهم شفتاه بكلمات لا يسمعها ولا يفهم معناها ولا يدري كيف تخرج من فمه... ثم يرى عيونهم الوقحة تتفحَّصُه وتعّريه وتهبط إلى أغوار نفسه وتسخر منه... وتلك المرأة البدينة... يا للعنة... كيف كانت لها كل تلك الجرأة البالغة... أن تستريح هي... بوقاحة متناهية... هكذا... وتتركه هو للعذاب الأليم! لقد تزوجها... أجل تزوجها... كان ذلك منذ أكثر من عشر سنوات... كانت في عمر أمه... بدينة، ذات لحم وشحم ومال كثير... التقطته من الشارع... من على رصيف المحكمة... وعاش في كنفها... وفي أحضانها... أكثر من عشر سنوات، كان غارقاً في النعيم حتى أذنيه... وكانت هي قد تجاوزت الأربعين... وافرة اللحم، وذات شعر أصفر... تلطخ وجهها بالمساحيق... وأحمر على أبيض... وأبيض على أحمر؛ وكحل وعطور، وأساور وحلي، وحرير ومخمل، وضحك فاجر تضج به في أرجاء البيت، وموائد حافلة بالطعام الشهي... وكان يلوذ بهذا كله ويستمرئه وينتشي به، وكان ربما دار في نفسه أحياناً كثيرة أن السعادة جاءت طائعة، تسعى إليه وتطرق بابه، وعجب كيف أن هذا النعيم كان مخبأ له في عالم الغيب... وها هو حقيقة ماثلة يتذوق حلاوتها... وماذا فعل هو ليستحق هذا كله... كل ما كان يملكه هو شبابه شبابه ولا شيء آخر... وقد كان مستعداً أن يريق عصارته لما هو أيسر من هذا النعيم... بكثير... لقد كان دائماً لائذاً بها... يحب شحمها ولحمها... ويحب طعامها... ويحب رفاهة العيش في جانبها... ولقد علمته أشياء كثيرة...

علمته كيف يلبس الثياب الفاخرة... وكيف يحسن التصرف مع الناس في محيط طبقتها الاجتماعية، وعلمته كيف يعاملها ويحترمها ويبدي حبه الخالص لها أمام صديقاتها... أشياء كثيرة علمته اياها... وعلى الأخص جعلته يولع بالنعيم، جعلته يحب العيش المترف بألوانه الزاهية، المتألقة، ونفحاته الرخية اللينة المعطرة. لقد أسكرته بهذا كله، ودللته، وتسلطت عليه، فأسلس لها القياد، وخضع لمشيئتها، وخلب لبه العيش المعطر معها... وأخذ ينسى حياته السابقة، وينسى الحارة الضيقة المتداعية التي كان يسكن فيها غرفة كالجحر، وينسى أصدقاءه ومعارفه، وينسى أيامه التي ما أكثر ما بعثرها في هذه القهوة وأمثالها... وينسى رصيف المحكمة الذي كان يجود عليه بالقروش اليسيرة..
وينسى أفكاره التي كان يهرب إليها من واقعة... لقد جعلته يملأ حياته كلها بها هي وحدها، هي وحدها دون سواها... أكثر من عشر سنوات... وتطلع من حوله... وأفاق من حلمه الذي كان مستغرقاً فيه... لقد كان في الواقع يحلم بحياته معها، كان قد اختزل في لحظات هذه السنوات العشر، عاشها مرة أخرى في خياله... هذه المرأة اللعينة، لقد مرضت أياماً... وماتت... ماتت... ولقد نفض يديه من تراب قبرها منذ ساعات... ورأى المشيعين يعزونه، ويتظاهرون بالرثاء لحاله؛ في حين كانت تطلُّ السخرية البالغة من عيونهمُ الماكرة... وكان هو يصافحهم كالذليل، المهين... وكان احساسه بأنه جدير حقاً بالسخرية والهزء عميقاً جداً... في أواخر أيامه معها كان يتمنّى أن تموت، كان قد استيقظ في نفسه احساس بأنه أعطاها أكثر مما يجب، وكان يمني نفسه أن تموت ويرث من مالها ما يكفيه ليحيا حياة أخرى... بعيداً عن هذه العجوز التي امتصّته. ونعمت بشبابه... ولما مَرِضت واشتدّت عليها وطأة المرض حدثته نفسه بأن الفرج قد قرب ولن يلبث أن يتحرر منها ومن جوها الخانق... ومن تسلطها عليه، ومن مساحيقها وعطورها وتصابيها المقيت، ومن كل شيء يذكره بها... وماتت... أجل ماتت... ولم تترك له شيئاً... لم تجعل له من مالها نصيباً ما... على

الإطلاق... لا شيء أبداً... كانت قد اشترته ودفعت له الثمن... عشر سنوات من ألنعيم والترف واللحم الأبيض المترهل... ووهبت ذوي قرباها كل ما تملك... دون علم منه، دون أن يدري ما كانت تبيّته له... فيا له من «خازوق» أتقنت صنعه له... بمهارة فائقة.. وبلؤم... بلؤم... بالغ... لقد امتد سلطانها عليه حتى من وراء قبرها... من وراء قبرها الذي ترقد فيه جثة قذرة... وها هو الآن مسافر... آب من غربته... هذا هو المقهى... وهؤلاء هم رواده القدماء الذين يعرفهم منذ أكثر من عشر سنين، وحتى ذانك اللاعبان العاكفان على رقعة الشطرنج كأنهما صنمان شاخصان من حجر... لم يبرحا مكانهما... تماماً كما كان شأنهما منذ أكثر من عشر سنين... أحدهما بلفته وجبته وخرطوم الشيشة بين شفتيه... والآخر بعقاله وحطته البيضاء المنحسرة أبداً - دون أن يحس - عن صلعته العريضة... وصبي أعجف - ذو ظلع هذه المرة - يلم أعقاب السجائر ويسأل الناس... ورائحة الفلافل تملأ الخياشيم... وأكواب الشاي تغدو وتروح حمراء متوهجة كاليواقيت المشعة... ودخان السجائر و«التنباك»... وذلك الذي يسعل والآخر الذي يتمخّط والثالث الذي يبصق على الأرض... وزعيق الخادم: «قهوة... شاي... صلح نَفَس...» ويا له من خازوق! لقد ألقته تلك اللعينة ألقته ثانية هنا... رمت به من حالق... ومنذ الصباح سيغدو إلى رصيف المحكمة... وسيجود عليه هذا الرصيف بقروش قليلة... قليلة... وسيَلُمُّ تعاسته وأحلامه ليصحباه إلى هذه القهوة... حيث سيلوذ أحياناً ببعض أفكاره، ويرى الدنيا مملة، وقاحلة، ولا تستحق أن يشرفها بالعيش فيها... .

متى ينتهي الليل
(مجموعة قصص)

قيود

ليس من السهل أن تعبر الكونكورد، أعني ميدان الكونكورد بباريس، ليلاً. كلا ليس هذا بسهل جداً... تبدو لك المسلة المصرية من بعيد طويلة... عالية جداً... ورشيقة، وهيفاء مغرية. وتناديك: تقدم... اعبر... هكذا أومأت إليّ ذات ليلة... ولكن ماذا كنت سأفعل بالضباب... الضباب الكثير، المتكاثف، اللزج؟ الأنوار لا تستطيع النفاذ منه إلا بحذر... وبحذر جعلت أخطو... وكانت نافورة ماء هنا... ونافورة هناك... والمكان فسيح... وأحسست بالضياع... هل أستغيث؟ ألا تقف هذه السيارة الملعونة المنطلقة... ألا تقف لحظة واحدة لكي أعبر الميدان ثم أتجه من الناحية الأخرى المأمونة إلى المسلة... التي تناديني؟ إن الماء لا ينطلق من تلك النافورات الكبيرة. يكفي أن يهطل المطر في الشتاء... وأية حاجة إلى ماء النوافير؟

في هذه الليلة ضحّيت بالكثير. لم أذهب إلى الشانزليزيه، فقد كنت بدأت أكره أنواره الباهرة، وواجهات متاجره الخلابة، والفتيات اللواتي يبعن فيها... كرهت ابتساماتهن المصنوعة... ما أحذقهن... هكذا تفترّ لك الواحدة منهن عن ابتسامة متقنة... هل تستطيع أن تدرك كيف تكون الابتسامة المتقنة؟ ليست تعني شيئاً، ليست لك على التحديد. ابتسامة للجميع كالأسعار الأخرى المحددة للجميع في محلات الأسعار الموحّدة... فيها ألف صنف وصنف وألف فتاة... وألف ابتسامة... كلها متماثلة تلك الابتسامات... متقنة إلى حد الإعجاب...

مصنوعة بدهاء، بدقة، ببراعة متناهية. وعلى الأيام يشمئز منها بدنك.. ولكنك مع ذلك قلما تستطيع أن تفلت منها... شباك مطروحة للصيد، وويلك إذا وقعت في تلك الشباك.. إن المادلين نفسها لن تنجيك.. ولم أذهب كذلك إلى مونمارتر.. لقد ألفت تلك الحانة في ذلك الشارع الضيق المؤدي إلى الفولي برجير.. لماذا كنت أتردد عليها؟ قل لي أنت لماذا؟ فأنا لا أدري تماماً. راقصات الفولي برجير لم يكنّ هن السبب على الاطلاق، ولا حتى تلك المرأة التي تدور بين الزبائن وعلى خصرها مئزر أبيض مخرّم الأطراف، توزع ابتساماتها على الجميع بنفس المقدار... ونفس الطريقة... ونفس الأسلوب... وحتى إذا تثنّت كان ذلك مباحاً أيضاً... وموزعاً بدقة حسابية مضبوطة... آه... انه إذن صاحب تلك الحانة.. أجل لقد أصبح صديقي ليلة أن قلت له: «أنت خبيث.. وماكر..» وقد ضحك هو طويلاً.. كان يقهقه وصلعته كانت تبرق تحت الأنوار.. وأنفه المستطيل يرتعد.. ووجهه المتقع يزداد شحوباً.. وأجابني من وراء المشرب: «أنت ظريف يا سيدي.. ظريف جداً».. ومد لي يده بكأس.. وأبى أن يتقاضى ثمنها.. وأصبح صديقي، وما زلت أتساءل: لماذا؟ هل أدرك انني فضحته وكشفت عُرْيه؟ أنا أراهن أنه لم يجد أحداً – قبلي – قال له تلك الكلمات.. ربما كان يتحرق أن يسمعها طيلة سنوات.. لم تستطع يد أن تمتدّ إلى قناعه وتنزعه.. هكذا.. ببساطة.. ثم يقال له: «أنت خبيث.. وماكر..»

كان يدير أمور الحانة بأنصاف العبارات وأحياناً بنظرة، وتلك الفتاة ذات المئزر الأبيض.. كانت تلوّع القلوب.. ولكنه هو كان لا ينفك يهينها بكلمات مختارة، مبطّنة، مهذبة في الظاهر ولكنها وقحة.. تعرّي الفتاة.. أمام العيون.. وأحياناً كان يهينها بإشارة من يده.. إشارة لئيمة خفية. فيحمّر خداها، وتكاد تتعثر، وتقول له دائماً كالواجمة: «أمرك يا سيدي..» وكنت أحسّ أنها مكبلة.. وعبدة رق له.. كان يتكلم الفرنسية بطلاقة.. ويتكلم الاسبانية بطلاقة، وكان يبتسم أيضاً.. لم أره يغضب. وكان يبيع السجائر كذلك، سجائر «الغولواز»

و«الجيتان» و«الرويال» من صندوق زجاجي عند طرف المشرب: «خذ يا سيدي خذ لك علبة جيتان.. كل من في باريس يدخنها.. لا تريد؟. تفضل السجائر الملكية.. آه.. ما أجمل ذوقك» ومع ذلك وجدتُ الجرأة الكافية لكي أقول له: «أنت خبيث وماكر..» والذنب ذنب نبيذه.. لولا ذلك الرحيق الشيطاني لما جرؤت.

لقد منحني صداقته كاملة، ولكني كنت حذراً. كانت صداقته تبدو لي مغرضة كأنها تتربّص بي.. كان يريدني أن أسكت، أن أكتم ما في صدري، يكفي أن أعلم، أنا وحدي، أنه خبيث وماكر.. حتى تلك البنية اللطيفة قدمها لي ببساطة: «لماذا لا تعتنين بالسيد.. انه سيد لطيف..» وكان هذا أمراً لها.. وظلت تُعنى بي بعد ذلك.. حتى مللت.. و.. وعبرت الساحة، ساحة الكونكورد، إلى الطرف الآخر.. ولم ألبِّ نداء المسلة.. تركتها في العراء تنصب عليها الأضواء، ويضربها المطر، وتتلفع بالضباب المتكاثف اللزج. وبدا لي اني نجوت.. ورحت أنفض ثيابي مما هو عالق بها من آثار تلك الحانة.. ذرات لا تراها عين أحد.. إنما أحس أنا.. أنها موجودة.. وعالقة بي.. لا تريد أن تفارقني البتة. لقد نكره بعض الأشياء.. وبعض الأشخاص.. ومع ذلك تظل آثار خَفِيَّة من كل ذلك عالقة بنا.. لا تزول.. أبداً.. وهي وحدها تعيدنا إلى أولئك الأشخاص.. وإلى تلك الأماكن.. فتعقد أواصرها بنا من جديد.. لا فكاك أبداً.. لا فكاك.. لا أبرح مكبلاً.. من منكم لا تكبله القيود ولا يعضّ حديدها في لحم بدنه؟ دعوني أضحك طويلاً. أحقاً تحسبون أنكم أحرار؟ يا للعبيد المساكين.. يا للأرقاء. حتى أشدكم ذكاء لن يسعه أن يتحرر.. وليس هذا الذكي بأحسن حالاً من الآخرين.. ولكنه يستطيع أن يلمح مهزلته ومهزلتكم بعين نفّاذة وقحة، ويستطيع أن يضحك ملء شدْقيه.. يضحك من عريكم.. لأنه في الواقع يعرّيكم بنظرة مضيئة من عين زئبقية.. رِجْراجة ماكرة، ويرى ما تحرصون على إخفائه.. وأكثر من هذا، انه يفضح كبرياءكم الكاذبة.. كلكم قرود.. هل قالها لكم «نيتشه» ذات يوم؟

ولذلك فأنا أكره نيتشه.. وأكره الفلسفات كلها.. ولا أحب أن يكون الرجل الأصلع صديقي.. كان يكفي أن أقول له أنه خبيث وماكر لكي ينهار.. أنا واثق أنه حاقد عليّ.. إلى حد البغض والمقت.. وليست ابتسامته الصفراء في وجهي إلا مخلباً يريد أن يمزقني.. ويوم دفع فتاته في أحضاني كان يريد أن يدمرني.. ومرة أخرى فللت سلاحه.. وكسرت مخلبه.. وأعدتها إليه.. أعدتها إلى رقها وعبوديتها.. وأعدتها لكي يهينها دائماً.. ويمتهنها ويذل جمالها ويعرّيها أمام العيون.. فليعمل فيها مخلبه الضاري.. أما أنا.. فهيهات.. ولماذا ترى كان يجب أن ألبي نداء المسلة؟ انه نداء عميق، نداء بعيد.. في الزمن الضائع.. حملته من صحرائها، من دنيا مجهدة كانت تتوسل بالفن، تفترزه من الصخر، وتقيم منه ملوكاً وآلهة ومعابد. ولقد خلد الفن، بل خلدت الوسيلة، وذهبت الغاية.

ورحت أسير. كنت بمأمن. كان الارتياح قد بدا يتسلل إلى نفسي.. غير أن رأسي ظل مثقلاً.. أؤكد لكم اني لم أكن قد شربت قطرة واحدة، بعد، في تلك الأمسية. كنت قد أعددت نفسي لتلك الدعوة. كنت أريد أن أبدو متزناً، موفور الكرامة، بين أناس لا أعرفهم، وكنت متشبثاً بقناعي.. لا أسمح لأحد أن يمد يده إليه.. ولماذا أكون سافراً بين مقنّعين؟ ابتسامة مؤدبة.. ابتسامة خفيفة.. متعالية وضعتها على شفتي، وفوق ملامح وجهي.. وخطوت إلى الفندق. ليس بينه وبين «مكسيم» إلا أن تنعطف قليلاً إلى اليمين.. وتلقّاني فتّيان الفندق، وانحنوا أمامي... وكانت عيناي تضحكان ساخرتين.. هؤلاء الفتيان قد أعدّوا أنفسهم مثلي ووضعوا أقنعتهم.. أراهن أن الواحد منهم يقف قبالة المرآة ساعة وهو يجهد نفسه لكي يجيد هذه الابتسامات الخاوية.. ويحسن كيف ينحني.. ويكون في خدمتك.. وهو يلعنك في سره.. وفي المصعد طلع معي أحدهم، كان يخشى أن يمسني كأنني شيء مقدس.. ونظرت إلى وجهي في مرآة المصعد.. كانت ابتسامتي المتعالية موضوعة بإحكام فوق وجهي.. وكانت الفراشة السوداء

الكبيرة تزيّن عنقي. وتحتها قميص أبيض نظيف إلى حد التقزز.. ولمحت الفتى المتأدب. كان كل شيء فيه يتلألأ: شعره الأشقر الممشوط جيداً، وعيناه الزرقاوان، وملابسه الحمراء، الداكنة المقصّبة.. وكدت أرخي يدي فوق كتفه وأقول له: «ما جدوى هذا كله؟».. ولكن ما عساه سيظن؟ انه الآن أمام سيده. وشعرت بالاستعلاء فعلاً أن يكون هذا الفتى في خدمتي، ووقف المصعد، وسمعته يقول كمن يصلي: «تفضل يا سيدي» وأخرجت قطعة فضّية ألقيتها له، فتعاظم انحناؤه وتمتمت شفتاه: «سيدي الكريم.. تفضل..» وفي الردهة أخذوا معطفي بعناية وهمس عميق: «سيدي تفضل..».

وسرت خطوات كمن يحلم.. ووجدت فتى آخر نحيلاً، مديد القامة، في ملابسه السوداء وياقته تسطع.. وسألني بقداسة عن اسمي، ثم اعتدل وصاح به عالياً.. ودخلت القاعة، ولمحت سعادة السفير يرحب بي بابتسامة مرسومة بعناية، وامرأته إلى جانبه، وكان هو قميئاً بديناً. وفوق صدره أوسمة تبرق، وزوجته الكهلة بدت متعبة.. كانت واثقة أن هذا كله عبث. وأن دورها شاق.. وابتسمت هي الأخرى.. ليتها لم تفعل... ماذا قلت في تلك اللحظة؟ أؤكد لكم أن المجاملات أحياناً أثقل في النفس من الحجارة الصلدة.. ولأول وهلة شعرت اني غريب.. وانتابني إحساس بالضياع.. وخيّل إليّ أنني لا أزال أكافح لكي أعبر الكونكورد.. وإنني هالك لا محالة..

وتركت السفير وامرأته لكي يستقبلا غيري من الوافدين..

إذا ذهبت إلى باريس وزرت فندق «كريون»، فإنك ستدرك حينئذ أنهم لم يكسوا جدران القاعات بكل تلك المرايا عبثاً.. ولم يكسوها قطيفة حمراء.. وأهداباً ذهبية مفتّلة عبثاً.. ولم يضعوا في الأركان تماثيل النساء العاريات عبثاً.. إنها كلها شراك منصوبة لتغتالك.. المرايا كلها نصبت هكذا لكي تقدم لك عري النساء كما تُقدّم الفاكهة الشهية فوق أطباق من فضة.. ومرة أخرى

أحسست بالضياع، فهل أستغيث؟ ورآني ذلك الرجل العجوز.. كنت أهرع إليه في مقهى صغير في شارع «لاموت بكيه» لكي نتحدث فترة إذ يهزني الشوق إلى لغتي.. وتهلّل من بعيد، وتناول كأساً ودلّف بها إليّ وهو يقول:

- أي ريح ملعونة أتت بك إلى هنا؟

وقهقه ضاحكاً وبانت نواجذه النخرة وتقلّص أنفه من طرفيه.. وأجبته:

- يا رجل.. يا عجوز السوء.. أتدري أنك غدوت مسخاً جميلاً؟

فقال:

- تلك والله حكمة.. فيها من الذكاء بقدر ما فيها من الغباء..

وعاد يضحك.. ثم سعل بشدة وقال:

- خذ.. خذ.. خذ.. اشرب.. أم تحسب نفسك في معبد؟

وتركني ومضى يقتلع خطاه.. وشربت واشرأبت إليّ احداهن. امرأة متصابية، أعجب ما فيها أنها إذا ضحكت انحرف فمها إلى اليسار.. وأحسست بالضيق.. وبادلتها ابتسامة بلهاء.. وهززت لها رأسي وقلت: «الجو دافيء.. أليس كذلك..؟؟ وتشبثت بالقشة التي ألقيتها.. وجاهدت أن تطفو.. وذُعِرْتُ وأدرت ظهري بسرعة وقلت:

- شلة أصدقاء.. هناك.. لم أرهم منذ زمن طويل.. وداعاً.. وقالت وهي مشدوهة:

- ألا تتمهل؟

ولكني مضيت أخوض بين الأكتاف العارية والنحور المزدانة باللآليء والرجال لابسي حلل السهرة.. ما أعجب المرأة إذا سكرت والكأس في يدها.. انها لا تعود تثرثر.. وإنما هي تتهالك.. وتستجدي.. وكنّ كلهن في هذه الليلة

يستجدين ما لا سبيل إليه.. وشيئاً فشيئاً أحسست بالطنين يملأ اذنيْ الاثنتين.. وقلت في نفسي: ذلك فعل الخمر.. وازداد الطنين وتعالى. وتخلّلته قهقهات ناعمة في أول الأمر.. ثم غدت وقحة بلا تحرج.. انه فعل الخمر بلا ريب.. في كل هذه الرؤوس.. الكل يضحك ويقهقه. كلهم يتحدثون معاً.. ولا يكاد يصغي الواحد للآخر.. ويُفرغون في بطونهم كؤوساً مترعة.. ويأكلون المشتهيات في صحون وأطباق سخية، وقالت لي إحداهن:

- أيها الأمير الشرقي.. ألا تقف؟

ووقفت ورحت أتأمل شعرها الأحمر مبهوتاً.. وقهقهتْ هي طويلاً.. بجرأة نادرة.. ووجدتني أنفض برؤوس أصابعي بقايا ذرات لا تزال عالقة بي من حانة مونمارتر، وقلت:

- رحماك.. يا سيدتي..

قالت:

- لماذا أنت ضائع هنا؟

وأحسست أن الأرض تميد بي وقلت:

- لست غريباً على كل حال..

قالت:

- ولكنك وحدك.. وتحمل هذا الشعر الأسود المجعّد.. وهذه السحنة الشرقية السمراء.. أقول لك الحق، عيناك جمرتان.. ألا تحب أن أكون معك أيها الأمير؟

وعادت تغرق في الضحك، وتتخلع، ثم تأبطتْ ذراعي.. وسارت بي إلى صديقات لها، وأحسست كأنها حملت لهن احدى عجائب الدنيا.. ورأيتهن يضحكن جميعاً. ويترنحن وتهتز بين أيديهن الكؤوس.. وعادت هي تضحك..

وتضع خدها فوق ساعدي وتتمسح به.. هكذا كانت قطتنا «مشمشة» تفعل. كانت تتمسح بي إذ كنت صبياً يافعاً. وقلت لها وأنا أمسح لها شعرها الأحمر براحة يدي: «يا قطتي الجميلة..» وتراخت وُخَيِّل إلي أن سحابة من دموع تترقرق في مآقيها.. وذعرتُ.. أتراها ستتشبث بي؟ ستمسك بالقشة الواهية لكي لا تغرق؟ وتطلعتُ حولي فشاهدت «ماراو» عند ركن القاعة، وانسحبت.. دون أن أعتذر، وكنت أنتفض.. انه الحقد الذي غذتني به «مارلو»، ما كرهت مخلوقاً قط كرهي اياها.. انها جميلة إلى حد الذهول..

عبثاً كنت أبحث عن عيب يشين ذلك الجمال.. هل رأيت الشعر الأسود كيف يكون حين يستدير حول وجه ناصع البياض، دقيق الملامح؟ يوم عرفتها أدركت أن الأصابع الفنانة التي نحتت هذا الجسد كانت تعبد كل قطعة وطيّة فيه. وكانت مارلو تُلقي إليّ بفتات من عطفها وسخريتها وكانت تقول:

– أيها الشرقي، يا ذا الشعر الأجعد، لست الطراز الذي أحبه من الرجال.

وتبتسم وتهز كتفيها ثم تعود تقول:

– ومع ذلك دعنا نتحدث..

وكنت أعلم أنها تتلقى أصول التمثيل في معهد كبير، وذات يوم كانت تتأبط مسرحيات «دي موسيه» فسألتها:

– بماذا تحلم الصبايا؟

وقالت هي:

– هذه هي التمثيلية، انها لدي موسيه.

وقرأت اسمها «بماذا تحلم الصبايا» وقلت متبرماً:

– أعلم ذلك. ولكني أسألك بماذا تحلم الصبايا؟

وأجابت ببرود:

- انهن لا يحلمن بواحد مثلك على كل حال..

وقلت في سريرتي: لا بد أن أنتقم، ولقد حانت فرصتي هذه الليلة، وخطوت وأنا أترنّح من الحقد.. ولما دنوت رأتني فشهقت وغمغمت: «أنت هنا؟» ولم أجب، وإنما رحت أحّدق فيها وأدق في صدرها مسامير حقدي.. وخيل إليّ انها ارتاعت وقدمتني بوجل إلى الرجل الذي كان معها، فانحنيت قليلاً، وتراءى لي أنه، هو الآخر، يريد أن يفرّ.. ولم يخب ظني، فقد استأذن بأدب ولوى قدمه ومضى في الزحام، وقلت لها وأنا أومىء إليه:

- كان يبغي النجاة.

ولكنها لم تصفعني. وإنما ضربت صدري بقبضتها وقالت:

- لا تكن وقحاً..

وتأبطت ذراعي، ومِلْتُ على أذنها، ونحن نسير إلى المشرب وهمستُ:

- بماذا تحلم الصبايا؟

وتطلعت إليّ بعينين ذابلتين وهمست:

- تأبط ذراعي جيداً وإلا سقطت...

وساندتها وعدت أقول:

- شد ما أشتهي أن تسقطي.

قالت بحقد: لن تكون أنت سبب سقوطي..

وضغطت على ذراعها بقوّة وقلت:

- أقسم انه لن ينجيك شيء.

وأترعتُ لها الكأس، وكانت تشرب بنَهم وتضحك، وأقبلت امرأة صديقي العجوز، لا تزال فيها بقايا تشتهى، وكنت قد غدوت وقحاً تماماً، وقلت لها وهي تمر:

- أين رمَيتِ به؟

فقالت وهي تترنَّح:

- ما أظرفك.. إنه هناك.. في ذلك الركن.. لا يكاد يفيق.. وتطلعتُ إلى حيث أشارت. كان جالساً والكأس في يده، يهوِّم مطاطىء الرأس..

وقالت هي: ألا تصحبني قليلاً؟

قلت: وهذه الصبية؟

ومضت كأنها تتسكع.. والتفتُ إلى مارلو وسمعتها تقول وهي تومىء إلى السيدة:

- الجوع يفري أحشا ءها.. فقلتُ:
- وأنت كبرياؤك تأكل قلبك! وهمّت أن تصفعني، ولكنها تخاذلت. لقد لعبت الخمر برأسها.. وتأدّى إليّ صوتها الواهن:
- سأبصق في وجهك..

ثم انحدرت دموعها، وأخرجت منديلاً صغيراً مخرماً، وراحت تمسح عينيها، ومددت ذراعي وقلت:
- لنذهب الآن...

وسارت معي. ومن جديد تلقّانا فتيان الفندق بأرديتهم المزركشة، وكانوا ينحنون أمامنا انحناء عميقاً.. وتركنا وراءنا سعادة السفير البدين وهو يتثاءب،

وزوجته المتعبة، والمدعوّين والمدعوات، وضوضاءهم، وعريهم، وسحب الدخان، والقهقهات، ورائحة الخمر.. وخرجنا إلى الهواء الطلق.. وكان لا بد أن نعبرحيث لا ينفك المطر يهطل...ليس سهلاً ان تعبر الكونكورد ليلاً، وأن تخترق الضباب وتتجاهل نداء المسلة الهيفاء..

وقالت مارلو: إلى أين؟

قلت: إلى حانة في مونمارتر أريد أن تشاهديها.. أعني أن تجلسي فيها، وهناك حسناء لها مئزر أبيض وابتسامة متقنة جداً، ورجل أصلع يبيع الغلواز لزبائنه، ويصب لهم رحيق الشيطان في يواقيت من جهنم.. ويبتسم بخبث ومكر..

وأصبحت مارلو طوع بناني.. أحسست أنها تلوذ بي.. وتتمسح بذراعي.. كما كانت تفعل قطتي وأنا صبي يافع.. وأصابني غَثَيان. ثم تعاظم حقدي ورحت أمسح لها شعرها وأقول: «يا قطتي الشرسة.. سأقتلع يوماً أظافرك الجارحة..» وكانت تغمغم وتزداد التصاقاً بي. وفي حانة مونمارتر أجلستها إلى جانبي وطلبت خمراً، وأقبلت الفتاة ذات المئزر الأبيض وعلى شفتيها ابتسامتها المصنوعة، وقالت وهي تتخلع:

- معك صيد هذه الليلة...

قلت: بل معي الشيطان..

قالت: ولكن لا تطمع أن أعود إليك..

وسمعت الرجل الأصلع يقول من بعيد:

- اعتني بصديقي يا ايفيت..

وقلت صائحاً: انها تعلم اني لم أعد بحاجة إلى عنايتها إطلاقاً..

وقهقهت ايفيت حتى كادت تستلقي على قفاها.. وكانت ضحكتها تدل على أن عبوديتها للأصلع أصبحت أعمق مما كنت أتصور.. وكانت نظراته هو من بعيد تتوسل إليّ أن لا أكشف قناعه.. أن لا أعرّيه.. وابتسمت له. وأومأتُ برأسي كاني أقول: «اطمئن، لن أفعل هذا..»

وارتاح وفرك يديه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة، فبانت نواجذه الصفر.. وكان الاسبان من حولي يتحدثون.. حديثهم صياح دائم يختلط بضحكهم، ومعهم نساء بدينات يخفين مخالبهن تحت المساحيق الثقيلة والضحكات الوقحة.. وتقدم مني شاب يشبع جوع معدته بصور فاجرة يبيعها فأقصيته بسرعة.. وأحسست أني سأتقيأ. وزعقت بملء شدقيّ:

- أعطه يا فرنسوا خبزاً وكبداً مهروسة وكأساً من الجعة.. وسأدفع أنا الثمن..

وطأطأ الشاب رأسه واستدار إلى المشرب وطفق يلتهم شطائره ويشرب الجعة، وقد دسّ صوره البائسة في جيبه ونسي أن يشكرني.. وربّتُ على خد مارلو وأمسكتُ بذقنها بين اصبعي.. وشعرت أنها هشّة متهالكة، لو أطبقتُ باصبعيّ على ذقنها لحطمتُه. وقلت لها وهي تهوّم:

- بماذا تحلم الصبايا؟

قالت: سأنام.. ولن أحلم بك..

وجعلت أضحك ضحكاً كثيراً عريضاً مخبولاً، ورأيتُ عيون الرجال الاسبان تحدّق بي، والتفتُ إلى النساء البدينات، وأيقنت أنهن يدارين الفضيحة بتصنّع

الظَّرَف.. وبدا لي القرد الأصلع وراء المشرب وقد لفه الضباب، وابتسامته الظافرة تتراقص فوق شفتيه.. وخُيِل إليّ أنه يتحفز، ولن يلبث أن يخرج مخلبه الضاري ليطعنني به.. وكنت لا أزال أضحك وأقهقه، غير مكترث بالأرض التي تميد تحت قدمي، والأشداق المفغورة التي يتداخل بعضها في بعض.. والوجوه الغائمة المهتزة.. وذات المئزر التي تترنح.. وجهاز الراديو الذي يعوي، ولا أدري كيف نهضت وسرت وحدي وخرجت خفيفاً كأنني محمول على أكفّ لا أراها.. واتجهت إلى فوهة قطار المترو، ورحت أنحدر إلى الأعماق.. وسمعت صوت امرأة يطن في اذني:

- لا تحدِّق بي هكذا.. أيها الوغد..

وعندئذ تبينتها تماماً.. ولم تفارقني وقاحتي، فقلت لها وأنا أغرق في الضحك:

- لم أكن أدري انك ملكة جمال.. أيتها الشمطاء..

وهبطتُ بقية الدرجات وتركتها ورائي تنبح.. وأقبل القطار فركبته وأنا واثق أنه سيمر بخمس محطات.. وفي السادسة سأغادره إلى حي «لاموت بيكيه»..
ولم يكن في العربة غير امرأة عجوز.. ورجل جعل من نفسه تمثالاً.. وتحركت شفتاي.. وخيل إليّ اني فتحت فمي قائلاً:

- ولماذا هذا الوقار كله. نحِّ قناعك.. فما عادت الأقنعة تفيد شيئاً.. بعد الواحدة صباحاً..

ولكن الرجل ظل جامداً، مغرقاً في صمته.. وهمست للعجوز وأنا أبتلع ريقي.

- لو كنت تدرين.. انها لا تزال هناك.. واذا استفاقت فلن تجدني معها. أوصيت الأصلع أن يعتني بها.. وقد هز رأسه فاهماً ما أريد.. وقبل أن أغادر حانته تماماً، التفتُّ إليه وكررت القول: اعتن بها جيداً.. لا تحاول أن تخفي مخلبك.. سدده إلى صدرها بمهارة أيها الخبيث.. وقد هز لي رأسه بضع مرات.. ألا تعتقدين أنه سيعتني بها جيداً.. ذلك القرد الأصلع.. ولم تجب العجوز بكلمة واحدة، وتركتني أغادر القطار بهدوء.. ولم يكن في المحطة أحد غير عاملة التذاكر في مقصورتها، تقتل الوقت بشغل الصوف، وتلقى الناس وكأنها لا تحس بوجودهم.. وكان الاشمئزاز قد ملأ صدري.. ومررت بعاملة التذاكر ولوحت لها بيدي وقلت كمن يتقيأ:

- انها هناك.. تركتها لعناية العجوز الأصلع.. صاحب المخلب الضاري..

ومضيت أصعد سلم الخروج بسرعة فائقة وأنا أنفض برؤوس أصابعي شيئاً لا تراه العيون، ولا ينفك عالقاً بي.. ولن يفارقني.. لن أتحرر منه أبداً.. أو تحسبون حقاً أنكم أحرار؟ غاية ما في الأمر أنكم لا ترون قيودكم المطبقة على لحمكم السمين.. وإذا حدث وفتحتم عيونكم المجهدة عليها سارعتم إلى «السين» وألقيتم بجثثكم في أعماقه.. ان قيدي الثقيل تركته في حانة القرد الأصلع.. وغداً عندما أصحو سأجده يكبلني بقوة في مقهى «جان بارت» تحت فندقي تماماً، وستهمس مارلو بسخرية بالغة: «لن تحلم الصبايا بواحد مثلك على كل حال..» أؤكد لكم انني سأطبق بقبضتيّ هاتين على رقبتها ذات يوم.. وسيضحك القرد الأصلع ملء شدقيه، وسينزع مخلبه من صدري، ويروح ينظفه بعناية تامة.. ثم يخفيه بحذر وريبة.. ويعود يرمي ذات المئزر الأبيض بكلماته الجارحة، ويعرّيها أمام العيون بنذالة.. ولكن ثقوا اني لن أكون إلا آخر من يطعم «السين» من جثته.. وداعاً.. .

متى ينتهي الليل؟

فتح اسكندر عينيه اللزجتين بمشقة فلم ير شيئاً في بادىء الأمر، ثم اعتادت عيناه العتمة فشاهد نفسه في مرآة قبالته، ثم انقلب على جانبه الأيمن فشاهد نفسه مرة أخرى في مرآة قائمة في إطارها الذهبي على الأرض، وأعمل يديه الاثنتين في عينيه، وشعر بالمادة اللزجة وقد علقت بأطراف أصابعه رطبة، زلقة، فلم يشمئز، وحاول أن يرى أثر الإفراز الكريه، فرفع يديه الاثنتين أمام عينيه فلم يسعه أن يتبين شيئاً، فترك يديه تهويان ببطء على غطائه، وببطء كذلك راح يمسحهما فوق الغطاء، ثم تمطى وتثاءب ومسح الإفراز اللزج مرة أخرى براحة يده، وعاد يجفف راحته بالغطاء، واستوى جالساً، وعندئذ طالعته رؤوس ووجوه عديدة من كل مكان، هي كلها رأسه، هو ووجه هو، عكستها المرايا المعروضة في مختلف الأوضاع، في كل واجهة وركن وزاوية...

كانت الساعة تقارب السادسة صباحاً، والمطر في الخارج يقرع الأرض، والريح تفح كأنها حشد من الأفاعي الضالة، ولقد ينحبس المطر في عمان أياماً عديدة، ولكنه إذا هطل تدفقت منه سيول.

وقد أحس اسكندر في قرارة نفسه بالرثاء لحاله، وتخيل انه لن يلبث أن يخرج من محل المرايا والبلور ويواجه المطر والبرد والرياح، فاقشعر بدنه سلفاً.. ثم تذكر أنه في يوم الجمعة، وأن جيبه خاو ليس فيه فلس واحد، وأنه موعود ببعض المال في هذا اليوم المطير.. في الأيام السابقة قام ببعض الخدمات الصغيرة

لصاحب محل الساعات، وللصانع الماجن الذي يكرهه من أعماقه. ويرغم نفسه على الابتسام له ومداجاته لينال عطاءه.. لا بدّ له من هذا المال القليل في هذا اليوم.. فقد أنفق أجره الأسبوعي اليسير عن آخره، وماذا تراه سيفعل كل أيام الأسبوع المقبل؟

ونهض متثاقلاً وطوى فراشه وكوّمه في زاوية من المستودع الخلفي، وأشعل المصباح الكحولي وصنع لنفسه فنجان قهوة، وجلس على كرسي يشربها متمهّلاً، متذوقاً، وهو يدخن سيجارته اللولو الرخيصة.. وساءل نفسه: منذ متى قادته رجلاه، أو قاده القدر إلى هذا المكان؟.. لعل ذلك كان منذ سنتين.. منذ ثلاث سنوات.. ليس يدري على وجه الدقة.. المهم أنه كان سيجوع ويعرى لو لم يلتقطه صاحب هذا المحل. أتراه أشفق عليه يومئذ ورثى لحاله.. أم أنه وجد فيه غنيمة باردة.. إنساناً ينفعه ولا يكلفه إلا القليل.. القليل.؟ وابتسم اسكندر ابتسامة مريرة التوت بها زاوية فمه. كيف؟ انه في هذه الحال، اذن، كأية دابة.. كأي حمار.. لا يكلّف صاحبه أكثر من حفنة شعير.. وركن في حوش الدار ينام فيه.. ولقاء هذا عمل مستمر وأحمال ثقال، وركل وضرب. وصحيح أن صاحب المحل لا يركله بقدمه.. ولا يضربه بسوط أو عصا.. ولكنه ما أكثر ما يهينه.. أو ليست الاهانات المستمرة أقسى وأشد من الضرب والركل؟ يا للعجب.. أهذا هو شأن الدنيا؟ وتمطّى اسكندر، وأخذ آخر نفس من سيجارته، ثم أطفأها تحت حذائه البالي وقام عن كرسيه، وبصق فوق نفايات القش المبعثرة في أرجاء المستودع، وسار متمهّلاً، وبدا لفرط تقوس ظهره كأنه قد.. أقعى.. وقال في نفسه: «سيقضي عليّ ألم المفاصل في يوم من الأيام..» وعاد فبصق مرة أخرى، وتمخط فوق الأرض، وخيل إليه أن رائحة ما تنبعث منه هو.. أو من ملابسه.. فشرع يعتدل شيئاً فشيئاً في كثير من الجهد، ثم نفض ثيابه جيداً، وكان قد أدرك الباب فرفعه قليلاً من أسفل وخرج، ثم عاد فأحكم إنزاله وأقفله، ووقف يملأ رئتيه بالهواء الطلق.

كانت السماء قد أمسكت، ومياه المطر لا تزال تسيل بشدة فوق الاسفلت وعند جوانب الأفاريز، والريح لا تنفك تفحّ، والعتمة لما تنقشع بعد.. وتساءل: «إلى أين..» ثم دار ببصره هنا وهناك، فشاهد السيارات صفوفاً طويلة على جانبي شارع وادي السير، وهي تمتد حتى تصل إلى ما بعد برج الساعة في شارع فيصل.. كان كلما شاهد السيارات في مثل تلك الساعة، يخيل إليه أنها جثث ملقاة على قارعة الطريق، وهجس في نفسه خاطر: «السيارات الخاوية.. الملقاة.. هكذا.. على جوانب الطريق.. ما الفرق بينها وبين أية جثة هامدة؟.. إنها لا تدب فيها الحياة إلا حين يجلس سائقها وراء مقودها.. ويطلقها، من ثم تئز.. وتضج.. وتلتهم الطرق.. أمّا هكذا.. كما هي الآن.. فإنها والله.. جثث».. وهمهم وهو يخطو محاذراً أن تنزلق قدمه:

- وسأغدو أنا في يوم قريب أو بعيد جثة.. سرعان ما يوارونها التراب دون احتفال..

وقهقه طويلاً ملء شدقيه، ثم لف شال الصوف المهلهل حول عنقه، وشد سترته حول جسده جيداً، ودس يديه في جيبه وعاد يخطو بحذر وتوجس.. عمان لا تزال نائمة.. فمتى تصحو ومتى تعود هذه المتاجر العديدة تزدحم بروادها.. وهذه الشوارع الكثيرة المتشابكة تمتلىء بالخلق؟ بعد ساعة.. بعد ساعتين.. أليس لهذا الليل من آخر.. ليل طويل، حالك، لا يريد أن ينقضي..

كان إحساسه أنه يعيش دائماً في ليل.. ليل حياته.. ليل نفسه.. ليل مطبق، ثقيل، متى ينتهي، متى؟.

كان صبياً صغيراً.. وكان أبوه يعمل ساقياً في حانة، وكان يعود بعد منتصف الليل مخموراً، فينهال عليه وعلى شقيقته ضرباً بدون سبب.. وكانت أمه قد قضت نحبها منذ طويل.. ومنذ ذلك الحين أحس أنه يعيش في أطواء ليل

بهيم.. ولا ينفك هذا الاحساس يلازمه حتى هذه اللحظة.. متى ينتهي الليل؟ وبعد ساعة أو ساعتين سينفتح كفه للصائغ الماجن ليقبض ديناراً، وسيتأفف الصائغ الماكر، وسيحاول أن يماطل.. ولكنه في النهاية يدفع.. هذا طبعه.. وسيعطيه صاحب محل الساعات ديناراً ونصف الدينار دون مشقة.. هذه كلها أتعاب له.. وعمولة.. انها أعمال إضافية تأتيه ببعض المال من حين لآخر، فيسعه أن يأكل فولاً مدمساً وحمصاً مهروساً وفلافل، ويدخن سجائر اللولو ويشرب القهوة.. وكؤوساً من العرق الحامي ليلاً في خمارة الخواجة بطرس.. انه يسكب له الخمر بيد ترتجف لا تنقص ولا تزيد عن مقدارها.. يسكبها بحرص ولؤم وكأنه يعطيه رحيق الحياة.. ويحتسيها هو في ركن من الحانة الصغيرة القذرة، ويتناول بعد كل جرعة قطعة من خيار أو مخلل اللفت.. وفتاتات خبز وجبن.. ويتمطّى.. ويدخن سجائره الرخيصة.. وتحمر عيناه شيئاً فشيئاً.. ويطأطيء رأسه.. ويروح يحلم ساعات.. ثم يصحو قليلاً، ويتلفظ بكلمات وأنصاف عبارات متقطعة.. ويخيل إليه أن لسانه قد ثقل.. وأن رأسه يدور.. فيعود يهوّم.. وفي النهاية ينهض مترنحاً ويخطو بجهد.. ويصل إلى دكان المرايا والبلور، فيرفع بابه الحديدي قليلاً ويدخل.. ويحكم إنزال الباب من الداخل، ويلقي بنفسه على فراشه.. وينام بين المرايا.. أجل بين المرايا.. لقد كان من شروط عمله أن ينام في المحل.. إنه هنا يعمل.. وهنا ينام.. وهنا سيموت.. في يوم قريب أو بعيد.. انه محله هو.. بيته.. مأواه.. كانت الحياة أرحم من أن تلفظه على قارعة الطريق.. لقد نكّلت به.. صحيح.. ولكنها ادخرت له في النهاية هذا الحظ.. الطيب.. انها لم تلفظه تماماً كما فعلت زوجته... آه.. تلك المرأة.. النكداء.

أحس أنه أصبح قريباً من سوق الخضار البعيد.. وهذه هي سيارات الشحن المحملة.. وأولئك هم الباعة.. يصحون دائماً مبكرين.. مع الفجر.. وتضاحك اسكندر.. لقد تذكر أن لسان حالهم يقول دائماً «الرزق بده.. نطة.» اف.. اف.. خيبهم الله.. انه أعجز من أن.. ينط.. وإلا لما لفظته زوجته.. كانت تقول دائماً

انه هامل.. وكانت تنكر عليه أن يستريح.. كانت تسمي راحته خمولاً.. وكانت تشتعل غضباً من الخمر التي يتعببها.. امرأة حمقاء.. تفو.. وما كان يستطيع أن يترك الخمر، ولماذا يترك الخمر؟ ألكي يرضيها.. تفو.. لعنها الله... .

وأحس أنه يوشك أن يتقيأ.. وهو لا يدري كيف تربّى أولاده وبناته.. كيف نشأوا.. كيف تعلموا.. المهم أن زوجته في النهاية، لفظته.. وترك هو البيت.. والأولاد.. لقد مر زمن طويل.. خمس سنوات.. ست سنوات.. أكثر.. أقل.. ومع ذلك فلم يدع الخمر.. ولماذا؟ انها لا تكلفه، كل ليلة، سوى بضعة قروش.. وانها والله لسعادة، تلك المرأة الحمقاء.. ما أعظم جهلها. مر زمن طويل.. كيف مر وماذا حدث؟ كبر الأولاد.. وكبرت البنات.. كان يتسرب إليه بعض أخبارهم.. وتعلموا جميعاً.. امرأة داهية استطاعت أن تعلمهم.. لعلها عملت خادماً.. قد تكون تمسحت بأعتاب الأغنياء.. المهم أنها عاشت وعلمتهم، في حين توارى هو.. ابنته الكبرى تعمل على الآلة الكاتبة في بنك.. وشقيقتها معلمة.. والابن، ميخائيل، محاسب في شركة.. انهم يعيشون الآن مرتاحين.. هكذا قيل له.. وهكذا استطاع هو، من بعيد، أن يلاحظ.. صحيح أنه أبو ميخائيل، هكذا يدعونه مرة واسكندر مرة أخرى.. تلك المرأة الحمقاء.. لقد أنكرته.. وأنكره أولاده أيضاً.. ورضي هو أن يتوارى... .

وتناسى الناس أن لهم أباً.. لعن الله الناس.. انه حر.. حر.. لا زوجة.. ولا أولاد ولا قيد من أي نوع.. كان يمكن أن يكون أحسن حالاً، أحسن بكثير. كان يمكن أن يكون نظيفاً.. مستقيماً.. كل شيء ممكن.. ولكن العبرة في ما يحدث.. لن نكون علّى نحو ما نريد.. رغباتنا أمنيات ترقد في أعماقنا.. وتصبح مع الأيام مجرد أحلام.. وما الفرق بين أن يكون المرء نظيفاً أو لا.. يكون..؟ خطوة منحرفة واحدة وينتهي الأمر.. يشتد الانحراف بعد ذلك حتى لا يعود في المستطاع الارتداد أبداً.

وبدا له أنه غير مسؤول عن انحرافه.. كان ذلك إرغاماً وقسراً.. هموم حياته.. وأوضاعه.. ولؤم البشر.. كل هذه كانت تحيد به عن الطريق الذي يدعوه الناس نظيفاً..

لقد حاول جاهداً أن يكون أميناً وصادقاً ونظيفاً - كما يريد الناس - ثم اتضح له أن هذا كله كلام.. وأقنعة.. يضعونها فوق وجوههم.. واشمأز.. ثم لازمه الاشمئزاز.. وكانت حدة الاشمئزاز لا تزول بهذه الكؤوس من الخمر.. وكيف يتركها ؟ آه. تلك المرأة لو كانت تعقل.. لو كانت تدرك.. المهم أن الأمور وقعت على هذا النحو..

هل أراد هو ذلك؟

كلا.. أبداً.. الآخرون هم الذين أرادوا له هذا المصير.

وتساءل: من هم الآخرون؟

وضحك بملء فمه، وكان ضحكه كالعواء، ثم قال بصوت مرتفع كأنه يخاطب انساناً يسير إلى جانبه: الآخرون.. الآخرون.. هم كل الناس.. تفو.. كل هؤلاء الذين تراهم العيون وقد حلقوا لحاهم جيداً. وظهروا في تمام النظافة والأناقة..

وتحسس لحيته.. كانت قد مضت أيام لم يحلقها.. وقال في نفسه: لم يبق في وجهي غير العظم والجلد.. ومتى ينتهي الليل، متى؟ قد لا ينتهي أبداً..

كانت الشمس قد أشرقت منذ وقت طويل. فتّقت الغيوم، وبرزت من بينها وهي تتوهج كأنما قد غسلها المطر. وأحس أبو ميخائيل بالدفء يسري في أوصاله فانتعش قليلاً، وأبقى يداً واحدة في جيبه وتحركت يده الطليقة، وسرّه أن يلامسها الهواء ويغمرها نور الشمس.. وتشمّم رائحة العطر.. ثم أيقن أن للمطر، ولا ريب

رائحة.. ولكنه لم يستطع أن يصفها.. ربما تكون الرائحة منبعثة من الأرض.. وربما من اختلاط المطر بالأتربة.. وكانت شمس الشتاء قد غمرته تماماً، فأخرج يده الثانية وفركها بالأخرى وحثّ خطوه. ومرة أخرى تحسّس ذقنه ووجهه وراعه أنه هزيل حقاً، هزيل جداً، معروق، لم يبق فيه غير الجلد والعظم فقط.. ثم هذا الشعر الذي نبت قاسياً، شائكاً في وجهه ولم يحلقه.. ثم مفاصله.. انها تؤلمه، وهو كلما تفطّن إلى هذا أيقن أن مفاصله الموجعة هي التي ستقضي عليه..

وقد كان وهو صغير يوقن أن تنكيل والده به سيقضي عليه لا محالة.. ومع ذلك فقد مات والده وبقي هو.. وعاش طويلاً.. وكان في زمن بعيد.. بعيد.. يحبّ أن يصيد العصافير، ويلاحق الجراذين متسلّقاً شعاب الجبل، ويروح يرميها بالحجارة، فيبهجه أن يراها مذعورة تلوذ بالفرار وتدخل جحورها..

وكان ينثني إلى الأزاهير البرية ويقف طويلاً يتأمل ألوانها.. وكانت شقائق النعمان تفتنه بأزهارها الحمر وسط أزهار زرق وصفر لا نهاية لامتدادها.. وكان يلمّ بعضها.. ويعود به إلى جحره هو الآخر.. ومنذ ذلك الحين لا يذكر إلا أنه كان دائماً يقيم في ما يشبه الجحر.. وكيف لا يشرب الخمر.. ولو كانت تلك المرأة تعقل.. وتدرك... .

إييه.. لعن الله السيارات.. لقد استفاقت أخيراً.. وها هي الجثث تعود إليها الحياة وتنطلق هادرة مدوية، وأسرع قليلاً، فقد نشط وازدادت قامته اعتدالاً، وأخذ بعض الضباب الذي في صدره يتبدد، ووجد أنه أصبح أخف حركة وأن شعوراً كالحنين، شعوراً لا يدرك كنهه، راح ينبثق في نفسه.. والتفت ذهنه إلى عمله اليومي، ولم يستطع أن يحدد على وجه الدقة هل هو شاق.. هل هو مريح.. هل يحبه.. هل يبغضه..؟

انه هو الذي يفتح محل الزجاج والمرايا كل يوم.. وهو الذي يكنسه، وينظفه

وينفض الغبار عن معروضاته.. ثم يأتي العمال الواحد بعد الآخر ولا يأتي صاحب المحل إلا في الضحى. وماذا يعمل هو بعد ذلك: يحمل الزجاج من مكان إلى آخر، وأحياناً يقص بعضه أمتاراً وأنصاف أمتار وأرباعها وأثمانها.. لقد أتقن هذا العمل على الأيام. وربما ذهب إلى تركيب ألواح الزجاج في المنازل. وربما جلس وقتاً، يطول أو يقصر، لا يفعل شيئاً سوى أن يدخن سجائر اللولو.. أهو شاق هذا العمل.. أهو مريح.. هل يحبه.. هل يبغضه.. انه لا يدري.. لو تركه ماذا عساه أن يفعل؟

انه لم يألف العمل وحده، لقد ألف المحل، وألف جوّه ورائحته. وألف العمال وضحكاتهم الوقحة العالية، وكلماتهم البذيئة، كما ألف صمتهم الطويل.. وهنا أيضاً مأواه، فيه فراشه المتهالك، وفي زاوية لا تكاد تراها العين أدوات القهوة وبعض البن والسكر والموقد الكحولي.. إن فنجان القهوة يصنعه لنفسه ثم يروح يشفطه بعد أن يكون قد سعل وتمخط وبصق على القشّ المبعثر.. هو غاية مناه..

وكان الشعور بالحنين قد أخذ يلح عليه ويتسع مداه في صدره.. ولاحت له في بهرة خياله صورة صغرى بناته.. هذه البنية التي لم تعدُ العاشرة من عمرها، هي وحدها التي ظل قلبه عالقاً بها.. كان من حين إلى آخر يحب أن يراها ويملأ قلبه من حلاوة نظرتها، كان يذوب حنيناً إذ يشاهدها تسير بخفة، وضفيرتها المعقودة بها انشوطة بيضاء، على شكل فراشة مبسوطة الجناحين تهتز على ظهرها..

كان يقف بعيداً متوارياً عند زاوية عمارة البريد.. وتمر هي مسرعة في طريقها إلى المدرسة فيحس عندئذ أن قلبه يذوب..

كانت الأسواق قد أخذت تمتلىء بالخلق.. وقد استفاقت عمان تماماً بعد أن طال تمطيها.. وانثنى اسكندر عائداً يخترق الشوارع والدروب ويخطو بقوة لا

يدري من أين أتته.. وفي شارع فيصل مال على محل بيع الساعات فقبض ديناراً ونصف الدينار، وسيجارة نفحه بها صاحب المحل، ثم مال إلى دكان الصائغ الماجن فأخذ منه ديناراً، ولما خرج بصق بشدة، فقد حاول الرجل الخبيث أن يماطله، ولكنه انتزع منه الدينار انتزاعاً كأنما سلخه من جلده، وتابع سيره بخطوات واسعة.. وصعد في طريق الجبل «اللويبدة» وصار قرب سينما «الخيام»، فدخل مطعماً صغيراً وطلب طبقاً من الفول المدمس ورغيفاً ساخناً وبصلاً ومخللاً، وشرع يتناول فطوره. ولما شبع أشعل سيجارته ووضع رجلاً فوق الأخرى وراح يرقب الطريق.. ان من عادة صغرى بناته أن تشتري الفول صباح يوم الجمعة من هذا المطعم الصغير وتحمله في طبق كبير نظيف وتعود به إلى أمها واخوتها واخواتها.. وكأنما أدرك أنها توشك أن تأتي فسحب مقعده إلى الخلف وتوارى في ركن المطعم وراء الباب الزجاجي.. كان في تلك اللحظة قد طغى عليه الحنين والانعطاف.. كان يحس أن قلبه يذوب... .

وأقبلت الفتاة الصغيرة فرحة مفتّرة الشفتين عن ابتسامة متألقة.. ودخلت المطعم وناولت الرجل قروشاً وطَبَقاً أبيض ناصعاً، فأعاده إليها مليئاً وانثنت عائدة.. ونهض والدها فتبعها خطوات.. ثم ناداها بصوت خافت مرتعش:

- منيرة..

والتفتت الفتاة الصغيرة المرحة، وهتفت وقد التمعت عيناها:

- بابا..

ودنا هو منها بلهفة فاحتضنها وقبلها في خديها، وقبّل يديها الصغيرتين ودس يده في جيبه وأخرج كل ما فيه وقال:

- خذي يا منيرة.. هذا لك... .

ثم عاد فاحتضنها مرة أخرى وقبلها وتشمّم شعرها وقال لها:

- اذهبي الآن.. لئلا تتأخري.. الله معك... .

ومضت الفتاة، وظل هو يُتبعها نظَرَه حتى غابت عن ناظريه.. وأخذ يعود من حيث أتى.. وكان يبتسم... .

كانت ابتسامته تملأ وجهه وتطلّ من عينيه.. وقد خُيِّل إليه أن ذلك اليوم هو أجمل أيام الشتاء كلها... .

ضباب

في تمام الساعة الخامسة مساء خرج السيد فالح المحمد من بيته كعادته، وأخذ يسير بخطى وئيدة ويتوكأ على عصاه، محاذراً أن تنزلق قدمه فوق الاسفلت الأملس المنحدر مع طريق الجبل، حتى أسواق المدينة الصاخبة. وعندما وصل إلى حيث تنهض تلك العمارة الكبيرة ذات الطباق الأثني عشر، تمهل قليلاً، ثم وقف قريباً منها ورفع رأسه يعدّ الطوابق، من أعلى إلى أسفل، ثم من أسفل إلى أعلى... .

لقد فعل ذلك في الأيام السابقة. وسيعدها مرات أخرى غداً وبعد غد وكل يوم، حتى يتم بناؤها وتدهن وتتلألأ من نوافذها أنوار مستأجريها.. ما كان ليحلم قبل عشر سنوات، قبل عشرين سنة، أن تنهض عمارة مثلها.. ما أسرع ما نمت مدينته وامتدت وتمطّت فوق الجبال، وعلى السفوح، وفي السهول.. في كل اتجاه، ولاحت له صورة لمدينته الكبيرة. وفي ثانية واحدة تبدت في بهرة خياله، وهي تتلألأ كما يشاهدها دائماً في الليل من شرفة منزله. كثيراً ما يقع في وهمه أنها أشبه ما تكون، عندئذ، بمدينة مسحورة جاثمة فوق مطارف من المخمل الأسود، المزدان بقطع لا عد لها ولا حصر من ماس يتوامض، ويكاد بريقه يخطف الأبصار.. ومع ذلك فما أبهجه ما تراءى له في أفق نفسه، وإنما اعتراه انقباض، وأحس بما يشبه المرارة، فضاق صدره وراح يتابع سيره على أرصفة الأسواق... .

في صباح هذا اليوم ودّع راحلاً عزيزاً. كان صديقه منذ زمن طويل.. منذ

كانت مدينته وكأنها قرية كبيرة، بيوتها من اللبن الترابي، ودروبها وعرة متعبة، ورجالها لا يتخذون سوى الحطة والعقال لرؤوسهم، ويأنفون أن يكونوا حاسرين.. ذلك زمان مضى.. مضى.. وخيل إليه أنه كان أسعد حالاً في تلك الأيام.. كان صديقه يحب أن يزوره عصر كل يوم، فيتخذان مجلسهما تحت التينة الكبيرة في الحديقة ذات السور البدائي المصنوع من حجارة ساذجة، يقوم بعضها فوق بعض. يجلسان ثمة ويتناقلان الحديث في أمور وأمور.. ويدخنان الشيشة في طمأنينة وراحة بال... .

كان القليل يكفي يومذاك، حَسْبُ المرء أن تكون عنده مونته من القمح والجميد والسمن لكي يكون سعيداً جداً، ويحمد الله.. ولقد ارتحل صديق الشباب، صديق الأيام الرغدة، وارتحل قبله أصدقاء.. وكبرت مدينته واتسعت حتى لتكاد تسدّ الأفق.. وان ناسها ليتزاحمون كالنمال، فتضيق بهم على رحبها. وهو ليس موسراً، ولم يُثرِ كغيره، ولكنه ليس بفقير. هو مكفي الحاجة وحسب، ولقد شارف الستين الآن. ما كان هكذا يؤوده عبء غير منظور يحمله فوق ظهره ويطوف به مبهور الأنفاس تحت وطأته.. قبل عشرين.. ثلاثين عاماً كان قوياً شديد المنّة، وكان دم الشباب يتفجر في عروقه، وكان لا يشكو مرضاً، ويعجب كيف يمرض غيره وتقعده العلل. وقد أبى أن يكون موظفاً محدود الدخل.. كان طموحاً، وقد كسب الكثير من تجارة الحبوب والزبيب، وأنفق الكثير في المآدب والدعوات دون حساب، واضطر أن يلمّ شتاته، وأن يقتصد شيئاً هنا وشيئاً هناك.. وخرج من كل تعبه الذي تعبه تحت الشمس بدار يسكنها وبيتين يؤجرهما، وثلاثة كروم في مشارف «السلط».. ثم وفدت الدودة اللعينة وأخذت تعيث فساداً في شجيرات الكرمة وتنخر في جذورها فتذويها، وتحيل أعنابها ودواليها نفاية لا خير فيها.. كان يرى بأم عينه الحبات البلورية المكتنزة، الثرة الرحيق، وقد ضمرت وهزلت وتجعّد إهابها الحريري، وغاض ماء الحياة الذي كان يتلألأ فيها.. وتضاءل دخله وضمر هو الآخر.. وكبر الأولاد.. وما عادت عيناه

تكتحلان بمرأى القطوف النضرة بين أوراقها.. وها هو قد شارف الستين، وصحيح انه لا يزال متماسكاً، منتصب العود، ولكن وقْر السنين والهموم التي عانى منها في صمت وتحمل ورجولة لا ترحم أبداً.. كانت الدودة التي افترست الكروم كارثة مروعة أصابه من فوادحها أقل مما أصاب غيره... .

وفي صباح هذا اليوم ودّع صديقه القديم، ورآه جثة يوارونها التراب.. أو هكذا إذاً يذهب منها الانسان وكأن لم يكن! في أثناء الجنازة، من البيت إلى المقبرة، التقى معه الفكر مرات، وحادثه، وبثه أسفه، وذكّره بأوقات هنيئة مضت.. وبلقائهما عصر كل يوم تحت التينة الكبيرة، وقال له: «الدنيا غادرة كما ترى.. ما دام صفوها لأحد.. ثم يكون الرحيل عنها.. هكذا..» وكان يسير في الجنازة مطأطىء الرأس، كاسف البال.. والحّت على ذهنه، رغم تراخي الزمن، كارثة الكروم التي افترستها الدودة.. الدودة التي أتت من بعيد، تلك الدودة الداخلية ما أحقر شأنها! ومع ذلك كانت سبب المصائب كلها.. هكذا الدخلاء دائماً.. في كل مكان.. وعلى حين غرة عبس وتجهمت أساريره، وخطر له - بمثل لمح البصر - أن عليه أن يدفع في الغد ديْناً مستحقاً لأحد المصارف، وهو لا يملك المبلغ كله، وعليه أن يستكمله كائناً ما كان ليظل نظيف السمعة، صادق المعاملة، وعجب كيف اغتنى الكثيرون دونه.. وبدا له أن استقامته لم تنفعه.. الدنيا الغادرة تكرِّم اللئيم الخسيس، هو لو أراد أن يكون دنيئاً، متكالباً، لما استطاع أبداً.. هناك وسائل لا يحسنها. هكذا نشأ وكان يرى دائماً أن المال الحرام لا يدوم، وأن عين اللّه بالمرصاد ، وأن العمل الصالح هو الذي يبقى.. ثم إن هي إلا أيام.. ويمضي.. كما مضى صاحبه المحمول على الأكتاف... .

كانت الشمس قد أخذت تميل إلى الغروب، ووجد نفسه يسير متمهلاً على أرصفة الأسواق، وقد امتلأ الجو بصخب السيارات، وضجيج الخلق، واستوقفه بائع الفاكهة عند منعطف:

- مساء الخير مولانا..
- آه.. مساء الخيرات..

وأمسك بائع الفاكهة تفاحة كبيرة بين أصابعه وقال:
- هدايا العرايس.. يا تفاح.. خبأت لك والله بعضه. هنا وراء التخشيبة..
- تفاح عظيم.. سأمر بك غداً.. يا ولدي..

وتابع سيره آسفاً، فلقد أصبح يشعر أن شراء مثل هذه الفاكهة أصبح ترفاً لا يقوى عليه دائماً.. وهذا لا يهم بالطبع، ففي وسع الانسان أن يستغني عن أشياء كثيرة، وإنما هي العادة حيناً، والاشتهاء حيناً، وثمة أناس لا يجدون الرغيف.. ومرضى لا يجدون الدواء.. وفي الدنيا شعوب معذّبة تجاهد في سبيل حريتها، وأخرى مشردة فقدت أوطانها ولا تنفك تتقلب في جحيم مأساتها.. وفيها لاهون وعابثون ومغامرون وباحثون عن اللذات بأنوفهم.. وتابع سيره، واشتد انقباضه وضيق صدره، ودار في نفسه خاطر لم يدرِ كيف يعبر عنه.. قد تأتي لحظة على الانسان لا يحب فيها الحياة، ويعجب أن الناس يتعلقون بأذيالها، ويحسبون أن فراقها عسير، مرير.. قرأ مرة أن الإنسان قد يأتي أمراً ما أو يرتكب جريمة ما دون مبرر.. دون دافع في الظاهر، في حين تكون الدوافع الخفية قد تراكمت وقبعت في الداخل.. في أعماق بعيدة جداً لا تستبين أبداً... .

وأوسع خطاه قليلاً، ومر ببقال، وبدكان لبيع الحلوى والفطائر، حلواه مرتبة ومنظمة، بعضها يعلو بعضاً بصورة هندسية بارعة، ومرّ بصيدلية، ولمح امرأة تتسول ملتفة بملاءتها السوداء المغبرة، ويدها المعروقة ممدودة، ثم مر ببقال آخر، وبائع أقمشة، وبائع حلوى وفطائر مرة أخرى، وأخذت عينه صبياً يرتدي قميصاً مهلهلاً، ويلاحق المارة وينوح: «الله يخلّيك.. يا سيدي.. جوعان.. الله يخلّيك..» .

ثم مر ببائع خُضَر وفاكهة، وبدكان للملابس القديمة بعضها لا يزال في «بالاته»، وبعضها نشره صاحبه هنا وهناك وهو لا ينفك يزعق مغرياً المارة ببضاعته المتهالكة، وفيما يشبه الدوامة، أخذت عينه صيدلية وبقالاً وبائع مرطبات، ومطعماً صغيراً يقلي الفلافل لعمال وحمالين، وازدادت الدوامة عصفاً به، فتوالت لناظريه الزائغين صور لبائع بهارات وحلاق، ومخبز احتشد على بابه خلق كثيرون من صبية في أطمار بالية، ونسوة بائسات شاحبات الوجوه، ورجال رازحين اغّبرت وجوههم، وحفيت أقدامهم من فرط كدّ وجهد..

ولاح له الصبي المشرد من جديد، على الرصيف المقابل، ينوح ويلاحق المارة ويتعثر وراءهم، ومرة أخرى مر بدكان حبوب، ثم بقال، وبائع حلوى وصيدلية.. وتمهل قليلاً، وأخذ يلتقط أنفاسه، ثم ألقى نظرة على واجهة الصيدلية، وتردد برهة كأنما يسأل نفسه، ثم دخل كالحائر وطلب بصوت خفيض عدداً من حبوب منوّم قوي المفعول، وحدثته نفسه: «ربما تكفي عشر منها.. دفعة واحدة..» وكان قد قرأ أنها سريعة الأثر.. وأن الإنسان لا يجد ألماً، .بسرعان ما يتم الأمر بسهولة كأنه في حلم.. الكثيرون فعلوا هذا وتخلصوا من دنياهم.. وتناول الحبوب ملفوفة بورقة ودفع ثمنها.. ولاح له صديقه الراحل محمولاً على الأكتاف.. وهو يسير في جنازته.. وأحس أن هموماً كثيرة منسية - لا يدري أين كانت كامنة - قد تداعت يشد بعضها ازر بعض، وأخذت تحوم في أفق نفسه.. وخرج وهو يزفر..

كانت عتمة المساء قد لفت المدينة، وأضاءت مصابيح الكهرباء الشوارع كلها دفعة واحدة.. وكان هو قد أخذ يعود أدراجه، وهفت على وجهه نسمات رطبة، منعشة، وسار طويلاً ونسمات المساء لا تنفك تهفو على وجهه، فأحس بما يشبه الراحة. وخف عن صدره عبء ثقيل، فأرسل نَفَساً مديداً، ودس يده في جيبه فلامست رسالة ولده الذي يعمل في الخارج ويدُرس في نفس الوقت، وعلى الفور تراءت له كلمات حلوة قرأها في الرسالة: «وسيأتي يوم نذكر فيه المصاعب

والهموم الصغيرة، فنضحك ثم نشكر لله نعمته وتوفيقه، وأنا جاد يا أبي في دراستي، وأعي مسؤوليتي تماماً، فلا تبتئس، ولا تحزن، واصبر فان الصبر جميل.. وانك لخليق بكل تكريم يا أبي..»

وترقرقت في عينيه عَبْرة، وفاض قلبه بالانعطاف.. وكان لا يزال يمشي.. ـت النسمات الندية تهفو رقيقة، حلوة، على وجهه، فازداد انتعاشه.. وحاول ن يذكر ما كان يفكر فيه منذ ساعة.. منذ ساعتين، فلم تسعفه الذاكرة.. ومد ـده ثانية إلى جيبه الآخر فعثرت بحبات المنوم القوي ملفوفة بورقتها، فعجب رتساءل: ماذا عساها تكون؟ ولماذا هي في جيبه؟ وأخرجها بين أصابعه بهدوء وأناة، وألقى بها في الطريق، وراح الضباب ينجاب عن صدره ومضى يغذ السير..

بداية ونهاية

حدثني صاحبي فقال:

ما أكثر ما يختلط عليّ الأمر، فلا أكاد أفرق بين شخوص قصص قرأتها وشخوص - من لحم ودم - عرفتهم في الحياة، واتّصَلَتْ بيني وبينهم الأسباب، أو بين صورة رأيتها في مكان ما، وانسان يغدو ويروح في رحاب هذه الدنيا الواسعة، ولا يخطر له على بال أنه في ذهن كاتب القصة صورة من الصور...

كنت جالساً منذ أيام على كرسي الحلاق، وكان هو يثرثر، ويتحدث في كل موضوع. وما خطر لي يوماً أن أمنع حلاقاً عن الكلام، وقد يضايقني أن يمسك عما يخوض فيه من حديث، فأصحو عندئذ وأحس من حولي خواء، وفي ذهني فراغاً. وأكاد أرجو الحلاق أن يمضي في حديثه الذي لا أول له ولا آخر، لكي أفرَغَ لنفسي وأستطيع أن أفكر في كل شيء إلا في حديثه. وحسبي منه أنه يُعمل مقصه في شعري، وأن يظل لسانه دائراً في فمه، فما يعنيه أن أفهم ما يقول، ما دام هو يشبع هذا النهم في نفسه إلى الكلام، ويتركني أخلو إلى هواجسي وهواتف الرؤى والأخيلة في صدري.

وابتسم محدثي الصديق، وأخرج سيجارة اشعلها وأرسل دخانها من أنفه وفمه جميعاً ثم مضى يقول: «ونظرت إلى الصور الكثيرة التي يزين بها الحلاق صدر دكانه، وقد استوقفَتْ نظري صورة واحدة، صورة لامرأة تنطق بالانكسار

واللوعة والرضا بالحظ المقسوم لها في الدنيا.. لا شيء في ملامحها ينم عن ثورة أو تمرد أو تطلّع إلى ما هو أفضل وأحسن، ولا في نظرتها ما يمكن أن يوحي بغير الاستكانة والرضا عن المصير. امرأة مستسلمة، لقدرها وكأنها قانعة بانكسارها وضناها ولوعتها..

وساءلت نفسي: «أين رأيتها؟». انها لم تعد مجرد صورة في ذهني، لقد راحت تأخذ لبوسها في أزياء الحياة، وكأنها شرعت تخرج من إطارها، وخيّل إلي أنها تتحرك، وسرعان ما تستدير نحوي وقد تمدّ إليّ يدها الواهنة مصافحة، وعلى شفتيها ابتسامة حزينة كأننا أصدقاء منذ زمن طويل.. وأكاد، أنا، أهمّ بأن أكلمها وأسرّي عنها همها الذي أجهله ولا أعرف بواعثه،وأوشك أن أوسّع لها مكاناً بجانبي وأدعوها إلى الجلوس فيه، وأطلب منها أن تقص عليّ حكايتها أؤ قصة حياتها، فما كلّ هذا الذي أراه من شحوب وجهها وذبول عينيها، وانكسار نظرتها إلا من أثر همها الذي تحمله على كتفيها، ولا تحدث به أحداً، كأنها ضنينة بالسر الذي يعذبها ويعتصر روحها ويمتص دم الحياة من محياها الرقيق.. وقد تكون خيانة زوج هي التي فعلت بها هذا كله.. وقد يكون الفقر أو الحرمان أو موت ولد هو فلذة كبدها.. فما لغدر الأيام آخر، ولا للؤمها نهاية..

وانتهى الحلاق من عمله وقال: «تفضل»، وعدت على صوته إلى الدنيا التي حولي وأنا أكاد أسأله: «أين هي؟.. ولماذا تراها ذهبت ولم تستجب لرجائي؟» ولكني أمسكتُ، وخفت أن تذهب به الظنون في صحة عقلي، وانصرفت وأنا أهز رأسي أسفاً.

وأمس كنت في غرفة جلوس بعض الأصدقاء، وكانت ثمة فتاة جميلة تجلس على أريكة، وقد فتر الحديث، وانصرف كل منا إلى نفسه يتأملها أو يناجيها أو لا يفعل شيئاً سوى أن يظل مفتوح العينين، معطل الفكر، وألقيت نظرة إلى الفتاة.. وبدا لي أنها من دقة الصنع حتى ليُخشى أن تمسها يد من خوف أن

ينكسر فيها شيء.. وتطلعت إلى عينيها، فإذا هي ساهمة مستغرقة النظر إلى يدها الممتدة على الأريكة الواسعة، تتأمل خضابها وأظفارها المستطيلة. وكانت يدها في حالة استرخاء حلو. وكانت هي كأنها تغازل يدها تلك، وتبتسم لها في سرها، وتكاد من شدة الومق، أن تقبلها.. كانت كلها اشتياقاً لهذه اليد. وحباً لها وافتتاناً بجمالها ورقتها.. كانت الفتاة كأنها تعبد ذاتها. وقلت في نفسي، انها صورة معبرة عن هذه المعاني جميعاً. صورة ينقصها الاطار الذي توضع فيه والجدار الذي تعلق عليه... .

وشغلتني خواطري وذهلت عمن حولي، وبدا لي أني أرى الفتاة وقد أقبلت على الحياة مزهوة بحسنها، مفتونة بسحر عينيها السوداوين المتألقتين، مستطارة اللب بقدها الذي بلغ حدّ الكمال، رقة مجسٍ، ولين أعطافٍ، ودقة صنعٍ.

وشاهدتها في رحبة خيالي، تحب الزهر والعطر وتقبل ثغور الورد ويروق لها أن تقف قبالة مرآتها، ويمر الوقت فلا تحسّ به. وتظل تتأمل شفتيها وملامحها وشعرها المجدول، وقد استدار حول رأسها كأنه إكليل مضفور، وترفع يدها فتمس نحرها برفق. وتمر براحتها هنا وهناك فوق شعرها ثم تستدير، وتديم النظر إلى قدها من هذا الجانب مرة ومن ذاك مرة، وتروح كفها تتحسس بشغف بعض مفاتنها، وتبتسم في المرآة، ثم يعنّ لها خاطر فتتلفت خفيفة رشيقة وتخطر في أرجاء غرفتها وكأنها ترقص أو تطير... .

ولاح لي أنها كالفراشة الجميلة النادرة المثال. ألم تر تلك الفراشة المزهوة بألوانها لا يندّ فيها لون عن لون على كثرة الألوان والأصابيغ؟ ألم تر خفقتها ورفيف جناحيها الذهبيين وشغفها بالنور، ولقد تكون حياتها يوماً أو بعض يوم، ثم تحترق، يحرقها الضياء الذي تعشقه؟ أجل. هكذا كان هي فيما أحسّ، تحب جمالها وتعبد نفسها، وتشتهي أن تنهل من كل رحيق، وتشرب من كل كأس، وقد استقر في روعها أنها كوكب ساطع يملأ الأرجاء بنعمة ضيائه... .

ووهمتُ أن شاباً وسيماً قد أقبل من حيث لا أدري، فأعجب بها. وقال في نفسه: «ستكون هذه... زوجتي...» واتصلت أسبابه بأسبابها، وراقصها وكانت هي تختال زهواً، وتلهو وتخطر كأميرة، وتحس بأن العيون توشك أن تلتهم حسنها.. وتأمل الشاب وفكر، وحزم أمره. وتقدم إلى أهلها وطلب يدها، وقال لها أبوها: «إنه يريدك زوجاً له. فماذا ترين؟ وأحسبه شاباً طيب القلب، صادق العزم والسريرة..»

وقالت هي وقد قلبت شفتيها: «لا أتزوجه، فهو قصير، وأحب أن يكون زوجي مديد القامة، موفور الرزق..»

ومرت الأيام ونسيها الفتى، وأقبل غيره، فقالت، إن فيه بدانة لا تحبها، وعبوساً لا يرضيها.. وجاء ثالث، وكان مهندساً بارعاً، مرموق المنزلة، فتضاحكت وقالت: «إنما أريد زوجي طبيباً أنيقاً، وهذا المهندس يهمل هندامه، وما أكثر ما أراه مغبراً مشعث الشعر، شديد الانهماك في عمله، كثير الانصراف إلى عمائره التي يشرف عليها..»

واكتمل نضجها، وتفتحت زهرة جمالها عن آخرها، والأعناق لا تنفك تلتوي خلفها كلما مرت أوخطرت في شارع أو متنزه. فازدادت تيها ودلالاً، وتعاظم شعورها بفتنة حسنها، وتقدم الطبيب الذي كانت تحلم به أن يكون زوجها، ومنّى نفسه بها، وقالت هي: «إني أراه فلا يهش له قلبي، ثم انه فوق الثلاثين من عمره، كلا لا أريده..»

كانوا جميعاً يمرون في حياتها كالأشباح، الواحد تلو الآخر، لا يحظون منها بغير النظرة الفاحصة والابتسامة الخفيفة الساخرة. والجواب السريع المقتضب: «اوه.. لا ليس هذا الذي أريده..»

وتهامس الناس: «لا ريب في أن في الأمر سراً..»

وعلمت هي بما قيل فهزت كتفيها ولم تهتم، وقلبت شفتها السفلى ولم تكترث.

وقال البعض: «لو كانت طاهرة الذيل لما تمنّعت وتأبّت..»

وسمعت بما رمّوها به فضجت ضاحكة وقالت وهي تتواثب: «هذا من غيظهم..»

ومرت الأيام لا تتمهل ولا ترحم، وكانت هي لا تنفك تلهو وترقص، وتسهر ب إلى مخدعها، فلا يكاد يغمض لها جفن. بدأت تحس أنها غير سعيدة وعير شقية.. حال من القلق وحسب.. وكانت تسائل نفسها: «ما الذي حدث؟»

وفي صباح أحد الأيام طالعتها مرآتها بما حدث. لقد رأت شيئاً روّعها. وكان هذا الشيء خطاً دقيقاً جداً فوق جبهتها. وكان هذا الشيء ذبولاً في عينيها وفتوراً في بدنها.. واندفعت يدها إلى حقّ على نضد الزينة فغمست اصبعها فيه، ثم جعلت تدهن بالمعجون جبهتها كلها، وتدلكها برفق وصبر، وخيل إليها أن الخط الدقيق قد توارى ولم يعد له وجود. فانتعشت ونشطت وارتدت ثيابها بسرعة، وخرجت تضرب في زحمة الشوارع وتقف عند واجهات المتاجر التي تعرض حريراً وأزياء، والتي تعرض ذهباً مصوغاً شكولاً وأنماطاً. ومالت إلى صالون تريزا للحلاقة، فأمضت فيه ساعة من زمن، وشربت كوباً من الليمون المثلوج، ولاح لها أنها هدأت واستقرت، ولكنها ما ان عادت إلى البيت ودخلت غرفتها وأغلقت من دونها الباب حتى عاد ذلك القلق الممض، المبهم، يملأ صدرها، ومرة أخرى سألت نفسها: «ماذا حدث؟»

وكان قلقها حيرة بادية، إذا عادت إلى البيت أحست أنها يجب أن تفر منه،

وإذا غادرته سرعان ما تعود إليه.. وكانت تضحك لغير سبب وتعبس وتتجهم لغير داع، وكانت تمر هنا وهناك وتغشى المراقص، وتجهد أن تمرح مع الصديقات والأصدقاء.. وكان جمالها لا يزال يثير الفتنة والإعجاب.. ولكن ما من أحد عاد يفكر أن تكون زوجته، حتى الكهول غدوا يخشون أن تردّهم خائبين... .

وكان الزمن لا يني يتصرّم، ويده الدائبة لا تفتأ تمتد في الخفاء إلى جمالها فتذبل منه شيئاً، وإلى عينيها فتطفىء من ألقهما، وإلى قدّها فتوهنه، وإلى شعرها فتنبت فيه شعرة بيضاء هنا وأخرى هناك.. وانتهى بها القلق إلى اليأس والأسى، فعرفت الحب السريع الذي لا يدوم أكثر من يوم وليلة، وتنقلت من ذراعي رجل إلى ذراعي آخر، وفي وحدتها كانت تتأمل حالها، ويتراءى لها كأنها كانت في يوم من الأيام أميرة من أميرات الأحلام، وأنها كانت تطلّ من قمة الوهم على دنيا الناس، فتراهم صغاراً، عجافاً، مهازيل، وها هي قد انحدرت، انحدرت كثيراً، وتوشك أن تشارف الحضيض. وإذا الرجال كبار، ضخام عراض، ليس فيهم القصير والطويل، والبدين والهزيل، ولا فيهم الجميل والدميم، وإنما فيهم ذئاب وأنذال وأخسّاء وجبناء، يثيرون الرعب في قلبها، وفيهم طيبون وذوو كرامة ومروءة، وفيهم أزواج سعداء لهم نساء وأبناء وأعمال يغدون إليها خفافاً مع مطلع كل شمس.

ويا لحسرتها! فبالأمس فقط انتهرها أحدهم، وقهقه آخر وهو يترنح من السكر، وأطلق يده تعبث في صدرها وهو يقول: «فات.. فات الأوان.. يا رمان..»

وكانت أمها قد قضت نحبها منذ وقت طويل وحسرتها على ابنتها تنهش أحشاءها، وأبوها أقعدته الشيخوخة وأعماه الهم... .

إيه.. هكذا هي الدنيا.. وانها لأحدُ شخوص قصتها الطويلة.. وستمثل

دورها كاملاً وتقضي.. والنهاية واحدة للجميع... .

وعلى حين غـرة أدرتُ عـيني في غـرفـة الجلوس وراعني أن الفـتـاة لا تزال جالسة على أريكتها، وانها ما برحت تبدو من دقة الصنع حتى ليُخشى أن تمسها يد من خوف أن ينكسر فيها شيء.. ولا تنفك تتأمل يدها المسترخية كأنها تغازلها وتبتسم لها في سرها. وخيل إليّ ثانية أن الفتاة تعبد ذاتها.. ورحت أردد في نفسي مرة أخرى: انها صورة ينقصها الاطار الذي توضع فيه، والجدار الذي تعلق عليه. وتذكرت الصورة الأخرى التي رأيتها في دكان الحلاق.. صورة المرأة التي تنطق بالانكسار واللوعة والاستسلام، وتوحي نظرتها بالحظ المقسوم لها في هذه الدنيا... .

ولا أدري لماذا تراءى لي أن هذه الصورة أخت تلك، وأن إحداهما هي البداية والأخرى هي نهاية الشوط.. وأن تلك المرأة الوهنانة التي شحب وجهها وذبلت عيناها وانطوت على همها الدفين كانت هي نفسها تلك الجالسة على أريكتها، وقد خرجت من إطارها، وحدثتني حديثها وابتسامتها الحزينة على شفتيها، وأفضت لي بسرها وما آلت إليه من أمرها... .

ودخل صاحب الدار يحمل القهوة لضيوفه ويضحك مرحباً بهم كعادته، فأفقت من ذهولي وكدت أهتف: «ولكن أين الصورة.. لقد كانت هنا... وكنت مستغرقاً في تأملها...» إلا أني أمسكت ورحت أضحك مع الضاحكين.

أنا قتلتها

حين يقف محفوظ افندي، كعادته كل صباح، قبالة مرآته العتيقة ذات الاطار البيضوي الذي نخر فيه السوس، فانه لا ينكر الوجه الذي يطالعه في المرآة، انه يعرف منذ طويل أن عينيه صغيرتان، وقد كانتا سوداوين براقتين فيما مضى، وأن فيهما اليوم اغبراراً، وتشوبهما خطوط دقيقة حمراء، وتنتشر من حولهما غضون كثيرة، وقد أصبحت أجفانهما ثقيلة، وما عادتا خفيفتي الحركة تخفقان بعزم وحيوية.. وهو يدرك تماماً أن نصف رأسه من أمام أصلع، ونصفه الآخر قليل الشعر، وفي هذا تكمن مأساته اليومية كل صباح. عليه أن يمشط جيداً هذه الشعرات المستطيلة وأن يدهنها بمادة لزجة لماعة، وأن يبذل جهداً خاصاً لكي يحسن توزيعها في خطوط متساوية، لا يجور بعضها على بعض، فيحظى النصف الأصلع بنصيب منها، ويبقى للنصف الآخر نصيب. ثم لا بد أن تكون هذه الشعرات الهزيلة مفروقة إلى اليسار.. في خط يبدأ مستقيماً ثم ينحني متقوساً في اتجاه الجبهة. هذا الصراع اليومي يضنيه فعلاً، ويثيره، ويحرك كوامن أفكاره هواجسه وهمومه... .

لعن الله رئيسه الحقير.. ماذا تراه يفعل حتى يظل رئيسه هذا دائماً ناقماً ليه هكذا ؟

«يستحيل أن أنسى نظرة هذا الرئيس المهينة إليّ، نظرة فيها كل اللؤم.. يطلقها في أحشائي كالنصل المشحوذ.. وابتسامته الساخرة التي يسبني بها..

انها تطردني هذه الابتسامة من أمامه، فاستدير بذلةً ومسكنة وأخطو إلى الباب وأنا أحس كأني كلب مهين، قد التصق ذيله بين فخذيه وطأطأ رأسه، وراح يبحث عن مخرج له من مأزق عويص.. وقد يتكرم أحياناً فيسألني بصوته الأجش الكريه، وهو يزن كل كلمة يبصقها من فمه الملتوي: «ماذا تريد يا محفوظ افندي.. قل.. ماذا تريد..» وأحاول أن أقول شيئاً ما، أحاول أن أبرِّر دخولي مكتبه، أحاول أن أذكر أن ثمة أخطاء في الحسابات.. وأن بعض الكُتّاب لا يأبهون.. انني أحاول.. وأحاول..»

وتنهض ألف عقبة تعترض مخارج النطق في فم محفوظ افندي. فحذاؤه يخنقه، وهو لا يجد سبيلاً إلى الراحة معه.. إنه ضيق.. ضيق حتى لتلتهب فيه قدماه.. وهو يكره جاره البدين صاحب الكرش الذي يقيم في غرفة ملاصقة لغرفته، ويسير وكأنه يتدحرج ولا ينفك يتجشأ.. وهو لا يدري لماذا يقرأ أول ما يقرأ، أخبار الوفيات في صحيفته اليومية. انه يستفتح نهاره بها: وفاة فاضل.. وفاضلة فاضلة.. كل يوم وفيات، لا تخلو منها الصحف أبداً.. بعضهم أصدقاؤه القدامى.. وقد تراخت الأيام بينه وبينهم منذ دهر طويل.. وها هو الموت يتخطفهم واحداً واحداً.. انهم يرتاحون واللّه.. وما جدوى نكد العيش وبؤس الحياة؟

وَخَدم الشركة لماذا تراهم يناصبونه العداء؟ انه يلمحهم يتغامزون عليه، وترفّ على شفاههم الحقيرة ظلال ابتسامات هازئة.. ولا يكلف أحد منهم نفسه حتى مشقة الرد على سؤال يسأله.. وفي أحسن الأحوال يحظى بجواب فاتر من أطراف الشفاه.. لا يمكن أن يكون واهماً.. انهم يتعمدون أن يهينوه باستمرار.. أتراهم يثأرون بذلك لأنفسهم من هوانهم أمام الآخرين؟ «حتى تحية الصباح إذا ألقيتُها على أحدهم وأنا أدخل غرفة مكتبي، لا يردها.. ويظل جالساً بوقاحة.. وقد يتشاغل يطرد ذبابة عن أرنبة أنفه.. ولست بالطبع وحدي في غرفة المكتب..

انها ليست غرفة.. هي قاعة لسبعة موظفين.. ولكل منا طاولة صغيرة وأضابير مكومة فوقها، وأوراق وأوراق لا عد لها.. تروح وتجيء.. ولا بد من مراجعة الأرقام ثم التأشير بالقلم الأحمر هنا وهناك.. وقد يتحمل الانسان هذا كله والقرف يملأ صدره.. والعرق اللزج يَتفصّد من جبهته.. حسن.. ولكن كيف يمكن أن يتجنب الانسان تلك النظرات.. نظرات الستة الآخرين؟ بعضها يحاول أن يعرّيني وينفذ إلى أعماقي كرؤوس السهام.. وبعضها ماكر خبيث.. لم أرَ عيوناً تبتسم ساخرة كهاتيك العيون.. ان فيها منتهى الزراية منتهى الامتهان.. وبعضها كالجمر يتوهج بالكراهة والحقد.. انني أحسّ كأنها تريد أن تغتالني هاتيك العيون.. فأين أتوارى.. أين أختفي حتى لا تراني؟ ما من سبيل إلا أن أدفن وجهي في هذه الأضابير ساعات وساعات.. ولا ينفك الحذاء اللعين يشد ويشد على قدمي حتى ليكاد يزهق أنفاسي.. وفي النهاية أحمل اضبارة ما، وأستأذن بالدخول على رئيسي.. وتتلقاني نظرته الكاوية.. وأحاول أن أقول شيئاً ما.. وأن أشير إلى أخطاء في الحسابات.. ولكن الكلمات تقف في حلقي.. ويزداد ضغط الحذاء على قدمي.. ألا يمكن أن يعتقني؟»

في أكثر الأيام لا بد أن تتصدى لمحفوظ أفندي جارته المجدورة الشمطاء، ويوقفه أحياناً زوجها الأعرج:

- محفوظ افندي صباح الخير.
- صبا.. صباح الخير...

ويخطو الأعرج خطوة إلى أمام. ويميل إلى جانبه الأيمن ويقول:

- ألا يمكن أن تجد عملاً لابن أخي؟
- ألا يزال بدون عمل؟
- طبعاً.. طبعاً.. أملنا فيك.. خطه جميل...

وتتصابى الشمطاء وتقول:

- ولد عاقل.. ومهذب..
- طبعاً عاقل.. ومهذب.. طبعاً..
- تعال اسهر عندنا الليلة...

ثم تضع يديها في خاصرتيها وتتماجن وتعود تقول:
- وحياتك.. كأس عرق ممتاز. وسهرة حلوة..

ثم تغرق في الضحك بخلاعة، وتبدو أسنانها المستعارة، ويرتج بدنها وهي لا تنفك تردد ولا تكاد تسترد أنفاسها:
- وحياتك.. كأس.. عرق.. ممتاز..

ويمضي محفوظ افندي مشمئزاً، ساخطاً يوشك أن يتقيأ.. ويعاوده الاحساس بالتقيؤ حين يخرج من غرفة المدير، وإذ يعود إلى القاعة التي يعمل فيها، وإذ يجلس إلى الطاولة الصغيرة، وإذ تمتد يده إلى الأضابير فيدفن وجهه فيها هرباً من النظرات التي تريد أن تغتاله.. ويزداد ضغط الحذاء على قدمه..

«والله أمور وأمور.. تهاجمك من كل ناحية ولا تعرف كيف تتقيها.. كل من حولك يريد أن ينهش منك شيئاً حتى لا يبقى منك غير العظام.. والله لو علموا أن في نخاع عظمك ما يفيدهم لكسروا العظم وامتصوا النخاع.. الله.. الله.. الذئاب أشرف منهم.. فهي إذا شبعت عفّت واستراحت.. أما هم فلا يشبعون أبداً.. الأعرج يريد عملاً لابن أخيه.. والشمطاء المجدورة تلوّح بكأس العرق وتقهقه بخلاعة.. والمدير تطردني نظرته لكي أعود إلى الطاولة الصغيرة وأكوام الأضابير، فلا أتركها أبداً حتى تستنفد قواي كلها وتلتهم تفكيري.. والزملاء الغادرون.. يتربصون.. وتوشك عيونهم أن تغتالني.. والبقال لص، يعطيك جبنه الفاسد وعلب السردين القديمة والزيتون الأسود العفن والسجاير الرخيصة.. ويتقاضاك الثمن مضاعفاً، ويخدع ويغش، ويبتسم لك راضياً عن

نفسه، ومستهيناً بك، مسروراً بغفلتك.. وماذا تريد الشمطاء وهي تغرق في الضحك بخلاعة؟ هي الأخرى تريد أن تنتهبك كأنك صيد سمين.. موفور القوة والشباب... وتلوّح لك بكأس العرق والسهرة الطيبة..».

في الماضي البعيد كان محفوظ افندي يقرأ الشعر، وكان يهوله أن يظل المعري يشوه وجه الدنيا بقوله: أفّ من الحياة وأفّ مني... وكان يقول في نفسه أن المعري سخيف. فالحياة حلوة. والدنيا كلها خير ونعمى.. وما ذنبها أن يكون فيها ضرير لا يحسّ بها، ولا يرى جمالها؟ حسب المرء أن يطل صباحاً من نافذة حجرته ليرى البحر أمامه، وقد انبسطت صفحته الزرقاء حتى الأفق البعيد، فيهدأ ويطمئن ويحب الوجود، وينعم بالأنسام اللطيفة تهفو على وجهه، وكأنها شفاه من ورق الورد تقبله بخفة وحلاوة، وتسكب في أذنه كلمات الحب المهموسة.. في تلك الأيام البعيدة كان محفوظ افندي يقيم في دار عالية في الحي القديم الذي يواجه البحر، وصحيح أن الحي القديم حارات وأزقة ودروب، وصحيح أن دوره متلاصقة يساند بعضها بعضاً، وهي ذات مداخل واطئة بأقواس وحنايا، ولها دهاليز معتمة تفضي إلى باحات مكشوفة ومعرّشات ياسمين وحجرات وسلالم، إلا أنها تنهض قبالة البحر كتلة واحدة ذات طباق بعضها أعلى من بعض، وتتميز من بينها مآذن ثلاث، وفي الطرف الغربي كنيسة اللاتين..

«هناك كانت دارنا، وكان الخارج إذا انعطف إلى اليمين قابلته الكنيسة وسورها من القضبان الحديدية وحديقتها الصغيرة وبابها الكبير، وما اشتهيت يوماً أن أكون رساماً إلا لأرسم حيّنا كما رأيته دائماً من الشاطىء أو من بواخر شحن البرتقال التي كانت ترسو في عرض البحر.. كانت واجهات الدور والشرفات الضيقة والنوافذ الصغيرة والمآذن والقباب تغتسل في ضوء الشمس، وتظل تتألق طيلة النهار، وكان يخيل إليّ أن مئات النوافذ عيون لا تحصى ولا تنفك تحدق في المياه الزرقاء والسفن الراسية، ومراكب الصيد الشراعية تلوح عند

الأفق، وكأنها طيور البحر ذوات الأجنحة العريضة الخفاقة... .

وكنت أسمي غرفتي الخاصة «العليّة» فقد كانت وحدها تؤلف الطابق الثالث، وكانت لها شرفة تطل على البحر ونافذة واحدة، وساحة شرقية صغيرة مبلطة تقع خلفها، ويؤدي إليها باب من داخل الحجرة، حيث كانت أشيائي كلها ومعها كتبي الكثيرة. وكنت في تلك الأيام أحب الخمر، وأحب اللهو، وأحب الكتب، ولا أمنح مودتي إلا لصديقي درويش.. ليتني ما عرفته.. كان نقيضي في كل شيء.. وكان لا يحب الكتب أبداً. وكنت أفكر دائماً اني سأنجح يوماً من الأيام في اجتذابه إلى بعض القيم الخلقية.. وكان هو يضحك من غفلتي حتى يستلقي على قفاه ثم يقول: رح في داهية... انت وقيمك الخلقية..

وكان درويش مرحاً إلى آخر حدود المرح، وكان يخيل إليّ أنه يقبل على الحياة فيعب من لذاتها كأنه يوشك أن يفارقها بعد لحظات فراقاً لا رجعة بعده.. وكان لصاً هاوياً يسرق الملاعق الفضية والسكاكين والفوط وآنية الزهر من المطاعم والفنادق والمقاهي.. حتى امتلأ بها بيته.. وما كنت أدري كيف كان يفعل ذلك وهو معنا.. وذات يوم سرق زجاجة الويسكي من غرفتي.. جاء يهنئني بعيد. وسكبت له ولي بعض الخمر وأعدت الزجاجة إلى موضعها في الخزانة البلورية الصغيرة. وأغلقتها بإحكام. وقد شرب كأسه ومضى.. وفي عصر ذلك اليوم التمست الزجاجة فلم أجدها.. لا أدري كيف سرقها.. وفي اليوم الثاني ذهبت لزيارته فأخرج الزجاجة وصب لي كأساً منها وهو يقهقه.. وجاء يوم سرق فيه الفتاة التي أحببتها... ».

كانت زهية تدير رؤوس الكثيرين في حارة الكنيسة وفي الأزقة المتفرعة عنها، وكان أهل الحارة يسمونها «الالمانية» فقد كانت زرقاء العينين زرقة عميقة محيرة، شقراء الشعر، بيضاء البشرة مع حمرة خفيفة شائعة في إهابها كله. وكانت مقدودة هيفاء، ولم تدخل مدرسة قط. كانت كشعلة النار في الحارة، تثير

الفتنة، ويحتدم بسببها القتال بين البحارة الشبان. ويبلغ بهم الخصام حد استعمال الخناجر والمدي، ولكنها كانت لا تحب أحداً غير محفوظ افندي الذي يرتدي الملابس الفرنجية، ويغدو مع الصباح إلى عمله الحكومي، ويقيم في العلية ويقرأ الكتب، وليس له شاربان كبيران يبرمهما بين حين وحين.. ولا شروال فضفاض من الجوخ لا ينفك يعنى به، ولا شملة من الحرير يديرها حول خصره، ويسير مزهواً بها في أزقة الحي ودروبه... .

في تلك الأيام كان محفوظ افندي شاباً ظريفاً حقاً.. وكانت عيناه الصغيرتان خالصتي السواد. وكان رأسه يزدان بشعر غزير يتأنق في تصفيفه وفرقه، وقد أجهد نفسه بالرياضة البدنية المستمرة حتى تخلص من بعض شحمه ولحمه، وغدا رشيقاً خفيف الحركة، وكان حذاؤه مجلواً أبداً، وربطة عنقه من الحرير المشجر الزاهي، وقد أحبته الالمانية حباً ملأ قلبها وملك عليها أمرها.. وكانت تنظر أوبته من عمله فتتصدى له في الشباك أو على باب الدار، ولا يكاد يلمحها حتى تنفلت هاربة، داخل الدار، وقد أبقت في الهواء من عطرها وأصداء من رنين ضحكتها العالية.

«كانت تحبني إلى حل الوله.. وكانت بعد أن ينام أهل الحارة تصل إلى العلية متنقلة من سطح إلى سطح، وهي حافية القدمين، وليس على بدنها سوى غلالة رقيقة، فترتمي بين ذراعي وتروح تقبلني بجنون. وتطوّق عنقي بذراعيها.. ثم تهدأ وتستكين وتشرع تحدثني وتروي لي حكايات من الحارة. وكانت على الخصوص تحب أن تتحدث بما يقع بين امرأتي جارنا بائع «الدندرمة» والمرطبات في السوق من خصام لا ينقضي، وغيرة مشتعلة أبداً في صدر الاثنتين، وأحابيل ومكايد تنصبها الواحدة للأخرى.. ويحار بائع الدندرمة بينهما ويعلو زعيقه وتتدفق الشتائم من بين شدقيه كالحمم.. وهكذا كل يوم.. وكل مساء.. وتضجّ زهية ضاحكة وتصفق بيديها وتحتضني من جديد، وتمسح وجهها بوجهي ولا تنفك

تسألني بإلحاح: «قل.. قل.. هل تحبني؟..» وكانت ترقد حيث هي، فتضع رأسها على ركبتي وتغفو مستسلمة هانئة، كأنها قطتنا لولو ذات الشعر الطويل الجميل.. إيه.. تلك الأيام ما كان أحلاها!

لم يكن أحد في الحارة يعلم بما بيني وبين زهية.. ولا أدري كيف علم بذلك صديقي درويش وحده. انه الشيطان نفسه.. أدهشته علاقتنا في أول الأمر. وأيقن أن هناك أسراراً كثيرة أخفيها عنه وانني رجل ماكر.. وكان يضع رجلاً فوق رجل ويجذب من سيجارته نفساً طويلاً ويهز رأسه ويبتسم ويقول: «أين وجدتها.. انها والله جوهرة نفيسة.. تنعم بكل هذا الحسن الباهر.. ولا تقول شيئاً؟ عجيب والله.» وبدأت أخشاه.. كنت أقرأ في عينيه أنه غدا ينطوي على أمر يدبِّره.. وكان يجتر ما سيفعله اجتراراً.. كنت أفاجئه وهو يصوِّب إليَّ نظرة طويلة عميقة، ملتهبة، فتزداد خشيتي.. ولكن سرعان ما اطمئن إلى اني أقوى منه. وانني لن أدع له مجالاً يغافلني منه.. ثم أتذكر انه لص.. وأن حب الاستيلاء على ما للآخرين شيء في دمه.. وانه كان خليقاً أن يكون من أشد اللصوص سطواً وفتكاً لولا رحمة الله به.. كانت سرقاته الصغيرة تبدو لي كأنها رموز لما انطوت عليه فطرته.. وكانت مبالغته في المرح تنم على مبلغ استهتاره.. كنت أشعر بقوتي ومع ذلك أخشاه، وأراقب حركته وسكناته. ومع ذلك أحس أنه سيغافلني ويضرب ضربته..»

قوة صديقه درويش كانت كامنة في دهائه، وجرأته كانت منطوية في خبثه ومكره وخططه. ومنذ اللحظة التي أحسّ فيها محفوظ افندي بخوفه من صديقه بدأت هزيمته، لقد أضاعته لحظة الخوف.. وفي هذه الأثناء كان درويش يتودد لزهية الجميلة، ويظهر لها الرقة ويخاطبها مخافتاً من صوته، وتخرج الكلمات من فمه تقطر حلاوة.. وكان يهديها مرة زجاجة عطر ويرثي لصديقه المصاب بداء النسيان. ويهديها مرة منديلاً مخرماً زاهي اللون.. أو عقداً من البلور المتلألىء..

وكان يفرح ويضج مرحاً كطفل غرير كلما رآها تتزين ببعض هداياه.. وقدم لها ذات يوم سواراً من الذهب الخالص. قدمه بجرأة واعتداد ووضعه بنفسه في معصمها.. وجعل يتأمله كالمبهور.. ثم أهوى على معصمها فقبله قبلة ذابت فيها روحه.. وطارت زهية من يدي محفوظ افندي.

«كان يغافلني ويجتمع بها. كان يتلصص في زوايا الأزقة والدروب ويقابلها ويصب في أذنيها عباراته التي تقطر حلاوة.. ويقدم لها الهدايا و.. يبث في صدرها سمومه، وكان يرثي لحالي ويلتمس لي الأعذار.. ثم جعل يحط من شأني.. ويشّوهني في نظرها بكلمات مبطّنة، موحية، غلابة، ثم تحول إلى تحريضها.. وأخذ يلهب مشاعرها ويشعل نار حقدها ويغذي خيالها بمباهج خارقة.. لقد وقعت تحت تأثير سحره.. وبدأت تجفوني.. وتباعد ما بيني وبينها.. انقطعت عني تماماً.. وكانت تفر كالمذعورة إذ تلمحني.. لقد حدثني بما فعل وهو في حالة سكر يتطوّح.. ويقهقه بوقاحة، كان يقول: «يا سلام.. يا سلام.. كانت جوهرة في يدك...» لماذا لم أقتله ساعتئذ؟ لماذا لم أطبق على مخنقه بيدي الاثنتين حتى تزهق أنفاسه؟ لماذا وقفت أسمع كلماته؟ ومرت الأيام.. ما كنت أدري كيف تمر، كنت أجلس في العلّية ساعات وساعات قابعاً في أحد أركانها، وكنت لا أرى شيئاً ولا أحس بشيء».

لقد انهار محفوظ افندي في تلك الأيام.. كانت لولو قطة البيت تدخل غرفته وتدور بعينيها في أرجائها وتروح تموء وكأنها تناديه.. وكأنها تريد إيقاظه.. وفي النهاية كانت تقترب منه. وتتمسح به. وتلعق له يديه ثم.. ثم ترقد عند قدميه.. وكان هو يمر براحته فوق رأسها ويداعب أذنيها بلطف ورقة متناهية. ويتحسس شعرها الطويل.. دون أن يعي ما يفعل.. دون أن يدرك أن يديه تتحركان وتقومان بعمل ما.. وقت طويل مر وانقضى وهو على تلك الحال.. كان يحدث نفسه أحياناً.. ويبتسم أحياناً.. بل يضحك ملء شدقيه.. ثم يعود

إلى صمته وإلى تحديقه الطويل المستغرق.. وأخيراً ارتكب جريمته بهدوء وعدم اكتراث، كأنه يشتري علبة سجاير من بقال الحارة.. قتل صديقه درويش بحركة عفوية، كأنّ القتل أمر طبيعي ولا غبار عليه. خرج عصر ذلك اليوم بعد انكسار حدة القيظ وسار كالحالم واخترق الأسواق لا يعنيه من أمرها شيء، وصعد إلى مقهى الظريفية بخطى ثابتة، وكان صديقه درويش جالساً مع صحبه يلعب النرد ويضحك مسروراً، واقترب منه محفوظ افندي حتى وقف إلى جانبه يكاد يلصق به، وأخذ يتأمله هنيهة. وانتبه درويش له فكف عن اللعب. وصمت الصحاب.. وبهدوء بالغ انتشل محفوظ افندي مسدساً من جيبه وأفرغ ثلاث رصاصات في رأس صديقه وألقى المسدس على أرض القهوة، وأدار ظهره وخطا لا يحس بعاصفة الرعب التي أحدثتها جريمته...

«بقيت محتجزاً مدة غير طويلة.. ولقد سمعت اني اتهمت بجريمة قتل. وان الذي قتلته هو صديقي درويش.. هذا غير صحيح.. انني لم أقتل أحداً.. ولا يمكن أن أقتل أحداً.. لقد كنت دائماً يصيبني الذعر من مجرد السماع بجرائم القتل.. ان الذين يقتلون لا بد أنهم يخرجون عن عقولهم.. ولكن.. قيل لي انني أمضيت زمناً في مكان آخر.. أفأكون قتلت صديقي درويش وأنا في حالة جنون؟ إنني لا أذكر شيئاً. وانظر في المرآة فأرى وجهاً لا أكاد أعرفه، وأرى عينين مغبّرتين تشوبهما خطوط حمر، ورأساً أصلع.. وقامة عجفاء.. وكأنني أفقت من حلم، ربما استمر سنين طويلة.. أين كنت كل تلك المدة. هل كانت شهوراً، هل كانت أعواماً مديدة؟ أتراني كنت هناك.. حيث يقولون؟ إن موجة من رعب تجتاح بدني كله كلما تصورت انني كنت معهم.. مع أولئك المنبتّين.. وماذا كنت أفعل وأقول؟ وكيف كنت أتصرف.. وكيف كنت أعامل... هل كنت أضرب ويجلد الماء البارد بدني.. وأقيد؟.. أم كنت هادئاً ساكناً لا أحوجهم إلى اصطناع العنف والقسوة؟ لا أدري.. لا أدري.. ثم أين هي زهية.. وماذا حل بها؟ ترى لماذا أفرجوا عني ما دمت قاتلاً؟ ربما لأنها كانت جريمة جنون.. ولم أكن مسؤولاً.. هذا

هو التفسير الوحيد.. إيه.. اف من الحياة واف مني».

وخرج محفوظ إلى الحياة كواحد من أهل الكهف. الدنيا غير الدنيا، والناس غير الناس.. وجوه قليلة استطاع أن يعرف أصحابها. أما هو فلم يعرفوه.. وكانت زهية قد أصبحت قصة تروى.. وماذا ترى يمكن أن يكون مصير ابنة الأزقة وربيبة حارة درج القلعة بحسنها الباهر وسط رهط من البحارة ذوي الشراويل الفضفاضة، أولئك الذين يفلّون الحديد، ويصرعون البحر، ويعرف الواحد منهم في ساعات الحرج كيف يغمد سكينه في صدر خصمه.. ماذا ترى يمكن أن يكون مصيرها وهي تروح وتغدو ولا ترى غير بائع الفطائر الأعمش يمصمص شفتيه كلما وقعت عينه عليها، وتلتهمها عينا محمد الكلش بائع الفول المدمس.. وتعريها نظرات أبو غرّة اسكاف الحارة وينفث سمومه في بدنها، وهو لا يني يطرق نعاله ويردد بصوت منغوم: «اسم الله.. اسم الله..».

وظفته شركة الملاحة الأهلية ليجمع أرقاماً ويطرح غيرها من الصباح إلى المساء، وهو كالضائع بين حشد من المستخدمين، وأكوام من الورق، والآلات الكاتبة لا تنفك نقراتها تقرع أذنيه وتجلد أعصابه وتروعه، ويقع في نفسه أن عيون زملائه تتلصص عليه، ونظرة مديره تهينه وتذله وتطرده.. والحذاء اللعين يضغط ويضغط على قدميه..

وفي هذا الصباح فتح صحيفته اليومية ووقعت عيناه على خبر عند عمود الوفيات فتسمرتا عليه:

«كانت المغدورة، وهي المعروفة بزهية، امرأة مشبوهة، وقد وجد البوليس جثتها مشوهة بعدة طعنات في نحرها وصدرها، وقد مضى على وفاتها بضعة أيام في غرفة نومها.. والبحث جاد لمعرفة القاتل..»

ولما خرج تصدت له جارته المجدورة الشمطاء ويداها إلى خاصرتيها ومن ورائها زوجها الأعرج:

- محفوظ افندي.. صباح الخير..
- صبا.. صباح الخير..

وخطا الأعرج بمشقة خطوة إلى الأمام، ومال إلى جانبه الأيمن وقال وهو يتحسس شعر ذقنه:

- ألا يمكن أن تجد عملاً.. لابن أخي؟
- ألا يزال.. بدون عمل؟
- طبعاً.. طبعاً.. أملنا فيك.. خطه جميل..

وراحت الشمطاء المجدورة تتصابى وتقول:

- ولد عاقل ومهذب..
- طبعاً عاقل.. ومهذب.. طبعاً..
- تعال اسهر عندنا الليلة..

ثم أطلقتها ضحكة فاجرة:

- وحياتك كأس عرق ممتاز.. وسهرة حلوة..

وبدت أسنانها المستعارة وارتجّ بدنها المتهالك وهي لا تنفك تردد:

- وحياتك.. كأس عرق.. ممتاز..

وقال محفوظ افندي وقد تكاثف اغبرار عينيه وتوهّجت فيهما الخطوط الحمر:

- كأس عرق.. ممتاز.. طبعاً.. طبعاً..

في تلك الليلة أفرغ في جوفه كؤوس العرق الممتازة.. وكان كأنه لا يرى

المساحيق الكثيرة التي ركّمتها الشمطاء فوق وجهها. ولا الكحل الأسود الكثيف حول أجفانها. وكأنه لا يسمع ضحكاتها الخليعة ولا تغريه الوردة الحمراء المتوهجة الموضوعة في كوب ماء بين كؤوس العرق وصحون المازة، وإنما كان همّه أن يشرب ويشرب ويتمزز قطع الخيار المقشور، ويقهقه وهو يضرب بكفه على فخذه، ولا يكاد يسترد أنفاسه حتى يروح يقول كمن يهذي:

– أنا قتلتها.. أنا.. أنا..

وكأنما تفيق الشمطاء من حلم فتسأله متلهفة:

– أنت قتلتها.. من هي..

– أنا قتلتها والله.. رفعت يدي بالسكين هكذا.. وأغمدتها في نحرها.. انها الألمانية ألا تعرفونها...؟

ولكن الأعرج يتضاءل ويدخل بعضه في بعض من الخوف ويقول:

– لا تمزح هكذا يا محفوظ افندي.. سلامتك.. لا تمزح هكذا..

ويجيبه محفوظ افندي وهو يصوّب إليه نظرة تتوقد:

– ألا تصدق أيها الوغد.. لقد قتلتها والله العظيم.. أغمدت السكين في نحرها هكذا.. أقول لك هكذا.. وانتهى الأمر.. لعنة الله عليك وعلى أخيك وابن أخَيك...

اضرب رصاص

الكلاب لا تنفك تدور، ضالة مؤرقة في أزقة القرية ودروبها المتعرجة، ثم تروح تنبح القمر وقتاً ما، وتعود من جديد إلى صمتها وتشردها ولغوبها. وتظل تتشمم زوايا الأزقة وأركانها باحثة بأنوفها عما يمكن أن يشبع جوعها.. وحميدان في تلك الليلة، يصغي وحده إلى نباح الكلاب، ويحس أن قريته - الثنية - قد استغرقت في نومها منذ طويل.. ولولا الضياء الباهت يرسله القمر من وراء ستار رقيق شفاف من غيوم الخريف في أوائل أيامه لابتلع الظلام قريته في تلك الليلة، حتى لا يكاد يبين منها شيء، إلا أن ينداح الغيم، وتمحي آية الليل وينجلي الأفق الشرقي عن مطلع فجر جديد.. وعندئذ يسري دبيب الحياة في أوصال القرية وتتصايح الديكة ويعلو ثغاء الشياه، ويتردد في الزرائب خوار البقر، ويتمطى أهل القرية في فرشهم قبل أن ينهضوا ليواجهوا المجهول في يوم جديد من حياتهم.

وحده كان يقظان الليل بطوله.. وكان أول من نهض فعب ملء معدته ماء، وغسل وجهه وأخذ يرتدي مرقّعاته... .

انها صورة آخر ليلة أمضاها في الثنية.. لا تزال ذكراها في أعماق روحه، كأنما قد اختزلت فيها جميع أيامه ولياليه.. وحتى في هذه اللحظة، وهو جاثم كالنسر فوق أسوار القدس ويده تقبض بقوة وعزم على بندقيته، وعيناه الشاخصتان تتوقدان وأذنه المرهفة تتسمع بحذر، حتى في هذه اللحظة تمر قريته

في لوح مخيلته تبرق كالوميض الخاطف مرة، ومرة تتبدى له على هينة ومهل بجميع تفاصيلها.. حتى كوز الماء المركوز في زاوية الغرفة يراه بلونه الترابي، ويكاد يمد يده ليتحسسه ثم يتناوله ويروح يعبّ منه كما كان يفعل دائماً.

كان بعد تلك الليلة، سيواجه مصيراً جديداً، سيسافر بعيداً، وسيكون سفره طويلاً شاقاً، إلى تلك المدينة الكبيرة التي ربما استشعر فيها غربة.. ووحشة.. وتوجساً.. انها ليست «الكرك» على أي حال.. كان دائماً يخطو إلى الكرك بخفة ونشاط، ويقطع المسافة القصيرة بينها وبين قريته وهو يتغنى بصوته العريض:

هه.. هه.. يا بو قرون مجدّلاته

اضرب رصاص.. خللي رصاصك صايب

وكانت الكرك تلهيه عن نفسه، فيقف ذاهلاً أمام مدرستها الكبيرة، ومسجدها العظيم، وقلعتها الشاهقة. ومتاجرها العديدة.. ثم يعود إلى الثنية، ويقف عند حافة الجبل لكي يشاهد الكرك، من جديد، على مرمى العصا منه، كتلة واحدة، جاثمة فوق مرابضها في خط مستعرض، وتلوح له مئذنتها العالية، وقبة جامعها، وأسوار قلعتها ذات الطوابق السبعة فيخشع قلبه، وتمتلىء جوانحه خشية رهيبة، ويسبح بحمد الله، ويستشعر الحنين إلى «صبحية» ابنة عمه، وتتمثل له عيناها الكبيرتان السوداوان، ونظرتها الحلوة إليه كلما عاد من حراثة يوم كامل في السهل الضيق الذي يمتلك بعضه هو وأبوه واخواه..

أما عمان، عمان التي سيذهب إليها مخلفاً وراءه الثنية.. فكيف يكون أمره فيها؟ وعمان هي البعد عن الوالد الشيخ، وهي فراق صبحية، وهي أن لا يعود يرى محمداً شقيقه الأوسط الذي وفقه الله وتعلم وأصبح أستاذاً.. عظيماً.. في

المزار.. وهي أن يترك شقيقه الآخر، الصغير، يكد مع والده في استنداء الأرض التي تسخو حيناً فتعطي إلى أبعد حدود العطاء، وتبخل أحياناً فلا تسمح إلا بأقل القليل.. وكائناً ما كان شأن هذه الأرض، فقد كان حبها يملأ صدره دائماً، وصحيح أنه يتعب كثيراً، وينحني فوق محراثه البسيط يشق بـه التربة أثلاماً متوازية، متجاورة، من الفجر حتى غروب الشمس، وصحيح أن حبة القمح لا تعود مع اخوانها الكثر تملأ راحة اليد إلا بعد العناء الطويل، ولكن لهذه الأرض فيه منها مشابه اللون وصلابة العضل وقوة الشباب.. هي أرضه.. هي وطنه.

وما يدري كيف حدثته نفسه أن يترك الثنية.. حاشا أن يكون ذلك جحوداً، وحاشا أن يكون في نفسه مَوْجدة.. حتى في الأيام الكالحة.. في أيام المحل.. في أوقات الضيق، كان يحنو على أرضه، ويخيل إليه أنه يسمع في شرايينها نبض الحياة.. وإنما هو تصور نفسه ذات يوم ببزة الجندي، وعلى كتفه بندقيته، فخلبت الصورة لبّه، وتساءل في أول الأمر: لمَ لا أكون جندياً؟ ورأى من حوله شباناً مثله أصبحوا جنوداً. كان بعضهم يأتي إلى الثنية، وبعضهم يتابع سيره إلى الكرك، وإلى المزار، وإلى عيّ، وذات راس، وكان يقرأ في عيونهم ازدهاءهم ببزاتهم العسكرية، واعتزازهم بسلاحهم.. وعاد السؤال يلح على خاطره: ماذا لو أصبحت جندياً.. مثلهم؟ وانتهى تردده إلى تصميم وإرادة.. أخوه المعلم دبر له الأمر.. هو الذي سعى وقدم الأوراق للقيادة.. ثم جاء الطلب، وأصبح الحلم واقعاً.. ولم يغمض له جفن في ليلته تلك.. لقد كانت آخر لياليه في الثنية.. وما كان ليتصور أن فراقها سيشق عليه إلى هذا الحد.. وما كان ليخطر له أن الشعور بالاغتراب سيلمّ به حتى قبل أن يخطو خطوة واحدة للخروج منها... .

وقبل أن تشرق الشمس كان قد استعد.. فقبّل يد والده الشيخ و.. ومضى.. ومن نوافذ السيارة العتيقة كان لا ينفك يطل ليرى الثنية مرة أخيرة مستقرة فوق رابيتها ومن حولها سهلها، وهو مَوْرِدُ رزقها، تؤدي إليها سفوحها المريعة وقد

رصّعتها أشتات زهر بري، فاختلط الأحمر بالأزرق والأصفر فوق مطارف خضر تبهر العين حقاً.. وكتم حميدان غصّة في صدره، واستشعر الأسى العميق، وود لو أنه بقي في قريته لم يبارحها.. ولكن صورة الجندي وعلى كتفه سلاحه عادت تتراءى له وتملأ بهرة خياله.. ومضت السيارة تصعّد بين الجبال مجهدة، لاهثة، وانعطفت إلى اليمين فاختفت الثنية وبقيت الكرك وحدها تلوح له من بعيد، ثم أخذت هي الأخرى تختفي شيئاً فشيئاً حتى لم تعد عينه ترى غير رأس مئذنتها المستدقة، ثم توارت هي الأخرى، وانفسح شريط الاسفلت للسيارة المتعبة لكي تتم رحلتها إلى عمان.

هكذا غادر قريته بعد أن أرق الليل بطوله.. وفي عمان تلقفته أيدي أطباء المعسكر. هذا ينصت إلى دقات قلبه، وذاك يجسه وينظر في عينيه وأذنيه ويدق له ركبتيه، والآلة الكبيرة تصور صدره... ثم وجد نفسه يرتدي البزة العسكرية.. غير أنه يسير بحذائه الضخم فيحس كأنه يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً.. وتسقط يداه إلى جانبيه فلا يدري ما يفعل بهما.. وأين يواريهما.. كان يبدو له كأنه ضائع في صحراء مترامية الأطراف..

ولكنه استفاق ذات صباح فإذا هو في طابور المتدربين.. وقد تناولته الأيدي الماهرة بالصقل والتدريب، فلا يسمح له أن يسير إلا بحساب، ولا يخطو خطوة إلى الأمام إلا بحساب، ولا يتأخر غيرها إلا بحساب، ولا يرفع يده إلا بحساب، ولا تندّ عنه حركة إلا بحساب.. انها أيام طويلة عاشها في ظل نظام قوي، صارم، حتى غدا كأنه قطعة دقيقة محكمة الوضع في آلة كبيرة تتعاون كل أجزائها على اداء مهمتها في غاية البراعة والاتقان، ثم علموه الرماية، غدا يصيب الهدف بأيسر جهد، ودربوه على الزحف في السهل، والوعر، وفوق الحجارة والصخور والأشواك..

وكان يحسب، كل ساعة، أنه سيموت لا محالة.. وجاء يوم وجد نفسه فيه

أنه لم يمت.. وإنما هو أصبح خفيف الحركة نشيط الهمة، بارع الخطو، مجدول العضل منتصب القامة كأنه قطعة من صلب، وغدا يحسّ أنه رشيق منسجم في زيه العسكري، وكانت حقيقته ببزته العسكرية وبندقيته فوق كتفه أجمل وأروع من صورته التي كانت تراود خياله من قبل.. وأدرك أن الجيش العربي هو الذي صنع منه إنساناً جديداً رائع الطلعة، مهيب النظرة جبار القلب والساعد.. يومئذ كتب لوالده الشيخ رسالة طويلة ومعها صورة الجندي الذي كان يحلم أن يكونه في يوم من الأيام: «صورتي تذكار يا والدي. أنا مشتاق لكم. لا بد أن أخي أصبح مدير مدرسة المزار. كيف حالكم جميعاً. أنا بخير والحمد لله. إني أراكم في أحلامي. وأرى البقرتين والعنزات الخمس وأرى صبحية. سلموا لي عليها. أرسلت إليكم خمسة دنانير. اشتروا بدينارين منها هدايا لصبحية من الكرك. الموسم طيب هذه السنة. وأرضنا في سهل الثنية لا بد أنها أعطت خيرها بسخاء. قبلوا - عني - تربتها السمراء. أنا ذاهب في فجر الغد إلى المعركة وأحتاج إلى رضاك ودعائك يا والدي.. الخ..».

وقد خاض المعركة مع رفاقه، بل خاضوا جميعاً معارك في باب الواد، ومشارف القدس كي يذودوا عن المقدسات، ولكي يحولوا دون أن يذبح اليهود أطفال العرب ونساء العرب وشيوخ العرب، كما فعلوا ذلك دائماً في تاريخهم الملطخ الطويل.. كانت صقور الجيش العربي قد هبت مع الفجر، وكانت الجبال والسفوح والوهاد والسهول تشهد جنود هذا الجيش وهم ينفرون خفافاً إلى مدرعاتهم ومصفحاتهم وقوافل سياراتهم تسيل بها الوهاد والشعاب إلى أرض المعركة.. انهم لن يلبثوا أن يعملوا أحذيتهم في أقفية الأوغاد.. أجل فلن يذبح اليهود أطفال القدس ونساءها وشيوخها. لن يمثّلوا بجثثهم كما فعلوا في دير ياسين.. بهذا كان جنود الجيش العربي وضباطه يحدثون أنفسهم وهم يمدون أبصارهم إلى الأفق البعيد.. في حين كان هو، حمدان، يرى نفسه بعين خياله وهو ينطلق من الثنية إلى الكرك مشياً على قدميه، ولا ينفك يردد بصوته العريض:

هه هه يا بو قرون مجدلاته.. اضرب رصاص خللي رصاصك صايب.. وسيحتدم القتال، وسيتاح له أن يضرب رصاصه، وسيستقر هذا الرصاص في صدر الأوغاد.. لا يخطئها أبداً... .

انه لا يستطيع أن يتصور كل معركة خاضها في وضح النهار أو في جنح الليل البهيم، فوق الهضاب والتلال، أو في السهول المترامية.. لا يستطيع أن يتصور كل معركة خاضها إلا انها حديد يتلظّى، ونار تستعر، وهول يعصف وينصبّ على الأوغاد ويذهب بعقولهم، فيقذفون نيران أسلحتهم الكثيرة دون وعي كما يفعل الجبناء، ويجأرون مستغيثين قد هلعت قلوبهم، وانخلعت أفئدتهم، ولا ينفكّون يجأرون ويرمون بجمعهم في كل اتجاه، كأنها تؤودهم، وكأنما هم يريدون أن يتخففوا منها لا أن يقاتلوا ويصمدوا للهول النازل بهم ويقابلوا النار بمثلها.. أجل. هكذا كان يختلط قصف المدافع وهدير الرصاص ودوي القنابل وصراخ الرعاديد المستغيثين.. بسحب الدخان والنيران المندلعة ألسنتها إلى عنان السماء، حتى كان الليل يستحيل قطعة من الجحيم يزغرد فيها اللهب وتنقض صواعق الهلاك وتخطف بروق الموت.. وكان يدور في خلد حميدان أن جندي الجيش العربي، جاثماً وراء مدفعه الرشاش أو رابضاً وراء برج دبابته أو متنكّباً بندقيته، لا يمكن أن يماثله جندي، عينه الصارمة ينقدح منها الشرر، تفعل في قلوب الجبناء أكثر مما يفعله الرصاص ينطلق من فوهات البنادق، وقسمات وجهه التي كأنما قدّت من فولاذ تثير من الرعب في صدور الخرعين شذاذ الآفاق، ما لا تثيره النيران التي تؤج من حولهم في الميدان..

وهل يمكن أن ينسى ابان احتدام المعركة وقد أصيبت ساقه بشظية قنبلة.. وفقد بندقيته وأخذ يسير متخبطاً على غير هدى ودمه ينزف من جرحه العميق.. هل يمكن أن ينسى أنه عثر ساعتئذ بخندق قبع فيه ثلاثة من الأعداء.. فما كان منه إلا أن جرد خنجره بأسرع من لمح البصر، وصاح بهم صيحة زلزلتهم وجمّدت

أيديهم على سلاحهم. وما هي إلا أن انقضّ عليهم انقضاض النسر المحلق وهم يستغيثون ويرتعدون فرقاً فجردهم من سلاحهم وأعمل حذاءه الضخم في أقفيتهم.. واستاقهم أمامه جبناء أذلاء يقبّلون موطىء قدمه لكي يُبقي على حياتهم.. وقد عفّ عن الفتك بهم وسلّمهم لضابطه، وهو يحسّ كأنما كان هو المدجج بالسلاح وهم العزل.. الخائفون.. اللائذون في قرارة خندقهم.. كلا. لن ينسى هذا أبداً..

وقد برىء من جراحه، وسلمت القدس، ومقدساتها وبنوها، وأيقن هو أنها تربة واحدة، وأرض واحدة: في وهاد القدس ونجادها، وفي تلال الثنية وجبال الكرك ونابلس وسهول طولكرم وجنين.. تربة واحدة، وأرض واحدة، ووطن عربي واحد..

وها هو الآن جاثم كالنسر فوق أسوار القدس، ويده تقبض بقوة عزم على بندقيته، وعيناه الشاخصتان تتوقدان، وأذنه المرهفة تتسمع بحذر، ومن ورائه تنهض قبة الصخرة وبناء القيامة، وتعلو قباب ومآذن في كل مكان، وينام الناس مطمئنين.. لأن حميدان ورهطاً من رفاقه البواسل يحمونهم.. ويتطلعون من وراء الأرض الحرام إلى اليوم الموعود، اليوم القريب الذي يطهّرون فيه أرض العرب كلها من آخر أثر فيها للجبناء الرعاديد، الذين لا يستطيع أن يحميهم حتى السلاح الذي في أيديهم... .

وهو سيعود غداً إلى الثنية في إجازة غير طويلة. وسيقبّل يد والده الشيخ، ويضم أخويه إلى صدره، وسيسير مزهواً في أزقة الثنية ببزته العسكرية، وستراه صبحية وسيملأ عينيه من حسنها الأسمر، ومن قدها الممشوق وصدرها الراسخ وأنفها الصغير الأشم، والوشم الخلاب حول معصميها وذقنها... وستزفّ إليه في أيام اجازته. وسيتاح له أن يصافح أذنيه نبضُ الحياة في التربة السمراء... وسيقف عند حافة الجبل ويرسل بصره يستجلي الكرك الشماء، جاثمة فوق

مرابضها في خط مستعرض وتبهره مئذنتها العالية، وقبة مسجدها وأسوار قلعتها ذات الطباق السبع فيخشع قلبه، وتمتلىء جوانحه خشية وهيبة ويسبّح بحمد الله.. وسيهزه الشوق فيخف إليها ويقطع المسافة القصيرة بينها وبين الثنية وهو يتغنى بصوته العريض:

هه.. هه.. يا بو قرون مجدلاته

اضرب رصاص... خللي رصاصك صايب

إلا أنه، في هذه المرة، يعي تماماً معنى ضرب الرصاص، وكيف يجب أن يستقر في صدر الأوغاد.. لقد خبر ذلك مرة ومرة.. ومن جديد سيعود إلى مربضه فوق أسوار القدس يحميها مع رفاقه.. ويكونون جميعاً على موعد قريب.. قريب.. لاسترداد الأرض الطيبة.. هناك وراء الأفق الغربي.. فقد عيل صبرها.. وطال الانتظار... وما أشد حنينها إلى أبنائها السمر المغاوير... .

انتقام الجبّار

جلس وسط الثلج وخلع حذاءيه الضخمين، ثم راح يمزق عنهما الجلد بأظفاره وأسنانه، ولم يُبق إلا على النعلين، وقال في نفسه: إن هذا سيريحه ويتيح له حرية الحركة، ثم تناول الشال الكبير الذي لفّ به عنقه وقدّه من وسطه ولف بشطريه قدميه، وتحت كل منهما احدى النعلين. وغدا سيره أخف وأسهل، ولعل الأصح أن لا يقال أنه كان يسير، بل كان يتنقل بحذر وهو يضغط على كعبيه، ويرفع ساقيه عالياً كأنما هو يتقدم وسط مستنقع. وكان كلما خطا بضع خطوات يحس أن الجهد والألم يديران رأسه. وكان يجب أن يتوقف ويغمض عينيه ويستريح هنيهه إما مستنداً إلى شجرة أو جالساً وسط الثلج، وكان الدم ينبض بعنف في عروقه كلها.

وفي اليوم الثالث استيقظ مع الفجر، وهو يرتعد من البرد والحمى، ولما وضع يده في جيبه أحس بالقداحة التي أعطاه إياها زميله في السلاح، ذلك الرجل الطيب العطوف. كان قد نسي وجودها معه، وما كان ليخطر له على بال أنه سيحتاج يوماً إلى اشعال النار، وعلى الفور جرد شجرة السرو التي أمضى ليلته تحتها، جردها من أغصانها القريبة وألقى فوقها بعض القش وأضرم فيها النار من قداحته، وراحت الأعواد تحترق وتتقصف وسط اللهب، وشاع حول الجندي شيء من الدفء، فأحس بالراحة والاطمئنان والبعد عن جنود العدو الذين يطاردونه. وطافت في ذهنه ذكرى شجيّة ومدّ يده إلى جيبه الداخلي، وأخرج صورة لفتاة حسناء ترتدي ثوباً مزداناً بورود كبيرة مرسومة عليه، وقد جلست

مرحة بين الأزاهير الضاحكة. وتأمل الصورة طويلاً ثم عاد وطوى عليها المنديل بعناية وحرص، وأبقاها هكذا في راحة يده.. ومرت لحظات وهو لا يزال يحدق في الفضاء ثم أعاد الصورة إلى جيبه... .

وعند ظهر اليوم الرابع لم يكن الجندي قد تقدم أكثر من نصف ميل. وكان الإعياء قد بلغ منه حداً لم يكن ليستطيع معه أن يأتي بحركة دون أن يستجمع لها كل قوته وارادته. لم يعد في وسعه أن يقف، وكان يحس أن الأرض تميد تحت قدميه. وكان لا ينفك يقع منكبّاً على وجهه في الثلج بين كل خطوة وأخرى، فيظل ساكن الحركة على هذا الوضع، ثم يعود إلى النهوض ثانية ليتقدم بضع خطوات أخرى، وقرّ في روعه أخيراً أنه قد استنفد طاقته على الاحتمال، وأنه لن يستطيع أن يتحرك مهما تكن القوة التي تدفعه، وبدا له أنه لو تخاذل قليلاً وأذن لنفسه بالجلوس مرة فلن ينهض من بعد أبداً. وأرسل نظرة من حوله فرأى قريباً منه عند حافة الطريق شجرة سرو مثقلة بأغصانها الطريّة. وفي جهد خارق تقدم خطوة أو خطوتين، ثم تهالك مرتمياً فوق الشجرة. وأحس أن هذا المهاد من الأغصان الطرية قد أراحه قليلاً، خفف من ثقل جسمه على قدميه المتورمتين.

كانت بشائر الربيع بدأت تلوح لعينيه، وهو منذ طفولته كان يحب هذا الفصل من السنة حباً خاصاً. انه يحبه حتى في حالته المضنية هذه، وهو لا يزال يجرّ قدميه التالفتين بين الثلوج، وقد نهكه التعب والألم، وراحت المياه والثلوج والوحول تلتهم رجليه. انه رغم هذا كله يستنشق بملء رئتيه رائحة الغابة الرطبة المسكرة، ودون أن يختار الطريق الذي يسير فيه، ودون أن يُعنى بتجنب البرك والمستنقعات، طفق يخطو من جديد وهو يلتقط أنفاسه ويمد عصاه إلى الأمام ما أمكنه ذلك، ولا ينفك يسقط ثم ينهض، ثم يترنح ثم يعاود الاندفاع.. دائماً في صميم الغابة... .

وعلى حين غرة صافح أذنيه دويّ بعيد. لقد سمع شيئاً كأنه قصف المدافع،

فهو واضح حيناً، وغامض مكتوم حيناً آخر. فهل يكون هذا وهماً توهمه؟ واعترته رعشة قوية كما لو أنه سمع صوتاً حبيباً يهمس في أذنيه وسط هذا الصمت. ولكنه لم يجرؤ على أن يصدق أذنيه. ولبث جالساً مدة طويلة وقد اشرأب بعنقه وأرخى أذنيه.. كلا! إنه لم يخطىء، لقد هبت الريح حاملة إليه من جهة الغرب هزيم المدفعية. انه واضح تماماً دون أي ريب، انها انفجارات متتابعة لا تكاد تنقطع ولا تشبه في شيء تلك الطلقات القليلة النادرة المتكاسلة التي كانت تسمع في الأشهر الماضية على خط جبهة القتال، حيث كانت الفرق العسكرية مزروعة في استحكاماتها على الجانبين.

ولا شك في أنه صراع رهيب بين مدفعيتين، ولا ريب في أن خط القتال لا يبعد أكثر من اثني عشر كيلومتراً. ولا بد أن شيئاً ما قد حدث، فإن أصداء المدفعية التي يسمعها تؤكد هذا. أجل لا بد أن ثمة هجوماً يقابله دفاع مرير عنيد، وسالت دموع الفرح على خديه. ولم يستطع في هذا اليوم أن يخطو أكثر من مئة وخمسين خطوة وسط الثلوج المتراكمة... .

وعند الغروب توقف ووقع اختياره على جذع شجرة فجمع حولها قشاً وعيداناً يابسة، وأخرج قداحته وأعمل بها اصبعه مرة وثانية وثالثة. وأحس دمه يجمد في عروقه. لقد كانت القداحة خالية من البنزين هذه المرة. وراح يهزها وينفخ فيها. ولكن دون جدوى.. وهبط الليل. وكانت شرارات القداحة تتوامض وتنحّي الظلام عن وجهه بين الحين والحين.. وذاب حجر القداحة، ومع ذلك لم يستطع أن يشعل النار. وكان لا بد له أن يصل إلى شجرة صغيرة من أشجار الصنوبر، ولم تكن قدماه تستطيعان حمله. فخطر له أن يتكوّر على نفسه بأن يضم ساقيه بذراعيه ويتدحرج على هذا النحو. إلا أنه عاد فاستقر دون ما حركة. وراح يصغي إلى زمجرة المدافع ودوي الانفجارات، لقد أصبح هذا كله قريباً الآن. كان أوشك أن يستسلم لليأس لولا هذا الذي يتناهى إلى سمعه في صميم الغابة.

واستمر الجندي يزحف هكذا يوماً وربما يومين. لقد فقد الاحساس بالوقت، وكان أحياناً يستغرق في ذهول قريب من الإغماء، وأحياناً أخرى كان ينام وهو سائر، إلا أن القوة التي كانت تدفعه في الجاهد كانت من الفعالية بحيث يظل يزحف على مهل حتى يرتطم بشجرة وسياج، أو ينكبّ على وجهه في الوحل والثلج والماء. لقد كانت ارادته وأفكاره المشوّشة المتلاطمة تشرئب نحو غاية واحدة هي: أن يزحف دائماً ويتقدم.. يتقدم مهما يكن الثمن...

وأحس بالظمأ يفري أحشاءه، وشاهد بركة ماء قريبة منه. فتقدم نحوها، وانحنى فوق صفحة الماء يريد أن يعبّ منه، ولكنه سرعان ما تراجع، لقد شاهد على صفحة الماء وجهاً مخيفاً لا يعرفه، رأى رأساً تكسوه جلدة سوداء ووجهاً استدارت حوله لحية قذرة، وفي المحاجر عينان كبيرتان مستديرتان ينبعث منهما لمعان وحشي، وخصل من الشعر الأشعث تتهدل فوق الجبين.. وتساءل: «هل يمكن أن يكون هذا وجهي؟» ولم يجرؤ أن ينحني مرة أخرى فوق صفحة الماء، واكتفى بأن يبتلع الثلج ليطفىء نار عطشه، ثم راح يبتعد مستجيباً للقوة الهائلة التي تجتذبه... .

ولم يستطع أن يتقدم إلا بجهد عظيم، فقد كان ساعداه يرتعشان وهو يزحف، ثم يتخاذلان تحت ثقل جسده. وكثر سقوطه وارتطامه في الحفر.

كان يحس برغبة لا تقاوم في أن يتمدّد ويرتاح نصف ساعة على الأقل، إلا أن رغبته في أن يبلغ غايته لم تكن في أى وقت مضى أشدّ منها الآن، ومضى يتغلب على التعب والإعياء، ويزحف دائماً ويسقط ثم ينهض، ليعود إلى الزحف من جديد، وقد أضاع الاحساس بالألم والجوع، ولم يعد يرى شيئاً على الإطلاق، ولا يسمع غير قصف المدافع، وطلقات البنادق الرشاشة.. ولما غدا لا يستطيع الاعتماد على ذراعيه في زحفه، راح يزحف معتمداً على كوعيه.. ولم يكن هذا ممكناً، فما كان منه إلا أن تمدد وأخذ يحاول أن يتدحرج مستعيناً بكوعيه.. وكان

هذا أكثر سهولة ولا يتطلب منه جهداً خارقاً، إلا أنه لم ينفك يحس أن الدنيا تدور به، وأنه يزداد ضعفاً ووهناً، وكان لا بد له، بين لحظة وأخرى، أن يكفّ عن الزحف ويجلس وسط الثلج ويروح ينتظر نهاية ما يحس به من دوران الأرض، هذا الدوران الجهنمي الذي يطوي الأرض والغابة والسماء جميعاً... .

وتقصّف غصن من شجرة، فالتفت الجندي فلاح لعينيه الغائمتين أن بعض الأغصان تتحرك بوضوح تام، وتهتز اهتزاز الأعضاء الحية النشطة، وخيل إليه أنه يسمع همساً خافتاً يتأدّى إليه من خلال هذه الأغصان، انه همس انساني قلق، خفيض. وعلى الفور أحس بشعر رأسه يقف ويتصلب، وبحركة سريعة أخرج مسدسه الصدىء القذر وضغط بيديه الاثنتين من شدة ضعفه ليضع الرصاص تحت الضرب. وكأنما سمع أحدهم حركة المسدس من خلال أشجار الصنوبر، فاهتزت بغتة أعراف الشجر القليلة الموجودة هناك ثم ساد الصمت... .

وتساءل الجندي في نفسه: «أيكون هذا وحشاً أم انساناً أم ماذا؟» وصاح صوت: «من هناك؟» وحسب الجندي أنه يهذي وأن هذا الذي سمعه ليس صوت انسان، فنطق بلغته، لغته هو، لغة مواطنيه، لغة الأرض التي يحبها، لغة وطنه الحبيب.. واستجمع قواه كلها وأرهف السمع. أجل انها كلمات من لغته لا ريب في هذا أبداً. وطغى عليه فرح جنوني، فرح غامر، فرح بلغ من روعته أن الجندي لم يملك إلا أن يرسل صيحة مدوية تفجرت من حنجرته كالزئير، صيحة انتصار عظيم... وقفز واقفاً على قدميه واندفع في اتجاه الصوت.. ثم لم يلبث أن تهاوى كتلة واحدة وقد أفلت مسدسه من يده فاستقر بين الثلوج.

في المستشفى كان لا بد من بتر قدميه وساقيه الاثنتين.. فقد تسممتا وعاثت فيهما القروح الآكلة.. كان لا بد من هذا لكي يعيش... ليعود إلى الحياة مرة أخرى... هذا الذي ذاق الأهوال.. والعذاب.. ومطاردة عدو لا يرحم...

ومضت شهور.. وخرج من المستشفى، وقد فقد قدميه وساقيه.. خرج نصف

انسـان، إلا أنه خـرج وهو يحسّ في قـرارة نفسـه أنه قـوي، بل أقـوى من كل انسان.. وأصر على أن يعود إلى قيادته. لقد كان طياراً ماهراً. ولا بد له من أن يطير ثانية. ويحارب أعداء بلاده وينتقم لنفسه.. لساقيه المبتورتين.. للعذاب المرير الذي شرب كأسه حتى الثمالة... .

وكان ذلك في ليلة العيد، ليلة العيد التي كان يمنّي نفسه أن يكون فيها مع خطيبته الجميلة التي يحمل صورتها دائماً قريباً من قلبه.. في ليلة العيد تلك كانت الطائرة المغيرة قد تسلّلت في أطواء الظلام لتلقي حمولتها من القنابل على أرض بلاده.. وكان هو الذي هب لملاقاتها في رحاب الفضاء. وبأسرع من لمح البصر كان فوقها.. ولا شيء ينير السماء غير بصيص ينبعث من النجوم المتلامحة.. وكان صراع رهيب.. عنيد.. في الجو.. كانت طائرته تنقذف مصعّدة ثم تنقض وهي تتقلب وتؤز، ثم تعتدل فإذا هي فوق الطائرة المغيرة حيناً وتحتها حيناً آخر. ولا تنفك تنفث لهبها وتبصق رصاصها.. ثم تدور على نفسها متهاوية، ولا تلبث أن تنقذف بعيداً لتعود فتصعد من ثم أعتى وأشد في ضراوة مخيفة.. وتصبّ دائماً نيرانها من أفواه المدافع الرشاشة.. وعلى حين غرة تهاوت الطائرة الكبيرة، الطائرة المغيرة التي أتت متسللة في أطواء الظلام. تهاوت وهي شعلة من نار تتلظى وتزغرد وتتوالى انفجارات قنابلها في الفضاء... .

كان ذلك بدء انتقام الجندي المبتور الساقين.. وتروي أنباء المعارك بعد ذلك أنه دمر وأحرق عشر طائرات من قاذفات القنابل للأعداء.. قبل أن يلقى حتفه.. وقد وجدوا جثته بين أنقاض طائرته.. ولم يرُعهم شيء مثلما راعتهم ابتسامته التي بقيت تعلو شفتيه.. حتى بعد مصرعه الرهيب... .

«مقتبسة»

جريمة قتل

في تلك الفترة البعيدة القريبة من تاريخ البشرية تدهور الجنيه... وفي ناحية أخرى من العالم كان نجم الدكتاتور في صعود... بل كان دكتاتور هنا، وآخر هناك... وكان أحدهما - كلما هزه الشوق إلى الكلام - يركب مدفعاً ويروح يزبد ويرغي.. وكان الآخر يجمع عشرات الألوف من الخلق. ويقف أمامهم على منصّة وينظر إلى بعيد.. بعيد... ويرفع إصبعه إلى مجهول يخاطبه.. ثم ترتفع عقيرته، ويظل يصرخ ويهدر، ويضرب المنضدة بقبضة يده.. وكان تشارلي تشابلن، في نفس الوقت يمثل على شاشة السينما بشاربيه القصيرين، وقبعته وعصاه الشهيرتين، وبنطلونه الواسع الفضفاض، وحذائه البالي، ومشيته السريعة، وحيرته البادية، وابتسامته المحيرة، وحرجه الذي لا ينتهي، ينتقل به من ورطة إلى ورطة، ومن مأزق إلى آخر... وكان في ذلك الفيلم يمثل صراعاً مع الآلة.. الآلة تبلع كل شيء... الآلة لا ترحم... ويجب أن تكون يا تشارلي جزءاً من الآلة.. قطعة من حديد.. أو لولباً.. أو ترساً.. أو حتى مجرد مفك يحكم شد البراغي الكبيرة.. المهم أن تكون جزءاً من الآلة العملاقة.. وإلا التهمتك أنت أيضاً.. ومضغتك بين شدقيها... .

وفي ذلك الوقت كان شاب أسمر اللون، نحيل الجسم، مسنون الوجه، صغير العينين، يجلس في مقهى على ناصية الشارع، عصر كل يوم. إن له فيه مقعداً، في الطرف الغربي، لم ينازعه عليه أحد، وكان مقعده في انتظاره دائماً. في أي

وقت يشاء...

كان الشاب الأسمر يأتي إلى المقهى ومعه عدد من الصحف دائماً، يقرأ فيها حيناً، وحيناً يدعها ويروح يتأمل ما حوله، أو يرسل بصره إلى بعيد. ويظل يحدِّق في ذوائب الشجر وهي ترف مع هبوب النسيم... وقد يخرج سيكارة من علبة فضية فيشعلها ويمضي يدخن، وهو لا ينفك شاخص البصر، وعليه سيماء من يفكر.. وكان يقرأ في صحفه أحياناً فقرات من خطاب للدكتاتور، أو نبأ عن تدهور الجنيه، وأحياناً كان يطالعه تشارلي تشابلن بابتسامته المذعنة، وشاربيه القصيرين، وبنطلونه الفضفاض، وقبعته المتقلقلة على رأسه.. إلا أن الشاب الأسمر كان يدرك - مهما حاول أن يتلهى - أن في ناحية أخرى من هذا العالم مأساة كبيرة، وهذه الناحية من العالم قريبة جداً منه. انها في بلاده بالضبط.

وهذه المأساة كانت تقض مضجعه، ولا يدري كيف ستنتهي، وكان في أحيان كثيرة يسائل نفسه: أتراها ستنتهي حقاً؛ ومتى؟» ثم ينثني ذهنه إلى الجنيه المتدهور، وإلى الحاكم بأمره الذي يرى صوره في المجلات، وقد امتطى مدفعاً.. ووضع على رأسه قلنسوة صغيرة لها شرابة عريضة إلى أحد جانبيها.. وكان الفتى الأسمر يشمئز من أوداج الدكتاتور... انها منتفخة دائماً، وصدره العريض مندفع إلى أمام، ويبدو متقبباً من فرط الاندفاع... ويعود الفتى يسائل نفسه: «متى تنتهي تلك المأساة، وعلى أي وجه» وعندئذ كانت تتبدّى في رحبة خياله صورة مدينته جملة وتفصيلاً... فيراها تنهض متعالية على البحر، والبحر ينبسط أمامها في زرقة داكنة حيناً، وزاهية حيناً آخر... وكان يقول في نفسه: «ان هذا يرجع إلى أضواء وأشعة وظلال.» وكان يحس أنه يحب تربة بلاده، ويحب أنسامها وبحرها، وأناسيّها.. بل كان يحس أنه بعض تلك التربة، وجزء منها، وأنه عالق بها علوق جذور البرتقال فيها... ودون وعي منه كان الجنيه المتدهور لا يزال يخالط تفكيره.. ثم يطفو من جديد في لوح خياله، كأنه لا يطيق

أن يكمن في الأعماق.. ومع الجنيه يتراءى خيال الدكتاتور ويروح يتأرجح، ويعتريه الغموض، فيصبح كأنه الصورة المهزوزة.. ورغم الغموض كانت عين المتخيل تلمح شدقيه يتحركان دائماً، كأنهما يمضغان دون انقطاع... انهما يمضغان بالفعل، يمضغان كلاماً، وخطباً، تتلقفها الرياح الأربع وتذروها في أنحاء الدنيا... .

وكان الشاب الأسمر كلما ألحّت هذه الصورة على ذهنه يصيبه ما يشبه الغثيان، ويحس أنه متعب، ثم يثوب إلى نفسه هنيهة ويروح يتساءل: ومأساة بلادي؟ يخيل إليّ أننا نلهو.. ألا يرون أرضنا الطيبة تنكمش، وتضمر، وتتضاءل من ناحية، ثم هي تمتد وتنبسط من ناحية أخرى، لكأن يداً دائبة تقص أطرافها، وتضيق من رقعتها لحساب الآخرين... حتى أصبحت تمتد لهم في آفاقها ظلال وأفياء... والظلال والأفياء تذكره دائماً ببرتقال بلاده... ما من شجر يحمل مثل هذه الثمار، وما من شجر تترامى من حوله الأفياء كشجر بلاده... ومع ذلك فان الصحف تنذر بكارثة... فان البرتقال غدا يباع بسعر التراب، في البلاد البعيدة التي يشحن إليها... ثم يروح يردد هامساً لنفسه: «لقد صدقوا. إن تجارة البرتقال مغامرة. بل هي مقامرة... انك تدخلها وأنت لا تدري على أي جنبيك ستنام في النهاية: ربح وخسارة، وخسارة وربح.. هكذا دائماً في مثل أوضاعنا... ومن وراء هذا مآس، وهموم كثيرة، وأفراح قليلة نادرة، والجنيه لا ينفك يتدهور، ويقال انها أزمة آخذة بخنق العالم، والدكتاتور يهدر من فوق مدفعه، ومهزلة تشارلي تشابلن، هي الأخرى، تعرض في أنحاء الدنيا.. ستلتهمك الآلة يا تشارلي... لن يفيدك الحذر... والآلة ستلتهم الدنيا كلها.. ولن يفيدها الحذر...».

أهي مهزلة أم مأساة؟!

وعند هذا الحد من التفكير كان الشاب الأسمر يشعر أنه في مأزق، في

طريق يعرف أولها ويجهل آخرها، بل إن آخرها مسدود ولا ريب، لا منفذ منه قطعاً.. وكان يخيل إليه، في نهاية الأمر، أن جيله تاعس حقاً! انه جيل أريد له أن لا يعمل.. أريد له أن يكون متفرجاً وحسب.. وألقيت المقاليد كلها في الأيدي الخائرة.. بعيدٌ عن طبعه أن يرفع إصبع الاتهام... ولكن كيف يسعه أن يعلل موقف جيله؟ ان فيه القوة والعزم والشباب، وفيه وعي وإدراك وتفهم صحيح لجميع المؤامرات التي تحاك خيوطها في الخارج والداخل.. ما كان في شيمة جيله أن يُحجم... قد يتردد قليلاً ليتبين موطىء قدمه... لكنه في النهاية يقدم.. يقدم ببسالة... ولقد رأوا هذا منه حيناً من الزمن... ولكنهم بعد ذلك أصبحوا لا يريدونه باسلاً، بل لا يريدونه عاملاً في أي مجال... وكفوا يده.. ربما كان يجب أن لا ينصاع.. فهل هو آثر العافية في النهاية؟ أم تراه خشي أن تتطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه فيكون صراع، تنصرف الأذهان إليه عن المأساة نفسها، مأساة المصير في هذه الناحية من العالم، ويحدث الخراب؟ ولكن هذا الصراع حدث مع ذلك، إنه صراع فئة انقلب بعضها على بعض... وبقي جيله حائراً، ومكفوفاً عن العمل بالتأكيد...

هذه هي العبارة الصحيحة: «جيل حائر...»

جيل حائر ما في ذلك ريب. وإلا فما يمنعه عن العمل؟ وقف تفكير الشاب الأسمر عند هذه النقطة بالضبط. وأحسّ أنه هو حائر. منذ متى؟ لا يدري إلا أنه حائر في كل شيء إلا في أمر واحد لا وجه للحيرة معه هو: حبه لبلاده. ومأساة بلاده. مأساتها الطويلة تروعه حقاً. انها مأساة اشترك في وضعها العتاة، وأن قواهم لتتألب يوماً بعد يوم، لتضرب ضربتها في النهاية... لا يمنعهم من ذلك أن يتدهور الجنيه، وأن ينهض دكتاتور في ناحية أو أخرى من العالم يهدد الدنيا بقبضة يده، وأن يَسخَرَ تشارلي تشابلن من العصر الحديث، وأن يباع البرتقال بسعر التراب، ويفلسَ بعض المتّجرين به، ويضع الآخرون أيديهم على قلوبهم من

الفزع.

خيل للشاب الأسمر، وهو يرسل بصره إلى ذؤابات الشجر لا تنفك ترفّ مع هبوب نسيم الغروب، خيل إليه أن المأساة تتضخم وتتضخم، وتوشك أن تكون مأساة عالمية كبرى: «ان العالم هو الذي يتدهور، ويحث خطوه نحو مصير مجهول» همس لنفسه بهذه الكلمات، ثم لاح له خاطر لم يدرِ هل يرضيه أم يسخطه، لقد خطر له أن مصير بلاده سيكون رهناً بمصير العالم. وتساءل: أشر هذا أم خير، وابتسم ساخراً، وهز رأسه. فقد تبين له أنه يتساءل كثيراً، وأنه يواجه كل شيء بسؤال... ثم لا ينتظر الجواب.. ومن أين يأتيه الجواب؟ من الخارج؟ من الأحداث؟ من داخل نفسه؟ من هواجسه؟ أليس هذه هي الحيرة المطبقة؟!

وأخرج من علبته الفضية سيكارة أبقاها بين شفتيه دون أن يشعلها ثم مد يده إلى صحفه، وتناول إحداها. وقرأ العناوين الكبيرة، وراعه أن أسعار البرتقال، في الخارج لا تنفك تتدهور.. وفي الزاوية اليسرى من أسفل الصفحة الأولى طالعه عنوان على عمود «جريمة قتل» وقرأ النبأ: إن الجريمة وقعت في مدينته. رجل قتل أخاه بعد شجار بسيط... لقد مزّق جسده بسكين.. ولما جاء رجال الأمن وجدوه جالساً عند جثته وقد تلطخ بالدماء.. كان يبكي بصمت، وكانت دموعه تسيل من عينيه، وتجري على وجهه، وتروح تتقطر من طرف ذقنه... وكان يردد كمن يهذي: أنا قتلته.. أنا قتلته.. ولم يجن ذنباً..

وطوى الشاب الأسمر صحفه، ثم انتصب واقفاً وأشعل سيكارته وأرسل الدخان كثيفاً من فتحتيْ أنفه، وفمه، وأحس أن أعصابه قد بلغت ذروة توترها، وأنه بحاجة الى أن يسير طويلاً.. في الهواء الطلق.. وإلا كان خليقاً، هو الآخر أن يقتل...

الحاجة صفية

ما عرفت امرأة قط كالحاجة صفية. درجتُ صبياً يلعب في أزقة الحارة، وكنت لا أكاد تقع عيناي عليها، وهي مقبلة، حتى أكف عن اللعب، وأشعر أن قلبي قد امتلأ سروراً بلقائها، وإني أحبها كما أحب أمي وجدتي العجوز الطيبة.

وكانت الحاجّة صفية تتمهل إذ تراني، ويفترّ ثغرها عن أجمل ابتسامة، وتصوب نحوي نظرة كلها رقة وعذوبة. وكنت عندئذ أهرع إليها بشوق ولهفة، فأقبل يدها وأقف معها كاللائذ بها، فتمسح رأسي براحة يدها الطرية، وتقول وهي لا تنفك تبتسم:

- عشت يا ولدي، وحفظك اللّه، وبارك فيك. ثم تسألني عن أمي وأبي وجدتي، وتحمّلني سلامها إلى الأسرة كلها، وتعود تمسح رأسي بكفها وتدعو لي بطول العمر والنشأة الصالحة، وتمضي من ثمّ مشرقة المحيا، متئدة الخطو، جلبلة السمت، ونقابها الأبيض الناصع على رأسها ينطق بنقاء قلبها، وصفاء سريرتها.

وأحسب أنها كانت في نحو الأربعين من عمرها إذ ذاك، قصيرة القامة، ممتلئة البدن، بيضاء البشرة، صغيرة العينين، وكان يخيل إليّ دائماً أن هالة من نور تندّ عنها وتجتذبني إليها اجتذاباً.

وكان زوجها المعلم درويش صاحب مقهى صغير، ضيق، على ناصية زقاقنا، يعمل فيه قبل بزوغ الشمس ويطفىء أنواره ويغلق بابه بعيد العشاء، ولا يخطو

خطوة واحدة إلا بعد أن ينفض «شرواله» ويتحسس شملته الحريرية ويعدل طربوشه ويحكم إمالته ويتنحنح ويحمد الله، ثم يمضي إلى بيته فيتوضأ ويؤدي صلاة العشاء، ويتناول طعامه مع الحاجة صفية، ويروح من بعد يدخن «نارجيلته» ويحادث زوجته ساعة من زمن، ولا يلبث بعد ذلك أن ينهض إلى فراشه راضياً عن نفسه وعن الدنيا، عامر القلب بحب الحاجة صفية، بَركة زقاقنا كله. وحتى بعد أن كبرتُ، وغدوت شاباً، كانت الحاجة صفية تستوقفني فتدعو لي بطول العمر والتوفيق. وتبسط كفيها ضارعة إلى الله أن يحرسني ويقيني السوء، ويبعد عني أولاد الحرام.... .

وكانت قد هرمت، ولكنها ظلت مع ذلك محتفظة بوضاءتها وحلاوة حديثها، ورقة قلبها. وكنت أسمع أمي تقول:

- انها والله نور هذا الزقاق.. ولا أدري كيف يكون بدونها.

وكانت الحاجة صفية - إلى ورعها وتقاها - تحس كأنها مسؤولة عن أحوال أهل الزقاق. يهمها ما يهمهم، ويسعدها ما يسعدهم. ولهذا كانت تسعى في إصلاح ذات البين، وتُسدي لهم النصح، وتقول الكلمة الطيبة تهدىء بها الغرائز الثائرة، وتطفىء جمر الغضب من الصدور، ويظل هذا دأبها حتى تفي النفوس إلى الرضا والاطمئنان، فينشرح صدرها، وتتألق الابتسامة على شفتيها وتروح تتمتم: «الحمد لله.. الحمد لله على كل حال..».

وكان الرجل، من أهل الزقاق، إذا أقبل إلى بيته ولم يجد زوجه أدرك من فوره أنها عند الحاجة صفية تشرب القهوة، وتستمع إلى حديثها وحكاياتها اللطيفة، فيطمئن ولا يداخله ريب في أن امرأته ستغادر بيت الحاجة صفية وهي أشد احساساً بسعادتها وهناءة بيتها وحب زوجها وبنيها لها.

ومع ذلك فنحن لا نذكرها اليوم إلا وتمتلىء قلوبنا أسىً، ونروح نهز رؤوسنا أسفاً، ولا يكاد ينقضي عجبنا لما فعلت... ويخيل إلينا أننا نراها كما كانت في أواخر حياتها، وقبيل وفاتها، وهي تروح وتجيء في دروب زقاقنا الطويل ساهمة النظرة جامدة الملامح، تضرب كفاً بكف، وتعوذ بالله من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، وتردد قائلة بلا انقطاع:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنما أردت أن أصلح خطأ... .

والذي حدث أن الفتى «عوض» الآذن في المحاكم تزوج رمزية احدى حسان زقاقنا، وكانت رمزية غندورة أحلى ما فيها مرحها، وخفة روحها، وضحكتها العالية التي تكشف عن ثنايا ناصعة تزينها سن ذهبية إلى الجانب الأيسر من فمها.

ومضت أيام.. وثار الخلاف بين الزوجين، وحاولت الحاجة صفية كمألوف عادتها أن تصلح ما يوشك أن يفسد من أمرهما. ونجحت مرة وأخفقت مرة، ثم استقر في روعها أن الفتى «عوض» لا يصلح زوجاً لرمزية الجميلة، اليتيمة، فهو سيء الطبع، سريع الغضب، بخيل، مُقَتِّر على نفسه وعليها.. وكانت تتحدث بهذا كله إلى جاراتها وتقول:

- إن زواجها خطأ.. خطأ كبير.. وهو الحظ الأعمى.. والنصيب المقدور.. ولكن.. لا بد من اصلاح الخطأ... .

ومنذ تلك اللحظة دخلت الحاجة صفية في صراع مع القدر الذي ارتكب ذلك الخطأ، وجندت لذلك دهاءها النسوي الكامن في قرارة نفسها. ففتحت قلبها وبيتها لرمزية، فقربتها، وأكرمتها، وجعلت على الأيام تُوغِر صدرها على زوجها

وتقول أنه فتى خائب، وأنه لا يساوي قلامة ظفرها، وأنها كانت خليقة بزوج كريم، عطوف، يعرف قيمتها ويضعها في قلبه... .

وكانت رمزية تسمع هذا صامتة، مفكرة، وتسائل نفسها: أتصدق ما تقوله الحاجة صفية؟ وتذهب من ثم إلى بيتها وتروح تراقب زوجها وتؤول حركاته وسكناته، وتفسر على هواها صمته وحديثه، فيتراءى لها أن ما تقوله الحاجة صفية صحيح، ويقع في وهمها أنه رجل سوء، وأن بقاءها معه نكد لا ينتهي وشقاء مستديم سيفضيان بها إلى الضياع.. فتغضب عندئذ وتثور، ويحاول زوجها أن يسكتها فتصرخ وتولول وترميه بالحمق واللؤم والبخل وقلة المروءة، وتقول فيما تقول:

– ما انت والله من الرجال.. ويكفي أن يكون لك هذا الوجه الدميم، وهذه القامة العجفاء، وهاتان العينان المدوّرتان، وهذا العبوس الكريه.. لكي تعافك النساء.. طلقني.. وأرح نفسك.. وأرحني..

ولقد فسد ما بينهما تماماً، فطلقها وتنفس الصعداء...

وقالت لها الحاجة صفية وقد استخفها السرور، وأيقنت أنها توشك أن تصحح الخطأ الجسيم الذي ارتكبه القدر:

– سيكون مصطفى أفندي زوجك.. ولو أنصفتك الحياة لكان هو أول بختك... .

وكان مصطفى أفندي موظف أشغال، وقد جاوز الثلاثين من عمره، وظل يعاني العذاب المرير من بقائه سنوات طوالاً في أعلى مربوط الدرجة العاشرة، لا يجد لنفسه منفذاً منها، ويلوح له أنه كبغل الطاحون، يدور ويدور معصوب العينين، لا يدرك غاية ولا ينال من تعبه وكد أيامه ولياليه إلا القليل. وشد ما

كان يجهد نفسه - أول كل شهر - ليفي مرتبه ببعض دين يبهظه، وليدبر ببعضه الآخر أمر عيشه حتى نهاية الشهر... .

والعجيب أن مصطفى أفندي كان قد ترهل، ونفرت له كرش كالقبة الصغيرة يؤوده حملها، وفقد بعض أسنانه الأمامية، فكان له من ذلك فجوة كريهة تنفرج عنها شفتاه إذا ابتسم أو ضحك أو تكلم.. ولقد أهمل إلى ذلك هندامه. واعتاد أن لا يحلق لحيته أياماً، وترك شعر رأسه يسترسل كيف شاء، وينمو، ويمتد، متلبداً بين قذاليه.. لا يكاد يخطر له أن يقصه إلا ما ندر.

أكان ذلك طبعاً راسخاً فيه أم أنها لعنة الدرجة العاشرة هي التي صنعت منه على الأيام هذه الهولة ،التي كان صبية زقاقنا يدعونها «عم مصطفى» كلما مر بهم، وهم في لعبهم ولهوهم، ثقيل الخطو، مبهور الأنفاس، جاحظ العينين؟

و... أتراه كان الزواج يخطر له على بال؟ من يدري؟ وعلى كل حال فقد استفاق ذات ليلة فوجد رمزية بين أحضانه.. إن الحاجة صفية هي التي فعلت ذلك وهي تهمس في أذنها:

- هذا زوجك ورجلك.. وشتان بين خادم.. وموظف.. هنيئاً لك..

ولم تهنأ رمزية طيلة سنة كاملة، كرهت في أثنائها خواره، وشخيره العالي ليلاً، وكرهت بلادته، وأفزعتها الفجوة السوداء التي تنفرج عنها شفتاه، إذ يضحك ضحكته الثقيلة التي يلتوي بها فمه التواء..

وهربت رمزية وتحررت منه ومن الزقاق، وتلقفتها الأيدي المتلهفة على مثل جمالها ونضارتها.. وتنقلت من يد إلى يد، ومن بؤرة إلى بؤرة، واختزنت التجارب، وتعلمت الكثير، وحذقت اللعب بالرجال؛ واستوت في النهاية راقصة في ملهى «الكوكب» لها صولة وسلطان، وشهرة عريضة.. وعشاق يلتفون

حولها، ومال كثير، وفن عريق.. تخلب به الألباب إذ تعتلي المسرح، فتضحك وتضج. وتنطلق راقصة كأنما يتضرم في بدنها جمر من نار تحرق به القلوب والأكباد... ولقد أيقنت أن الحاجة صفية هي صاحبة الفضل، وانها لولا اصبع تلك المرأة الطيبة الذي امتد إلى لوح القدر فصحح الخطأ.. ووضع الأشياء حيث يجب أن تكون، لذوت زهرة شبابها، وجف عودها، وعاشت مع أحد زوجيها في ظل الفاقة والحرمان عيشة تعافها الكلاب... .

وسمعنا في الزقاق أنها كانت تزور الحاجة صفية خلسة من حين إلى آخر، وتحمل إليها الهدايا، وتقبل رأسها، وتنسل خارجة لا يكاد يلمحها أحد... .

كيف كانت الحاجة صفية تستقبلها، وماذا كانت تقول لها، وماذا كان رأيها في سلوكها، وحياتها، وهل كانت لا تزال تصر على أن للقدر أخطاء يجب تصحيحها؟ لست أدري، إلا انني لم أعد أسمع أمي تردد، اطلاقاً، إذا ذكر اسم الحاجة صفية، عبارتها الحلوة:

- انها والله نور هذا الزقاق.. ولا أدري كيف يكون بدونها... .

وحتى يوم خيل إلينا أن الحاجة صفية قد أدركت أنها كانت هي المخطئة، وانها إنما كانت، هي نفسها، ألعوبة في يد القدر فجعلت تروح وتجيء في دروب زقاقنا الطويل، ساهمة النظر، جامدة الملامح تضرب كفاً بكف، وتعوذ بالله من شر الوسواس الخناس، وتردد بلا انقطاع: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. لا حول ولا قوة إلا بالله..» حتى يومذاك لم أسمع أمي ترثي لحال الحاجة صفية، أو تلتمس لها العذر أو تذكر أنها - كانت - في يوم من الأيام:

نور ذلك الزقاق وبركته..

مجنون بلدنا

لماذا يغدو المرء مجنوناً؟

سؤال ما أكثر ما ألقيته على نفسي كل مرة كنت أرى فيها «مجنون بلدنا». ولم يكن هو وحده المجنون. كان له زملاء في كل درب وحي.. ولكنه.. هو.. كان أشهرهم وكنت أقول لنفسي: حتى في الجنون يختلف الناس شهرة وخمول ذكر... .

ومجنون بلدنا كان قد انتشر به الصوت، حتى كان يخيل إلينا كأننا لا نعرف غيره مجنوناً.. وكان مجانين البلد كلهم نكرات أو أشباه نكرات.. أما هو فقد كان الناس يلهجون باسمه ويذكرون حوادثه، ويضحكون.. يضحكون إلى حد الإغراق في الضحك.. إلى حد الاستلقاء على أقفيتهم واستراق الأنفاس... .

وكان مجنون بلدنا يرتدي بذلته كاملة ببنطالها وسترتها، وكان لقميصه ياقة، ولياقته ربطة عنق معقودة دائماً، وكان يأبى إلا أن يضع على رأسه القبعة الفرنجية، لكي يستطيع أن يحيي الناس برفعها.

رأيته مرة عند عمارة البريد، فضحك لي من بعيد، وهز يديه الاثنتين، وحثّ خطوه نحوي، واستطعت أن أرى لعابه يسيل من زاويتي فمه في ضوء الشمس، وحاولت أن أمضي مشمئزاً، ولكنه كان أسرع مني فأدركني، ووقف قبالتي، وخلع قبعته عن رأسه يحييني وقال:

- سيكارة.. سيكارة واحدة.. وضحك مقهقهاً.. مط شدقيه على وسعهما.. وبانت نواجذه نخرة سوداء، وتدفق اللعاب من فمه كله.. ولكنه استمر يضحك وقد أعاد قبعته إلى موضعها من رأسه، ودس يديه الاثنتين في جيبي بنطاله، ثم عاد يقول:

- سيكارة.. سيكارة.. يا حلو.. وأخرجت علبة لفائفي وأعطيته واحدة منها، فأبقاها هنيهة بين اصبعيه ثم قال:

- هل أشعلها بحذائي؟

وضحكت أنا عندئذ وأشعلت له السيكارة. ودار في نفسي خاطر: أيكون هذا فرق ما بين مجنون وعاقل؟

ولم أدر كيف مضى، فقد ذهلت عنه برهة، ولما ثُبْتُ إلى نفسي وجدته قد ابتعد وهو يتأرجح ويتقلقل وتهتز يداه إلى جانبيه بشدة، ولا ينفك صدى ضحكته العريضة يتأدى إليّ من بعيد. وسألت نفسي مرة أخرى: لماذا يغدو المرء مجنوناً؟ وتذكرت أن للطب في الجنون آراء ولعلم النفس آراء، وقد تؤدي عقدة نفسية عصبية إلى جنون.. وقد تؤدي اصابة عضوية إلى جنون.. وقد يكون الجنون موروثاً.. وقد يكون طارئاً.. وهذا مجنون بلدنا.. من أي الأنواع هو؟

انه يحرص على ارتداء بذلته كاملة، ويحرص على عقد ربطة عنقه، ويأبى إلا أن تكون قبعته فوق رأسه، ومع ذلك فهو لا يكاد يعي أن بذلته وقبعته وقميصه وربطة عنقه أطمار... وهلاهيل... .

ربما كان الوهم يكفيه.. ربما كان يحس أنه سيفقد كرامته لو أهمل شيئاً من زيه وقيافته.. ولكن هل تراه يفكر.. هل تراه يساوره مثل هذا الإحساس.. هل تراه يدرك أن له كرامة.. لها مفهوم خاص في أغوار نفسه؟

وعجبت كيف أجابني ببداهة رائعة بعد أن قدمت له السيكارة التي طلبها: «هل أشعلها بحذائي؟» يا للسخرية في هذه العبارة! هل يستطيع المجنون أن يكون حاضر البديهة لاذع السخرية إلى هذا الحد؟ وأين، إذن، يقف العقل ليفسح المجال للجنون، وأين يتوارى الجنون ليترك منفذاً لبصيص من نور العقل؟

وتابعت سيري إلى المقهى الذي اعتدت الجلوس فيه عصر كل يوم، وأنا لا أزال مشغول الخاطر بمجنون بلدنا.. وصعدت السلم العريض، وجلست قريباً من شرفة مطلة على أسواق البلد، وجاءني الخادم بفنجان قهوة، وجعلت أرشفه على مهل، وكنت قد رأيت، وأنا أعبر ردهة المقهى، رجلين مستغرقين في لعب النرد، فلم أعرهما اهتمامي، وانصرفت عنهما إلى مشاهدة حركة الأسواق في المدينة وتدفق السيارات من أفواه الشوارع، ومحاولة القطيع البشري أن يروغ منها ويتسلل من بينها أو يلوذ بالأرصفة.. وفجأة سمعت صياحاً وصراخاً وزعيقاً وعيداً داخل المقهى.. فالتفت كالمذعور فإذا لاعبا النرد قد أمسك أحدهما بطوق الآخر، وإذا الكلمات الجارحة، كلمات الغضب، تنطلق من حنجرتيهما كالجمرات الكاوية.. واقتربت أستطلع الأمر فشاهدت عيونهما قد اتسعت وجحظت، وأوداجهما قد انتفخت، ولهاثهما قد تسارع، وأيديهما قد تشنجت وتقبضت، وما لبث أحدهما أن لطم الآخر فجاوبه بالمثل، فعاد الأول وحمل كرسياً ضرب به رأس زَميله فشجّه، ونهض بعض الجالسين يحولون بينهما... .

خيل إليّ في تلك الآونة أن الجنون ليس أكثر من لحظة غضب، إما أن تنقضي وتزول بعد حين فيفيء المرء إلى عقله، ويلعن ساعة الغضب.. أو هي قد تدوم وتستمر فيخبو العقل، ويختفي في أطواء ليل بهيم فيكون الجنون... .

الغضب؟ ولماذا لا يكون الحرمان الطويل العميق من حب أو حنان سبباً من أسباب الجنون كذلك؟ أجل لماذا لا يكون العذاب المرير بسبب الحرمان موازياً في وباله لسورة الغضب؟

بعد أيام التقيت بمجنون بلدنا مرة أخرى. وتمهلت وقلت في نفسي: سيقترب مني الآن ويطلب سيكارة.. ولكنه تجاوزني ولم يعنّ نفسه بالالتفات إليّ. فناديته وقلت:

- ألا تريد سيكارة؟
- لا...

والتفتَ إليّ وتسمرت قدماه في الأرض، ودس يديه في جيبيه، وبقي فمه مفغوراً يسيل منه لعابه.. وخيل إليّ أنه حزين.. حزين جداً.. إلى حد اليأس. لقد كانت عيناه منطفئتين، وبدا لي جسمه أشد ترهلاً، وكتفاه مثقلتين تنوءان بما لا أدري أي عبء غير منظور، وبذلته أكثر قذارة، وتراءى لي كأنه يعاني من أزمة نفسية حادة، وعجبت وتساءلت: وهل يعاني المجانين أزمات نفسية؟ أو ليست حياتهم كلها أزمة نفسية متصلة؟ وقلت له:
- ألا تأخذ سيكارة.
- لا. السيكارة تؤذيني..
- تؤذيك؟
- أنا مزكوم..

وسعل بشدة وعاد يقول:
- وأنا أسعل.. كما ترى..
- خذ السيكارة.. على أي حال.

وتردّد لحظة... ثم تناولها وقال:
- سأدخنها في وقت آخر..

ووضع السيكارة وراء أذنه، وهمّ أن يمضي، غير أنه عاد فتلبث، وراح

يحملق في وجهي طويلاً، وخفت أن ينقضّ علي فجأة، فوجلت وابتعدت عنه قليلاً، ولكنه لم يلبث أن انفجر مقهقهاً.. ثم صفق بيديه وقال بكلمات متقطعة:

- أؤكد لك أنها ستلوّعك.. دعها لا تتعب نفسك..

قلت وقد تملكتني الدهشة:

- من هي؟

- لورا..

- ومن لورا.. هذه..؟

- لورا.. لورا.. التي تجري وراءها كالكلب.. كلكم أيها الكلاب.. تجرون وراءها.. اتركوها.. اتركوها لورا.. لورا..

وعلا الزبد شفتيه، واختلج بدنه كله، وجحظت عيناه، ولم يعد في الإمكان أن أبقى معه لحظة واحدة، فمضيت عنه مسرعاً، متلفتاً، ناجياً بنفسي... .

من تكون لورا؟

هل هي فتاة أحبها قبل جنونه؟

هل هي عذبته ونكّلت به، وسقته من هواها كؤوس الهوان؟

أم تراها تمثل في خاطره الجنس كله؟ هل تكون لورا هي كل فتاة.. هي كل النساء.. هي باختصار المرأة التي لم يحقق معها أيّ نوع من الحب، ولم يشبع منها عاطفة أو حساً مما يتوقد كالنار في الصدور؟

بعد أسبوع.. بعد شهر.. لا أدري تماماً.. كان أهل بلدنا جميعاً يتحدثون بفعلة مجنونهم.. لقد أتاح لهم فرصة نادرة، فرصة شغلتهم عن همومهم وعن مآسيهم وأفراحهم وقتاً ما.. ففي ضحى يوم أحد هجم مجنون بلدنا على احدى

فتيات الأسر.. فاحتضنها وانهال عليها تقبيلاً، وقال الذين رأوه أنه كان يتشمّمها ويكاد يطبق على عنقها براحتيه الغليظتين، وكانت هي تصرخ وتتلوى بين يديه.. ولا ينفك هو يهدر كالبعير، والزبد يتدفق من شدقيه، والشرر يتطاير من عينيه ثم أخذ يمزق فستانها من أعلى حتى عرّى صدرها كله.. وقد نجت الفتاة الجميلة حين تكاثر الناس وخلصوها منه، بعد أن أوسعوه ضرباً بقبضاتهم وعصيهم، حتى انطرح على الأرض وهو يخور ويتخبط ولا يفتأ يردد: لورا.. لورا.. لورا... .

كان مجنون بلدنا أعقل مجنون في مستشفى العقول الضائعة.. أجل كان لا بد من احتجازه بعد فعلته.. لم يكن ليدّعي - بين المجانين - أنه نابليون، أو جانكيز خان، أو كبير آلهة الأولمب.. ولم يكن يحسب أنه قارورة من زجاج إذا مسها جسم صلب تحطمت وتناثرت.. ولم يكن يرى نفسه حبة قمح قد تلتقطها دجاجة عابرة.. وإنما كان يقهقه حيناً حتى يستلقي على قفاه ويضرب كفاً بكف.. وحيناً آخر يجلس صامتاً، مفكراً، حزيناً، ثم ينهض كالغاضب ويقول:

- ماتت لورا ماتت.. ولن يجري الكلاب وراءها..

أما أكثر وقته فقد كان يمر ودموعه تسحّ على وجهه، في حين تختلج شفتاه بهذه الكلمات، وكأنه يرتد في لحظة إلى طفولته الأولى:

«أمي.. هاتوا لي أمي..»

أمه! كانت أمه قد ماتت منذ أمد طويل.. ماتت في لحظة ولادته بالذات..

شاويش حارتنا

كانت الحارة كلها منطقة نفوذ له، لا ينافسه فيها أحد، ولا يجرؤ انسان آخر أن يكون له دكان بجواره أو حتى في زقاق من هذه الأزقة الكثيرة المتفرعة في الحارة، وقد اطمأن هو إلى ذلك، كما كان قد اطمأن منذ أمد طويل إلى جرأته وقوته واعتداده بنفسه.

وكان صبية الحارة كثيراً ما يرونه في عصر كل يوم واقفاً بباب دكانه معتدل القامة، متقبب الصدر، مشغولاً باقامة شاربيه، يغمض عيناً ويفتح عيناً، يصوب منها نظرة طويلة إلى ذؤابة شاربه من هنا، وذؤابة شاربه من هناك، وكأنما هو يسائل نفسه: هل استقام الشاربان حقاً؟.. وهل أفلحت رؤوس أصابعه في إحداث الذؤابتين الدقيقتين المشرئبتين على النحو المضبوط الذي يريده ويشتهيه؟ وكان الصبية يدهشون، ويأخذهم العجب، ويفكرون طويلاً في هذا الذي يفعله «أبو حنا»، ويقول أحدهم بخبث: ربما يريد أن يقلد الشاويش، فينفجرون عندئذ ضاحكين، ثم ينفرط عقدهم وهم يتصايحون، ويضجون، ويرددون بصوت واحد منغوم: «ياما الأمر علباب». ذلك أنهم كانوا يدركون أن جارهم العسكري، الذي يدعونه «الشاويش» إنما يبرم شاربيه، وينهض قامته كلما دخل الزقاق الذي تقيم فيه روزا.

و «روزا» امرأة يعرفها أهل الحارة كلهم، كان بعضهم يقول أنها لعوب طروب. والبعض يزعم وهو يتلمظ ويكاد يغص بريقه، أنها شبقة.. هلوك..

وآخرون كانوا يحسنون الظن، ويرون أنها امرأة تدبر أمرها على نحو ما - بعد أن توفي عنها زوجها - لكي تستطيع أن تعيل نفسها وتعيل معها أمها العجوز وابنتها الطفلة. وعلى أي حال، فقد كانت تملأ أحلام الكثيرين وتثير فيهم الظنون.. وما من رجلين كانا يلتقيان إلا ويذكران «روزا» مرات في حديثهما:

- روزا.. رأيتها في الصباح وهي تساوم بائع الخضر.. وتضحك.. وتتخلع.. لعنها الله.

- ومساء أمس لمحتها تطل من شباكها وتقبل قرنفلاتها الحمر التي تزدان بها حافة الشباك.. وكانت كأنها تضحك وتغمغم.. امرأة وقحة..

- حرام أن تكون في حارتنا والله..

- إيبه.. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

ويحث الرجلان خطاهما، وفي صدر كل منهما اشتهاء عظيم يصور له روزا تغرق في الضحك وتتثنى وتميس وترخي جفنيها بدلال على عينين لوزيتين تتألقان أبداً بنور المرح... .

وقد كانت في الحارة هي المرأة الوحيدة التي تجرؤ على الظهور سافرة، وتقف بباب دارها، أو تطلّ من شباكها وتحادث من تشاء وتضحك.. ويرتفع صوتها داخل غرفتها بالغناء.. فتسمعها المارات من عجائز الحارة ونسوتها فيتميزن غيظاً، وتلتهب قلوبهن بالحقد والموْجدة، ويمضين متعثرات، مستعيذات بالله من الشيطان الرجيم.

وكانت عجائز الحارة هن اللواتي يترددن على دكان «أبي حنا» يشترين منه الصابون والسمن والشاي والبن والزيت، وصبيتها هم الذين يهرعون إليه بقروشهم

يدفعونها ثمناً لأنواع من الحلوى الرخيصة أو القضامة الصفراء أو أقلام الرصاص ودفاتر الخط.

أما روزا فقد كانت تذهب إليه هي نفسها بعد أن تكون قد أصلحت من شأنها أمام المرآة، وكانت تتلكأ في دكانه مرة، ومرة تشتري ما تريد وتمضي بسرعة، خفيفة الخطو، رشيقة الحركة. وما كان أحد يدري ما يدور بينه وبينها من حديث كلما تلبثت عنده.. وإنما كان يلمحها المارة وهي تعبس تارة، وتتضاحك ويتطلّق محياها تارة أخرى، ولا ينفك هو يدني رأسه من أذنها كأنما ليسرّ لها بأمور خطيرة، ثم تمتد يده إلى شاربه تداعبه برفق، وتقيم ذؤابته على مهل. ولكنها سرعان ما كانت تصد عنه وتوليه ظهرها، وتنفر مندفعة من دكانه وعلى شفتيها ظل ابتسامة ماكرة.. ويظل هو شاخص البصر كالمشدوه، وقد جمدت أصابعه على شاربه، لا يكاد يفيق من ذهوله إلا حين يناديه أحد الصبية طالباً أن يعطيه قلماً أو دفتراً أو قطعة من الحلوى.

كان «أبو حنا» عدا يوم الأحد يظل هادئاً ساكن الطائر طيلة أيام الأسبوع، لا يشرب سوى كأسين من العرق الحامي كل ليلة. وكان حريصاً أن لا يرى زبائنه كأس الخمر فيخفيها على رف وراء الأوعية الزجاجية، وبجانبها صحن صغير فيه قطع من خيارة مقشورة وجبن أبيض ولقيمات خبز. وبين الحين والحين، تمتد يده إلى الكأس فيحسو منها بقدر، ثم يتجشأ، ولكنه سرعان ما يتناول لقيمة ويروح يلوكها، وتتراءى له «روزا» مقبلة مدبرة.. وسيمة.. مقدودة، تعبس مرة.. ويتطلّق محياها مرة.. وتستثير اشتهاءه العظيم كلما مرت براحتها الرخصة على شعرها الأجعد ذي الشقرة الداكنة.

وكعادته في هذا اليوم من أيام الآحاد، أغلق دكانه قبيل الظهر، وحثّ خطوه إلى داره القريبة، وصعد سلمها الخشبي ولقي زوجته عابساً متجهماً، ورشق أبناءه الثلاثة بنظرات خاطفة متوعدة، ثم تناول طعام غدائه منفرداً ونام ساعة ثم

نهض وارتدى قمبازه الجوخ المخطط وأحكم لف شملته حول خصره، وأمال طربوشه وبرم شاربيه، ومضى إلى بيت صديقه «أبي مخائيل»، حيث تلتقي جماعة الأصدقاء. وما أسرع ما دارت كؤوس العرق مترعة.. ورُويت الفكاهات المكشوفة وتعالت القهقهات الطويلة.. ومال أبو حنا على أذن صديقه «أبي مخائيل» واستحلفه أن يتناول عوده ويغني.. وتنحنح أبو مخائيل وتقلقل في مجلسه وراح يبرم شاربيه، وأجاب وقد احمرت عيناه ولعبت الخمرة برأسه:

- أمرك يا سيدي.. يا سيدي أمرك..

وتناول عوده وطفق يغمز أوتاره وظل يدوزنها ويشد بعضه ويرخي بعضها حتى إذا بدا له أنها صلحت للعزف، جعل يتنحنح ثم أخذ يدندن مخافتاً من صوته حتى ساد الهدوء، وعندئذ أخذ ينقر على عوده بجرأة، وارتفعت عقيرته بلحن سيد درويش:

«زوروني في السنة مرة، حرام تنسوني بالمرة».

وعصفت النشوة برؤوس الشاربين، فشرعوا يضربون بأكفهم على أفخاذهم ويتمايلون، وقد أغمضوا عيونهم ثم راحوا يرددون مع المغني بأصوات مبهورة:

زوروني في السنة مرة، حرام...

وانتفخت أوداج أبي مخائيل، واحتقن وجهه، ونفرت عروق رقبته وازداد نقره على العود حدة، وهو لا ينفك يزعق بنشوة مفرطة: زو.. رو.. ني...

وفي هذه الأثناء طغى الحنين في صدر أبي حنا، وتعاظم هيامه بقاسية القلب روزا.. وراحت تمر في خياله صور شجار أيام الآحاد، تحت نافذة روزا بالذات... وهو يصول ويجول تحت أنظارها... وهي تطل من الشباك.. وتراه كيف ينقضّ

على خصمه يريد أن يطبق بيديه الاثنتين على مخنقه ليزهق أنفاسه لولا شلة الأصدقاء، يحول أفرادها بينهما ويروحون يسترضونه:

- أبو حنا.. من أجل خاطري...
- أبو حنا اتركه من شان الله.
- أبو حنا هات أبوس شواريك.

فيهدأ أبو حنا عندئذ وينتخي لأصدقائه، ويعود يصلح من هندامه ويعدل طربوشه ويبرم شاربيه ويختلس نظرة إلى مالكة لبه، وهي وراء نافذتها تبتسم وتمر براحتها على شعرها الأجعد.

كان هذا كله مقبولاً تماماً، اما أن ينافسه في حبها - أخيراً - أخوه شفيق، أخوه الشاب الذي يوهمه غروره أنه أبرع من ارتدى الشروال العربي، وأحذق من أدار شملته القرنفلية اللون حول خصره، وأغمد فيها سكينه ذات المقبض العاجي... فهذا كثير.. وأكثر منه، أن يغمز لها بعينه ويبتسم عن أسنانه الناصعة، ولا يجد حرجاً في أن يقف معها على باب بيتها، يتحدث إليها طويلاً وقد اتكأ بكتفه إلى الجدار، وكأنّ الناس كلهم حشرات.. ثم لم يبق بعد هذا إلا ثالثة الأثافي - الشاويش.. شاويش السوء الذي يشد قامته كلما دخل الزقاق، ويبرم شاربيه، ويخطو مزهواً ببزته العسكرية، ويرفع رأسه إلى شباك روزا ويتنهد.. وانتفض أبو حنا وانتصب واقفاً وقد ملأ الطنين اذنيه، واتقّدت عيناه ودمعتا، ثم ترنح واختلجتِ شفتاه وحاول أن يتماسك، وما لبث أن صاح بشلة الأصدقاء:

- يا لله.. يا خوان نتمشى..

وتلاغط الأصدقاء مرحين:

- نتمشى.. نذهب إلى الشط.. عاش أبو حنا.. وضحك أبو مخائيل وقد وضع عوده جانباً وتجشأ بقوة... ثم راح يقول بصوت منغوم:

- عال.. عال.. والله عال...

وخرجوا جميعاً في هرج ومرج يتحدثون، ويترنحون، ثم يتفجرون مقهقهين ملء أشداقهم.. وعلى حين غرة وقف أبو حنا كأنما قد تسمّرت قدماه في الأرض.

وفعل مثله أصدقاؤه وجعلوا ينظرون إلى حيث اتجه ببصره. كان أخوه شفيق واقفاً يحادث روزا على باب دارها، وهي تتثنّى أمامه وتغرق في الضحك، وأحس أبو حنا كأن سيلاً من نار قد اندلع في بدنه كله فجحظت عيناه، وارتجفت شفتاه، وعلاهما مثل الزبد، وما هي إلا أن شق طريقه بين الرجال كالسهم المارق، والتفت شفيق فجأة فوجد شقيقه أبا حنا أمامه، وبأسرع من لمح البصر، رفع أبو حنا ساعده كله وأهوى بقبضته على وجه أخيه، فنفر الدم من أنفه، وكأنما زلزلته اللكمة هنيهة، فاحتار ماذا يفعل، إلا أنه سرعان ما استل سكينه واندفع في اتجاه أبي حنا، وأطلت النسوة من النوافذ مروّعات وتراكض صبية الحارة.. وأصاب رأس السكين ذراع أبي حنا فمزق الملابس وخدش الجلد، وفي هذه الأثناء كانت روزا قد اختفت وأغلقت الأبواب، وخرج الشاويش مسرعاً وفي يده مسدسه، واستطاعت بزته العسكرية أن تفرض النظام، وأرهب مسدسه المتشاجرين فهدأت العاصفة، واستاق الشاويش الأخوين أمامه وقد شدّ قامته جيداً وبرم شاربيه، وزعق بالمتجمهرين أن يتفرقوا، ولمح روزا عند زاوية شباكها ترقب ما يحدث، فأرسل نظرة احتقار إلى الأخوين وقال بصوت مسموع قوي النبرات:

- جماعة أوباش.. أسافل.. مجرمين..

ثم سار بهما إلى مركز البوليس وسلمهما للضابط وهو يقول باحترام:

- هذان المجرمان، لا همّ لهما إلا ترويع الحارة كلها.. والاخلال بالأمن...

ثم أدّى التحية العسكرية ومضى.. وكان أهل الحارة كلهم يرونه بعد ذلك وهو يقف مع روزا على باب دارها متكئاً على الجدار، مستغرقاً في حديث لا نهاية له، في حين تتضاحك هي وتتثنّى وتبرق عيناها.. وكان الشاويش يدخل دارها أحياناً، ويغيب ساعة ثم يخرج وهو ينهض قامته ويبرم شاربيه مزهواً.. ويشاهده أبو حنا من بعيد فيتوارى داخل دكانه ويروح يهشّ بحركة ثائرة الذباب المتجمع فوق قطع الحلوى الرخيصة التي يبيعها لصبية الحارة، ويغمغم محنقاً بكلمات لا تفهم...

جماعة الشياطين الصغار

ما كان المعلم يوسف ليرحم نفسه أبداً، وكانت مهنته تمتلكه بأكمله وأتمّه.. لقد كان أضخم من أن يستأثر به كله أمر واحد، إلا حرفته.. فقد احتازته بأجمعه، ومن جميع أقطاره.. ذلك أن المعلم يوسف كان جسيماً، لحيماً، هائل الأنحاء، بعيد مطارح الجسم، يخيل لمن رآه أن لوجهه الكبير المستدير المنتفخ الغارق في لجة من الشحم كياناً مستقلاً، ولقبّة بطنه كياناً آخر قائماً بذاته، ولكتلة صدره البدين مع لحم منكبيه وجوداً خاصاً، وحيزاً عظيماً يستوفي حقه كاملاً، ويغتصب من حقوق الآخرين في فضاء الله الرحيب.. وكانت عيناه أصغر ما فيه: مجرد ثقبين في وجهه الشحيم.. وكان زملاؤه في حيرة من أمره أكثر الأحيان، لا يستطيعون أن يدركوا - إذا دخلوا غرفة المعلمين وهو رابض فيها - أنائم هو أم مستيقظ، فقد كان من العسير أن يطمئنوا إلى أن عينيه مغمضتان راكدتان، أم هما مفتوحتان تخفق أجفانهما وترتعش أهدابهما.. هذا لو صح أن لهذين الثقبين أهداباً ترف وترتعش... .

وكيف كان في وسع المعلم يوسف أن يرحم نفسه وقد اطمأن منذ بعيد إلى أن الله سبحانه قد اختاره ليكون معلماً قلّما يجود الدهر بمثله، ووهبه من صنوف العلم وألوان المعرفة ما لا سبيل لغيره أن يلم ببعضه القليل؟ ولهذا كله كان المعلم يوسف في شغل شاغل عن الدنيا كلها بهذه الرسالة التي كان يحملها من الشحم واللحم فوق كتفيه القويتين... .

وقد كان له أسلوب فذ في التربية، ظل عمره كله يجهد في تطبيقه جهده، في ترويع تلامذته الصغار وضربهم على أقفيتهم، وفوق إلياتهم بعصاه القصيرة الغليظة المعقدة، فإن العصا فيما كان يؤمن ويعتقد، هي التي تفعل الأعاجيب وتأتي بالمعجزات، شرط أن يكون الضرب موجعاً حقاً، كاوياً كالجمر فوق إليات صغار الطلاب... .

أجل. كان المعلم يوسف، إذا اعتزم أن يؤدب طفلاً ويهذبه ويقوّم اعوجاجه، يجلس فوق كرسيه، ويأتي بالطالب فيثنيه على ركبته، ويضع يسرى يديه على رأسه ويضغط بقوة ثم ينهال على إليته ضرباً سريعاً، مبرحاً، بعصاه الغليظة المعقدة على مرأى من زملائه الذين ألجمهم الخوف حتى يملأ الطالب المضروب غرفة الصف صراخاً وعويلاً، وهو يسترحم المعلم يوسف ويعلن توبته عن ذنب مجهول لا يعرفه، ويسأل اللّه أن يديم له أمه وأباه.. وأن يجعل الجنة مأواه.. وعندئذ كان غضب المعلم يوسف يبلغ قمته العالية، إذ يتصور بأسرع من لمح البصر أن اللّه قد استجاب لهذا الطفل.. فهو لن يلبث أن يموت.. وأن يخرج أولئك الشياطين الصغار يشيّعونه مع المشيعين.. حتى مستقره الأخير ويسخرون منه في سرائرهم.. وقد يتغامزون عليه، ويخرجون لجثته المحمولة على الأكتاف ألسنتهم الصغيرة الحمراء، ويفركون أكفهم فرحاً أن تخلصوا منه أخيراً.. ويتهامسون متضاحكين: «مات.. مات.. مات الغول.. مات».

ويصرخ المعلم يوسف على حين غرة، صرخة مدوية ويروح يهذي: «آه.. يا كلب مات الغول.. مات.. هيه.. خذ.. خذ» ولا يفيق الطالب الصغير من غشيته، بعد الضرب المبرح الكاوي، إلا أن يُنضح وجهه بالماء.. ثم يتحامل على نفسه موجعاً، مكدوداً، ويروح يمسح بالأخرى إليته، ويجر نفسه جراً، وهو يتوكأ على بعض زملائه حتى يصل إلى مقعده فينحط عليه، وقد استقر في روعه أن الدنيا كلها غول مخيف، مولع بالضعاف الذين لا ينتظر أن تمتد إليهم يد تحمي

ضعفهم، وتدفع عنهم الأذى... .

وقد أفلح المعلم يوسف ونجح نجاحاً باهراً، وكانت آية نجاحه طائفة من النشء استخدمتهم المصارف المالية والشركات والدوائر لجمال خطوطهم.. وانطوائهم على ذواتهم وحيائهم الدائم.. وقناعتهم الجميلة... .

ومع ذلك فقد أقلع المعلم يوسف ذات يوم، عن ضرب طلابه الصغار على الياتهم واضطر أن يعيد النظر طويلاً في أسلوبه الفذ في التربية.. إلا أنه دفع الثمن غالياً من ذات نفسه، وخالص سعادته الخاصة.. أي والله، فقد كان ينعم بلون من السعادة كانت حديث الناس ومفاكهاتهم.. فقد كان يعيش مع أمه العجوز وشقيقته في بيت صغير ينهض فوق دكانين على قارعة الطريق العام..

وكان لهذا البيت القديم شرفة حولها حاجز من قضبان الحديد، وكان المعلم يوسف لا يُرى إلا غادياً إلى مدرسته أو عائداً منها، أو جالساً في الشرفة وقد ارتدى مباذل البيت، من ثوب فضفاض وطاقية من صوف مشغول ذات كُبّة منفوشة مستقرة على قمتها.. وخف متخرق تلوح منه أصابع قدمه، وسبحة صغيرة من «كهرمان»، لا ينفك يدير حبّاتها وهو يدندن ويتنغم بصوت خفيض جداً لا يكاد يبين.. تلك كانت إحدى مزايا المعلم يوسف..

وكان الناس يقولون أن له صوتاً حلواً.. ونقراً بارعاً على العود.. ولذلك كان خاصة أصدقائه يدعونه إلى سهراتهم في البيوت لكي يسمعوه يغني ألحاناً لعبد الحي، وسيد درويش، ومنيرة المهدية، وقد عكف على عوده يغمز أوتاره برفق ويسترسل في نشوة وطرب، مردداً أغنية منيرة المهدية القديمة: «أسمر.. ملك روحي» وكانت «أسمر ملك روحي» هذه يرقّ فيها صوته، ويصفو، ويلين، ويتكسر من فرط الشوق ويكاد يذوب في التحنان، فيجاوبه فيها القوم بآهات اللوعة والشوق إلى حبيب أسمر مجهول تشتهيه قلوبهم وأبدانهم... .

ذلك لون من ألوان سعادته، ومن ألوانها الأخرى أنه كان يدعو أمه وأختيه ليجلسن حوله في شرفة الدار، ويضع هو رجلاً فوق رجل، فيبدو لمن يراه كأنه فيل صغير قائم في زاوية الشرفة. ويروح بعد هذا يهضب بكلام كثير يحرك معه يديه ورأسه، ويروي لأمه وأختيه أعماله المجيدة في تربية الأولاد الصغار الشياطين الكلاب.. الذين يستحيل أن يدخل العلم عقولهم إلا بعد إعمال العصا في إلياتهم الحقيرة.. وكانت أمه وشقيقتاه يصغين إليه بإعجاب.. وتهيّب وإجلال، ويسألن الله أن يوفقه إلى الخير.. ويسعده.. ويبارك فيه فينتشي عندئذ.. ويمس شاربيه الصغيرين برؤوس أصابعه.. ويشرئب نحو السماء ويقول: «التربية فن.. والتعليم مقدرة وأصول. نعم تماماً.. فن وأصول».

ولعل سعادة المعلم يوسف كانت تبلغ ذروتها في يوم الأحد من كل أسبوع، فقد كان في عصر ذلك اليوم يرتدي بذلته البنية الثمينة، ويختار لها ربطة عنق حريرية مشجرة ويرشق في عروة سترته وردة أو قرنفلة كبيرة، ويركز عويناته على أنفه ويسير كمن يتدحرج بين شقيقتيه إلى شاطىء البحر، حيث يتخذ معهما مقاعد مستطيلة مريحة، ويروح هو يفترز بذر البطيخ ويأكل الفستق المقشور، ويضحك كثيراً مع شقيقتيه وهو يرنو إلى موج البحر يتدافع، وتهمّ الموجة بالموجة تلاحقها، ثم تغيب فيها، وتضربان الصخر معاً، فتتكسران ويتطاير رشاشهما عالياً، ويقهقه المعلم يوسف ويهتز كرشه، ويتلفت ذات اليمين وذات الشمال، ويقول لجيرانه من حوله: «الموج بيلعب.. الموج بيضحك. قه. قه. قه.».

وينهض المعلم يوسف بعيد الغروب ويتأبط ذراع احدى شقيقتيه ويسير متثاقلاً، راضياً عن نفسه وعن الدنيا، مفكراً في هدوء قرير بما سيفعله في الغداة، لكي يدخل العلم الصحيح في عقول طلابه، فيرتسم على شفتيه الغليظتين ظل ابتسامة، ويقول كمن يخاطب نفسه: «التربية فن والتعليم أصول...» وما كان لشيء أن ينغص على المعلم يوسف هناءته إلا إذا تفطن أن

شقيقته الكبرى قد مات عنها زوجها، فعادت إلى بيت الأسرة منذ سنوات تعاود العيش فيه منكسرة مهيضة، وأن شقيقته الأخرى لم يتقدم أحد لزواجها، وقد شارفت الثلاثين، فسدت الأختان بهذا الحظ التعيس باب الزواج في وجهه هو: «ايه.. دنيا قذرة.. لا تعرف من أين يأتيك أذاها.. كأنها تخبيء لك نصيبك منه.. ثم تغافلك وتضرب ضربتها..»

وقد كانت هذه الدنيا العجيبة بارعة حقاً في تسديد ضربتها إلى قلب المعلم يوسف وبدنه على السواء. فقد افتتح يومه المدرسي، ذات مرة بضرب أحد طلابه الصغار ضرباً مبرحاً على إليته حتى أغمي عليه، وهو يرغي ويزبد ويصرخ: «آه.. يا كلب.. مات الغول. مات. هيه.. خذ.. خذ..»

وفي اليوم التالي كان والد الغلام، وهو رجل قوي العضل، متين الألواح، شديد الأسر، ينتظر المعلم يوسف في طريق المدرسة، وما أن لاح له وهو يحث خطاه ويتقلقل من بعيد حتى تحفّز واستعد كالنمر الضاري، ولما أصبح المعلم يوسف على مقربة منه انقض عليه انقضاضاً، وأمسك بطوقه وأخذ ينهال عليه لكماً، وصفعاً ولطماً وركلاً بقدميه، وراح يدق له عظامه دقاً بقبضتيه وهو يقول: «خذ.. خذ.. تعلم كيف يكون الضرب خذ..» وتجمهر المارة، وخلصوا المعلم يوسف من قبضة الرجل وذهب به بعضهم إلى بيته، وهو يقول بصوت واهن محتقن: «هذا جزاء احساني، هذا جزاء تعبي في تعليم أولادكم وتربيتهم.. أيها الجاحدون..»

ثم مضت الأيام.. ولم يعد المعلم يوسف يمد يده لضرب تلميذ، واختفت عصاه الغليظة المعقدة، وراح ينحَلُ يوماً بعد يوم، كأن به سقماً فضمرت كرشه، وترهل لحمه، وتهدلت كتفاه، واسترخى جلده، ودقت معارف وجهه.. وكانت أمه وشقيقتاه ترينه يروح ويجيء في أرجاء الدار، وهو مطرق يهمهم بما لا يفهم. وتبدو له، فيما يشبه الحلم، جماعة من الشياطين الصغار يشيّعون جثة محمولة

على الأكتاف، وتملأ السخرية صدورهم ويتغامزون خلسة، ويخرجون للجثة المحمولة ألسنتهم الصغيرة الحمراء ويفركون أكفهم فرحاً، ويتهامسون وهم يتضاحكون:

«مات.. مات.. مات.. الغول.. مات...»

سر في صورة

إذا سرت في حي الأشرفيـة وراعك ذلك الزحام العجيب، حتى ليبدو لك أن الناس يتدافعون فيه بالمناكب، وأدهشك ضجيج العيش وصخب الحياة، وصكّت أذنيك أبواق السيـارات المحملة بغرارات الأرز والسكر والدقيق الأبيض الفاخر، واستـرعى انتـبـاهك، هنا وهناك، خط طويل من الجـمـال الفـارهة تدب صـابرة متباطئة تحت أحمالها الثقال، وإذا عجبت أن ترى العباءة الضافية والعقال المرعز المبروم، والطربوش الأحمر الأنيق، والقلبق الجركسي المزهو تتجـاور على رؤوس أصحابها في هذه السوق، وتتسلل بينها الحين بعد الحين قبعة على رأس أجنبي لم تفلح - رغم الاستحياء والقدم الخفيفة المنسرقة - في التستر والاستخفاء، وإذا راق لك أن تتـمهـل هنا وهناك لتشبع عـينيك من خليط ما تعرضـه الدكاكين من «القنابيز» الحريرية المقلمة، والعباءات المقصبة والبيضاء وذوات الألوان الزاهيـة والثيـاب المعجبـة، ورحال الجمال وسروج الخيل وأرسانها، والمواعين النحاسيـة والأحذية والخفاف... .

وإذا بهرتك حركة البناء والتعمير في هذا الحي الكبير، وفيما يتفرع عنه من شوارع وأسـواق.. فـانك على الرغم من هذا كله، وعلى الرغم من أنك في أكـثـر الأحيان لا تملك قيـاد نفسك فتندفع مرغماً في تيار هذه الحركة الناشطة إلى حيث لا تريد، لن تلبث أن تلحظ أن ثمة مستودعاً كبيراً للغلال و«مال القبان» يفرض نفسـه فـرضـاً في هذه الأسـواق، كـالرجل العظيم تكون له الصـدارة في مـجـالس

القوم، وكالعمارة الضخمة المرموقة تهيمن على ما حولها، وتكون أول ما يسترعي النظر ويثير الاهتمام.. وكما قد لا يخطر لك أن هذا العظيم كان في ماضيه من السوقة وسفلة الناس، فانتشله الحظ والانحراف الاجتماعي إلى الأوج، وأن العمارة السامقة المهولة لم تكن قبل ذلك إلا أطلالاً وخرائب.. فكذلك لن يدور لك في بال أن التاجر الكبير «سيد حمدان» بحلته الافرنجية الثمينة، وقميصه الحريري المهفهف، وربطة عنقه المشجرة النفيسة، وحذائه الانكليزي الفاخر، وطربوشه الأنيق الممتاز وتلك الخواتم - من ذهب وماس - يزين بها كثيراً من أصابع يديه الاثنتين، والساعة الذهبية الكبيرة بزردها الذهبي العريض الملتف حول معصمه، تتألق جميعاً وينبعث منها بريق يخطف الأبصار ويبهر العقول... .

لن يخطر لك في بال أن «سيد حمدان» بهذا كله.. كان إلى بضع سنوات خلت رجلاً بسيطاً، ضائعاً في زحمة القطيع البشري، يبيع في دكانه الصغير -في حي الأشرفية بالذات- بضع مكانس اسطمبولية وقليلاً من الأباريق والجرار الفخارية وشيئاً من الحبوب: الشعير والقمح في أغلب الأحيان. وكان سيد حمدان في ذلك الحين قانعاً برقة حاله، أسعد ما يكون لو أتيح له أن يشتري في العيدين جميعاً قمبازاً من الكتان الملون الرخيص، وحذاء غليظاً من صنع جاره الاسكافي أبي فرهود، وسترة نصف عمر من الخواجة الأرمني «جقمقيان» بائع الملابس القديمة في تلك العطفة المعتمة، في زقاق متفرع عن شارع الرضا.

كانت زوجته «عيشه» مصدر همه: امرأة شكسة، نكدة، لها دائماً في البيت، مع أولادها القذرين، صياح وزعيق لا ينقطعان أبداً، وكان سيد حمدان لا يكاد يعود من عمله بعد العشاء حتى تتلقاه دائماً بوجه مربدّ وأسارير متجهمة، وعينين مدورتين تبحثان عن الشر، وشعر منفوش، ولسان سليط يدور أبداً في حلقها. إلا أن سيد حمدان ما كان ليستطيع أن ينكر، مهما كانت الأحوال، أن لها فضيلة كانت ترضيه، مزيتها أنها كانت امرأة مدبرة، وأنها تعرف - بفطرة

ملهمة حاذقة - كيف تجمع قرشاً إلى قرش: القرش الأبيض لليوم الأسود، كما كانت تقول دائماً وهي تتنمر له وتسلقه بلسانها.

واندلعت نار الحرب العالمية الثانية فهوى قلب سيد حمدان إلى حذائه، فقد كان يسمع عنها ولا يفهم إلا أنه سيعرى ويجوع ويشرّد كما حدث له في الحرب الأولى. ولكن الخير أتى من حيث توقع الشر، فلم يعْرَ ولم يجع، وأصبح ذات يوم فإذا قرشه يربح عشرة.

كيف حدث ذلك؟ انه لا يدري. كل ما يفهمه أنه كان لو باع تراباً لكان هذا التراب يأتيه بالمال.. كان يقول لزوجته في ساعات الرضا:

- هذه ليست حرباً يا امرأة.. انها كنز.. كنز مفتوح.. فتستعيذ هي بالله من الشيطان الرجيم وتجيبه:

- صَلِّ عالنبي.. يا شيخ..

فيقول عجلاً:

- صلى الله عليه وسلم.. تصوري.. القرش عشرة.. مين كان يحلم..

- اسكت.. اسكت.. الله يحفظنا من عينك.. احمد ربك.. لئن شكرتم لأزيدنكم..

- صدق الله العظيم.. ثم تصوري ان التراب نفسه في السوق.. يأتي بالمال الكثير في هذه الأيام.. الله.. الله..

فيزداد حنق زوجته وتفقد هدوءها وتروح تهدر في وجهه:

- راجل سخيف.. طول عمرك خايب ونذل.. هذا رزقي ورزق أولادي..

ولكنه لا يغضب ولا يثور، بل يروح يلاطفها ويفيء بها إلى الرضا ويقبل رأسها، ثم يذهب إلى فراشه قرير العين، مرتاح البال، على غير عادته، ولا يلبث أن يهومَ

ثم سرعان ما يعلو له غطيط في البيت كله...

وكرت الأيام وأخذ حي الأشرفية، الحي الشعبي الضيق، الموحل أبداً، يتسع ويمتد، وراحت تزول منه الدكاكين القديمة المعتمة المبنية باللبن الترابي، وتنهض مكانها مخازن ومستودعات رحيبة من الحجر الأبيض الفاخر المدقوق، وعمائر معجبة يُزهى بها هذا الحي.. وأصبحت المدينة ذات يوم من أيام الخريف فإذا أرض هذا الحي ذات الأخاديد والفجوات قد استوت على امتداد البصر، وفرشت بطبقة من الأسفلت الأسود اللامع. وكانت الحرب كلما اشتد أوارها وحمي وطيسها ازدادت حركة التجارة في هذا الحي، وازدحم بسيارات النقل والجمال والحمير والخلق من كل طراز.. أخذ وعطاء.. ومال ينصب ولا ينقطع له مدد.. وبعد أن كان سيد حمدان يبيع المكانس الاسطمبولية والأباريق والجرار في دكانه الصغير المنزوي أصبح يتّجر بالأرز والسكر والحبوب.. مئات الأكياس الكبيرة المنتفخة تدخل محله وتخرج منه في حركة مستمرة.. دائبة.. لا تهدأ أبداً.. كان سيد حمدان كائما هو ميزان الازدهار والنموّ في ذلك الحي الكبير.. كلما تضخمت ثروة سيد حمدان واتسعت طولاً وعرضاً.. امتد حي الأشرفية إلى ما لا نهاية له، واتسع طولاً وعرضاً هو الآخر.. ولكأنما سيد حمدان القديم بقمبازه القذر الحائل، وشاربيه المتهدلين المنكسرين على زاويتي فمه، ولحيته المهملة الشائكة وعينيه الذابلتين وجسمه المتعب المكدود.. لكأنما سيد حمدان هذا قد مات ودفن وشبع موتاً، وسحبت الأيام عليه ذيل نسيانها الطويل، وجاء إلى الدنيا غيره.. سيد حمدان الجديد.. بوجاهته التي تملأ العين.. فقد استكرش.. وامتلأ لحماً وشحماً، والوجه الهضيم المصوص طفح نضارة وبشراً، والعينان الذابلتان الخابيتان تألقتا بنور العافية، والقامة الهزيلة التي كانت كأنما بوقرها عبء غير منظور قد قويت واشتدت، ونفضت عنها بؤس السنين الخوالي.. والشاربان المسترخيان قد نهضا واستويا مبرومين بعد ذلة وانكسار.. وأصبح سيد حمدان برفاهة عيشه، ونضارة العافية عليه ، وحلله الافرنجية القشيبة واللهب المتألق بأصابعه.. ومستودعه

الكبير الذي يفرض نفسه فرضاً على تلك السوق العامرة من المدينة، أصبح مضرب المثل، ومحط الأنظار، ومن الذين لهم الكلمة المسموعة والنفوذ الكبير في دوائر المال والأعمال.. كما وصفه، ذات صباح في جريدته الهزيلة، صحفي مرتزق كتب له الحظ السعيد أن يجلس إلى سيد حمدان ويشرب معه فنجان قهوة، ويظفر منه بحديث.. شائق.. لصحيفته...

وفي حال نعمته ورفاهة عيشه ظلت امرأته «عيشة» مصدر همه كما كان شأنها أيام بؤسه وفاقته! هذه المرأة الدميمة.. هذه الخنفساء.. هل تصلح أن تظل زوجاً له أبد الدهر؟ سينتقم لنفسه، لحرمانه الطويل، لظمأ قلبه وجوع روحه.. يجب أن تكون له زوجة أخرى، حورية من الجنة.. بيضاء، شقراء، ذات عيون زرق، فيها رقة وحلاوة ودلال... ومن الشام جاءته البضاعة ذات يوم، عروس كما اشتهاها في حرقة أحلامه وجنون اشتياقه إلى البدن الشهي.. ولقد أحس في أول أمره أنه قد دخل الجنة فعلاً... .

وفي نفس اليوم الذي دخلت فيه «هناء» زوجته الجديدة بيته الظريف الأنيق، دخلت مستودعه الكبير صورة.. جاءته سداد دين قديم من الرسام التركي البائس ضياء الدين بك.. صورة زيتية صغيرة أعياه أمرها. ماذا يفعل بها.. وما قيمتها.. وأين يضعها..؟ أمَا يحسن به أن يتخلص منها؟ لقد قبلها على مضض.. قطعة من الخيش المدهون... ما جدواها، وماذا يدفع أولئك الناس أن يفنوا أعمارهم في صنع هذه التفاهات؟ أي معنى يمكن أن يكون وراء هذه الألوان؟ انها مجرد ألوان تراكم بعضها فوق بعض ولا يكاد يفقه منها شيئاً.. ثم بدا له أن يعلقها على الجدار فوق رأسه.. يكون ظهره إليها حين يجلس إلى مكتبه الفخم..

العين، إذ تدور في محله، يريحها التساوق: كل شيء في موضعه اللائق به وموقعه الصحيح. كلها أشياء يمتّ بعضها إلى بعض بأقوى الأسباب.. انسجام

تام بين غرارات الأرز والسكر والقمح والموازين والمكاييل.. إلا هذه الصورة. ما شأنها هناك؟

و.. تلك.. العروس.. تلك الدمية.. هناء: بياض، وشقرة وورد على الخدين وزرقة في العينين.. إنها ألوان هي الأخرى.. لقد انطفأت وقدة الغرام.. وحرقة الاشتياق إلى البدن الشهي التي كانت تلهب أحشاءه قد ابتردت.. ولكن تلك الابتسامة الساخرة تتراقص أبداً على شفتيها.. ما معناها؟ هناء.. انها مجموعة ألوان هي الأخرى، وراءها سر مغلق، هذا السر يعذبه يضنيه، يكاد يسحقه سحقاً.. انه يشعر في قرارة نفسه أنه لم يمتلكها.. انها تنطوي على سرها.. تحرص عليه حرص البخيل على ماله.. انه يكاد يذيبه احساسه بأنها أقوى منه، وأرفع منه.. بصمتها، بابتسامتها الساخرة الماكرة، بهدوئها وترفعها تشعره بأنه ضئيل.. وصغير.. تافه.. أي شيء وراء كل هذا؟!

الصورة والمرأة حيرتاه.. أقضّتا مضجعه.. وجاء الرسام يوماً في زيارة عابرة. تلقاه سيد حمدان بلهفة لم يستطع أن يكتمها وطلب له قهوة، وقدم له سيكارة فاخرة وسأله أن يكشف له عن سر تلك الصورة، ودار بينهما الحديث:

– هذه الصورة، أيها الصديق الكريم ليست في مكانها، أعني أنها دخيلة غريبة، انها ليست في بيئتها التي يجب أن تكون فيها..

– دعنا من هذا.. أريد سرها.. انها فيما أرى ليست أكثر من شبه صورة لامرأة... .

يجب أن تعرف كيف تنظر إليها أولاً.. بعض الأشياء لا نفهمه إذا كان لاصقاً بنا، قم.. تعال نبتعد قليلاً عن الصورة.. مسافة مترين.. انظر الآن.. ألا تراها جميلة:. هذه البشرة المخملية، وهذا الورد على خديها.. وزرقة البحر في

عينيها، وتلك الابتسامة الخفيفة على شفتيها، والذهب الذي يتألق في شعرها. ألا ترى هذا كله؟ أليس جميلاً؟

- أجل.. أجل..

- ولكن تأمل قليلاً.. وحاول أن ترى أكثر من هذه الألوان.. وراء هذه الألوان.. العينان الزرقاوان ألا ترى في جفنيهما انكساراً.. وان نظرتهما كأنما هي مصوّبة إلى الداخل.. داخل النفس.. وليس إلى العالم الخارجي.. وتلك الابتسامة الخفيفة ليست أبداً ابتسامة سرور وفرح.. انها ابتسامة مسكينة، لو صح التعبير، انها استسلام حزين، صامت.. هذه امرأة خيبت لها الأيام آمالاً.. فهل فهمت؟

- لم أفهم!

- من الخير إذن أن تلقي هذه الصورة.. سلام عليكم..

ومضى الرسام، وجلس سيد حمدان إلى مكتبه يراجع قوائم حساب ثم شرد ذهنه، وراح يحدق في الفضاء. وخطرت له امرأته «عيشه» بدمامتها وشعرها المنفوش أبداً، وزعيقها الذي لا ينقطع، انها على الرغم من هذا كله أقرب ما تكون إلى نفسه وقلبه.. أما تلك الأخرى.. هناء.. ذات الشعر الأشقر والعيون الزرق والابتسامة الغامضة.. والتفت إلى الصورة وراءه، وتأملها هنيهة، ثم هز رأسه بائساً، وعاد ينظر في قوائم حسابه..

وعلى مهل، فيما يشبه خطرة في حلم، أخذت عبارة الرسام الأخيرة يتردد صداها البعيد في نفسه، كأنما هي منبعثة من أعماق ذاته: من الخير إذن أن تلقي هذه الصورة...

نذير من السماء

كان ذلك في يافا، أيام الخير، وكنا في رمضان، وليالي رمضان في يافا بهجة وسرور وأضواء، وتعاطف بين الناس، ومودة وصلة رحم.

وكنا في ذلك المساء قد فرغنا من طعام الافطار على مائدة صديقنا تاجر البرتقال الحاج عبد الوهاب، ورحنا نشرب القهوة ونتحدث ثم تتخلل أحاديثنا فترات صمت طويلة، يدخن بعضنا خلالها سجائره أو يستل من «شيشته» المشوقة المزخرفة، أنفاساً مديدة.

وكنت أنا في فترات الصمت هذه لا أنفك أتأمل صديقنا الحاج عبد الوهاب، بثوبه الأبيض النقي، وسبحته الطويلة التي لا تزال حباتها السود تدور بين أصابعه، وقد جلس على الأريكة متربعاً يدخن الشيشة، وكأنه مشدود البصر إلى ورق الزهر يصعد ويهبط ويختلط بعضها ببعض في ماء شيشته تلك، وهو يستل منها أنفاساً عطرة... .

جعلت أتأمله وهو على هذه الحال وأعجب لأمره. انه يغدو في شهر رمضان انساناً آخر، انساناً غير الذي نعرفه في سائر شهور السنة: يترك أعماله وشؤون تجارته، ولا يعود يشرف على بيارته الواسعة، ويخلع رداءه الأوروبي ويلبس هذا الثوب الأبيض النقي الفضفاض، ويلزم بيته ويعكف على الصلاة وقراءة الأوراد، ولا يكاد يختلط بالناس إلا في أمثال هذه الدعوة إلى الافطار، فيجتمع حوله في

تلك الأمسيات الرمضانية أقرب أصدقائه إليه وأوثق الناس صلة به.

ولم يكن صديقنا الحاج عبد الوهاب بخيلاً، ولكنه في شهر رمضان كان يغدو من أسخى الناس يداً، وأكثرهم بذلاً وأشدهم إنفاقاً في سبيل الله.

وكنا ندرك أن في حياته سراً هو الذي جعله يؤثر شهر رمضان على سائر الشهور، حتى لكان يقع في وهمنا أن رمضان يخصه وحده دون سائر الناس. ولم نكن نعلم كنه هذا السر، وكثيراً ما حاولنا أن نغريه بالإفضاء به، فكان دائماً يلوذ بالصمت، ويدعنا في حيرتنا ويخلي بيننا وبين ظنوننا الكثيرة حتى كانت هذه الأمسية الرمضانية، وكان صديقنا الحاج عبد الوهاب قد أضفى على جسده ثوبه الأبيض النقي، وتربع في جلسته وراح يدخن «شيشته»، ويصغي معنا إلى الراديو، وكان المقرىء يتلو بصوته الأخاذ قول الله عز وجل في سورة آل عمران:

«زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب. قل أؤنبئكم بخير من ذلك، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد. الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار».

ولم يكد المقرىء يصل إلى هذا الحد من تلاوته حتى انفجر صديقنا الحاج عبد الوهاب باكياً في شدة وحرقة، وراحت دموعه تسيل على صفحة وجهه بغزارة، وتتساقط منها قطرات على يديه وثوبه، في حين كانت كتفاه ترتعدان وجسمه كله يختلج كمن ألمت به حمّى نافضة..

وقد فوجئنا - نحن أصدقاءه - بهذه الحالة فوجمنا، ولم ندرَ ماذا في وسعنا

أن نعمل، وانقضت فترة استطاع الحاج عبد الوهاب خلالها أن يتمالك نفسه، فكفّ عن البكاء ثم هدأ واستكان، وبدا عليه كأنه قد استراح من عبء كان يؤوده، ثم التفت إلينا وقال: «لعلي أزعجتكم وأخفتكم، ولكن لا بأس عليكم، إن آيات الله البينات التي تلاها مقرىء الاذاعة أشاعت في نفسي الرهبة والخشية، وأعادت إلى ذاكرتي عهداً من حياتي شد ما كنت أجهد لكي أنساه».

وصمت الحاج عبد الوهاب قليلاً وعاد يدخن شيشته ويتأمل أوراق الزهر تسبح في مائها، ثم رفع رأسه وقال: سأحدثكم الآن بما كنتم تحبون أن تعرفوا من حياتي الماضية... أيام الشباب.. كنت يومئذ في نحو الثلاثين من عمري، وكانت الحياة في نظري لذة تغتنم، ألتمسها حيثما وجدت، وأسعى إليها أينما كانت، كنت أيها السادة زير نساء وجليس كأس، ولقد أوغلت في طريق الإثم واستبحت المحرمات جميعاً، وأقدمت على المنكرات ألتذ ارتكابها، وغدوت مع الزمن لا أكاد أفارق الحانات وأماكن اللهو، واتخذت لنفسي من بائعات الهوى خليلات، واصطفيت من الأصدقاء سفلة الناس، وأغرقت هذا كله في كؤوس مترعات أبداً، أشربها في الصباح، وأشربها في المساء ولا أتحرج عن شربها والاغراق في الإثم حتى... في... رمضان.. نفسه. وأمسك الحاج عبد الوهاب قليلاً، واربدّ محياه وتحركت شفتاه بكلام لم يصل منه إلى أسماعنا شيء... .

لقد كان في تلك اللحظة صورة للأسى الفاجع.. ثم عاد يتكلم، عاد يعرّي نفسه، وكأنما يجد في الافضاء بما في صدره راحة وأمناً: ولقد أعانني على الاسترسال في هذه الموبقات مال كثير.. ورثته عن أبي.. لقد كنت نذلاً أيها السادة، أبدّد في ساعات ما كسبه غيري بالتعب والعرق سنين طويلة... وفقدت مع الأيام الشعور بالكرامة، وبلغ بي الانحطاط والتسفل حداً لا أكاد أتصوره اليوم - وقد مضى على هذه الحقبة من حياتي أكثر من عشرين عاماً - حتى يقشعر بدني وترتعد أطرافي كالمقرور.. وذات ليلة في شهر رمضان المبارك عدت

إلى داري مع الهزيع الأخير من الليل.. قبل السحور بنحو ربع ساعة، عدت وقد ارتكبت الأوزار جـمـيـعـاً.. ولا أدري مـا الذي دفع بيـدي إلى الراديو فـأدرت مـفـتـاحـه.. وعلى حين غـرة انبـعث منه صوت المقرىء بآيات الله من سورة آل عمران. كان صوت المقرىء كأنه النذير، نذير من السماء ارتجّ له بدني، وهو يتلو قول الله: زين للناس حب الشهوات.. إلى قوله تعالى: «الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار.»

ولا أدري ما الذي حدث بعد ذلك، سوى اني صحوت في اليوم الثاني وأنا راقـد في سريري، وحولي أمي واخـواني الثـلاث وهن يبكين، وقـد فـهـمت من حديثهن أنني لبثت ساعات طوالاً وأنا أهذي مرتعد الأوصال، متقبض الأطراف، مبهور الأنفاس، لا أنفك أردد: «فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار» لقد أنقذني صوت السمـاء أيها السادة، أنقذني من هوة الاثم التي كنت غـارقـاً فـيـهـا. ولقد حـجـجت بعـد ذلك إلى بيت الله الحـرام، ولا أذكـر منذ ذلك اليـوم انني ارتـكبت معصية، أو اجترحت اثماً، أو انقطعت عن صوم أو صلاة أو زكاة عسى أن يغفر لي الله...

وفـهـمنا نحن سـبب بكـاء صـديقنا الحـاج عـبـد الوهاب، لما سـمع في تلك الأمسيـة آيات الله من سورة آل عـمران. لقد تمثل في تلك اللحظة ذنوبه الماضيـة كلها...

ولا أعلم الآن أين هو الحاج عبد الوهاب... فقد تشرّد مع كل الذين تشردوا في الأرض من أبناء يافا... غير انني واثق من أن الزمن لن يطول حتى يرجع إلى يافا... وإلى أمسيات وليالي رمضان فيها، وسبحته الطويلة لا تنفك حباتها السود تدور بين أصابعه، وقـد أضفى على نفسه ثوبه الأبيض النقي، ولزم بيته وعكف على الصلاة وقراءة القرآن... .

زينة

أدرت منذ أيام مفتاح الراديو، وفجأة انبعث ذلك الصوت الرخيم يردد في لوعة وأسى لحناً كنت قد استمعت إليه من قبل مرات قليلة، وكان في كل مرة يرعشني ويثير شجوي. كان يخيل إلي أن ذلك اللحن يروي قصة حب شقي، وكأن صوت المطربة برقته وعذوبته ونبراته الحلوة وتلك اللوعة العميقة الشائعة فيه.. يصور مأساة ذلك الحب الساذج تصويراً قوياً يحس به القلب وتتمثله النفس ويعجز اللسان عن وصفه. وفي هذه المرة حين أدرت مفتاح الراديو، وكان المساء قد أقبل بظلاله الكئيبة، سمعت المطربة ينساب صوتها الناعم الرقيق الملتاع مردداً:

ابن عمي ان غاب عني يسلب العقل مني
عالفرقه شو مصبّرني غيره ماني ماخده.. ياخي..

كانت المطربة ترسل هذا النغم إرسالاً ليناً فيه انكسار الأنثى ووجدها، وحرقة قلبها. هل كان حبي لهذه الأغنية إعجاباً بالنغم الجميل الأخاذ، ومتاعاً بهذه الحلاوة التي كأنما تتفطّر من ثنايا هذا الصوت، وإحساساً بما في قصة هذا الحب من شقاء وعذاب، وإرادة عنيدة مصرة مع ذلك تبديها هذه العاشقة توكيداً لذاتها وسمواً بعاطفتها عما يشينها وحسب؟.

كان يخيل إليّ أن الأمر أبعد من هذا، كنت أجد أن شيئاً لا يزال خفياً لا

أتبينه، قد أنشأ صلة بيني وبين هذه الأغنية، صلة لا أكاد أتحسسها في ذاكرتي أو أتلمس معالمها في ذهني، حتى تنفلت مني، فلا أظفر بعد الجهد بطائل. وكان يعذبني أن لا أستطيع الاهتداء إلى ما يربط بين هذه الأغنية الحزينة وبين هذا الذي لا تكاد تتحرك له ذاكرتي حتى يمحي ويغيض. وكنت أحياناً أعجب لنفسي كيف أيقنت أن هذه الأغنية إنما تروي قصة حب عاثر. لماذا لا تكون مجرد أغنية، أغنية بسيطة جادت بها قريحة شاعر شعبي مفتن، وتغنيها بصوتها الرائع، امرأة صناع تستثير أشجان النفس بمثل هذه الرقة وبمثل هذه الحلاوة، وبمثل هذه اللوعة المؤسية على الأخص؟ أجل لماذا كان عقلي يأبى إلا أن يتصور أن هناك قصة حب، بل مأساة حب، ترويها هذه الأغنية؟

كنت أفكر في هذا كله، في حين كانت المطربة تنهي أغنيتها بشيء كثير من البث المشجي، وقد أخذ صوتها يخف وينساب ليناً وينفث بحرقة ولوعة:

إني ماني رايده والله ماني رايده: العشره بلا فايده.. يا خي..

وعلى حين غرة، وفي أعقاب النغم الضائع، تذكرت كل شيء، في إيماضة قوية خاطفة وجدت ذاكرتي هذا الذي كانت تبحث عنه منذ طويل فلا تظفر به. أجل انها قصة حب، قصة حب فطري، ساذج، ولكنه عنيف. وكأنما كانت هذه الأغنية الشعبية قد أنشئت لتروي مأساة هذا الحب!

كان ذلك منذ سنوات. وكنت يومها أقيم في مدينة اربد تلك المدينة الغيداء، الجاثمة على صدر سهل افيح، يرتفع عن الغور اللافح من جهة الغرب ارتفاعاً عظيماً، ويمتد بعد ذلك امتداداً يكَلّ البصر من بلوغ مداه. إنه أعظم وأوسع اقليم في هذه البلاد، وهو إلى ذلك وافر المحصول من الحبوب والغلات والفاكهة، وفيه أكثر من مائتي قرية صغيرة وضيعة متناثرة في هذا المدى الواسع الممتد حتى مرتفعات عجلون وهضابها المَريعة، تتوجها كروم العنب التي تظلّ خضراء زاهية

الخضرة طيلة أشهر الصيف، وقد اختبأت بين أوراقها المخملية عناقيد العنب بحباتها البلورية الكبيرة المتلألئة ذات الرحيق الثّر والشذى العطري.

وقد دعيت في أحد الأيام إلى تناول طعام الغداء في قرية «خضرا» على بعد خمسة عشر ميلاً من اربد.. قرية اشتهرت بزيتونها الفاخر وزيتها الدسم وغلاتها الوفيرة واتصف أهلها بالسخاء وكرم الضيافة وسماحة الأخلاق. وهم عشائر وحمايل لهم عادات وتقاليد موروثة كما هي الحال في قرى الأردن ومضارب بدوه في الصحراء.

دخلنا القرية قبل الظهر، وكنا جماعة من كبار موظفي ذلك اللواء، فراعنا وهزّ مشاعرنا شباب القرية وقد خرجوا يستقبلوننا على صهوات جيادهم وهم يطلقون رصاص بنادقهم في الفضاء، ويتسابقون في كر وفر، ويبدون من مظاهر الفروسية والشجاعة ما يبهر العقول، مبالغة في الترحيب بنا والابتهاج بمقدمنا. وكانت شمس أواخر حزيران قد صوحت سنابل القمح، فاستحالت إلى لون الذهب الخالص، لا تكاد تهب عليها أنسام الشمال رخية لينة، حتى تترنح ثم تنحني ذؤاباتها، وقد مستها هذه الانسام، ثم سرعان ما ترفّ وتهتز كلها وتسلس قيادها للريح تموجها وكأنما هي تهدهدها. فلا تعود العين تبصر إلا ما يشبه صفحة نهر من ذهب يُرعشها - على مدى البصر - موج خفي قصي، لا تراه العين، إنما تتبين أثره في هذا الاهتزاز الخفيف المتصل المتسق اتساقاً معجباً ترتاح له عيوننا المتعبة نحن سكان المدن، وتجد فيه أعصابنا المكدودة سكينة، ما أكثر ما افتقدتها في حمى المدن وضجيجها الفائر.

إن من لم يعش أياماً أو على الأقل ساعات بين الحين والآخر في مثل هذا الجو الريفي الطلق، ومن لم يشاهد هذه الحركة النشيطة الدائبة في الحصاد والدراسة حول البيادر، وهي ترتفع أكواماً وتلالاً من الذهب، واقبال الفلاحين على عملهم بهمة وعزيمة وقد لوحت الشمس وجوههم فأكسبتها سمرة محببة، أجل أن

من لم تكتحل عيناه بسحر هذه الآفاق المترامية الزاخرة بخيرات الأرض أمّ الخصب، لا يستطيع أن يبارك حقاً جهد الانسان بين أحضان أمه الطبيعة، ولا يستطيع أن يستشعر سعادة الانسان الذي لم تنبت صلته بأرض بلاده أمّ الخير وينبوع البركة كلها!

دخلنا القرية إذن قبل الظهر بقليل، سعداء بأن تسرح أنظارنا تستجلي هذه المفاتن جميعاً، حتى أشرفنا على الساحة الواسعة وقد انتثر الصبيان في أرجائها يلعبون ويتلاغطون ويلاحق بعضهم بعضاً، ثم يجتمعون على ونام، ثم سرعان ما ينفرط عقدهم فينتشرون مرة أخرى متصايحين متهللين مرحاً، رغم مظاهر الفاقة البادية على أكثرهم، يشي بها هزالهم ورثاثة ثيابهم... .

ومن الدرب الطويل المؤدي إلى ساحة القرية وإلى أزقتها وبيوتها الفقيرة ومضافاتها الواسعة، يتفرع طريق معبد، يقوم على جانبيه صفان من الشجر المثمر الوريق، هو طريق المدرسة وما وراءها من حقول. وقد استرعت انتباهي فلاحة شابة مقبلة من هذا الدرب تسير وراء بقرات سمان، وما أن أصبحت على بعد خطوات منا حتى بهرني قوامها المجدول ونهداها الراسخان النافران ومشيتها المتزنة ووجهها الأسمر الحزين بقسماته الدقيقة الفاتنة، وذلك الأنف الصغير الجميل، هاتان العينان السوداوان الواسعتان الوطفاوان، وذلك الوشم الخفيف المحبب حول ذقنها. انه وجه يتفرد بطابع خاص ومعارف مميزة من الحسن والجاذبية، تعلق بذاكرتك وخيالك و.. قلبك.. وجه يكفي أن تراه مرة لكي لا تنساه أبداً...

كانت تسير وراء بقراتها متئدة الخطو، معتدلة المنكبين، مستوية الظهر في ثوب بنات الشمال، الثوب الأسود البسيط المحبوك عند النهدين حتى العنق، الواسع المرسل فيما دون ذلك حتى الكعبين.. وكان جمالها الحزين قد ملأ نفسي، فالتفتّ إلى صديقي المدعي العام في اربد أسأله عنها فقال هذه «زينة» ألا

تعرفها؟ ألا تعرف حكايتها مع ابنيْ عمها؟.. انك لا تجد في هذا الاقليم الكبير من لا يعرف «زينه» وقصتها.. ولكنك لم تأتِ إلى هذا الاقليم إلا منذ شهور.. سأروي لك قصتها عند مضيفنا بعد الغداء.

فلها إذن قصة.. وهذا الجمال.. لا بد أن خطباً من الخطوب قد أشاع فيه هذا الشحوب وهذا الحزن.. وبقيت مشغول الذهن بها حتى وصلنا إلى دار مضيفنا مختار القرية، وكان قد أعد لنا في بستان فاكهة وزهر «مناسفَ» الأرز واللحم وصحاف اللبن الرائب وخبز الطابون الشهي وألواناً شتى من فاكهة القرية، فتحلقنا حولها وأصبنا منها حتى امتلأنا، ثم أخَذَنا فُتار الشبع وراوحت وجوهنا أنسام الظل الوريف، فاضطجعنا على وسائد ومتكآت، ورحنا نتحدث ونرشف القهوة السادة ذات الأرج الزكي، وطفق صديقي المدعي العام يروي لي قصة «زينه»:

لم تكن زينه أجمل بنت في هذه القرية وحسب، بل كانت من أجمل بنات الاقليم، وكانت بهذا الحسن النادر مهوى أفئدة الشباب، ولكنها كانت باتزانها واحتشامها تتأبى عليهم جميعاً وتضع بينها وبينهم حداً من الترفع وعراقة الأصل وصولة العشيرة، لا يجرؤون على تجاوزه. وكان لها من أبناء عمومتها اثنان شقيقان ما يزالان في ريق الشباب، وقد أحبها الاثنان حباً عاصفاً، آخذاً بالكليتين. وكانت «زينه» نزولاً على تقاليد العشيرة من حق «عواد» أكبرهما، وكانت هي في الواقع تحبه وتؤثره على شقيقه، «فالح» وكان هو جديراً بحبها. فقد كان من فتيان القرية الأشداء، مرتفع القامة، عريض المنكبين، لوحت الشمس وجهه ذا القسمات التي كأنما قدت من الصخر، وكان إلى هذا فارساً، شجاعاً، ذائداً عن عشيرته. فكانت القرية تعتز به، وتهابه، وتركن إليه، في حين كان شقيقه ضئيلاً، قليل المنّة، منطوياً على نفسه، وصاحب ذكاء ودهاء ومكر. كانت القرية ترى أن «زينه» ستكون من نصيب «عواد» ولا ريب، وأن حب «فالح» لها

لن يلبث أن يزول بعد زواج شقيقه، وأن الأمر لا يعدو أن يكون غيرة موقوتة، أو نزق شباب عابر. ولقد شهدت القرية من ضروب التعاون بين عواد وزينه ما أذهلها حقاً، كانا في الحقل وعند كروم العنب وأشجار الزيتون وحول معاصره يداً واحدة وقلباً واحداً. وكان يلوح للجميع أن «زينه» إنما تعيش في ظل «عواد» وفي كنف حبه وحمايته. وكانت هي مع ذلك لا تجهل حب فالح وغيرته من شقيقه الكبير. وكان يبدو عليها أحياناً من الوجوم والسهوم وشرود النظر ما ينم عن خشيتها مما قد يؤول إليه الأمر من شر ونكر إذا استفحلت هذه الغيرة. وكانت لذلك تردّ فالحاً من الطمع في حبها برفق، وتتأبى عليه في لين، وتظهر له عطفاً ومودة وحناناً، وكان هو يطلب حباً وهياماً. كانت تراوغ وتداور وتحاذر، لا يكاد يخيل إليها أنها أدنته حتى تصد نافرة، ولا يكاد يبدو لها أنها أقبلت عليه حتى تعرض عنه موجسة خائفة. وكان هذا يهيجه ويضرم النار في بدنه ويزيده حرقة تفري نفسه فرياً فيروح يلاحقها بحبه، ويظهر لها وجده وما يلقى من تبريح هواها به.. وكان هذا الصراع قد أضناها وأقضّ مضجعها وابتلاها بالوساوس والهموم.. فهي تخشى على حبها لعواد، وهي تخشى شقيقه هذا الذي أعمته غيرته وعصف به هواه المستبد حتى أبغض أخاه وانطوى له على الحقد والمقت، وتخشى في النهاية الفضيحة وما تؤدي إليه من كوارث... .

وفي أمسية أحد أيام الصيف في موسم الحصاد كان عواد عائداً من الحقل وحده في ذلك الدرب الطويل الموحش المؤدي إلى ساحة القرية، وكان أخوه فالح كامناً له وراء شجرة التوت الكبيرة القائمة على ناصية الطريق. وفيما كان عواد يسير متمهلاً، سعيداً بما أدى من عمل، غارقاً في أحلام حبه «لزينه» أجمل بنت في الاقليم، إذ بعيارين ناريين ينطلقان من وراء شجرة التوت ويستقران في ظهره ويرديانه قتيلاً يتخبط في دمائه... .

وصمت صديقي لحظة وأرسل بصره خلال أغصان الأشجار المثقلة بفاكهتها،

ثم عاد يقول وعلى شفتيه ظل ابتسامة: لقد أثار هذا الحدث القرية كلها، وأوشك أن يبدل هدوءها وأمنها ذعراً، ويحدث فيها فتنة من أعظم الفتن تسيل فيها الدماء وتزهق الأرواح ويصبح للبارود والنار فيها الغلبة والسلطان.. لولا أن «زينه» أجل «زينه» نفسها... التي استدعيتها مع من استدعيتهم للتحقيق في هذا الحادث في نفس تلك الليلة، كان لها فضل الارشاد إلى القاتل بوحي من قلبها الجريح.. وبالفعل بحثنا عنه فلم نجده ولم يعثر له على أثر حتى اليوم.. وختم صديقي حديثه قائلاً: وعلى كثرة ما رأيت في حياتي من مظاهر الألم البشري فان عيني لم تقع على مثل ألم زينه، ولم يستشعر قلبي الرهبة كما أستشعرها تلقاء تلك الأنثى.. التي نكبت بحبها.. وبالرجل الذي وطنت النفس أن يكون رجلها دون شباب القرية جميعاً... لقد خيل إليّ آنذاك وأنا أنظر إلى عينيها السوداوين الواسعتين المتقدتين أنه لو قدر لها أن يقع فالح في قبضتها فلن تتركه إلا جثة ممزقة تلقيها للكلاب الضالة في القرية... .

أنهى المدعي العام حديثه وسرح نظره مرة أخرى يتأمل أشجار التفاح وعرائش الكرمة المثقلة بقطوفها، ثم عاد يرشف القهوة السادة وينفث دخان سيجارته في الهواء. أما أنا فقد تراءى لي منذ عرفت زينه أجمل بنت في الاقليم الشمالي، واستمعت إلي قصتها المؤسية أن هذا الصوت الرخيم الذي ينبعث من الراديو بين حين وآخر مردداً بلوعة وأسى:

ابن عمي ان غاب عني   يسلب العقل مني...

إنما يروي هو الآخر مأساة هذا الحب، بل انه ليقع في روعي أحياناً أن هذا اللحن الشجي إنما ينبعث من قلب «زينه» نفسها ترثي به حبها.. ورجلها.. الذي لا تريد به بديلاً، ويظل قلبها ينوح بلوعة تعصر القلب: «غيره ما اني رايده...»

عيد الأم

كنت قد تلقيت هذه الرسالة، فإذا هي قصة مؤسية من واقع الحياة. وما من أثر لي فيها سوى اني قومت بعض عباراتها، وحذفت منها ما لا يصح أن ينشر، وقد كتبت صاحبة الرسالة تقول:

انني أكتب إليك على غير معرفة شخصية سابقة، وإنما أنا ممن يقرؤون لك ويحبون ما تكتب. وفي الأيام الأخيرة وجدت كل من في حيّنا من أطفال وطلاب وطالبات يستعدون للاحتفال بعيد الأم... وهذا العيد بالذات تثير مناسبته في نفسي، كل عام، الألم والشجن وحرقة الذكريات.

انني أقارب الأربعين من عمري يا سيدي، وقد عشت حتى اليوم مع زوجي عيشة الهدوء والسعادة الظاهرة. والناس يفهمون أن الثراء هو كل السعادة في الحياة، وهم معذورون. ولكنهم لا يدركون أن ثمة أشياء تعزّ على المال، ولا سبيل إلى امتلاكها ولو بذل الانسان ما ملكت يداه... .

لقد ذقت طعم الأمومة مرة واحدة في حياتي، فكان لي ولد كنت أرى إشراقة الدنيا في عينيه، وكان هو شغلي، وكان هو سعادتي.. وكانت ابتسامته الحلوة تستخفني فأفرح وأمرح. وأشعر أن الدنيا تضيق عن مسرتي... وكانت نظرته تفتنني، وكلماته المتعثرة تكاد تذهب بلبي. وكنت، يا سيدي، أغني له، وأناغيه، وآخذ يديه الصغيرتين المعبودتين بين يدي فأقبلهما عشرات المرات، ثم أحتضنه

فأحس بكياني كله ينعطف، ويكاد يذوب من التحنان. وفي أحيان كثيرة كان يقع في روعي أنه أجمل طفل في العالم، وانني أسعد الأمهات جميعاً. وكنت لا أني أضع المخطط لتربيته وتعليمه، وأبني في خيالي مستقبله الباهر لبنة، لبنة، وكان والده يبتسم، ويروح يضاحكه، ويرفعه عالياً بين يديه ويقول:

- ألا ترين الرجل الكبير في هذا الطفل الصغير؟

وأقول أنا والفرحة تملأ قلبي:

- ولكنه سيظل طفلي الصغير مهما يكبر ويشتد عوده.

وتمضي الأيام مسرعة بعد ذلك، ويمرض الطفل فلا نجزع ونحسبها وعكة عارضة، ثم يشتد به المرض فيهلع قلبانا، ونأتي له بأبرع الأطباء، ولكن المرض مع ذلك لا يرحم طفولته، ولكن الداء لا يحسب في استشرائه - حساباً لأم والهة ولأب معذب مسكين. واحتسبناه عند الله، وبموته انطفأ النور الذي كان يغمر حياتنا، وخبا الضياء الذي كان يملأ علينا البيت بهجة ومسرة وأملاً... .

إنني أكتب لك يا سيدي هذه السطور وقلبي يبكي، والحسرة تنهش أحشائي. فلقد ضنّت عليّ المقادير بما لا تضنّ به حتى على قطة من القطط... أتدري، يا سيدي، انني أحمل صغار قطتنا وأوسعها تقبيلاً وتدليلاً ومناغاة، وأضمها إلى صدري، وأحميها، وأمنع عنها الأذى، وأرفّه عنها، وأرعاها كأنها أبنائي؟!

ولقد شاء الله أن لا يكون لي بعده ولد.. وانها لارادته التي نجهل حكمتها، ومشيئته التي تجلّ عن الادراك.

واني لأجد، يا سيدي، كثيراً من الحرج أن أذكر لك اننا جعلنا من الاحسان وأعمال البر شغلاً لنا، زوجي وأنا، ومبرراً لوجودنا. وبقدر ما حرمنا من الولد

بقدر ما أغدق علينا من مال، فكأنه كان التعويض عن فلذة كبدنا التي ثكلنا..
ولكن هيهات...

وها هو عيد الأم، يا سيدي، توشك أن تشرق شمسه على الأمهات والأبناء، والأطفال يعدّون هداياهم لأمهاتهم، وتدربهم مدارسهم على التعبير عن هذا العيد الانساني الجميل بالكلمات المناسبة، والتمثيليات اللطيفة، والرقص الايقاعي البارع، وعرض الأشغال اليدوية البديعة، وستهرع الأمهات إلى قاعات المدارس وأبهائها ليشاهدن ويسمعن ولتزداد سعادتهن بأبنائهن وبناتهن... .

هذه المناسبة، يا سيدي، شد ما يشوقني دائماً أن أساهم فيها بحظ وأشارك الآخرين فرحتهم ومسرتهم.. وإني لأشتري الهدايا واللطائف وأقدمها - طيّ السر والكتمان - لعدد كبير من الأطفال الفقراء لكي يفاجئوا بها أمهاتهم في صبيحة العيد السعيد.

وصحيح، يا سيدي، أن المدرسة التي شدناها أنا وزوجي، والمبرات التي أنشأناها، والهبات السخية التي قدمناها ولا نزال نقدمها لدور العلم الخاصة، وحضانة الأطفال، والمنظمات الخيرية والمياتم، صحيح أنها تحمل إلينا بعض العزاء وسكينة القلب، إلا أنها لا تسدّ أبداً هذا الفراغ الكبير الذي نجده في صحراء حياتنا.

أما في عيد الأم، يا سيدي، فان الهدايا واللطائف الكثيرة التي أقدمها للأطفال المعوزين لكي يهدوها إلى أمهاتهم تشعرني حقاً بضرب من السعادة، وتوقظ في صدري أنبل مشاعر الأمومة والانعطاف... إلا أنها هناءة يشوبها ظل حسرة، وسرور يمازجه طيف أسى، وحلاوة يخالطها مذاق مرارة... ذلك أنني أرى في أحداق كل فتى وفتاة صورة الابن الذي فقدته، وأسمع في نبرة كل طفلة وطفل ضحكة الولد الذي ثكلته، ويطالعني من عيون الأمهات الهانئات

بأطفالهن خيال الأم التي كنتها.. وكثيراً ما وجدتني أضحك وفي مآقي الدموع، ويهزني الطرب وتعتصر قلبي الحسرات، وتستخفني فرحة العيد ويسحق صدري الأسى.

ولقد ارتحلت، يا سيدي، مع زوجي، إلى اوروبا مرات، فشاهدت مفاتن باريس، ومغاني روما، وجنات فيينا، وتماثيل عباقرة الفن والحرب فيها، وكنت أنشد النسيان وأطلب السلوى ولكن هذه الرحلات الطويلة كانت أشد اثارة لأشجاني وكوامن الحزن في نفسي.. وكنت أقول: ماذا لو كان طفلي معي يرى ما أرى، وماذا لو كان من أبناء الحياة فيلهو ويمرح ويأخذ بحظ مما يجد فيه الأحياءُ المتعة والجمال.. وما كانت عيني لتقع على أم وبنيها في حديقة عامة إلا ويتفطر فؤادي، وما كان ضحك الأطفال وصخبهم وتصايحهم وركضهم إلا ليزيد نار اللوعة في قلبي ضراماً... وكنت أعود إلى الفندق الفخم فلا أجد الانس ولا أحس الراحة ولا يرقأ لي دمع... .

وحاولت، يا سيدي، أن أتبنى طفلاً فلم تطاوعني نفسي، وقلت هيهات أن يكون له في قلبي ذلك الحب، وهيهات أن أجد الاحساس بأنه بعض لحمي ودمي وكياني... فأقصرت، واكتفيت بالذكرى المؤسية، وارتضيت بأن أعيش مرة أخرى، في ساعات وحدتي، تلك الأيام التي كان لي فيها طفل فمرت مرور الأحلام، وانقضت كما تنقضي الأوهام... .

تلك هي مأساتي كأم، أيها السيد الكريم، وما كان لقلمي الضعيف أن ينقل إليك إلا ظلالاً تصور بعض حزني وبعض ما أجد من لوعة الفراق وقسوة الحرمان... ثم دعني أحدثك من بعد حديثاً آخر يصور لك مبلغ حب الابن لأمه، ومنزلة الأم في قلب ولدها، فتوقن معي أن الله سبحانه هو الذي صنعت قدراته هذا الحب الخالص الذي لا يطاوله حب، فجعلت بعضه في قلب الأم، فكان هو سر وجودها، وسبب كيانها، ونور حياتها، وجعل بعضه الآخر في قلب الابن فكان هو

الرحمة في أخص خصائصها، وهو الحنان في أرفع معانيه، وهو وشيجة الدم في أتم وأكمل صورها.

أردت يوماً أن أقدم بعض الهدايا واللطائف لفتى وشقيقته من ذوي الفقر والخصاصة.. وكان في تلك الهدايا ملابس وثياب وأحذية وساعة يد ثمينة. وقلت لهما: «انها لأمكما تقدمانها في عيد الأم فتسرّ وتبتهج ويزداد حبها لكما..» وبرقت عينا الفتى لحظة، ورفع نحوي وجهه، وقال بلهجة مؤدبة ولكنها حاسمة، حازمة، تنم على الرجل الذي سيكونه:

– كلا، يا سيدتي، وشكراً لك. سنقدم لأمنا شيئاً نشتريه من حُرّ مالنا...

وقالت الفتاة وفي عينيها سحابة من دموع:

– حفظك الله يا سيدتي ورعاك. لقد حسبنا لهذا اليوم حسابه. وسنقدم لأمنا شيئاً حصلنا عليه بتعبنا وعرقِ الجبين، ولن يكون سرورها بشيء كسرورها به...

وفي صبيحة يوم العيد قدما لها فستاناً جديداً، وحذاء، وطاقة أزاهير برية جمعاها من السفح الذي يقوم فوقه الكوخ الترابي لهذه الأسرة الفقيرة، ويقابله في الطرف الآخر القصر الكبير الذي نسكنه نحن... .

ربما تتساءل، يا سيدي: ولكن من أين كان لهما المال القليل الذي اشتريا به الثوب والحذاء؟ لقد استدرجت الفتاة، فيما بعد، فأفضت لي بسرها وسر شقيقها على استحياء فقالت:

– كان أخي يعمل في إجازته المدرسية الكبيرة، وفي غيرها من الاجازات القصيرة: مرة يدهن خشب النوافذ، ومرة يرعى غنيمات على السفح، وربما قام

بحمل بعض الأثقال، وكان يقدم أكثر مما يكسبه لوالدنا، ويدّخر أقله لهذا اليوم، لا يعلم بسره أحد غيري..

وسألتها:

– وأنت ماذا فعلت؟

قالت وهي لا تعرف كيف تداري خجلها:

– أواه! أنا لم أتعب كثيراً.. لقد صنعت قطعاً من أشغال الصوف لبعض من نعرف من الموسرين، وكنت أعطي من أجرها شيئاً لأمي وأستبقي شيئاً... .

وقلت:

– وكان لك ولأخيك، مما ادخرتما، هذا المبلغ الذي اشتريتما به فستاناً وحذاء.. أليس كذلك؟

وابتسمت الفتاة وقالت:

– هو ذاك يا سيدتي.. وكان أول فستان جديد ارتدته أمي، وأول حذاء جديد لها، بعد خروجنا من البلاد.. لاجئين هنا.. في طرف هذا السفح...

والتفتت إليّ قبل أن تمضي وأردفت تقول:

– لقد فرحت أمي كثيراً بالفستان والحذاء.. واحتضنتنا.. وقبلتنا.. وبسطت يديها بالدعاء لنا...

وبكيت يا سَيدي، كما لم أبك في حياتي قط... واشتهيت من أعماق روحي لو أني كنت تلك الأم... وأحسست أن تلك المرأة الفقيرة تملك كنزاً لا أستطيع أن

أحلم بمثله، وتراءى لي أن فستانها هو أغلى الفساتين وأجملها، واني لن أملك مثله أبداً.. ورأيت بعين خيالي ذلك الفتى وقد استوى شاباً ملء السمع والبصر، منيف القامة، رائع الطلعة، حلو الشمائل، عظيم الرحمة بوالديه، عاملاً على اسعادهما، جاهداً في نيل رضاهما. وتمثلت الفتاة وقد غدت بهجة للخاطر، وأنُساً للقلب، بحسنها ورقتها، وماء الصبا الذي يترقرق في اهابها.. وصغر في عيني القصر، وهانت الثروة، ورأيتني أسير في درب الحياة الموحشة وكأني أضرب في صحراء خاوية.. وأنّت أحشائي، ونفرت الدموع من عيني غزيرة، كاوية، وتركتها تسح وأنا أشد ما أكون شعوراً بالوحدة المخيفة. وهتفت من أعماق أمومتي المعذبة:

«غريبة.. غريبة في الحياة .. على كثرة الأهل، ورفعة المنزلة، ومحبة الزوج، ووفرة المال...».

تلك هي قصتي، يا سيدي، وقد أوجزتها لك، متطفلة عليك، مستبيحة من وقتك ما ليس لي فيه حق... ولكن كان لا بد أن أبث ما في صدري عسى أن أجد شيئاً من السكينة، والمشاركة الوجدانية، في هذا العيد، عيد الأم... .

وهنيئاً لكل أم ما تجد في هذا اليوم من بر ورحمة وخالص الحب... .

الغلاف الأخير

الأستاذ محمود سيف الدين الايراني مؤلف هذه الاضمامة من الأقاصيص كاتب طليعي كبير عمل في حقول الفكر المختلفة اجتماعاً وأدباً وفناً، تمتاز كتابته بالنظر إلى الكون والحياة نظرة واقعية صحيحة، أما عبارته فذات طابع ايحائي فيها من وثبات التعبير ما تعد معه قطعة موسيقية موقعة، أو شعراً منثوراً رائعاً.. ويكفي أن يقول فيه الدكتور ناصر الدين الأسد:

«قصاص فنان أصيل، قلمه ريشة، وألفاظه خطوط وألوان، وظلال وأنغام، وقصته جو مصور كامل ينساب إليه القارىء انسياباً طبيعياً، ويعيش مع شخوصه وحوادثه حياة نابضة واقعية».

وهذه المجموعة القصصية اسهام ممتاز بحقل القصة القصيرة جمع خيوطها وظلالها من دنيا الغرب وآفاق الشرق، من حياته الخاصة في باريس - كأمير شرقي من أمراء أحلام ألف ليلة وليلة، إلى وقفة الجندي في خط النار، وصورة الأب الذي ضل سواء السبيل، فترك أولاده لأم تعرف كيف تكدح وتبني مستقبل أولادها، في وقفات طويلة تنبش خبايا الناس: قديسهم وغويهم، سويهم ونصف مجنونهم، عاملهم وفلاحهم، بخاتمة تنتهي أمام مجد الأمومة الذي تنحني له هام البشرية جمعاء.

ما أقل الثمن

(مجموعة قصص)

كلمة

ما أكثر ما يخيل إليّ انني كمن يصنع التماثيل، دأبه أن ينحتها ويصقلها ويضع في عيونها وقسمات وجوهها ومعارفها جميعاً بعض ما يعتلج في صدورها من آمال وأوهام ونوازع خير وشر، ويظلُّ يعمل فيها ازميله مرة ومحكّه مرة، صابراً على الجهد والمعاناة حتى ليكاد ينطقها ويجعلها تفصح عن أسرارها...

وأنا لو لم أكن كاتباً لكنت، على التحقيق، صانع هذه التماثيل التي تفصح وتبين، لفرط ما يستهويني تأمل الشخوص واستبطان دخائلهم والنظر في أطوارهم وأحوالهم في اطار من ظروفهم وبيئاتهم وأوضاعهم.

وانه ليسرني أن أقدم لك حكايات أولئك الشخوص، فان فيهم ملامح منك ومني ومن الكثيرين الذين تراهم العيون.

وعسى أن ترتاح إلى لقائهم - هنا - وتكون بعد اللقاء ألفة

وتكون صداقة.

«محمود»

الاهداء

أيتها العزيزة

... لا أدري كيف كانت تكون حياتي لولاك. ولقد انقضى من صحبتنا، في درب الحياة، عشرون عاماً أو تزيد. وكان من ثمراتها هذه الوجوه الصباح التي نحبها والتي تؤنس وحشتنا وتمدّ لنا في دنيا الآمال أفقاً مضيئاً نستشرفه فنرضى ونطمئن ونسأل الله مزيداً من الخير والنُعمى.

فهل تأذنين أن أهدي لك هذا الكتاب فتتّم مسرّتي.

(م)

قطار منتصف الليل

كان القطار يهجم على الليل برعونة، فيسمع لزمجرته دوي مخيف يرج الأرض ويهز المسافرين. وكان يقذف من فوهته، بين الحين والحين، دخاناً وشرراً. حتى إذا نال منه الاعياء وهن واتأد وراح يلهث. ثم لا يلبث أن يعود إلى هجومه مزمجراً مدوياً كأنما قذفته بقوة رهيبة يد عملاق في جوف الليل البهيم. عيناه فقط كانتا تشقان الظلام وتضيئان له ما حوله. وكان المسافرون في جوفه هاجعين، والأضواء كابية تنير أنصاف وجوههم، وتغرق في الظلام أنصافها الأخرى، وكانت رؤوسهم تهتز وتميل إلى اليمين مرة، وإلى اليسار مرة، فيتعاقب عليها ظل ونور، وقد أسلموا أمورهم ومصائرهم إلى هذا الوحش الذي انطلق بهم يشق الظلام ويرج الأرض وينفث غضبه وابلاً من شرر، وسحباً من دخان، وهديراً مروعاً يرعد الأجسام.

وفي الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل تململ مراقب التذاكر في مقعده، وحاول أن يرفع رأسه، ثم عاد يغط في نومه برهة أخذ بعدها يستفيق بجهد، ففتح عينيه شيئاً ما، وتثاءب وتمطى، ومد رجليه. ورغم هذا كله فقد كانت نفسه لا تزال تحدثه بأن يعود إلى اغفاءته اللذيذة. وهكذا نشب في نفسه هذا الصراع الخفي الذي كان يعانيه كل ليلة، في مثل هذه الساعة، منذ أعوام طوال. كان يعلم دائماً أن الواجب ينتصر في كل مرة، فينهض عندئذ متثاقلاً، متأففاً، وينظر في ساعته، ثم يدفع بيده إلى جيبه فيتناول مقراضه ويروح يحرك

قدميه ليخرج من مقصورته الصغيرة إلى الممرات، وهو لا ينفك يدخل بأصابعه الغليظة صفاً من الأزرار النحاسية الصفراء في عُرى سترته.

كان يقع في روعه أن عذابه الحقيقي يبدأ من هذه اللحظة بالذات: لا بد أن يقرع أبواب المقاصير بيده أو بمقراضه، ولا بدّ أن يقول بصوته الأجش «تذاكر... تذاكر...» ولا بد أن يتناول كل تذكرة فينظر فيها ويقلبها وجهاً لظهر، ثم يعمل فيها مقراضه ويعيدها إلى صاحبها ويأخذ غيرها... وغيرها... إلى ما لا نهاية.

وفي هذه الليلة نفسها كان صوت خافت، ضئيل، يهمس له في نفسه: «استرح يا رجل.. استرح... وهوّن عليك.. ألا ترى أن الاسترخاء... هكذا... أحلى وأمتع.. وماذا يحدث للدنيا لو أغفيت بضع دقائق أخرى؟ أتراها ستذهل.. وتكفّ عن الدوران؟. انك والله لأحمق لو خطر لك مثل هذا الخاطر. عد إلى اغفاءتك... أم ترى أن الركاب سيهربون من النوافذ وهذا المارد الجبار منطلق بهم كأن به مساً من جنون؟..»

اعتدل عبد الصبور في جلسته وأخذ يقول: «أجل والله» اني لأحمق. وما أنا إلا عبد لهذا القطار اللعين..» ونهض وراح يعمل باصبعيه في أزرار سترته الزرقاء، وكان يلوح له أن حياته كلها قد التهمها القطار.. والواقع أن هذا الصوت الهامس لم يكن الليلة أول عهده به، فقد اعتاد سماعه والاصغاء إليه في الشهور الماضية. ولا ريب في أن كل ما كان يقوله صحيح جداً.. ألم يكن شاباً يوم بدأ عمله في هذه القطارات. وماذا هو الآن؟ لقد تجاوز الخمسين منذ طويل.. وهل كانت ركبتاه تتعقدان كما صار يحدث له في هذه الأيام كلما هم بالنهوض أو سار في الممرات أو هبط من القطار في احدى المحطات.. وهل كان له هذا الكرش إذ ذاك؟... ألم يكن وسيماً ضاحك السن، متألق العين خفيف الحركة، فغدا اليوم أشمط، أربد، معروق اليدين، مبهور الأنفاس، ضعيف السمع والبصر.. وما هذا الذي كان يفعله هذه السنين الطوال؟ تذاكر... تذاكر... كلها

للقرض من حافاتها... ثم السير في هذه الممرات الطويلة الضيقة... في الليل... في النهار... في الحر... في البرد... وفي جميع الظروف.

ولقد تزوج.. وأنجب أطفالاً.. انه لا يدري كيف كبروا اليوم وكيف تربوا.. انه مربوط إلى القطار أبداً.... يقرض أيامه ولياليه. وعمره كله لا ينفك يقرضه من أطرافه شيئاً فشيئاً، تماماً كما يفعل هو بتذاكر المسافرين.. وسيأتي عليه لا محالة.. وسيُلقى به بعد ذلك ثفاله تافهة.. لا خير فيها.. كما يلقي المدخن عقب سيجارته.. وكما يزهد المسافر ببقية تذكرته.. وأحسّ عبد الصبور بالأسى يفري قلبه.. ورثى لنفسه، وتأوّه وقال: (حظ.. الدنيا كلها حظ...).

وخطا مراقب التذاكر خارجاً من مقصورته الصغيرة وهو لا يكاد يحافظ على توازنه إلا بمشقة، ولعن القطار، وبصق على الأرض، ثم أخرج منديله وتمخّط وسعل، ومرّ باصبعيه على شاربيه فبرمهما من طرفيهما وجعل لهما ذؤابتين مشرئبّتين وتنحنح مرة أخرى، وقرع باب أول مقصورة إلى يساره، وقال بصوت بذل جهده كله ليكون قوياً، عميقاً، متزناً: «تذاكر..» وكانت في المقصورة امرأة عجوز وأخرى نصف وطفلان. وقال عبد الصبور في نفسه: «أسرة ينقصها ربها.. ترى.. أين هو؟» وقرع باب المقصورة الثانية. انه يقرع أبواب هذه المقاصير بلطف وأدب، فهم ركاب الدرجة الأولى. أناس يهمهم أن ينعموا بالاحترام كما ينعمون بالراحة. وكان في هذه المقصورة رجل ضخم الجثة، أنيق الملبس، وإلى جانبه غادة حلوة في العشرين أو الثانية والعشرين من عمرها على الأكثر. رفعت رأسها وصوبت إليه عينين متسائلتين. ومد إليه الرجل الضخم تذكرتين دون أن يرفع نظره عن صحيفته في يده... ومضى عبد الصبور عنهما وهو يسائل نفسه: «أتراها ابنته؟ بنت حلوة ولا ريب.. لا يعقل أن تكون ابنته، انها..» وفي المقصورة الثالثة وجد شباناً ثلاثة، تلقوه ضاحكين، فتضاحك لهم، وارتفعت أصابعه إلى أطراف شاربيه فلمسهما برفق.. وسأله أحدهم «متى نصل.. يا

خال؟» فنظر في ساعة يده وقال: «بعد ساعة.. ساعة بالضبط» وحيّاهم ومضى راضياً عنهم. ثم تراءى له أنهم ربما هزئوا به بعد انصرافه، وربما قلّده أحدهم ساخراً: «تذاكر.. تذاكر..» فتجهم وجهه وزوى ما بين عينيه وقال: «شباب هذه الأيام فاسقون... والعياذ بالله...».

كان عبد الصبور قد نسي، وهو يرثي لحاله ويتحسر على عمره الضائع في القطارات، نسي أنه يحب في الواقع عمله، أو هو، على الأصح، يحب متعة يستفيدها من عمله، هي متعة الاتصال بهؤلاء الذين يعيشون ساعات من حياتهم في جوف القطار. انها صلات عابرة مبتورة في أكثر الأحيان، إلا أنها كانت تتيح لمراقب التذاكر أن يحادثهم أحياناً، ويصغي إليهم أحياناً أخرى ويتأملهم ويفكر فيما يبدو منهم، ويراقب حركاتهم وسكناتهم وعلاقات بعضهم ببعض.. وعلى الأيام صار في وسعه أن يفهم أشياء كثيرة منهم، ويتخيل أموراً ووقائع وحوادث عنهم، وفي وسعه، أكثر من هذا، أن يدرك أن ثمة ابتسامات يكمن وراءها الحزن أو الغضب، أو الحسرة والأسف، أو الرياء، والمكر والخداع. وأصبح في مقدوره أن يترجم إلى قصص وحكايات ما ترويه العيون الضاحكة والمتألقة، أو التي يطل منها الحزن، أو التي تنم على الانكسار أو اليأس أو الذلة أو الختل.. حكايات ما أكثرها... يستطيع عبد الصبور أن يرويها، وهو يبرم شاربيه، أو يميل طربوشه إلى اليمين، أو يضرب كفاً بكف وهو يردد: «ا حول ولا قوة إلا بالله..» وكان يركّب قصصه تركيباً من أشياء متعددة تبدو له.. يركبها من اختلاس النظر إلى الابتسامات، والنظرات والحركات.. وما يسمعه من همس غامض أو كلمات صريحة.. أو أنين متوجع.. وكان يكره الضحكات العالية التي تخرج من حناجر أصحابها، وقد فتحوا لها أفواههم على وسعها. كان إذ يسمع هذه الضحكات تسري في بدنه رعشة، ثم يطغى عليه ضرب من الاشمئزاز العميق ويحس كأنه يريد أن يتقيأ.. وكان يقول لأصدقائه في أوقات فراغه القليلة، وهو جالس في القهوة يدخن شيشته: «حين يضحك الانسان مثل هذا الضحك الكريه ينقلب

قرداً... » وعندئذ كانت تظهر في خياله الأفواه المفتوحة، والأشداق المطوطة إلى حد التوتر، والأسنان الصفراء المتآكلة والنواجذ النخرة الضارية إلى السواد، واللثات الكريهة، والعيون التي تغوص في وقابها فلا تكاد تبين.. فيهز رأسه مشمئزاً ويروح يردد: «كالقرود... أجل كالقرود... » ثم يبصق على أرض المقهى ويمسح شفتيه بمنديله ويعود يستل أنفاس شيشته بهدو...

تابع عبد الصبور سيره في الممرات، في طريقه إلى ركاب الدرجة الثالثة... وقال في نفسه وهو لا يكاد يتماسك من اهتزاز القطار: «لماذا لا يكون هنالك درجة رابعة.. وخامسة؟» ومعنى هذا في قرارة نفسه: ان بعض ركاب تلك الدرجة كثير عليهم أن يكونوا فيها. انهم في رأيه، أحطّ من أن يكونوا هناك... فهم: «جماعة أوباش.. قذرون...»

لم يكن مراقب التذاكر يكره الناس. تلك سبّة لا يرضاها لنفسه. ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يغضّ الطرف... ان بعضهم لا يكاد يمد إليك تذكرته حتى تتصاعد إلى وجهك منه رائحة تزكم الأنف... وأنف عبد الصبور، بصورة خاصة، شديد الحساسية، يلتقط بسرعة ودقة كل رائحة مهما يكن نوعها، كما يلتقط رأس الابرة الممغطسة برادة الحديد من أي جهة حوله، هؤلاء يجعلونك تكره الدنيا والخلق... وحسبك أن تمسّ تذاكرهم بأطراف أصابعك ثم تعمل بها، في مثل لمح البصر، مقراضك دون أن تكلف نفسك مشقة الحديث، وعليك بعد ذلك أن تلوي قدمك وتمضي لترى غيرهم... وغيرهم... ولتملأ معطسك من الروائح الكريهة...

«تذاكر... تذاكر... » قالها متأففاً، مشمئزاً، وهو يقرع الحواجز الخشبية لكي يفيق النائمون. وكان لا ينفك يسعل ويلهث ويسد أنفه مرة ويبصق مرات، ولا يكاد يلتقط أنفاسه وهو يقول «تذاكر... تذكرتك من فضلك... افتحوا الشبابيك غيروا الهواء... يا سلام.... روائح حلوة.. هات تذكرتك... » كان عبد الصبور يدرك ما يحدث عندما يشعرون بقدومه في الدرجة الثالثة: بعضهم

يتكوّر تحت المقاعد، وبعضهم يخرج من النوافذ ويتسلق القطار إلى سطحه وغيرهم يختفي حيث لا يدري أحد... هذا فريق لا يحمل تذاكر، ويسافر مجاناً ويجعل من القطار مسرحاً لخفته.. ومهارته في التسلل والاختفاء هرباً من وجه عبد الصبور. فقراء مشردون...؟ ربما... ولكنهم، في رأيه، حتى ولو كانوا يملكون ما يدفعون به ثمن تذاكرهم، فانه يلذ لهم أن يتنقلوا في جوف القطار بالمجان، معتمدين على شطارتهم. وكان عبد الصبور يغض النظر وأحياناً إذا أمسك بتلابيب أحدهم أوسعه ضرباً وركلاً ولكماً، وسلمه للشرطة في أقرب محطة... والعبرة بمزاجه في تلك الآونة. انه يعرف الكثيرين منهم، كأنها معرفة زمالة أصيلة... وما أكثر ما تمزقت أطراف ثيابهم في يديه وهو يحاول أن يمسك بهم. انهم يفلتون من قبضته في أكثر الأحيان، وفي أقلها يقعون في الشرك. سحنهم كانت تثير عجبه. أكثرها أعجف، معروق، أو بارز عظام الخدين. وبعضهم ساذج وبسيط، يتخاذل بسرعة، ويتهالك أمامك مستجدياً عطفك، وبعضهم الآخر لا تدري أهو غبي أبله أم ذكي خبيث وهم جميعاً تزدحم بهم الدرجة الثالثة ويراهم عبد الصبور بأم عينه مرة وفي خياله مرات.. ومن أمزجتهم وطبائعهم وحوادثهم يتخذ مادة حكاياته...

في طريق عودته إلى مقصورته الصغيرة برزت «حياة» في أفق خياله. ما الذي أخطرها على باله؟ هكذا دائماً: كلما عاد من الدرجة الثالثة تذكر «حياة». ولهذا السبب كثيراً ما كان يبدأ عمله على نحو تصاعدي. من أسفل إلى أعلى. من الدرجة الثالثة إلى الدرجة الأولى. من الأسمال البالية والروائح الكريهة إلى الثياب الأنيقة والوجوه المتوردة التي تطفح صحةً وبشراً وعطراً. وكان هذا يريحه ويطمئنه.... وأطلّ من كوة صغيرة في مقصورته، وخيل إليه أنه يشاهد القطار يلتوي، ثم يكوّن ما يشبه نصف الدائرة، وهو لا ينفك يرسل من مدخنته دخاناً وشرراً ويهدر بعنف. وشيئاً فشيئاً أخذ القطار يستقيم حتى اعتدل في النهاية، وراح يصفر منطلقاً كالسهم في أحشاء الظلام.. ولم تبرح «حياة» خياله. انه

يراها تضحك، وتغمز بعينها، وتبدي سنها الذهبية. امرأة داهية ما في ذلك ريب. قصتها طويلة، بدأت من جهته هو بنظرة. كان يومها قد بدأ عمله - في الدورة الثانية - من الدرجة الأولى، على عكس ما كان يهوى. ولقد مرّ بنساء مترفات يقرأن أو يطرزن أو يتضاحكن لنوادر يقولها رجال ذوو سمت وأناقة، وحولهن أطفال كالملائكة. وكان عبد الصبور يتصور الملائكة كهؤلاء الأطفال تماماً صحة وشعوراً حريرية، وغمازات ضاحكة في الخدود، وعيوناً زرقاء وخضراء وسوداء تشع منها البهجة. وكان إذ تقع عينه عليهم يتولاه شعور من التهيّب، ويشتهي في قرارة نفسه لو لمس برؤوس أصابعه، خدودهم، مجرد أن يمسها لا أكثر. ولقد كان أولاده أطفالاً، ولكنهم ما كانوا كهؤلاء ذوي بضاضة وحسن... ولما مر بركاب الدرجة الثانية لم يولهم كبير اهتمام. لم يتلبث سوى دقائق أعمل خلالها مثقبه في أطراف التذاكر ثم أخذ ينحدر. انه يسمي ذهابه إلى الدرجة الثالثة انحداراً. كان في الواقع يحس أنه يهبط من فوق. من القمة إلى الحضيض. وكانت الروائح الكريهة التي تزكم أنفه تؤكد له أنه قد وصل...

يومئذ استطاع، على غير عادته، أن ينسى الروائح الكريهة، فقد حطّ بصره على «حياة». كانت وحدها. وكانت تعلك اللبان وتبتسم، فتبدو من بين شفتيها المنفرجتين سنٌ ذهبية براقة.. وكانت عيناها سوداوين واسعتين كحيلتين. ولم يكفها هذا الجمال فذنّبت الكحلة... ووقف عبد الصبور حائراً لا يدري ماذا يفعل وبحث في ذهنه عن عبارة يقولها ثم تحركت شفتاه بجهد وقال فيما يشبه الهمس: (تذكرة... يا ست....) وخيل إليه أنها تضحك. وكانت ضحكتها حلوة. ومدت يدها بالتذكرة. يدٌ رخصة، بضة، وأصابع مستطيلة في شيء من الاكتناز، وفيها خواتم. ثم انحسر الكم انحساراً فاضحاً عرّى المعصم والساعد وصُعق عبد الصبور، وأحس برعدة عنيفة تهز بدنه، ثم استكان وظل قلبه يخفق، وعيناه ترفّان. كان المعصم والساعد سيلاً من نار انصب بقسوة في قلبه وعينيه. وقالت المرأة: «ألا تأخذ التذكرة؟ ماذا دهاك...» وأجاب الرجل كمن أفاق من حلم:

«معذرة.. نسيت..» وسألته: «نسيت ماذا؟...» فقال: «نسيت... نسيت والسلام..» وعادت تضحك من جديد. وكانت ضحكتها جريئة مروعة. ولاح له أنها امرأة وراءها ماض حافل بالحوادث والأحداث.. وأمامها أيام مليئة بالأهوال. ومضى كالذليل مطأطيء الرأس. وظل فكره وحسه مشغولين بها طول الوقت.

هل رآها مرة أخرى.. بعد أيام.. بعد أسابيع؟ ربما. ولكنه ما تذكرها بعد ذلك قط إلا ذكر معها الرجل الذي يكرهه كراهة خاصة. هذا الرجل اسمه «أبو علي» وكان يضع على رأسه «لبدة» سوداء من الصوف المشغول، ويتأنق بامالتها إلى اليمين وكان يُزهى بقمبازه ذي الخطوط الصفراء المستطيلة، ولا ينفك يبرم شاربيه. كان عبد الصبور يكرهه، ويزداد مقتاً له كلما رآه يضع رجلاً فوق رجل وهو يداعب خيزرانته الرفيعة، وكان يتناول تذكرته فيقرضها بسرعة ويردها له عابساً. وكان من ثم يروي حكاية غريبة لأصدقائه في مقهى (السرور): كان ذاك الرجل، أبو علي، زوجها.. زوج حياة الجميلة الحلوة، أم سنّ ضاحكة، ماذا أحبت فيه؟ هكذا كنت أتساءل، والحقيقة أنها ما أحبته أبداً. اتخذته مخلب قط حيناً، وشيئاً تتقي به حيناً آخر. كانت تختبىء وراءه كأنه ستار لأعمالها.. ولعل تهوره أعجبها. رجل ابن أزقة ودروب معتمة وعلاقات مريبة تتم في الظلام. وكان جريء القلب إذا استعمل خيزرانته حين تنشب معارك الليل. وكان يحمل سكيناً ولكنه لم يستعملها قط. وكان هذا دليل جبنه الخفي، وإلا لما تلقّى ضربة سكين بارعة فوق حاجبه الأيسر كادت تودي بحياته. على كل حال كان رجلاً ينفعها.. في الملمات. وكانت هي داهية.. كشفت أمره.. وعرفت كيف تستغله..... وتستذله.. يبرم شاربيه.. ويلوح بخيزرانته ويدفع صدره إلى أمام ويعرّض كتفيه إذا سار... وهذا حسبها، ليست تريد أكثر منه.. والا افتضح أمرها.. ولقاء ذلك يفتح لها كفاً عريضة تضع فيها ما تيسر. وتصوغ أكثر ما يتبقى أساور وأقراطاً وحلياً كثيرة.. امرأة محنكة ولا ريب. وقد دربته على أن يغمض عينيه فلا يرى أكثر مما تريد.. وكان معها يتخاذل ويتضاءل. ولم يجرؤ قط أن يدعوها باسمها

مجرداً. «ست حياة» كان يقولها في شيء من الوجل... والاكبار والتهيّب وقد جعلت له حداً لا يتعداه أبداً، لو حدثته نفسه بغير ذلك مرة كانت نظرة واحدة صارمة، تردعه وتلجمه..

كان عبد الصبور عندما يبلغ هذا الحد من حديثه يسكت طويلاً، ويروح يدخن شيشته ويحتسي القهوة على مهل ولا يجيب على أسئلة أصدقائه حتى يروق مزاجه.. فيصل ما انقطع: «حياة» هذه خربت بيتي.. لولا «حياة» لكنت الآن ميسور الحال. منذ رأيتها أول مرة غدوت عبدها.. والله لو دفعتني إلى القتل لأقدمت.. في أول أيام علاقتي بها دخلت الجنة وذقت حلاوة منقطعة النظير.. أنا غير آسف يا جماعة. وقلت في نفسي: يا عبد الصبور أنت رجل محظوظ. تحبك «حياة» وتضعك في قلبها. ما صحَ هذا لأحد قبلك. كنت أتقلب في فراش النعيم، وأرى «أبو علي» الرجل الكريه، يجلس بعيداً، متأدباً، يلبي أوامري صاغراً متداخلاً بعضه في بعض. وكنت أنفق بسهولة.. لا تشتهي حياة شيئاً إلا جئت لها به.. حتى ملأت معصميها حلياً.. وكنت أحب ضحكها.. وأحب سنها الذهبية وعينيها الكحيلتين وحبات «الأويا» التي تهتز فوق جبينها، وأحب مشيتها وتثنيها، وأحب اعراضها وصدّها لأنني كنت عندئذ أقبل رأسها ووجهها وحتى قدميها... كنت أستعطفها ويعد لأي ترق لي.. ولكنها لا تدنيني إلا بحساب... فاصبر... واصبر... حتى ترضى في النهاية.

كان عبد الصبور يعود إلى صمته العميق، ويروح أصدقاؤه يسألونه: «وماذا حدث بعد ذلك؟ قل. ماذا حدث..» فيهز رأسه ويردد بصوت خافت: «لعن الله الشيطان... لعن الله حياة، ويوماً عرفت به حياة.. الذي حدث اني شعرت أن المال القليل الذي ادخرته من عرق الجبين والكدح وسهر الليل في القطارات اللعينة سنين عديدة طويلة... أخذ يذوب. كان كرمل البحر يتسرب من بين أناملي دون أن أعي. وكنت أحرم نفسي وأحرم أولادي وأنفق على «حياة». وافقت مرة أو

مرتين من غوايتي ورأيتني أسير في دروب الشيطان، وحاولت أن أقف، وأتلفت حولي، وأصلح من شأني. فقبضت يدي عنها. ويومئذ ركلتني... لم أرها متنمّرة كذلك اليوم.. كشرت عن أنيابها، ودوّرت عينيها، ووضعت يديها في خاصرتيها، وراحت ترغي وتزبد وتقول: «يا خايب يا لئيم، يا سافل، ... يا منحط.. اطلع من بيتي...» وأثبت أبو علي وجوده فجأة فرأيته يضحك من بعيد... ويبرم شاربيه ويميل لبدته.. ويتحسس خيزرانته ويتحفز.. فخرجت كالذليل.. ومضت أيام ثم عدت متهالكاً وجعلت أنفق وأنفق... لكي أنال فضلات مائدتها وفضلات حبّها... وكنت أراها أحياناً تضحك... وتغرق في الضحك.. فيقشعر بدني، ويخيل إليّ انني كالضائع.. فأكب عندئذ على قدميها... وألوذ بها.. كالمذعور أطلب رضاها... وأسألها أن تكفّ عن هذا الضحك وأنا ارتعش كالمقرور.. ثم لم أعد أملك ما أنفقه... لم أعد أملك شيئاً البتة.. وما كان أهون شأني عليها... وماذا كان يكلفها لكي تتخلص مني؟ مثل هذه المعجزات كان يتولاها أبو علي.. فينجزها بسرعة وسهولة، وعلى أحسن وجه مستطاع. وهكذا خرجت من بيت «حياة» ذات ليلة مقذوفاً بي في الزقاق المظلم، وفي جسمي من لسعات الخيزرانة ما روعني أياماً طوالاً.

كان عبد الصبور يشعر أنه بلغ القمة عند هذا الحد من حديثه، فيصمت قليلاً ثم يروح يردد: «لعن الله حياة.. لعن الله حياة..» ويقول له أصدقاؤه وهم يملأون رئاتهم بدخان سجائرهم ثم ينفثونه كثيفاً، متصلاً، متلوياً، في جو القهوة: «وهل انتهى الأمر يا عبد الصبور يا مسكين؟» كانت كلمة مسكين هذه هي التي يحب أن يسمعها، فيرفع رأسه، ويعتدل في جلسته ويمسح رأسه براحة يده ويقول متباطئاً: بقي أن تعلموا انني أمضيت مدة طويلة وأنا كالخارج من مرض وبيل. كنت في الواقع أتماثل للشفاء على مهل. وكنت أنسى ما حل بي شيئاً فشيئاً... شأن الجروح الغائرة حين تشرع تندمل.. ولكن الجرح إذا اندمل تبقى مع ذلك آثاره تذكّر به. وهكذا، بين الحين والحين، كنت أتذكر حياة... وأتمثلها في أحلامي نائماً

أو مستيقظاً، فتبدو لي أفتن ما تكون بسنها الذهبية، وشعرها المسترسل، وعينيها المتألقتين، وقدّها المياس.. فأستعيد بالله، وأتمتم كمن يهذي: «لعنها الله.... لعنها الله» ومضت الأيام، أيام كثيرة تطوي عمرنا وتهدّ بنياننا وكانت صورة حياة قد شحبت في خاطري. وذات يوم، بعد أكثر من خمس سنوات طوال، خرجت من قطار الظهر، وكان الحر شديداً، فوقفت أجفف عرقي عند مدخل المحطة. فرأيت امرأة تدنو... وتدنو.... حتى أصبحت قريبة مني... ثم مدت يدها تسألني أن أعطيها مما أعطاني الله...... فوجمت.. انه صوتها.. صوت حياة.. ولكن هذه المرأة الدميمة.. ذات الملابس الزرية قد شوهها المرض.. واعتصرتها يد الفاقة.. أتكون هي حياة؟ وقلت: «حياة هل أنت حياة؟» ورفعت عينيها الكليتين إلى وجهي وقالت: «ومن يعرفني هنا»؟ فقلت: «أنا أعرفك. أنا عبد الصبور يا حياة.. عبد الصبور هل تذكرين؟..» وبدا عليها كأنها تستفيق من حلم بعيد، ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة ميتة وقالت: «عبد الصبور.. الله يخليك.....»

لا شك في أنها كانت فعلة (أبو علي). هو الذي سرق مالها وحليها وفر بها إلى حيث لا يعلم أحد.. ولا ريب في أنها كانت تعاني من مرض دفين فاستفحل وشوهها وأفقدها إحدى عينيها، وذهب بحسنها ونضارتها.. كانت «حياة» كالجريمة.. تحمل عقابها معها.. وقد كان أبو علي.. هو ذلك العقاب... ايه.. دنيا.. عجيبة...

هل كان أصدقاء عبد الصبور يؤمنون حقاً بأن القصة قصته وقعت له بالفعل مع... حياة.. أم هي مما اعتاد أن يصنعه خياله من أشياء متعددة وصور كثيرة تبدو له... فكأن القطار نافذة عريضة يطل منها على الدنيا وأهلها فيخالسهم النظر ويلتقط من ملامحهم وأشكالهم وما توحي به نظراتهم وحركاتهم، سمات يصوغ منها شخوصه.. ليت من يدري؟

كان القطار لا يزال يلهث. وعاد عبد الصبور يطل من كوته. وشاهد من بعيد أضواء تتوامض ولا تني تقترب. القطار ولا ريب في نهاية رحلته، وركاب الدرجة الأولى والثانية والثالثة لا بد أنهم يتأهبون.. لقد أفاقوا ولا شك.. وسيتخلصون بعد دقائق من اهتزاز هذا المارد المنطلق في ظلام الليل، وسينسون بعد ذلك دخانه وشرره المتطاير وزمجرته وصفيره الحاد.... وبعد قليل لن تعود «حياة» و«أبو علي» وركاب الدرجة الثالثة وروائحهم وركاب الدرجة الأولى وترفهم لن يعودوا جميعاً يشغلون بال عبد الصبور، وهو يغذّ السير إلى بيته وإلى زوجه الساهرة في انتظار أوبته...

وهدأ القطار أخيراً.. وانكسرت حدة غضبه.. وأرسل صفيره مديداً، متصلاً، ثم دخل المحطة على مهل.. وكان عبد الصبور أول من هبط منه.. انه قطار الساعة الثانية عشرة ليلاً لا ينتظره إلا عدد قليل من المستقبلين.....

الحبّ الأول

كنت في نحو العاشرة من عمري، ولم تكن الحياة لتبدو لي في تلك السن الطرية سعيدة أو حلوة، أو فيها ما يشوق طفلاً مثلي في شيء. وما كانت الحرب العالمية الأولى قد انتهت. وفي أثناء تلك الحربِ ذقنا ضروباً من الويلات. عرفنا الجوع والعري وحلت بنا العلل. وكان الموت لأي سبب كالجوع والمرض السريع مألوفاً جداً لدينا. كانت حياتنا، بالفعل، ذلاً موصول الأسباب، وهواناً لا حد له وامتهاناً مستمراً لآدميتنا.

وكان أبي رجلاً دمث الأخلاق، ليّن الجانب، عطوفاً، كريماً. ولكن الحرب بويلاتها ومحنها ومصائبها جعلت منه انساناً فظاً، غليظ القلب، كارهاً لنفسه وأهله وبنيه وللحياة جميعاً. وكنت ألقى من قسوته الطارئة ما لا أزال أذكره فيجمد الدم في عروقي.

أنفق أبي في بادىء الأمر كل ما كان يملكه، وكل ما كان ادّخر من مال قليل لكي تكون حياتنا ميسورة أو محتملة على الأقل في ذلك الشقاء العظيم. ونفد المال فعمد إلى مقتنياته الثمينة وملابسه يبيعها يوماً بعد يوم، وباعت أمي كذلك حليها وما استطاعت الاستغناء عنه من ملابسها، ومع ذلك لم تنته الحرب، ولم تنته الحاجة إلى الرغيف.... ثم بيعت أدوات البيت وبيع متاعه قطعة بعد أخرى وشيئاً بعد شيء.. وكانوا يبيعون معها الذكريات العزيزة ويبيعون الماضي الرخي. باعوا كل شيء وأكلوا به الخبز الأسود.

وماتت جدتي، جدتي الطيبة، المرأة التي كنت أحبها أكثر من حبي أبي، وأكثر من حبي أمي. وبكيت يومئذ كما لم أبك قط في حياتي، ماتت من العجز والمرض والألم، ماتت والحسرة تملأ قلبها الطيب العطوف. ثم ماتت أختي الطفلة، أختي الجميلة ذات الشعر الذهبي والعينين الزرقاوين. إن خصلاً من شعرها لا تزال إلى اليوم عندي حرزاً ائتمنتني عليه أمي قبل موتها. إنه أثمن ما أملك وأعز ما اقتني، فهو شيء منها... من أختي... انه بعضها. لقد ذوت كما تذوي الزهرة الخالبة على فرعها إذ ينضب الماء فيجفّ الفرع وتموت الزهرة الفوّاحة بالعطر.

كان أبي قد ساء خلقه تماماً، فطفق يضربني ضرباً مبرحاً لسبب ولغير سبب. وكان يخيل إلي أحياناً أنه يريد أن يقتلني إذ ينهال عليّ بيديه وقدميه، ويدق عظامي دقاً. وكنت بين يديه كالعصفور الصغير الضعيف بين مخالب الصقر. شدّ ما خشيته في تلك الأيام، وخشيت عينيه الضاريتين وعبوسه وتجهم أساريره وقسوة نبرته وقوته الهائلة.

وفي ساعات وحدتي الطويلة كنت أسائل نفسي كيف انقلب أبي وحشاً مخيفاً، وكيف غدا يكرهني ويكره أمي ويكره البيت بعد أن كان رقيق القلب، محباً، عطوفاً، مؤثراً أهله وولده على نفسه...

ولكن أمي وحدها، أمي المريضة، كانت تدرك كل شيء وكانت هي وحدها تكفكف دموع طفولتي البائسة، تكفكف دموعي وهي تبكي في صمت، واحتمال، وحب عجيب. كانت تترك دموعها تسح وتبلل وجهها الشاحب، وتحاول أن تختلس من بين دموعها الحرّى ابتسامة تشرق على قلبي الصغير وتشجعني على احتمال الأذى. كانت تدرك أن هذا كله رد فعل قوي لما يلقى أبي في حياته من هوان تلك الحرب الطاحنة، ومن ذل الأيام العابسة. وكانت تغفر له اساءاته وتدعو الله أن يهديه ويهبه الصبر الجميل.

كنا يومئذ نقيم في القدس القديمة، ونسكن غرفة واحدة في دار كبيرة مع جيران كُثر. وكانت الدار تقع في حارة ذات أزقة ودروب معتمة في وضح النهار. ولم تكن حال الصبيان والأطفال بأحسن من حالي. كان الجوع والمرض يطلاّن من حدقات عيونهم وتشي أسمالهم وهلاهيلهم ببؤس حالهم. وكانوا لداتي. وكانت هذه الأزقة والدروب مجالي لهونا. وإذا كانت الحرب قد أنستنا أننا كنا سعداء، وأننا عشنا قبل ذلك أياماً رخية، رضية، واننا كنا نأكل فنشبع، وننام على المهاد الوثير ملء عيوننا الصغيرة، فانها على الأقل لم تنسنا اللعب واللهو والركض والنط في أتربة تلك الحارة وأوساخ أزقتها ودروبها.

ولقد مات من جيراننا رجال ونساء، رجال كانوا يقومون بأود عائلاتهم، ونساء كنّ يحنون على أطفالهن. كانوا يمرضون أياماً معدودة ثم يموتون، ويغدو أولادهم أيتاماً مشردين في الأزقة والحارات، وكانت نعوشهم تمر بنا ونحن في ركضنا ولعبنا فنكف عما نحن فيه، ونلوذ بالجدران، ونستشعر الأسى العميق، وندرك أن واحداً من أترابنا قد غدا يتيماً، وأنه سيضرب منذ الغد في مناكب الأزقة والحارات، شريداً، مستجدياً لقمة العيش.

ومع ذلك، وفي ظل هذا الشقاء العظيم، فقد سعدتُ فترة من حياة طفولتي الشقية. وان ذكراها لتعاودني الحين بعد الحين فاستشعر الرضا والراحة، وتعلو شفتي ابتسامة من القلب، وألوذ بهذه الذكرى، وأنعم بحلاوتها غاية النعيم: فقد كانت لنا جارة في ذلك الحي، تسكن في ناحية متباعدة داراً جميلة حولها بستان زهر وارف الظلال، وكانت في عزلتها تلك كأنها معنى من معاني الترفع والاستعلاء. وكانت الأضواء الباهرة تشعّ من نوافذها ليلاً، وتترامى إلينا من خلال هذه النوافذ أصوات غناء شجي وأصداء ضحكات عالية. وكنت أرى من حين إلى آخر بعض رجال الجيش من الضباط يترددون على هذه الدار ويمكثون فيها طويلاً فتزداد نوافذ الدار لألاء ويشيع المرح وتعلو أصداء الضحك والغناء.

وكثيراً ما كنت أراني - في أحلامي - أجوس في أرجاء بستان تلك الدار وأصعد إلى غرفها وأشاهد ساكنتها ترفل في أثوابها الفاخرة، وتأكل الطعام الشهي، وتشرب من أكواب بلورية زاهية. وعلى الأيام صنعت منها أميرة من أميرات الأحلام، أعيش - في خيالي - تحت جناح عطفها، وفي كنف رقتها وحنانها. ولن أنسى ما حييت يوم رأيتها تطل من احدى نوافذ دارها، فما كادت تراني حتى أشارت بيدها الجميلة العارية تدعوني إليها. كأنها كانت تنتظرني منذ زمن طويل. وهُرعت إليها متحمساً متواثب الخطى، متلهفاً أن أراها من قريب كما كنت أراها دائماً من بعيد. وأخذ بيدي خادم، ودلف بي إلى الغرفة التي كانت تطل من نافذتها. وما كادت تراني حتى اندفعت إلي وأخذتني بين ذراعيها وراحت تقبلني قبلات كثيرة وتضمني إليها وتلاطفني وتمسح بيدها على شعري وتبتسم لي ابتسامات تستضيء بنورها عيناها ووجهها كله. وكانت رائعة الحسن، جعلت من ضفائر شعرها تاجاً على رأسها، وأرخت على جبينها الأبلج غرة فاتنة، وكانت أهداب عينيها الزرقاوين الواسعتين تلقي على خديها ظلالاً خلابة. وكانت ممشوقة القد، وفي صوتها غُنّة ساحرة، والابتسامة الوضيئة لا تفارق شفتيها القرمزيتين أبداً. وكأنها كانت تدرك انني محروم وجوعان، فسرعان ما أخذت بيدي إلى غرفة الطعام وفتحت خزانة وأخرجت منها خبزاً أبيض ولحماً وفاكهة وأجلستني بجانبها وراحت تطعمني بيدها. وكنت آكل ملهوفاً وأنا لا أنفك أحدّق في وجهها، وأطيل النظر إلى عينيها وإلى غرتها فأراها أجمل مما كنت أتصور، وأفتن مما كانت تبدو لي في أحلامي.

ومنذ ذلك اليوم ألفت هذه الدار وألفت صاحبتها وألفت أن آكل فيها ما أشتهي... أنا الصبي الجائع المحروم. ولقد كانت جارتي تدللني وتقبلني كثيراً وتحتضنني وتناغيني، وتذود عني البؤس، وتمنحني من الحب والعطف والحنان ما كان رياً لقلبي وعزاء لي عن كل ما لقيت من قسوة واضطهاد وحرمان مرير.. ولقد أحببتها من أعماق قلبي، وبكل حرارة نفسي المتعطشة إلى الحنان، وكنت لا

أتعب من تأمل عينيها الزرقاوين وكانت هي تسمح لأناملي الصغيرة أن تتخلل ذهب شعرها، ثم أروح أقبل يديها قرير العين، سعيداً غاية السعادة.

ولم يخطر ببالي يومئذ أن أسألها أو أسائل نفسي عن سرّ حبها لي، هذا الحب الذي جعلها تؤثرني على صبية الحارة. أتراها أحبت في شخصي أخاً فقدته وكان يشبهني؟ أم تراها أحبت في ملامحي طفلاً لها استلبته صروف الأيام وطواه عنها الردى؟ أم كان ذلك منها نزوة من النزوات؟ لست أدري، وان كنت ألمحها أحياناً ساهمة النظر، تتطلع إلى بعيد وقد شاع في محياها ظل من ظلال الكآبة والأسى والانكسار. وكنت في أمثال تلك اللحظة أقترب منها في صمت وأجلس خاشعاً عند قدميها وأروح أقبل راحتيها، وتدعني هي أفعل ذلك مستسلمة هادئة، ثم سرعان ما تثوب إلى نفسها فتتأملني لحظة ثم تأخذني بين ذراعيها وتغمر وجهي وعينيَّ بالقبلات، ثم تتناول عودها، وتغني، تغني لي وحدي، غناء أخاذاً ينبعث من حنجرة فضية الرنين، في حين تداعب أناملها أوتار العود فتندّ عنها نغمات ساحرة تخلب مني اللب.

كان من بين الضباط الذين يترددون على دارها فيشربون ويسمعون غناءها ويأخذهم الطرب فيمرحون وتعلو جلبتهم ويرتفع ضحكهم ثم ينصرفون، كان من بينهم ضابط تركي بدا لي أن له شأناً ومنزلة في تلك الدار. وكان في بادىء الأمر لا يأبه لي، وكنت أراه أنا فأوجل ويتملكني الذعر وأحس له بالكراهية والمقت. وكان هو رجلاً مرتفع القامة، مبروم الشاربين، أشقر الشعر، مزهّواً ببزته العسكرية، وسيفه الذي يقرع الأرض إذ يسير، و(قلبقه) الأسود المائل قليلاً على جبهته العريضة الناصعة. كان هذا الضابط العابس يأمر وينهي في تلك الدار. وكانت صاحبتي إذ تراه محتدماً، مغيظاً، تنظر إليه بمؤخرة عينها وتعلو شفتيها ابتسامة ساخرة ثم تنصرف عنه وهي تهز كتفيها.

وقد تولاني العجب حين وجدته بعد أيام ينظر إلي ويحدّق في وجهي وكأنه

قد اكتشف وجودي في الدار لأول مرة ثم يهز رأسه وهو يدس يديه الكبيرتين في جيبه وينصرف كالمحنق. واستوقفني ذات مرة. وأمسك بذقني بين اصبعيه وسألني: «ما اسمك يا ولد؟» فقلت له بصوت خفيض وقد اعتراني الخوف: «محسن» فراح يردد وشارياه المبرومان يتراقصان «محسن... محسن...» ثم التفت إلي وقال: (حبيبها الصغير، أليس كذلك؟...»وانصرف عني وهو يقرع الأرض بسيفه الطويل.

حبيبها الصغير! ماذا يعني هذا الضابط الآمر الناهي في هذا البيت؟ أتراه كان يقصدني بهذه العبارة ويقصد صديقتي؟ ألا يعلم شيئاً عن بؤسي، وعما ألقاه من أذى أبي الطاغية ومن عتّو الأيام وذل الحرمان، وهذه النصال التي تمزق شغاف قلبي كلما سمعت أنين أمي المريضة ذات الأوجاع؟! أتراه يجهل اني وجدت في كنف صديقتي المحسنة البرّ والعطف والحنان.. أأكون فعلاً حبيبها الصغير؟ ولم لا.. انني أحبها... أحبها... وأفضيت لها بكل شيء والدموع تترقرق في مآقي، وقد ضحكت هي ضحكاً كثيراً عالياً، ثم احتضنتني وهي تقول: «أجل.. أجل.. حبيبي الصغير...» وكفّت قليلاً عن الضحك وعبست وتغيم محياها ثم حدقت في عيني وقالت: «سيعلم هذا الكلب أن نعل حذائك أثمن من شاربيه....»

وتزينت في تلك الليلة أحسن زينة، فجعلت من شعرها الذهبي الغزير تاجاً يتألق، ورشقت فيه وردة حمراء قانية، وأضفت على قدها المشوق ثوباً من الحرير الأسود المخرّم أبرز فتنة جسدها وضاعف من روعة حسنها. وتعطرت وتبرجت وملأت غرف الدار بالورد والأزهار، وأضاءت الأنوار جميعاً، وأعدت مائدة حافلة بأشهى أنواع الطعام، وكانت في أثناء هذا كله لا تنفكّ تناديني لأساعدها في عملها. وجلست إلى مائدة الطعام وأجلستني بجانبها وراحت تشرب من قدح صغير شيئاً تصبه فيه من حين إلى حين وهي لا تني تداعبني وتقبلني وتضمني إلى صدرها وتقول: «سترى يا حبيبي ما سأفعل به... بهذا الكلب...».

وأقبل الضابط مزهواً، متغطرساً، كعادته، يقرع الأرض بسيفه، ويبرم شاربيه. فلم تتحرك إذ رأته، ولم تعره التفاتاً، كأنه غير موجود. وكانت تبتسم لي، وتغنّي بصوت خافت، تغني ألحاناً من أغانيها المعبودة. وكنت لاتذاً بها، استشعر الخوف من شيء غامض قد يقع في أية لحظة. وكان هو قد جلس بعيداً، وكان صامتاً، إلا أن الشرر أخذ يتطاير من عينيه، وقد احمر وجهه وتجهّمت أساريره. وعلى حين غرة انفجر قائلاً: «أهذا هو المخلوق الحقير الذي تحبينه؟» - فالتفتت إليه صديقتي هادئة، ساكنة الطائر وابتسامتها الساخرة لا تفارق شفتيها وقالت: «ألا تعرف أيها الأحمق، أنه حبيبي، وأن حذاءه أثمن من شاربيك؟».

وانتفض الضابط من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، وتوهّجت عيناه كأنهما جمرتان ونهض من مكانه وقد تقبّضت أساريره، ومدّ يدين متشنجتين، مرتعدتين، يريد أن يطبق بهما على عنق صديقتي ويخمد أنفاسها. فصحت مذعوراً ووجدتني أنطلق من مكاني ملقياً نفسي عليه، حائلاً بذلك بينه وبينها. إلا أنها سرعان ما اندفعت إلي وأخذتني بيدها قائلة «لا تخش شيئاً... انه يدرك أن يده لا تستطيع أن تمتد إلي بسوء، ويعلم أكثر من هذا اني أستطيع أن أقضي عليه بكلمة من فمي». ثم التفتت إليه شامخة، معتزة، وقالت: «أنت تعلم هذا... بكلمة من فمي.. كلمة واحدة.. وأجعلك تسبح في بحر من دمك...» وتهالك الضابط على مقعده كالخائر المنهوك القوى وراح يردد: «ارحميني... ارحميني..» ولكنها أدارت له ظهرها وخرجت وأننا معها...

ولم ينقطع الضابط عن الدار، ولم يمسك عن الانفاق، ولم يكن يَلقى غير الاعراض والشموخ، وكان يلوح لي أنها كلما أمعنت في تعذيبه ازداد هو خضوعاً، وكلما اضطهدته ازداد اقبالاً عليها وتشبثاً بها، كأنه يجد في هوانه واستذلاله لذة خارقة. أجل لقد كان عبد رق لهواه، على الرغم من أنه كان من

أشجع رجال الجيش وأشدهم اقداماً، ولكن حب جارتي أذله وحطم كبرياءه وجعله عبداً خاضعاً لها. وكانت هي بالفعل خليقة أن تقتله بكلمة واحدة تخرج من فمها المعبود إلى ذلك النفر من الضباط الذين يترددون على دارها فيطربون ويلهون ويعبدون جمالها.

وانتهت الحرب، وآن للمشردين المهاجرين أن يعودوا إلى مدنهم وبلادهم. وكان لا بدّ أن نعود نحن أيضاً. وكان أبي وكانت أمي قد استرعى انتباههما ما كان لسحر جارتي من أثر في نفسي فآثرا أن ينقذاني - فيما كانا يريان - من مغبة ذلك السحر، فقررا السفر ودبّرا أمره وفاجآني به صباح يوم من أيام الربيع. وهكذا انتزعاني عنوة من جنّتي.

ولقد مضت الأعوام الكثيرة، بما فيها من خير وشر، ولا أزال أحس أن هذا الحب كان حبّي الأول، حبّي البكر، ولا تزال صديقتي تتراءى لي، إذ تردني الذكرى العزيزة إلى تلك الأيام الخوالي، بشعرها الذهبي وغرّتها الفاتنة وعينيها الزرقاوين الآسرتين وابتسامتها الخلابة، وهي تحتضن عودها وتنقر على أوتاره بأنامل من عاج وتغنّي لي، أنا وحدي، دون سائر الناس...

الأعرج

كان زوجها يصيد السمك، وكان له قارب صغير قديم، وبعض الشباك البالية.... وكان أعرج... وكان يخيل إلي وأنا أراه يسير، أنه يقتلع قدمه السليمة اقتلاعاً من الأرض.

كنت أفقد توازني إذا شاهدته يظلع، وأحس كأن الدنيا كلها قد فقدت توازنها هي الأخرى وتوشك أن تنهار!

هل كنت أكره هذا الرجل المسكين الذي يخرج قبل الفجر إلى أقاربه، وقد حمل شباكه البالية على ظهره، وراح يضطرب في مشيه حتى يحطّ حمله في النهاية فوق القارب، وينشر شراعه للريح تحمله إلى بعيد، حيث يظل سحابة نهاره في صراع مع الماء ليظفر ببضع سمكات يبيعها في سوق المينة لقاء دراهم قليلة لا تغني عنه شيئاً. ؟!

هل كنت أكرهه!! ولماذا!؟ أكنت أكرهه لأنه أعرج أم لأن ملابسه زرية أبداً؟! أم لأنه يترك شعر لحيته أياماً طوالاً دون أن يحلقه؟! أم لأنه لا يضحك ولا تنفرج شفتاه عن ابتسامة ما؟ أنه لم يكن يضحك أبداً! لم أره يضحك مرة واحدة. انه لم يعرف الضحك في حياته قط!

أجل كنت أكرهه... بل كنت أمقته، وازدريه، وأهزأ به وبعرجه وبهيئته الزرية، وكنت أقول في نفسي: «لماذا لا يموت، وما الفائدة من وجوده؟ ولماذا

يجب أن يعيش ويكد ويتعب ويخرج إلى البحر قبل الفجر ويعود بعد غياب الشمس؟»

أي نعم، كنت أمقته وأمقت عبوسه، وجمود ملامحه ونظرته الدائمة إلى داخل نفسه... لم يكن يرى الناس حوله.. كان يرى نفسه فقط، ينظر في أعماق نفسه وحسب، كان يسير في دروب حارتنا مطرق الرأس وهو منكفىء تحت حمله من الشباك البالية.

وكنت أمقته بقدر ما أحب زوجته... وكنت مثله أعيش من حمل بعض الأشياء على ظهري... فقد عملت حمالاً، ثم بائعاً متجولاً، ثم عاملاً في «مصبنة» هي أشبه ما تكون بكهف رحيب... انها معتمة أبداً، وفي صدرها تقوم القدر الكبيرة والنار موقدة تحتها، واخلاط الصابون تظل تفور... وكنت أحمل هذا الصابون في وعاء كبير، أحمله إلى سطح «المصبنة» حيث يصب على الأرض حتى يجف، ثم يقطعونه قطعاً صغيرة، وينشرونه في الهواء ليزداد جفافاً، ويباع

هذا كان عملي، ولكني لم أكن أعرج، ولم أكن عابساً أبداً متجهماً أبداً، بل كنت أضحك، وأحب الحياة، وأحب الناس وأحب امرأة الصياد... بل كنت مجنوناً بها!

وكانت هي صغيرة، وجميلة، ولعوباً.... وكانت بيضاء، ولها شعر أشقر، والابتسامة الآسرة لا تفارق شفتيها، ولا تفارق عينيها... وكان نهداها الراسخان يخلبان لبي.

وكما كنت أكره الصياد، كنت أكره أبي.. انه أشبه ما يكون به. انه يسير ولا يرفع عينيه عن الأرض... وكان يعمل مثلي، يحمل الصابون، ويظل عابساً،

لا يضحك ولا يتحدث ولا يرفع عينيه عن الأرض أبداً..

لقد خيل إلي أن الصياد وأبي من طراز واحد، يعيش كل منهما في قوقعة لا يريد أن يفارقها... قوقعة تعزله عن الناس، وعن الحياة، وعن كل شيء، ليظل منطوياً على نفسه، منكمشاً على ذاته، يجتر أحزانه وأفراحه اجتراراً!

شد ما كرهت الاثنين، وشد ما أحببت تلك المرأة! انها هي التي تصدت لي... هي التي أغرتني وكشفت لي عن مفاتنها، ويخيل إلي أنها هي الأخرى كانت تبغض زوجها الصياد، وتبغض عبوسه وعرجه وسحنته الجامدة، وتبغض والدي أيضاً.... وكانت هذه هي نقطة اللقاء التي اجتمعنا عندها!

أجل... كان البغض نقطة اللقاء، ومن صميم هذا البغض انبثق الحب.... ولهذا السبب كان حبنا شهوة جامحة، منطلقة لا حدود لها.... واعتدت أن أنفق ما كنت أكسبه بتعبي وعرق جبيني... وكنت أشتري لها الحلوى، واشتري لها حريراً من حين إلى آخر... وذات يوم اشتريت لها سواراً من ذهب، دفعت ثمناً له كل ما ادخرته خلال أربع سنوات طوال من الكد والعرق والدموع...

اشتريت لها هذا السوار بدموع عيني.. وأهديته لها...

وكانت تحبني وتتزين لي، وتكشف دائماً عن مفاتنها، وكان هذا يدفع بسيل من النار في بدني...

وعشنا في حَمى هذا الحب العاصف المميت سنتين كاملتين كان زوجها خلالهما يخرج من الفجر إلى البحر، ويعود بعد غياب الشمس... وكان يظلع دائماً، ويخيل إلي حين أراه انني أفقد توازني وأحس كأن الدنيا كلها تفقد توازنها هي الأخرى وتوشك أن تنهار.. وكان لا بد أن ينهار شيء ما..

وكان حبنا هو الذي يجب أن ينهار، ووقع في وهمي أني مملتها، مللت امرأة الصياد، وخيل إلي أنها لم تعد تثير في نفسي شيئاً، وكان لا بد أن أهرب منها، ومن نفسي، ومن زوجها، ومن أبي، ومن تلك الحارة اللعينة ذات الدروب الملتوية التي تؤدي إلى البحر دائماً...

وكان الزواج هو سبيلي إلى الهرب.. فخطبت فتاة مسكينة من أسرة فقيرة محافظة مثلنا، ... وحانت ليلة الزفاف، واجتمع الأهل والأصدقاء والخلان، ولبست (سروالاً) من الجوخ، وسترة قصيرة، وأدرت حول خصري «شملة» حريرية حمراء، وأملت طربوشي، ووضعت في عروة السترة قرنفلة زاهية، وسمعت زغاريد النساء، وكان بعضهن يغني... وكانت جلبة الأصدقاء وضوضاؤهم تملأ الجو، ولكن اذني التقطت من بين الأصوات المتعالية صوتاً بعينه.. صوتاً حزيناً باكياً... صوت امرأة كانت تغني وتقول «يا ريتني ما عرفته، ولا عرفته بحالي!»

لقد كان هذا الصوت، صوت امرأة الصياد.! كانت تغني بلوعة، تغني بحرقة، وتردد إلى ما لا نهاية: «يا ريتني ما عرفته...»!

وكان زوجها مع الرجال... وكان مع الرجال أبي... وكان كلاهما صامتاً عابساً، لا يضحك ولا تنفرج شفتاه عن ابتسامة ما... وكان زوجها بين حين وآخر يهز رأسه، وكذلك كان يفعل أبي... وعلى حين غرّة أحسست بموجة من الكراهية تتدفق في صدري وتملأ روحي! انني أكره هؤلاء الناس، وأكره أبي، والصياد، وزوجتي التي أزف إليها الآن، وأكره نفسي..

وخرجت من البيت وحولي شباب الحارة يهزجون... وخرجت من الحارة كلها، إلى بيت جديد، وامرأة جديدة... ولكني خرجت والبغض في صدري، والحقد يملأ روحي... وصوت امرأة ملتاعة تغني وكأنها تنوح: - «يا ريتني ما عرفته ولا

عرّفته بحالي... »

ومضت أيام ولم تنطفىء شعلة الحقد والكراهية في صدري.. لم تنطفىء أبداً.. وكنت سيء الخلق مع زوجتي العروس، سيء السلوك، سيء التصرف.. ولقد لطمتها مرة على صفحة وجهها دون ما سبب، دون ما دافع، سوى أن الكراهية كانت تملأ صدري وتفور فيه.

ومضيت إلى عملي ذات صباح ولم يكن قد مضى على زواجي أكثر من اسبوعين، ورحت أحمل الصابون المائع الساخن في وعائه الكبير، من القدر إلى سطح المصبنة، ومن سطح المصبنة إلى القدر... هكذا... هكذا... ساعات طويلة، شاقة، والعرق يتصبب من جبهتي، فامسحه بكمي وأمضي صاعداً وحملي على كتفي.. والكراهية تملأ صدري وتأخذ بمخنقي كالمخالب الكاسرة.. وزلّت قدمي وأنا أصعد السلم الطويل الضيق اللزج... زلت قدمي بسرعة غريبة، وهويت إلى الحضيض، ونقلوني إلى المستشفى الذي يعالج فيه الفقراء، ولا أدري كيف لم أمت؛ لقد كانت سقطتي مميتة، ولكني نجوت، وخرجت من المستشفى بعد شهرين، خرجت وقد هيضت ساقي اليمنى...

وغدوت أحمل وعاء الصابون وأنا أظلع وأتكفأ؛ أجل لقد أصبحت أعرج.. مثله تماماً؛ مثل الصياد اللعين.. ويلازمني الصمت والبؤس وجمود الملامح... انني الآن أمشي وأنا مطرق، وأحس كأن الدنيا كلها تكاد تفقد توازنها إذ أسير.. انني أقتلع قدمي السليمة من الأرض اقتلاعاً، ولم أعد أضحك ولم أعد أحب الحياة والناس، ولا حتى زوجتي..؛

زوجتي.. انني أنظر إليها وأفكر؛ وأحدق فيها وترتعد أوصالي؛ وأناملها ويمزّق الشك شغاف قلبي...

ملك الزجاج

أجير فرن:

هكذا نشأ عبد المعطي أول ما نشأ. ثقوا بأني أقول الصدق. ولماذا أكذب وأخفي الحقيقة؟ إن عبد المعطي نفسه، إذا سئل، لا يمكن أن ينكر.

لقد كان أجيراً في فرن، وكان زميلي. كنا نعمل معاً منذ الفجر.. وأحياناً قبل أن يصيح الديك.. ونظل نعمل النهار كله وبعض ساعات الليل.. وأين كنا ننام؟ في الفرن نفسه. في ركن منه، على قش الوقود. وهذا أيضاً صحيح. لم يكن لنا مأوى في المدينة الكبيرة.. وكيف يكون لنا مأوى ونحن ضائعان في هذه الدنيا..؟ كنا نلقي بجسدينا المنهوكين على قش الوقود وسرعان ما نغفي وأحياناً كنا نتحدث في الظلام.. قبل أن نستسلم لسلطان النوم.

قال لي مرة وهو يغالب النعاس: «أنت أحمق.. وفاقد الهمة» وقلت أنا له: «وماذا يمكن أن أفعل لكي لا أكون فاقد الهمة؟» وقال هو: - «لا تعطِ الأرغفة كلها للمعلم.. انك تحمل العجنات من بيوت الحي إلى الفرن. وتُخبز العجنات فتعيدها إلى أصحابها، وكل بيت يجعل لك رغيفاً، وهذا الرغيف لك.. ولكنك تطيع المعلم وتعطيه الأرغفة كلها.. يكفي أن يأخذ بعضها ويعطيك بعضها..» وقلت: «كيف يرضى المعلم؟» فقال: - «يجب أن يرضى.. أنا أفعل ذلك.. أقول له نصف الأرغفة لك ونصفها لي.. هذا حق.. ويصيح المعلم.. ويلعنني ويبصق

في وجهي.. نار الفرن الذي يقف أمام فوهته دائماً تجعله يتصبب عرقاً.. وتجعل دماءه تغلي في عروقه.. ولكنني لا أخاف.. ولماذا أخاف؟.. نصف الأرغفة لي.. هذا حق.. ومرة آخذ نصف الأرغفة.. وأمسح بصاقه بطرف كمي.. ومرة لا أنال شيئاً... ولكنني لا أتراجع.. أنت أحمق.. كما قلت لك.. وفاقد الهمة.. خذ سيكارة..»

وكنت أمدّ يدي في الظلام فأتناول السيكارة.. وأروح أدخنها وكلمات عبد المعطي تطن في أذني: «أحمق.. وفاقد الهمة» وكنت أرى في الظلام بصيص لفافته وأفزع أيما فزع.. إذ يتوهج هذا البصيص بقوة، فجأة، فقد كان يخيل إلي أنه يستل مع أنفاس سيكارته روح المعلم صاحب الفرن، وينفثها مع الدخان..

وكان عبد المعطي فتى نحيلاً، أعجف، شاحب اللون.. ولكن عينيه كانتا تومضان.. لم يكن سميناً، مكتنز اللحم، كثير الشحم كما هو الآن.. ثقوا بأني أقول الصدق.. ولماذا أكذب وأخفي الحقيقة؟ هل كنت أخشى عبد المعطي؟. ربما. ولكني بكل تأكيد كنت أعجب به. لا بدّ اني كنت أهابه. غير اني كنت أتمنى أن أكون مثله، ذلك اني كنت أحسّ بأني ذليل مهين وأن جسدي يرتعد وعظامي تتخلخل ولساني ينعقد في حلقي إذا انتهرني المعلم. شعرت يوماً بأني مريض، ألا تمرضون أنتم أبداً؟ أنا أعرف أني مريض إذا فقدت شهيتي ورحت أتقيأ، وناداني المعلم وقال: - «قبل أن تنام امسح الفرن جيداً.. ونظف الجورة.. لقد آن لك أن تتعلم» وتنحنحت ونظرت إليه بعينين ضارعتين وقلت: - «أنا مريض.. مريض جداً» وحدجني المعلم بنظرة غاضبة كاوية، كنار الفرن، وقال: - «يا ولد... يا كلب يا هامل.. متى كنت تخالفني»؟!.

وأحسست الأرض تميد تحت قدمي، وتصبب العرق البارد من أطرافي، وأطرقت وامتثلت لارادته.. وذهب هو.. ومسحت أنا الفرن، ونظفت الجورة وكنت أحس كأن عينه لا تزال تحملق في وجهي.. وصوته الأجش يقول: - يا ولد. يا

هامل.

هذا ما حدث، وما كان يحدث دائماً.. وترك عبد المعطي الفرن.. وبقيت أنا.. قال لي وهو يلم أشياءه وأطماره البالية: «أنا أعرفك.. جيداً.. سوف لا تغادر هذا الفرن اللعين أبداً، ستعيش وتموت فيه.. لأنك فاقد الهمة» ثم مضى. وشعرت أنا بالارتياح.. شعرت كأن شيئاً ثقيلاً كان يجثم فوق صدري قد أزيل أو تلاشى.. ولم يعد يضغط على قلبي.. صدقوني هذه هي الحقيقة أرجو أن لا يساوركم ريب في قولي.. اني أرى في عيونكم أنكم لا تصدقون.. ولماذا؟ ألأني بقيت أجير فرن.. وأصبح هو، عبد المعطي، يدعو نفسه ويدعوه الناس: - «ملك الزجاج».. سأروي لكم قصته، قصته وقصتي أنا واحدة. وقد كان ممكناً أن أكون أنا ملك الزجاج.. أن أكون ذلك الرجل الذي يتأفف إذ يسير ويضع في أصابعه الخواتم الذهبية، ويميل طربوشه ويحييه الناس باحترام.. كان هذا ممكناً، لولا اني كنت كما قال هو: - «فاقد الهمة»..

أين ذهب عبد المعطي بعد أن ترك الفرن؟.. رأيته مرة يعمل حمالاً. كان يصعد في طريق الجبل وكتفاه مثقلتان بسلة كبيرة فيها خضر وفاكهة شتى ولحم وبطيخ. وضحك إذ رآني وقال وعلى شفتيه ابتسامة باهتة كانت تناقض توامض عينيه الغائرتين: «ما زلت أجير فرن... أنا أعرف ذلك.. لأنك فاقد الهمة» ومضى يؤوده حمله الثقيل. ومرت أيام ربما كانت أسابيع، أو شهوراً، لا أدري.. ورأيته يبيع المثلجات والمرطبات.. في الصيف.. كان يقف مزهواً إلى جانب الأوعية الزجاجية الممتلئة بماء الليمون المثلوج وعصارة اللوز. بدا لي رشيقاً، خفيف الحركة يسقي الناس وهو يضحك، وخيل إلي أنه لم يعد أعجف، نحيلاً، متزايل الخطى، كان جسمه قد أخذ يمتلىء وفارقه شحوب وجهه..

ولمحني من بعيد، فمد ساعده وصرخ يناديني بملء فمه: - «تعال.. تعال» ولم يسعني أن أتجاهل نداءه. حاولت أن أمضي في سبيلي.. وكأنني لم أسمعه..

ولكن صوته كان آمراً، ملحاً، وكان لا بد أن ألبّي نداءه وما كان في مقدوري أن أفعل غير ذلك، فهل كنت أخشاه؟ ربما. ولكني كنت بكل تأكيد، معجباً به، وأتمنى لو كنت مثله. صدقوني لا يخامرنكم في ذلك شك.. قبض عبد المعطي على يدي وهزني بعنف وقال: «والله سلامات» وملأ كوباً كاملاً من عصارة اللوز البيضاء المثلوجة وقدمه لي وقال «اشرب.. اشرب... والله سلامات.. لا زلت في الفرن. أنا أعرف تماماً.. لن تتركه.. لأنك فاقد الهمة.» وشربت عصارة اللوز ومضيت.. وبدأت أحس أن عبد المعطي وغد.. وقلت في نفسي: - «سأترك الفرن، وسيرى عبد المعطي اني لست، كما يتوهم، فاقد الهمة..» وحاولت مخلصاً أن أغادر الفرن. وكان ذلك عبثاً. وقلت في نفسي مرة أخرى: «ليذهب عبد المعطي إلى جهنم». وعلى الأيام أصبحت ابن صنعة.. وغدوت فراناً ماهراً، وأمكن للمعلم أن يستريح، كنت أصفّ الرغفان على «المطرحة» الواحد وراء الآخر، بسرعة وخفة، وألقيها في داخل الفرن المتوهج ببراعة فلا يخيد رغيف عن رغيف.. ويمتلىء الفرن بالرغفان صفوفاً متوازينة.. ويؤج اللهب، ويروح ينضجها، فتنتفخ رويداً رويداً ثم يحمر سطحها فأسحبها بالمطرحة دائماً، وبخفة بارعة دائماً، من الفجر حتى بعيد الغروب، لا أستريح أبداً. أجل لم أعد أجيراً يحمل العجنات. غدوت مساعداً للمعلم وكنت أتركه في ركن ما، هادئاً، بعد سعاله الشديد وبصاقه الكثير. وذات يوم ارتديت شروالي الجديد، ووضعت طربوشي على رأسي، وأملته إلى اليمين قليلاً وانطلقت لأرى عبد المعطي ولكنني لم أجده يبيع المرطبات في منعطف حارة «الدباغين» وقال لي جاره الفوّال: - «عبد المعطي أصبح بائع زجاج في السوق الكبير، ابحث عنه هناك وبلغه سلامي» وانطلقت إلى السوق الكبير، ووجدت عبد المعطي..

كان واقفاً بباب دكانه الواسع، وكان الزجاج من كل شكل وطراز مركوماً من الأرض حتى السقف.. وكان عبد المعطي يرتدي بدلة ثمينة، وفي أصابعه خواتم براقة من ذهب، وطربوشه مائل جداً على رأسه، ومنديله الحريري الأحمر يتدلى من

جيب سترته، وحذاؤه أسود لامع.. وكدت أنكره. كان ممتلىء الجسم نفرت له كرش كبيرة، وانتفخ خداًه واستقام له شاربان لا ينفك يبرمهما باصبعيه. ولما رآني مقبلاً أشاح بوجهه. ثم تشاغل بأمر ما. بدا لي كأنه يريد أن يتجاهلني. من أكون، أنا؟ انني زميله القديم. أجير الفرن. وقد كان هو أجيراً أيضاً، أجيراً مثلي تماماً.. فلماذا يشبح بوجهه عني. لماذا يريد أن يهرب، أن لا يراني؟ غير أني تقدمت بسرعة، لم أتح له فرصة الهرب.. وانفرجت شفتاي، ووجدتني أقول: «سلامات.. والله سلامات..» واضطر أن يقف، وأن يلتفت، وأن يتكلف الابتسام. كانت ابتسامته ثقيلة، باردة، كريهة. وقال بلهجة فاترة: - «هذا أنت. ألا تزال أجيراً في الفرن؟.. انك أجير ولا شك»..

وأحسست، هذه المرة، أنه أهانني اهانة بالغة جارحة، اهانة بلغت قرارة نفسي. ورحت أتفحصه من أخمص قدميه حتى قمة رأسه ومن قمة رأسه حتى أخمص قدميه.. أهذا هو عبد المعطي، زميلي القديم الأجير؟ وارتجفت.. ارتعد بدني كله.. شتان ما بيني وبينه. لقد كان أجيراً لا ريب في ذلك البتة. إلا أنه يخيل إلي أن ذلك كان في حلم، حلم بعيد، قديم، لا أكاد أتذكره إلا بجهد جهيد.. وبحركة عفوية رفعت رأسي إلى السماء، ولكن اللافتة الحمراء التي تزين أعلى دكانه صدمت عيني... كان الخط كبيراً ضخماً، أسود، على أرضية حمراء زاهية: - اللقب أولاً «ملك الزجاج» ويليه الاسم: «عبد المعطي رجب».. أجل هكذا بالخط العريض، لا يمكن أن أخطىء. وهل ممكن أن أخطىء؟ كانت الحروف عريضة، عريضة جداً، وقد استطعت أن أقرأها بسهولة، وأنا في العادة أقرأ الكلمات والعبارات في كثير من العسر... ويعود الفضل في هذه الرواسب التي لا تزال عالقة في ذهني للكتّاب، كتاب قريتنا، حيث علمنا الشيخ بركات بعض سور القرآن الكريم كما علمنا أن نفك الخط بجهد... انها رواسب قراءة متعثرة كما ترون... ولقد نسيت أشياء كثيرة منذ ذلك الزمن. الشيخ بركات نفسه لا يلوح في خيالي إلا صورة باهتة، ولكني لا أزال أراه يحمل سبحته ولا ينفك يدير

حباتها باستمرار ويسعل ثم يمد يده إلى جيبه ويخرج علبة «السعوط» ويفتحها برفق ويأخذ شيئاً منها بين أملتيه ويروح ينشق في هذا المنخر مرة وفي ذاك مرة، وبعد هذا يسوّي عمامته ويتنحنح ويقول لأحدنا: «اقرأ يا ولد... اقرأ ما في لوحك»... هكذا دائماً... حتى قريتنا نفسها فقدت الكثير من معالمها في ذهني... بعد أن ارتحلت إلى المدينة الكبيرة، ولكني أذكر تماماً حوش الدار التي كنا نسكنها. كانت جدرانها من اللبن الترابي المتداعي، وكان الحوش موحلاً دائماً وفيه بضع دجاجات هزيلات فزعات وجدي مربوط إلى خشبة الباب، وحول دارنا أزقة ضيقة ودروب متعرجة وعرة تسير فيها صاعداً مرة وهابطاً مرة.. وتملأ الجو روائح «الطوابين» وروث البقر وأوحال الأزقة... انكم تدركون هذا تماماً، وتستطيعون أن تتصوروا الطفل الهزيل القذر الحافي القدمين الذي لا يستر جسده غير قميص مهلهل... لقد كنت أنا ذلك الطفل... لا ريب في أنكم تصدقون انني أقول الحقيقة كاملة لا أخفي منها شيئاً.. وقرأت اللافتة الحمراء الضخمة، ووجدتني أسير كالنائم، لقد تركته ومضيت. سرت طويلاً. في غير اتجاه. سرت في الأزقة والدروب والحارات والشوارع الكبيرة المائجة بالخلق... وكنت كمن يحلم.. سرت وسرت، ساعات طويلة، وكلّت قدماي، وأخيراً رأيتني عند باب الفرن فدخلت وأطفأت السراج ونمت.

لقد مارس عبد المعطي تجارة الزجاج وغش وخادع وتفاهم مع وكلاء شركة للتأمين وكان يتقاضى مبالغ جسيمة عن خسائر وهمية من زجاج كثير يتحطم.. وزجاج كثير يفقد.. وكان المال ينصّب في جيوبه... الناس كلهم قالوا ذلك، ألم تسمعوا أنتم به؟؟ وأصبح عبد المعطي معروفاً، وأصبح وجيهاً، وصار يبدل الخواتم الذهبية على هواه وينقلها بين أصابع يديه الاثنتين. كل من في البلد غدا يعرف عبد المعطي، كل من في البلد كان يقول: «ملك الزجاج» وكان هو يضحك، يغرق في الضحك وتهتز كرشه من الضحك ثم يبرم شاربيه ويطلقها في النهاية قهقة طويلة، عريضة، عميقة جداً كأن لا نهاية لها.. هل كان عبد المعطي أجير

فرن.. هل كان عبد المعطي أجيراً مثلي أنا.. وينام على القش ويأبى إلا أن ينال نصف الأرغفة... ويبصق المعلم في وجهه فيمسح البصاق بطرف كمه البالي؟؟...
الآن أفهم لماذا لا تصدقون... لماذا تنظرون إليّ بعيون ترميني بالكذب والبهتان، وتكاد تضحك من سذاجتي وغفلتي.. ولكن ثقوا بأني أقول الصدق. ولماذا أكذب وأخفي الحقيقة؟

مهلاً بقيت حقيقة واحدة لم أقلها لكم وستصدقونني الآن دون ريب. لقد استفقت ذات يوم فوجدتني زوجاً لمحاسن ابنة المعلم. صاحب الفرن. محاسن... الحولاء... ذات الأنف الأجدر، واللسان الذي يدور في حلقها ويدور دون انقطاع، ويكاد يعريني أمام عيني وأمام الناس لشدة غرامها بتجريحي واهانتي... انها في ساعات غضبها الكثيرة تبصق في وجهي كما كان يفعل والدها تماماً. انها ابنته.. على كل حال هكذا كبلني المعلم إلى الأبد وأحكم وثاقي بالفرن.. وبالبيت معاً، وغدا هو يجلس بالباب على كرسيه الصغير المصنوع سطحه من القش المجدول ويدخن شيشته ويحادث المارة ويروي فكاهات وقحة.... ويسعل بشدة، وأنا في الجورة، وأمام وجهي فوهة الفرن حيث تتراقص ألسنة اللهب، وأتصبب عرقاً يسيل من رأسي ووجهي وأطرافي، والمطرحة بيدي.... والرغفان تدخل.. وتخرج، دائماً أبداً دون ونساء.. صدقوني انها الحقيقة كاملة... بجميع حذافيرها.

نحو النور

هذا الشارع الجانبي الصغير يتفرع عن ميدان الاوبرا في المدينة الكبيرة، انه شارع ضيق معتم، تقوم على ناصيته عمارة فندق «كنغز هاوس» ويمتد بعد ذلك مسافة بعيدة، والأنوار الكابية المرافقة على الاسفلت لا تكاد تنير للسائر موضع قدمه. وكان ذلك منذ أكثر من عشرين عاماً. وكان الفتى يسهر الليل، وكان معتزاً بشبابه، وبحيويته. وكان الليل يفتنه، ويختلب لبه، وكان إذ يسأم الأنوار المشعة، المترامية، يروح يبحث عن مثل هذا الشارع المعتم الضيق الممتد في جوف الليل إلى ما لا نهاية.. وكان يحب الاسرار ويحب المفاجآت، ويحب أكثر من هذا كله نساء الليل.. ونساء الليل كن في رأيه وفيما يحسّ كأنهن غير النساء اللواتي يسرن في وضح النهار، كان يحب الاسرار، وكان يحب الغموض ونساء الليل كلهن أسرار وغموض وحكايات..

وسار في الشارع المعتم الضيق، وأحسّ كأنما هو يخوض في لجة مظلمة، هي هذا الليل البهيم. ووقع في روعه أن شيئاً ما لا بد أن يحدث له، كأن تدهمه سيارة عمياء منطلقة لا تلوي على شيء، أو يخرج له من أحشاء الظلام لص ينهب ما معه، إلا أنه لم يكن يتصور أن يلقى (فتحية) فتحية التي أضاءت له الظلام فجأة، وبهرته بقامتها المنيفة، وقدها الرشيق ولونها الأسمر، وشعرها المرسل، وعينيها.. أجل عينيها.. انهما عينان سوداوان متألقتان تتوامض في أعماقهما بوارق الذكاء والفطنة، والشهوة.. ولقد اجتذبته عيناها.. فانقاد لهما

صاغراً لا يستطيع أن يقاوم ولا يستطيع أن يفكر، ولا يعرف أين يضع قدمه.. كانت واقفة عند باب حانتها الصغيرة وكان كل شيء مضيئاً حولها.. كانت غارقة في موج من الأنوار المشعة من داخل الحانة، ويا عجباً... كانت عيناها، عيناها وحدهما، تومضان في محياها، وتتراقص لأهدابهما ظلال على خديها. وخيل إليه وهو يخطو نحوها أن عينيها تضحكان وتدعوانه، تتساءلان من يكون وتحثانه أن يتقدم.. واقترب منها وألقى عليها التحية، وأحس أنامله ترتعش. وقالت وهي تبتسم له وكأنها تعرفه منذ طويل: «تفضل.. ادخل..».

ووقف قليلاً يتأملها، ثم قال:

- من أنت؟ يخيل إلي أنني أعرفك.. من قبل.. أليس كذلك؟

فأجابت وهي لا تنفك تبتسم وقد دفعت رأسها الجميل إلى الوراء:

- ويخيل إلي أيضاً أنني أعرفك.. من قبل.. أين التقينا؟

ودخل. كانت الحانة صغيرة، ضيقة، قبع في ركن منها رجل عجوز، يعزف على «القانون» وكانت أصابعه الهزيلة تروح وتجيء فوق الأوتار، وكانت الأنغام حزينة.. مؤسية، وكان هذا يناقض جمال فتحية وحيويتها، وتألق محياها، واشتعال عينيها، بل كان يناقض الأنوار المشعة في الحانة..

وشرب كأساً من الويسكي، ثم دعاها إلى كأس، وثانية، وثالثة، وفي النهاية لم يطق صبراً فقد أمر بزجاجة الخمر كلها أن توضع على مائدته، وراحا يشربان، يشربان كثيراً ويتحدثان حديثاً لا نهاية له. وكان من حيث إلى آخر يقبّل راحة كفها، أو يضع شفتيه الملتهبتين فوق ذراعها. كانت تضحك، وتضج في الضحك، وتُلقي برأسها إلى الخلف ثم تعتدل وتمسح له على رأسه وخده وتصب الخمر.. وكان صخب المدينة الكبيرة يصل إلى مسمعيه واهناً، من بعيد..

أصداء.. مجرد أصداء خائرة.

وعلى حين غرة دخلت زميلة لها.. راقصة في ملهى، وكانت ثملة، وانحطت على مقعد قريب، وطفقت تبكي بحرقة. وكان هو في تلك السن يكره البكاء، انه يكره البكاء منذ ذلك الزمن البعيد حتى اليوم، وسيكرهه دائماً. وضاق ذرعاً بالتي كانت تبكي.. وكان بكاؤها يناقض جمالها.. وبدت له كيف كانت تضج وتمرح وتعربد وتعب الخمر منذ قليل مع رواد الملهى وها هي تبكي..

وجاء رفيق الراقصة.. وخيل للفتى أنه شاب مسكين.. صعلوك من صعاليك الليل والحانات والملاهي يعيش عى ما تكسبه الراقصة. وسقاها الفتى خمراً، وأصلح ما فسد من أمرها ثم دفع بهما إلى الشارع الضيق المعتم، فابتلعهما الظلام المطبق. وعاد هو يشرب مع فتحية، تلك السمراء الفاتنة، وراح من جديد يسمع أنين القانون والرجل العجوز عاكف عليه، ينقر أوتاره بأنامله الناحلة، وخيل للفتى أن القانون يروي قصة شقاء لا نهاية لها.. وشربا زجاجة الخمر ثم سألها..

- ماذا تفعلين هنا؟

فأجابته ضاحكة: «انني أشرب الخمر.... كما ترى ومعك أنت..»

فضحك كثيراً. وعاد يقول:

«ولكن أين صاحب المحل.. أقصد الحانة»؟

وضجّت ضاحكة من جديد ثم قالت: «أنا صاحبتها». وهز الفتى رأسه معجباً كأنه سمعها تنطق بحكمة فيلسوف.

وأقبل الشرطي، وكانت هي أول من سمع وقع حذائه الضخم على الرصيف.

وسعل الشرطي وأطل برأسه من الباب قليلاً، وقال وهو يتنحنح: «خلاص يا ست فتحية.. الساعة تنين بعد نص الليل»

وأجابته دون أن تلتفت إليه:

- «أيوه خلاص»

وذهب الشرطي. غاب قليلاً، ثم عاد ووقف بباب الحانة وقفة ذليل! كان هزيل البنية نبت فوق فمه شاربان متهدلان. ومالت فتحية على الفتى، وطلبت منه قرشين، قرشين فقط وتناولتهما ودفعت بهما إلى الشرطي، فأمسك بيدها وقبلها وهو يقول: «اللّه يخليكي» وابتعد، وابتعد معه وقع حذائه الثقيل على الأرض. لقد رشته بقرشين، قرشين اثنين، وقد دعا لها بطول العمر، وقبل يدها.. وتغاضى الشرطي عن واجبه، تناساه بكل بساطة، انها بضعة قروش يلمها كل ليلة، بضعة قروش يضيفها إلى القروش القليلة التي تعطى له لقاء قيامه بعمله.

وأقفلت فتحية الحانة وسارت مع الفتى إلى مسكنها. كان الظلام مطبقاً، وعمال التنظيفات يقومون بعملهم ورطوبة الليل تملأ الجو، وأشباح بعض العائدين تلوح في الظلام وهي تتسكع وكان الفتى ثملاً، وكانت فتحية ثملة هي الأخرى، لقد أحس الفتى أنه تعب، منهوك، وأن رجليه لا تكادان تحملانه، بينما تشبثت فتحية بذراعه وهي تلوك كلمات مبهمة، وتضحك من حين إلى آخر، لغير ما سبب. وكان يتراءى للفتى أنه لم يغادر الحانة، فهو ما يزال يسمع أنين القانون، أنينه الممزق الملتاع، ويرى الرجل العجوز ينقر على الأوتار بأصابعه الهزيلة في ركن الحانة، ثم جاءت الراقصة وطفقت تبكي، وهو يكره البكاء ويكره أن يرى أحداً يبكي. وبعد قليل أطل الشرطي وقال «خلاص يا ست فتحية الساعة تنين بعد نصف الليل» وأخذ منها قرشين لكي يغضّ النظر، وقبّل الشرطي يدها وهو يقول «اللّه يخليكي»..

ودارت الدنيا بالفتى.. وراح يبتعد بخطى واسعة، وسمعها تعوي وراءه وتناديه.. ولكنه كان يغذّ السير وسط ظلام دامس، ويرى أشباح الليل يتداخل بعضها في بعض ويرى المنازل الكبيرة المتعالية وكأنها تهتز أمام ناظريه! كان يريد أن يصحو، وعاد الشرطي يتراءى له وهو يمد يده لكي يتناول القرشين الصغيرين ويقبل يد فتحية وهو يقول لها «اللّه يخليكي» وخيل إليه أنه يرى حول الشرطي أطفالاً عجافاً مهازيل، يتضوّرون في أطمار بالية ولهم عيون مقرحة، وخدود غائرة، ومعهم امرأة خابية العينين شاحبة الوجه، زائغة البصر، تمد يدها وكأنها تستجدي هي الأخرى، ومن وراء هؤلاء جميعاً يبدو له وجه فتحية، وجهها الخمري، وتبدو له عيناها المتقدتان، وشعرها المرسل، ونهداها الراسخان. واختلطت الصور في رأسه: الشرطي وأطفاله وامرأته وفتحية والرجل العجوز الذي ينقر على القانون، والحانة الصغيرة والراقصة التي تبكي، وراح يوسع خطاه، ليخرج من هذا الشارع الضيق، المعتم، متجهاً نحو النور، دون أن يلوي على شيء.

ما أقل الثمن

سعيد: هذا اسمه. ولم يكن يعلم لماذا أطلقوه عليه. والأرجح أن أبويه سمياه كذلك، تفاؤلاً واستبشاراً، فكأنهما أرادا أن يمليا على الأقدار مصير ولدهما وحظه من الدنيا. ولكن الرياح لم تجر بما تشتهي السفن. فلم يكن سعيداً، ولكنه أيضاً لم يكن شقياً. وإنما كان مكفّي الحاجة. ولم يزد حظه على ذلك ولم ينقص، حتى بعد أن قارب الخمسين فإنه كان لا يزال يعيش من تعبه وعرق جبينه ونور عينيه. وهو لا يذكر إلا أنه ما فتيء مكباً فوق مختلف الأقمشة يفصلها، ويهندمها، ثم يعمل فيها ابرته حيناً، وابرة آلته حيناً آخر.

وليته كان صاحب دكان، إذن لهان الأمر، ووسعه أن يعمل على ازدهار عمله، فيكون عنده صانع أو اثنان أو أكثر، وأقمشة متعددة الشكول والألوان، وواجهة زجاجية أنيقة تزين مدخل دكانه، ويعرض فيها أصوافه، وتضيئها ليلاً أنوار «النيون» الساطعة. ولكن هذا كله يحتاج إلى مال، وأنّى له ذلك؟ انه لا يملك أكثر مما يقيم أوده، هو وامرأته. ولذلك فقد اكتفى أن يعمل في احدى الغرفتين المتواضعتين اللتين يقيم فيهما على سطح عمارة كبيرة، ذات أدوار ثلاثة. وانه، في ساعات ضيقه وتذمره، ليضيف إلى قائمة تعاسته هذه السلالم الكثيرة التي يضطر إلى صعود درجاتها السبعين والهبوط منها مرات كل يوم. كان قبل أن يبلغ الأربعين لا يجد مشقة تذكر في الصعود والهبوط. أما الآن فانها تنال منه، فتخلخل عظام ركبتيه وتثير لهاثه وسعاله، حتى لتنبهر أنفاسه

وتجحظ عيناه، وتمتلىء أجفانه بالدموع، ويتصبب عرقه حتى في أيام الشتاء.

أما زوجه، فلها الله هي الأخرى. لقد أحبها ثم تزوجها منذ ثلاثين عاماً. وكانت إذ ذاك فتاة رشيقة سمراء، حلوة النظرة. وها هي الآن قد وخط الشيب رأسها، وهزلت، ويبست يداها من العمل اليومي المستمر. ولقد اعتاد هو، كل هذا الزمن الطويل، أن يدير أفكاره، ويتحدث إلى نفسه ويتأمل هواجسه على هدير آلة الخياطة، ووقع أقدام امرأته، وهي تنتقل هنا وهناك، وهنانة، وئيدة الخطو، وتقوم بشؤون بيتها الصغير من الصباح حتى بعيد الظهر.

كل يوم ككل يوم. ومنذ أكثر من ثلاثين عاماً: قماش يروح وآخر يجيء، والابرة لا تنفك صاعدة هابطة، تخترق القماش، وتأكل حياته مع كلّ غرزه، وتستل من نور عينيه مع كل قطبة. حتى كلّ بصره واحتاج إلى العوينات السميكة يضعها، في أوقات العمل، فوق عينيه المتعبتين.

ومع ذلك فانه ليجد بعض راحة وبعض عزاء لأنه يحس أنه حر، لا يحكمه في عمله أحد. غير أنها حرية نسبية فهو ولا ريب موثق إلى عمله، فكأنه قيد لا فكاك له منه. وماذا يحدث لو خطر له، ذات صباح ربيعي، من هذه الأصباح التي تغري الانسان بأن يترك خيطه وابرته وأقمشته، وينطلق نشيطاً، مرحاً، خفيف الخطى، مستجيباً لنداء الحياة، منتشياً بأريج الأزهار، مأخوذاً بالنور المتلألىء على أعراف الشجر، والورد الضاحك في أحضان كؤوسه الخضيلة؟ يحدث - بكل بساطة - أن يدفع، ثمناً لهذه النزوة، انقطاع رزق يوم كامل، سوف تضيق به ميزانيته الصغيرة أياماً كثيرة.

وذات مساء هبط سعيد السلالم العديدة المتعبة التي تلتفّ حول العمارة من السطح إلى أرض الشارع، وعلى يده اليمنى بدلة جاهزة ملفوفة في ورقها، وقد رأى أن يذهب بها إلى صاحبها في تلك الساعة.

وحث خطوه بين أزقة ودروب. ثم وجد نفسه يسير على رصيف الشارع التجاري الكبير، وقد نشطت فيه الحركة بعيد الغروب، واستضاءت دكاكينه ومتاجره بالأنوار الساطعة، وازدحم بالسيارات والخلق، وامتلأ جوّه بنداءات صغار الباعة

وأقبل من بعيد فتى يحمل أوراق اليانصيب، ولا ينفك ينادي، هنا وهناك، ويغري الناس بالربح المرجو، فيقبلون عليه يأخذون أوراقه ويدفعون له الثمن، واشترى سعيد ورقة منها، وتأمل ألوانها هنيهة، ثم طواها باعتناء ووضعها في محفظة نقوده وعاد يواصل سيره.

ما الذي أغراه بشرائها؟ أهي الكلمات الجميلة التي كان ينثرها الفتى يمنة ويسرة؟ أم هي هذه الأنسام الحلوة، ينفح بها الربيع وجوه الناس فيزيدهم نشاطاً ومسرة وتفاؤلاً، أم بكل بساطة هو الأمل بالربح؟ في قلب كل منا نغم خافت، فيه حلاوة ورقة ولا يسعنا في صخب الحياة وضجيج العيش إلا أن نصغي إليه الحين بعد الحين. والأمل الخفي، المنزوي في قرارة النفس هو الذي يبعث هذا النغم الجميل، فتفسح أمامنا آفاق الدنيا، ونشعر في كياننا بالعزم والقدرة على مغالبة الصعاب. وهكذا انطلق سعيد وهو يحس أنه قد استقوى من ضعف، وأنه قد احتاز بالفعل ثروة طائلة. ولما عاد إلى البيت لم يقل شيئاً لامرأته، واعتذر لها عن تأخره بازدحام الشوارع وازدياد حركة المرور في العاصمة الكبيرة، وقد طفق الناس يؤوبون إلى بيوتهم في مثل هذا الوقت

وكان موعد سحب اليانصيب الكبير بعد ثلاثة أسابيع من ذلك اليوم. وكانت هذه الأسابيع الثلاثة حلماً طويلاً، متصلاً، قضاها سعيد مكباً على عمله، مستغرقاً فيه. وكان كل صباح يسارع إلى الباب المفضي من غرفته إلى المطبخ، حيث تنهمك امرأته بعملها المنزلي، فيغلقه على مهل، ويخيل إليه عندئذ أنه أغلق دونه باب الدنيا كلها، ليدخل عالماً آخر، لم يكن يعرفه حتى ذلك الوقت،

هو: عالم الحلم الطويل المستغرق..

لم يكن يحلم بأن يربح الجائزة الكبرى، ولا أي مبلغ جسيم آخر. وإنما كان يرجو من أعماق قلبه أن يتيح له الحظ، أو النصيب، أن يربح مبلغاً معقولاً، على أن يكون كافياً ليأذن له باستئجار محل لائق، على ناصية الشارع التجاري الكبير. وكان يحلم بدكانه كيف سيكون. لم يكن يدع في حلمه الجميل شيئاً إلا ويروح يفكر فيه. حتى التفاصيل الدقيقة كان يتلبث عندها طويلاً: دهان الأبواب، والرفوف، واللون الزاهي الذي سيضفيه على خشب الواجهة، والكتابة الأنيقة التي سيزين بها زجاجها الشفاف، والأصواف ومختلف الأقمشة التي سيضعها فيها فتبهر الأبصار ولا ريب بألوانها وشياتها الرائعة. أجل سيكون كل شيء في غاية الانسجام والذوق السليم فلا يستطيع المار من الناس إلا أن يتمهّل ثم يقف قليلاً يتأمل ما تراه عيناه، وهو لا بد أن يدخل المحل الجميل ليكون من زبائنه. ولم يهمل سعيد في حلمه الكبير غرفة الجلوس في محله، أو كما يحب أن يسميها: غرفة القياس. سوف يكسو هذه الغرفة بالمخمل الرمادي، سيضع في صدرها مرآة كبيرة ذات ثلاثة جوانب، يرتاح إليها الزبائن، وتأذن لهم بأن يشاهدوا أنفسهم من حيثما يريدون.. ويستأجر بيتاً آخر لسكنه. وسيتيح لزوجه الصابرة أن ترتاح قليلاً، وسيجدد لها الأثاث فيضع في غرفة الاستقبال مقاعد مريحة يغوص الجالس فيها ويجد الراحة، ويستطيع هو على الأخص أن يسترخي في أحدها ويغفو قليلاً في أحضان هناءة ظل عمره كله يشتهيها. وسيكون لبيته الجديد فناء نظيف، وشرفة يستدير حولها الزجاج، وحديقة صغيرة تنهض في جنباتها شجيرات ذوات ورق عريض تضاحكه ثغور الزهر...

كان سعيد ينشد هذا النوع اليسير من السعادة. لم يتطاول إلى سعادة خارقة مستحيلة. وكان هذا الذي يحلم به هو أكثر مما يتمناه على الله. وفي أثناء هذه الأسابيع الثلاثة لم يكد سعيد يحس بوجوده في الغرفتين البائستين فوق السطح

والمطبخ الخشبي الحقير الذي تجاهد فيه زوجته. وكان يتراءى له أنه ما عاد يتناول طعامه فوق المائدة الصغيرة المتخلعة، وإنما هو يتناوله في حجرة الطعام المريحة، في البيت الذي زينته له أحلامه...

وفي المساء كان ينسى الحر الخانق المنبعث من ألواح «الزنك» التي تقوم مقام السطح للغرفتين البائستين، ويروح يطل على الشارع من النافذة الوحيدة، وهو لا ينفك سادراً في حلمه، وقد انجذب كيانه كله نحو ذلك السراب البعيد.

وجاء يوم سحب اليانصيب. وأعلن عنه في كل مكان، فاستقبله سعيد هادئاً، ساكن الطائر، وفي المساء هبط على مهل سلالم الأدوار الثلاثة، واشترى صحيفة وراح يقرأ الأرقام على الضوء المنبعث من مقهى قريب. ولم يكن رقم ورقته في قائمة الأرقام الرابحة. ولم يفعل سعيد شيئاً. ولم تند عن صدره آهة ألم أو خيبة أمل. وإنما هو طوى صحيفته بعناية كبيرة، وأعاد ورقة اليانصيب إلى محفظة نقوده حريصاً عليها كأنها من التمائم أو التعاويذ الثمينة، وعاد صاعداً إلى بيته. وكان يحس براحة غريبة، فلقد اشترى حلماً رائعاً، عاش في أكنافه ثلاثة أسابيع طوال كانت تملأها سعادة عابرة. ومن ذا يستطيع أن يشتري كل هذا الحلم الجميل بعشرين قرشاً فقط؟ فما أقل الثمن حقاً.

امــــرأة

هذه قصة حدثني بها صديق. وأنا أرويها هنا دون أن يكون لي فيها أثر غير كتابتها وافراغها في أسلوب أدبي يلائم جوها وحوادثها:

أي عطر كان يتضوع من تلك المرأة؟! لقد كان يخيل إلي أن كل شيء فيها جميل، وأن جمالها لم يكن مباحاً. لا أدري إذا كنت تدرك ما أقول، غير اني أحاول أن أعطيك صورة واضحة عن جمالها الفريد. كان يلوح لي أن هذا الجمال عطر يتضوع منها، يشمه كل من يمر بها فيرتاح إليه ويملأ به رئتيه، ولكنه لا يستطيع أن يعدو ذلك قيد أنملة واحدة. يجب أن يكتفي بالعطر وحده وبالنشوة التي يحدثها هذا العطر في روحه وخياله، فكأن ثمة قوة خفية تحول دون أن يخطر للمرء أن صاحبة هذا الجمال الباهر يمكن أن تمس.

ما الذي كان يذود عنها الشهوات، فيما كنت أحس؟ لقد كانت معتزة شامخة دون أن تتكلف اعتزازاً أو شموخاً. وكانت تبدو بعيدة المنال، نائية المنزلة، مهيبة الطلعة، ولكنك لا تحس أنها تتعمد ذلك أو تريده، أو يخطر لها على بال.

ولم يكن جمالها صاخباً، غير أنه يخيل إليك أنه عميق القرار يقتضيك أن تديم إليه النظر لكي تجتلي مكنونه. وكلما أدمت إليه النظر أعطاك من صوره وشكوله ألواناً لا نهاية لسحرها ولا حد لخلابتها، فكأنها تتجدد في كل نظرة من عينيها وكل التفاتة من جيدها وكل حركة من أعطافها.

كان شعرها يضرب إلى حمرة خفيفة وهو أزهى وأفتن ما يكون حين تتخلله أشعة الشمس فيتألق عندئذ وتكتسب منه الأشعة لوناً متوهجاً ليس من خصائصها.. وكان جيدها أتلع، ناصع البياض في استدارة بلغت حد الكمال. وكانت ساجية الطرف، لا تفتح عينيها إلا على ما يشبه زمرد المروج الفيحاء ابان ازدهارها الربيعي، ثم لا تلبث أن ترخي جفنيها في خفر جميل فيقع في روعك عندئذ أنها ضنينة يكنزها الغالي أن تنتهبه العيون. وكانت ممشوقة القد، ممتلئة في غير بدانة، وكانت إذ تسير توحي إليك أن لنقلة قدمها، في خفة ورشاقة وحلاوة، قواعد وأصولاً من نغم ووزن وايقاع. ومع ذلك فقد كان يقع في روعي أن ليس أمنع من جمالها جمال، لأنها كانت تضفي عليه من تحفظها وترفعها ونبل ملامحها ما يرد عنها الأنظار الجارحة وقد انطفأ منها لهب الشهوة وتألق فيها نور الاعجاب والاكبار.

وكنت أراها الحين بعد الحين، تمر قرب سور دارنا وتستدير معه عند مفرق الطريق وهي لا تنفك ترسل من فوق السور نظرات وامقة على أحواض الورد، وكان يحلو لي في تلك الأيام أن أسميها في قرارة نفسي: عاشقة الورد. لقد كانت حدائق الزهر تلتف حول بيتها الأنيق، وكان الورد في مختلف أشكاله وألوانه يتوسط كل حوض، ويتعرش حول الأسوار الخلفية، ويتسلق الجواسق الخشبية الزاهية بلونها الأحمر والأخضر. ومع ذلك فقد كان الورد يفتنها حيثما وقعت عينها عليه. ولكن ما أكثر ما كنت أراها محمولة في سيارتها الفاخرة. وكان يطيب لها أن ترخي على محياها شفًا مخرماً، فكان هذا يزيدها فتنة وغموضاً.

وكنت أعرف زوجها. وقد كان رجلاً جريئاً في أعماله التجارية الواسعة. وكانت جرأته تأتيه بأرباح وافرة تتيح له ولها ولطفلتهما اليافعة حياة رخية. وكان يبدو لي دائماً أنه يتفيأ ظل جمالها وأنه يستمد جرأته من قوة شخصيتها،

فانها هي التي تسدد خطاه في سبل الحياة وتأخذ بيده إلى مراقي القوة والرجولة، وتعصمه من الزلل. وكان يقع في وهمي أن هذه المرأة لو تخلت عنه لحظة لهوى وتحطم. وعلى أنه من أصحاب الأعمال فقد كانت له هواية كريمة هي جمع المخطوطات القديمة والكتب النادرة، وكان يحب إلى ذلك أن يظل موصول الأسباب بثقافة عصره، فيقرأ الكتب الجديدة الجيدة ويحب أن يناقش فيها -ما أتاحت له أوقات فراغه ذلك- ليزيد متاعه بها فنشأت بيني وبينه هذه الصلة الروحية التي يدرك جمالها من يعكفون على آثار المفكرين يقرأونها ويستجلون كنوزها ويتذوقون حلاوتها. ولهذا السبب كان يدعوني بين حين وآخر إلى بيته نقرأ ونتحدث ونسهر إلى موهن من الليل.

وكانت امرأته تشاركنا الحديث ساعة ،وتخف الى معزفها بعد ذلك فتسمعنا انغاما علوية تأخذ بمجامع قلوبنا. غير انها كانت تميل الى موسيقى باخ وشوبان وشوبرت،وكنت اسأل نفسي لماذا تراها تؤثر هذه الالوان المؤسية من الموسيقي. هل في حياتها سر؟ وهل هي تطوي جوانحها على حزن دفين؟ ولكني كنت في النهاية اقول ان هذه الموسيقي اشبه ما تكون باطار لجمالها الساجي ولعطرها الذي يدل عليها بالايماء والتلميح لفرط خفائه ونعومته ولطفه. وكانت بعد ان تنتهي من عزفها تنهض كالمعتذرة. وكان زوجها يتلقاها مبتسما ويأخذ يدها فيقبلها ويقول:(شد ما انا مدين لك يا« افلين » بكل هذا الصفاء الذي انعم به) وكنت انا ابحث عن العبارة الطيبة التي تصور ما اكنه لها من اكبار واعجاب فلا ازيد على ان اقول:«لعل حبك الزهر ياسيدتي هو الذي يلهمك هذه المهارة في العزف» ،فيتورد عندئذ خداها وتقول هامسة: « انما اردت ان ارفه عنكما قليلا فاعذراني ان أنا في الواقع لم احسن العزف » ثم تنسحب بخفة وتدعنا وحدنا وقد تركت خلفها عطرها الرقيق يتحدث عنها ويبقي صورتها ماثلة في قلبينا. وكان يصعب علي ان اتخلص من الجو الذي خلفته حولنا ،واروح اسائل نفسي:اتراها تحب زوجها حقا؟ ولكن ماذا تحب فيه على وجه الدقة؟ انه ذكي ولاريب وهو جريء ايضا.

ولكنه هزيل معروق، قاتم اللون وقد علت به السن فشارف الخمسين، في حين لا تزال هي في قمة شبابها. ثم سرعان ما اثوب الى نفسي واقول في سريرتي: «أتراني اصبحت احبها؟ وهل انا اتردد على بيتها لاعيش سويعات في جوها وفي ظل جمالها وسحرها ؟ والا فما اهتمامي بها اهتماما اصبحت معه انال من زوجها فاراه دميما، هزيلا غائر العينين، بارز عظام الوجه؟»وكنت عند هذا الحد من التفكير احس انه يجب ان ابتعد عن جوها الآسر وعن زوجها وبيتها، قبل ان يستفحل الامر واصبح عبد رق لهواي..

وقاومت مدة طويلة، كنت خلالها ارد نفسي عما تريد، واكبح جماحها، واتعذب.. كنت قد اعتدت جوها وعطرها وهمسها وابتساماتها السريعة والنور الذي يسطع في عينيها. كنت في اعماق قلبي احب هذا كله، وانعم به في صمت وهدوء. وكنت اكتفي باللمحة العابرة اختلسها اختلاسا الحين بعد الحين، وانا استمع الى الموسيقي التي تعزفها والكلمات القليلة الخافتة التي تقولها في جلستها القصيرة معنا في مكتبة زوجها... ثم فطمت نفسي، وحرمتها هذا النعيم... وباعدت ما بيني وبين زوجها، وكنت أنتحل شتى المعاذير لكي لا أزوره. والواقع اني كنت أتألم وأسوم نفسي العذاب المرير... وكنت أراها في أحلامي تخطر وتميس وتبتسم في غموض وترنو إليّ طويلاً فأصحو وأروح أفكر فيها، واستعيد في ذاكرتي كل كلمة من كلماتها، وكل ايماءة، وكل اشارة، ثم يخيل إلي اني اخاطبها وأتوسل إليها وأناشدها أن تمنحني بعض عطفها... وعندئذ كان يقع في وهمي انها تعرض شامخة، معتزة فأحاول يائساً أن أدنو منها فتصد وتصعّر خدها، ثم سرعان ما تجمع بيدها أطراف ثوبها الطويل وتنفر مسرعة الخطى لا تلوي على شيء.

كنت يومئذ في نحو الخامسة والعشرين من عمري. وأغلب الظن أن عاطفتي كانت أقوى من تفكيري، غير أن نشأتي الصارمة في ظل أبٍ متشدد وأم عاكفة

على صلاتها آناء الليل وأطراف النهار، جعلت مني مخلوقاً متهيباً، كثير الحذر، يحاسب نفسه وينصب لها الميزان فتختلط عليه، لذلك، الحقائق بالأوهام..

وأحسب انني بسبب من هذا كله قد أقمت لـ (افلين) في قلبي هيكلاً قدسياً، لعلها لم تكن أهلاً له، بل لعلها كانت، بكل بساطة، كسائر النساء ، لا يرتفع لها قدر عليهن ولا ينخفض، أم تراني أخذت بسنا جمالها فصورتها في ذهني وفي قلبي صورة هي أقرب إلى الكمال.... وأشد صلة بالمثل الأعلى..؟ لا أستطيع أن أقطع برأي. غير أني لن أنسى أن (افلين) كانت المرأة التي اتيح لي، في ذلك الوقت، أن أجالسها وأتحدث إليها، وأستمع لها وأشاهد جمالها السافر.. على اختلاف ما بين بيئتها وبيئتي.. من تقاليد.. وعادات.. وفوارق كثيرة... واذن فهل لعب الحرمان دوره أيضاً في نظري إليها في وقع فتنتها في نفسي؟

مهما يكن من أمر فقد أيقنت أني غدوت أسير هواها، وأن مقاومتي لم تعد تجديني، واني كلما نأيت عنها اشتد حنيني إليها.. ولقد وهنت عزيمتي وضعفت ارادتي على الأيام فعدت إليها صاغراً، مهزوماً أجرر ذيول الخيبة. وتلقتني كالعهد بها، هادئة خفرة، حيية، وعلى شفتيها ظل ابتسامة محيرة، غير أن عينيها كانتا ترسلان وميضاً خاطفاً يوحي بالغلبة والانتصار. بل كنت أقرأ في عينيها معاني الشماتة والتشفي والسخرية البالغة.. فيعروني ما يشبه القشعريرة، وتغيم الدنيا في عيني ولا أعود أعي شيئاً مما حولي... ثم أثوب إلى نفسي شيئاً فشيئاً، وأبادل زوجها حديثاً مقتضباً أنهض بعده منصرفاً إلى بيتي وقد عقدت العزم أن لا أراها أبداً. غير اني كنت أستفيق في صباح اليوم التالي وأنا أشد حنيناً وتحرقاً إليها من كل يوم مضى...

وكرّت الأيام والليالي، وكان يقع في روعي أنها تلتذ تعذيبي، ويفرحها أن تراني كئيباً زائغ البصر، مشتت الفكر، رازحاً تحت عبء غير منظور من الهموم،

ويبهجها أن تشاهدني أتخبط في سلاسل وقيود من صنعها هي.. من اقبالها واعراضها، من ابتسامها وعبوسها، من لطفها وقسوتها، من حنانها وترفعها، وبدا لي أني العوبة في يدها، وأن الصراع الخفي بيني وبينها لن ينتهي، وانها امرأة لا قلب لها في الواقع، واني كنت واهماً يوم تصورت أن فيها قوة خفية تذود عنها الشهوات، وكنت واهماً إذ حسبتها بعيدة المنال، نائية المنزلة، مهيبة الطلعة... بل كنت موغلاً في الوهم إذ وقع في نفسي أن جمالها ليس أمنع منه جمال.. لقد كان ذلك من صنع الخيال ولا ريب.. ولعل عاطفتي البكر هي التي أسبغت عليها معاني السمو والطهر، وأحاطتها بهالة من نور... وكنت أقول في نفسي وأنا أتقلب على مثل الجمر من هوان حبها: «انها امرأة من طراز خاص. امرأة لا تحب، ولا يمكن أن تتحرك لها عاطفة أو يرفّ قلبها لهوى وانما هي تجد لذة خارقة في تعذيب الرجال، ووسيلتها إلى ذلك أن توقعهم في شراكها ثم تروح تلهو بهم فتدنيهم ثم تقصيهم، وتفتح لهم آفاق الأمل ثم تلقي باليأس في قلوبهم، تستميلهم ثم تجفوهم، ترق وتلين وتذوب غراما، وعلى حين غرة تنفر قاسيّة، متنمرة، فتبدو عندئذ وكأن دون وصالها أهوالاً ومخاوف.. وما أكثر الذين احترقوا بنار هواها.. أفأكون، أنا، واحداً منهم؟ وزوجها، ألا يرى ذلك؟ ألا يخامره ريب، أم لعلّه يدرك كل شيء، ويعلم أن جمالها أشبه ما يكون بالورد الذي تحبه يذود عنه شوكه الجارح أيدي الطامعين فيه؟» ومرة أخرى خيل إليّ أنها لو تخلت عنه لحظة واحدة لهوى تحطم.. لماذا كان هذا الخطر يتردد في نفسي؟ هناك أشياء كثيرة لا سبيل لعقلنا أن يعللها، وإنما نحن نحس بها، ونتوقع عواقبها ولا بد لمنطقنا في تفسيرها...

وذات يوم استفاق حينا الهادىء الجميل الذي تحفّ به الحدائق الصغيرة المونقة، استفاق على فضيحة كبيرة، لم يدرِ كيف يواري وجهه خجلاً منها: لقد هجرت افلين زوجها... وفرت مع رجل لم يره أحد يتردد على بيتها... وإنما كان بعضنا يعرفه معرفة عابرة، ويعرف أنه تافه لا شيء يميزه أو يرفع قدره أو يعلي

منزلته بين الناس.....

لقد كان هذا الحادث كالعاصفة ألمّت بهذا الحي الهادىء أياماً عاد بعدها إلى هدوئه واتزانه، وراح يتعمد أن ينساها كأنها أمر طارىء، مرّ بالحي على حين غرة منه... لقد بلغ هذا الحادث من الهوان أن الجميع أسقطوه من حسابهم ومن أحاديثهم فكأنه لم يكن ولم يقع اطلاقاً.....

أما أنا... أما أنا فقد بقيت مدة طويلة أسائل نفسي: لماذا فعلت ذلك، هل كانت تحب ذلك الرجل؟ وهل بلغت من حبها اياه أن ضحت بسمعتها ومستقبل ابنتها وبشرفها وبمنزلة زوجها، أم أنها كانت ضحية نزوة عارضة وعوامل نفسية أجهلها... أم تراها تعمدت أن تنتقم من زوجها، بذلك، لأمر لا يعلمه أحد؟... واذن فهل كانت حياتها مأساة خفية مع هذا الزوج؟ واذا كان الأمر كذلك فهل كان انتقامها عادلاً، أو على الأقل لا يشينها؟... ومرة أخرى: ماذا كانت دوافعها إلى هذه الفضيحة التي لوثت بها زوجها كما لوثت نفسها وابنتها الصغيرة... ما من أحد كان يتوقع ذلك على أسوأ الافتراضات.

ولقد انهار زوجها من بعد انهياراً تاماً، وانهارت معه أعماله الناجحة، فكأنه النسر المحلق حطمت العاصفة جناحيه فهوى إلى حضيض البؤس. لقد صدق ظني فقد تخلت عنه فانهار وتحطم.. ومنذ ذلك الوقت استقر في روعي أن الحب ذل وضعف لا يليق بالرجولة، وأن المرأة مخلوق مراوغ، ماكر، خداع، يستمد قوته من ضعفه ومن تخاذل الرجل وضياعه أمام سطوة الجمال.

وتابع الصديق حديثه إليّ، قال:

ومع ذلك، أيها الصديق ما زلت أراها إلى اليوم، وقد مر على هذا الحادث أكثر من عشر سنوات، فاتنة خلابة، كما كانت دائماً بشعرها الأحمر المتوهج،

وجيدها الأتلع المنضوض وعينيها الآسرتين وابتسامتها الحلوة... أجل.. ما زلت أرى هذا كله وأحسّ أن قلبي لا ينفك عالقاً بها... وأن عاطفتي أقوى من تفكيري.. وهواي أبعد أثراً في نفسي....

الرجل الطيّب

«إلى أي حد يمكن أن يكون الانسان طيباً؟»

ألقى صديقي هذا السؤال وسكت. ثم راح يرسل دخان سيكارته حلقات ملتوية في جو القهوة.

انه من أصدقائي القدماء. وما من كلفة بيني وبينه. ولقد عشنا فترة صاخبة من الشباب معاً. ولسنا نجتمع مرة، في هذا المقهى الصغير، إلا ويدور الحديث حول كثير من الأمور، ثم يعود إلى ذكريات الشباب الحلوة، ومغامراته، وجنون أهوائه وعرام عواطفه ونزواته.

«إلى أي حد يمكن أن يكون الانسان طيباً؟»

ما الذي أخطر هذا الكلام على بال صديقي؟ وما الذي أداره في ذهنه؟ أتراه وهو في الخمسين من عمره أخذ يميل إلى التأمل، ويحب الفلسفة، ويرتاح إلى تعليل ظوهر الأمور واستخراج الحكمة أو العظة منها؟ وسألته محاذراً: «أتراك تسأل أم تعجب، أيها الصديق؟» والتفت إلي وقال وهو يضع رجلاً فوق رجل: «يبدو أن الطيبة في الناس شيء نادر كالجوهر الثمين لا يمكن أن تعثر عليه إلا بعد مشقة وتعب وانفاق زهرة العمر في البحث عنه في قلب قطعة من الصخر أو داخل صدفة مغلقة تائهة في أعماق البحر». وقلت وأنا أسايره: «هو ذاك. إن الأشياء النفيسة نادرة المثال حقاً، والعثور عليها شاق. وهي نفيسة لأنها عزيزة

المنال. ولو لم تكن كذلك لما استحقت الاهتمام». وقال صديقي وهو يعتدل في جلسته ويضع فنجان القهوة من يده ويتناول علبة سكائره ويشعل لفافة منها: «ولكن إلى أي حد يمكن أن يكون الانسان طيباً؟ هذه هي المعضلة. يلوح لي أنه يجب أن يكون لكل شيء حد. حتى الطيبة ونقاء النفس وصفاء الأخلاق يجب أن يكون لها حد» وقلت أنا: «قد يكون هذا... صحيحاً» ولكن صديقي عاد يقول في اصرار: «هناك ظروف لا يمكن إلاّ أن تخرج الانسان عن طيبته، لأن هذا ضرورة ملحّة، بل لأنه أكثر ما يكون دفاعاً مشروعاً عن النفس، وإلا لاقى الانسان هلاكه».

وأمسك محدثي عن الكلام. وعاد يستل أنفاس لفافته بهدوء ثم جعل ينقر على منضدة المقهى بأصابع يده، وقلت أنا استحثه على متابعة حديثه:

«وماذا بعد. هل وراء ما قلته قصة تعرفها؟»

فصوب صديقي إليّ نظرة طويلة، كأنها نظرة من استفاق من حلم بعيد وراح يقول: «انها قصة مؤسية حقاً هذه التي سأحدثك بها. هي قصة رجل طيب، مسكين، كان يقيم في ناحية من سوق النحاسين في بلدنا، ان اسمه «صالح» فيما أذكر وبعضهم كان يدعوه صالح افندي، غير أن أكثر الناس كانوا يسمونه «الشيخ صالح» ولم يكن الرجل شيخاً، ولكن يبدو أن ورعه وتقاه حببا الناس أن يدعوه شيخاً. وكان الرجل طيباً غاية الطيبة، ولم يكن يتصور أنه يستطيع أن يؤذي نملة، فقد كان بالفعل إذا وجد نملاً على الأرض حاد عنه لئلا يؤذيه وكان إلى ذلك فقيراً ولكنه عزيز النفس، لا يقبل منة أحد. وكان يأكل خبزه بعرق جبينه، أو إذا شئت بتعب يديه، واكبابه على الكتابة وحفر الأختام لمن يطلب منه ذلك. وكان فنه جميلاً، فقد كان يجيد أنواع الخطوط فيكتب الآيات والأحاديث والحكم بالخط الفارسي أو الديواني أو الرقعي أو الثلث أو النسخ. وكان ذا صبر عجيب في العكوف على حفر الأختام فوق قطع النحاس الأصفر بمناقش صغيرة

ذوات رؤوس حادة كأنها الابر. وكان يحب فنه وكان كثير الاعجاب بخطوطه الجميلة وعظيم الاعتزاز بها. ولم يكن يهمه أن يغنم من ورائها أكثر مما يقيم أوده. وكان أكثر الذين يقصدونه من أبناء القرى المجاورة، فيكتب لهم آيات قرآنية كريمة أو أحاديث نبوية شريفة يتبركون بها، ويجعلونها من أسباب الزينة على جدران غرفهم القروية، أو هو يحفر للمخاتير وأشباههم أختامهم النحاسية المستديرة التي لم تكن تفارق أحزمتهم قط. واني لأراه الآن بعين خيالي قائماً وسط غرفته الصغيرة في الدار القديمة الواسعة ذات الغرف العديدة يقطنها الفقراء من العمال وأصحاب الحرب الصغيرة. أجل اني أراه بقامته المديدة النحيلة ووجهه النحيف، وشاربيه المتهدلين، وعينيه الواسعتين، وأنفه الأقنى وشعره المستطيل، والابتسامة الرقيقة المتفتحة دائماً على شفتيه، وكان لباسه القمباز العتيق دائماً، وفوقه في الشتاء معطف حائل اللون يقيه البرد، وعلى رأسه الطربوش المغربي – كما كانوا يسمون في تلك الأيام الطربوش الذي لا خوصة له – وكانت يداه أجمل ما فيه، براحتيهما الرقيقتين وأصابعهما المستطيلة الدقيقة، حتى لكان يخيل إلي وأنا أتأملهما أنهما يدا عازف ماهر.

وسكت محدثي وأخرج سيكارة جديدة، فقد كان كثير التدخين، وعلى الأخص إذا تحدث، فلم يكن يستطيع أن يقول شيئاً إلا والسيكارة بين اصبعيه.

وقلت أنا متضاحكاً: «يبدو أن قصة صاحبك الشيخ شائقة.» غير أن صديقي عاد يقول وهو ينفث دخان سيكارته: «انها على الأصح محزنة أو مؤلمة إذا شئت. فقد كان الرجل كما قلت لك طيباً جداً. وقد أحبه كثير من الناس لهذه الصفة. فما كان يسعه أن يكذب أو يماري أو يرائي أو يغضب أو يؤذي أو يحاول المراوغة والخداع والغدر أو السعي بالنميمة والفساد بين من يعرف ومن لا يعرف من الناس، ولم يكن ما يفيض عن حاجته من مال قليل ملكاً له، لقد كان يتصدّق به على اخوان له معوزين، وكان يؤثر أن يبيت جائعاً طاوياً، ويشبع غيره

من المحتاجين وذوي الخاصة. وكان أطفال الحي يحبونه بصورة خاصة ويلتفون حوله كلما رأوه، ويرفعون إليه وجوههم الصغيرة التي تبرق فيها عيونهم البريئة الضاحكة وكان عندئذ يمد يده إلى جيبه الكبير ويعطي كلاً منهم ملء قبضته ملبساً أو قضامة صفراء أو غير ذلك مما يلذ الأطفال، ثم يتحدث إليهم ويربت على رؤوسهم وأكتافهم، ويضاحكهم، ثم يمضي خفيف الخطو سعيداً غاية السعادة.

وقطعت على صديقي حديثه وقلت له في وجل كمن يتوقع شراً: «وهل حدث له ما يكره؟» وقال الرجل متابعاً حديثه: «ومع ذلك فانه لم ينجُ من أذى الناس ولؤمهم».

وعدت أقول: «ولكن... كيف... أيعقل هذا؟»

وقال صديقي: «ولماذا لا يعقل؟ يبدو أن طيبته كانت أكثر مما يجب. كانت أكثر ممّا يستطيعون أن يتحملوا. اننا في ضعفنا البشري نكره الكمال في أي شيء، وحتى ما يشبه الكمال ويقرب منه. لم تستطع عيونهم أن تتحمل الاشعاع القوي المنبعث من طيبته» وقلت: «ولكن ماذا فعلوا به؟» فقال: «لقد لوّثوه، هذا كل ما في الأمر» قلت: «لوثوه؟» قال: «أجل. لوثوه ليصبح مثلهم. لينزل من عليائه إلى حيث هم من دنياهم. هل تفهم؟ لقد أغروا به امرأة مُريبة تعمل في أحد ملاهي المدينة. انها راقصة أو مطربة ممن يلقين المنلوجات ويتخلعن على المسرح ويهززن أردافهن ويكشفن عن أبدانهن ويوغلن في الرذيلة. أغروها بالمال فجعلت تتردد عليه ليكتب لها - بخطه الجميل - شيئاً ما. ثم ألّبوا عليه سكان الحي ذات يوم وجمعوهم عند أسفل الدار القديمة التي يقيم فيها فرأوا بأم عيونهم تلك الراقصة الخليعة تنزل من عنده... وصدقوا.. صدقوا أن الرجل الطيب القلب فاجر كبير، تتردد عليه الخليعات من النساء. وهكذا هوى من حالق، من عالمه النظيف وتلوث.. وقد أهانوه بعد هذا.. وسفّهوه.. وجعلوا أطفالهم الأبرياء الذين

كانوا يحبونه يرجمونه بالحجارة.. ولم يستطع أن يقاوم طويلاً.. وأبوا أن يصدقوا أنه بريء وأنها فرية افتراها عليه بعض سفلة الناس ومكيدة دبروها له.. وارتحل عن الحي، ولكن لعنتهم لاحقته حيثما ذهب. فكانت في هذا نهايته..» وسألت محدثي: «نهايته.. أتقول نهايته.. أتراه انتحر؟»

فقال ساخراً: «انتحر؟ اوه.. كلا.. لقد فعل ما هو أسوأ من الانتحار.. ان الانتحار يمكن أن يكون نهاية لقصة سخيفة، قلت لك أنهم لوثوه.. فغرق بعد ذلك حتى أذنيه في الوحل الذي أرادوه له.. فقد أصبح على الأيام سكيراً، عربيداً، وكنا نراه يستجدي الناس ثمن الخمر التي يشربها، ويتطرح في الطرقات، ولا ينفك يتعلق بأذيال راقصات الحانات والملاهي فيضربنه ويهزأن به ويركلنه بأقدامهن متخلعات ضاحكات متهالكات من فرط العبث به، فلا يزداد هو إلا تمسحاً بأحذيتهن، تلك كانت وسيلته لكي يسكت الذين تقحموا عليه عالمه النظيف ويجعلهم ينسونه.. وتلك كانت نهايته كذلك..»

وصمت صديقي، وبقي ظل ابتسامة ساخرة يرفّ على شفتيه. ثم التفت إليّ وقال وهو ينهض لينصرف: «لقد نسوه بالفعل، ولم يعودوا يذكرونه.. ولكن هل تستطيع أن تقول لي الآن إلى أي حد يمكن أن يكون الانسان طيباً؟» ودون أن ينتظر جوابي مضى على مهل بين موائد القهوة وكراسيها، وفي ضجيج روادها وزعيق خدمها...

إنسان لا جريرة له!

كان ذلك اليوم يوم عطلته الرسمية. وليس هذا ما يميز هذا اليوم عن سائر أيام محمد افندي الموظف في الدرجة العاشرة إلا أنه يحلق فيه لحيته التي تكون قد استطالت خلال الأسبوع وينضو ملابسه الداخلية القذرة، ويخلع على جسده النحيل غيرها وهي مراقع - إلا أنها نظيفة - ثم يرتدي حلته الكحليّة التي ظل، طيلة سبع سنوات، حريصاً عليها: يصلحها ويخفي عيوبها، ويرتق فتوقها على الأيام، وينظفها ويعمل فيها المكواة - كلما بدا له أنها تحتاج إلى ذلك - بدقة متناهية. ولا ينسى محمد افندي في هذا اليوم أن يوسع على نفسه قليلاً، فيأكل اللحم مشوياً أو شرائح في الفرن، عليها التوابل والبهارات ويشتري شيئاً يسيراً من الفاكهة: العنب في الصيف، وبرتقالات في الشتاء، ونادراً جداً الموز أو بضع تفاحات. وفي هذا اليوم أيضاً يشتري مجلته المختارة (النجوم) وقد يفكر في قضاء سهرته في السينما، وكثيراً ما يؤثر العافية فيقضي سهرته في ذلك الركن من غرفته المنزوية في أحد أزقة «حي المهاجرين». يجلس على (طراحته) الصغيرة المربعة، وأمامه مصباح الغاز، وبيده «النجوم» أو كتاب المستظرف «للابشيهي» ويمضي في مطالعته حتى تكلّ عيناه، ويراودهما النعاس، فيطفىء المصباح ويندس في فراشه، ولا يلبث أن ينزلق في هوة سبات عميق تبحث روحه في قرارتها عن مشتهيات كثيرة، وظلال سعادة لبث عمره كله يلهث وراءها. كان ذلك اليوم اذن يوم عطلته الرسمية. وكان الوقت صباحاً من تلك الأصباح الربيعية التي يشيع فيها نيسان عطره، وينفث في أنسامها الندية دفئاً من أنفاسه. وكان

محمد افندي واقفاً أمام مرآته الصغيرة يتهيأ لحلاقة لحيته. وكان في ذلك الصباح - منذ أفاق من نومه - يحس بفتور في جسمه كله، وضيق في صدره، وجوع في روحه ولهفة إلى شيء لا يدري كنهه. ولا ريب في أن الربيع بعطره ودفئه قد عمل على أن يشبع في روح محمد افندي وجسده القلق والحيرة. ولقد طالعه في المرآة وجه أنكره بادىء الأمر ثم عجب كيف يكون هذا الوجه وجهه هو. لكأنه يراه لأول مرة، هذا الوجه الصغير الممتقع دائماً... كأنما هو واقع تحت سطوة فزع لا ينتهي أبداً... وهاتان العينان الضيقتان.. الوجلتان... ما أكثر ما يبدو أنهما تبحثان في لهفة ويأس عن شيء ضائع لا تجدانه.. ثم هذا الأنف الضخم، نبتت على قمته الغليظة شعيرات كالشوك.. هذا الأنف بكل غلاظته، ووقاحة جرمه، في هذا الوجه الصغير الضئيل، الكثير الفزع... انه كخطأ فادح ثقيل، انه كزلة كبرى في تاريخ انسان نظيف. لا ريب في أن للطبيعة ساعات تهزل فيها إلى حد العنف... إلى حد الزراية البالغة.. على حساب انسان لا جريرة له.. وانثنى تفكير محمد أفندي إلى اتجاه أعم، وحدثته نفسه بمرارة وحرقة أن كل شيء في هذه الدنيا يقوم على التناقض. فلا بد من القبح والجمال والسعادة والشقاء، والفرح والحزن، والقوة والضعف، والمأساة والمهزلة الخ.. جنباً إلى جنب وصورة إلى صورة، ولوناً إلى لون، وأين النور الذي لا يعقبه ظلام، وأين الخير الذي لا يواكبه شر؟ قد لا يكون هذا كله تناقضاً، قد يكون هو الاتساق، هو النظام الصحيح، وقد يكون هو السر في بقاء الحياة واستمرار الوجود. فلسفة محمد افندي هذه أراحته، فثأت قليلاً من حدة شعوره بتعاسته. وليست هذه أول مرة ينهض فيها من أحضان بؤسه، فيقع في النهاية غارقاً حتى اذنيه في أحضان هذه الفلسفة الآسنة... لا يدري أين قرأها... منذ بعيد.. فأعجبته واتخذها ملاذاً ينجيه من نفسه ويعصمه من الشطط.....

وكان قد انتهى من حلاقة لحيته، فتعطر، وذرّ شيئاً من البودرة على وجهه، ورجل شعره بمشطه العتيق، وراح يرتدي حلته الكحلية بعناية وحرص. وهو يتغنى

بصوت خافت أغنية: «بتبص لي كده ليه... ما تقوللي قصدك ايه» الخ. وانتقل على الاثر إلى جو تلك الرواية السينمائية، وتراءت له تلك الممثلة تتثنى وتميس وتتهالك غراماً وقد استضاء محياها بنور ابتسامة غاوية وهي تردد إلى ما لا نهاية: «بتبص لي كده ليه..» وانتهى من اغنيته ومن الجو السينمائي الذي عاش فيه لحظات إلى هذا السؤال: ما بال سميرة - بنت الجيران - لا تنفك تختلس إليه النظر، منذ أيام، في غدوه ورواحه؟ لقد رآها تفعل ذلك مرتين أو ثلاثاً من خلال الباب الموارب المقابل لباب البيت الذي يسكنه، ولكنها كانت لا تكاد تنتبه إلى أنه أحس بها تنظر إليه حتى تنفر هاربة كمذعورة. سميرة هذه، شامية لحماً ودماً وتربية. منذ شهر حلّت هي وأسرتها في هذا الزقاق الضيق المستطيل من أزقة «عمان» وأن لها لقداً، وأن لها لوسامة، وأن في خديها لورداً، وفي لحظيها لفتنة. لقد استجلى هذا كله فيها من بعيد في مراقبة مستمرة دائبة، ولكن على وجل واكتفاء في كل مرة باللحظة العابرة والنظرة الطارئة حتى استوت له منها أخيراً صورة تبعث القلق في روحه والحرقة في بدنه. ولقد وقع في وهمه أن فيها من ليلى مراد مشابه ومفاتن ولكن بؤسه كان يصده. ودمامته وذلك الأنف المهول وتلك القامة الهزيلة العجفاء وانطواؤه على نفسه هذا كله وقف كالحصن يذوده عن الطمع في مثل حسنها. ان احساسه بتفاهته كان قد ملأ نفسه، وجثم في أعماق روحه، يطل منه هذا الذعر في عينيه، وهذا الفزع في حركاته وسكناته جميعاً. كان يحس احساساً بالغاً، موئساً، بأنه شيء تافه حقاً، نفاية لا حق لها في أكثر من مجرد العيش على نحو ما. لقد كانت سميرة تنظر إليه، تحدق فيه. لم يكن ذلك منها شيئاً عارضاً، كان في نظرتها شيء كأنه الحنان، كأنه حلمه هو بالسعادة. لقد كان كالمنهوك الخائر القوى، استنفد لؤم الحياة وغدرها طاقته من القدرة على الاحتمال. وفجأة انسكب في روحه ماء تلك النظرة العطوف، انساب يترقرق في كيانه كله، ويحيي فيه ما كان يموت شيئاً فشيئاً من شعوره وعاطفته وقلبه.

وخرج محمد افندي من منزله، في ذلك الزقاق الضيق المستطيل، وألقى بنفسه في زحمة الحياة وما تزال تلك الأغنية ترفّ على شفتيه (بتبص لي كده ليه - عاوز تمنيني..) سار متمهلاً يخترق الأزقة والدروب والشوارع الكبرى، ثم وجد نفسه في شارع «الملك فيصل» يرقب الناس، ويعجب بعنف الحياة ونشاطها في هذا الضجيج الهائل.. ضجيج القطيع البشري في المتاجر وعلى الأرصفة.. ضجيج السيارات بعضها ينساب رشيقاً، مترفاً، مزهواً بمن يحمل من نساء ورجال ذوي نعمة ورفاه، وبعضها ثقيل غليظ، عظيم الجرم، يرج الأرض هادراً مزمجراً.. ثم ثقّل محمد افندي رجله أمام بعض الواجهات الزجاجية فاشتهى هنا قميصاً حريرياً، وهناك ربطة عنق زاهية، وفي واجهة أخرى حذاءً أميركياً فاخراً.. ثم اندفع مع اللوج البشري إلى شارع «السعادة» فعبقت بأنفه رائحة الشواء فتحلّب لها ريقه، وتمثل نفسه على الفور جالساً إلى طبق من الكباب الشهي والرغفان الساخنة. وتابع سيره محاذراً كمتلصص، مشفقاً أن يصدمه الحمّالون بغرارات أرزهم وسكرهم ودقيقهم.. ثم حث خطوه وما لبث أن استدار مع الشارع وسار قليلاً في الدرب المؤدي إلى المحطة ثم انعطف إلى شارع «الرضا» وراح مرة أخرى يتسكع أمام الواجهات. خلب لبه الذهب المعروض أشكالاً وأنماطاً.. تتوهج وتبهر العين.. انه شارع الذهب والحرير شارع النساء المترفات، المحمولات أبداً في سيارات فخمة فاخرة، خرجت من الدماغ الاميركي حلماً فاتناً من أحلام المادة في عز جبروتها الفائر يريد أن ينطح السماء بأعمدة من صلب

نعم، وان محمد افندي لا يزال يسير متمهلاً هنا وهناك، مأخوذاً بما يرى من تهافت النساء على الذهب والحرير... انهن يقلبن الذهب بين أيديهن مسحورات مستغرقات، وأن أناملهن الدقيقة، الناصعة البياض، لتمس الذهب برفق.. أناملهن عينها تروي قصة فتنتهن الخالدة به. وأن الحرير حين تتناوله المرأة بين راحتيها بمثل هذا الشغف.. بمثل هذا الحنان.. لا يعود حريراً وحسب، انه ينقلّب شيئاً أثمن من الحرير، شيئاً تضفي عليه المرأة فتنة من فتنتها وظلالاً رائعة من

حسنها هي.. ولاحت لمحمد افندي تلك المفتنة مرة أخرى تتهادى في ثوب حريري متألق، تغني له ولسميرة وحدهما، وتمنيهما بالنعيم الخالص.. وبدا له على حين غرة أن الدنيا أقل قبحاً، وأقل ظلماً مما كان يتوهم، وأن فيها جمالاً يبلغ حد الفتنة أحياناً، وأن نقمته، واجتراره الدائم لعذابات وضعه.. كان من صنع يديه... أجل لقد صنع لنفسه قيوداً وأغلالاً... وخلق لها أوهاماً وأضاليل... لقد بدأت الحياة السليمة، المستبشرة، تتململ في أعماق كيانه. وها هو قد عاد إلى شارع الملك فيصل مرة أخرى، وانه لينقل خطوه محاذياً لهذا الصف الطويل من الحدائق القائمة في وسطه. ما أروع هذا الشجر الفينان في قلب هذا الشارع الصاخب.. ويا لحذق الانسان الذي أبدع هذه الشكول الهندسية من عشب ندي وزهر شذي... وما أسعد هذا البستاني يسلسل الماء هنا وهناك ويكاد يلثم بشغف وومق كل زهرة وكل نبتة.. ورفع رأسه قليلاً فرأى «سينما ستوديو عمان» الشامخة ومقهاها بمظلاته الحمر وشرفاته الأنيقة وذلك اللون الأزرق الفاتح المنسكب عليها، وتلك اللوحات السنمائية الجذابة بما فيها من رجال ونساء وأوضاع تروي قصص الحب والمغامرات.. وينهض من وراء هذا كله جبل عمان سابقاً بقصوره ومغانيه يشرف على المدينة وأسواقها ومتاجرها، مزهواً بأن يضاهي أجمل بقعة من مصايف الدنيا.... أين كان هذا الجمال كله... لكأنما لم يتفطن محمد افندي إلى كل هذه الثروة من الجمال إلا الآن.. في المدينة التي ولد وعاش فيها ثلاثين عاماً أو تزيد. كان الاحساس بأن كل شيء جديد وجميل ورائع وبأن الحياة تستحق أن تعاش، كان هذا الاحساس ينبثق من كل عصب من أعصابه.. كان يجلو صدأ نفسه... وتراءى له أنه لو كان حتى كأحد هؤلاء الصبية الذين يبيعون للمارة علب الدخان والثقاب وشفرات الحلاقة ومعجونات الأسنان والأمشاط الصغيرة الرخيصة لكان خليقاً بأن يسعد، وينعم بالجمال الباهر الذي تغص به الحياة.

وحثّ خطوه هذه المرة وسار مخترقاً الأسواق بهمة جديدة نشيطة مرحة، ووجد لمنكبيه متسعاً في سوق الاشرفية المزدحم بالعربات والسيارات والجمال والخلق، ثم

انعطف عن يمين إلى حي المهاجرين، ومن درب إلى درب، ومن عطفة إلى أخرى بين أزقة كثيرة، وجد محمد افندي نفسه على ناصية الزقاق الذي يسكنه. راح يسير فيه متمهلاً، وسميرة لا تبرح خياله وضجيج العيش في عمان، وجمال الحياة لا يزال ينبض في عروقه مع دمه. واقترب من مسكنه. من تلك الدار العتيقة، ذات السور المتداعي من اللبن الترابي الرخيص، والغرف المنزوية المعتمة. ولاحت منه التفاتة فرأى الباب الموارب قبالة مسكنه، ووراءه سميرة وقد أدارت وجهها إلى داخل البيت. وسمع همساً. لم تره، كانت تحدث جارة لها. فثقّل رجله وأرخى اذنه وهو يهم بدخول مسكنه فسمع هذا الحوار:

- لم أره إلا مرات قليلة.. من يكون وما اسمه؟
- اسمه محمد افندي.. موظف صغير أو كاتب بمحل تجاري.. شيء كهذا...
- يبدو أنه شقي.. تعس....
- كيف؟
- مظهره الزري... وحرمانه البادي على وجهه المتقع الصغير....
- ثم ماذا؟
- هذا الأنف العجيب... انه دميم أيضاً... شد ما أرثي له.. انه جار على كل حال....

لم يلتفت محمد افندي، ولم يتلبث ليسمع بقية الحديث المهموس. جر رجليه جراً إلى الداخل، إلى غرفته... لن يسعه شيء في الدنيا غير هذا الركن في غرفته المعتمة حيث «الطراحة» المربعة ومصباح الغاز، وكتاب المستظرف «للابشيهي».. لم يكن حباً ما رآه في عينيها اذن، لم يكن حتى مجرّد اشفاق؟؟ عاوده الاحساس بتفاهته قوياً، عارماً، انه لا مكان له بين الأحياء.. الأصحاء. إن الحياة تنكره انكاراً كأنه طرح لم يبلغ خلقه حد التمام الانساني... وأحس أنه على وشك أن يختنق، كأن قبضة جبارة اطبقت على مخنقه.. لو يستطيع أن

يبكي... مخلوق واحد كان خليقاً أن يرتمي على صدره فيجد الحب، الحب الخالص.. هذا المخلوق هو امه وحدها... صدر هذه الأم كان يمكن أن يتسع لكل همه.. في وسعه وحدها أن تمسح أساه، ومرارة نفسه وهي تمر براحتها على رأسه، ولكنها ماتت منذ بعيد... وتركته وحده.. لا نصير له.. وانحدرت من عينه دمعة.. كبيرة.. حُبلى بتعاسة حاله.. تدحرجت ساخنة.. ثم انفقأت على خده غزيرة... كاوية... دمعة انسان مهيض... منكسر.. في عالم مجنون.

كانت حلم حياته!

على الرغم من أن عادل افندي قد تخطى الخامسة والثلاثين من عمره، وعلى الرغم من أنه سلخ في خدمة الحكومة أكثر من خمسة عشر عاماً لم يفلح خلالها أن يكون أكثر من موظف صغير لا يتجاوز راتبه الشهري أعلى مربوط الدرجة التاسعة فانه كان لا يزال يحس أنه شاب ابن عشرين. ولهذا فانه ظل ينفق معظم راتبه على ملابسه، فهي نظيفة دائماً، جديدة أبداً. إلا أن حذاءه وطربوشه وربطة عنقه: هذه المظاهر الثلاثة لقدمه ورأسه كانت آية أناقته. فحذاؤه مجلو لماع في كل وقت، لا يمكن أن يمسه سوء أو يعلق به غبار قط. وطربوشه، بحمرته الخلابة واتساق زره الأسود وانحرافه الخفيف إلى اليمين من رأسه، لا يمكن أن يراه انسان إلا ويقع في روعه انه قد خرج من المكوى في التو واللحظة. أما ربطة عنقه فانها حريرية زاهية الألوان أبداً، لا تنفك يده تمتد إلى عقدتها الحين بعد الحين تسويها وتضعها قليلاً بين الابهام والشاهد وان لم تكن بحاجة إلى شيء من هذا على الاطلاق. ولكنها لازمة من «لوازم» عادل افندي، يتم بها مظهر أناقته!

ومن لوازم عادل افندي أو من عاداته أنه زبون قديم من زبائن قهوة «البرازيل» منذ كانت هذه القهوة لا تقدم لزبائنها شيئاً غير القهوة «البرازيلية» إلى أن تطور حالها وأصبحت تقدم السوائل الساخنة على اختلافها والمرطبات على تنوعها. ولم يكن شيء يلذ له أكثر من الجلوس، عصر كل يوم، على رصيف القهوة الخارجي يرقب الناس، ويتلهى بمشاهدة رواية الحياة.

والغريب أنه لم يكن يخطر لعادل افندي أنه أحد شخوص الرواية، وأنه يقوم بدوره فيها على نحو ما. وعلى الأيام استطاع عادل افندي أن يخلق لنفسه عالماً يعيش فيه. ولقد كان العداء مستحكماً بين عالمه الخاص الذي سواه لنفسه فأحكم اتقانه والعالم الخارجي الذي يضطرب فيه الناس، ولا ينفكون صرعى مآسيه ومهازله على السواء. ذلك أن هذا العالم الذي ابتكره عادل افندي لنفسه عالم بهيج، مريح، متسق، وباختصار: عالم سعيد.. ليس لغير عادل أفندي هيمنة فيه، فهو وحده الآمر الناهي وبيده وحده مصاير المخلوقات التي تعيش في أكنافه وتعمر أرجاءه. ولقد كان يؤلمه كثيراً أن لا يكون العالم الخارجي - عالم الناس - كعالمه هو، أو مشابهاً له من بعض نواحيه على الأقل، ولهذا السبب اكتفى عادل افندي بأن يرقب عالم الناس ويفرّج عن نفسه بمشاهدة الاختلال الدائم الذي لا ينفك يلازمه... وكان رصيف مقهى البرازيل هو الزاوية التي يطل منها على عالم الناس هذا الذي يسوده الاختلال.. حتى ليبدو للعاقل المتأمل - من أمثال عادل افندي - أن الأوضاع فيه مقلوبة، والأشياء ليست في مواضعها المقدرة لها، فكأن الناس يدبّون في هذا العالم على رؤوسهم بدلاً من أقدامهم، ويفكرون بأقدامهم بدلاً من عقولهم التي في رؤوسهم..

ولقد كان عادل افندي، فيما مضى، يستطيع أن يشبع عينيه ونفسه على مهل من هذه المشاهد التي تقدمها له عمان. فقد كانت رواية الحياة فيها بطيئة الحركة، قليلة الحوادث والأحداث، ولم يكن شخوصها على مثل ما هم عليه الآن من الكثرة والتنوع وتعدد الشكول والأنماط.

وفي الواقع فإن عادل افندي شرع يضيق ذرعاً بهذا الزحام وبضجيج العيش، وغدا يخيل إليه أن الناس لا يعيشون في بيوتهم ومنازلهم، وإنما تقذف بهم هذه البيوت والمنازل إلى رحاب الشوارع، وفي الأزقة والدروب والأسواق، لفرط ما يبدو من ازدحامها بهم وامتلائها بحركتهم الفائرة. وانه ليمد بصره هنا وهناك

فيدير رأسه تعدد الصور واختلاطها وتداخلها بعضها في بعض، ويكاد يخبله ما تراه عيناه من حركة البناء والتعمير في كل متجه، وتكاثر السيارات تقبل من كل صوب وتذهب في كل اتجاه، هادرة مدوية، كأنما تنشق عنها الأرض وتقذف بها -بالمئات- في اللحظة الواحدة. وأين هذا من الأيام الماضية، حين كان عادل افندي يستطيع أن يتمهل عند الصورة الواحدة يتأملها جملة وتفصيلاً ويدير فيها عينه ويدقق النظر في ألوانها وشياتها ومعالمها جميعاً، ثم لا يلبث أن يدخلها عالمه الخاص حيث يجد لها الوضع الملائم لها فتستأنف هناك حياتها في اتساق رائع.

ولو قدر لانسان من ذوي الفضول أن يشق رأس عادل افندي وينحدر إلى أعماق دماغه -لو صح هذا- ويسير بين تلافيفه ودروبه الكثيرة لسعد بصحبة زمرة من خيرة الناس، يحيون ثمة في أمن وسلام، وقد وسع كلا منهم أن يحقق المعنى الانساني الرفيع تحقيقاً تاماً، ذلك أن كلا منهم ينال حقه موفوراً ويؤدي واجبه كاملاً، ليس في صدره رغبة مكبوتة ولا ترقد في نفسه أمنية خائبة ولا يعيث في طباعه شذوذ أو انحراف، وليس للدمامة مكان في هذا العالم المتسق في دماغ عادل افندي، كل رجل فيه جميل وكل امرأة رائعة الحسن، وكل أمر يجري كما يجب أن تجري الأمور في عالم سعيد موفور الخير والكمال.

وفيما كان عادل افندي يجيل بصره وهو يكرع من كوب عصير الليمون المثلوج ويتأفف من حر هذه الأيام، قرأ خبراً في صحيفة يومية مفاده أن نادي عمان سيحيي الليلة حفلة ساهرة، وأنه استقدم لهذه الغاية فرقة موسيقية من أمهر العازفين. وفي هذه اللحظة بالذات أقبلت من طرف الرصيف فتاة في نحو العشرين من عمرها، لمحها عادل افندي وهو يرفع كوب الليمون إلى فمه فأمسك عن الشرب وأعاد الكوب إلى موضعه، وراح يلتهمها بعينيه التهاماً: ما أحلى ابتسامتها، وما أروع شعرها الكستنائي الفاتح الأثيث يتوج رأسها ويهتز على

كتفيها. ويا لهذا القد الرشيق انسدل عليه فستانها الحريري بلون السماء الصافية وانتثرت عليه فراشات صغيرة مزدانة بالألوان الزاهية وقد استقرت اثنتان منها على نهديها الراسخين.. إنها تسير شامخة برأسها، واثقة من خطوها، لا تتثنى ولا تتخلع، إنما هي تخطو بجرأة واعتزاز، وترسل من عينيها الواسعتين سهاماً نافذة، وكانت الفتاة قد مرت بالقرب من عادل افندي فتضوّع الهواء بطيبها وامتلأ به أنف عادل افندي فصعد إلى رأسه فأسكره، وظل يتبعها نظره حتى اختفت في الزحام.. لقد كثر هذا الطراز من الحسان الأنيقات الفاتنات في عمان.. حتى ليجدهن المرء في كل مكان.. انهن حقاً بهجة للنفس ومتعة للعين وزينة للحياة... وألهته خواطره عن حركة الشارع الكبير واستغرقه تفكيره وشغلته أحلامه وأسف أن يظل الاختلال ملازماً لهذا العالم وفيه مثل هذا الحسن الباهر... وعلى حين غرة وجد نفسه ينهض، ثم يسير في الاتجاه الذي اختفت فيه الحسناء الفاتنة، ويشق لمنكبيه طريقاً في الزحام، ثم يحث خطوه باحثاً عنها حتى وجدها عند عمارة البريد، فاقترب منها وحياها ومشى إلى جانبها ثم تأبط ذراعها وسار بها إلى سيارة أجرة ودعاها إلى الركوب فقبلت شاكرة وهي تفتر له عن أعذب ابتسامة رآها في حياته، فسره ذلك وأبهجه، وأمر السائق أن يذهب بهما إلى «الرصيفة» فان فيها بساتين مونقة، ومياهاً جارية، وظلالاً وارفة.. فانطلقت بهما السيارة تخطف خطفاً حتى انتهت بهما إلى أحد البساتين فدخلاه فإذا زهر كثير وفاكهة شتى تتدلى قطوفها من أعراف الشجر وماء يترقرق في جداوله... فطاب لهما الجلوس في ظل شجر التفاح والاجاص، واشتهى عادل افندي أن يدخن فأخرج سيكارة وأشعلها وجعل ينفث دخانها منتشياً غاية النشوة... حتى ليحس أن السعادة تتقطر من أصابعه.

ومن غريب أمرهما، هو وصاحبته، أنهما لم يشعرا بحاجة إلى الكلام. وفي الواقع ما حاجتهما إليه وفي الابتسامة الحلوة والنظرة العطوف والايماءة الخفيّة ما يغني عن كل كلام! ولقد كانت ابتسامته غزلاً صريحاً وبثاً لما يكنه بين جوانحه

من الحب لها والهيام بها، وكانت نظرته المتألقة بنور السعادة تعبيراً عن مسرته وأفراح قلبه. وكان يبدو له كأنما هي الأخرى تبّش له ويتطلق محياها وترفّ عليه ظلال من نضرة الحسن وبهجة الحب. ووجد نفسه يتناول رأسها بين راحتيه ويحدق في عينيها هنيهة باشتهاء عظيم. ثم سرعان ما ثنى عنقها على ذراعه وقبلها على فمها قبلة مستغرقة، مسكرة، وضع فيها روحه وحبه كله. وكانت هي كأنها سعيدة بحبه، سعيدة بأن تراه يعبدها ويستطيع أن يبثها كل هذا الحب، وكل هذه الحرارة في قبله.

وكانت الشمس قد غابت وراء التلال البعيدة، وأقبل المساء وأخذت الطيور تأوى إلى أعشاشها في رؤوس الشجر، فنهض عادل افندي وأخذ بيد صاحبته يعاونها على النهوض، ثم سارا متمهلين عند ماء جار وتلبّثا قليلاً يغسلان أيديهما ووجهيهما بالماء ثم ركبا سيارتهما فانطلقت بهما إلى عمان. وكان الليل قد أرخى سدوله ولف الدنيا بظلامه، وكانت عمان تبدو، وهما مقبلان عليها، كأنها شعلة من نور، وكان موعد الحفلة الساهرة التي أعلن عنها نادي عمان قد أزف فأمر عادل افندي السائق أن يذهب بهما إليه. ولقد بهرته الأضواء المشعة من ثرياتها في نادي عمان، واختلبت لبّه المقاعد الأنيقة الوثيرة في أرجاء قاعته الواسعة، وأرعشت حسه أنغام الموسيقى في هذا الجو المعطر، وأثارت خياله النساء الرافلات بثياب السهرة وقد انحسرت بفتنة واغراء عن نحورهن وصدورهن وظهورهن، وهنّ يمسن ويتخطّرن إذ يسرن، ويرسلن ضحكات قصيرة، رنانة، أو يبتسمن لمن معهن من رجال ابتسامات ناعمة كأنها وعود يقطعنها على أنفسهن.. ولم يكد عادل افندي يستقر هو وصاحبته في المكان الذي قادهما إليه الخادم حتى تنفس الصعداء، إلا أن الشعور بأنه غريب في هذا المكان، وأنه لن يسعه أن يشارك القوم مرحهم ولهوهم وشرابهم قد استولى عليه وكاد يفسد عليه أمره كله، لولا أنه التفت إلى صاحبته وأخذ يدها بين راحتيه وكأنه قد نسي كل شيء من حوله، وكأن لم يعد في ابهاء النادي أناس يغص بهم المكان، يشربون

ويضحكون، ولا موسيقى تصدح وتملأ الابهاء جميعاً مرحاً وطرباً وابتهاجاً.. وراح يقول لها وهو كالمسحور:-

- آه لو تعلمين كم أحبك!

فرنت إليه وعلى شفتيها ابتسامة خالبة وقالت:

- أو تحبني كثيراً؟

قال هامساً:

- أو تجهلين أنك كنت دائماً حلم حياتي؟

فبدا في عينيها أنها تعجب من كلامه وعاد هو يقول:

- لقد انتظرتك.. انتظرتك طويلاً... وبحثت عنك في كل وجه صبيح... وفي كل عين حلوة النظرة.. وفي كل حسناء بارعة الحسن...

وكأنما ازدهاها قوله فافترت شفتاها القرمزيتان عن ثناياها اللؤلؤية وقالت:

- ما أحلى ما تقول... ليتني كنت أستطيع أن...

ثم أمسكت كالحائرة. قال هو بلهفة

- تستطيعين ماذا؟

قالت:- أن أحبك... قدر حبك لي...

فحار واضطرب... واحتبس الكلام في فمه وزاغت عيناه ثم تماسك وقال:

- انت اذن.. لا..

ولكنه سكت هنيهة، ثم رفع إليها عينين ضارعتين وأخذ يدها يريد أن يرفعها إلى شفتيه، ولكنها كانت كالغائبة، لا تحس وجوده إلى جانبها... وكانت عينها مصوبة إلى أقصى القاعة حيث علقت بفتى وسيم يشق طريقه بين الساهرين ليصل إليها. وكان يبتسم لها من بعيد ويومىء برأسه كأنه يقول لها: «لقد حضرت أخيراً» ولما صار قريباً منها انحنى لها ثم تناول يدها قبلها وراح يبتسم، فوثبت هي على قدميها خفيفة، رشيقة، مرحة، فتأبط ذراعها وسار بها كأنه يريد أن يراقصها... وكان عادل افندي يشاهد هذا كله مشدوهاً مستطار اللب، واجف القلب، وهو لا ينفك يضغط ربطة عنقه بين الابهام والشاهد.. وما لبثت الموسيقى أن صدحت بأنغام عالية رنانة.. فاستفاق عادل افندي من ذهوله فاذا به لا يزال على رصيف قهوة البرازيل لم يبارحه أبداً، وإذا ما حسبه أنغاماً موسيقية عالية... رنانة... ليس إلا زعيق بوق سيارة كبيرة كان يدوّي في أرجاء الشارع الكبير...

وأدرك عادل افندي أنه كان ذاهلاً كل هذا الوقت، يحلم مفتوح العينين يقظان.. وأحس في أعماق روحه كأنه قد فقد شيئاً ثميناً.. نادراً.. لا يعوض.. وأنه ما عاد -كما كان يتوهم- ذلك الفتى الأنيق في العشرين من عمره.. واتضح أنه بجلاء بغيض أن شبابه الأول قد ذهب وانقضى منذ بعيد.. وانه ليس أكثر من موظف صغير في أعلى مربوط الدرجة التاسعة.. وأن حذاءه المجلو وربطة عنقه الزاهية، وطربوشه الأنيق... لن تفيده شيئاً... غير أنه ازداد يقيناً بأن الاختلال لا ينفك أبداً ملازماً هذا العالم العجيب.. وآلمه أن يتبين في النهاية.. أن عالمه الخاص.. السعيد.. عالم أحلامه ورؤاه.. الذي سواه لنفسه وزينه بالصور والألوان المعجبة، هو الآخر ليس مبرّءاً من الاختلال الكريه....

أقوى من الموت

هو من يافا، من البلد الذي يحمل شجره كرات الذهب ملء الراحتين، ملء العين، ملء القلب. من البلد الذي تنبثق من أحشاء أرضه السخية قطوف أثمن من الجواهر، وأجمل من لآلىء العالم. وقد لجأ إلى السلط زمناً، وفد إليها مع خمسة عشر ألف لاجىء، ولا يدري كيف نجا هو وزوجته وأطفاله، وكيف وصل إلى السلط. كل ما يدريه أنه وصل مع القطيع المشرد على ظهر سيارة نقل تقاضته كل ما ادخره من مال قليل.

ولم يكن اليأس يومئذ قد دب في قلبه، كان يظنها أياماً وتنقضي، ثم يرجع إلى مدينته الحبيبة، أم الخير. كان يظن هذا، وكان الآخرون كلهم يؤمنون بأنهم عائدون.. منتصرين..

ومرت الأيام، كثيرة، طويلة، مونسة، كان كل يوم يمضي يزيده اكتئاباً، ويطفىء شيئاً من الشعلة التي تتضرم في صدره. وأطبقت الفاقة عليه، وانشبت مخالبها في صدره، وراح الجوع يفري أمعاءه وأمعاء زوجته وأطفاله ويذيب أبدانهم...

واستقر آخر الأمر في القدس. الظروف هي التي ساقته إليها. ربما أراد -في قرارة نفسه- أن يحسّ أنه لم يغادر وطنه، وهو قريب من بلده يافا، فتعاونت الظروف وارادته الخفية لكي يستقر آخر الأمر، وأصبحت له بطاقة ذات أرقام

ومربعات صغيرة يستجدي بها - لنفسه ولأولاده وزوجته - دقيقاً أسود وتمراً وفولاً وعدساً... - : شيء يطلع الروح...

قالها لزوجته، وفي حلقه غصة كبيرة... ولقد عرف ذل الوقوف في الصف الطويل، وذل السؤال ونفذ الصقيع إلى عظامه في الشتاء وتصبب عرقه مدراراً في الصيف، ودائماً هذا الفول، وهذا الدقيق الأسود، وتمر وعدس، وعدس وتمر...

ومنذ خرج من يافا لم يشعر إلا أنه يتسول، ويمد يده، ولا تنفك هذه الكلمة اللعينة «لاجيء» تقرع اذنيه...

وأحس أنه شرب كأس المهانة حتى ثمالتها. وعمل بائعاً متجولاً عند تاجر فاكهة. أعطاه عربة يد، وضع له فوقها موزاً وتفاحاً وراح يبيع للناس مما يشتهي لو ذاق بعضه القليل أولاده المتضورون. ومع ذلك فقد ازداد سوء حاله، فعمل أجيراً عند تاجر مال قبان، ثم حمالاً، وباع بيضاً وكعكاً، ولا يدري من أمره إلا أنه يسير من باب العمود إلى خان الزيت إلى «البازار» وباب الخليل، ثم يجوس خلال أزقة ودروب، أزقة ودروب لا تنتهي ثم يعود، وهو يلهث ويكاد يتهاوى، إلى باب العمود ويحطّ رحاله هناك، يدوّي في اذنيه زعيق السيارات وضوضاء الحركة وجلبة الخارجين والداخلين وهو لا ينفك يردد «كعك وبيض كعك بسمسم...»

هكذا... هكذادائماً. يجري وراء لقمة العيش، دون أن يفكر، لقد لبث طويلاً لا يفكر، لا يفكر أبداً. لقمة العيش أذلته، واستنفدت طاقته، وبرت قدميه، والتهمت تفكيره...

وذات يوم.. مات له ولد من المرض والجوع، مات... وأوشك آخر على الهلاك وولدت جارة له لاجئة. سمعت صراخ الطفل قوياً، قوياً كأنه النذير...

الموت... والحياة.. والحياة أقوى من الموت، بدليل هذا الصراخ القوي...

واستفاق شيء في صدر الرجل: لماذا يموت أطفاله، ولماذا هم حفاة عراة؟

أولاده، وأولاد غيره، وغيره، وغيره يملأون الدروب والأزقة، حفاة عراة يلتهمهم الموت... أليس لهذا الليل من آخر؟

أجل إن له لآخراً، فقد ولدت جارته، وسمع صراخ الطفل بأذنيه، قوياً عالياً منذراً.. الحياة أقوى من اليأس، أقوى من الموت، لا ريب في هذا مطلقاً.

واستفاق شيء في صدره، ووجد نفسه قادراً على التفكير ووجد غيره... وغيره... يفكرون أيضاً ولا يبكون، وأحس أنه قوي، بل جبار، رغم الفقر والمرض والهزال.. أحس أنه قوي كهذا الوليد الذي ملأ الدنيا صراخاً.. وخيل إليه أنه كان يجب أن ينصهر في بوتقة الألم، لكي يولد من جديد، لكي ينهض هو والآخرون من بين الأنقاض، وقد صمموا أن يعملوا ليضعوا حداً لهذا الليل... الطويل.

الجارة المقعدة

كانت الليلة ساجية. وأنسام الليل تتخلل أوراق الشجر القائم حولنا، فيسمع لها حفيف كأنه همس الشفاه. وكنا أنا وصديقي جالسين في الشرفة وقد بهرنا القمر بغلالته الفضية الرقيقة التي خلعها على الوجود فبدا كل شيء من حولنا كأنه قد تأدى إلى دنيانا من عالم السحر.

وسمعت صديقي يتحدث بصوت خافت يكاد يكون مهموساً، ولعله لم يكن يعنيه أن أسمع ما يقول. وإنما كان كل همه أن يفضي بما في صدره. ما أكثر ما نحتاج إلى مثل هذا الافضاء في لحظات معينة نشعر فيها أن في نفوسنا أشياء يجب أن نقولها، ويجب أن نتخفف منها. ربما لأنها تسبب لنا من الألم ما لا طاقة لنا بحمله وحدنا وربما لأنها تبعث في كياننا من النعيم ما نحب أن نسكب بعضه في اذن يسعدها أن تشاركنا المسرة والنعيم. وكان صديقي يقول: كنت طفلاً في نحو الثامنة من عمري. وكنت كثير اللهو والصخب مع لداتي في دروب حارتنا. واعتدت في أية ساعة من ساعات النهار أن أراها في نافذة غرفتها المقابلة لبيتنا. كانت تجلس النهار كله عند النافذة تستعرض المارة والباعة المتجولين وصبية الحارة وهم يلعبون ويتراكضون ويرتفع زعيقهم في كل ناحية. وكانت عيناها سوداوين واسعتين، وشعرها فاحماً ينسدل متجعداً حول وجهها. وكانت تبدو شاحبة الوجه، منكسرة الطرف، وإن كان يبدو لي أن على شفتيها دائماً ظل ابتسامة مبهمة، ولم أدر أنها مريضة منذ زمن طويل إلا يوم دعتني

إليها وأجلستني إلى جانبها وراحت تحدثني حديثاً طويلاً متلاحقاً. ولقد عرفت كل شيء عن حياتها وحياة من تقيم معهم في البيت. كانت كأنها تعترف لي وتبثني أشجانها وأحزان نفسها أنا الصبي الصغير الذي لا يملك لها عوناً. لقد ماتت أمها وهي طفلة، وعاشت مع والدها السكير، واخوتها الكبار. وكانوا جميعاً لا يرحمونها ولا يبالون يتمها، ويرهقونها من أمرها عسراً ويعنفون بها غاية العنف، وكأنها ليست اختهم وكأن الرجل السكير ليس أباها.. فنشأت كيفما اتفق لها أن تنشأ، ثم أصيبت بمرض عضال أصبحت بعده مقعدة. ولزمت مكانها هذا منذ ذلك اليوم لا تعرف الدنيا والناس إلا من خلال هذه النافذة. انها الكوة الضيقة التي تطل منها على الحياة. وحدثتني بأشياء أخرى كثيرة لم أكن لأفهمها وإنما كانت تتردد فيها أسماء بعض شبان الحي وبعض الحوادث مختلطة بأخبار كانت تقرأها وحكايات كانت تطالعها وتشغل جانباً كبيراً من تفكيرها، وكانت كلما هممت أن أنصرف تحتضنني وتقبلني وتصر أن أزورها كلما مللت اللعب أو سئمت اللهو في أزقة الحي ودروبه، وكنت أنا أحب أن أحدق في وجهها فقد كانت جميلة رائعة الحسن، وكانت عيناها تأسران لبي باتساعهما وهدوئهما وصفاء نظرتهما. ولم يكن شيء يقلقني سوى هذا الانكسار الغامض والاستسلام العجيب فيهما.

ولا أذكر اليوم مما حدثتني به غير هذه القصة التي تلوح لي كأنها الظل الباهت بين كثير من الذكريات الماضية:

كانت تقيم في ذلك الحي فتاة اسمها قمر. ولعلها كانت في العشرين من عمرها، ولم تكن قمر جميلة ولكنها كانت لعوباً، وكانت تخدم في البيوت، وتتنقل في أرجاء الحارة، وهي تتضاحك وتعلك اللبان وتقف مع الشبان والفتيان تحادثهم وتمازحهم وتقبل معابثاتهم بالضحك والابتهاج. وكانت قمر تتردد على دار جارتي الجميلة المقعدة فتقوم بالخدمة المطلوبة منها وتتقاضى أجراً زهيداً.

وكانت جارتي لا تنفك تلاحظ أن أباها يقف طويلاً مع قمر يحادثها ويسرّ في اذنها كلاماً لا تسمعه جارتي، ولكن قمر تضحك له وتلتمع بسببه عيناها السوداوان، ثم لم تلبث أن لمحت أخاها الكبير الذي تجاوز الخامسة والعشرين من عمره ينفرد بقمر في غرفة متطرفة من حين إلى حين. وكانت جارتي الجميلة تعجب لما ترى، ويمنعها كساحها من الحركة والانتقال للوقوف على جلية الأمر، وكانت تسائل نفسها لماذا يحب أبوها أن يتحدث كثيراً إلى قمر، ويبتسم لها ويهمس في اذنها؟ ولماذا ينفرد شقيقها الكبير بقمر في الغرفة المتطرفة؟ هل كانت قمر أكثر من خادم في البيت، هل ثمة أسرار بينها وبين الوالد وابنه؟ وما هي تلك الأسرار التي يطلعون قمراً عليها ويحجبونها عنها هي؟ وكان هذا الغموض يعذبها ويبتليها بالوساوس، ويتمثل لها في أحلامها في صور وأشكال غريبة. فترى قمراً تهزأ بها وتخرج لها لسانها، أو تهجم عليها وتضربها وتشدها من شعرها، بينما يقف أبوها وأخوها عاجزين ذليلين، خائفين، لا ينبسان بكلمة واحدة.

وذات يوم لمحت أباها يحتضن قمراً ويقبلها، فقد كان باب غرفتها موارباً، وكان الأب في ساحة الدار مع قمر، وكان يحسب أن الباب الموارب يحجبه عن ابنته، فوقف يحادثها كعادته ويهمس في اذنها، ثم سرعان ما احتضنها وراح يقبلها فعاطته التقبيل وهي تغرق في الضحك وتتخلع بين يديه...

وبدا لجارتي المقعدة أنها فهمت كل شيء وأن غشاوة ثقيلة قد انجلت عن عينيها. فملأ الاشمئزاز قلبها. وأخذت تحس أنها تحتقر أباها وتمقته، فتتحاشى النظر إليه وتتجنب محادثته ثم ازدادت على الأيام انطواء على نفسها واجتراراً لآلامها... وكانت في وحدتها المونسة، تبكي بكاء مريراً وتذكر أمها الراحلة، وتتراءى لها أيام طفولتها السعيدة، فتلوذ بالذكرى البعيدة، وتعيش في جوها الجميل ساعات تنسيها شقاءها وعلتها وانحطاط أبيها السكير وشقيقها العاق.

وحدث ما لم يكن منه بد. فقد دبّ الخلاف بين أبيها وشقيقها الكبير. وتطور هذا الخلاف ذات ليلة إلى عراك، فتطاول الابن على أبيه وضربه وشتمه. وأقسم الأب ليطردنّ ولده، ولا يعود يؤويه أو يعترف به، ولم يكن أحد يدري السبب غير جارتي المقعدة فقد أدركت أن قمراً هي التي أشعلت نار الحقد والغيرة في قلب الأب وابنه...

ولا أعلم ما حدث من بعد للأب وابنه، ولعل جارتي لم تذكر لي شيئاً من ذلك، وقد تكون ذكرته غير اني أنسيته. ومع ذلك فاني كثيراً ما ساءلت نفسي إذا كان هذا الذي حدثتني به جارتي المقعدة قد وقع فعلاً، أم أنه مما تخيلته في وحدتها القاسية أو قرأته في أحد الكتب.

وليت من يدريني ماذا حلّ بها بعد ذلك. فلعلها قد ماتت غير اني كلما تذكرتها اليوم، يخيل إلي أنها لم تكن تجد انساناً تحادثه وتبثه من ذات نفسها غيري.

ولا ريب في أنها كانت تدرك أنها جميلة فاتنة، وأن علتها هي التي قضت على هذا الجمال، وعلى كل أمل لها في الحياة، فاكتفت من دنياها بتلك الكوة التي كانت لا تنفك تنظر منها لعالم الأحياء الذين لا يدركون نعمة العافية عليهم. وانه ليتبادر إلى ذهني اليوم اني أسعدتها فترة من الزمن. فقد كنت أصغي إليها وألتذ حديثها وأدعها تقبلني وتتحسس شعري، وتهمس في اذني بكلمات خالصة الحلاوة.

وأمسك صديقي عن الكلام، واستمر يرسل دخان سيجارته مع أنسام الليل. وأدرت أنا نظري، فاذا الوجود كله غارق في لجّة ساحرة من ضياء القمر، وقد توسط قبة السماء.

لماذا يغضب البحر؟

كان الصبي يحب البحر، ويحب أن يسير طويلاً على شاطئه الممتد وهو حافي القدمين، ويجد لذة كبيرة أن تغوص قدماه في الرمال.

وكان يدور في خلده أن تلك الرمال شبيهة بالحرير الناعم الأملس. فهي لذلك تداعب قدميه وتتحسسهما برفق ولين، حتى إذا شال بقدمه لم يعلق بها شيء من هذا الرمل الحريري. وكانت المياه الزرقاء تجتذبه اجتذاباً فيخوض فيها ويصل الماء إلى ما فوق ركبتيه ويحس بحركة الموج تداعب هي الأخرى ساقيه فيبتهج وتملأ الابتسامة وجهه كله. وكثيراً ما كان يعنّ له أن يسير بين «الفلايك» الراسية قريباً من الشاطىء وكان اعجابه بهذه المراكب يفوق حد الوصف فهذه «فلوكة» نظيفة بيضاء ناصعة البياض كأنها حمامة تطفو على وجه الماء، وتلك أخرى زرقاء بلون السماء وثالثة برتقالية، ورابعة يمتد على جانبها طوق أحمر وآخر أزرق وثالث أخضر... وكانت هذه الألوان تفتنه وتلك «الفلايك» التي يؤرجحها الموج تغريه فيقفز إلى احداها بخفة ويجلس على حافتها ويرخي قدميه حتى تصلا إلى صفحة الماء. ويظل كذلك إلى أن ينتشي من اهتزاز الفلوكة ودغدغة الماء لقدميه، ثم يثب ويلقي بجسده كله في أحضان الماء ويروح يضربه بساعديه الصغيرين منتقلاً من ناحية إلى أخرى وهو يشعر في قرارة نفسه أنه امتلك البحر كله بمائه وشاطئه وسمائه، وأنه استطاع أخيراً أن يجلس في أحد هذه المراكب الرشيقة التي يحلو لبحارتها أن يمتطوها وينشروا قلوعها ويذهبوا بها بعيداً في

عرض البحر حيث تبدو كالطيور البيضاء بسطت أجنحتها للريح تحملها حيث تشاء.

كانت يافا مدينته. وكان بحرها بحره. يحب رماله ومياهه وصخوره ومراكبه ورائحته. ويحب الصيادين وشباكهم الكثيرة التي يبسطونها على الرمال وفوق صخور الشاطيء لتجف تحت حرارة الشمس. وكان ذلك كله يلوح له بالغ الصفاء، بالغ الجمال.

ومع ذلك فقد كان يخشى البحر أحياناً. كان يخشاه إذ يثور ويخشاه إذ تعلو مياهه وتفور أمواجه وتندفع في غضب واحتدام فتغرق الشاطىء وتمد يدها فتبلغ البيوت البعيدة وتقرع جدرانها العتيقة المتداعية فتخلخلها أو تقوضها. وكان يسائل نفسه: لماذا يغضب البحر؟ فلا يظفر بجواب. وكان الصبي، إذ يهدأ البحر ويسلس قياده وتروق صفحته ويصبح متنه ذلولاً لكل راكب يطمئن وينسى غضب البحر ويعود إليه فيلقي نفسه بين أحضان مياهه في كثير من الاطمئنان والثقة بأنه لن يغدر به.

وعلى الشاطيء التقى ذات يوم بطفلة في مثل عمره أو دونه بقليل. كانت في نحو الثامنة أو التاسعة، سمراء مرسلة الشعر. عيناها سوداوان ضيقتان ووجهها صغير. وكانت تبدو دائماً في ثياب قديمة ومرقعة في بعض نواحيها وتسير على الشاطيء حافية القدمين هي الأخرى، فيخيل للصبي أنها مثله تحب أن يتخلل رمل الشاطىء أصابع قدميها، ويحتضن برفق رُسغيها الناحلين. وعلى الأيام جعل منها الصبي رفيقة لعبه ولهوه على الشاطىء.

وكانت هي تطاوعه فتتواثب على الرمال وتركض ثم تختفي وراء الفلايك التي أخرجها أصحابها من الماء ووضعوها على الشاطيء بين ركائز من الحجارة الكبيرة لاصلاحها أو دهنها، ويظل الصبي يلاحقها ويبحث عنها ويناديها حتى

يجدها حيث اختبأت فيمسك بها وينطرحان معاً فوق الرمل وهما يضجان بالضحك ويلهثان من الركض وشدة الحركة وعنف اللعب.

وألف الصبي زميلته. ولم يكن يعرف من امرها اكثر من ان اسمها« فاطمة » واصبح البحر والشاطىء مقترنين في خياله بفاطمة الصغيرة. وكأنما كانا قبل ذلك ناقصين او مبتورين حتى كانت فاطمة فتمت بها الصورة واكتملت.

وكان في احيان كثيرة يجلس الى جانبها على صخرة بعد السباحة واللعب الطويل ويروح يسألها في دعابة الطفولة البريئة:« ما اسمك يا فاطمة. قولي.. » وتجيبه وهي تغرق في الضحك:« اسمي فا...طمة... » فيشاركها ضحكها ويعود يقول:« وابوك، هل هو موظف مثل ابي، يلبس البنطلون والطربوش ويمسك بعصا كبيرة في يده؟ »

وتكف عن الضحك عندئذ ويربدّ محياها الصغير وتزوي ما بين عينيها ولا تجيب. فيلح هو في السؤال وقد استثارت فضوله بهذا التقطيب:« قولي.. يا فاطمة.. هل أبوك موظف كأبي؟ » فتتنهد وتقول:« مش موظف.. هو بحار.. » ويأخذه العجب ويقول:« بحار؟ كهؤلاء الذين أراهم أحيانا.. هل هو يلبس السروال ويلف حول خصره الشملة القرنفلية ويضرب ماء البحر بمجذافيه حتى يصل الى السفينة البعيدة حيث يفرغ حمولة مركبه من صناديق البرتقال؟ » وتجيب البنت الصغيرة:« هو كما تقول ولكن سرواله قديم.. وشملته ممزقة. » ويسألها:« هل تحبينه يا فاطمة كما أحب أبي؟ » وتقول هي كالحزينة:« لا احبه! »- ولماذا يافاطمة؟-لانه.. لانه يضرب أمي.. ويضربني أنا ايضاً.

يضربها ويضرب امها؟ هذا امر لا يكاد يدركه هو. انه لم يرأباه يضرب امه.. ولا يذكر انه ضربه..بل ان اباه ليحبه ويحمل اليه الحلوى والملابس الجديدة والاحذية الجميلة. كلا انه يحب اباه، يحبه كثيراً ويعجب به، ويفاخر زملاءه بأن

له أباً من هذا الطراز....

واستطاع الصبي يوماً بعد يوم أن يتصور حياة فاطمة، وماذا يفعل أبوها وما تعانيه أمها من شقاء معه. انه يعمل في البحر ويكسب مالاً يكفيه ويكفي اسرته، ومع ذلك فانه ينفقه في أشياء غريبة: فهو يشرب ما يسمونه خمراً ويسهر في الحانات والملاهي ولا يعود إلى بيته إلا بعد منتصف الليل يترنح من فعل هذا الذي يشربه... ويشاجر امرأته ويعربد وينهال عليها ضرباً ويهددها بسكين معه لكي تعطيه بعض حليها القليلة التي اشترتها بمهرها... وهو لا يكاد ينفق على فاطمة وأمها وعلى الطفل الرضيع شيئاً غير ما يقيهم الموت جوعاً... والأم تحتمل هذا كله بصبر واستكانة، ولا تنفك تبكي تعاستها وسوء حالها مع هذا الرجل الظالم.

وفهم الصبي لماذا تمشي فاطمة حافية على رمال الشاطيء ولماذا هي تلبس هذه الثياب القديمة المرقعة ولماذا يظل شعرها مرسلاً دون تمشيط أو عناية. وزاده هذا كله مودة لفاطمة، فكان يحمل إليها من البيت حلوى كثيرة، وأحياناً خبزاً وجبناً وفاكهة. وحدّث أمه ذات يوم بأمرها فأنّبته ونهته عن معاشرة أبناء البحارة والصيادين وقالت له أنهم كآبائهم سوء خلق وسلوك ولا يليق به أن يعاشرهم ويتخذ لنفسه منهم رفاقاً وأصدقاء...

ومع ذلك فلم يستطع أن يترك فاطمة. وظل يلتقي بها في عصر كل يوم على شاطيء البحر ويلعب معها ويركض ويسبح ويدور وراءها بين «الفلايك» الجاثمة على الرمل، ولا يكاد يجد شيئاً من سوء خلقها الذي ذكرته أمه وهي تؤنبه.

وذات يوم غدا إلى الشاطيء كعادته فلم يجد رفيقته الصغيرة وطفق يسائل نفسه: أين فاطمة؟ أين هي! انها لم تأت كعادتها. ما حدث أن تأخرت يوماً.

وأرسل بصره نحو بيتها الذي يلوذ بسائر البيوت الفقيرة في الناحية المرتفعة من الشاطىء وحث خطوه نحو تلك البيوت وفي صدره شعور مبهم بأن أمراً خطيراً قد وقع...

وعند تلك البيوت المتساندة وجد خلقاً يدخلون بيت فاطمة وآخرين يخرجون منه في فوضى واضطراب، وسمع صراخاً وعويلاً ولغطاً كثيراً. وطرقت أذنيه كلمات غريبة: أم فاطمة ماتت.. قتلها زوجها.. وقالت امرأة: لقد ذبحها بسكينه.. وأردفت عجوز وهي تلعن الرجال: ذبحها كما تذبح الدجاجة ولا ذنب لها.. وتمتم رجل طاعن في السن: انه يحب إحدى الراقصات.. وقد أنفق ماله عليها، وأراد في الليلة الماضية وهو يترنح من السكر أن ينتزع القطعتين المتبقيتين من أساور زوجته فامتنعت فأهوى عليها بسكينه...

وفهم الصبي القصة كلها... وتطلع إلى باب الدار ولمح فاطمة الصغيرة ذات الوجه الشاحب والعينين الضيقتين والثياب المرقعة، بَصر برفيقته الصغيرة لائذة بالحائط وهي تبكي... تبكي كثيراً... ولوى قدمه ومضى على مهل مطأطىء الرأس وفي حلقه غصة كبيرة... وبدا له أنه أصبح يدرك الآن لماذا يغضب البحر ويثور وتطغى مياهه كل هذا الطغيان.!

الأفعى

كان اسمها وردة وكانت بالفعل فواحة العطر، ولكن في غير منبتها، وللطبيعة مثل هذا الشذوذ أيضاً، فقد تنبت الزهرة الخالبة المونقة، بلونها وأريجها ونضارتها، بين الأشواك في الموقع الصلد، فتكون وحدها بحسنها وطيبها بهجة للنفس وفتنة للنظر. وهكذا كانت وردة في أسرتها وبين أبويها وأختها وأخيها، لقد كانوا جميعاً أشواكاً جارحة في ذلك الحي. وكان أهل ذلك الحي يتأبون شرهم ويتجنبون أذاهم، ويحبون مع ذلك ابنتهم وردة، تلك الطفلة الجميلة ذات الشعر الأشقر المنسدل على كتفيها كأنه أهداب الحرير. وكانت أمها قصيرة بدينة قاتمة اللون سليطة اللسان، تدور عيناها في محجريهما كأنهما نقطتان من زئبق، وكان أبوها طويلاً نحيفاً سريع الخطو، صامتاً كثير الحذر، قليل الكلام، نظرته أمر وكلمته وعيد وعبوسه شر مستطير. وكان يلبس «سروالاً» ويدير حول خصره شملة صغيرة، وينتعل «بلغة» خفيفة ويضع على رأسه «لبدة» مائلة إلى اليسار، وكان الخنجر لا يفارق حزامه، وعصا الخيزران الرفيعة في يده أبداً، كأنه كان لا يحملها إلا ليضرب بها ابنته المراهقة «سميرة». وكان سكان الحي يدركون أن سميرة تشبه أباها إلى حد بعيد، وأن فيها من أخلاقه ما كانوا يقرؤونه في عينيها وفي حركاتها وسكناتها جميعاً. وكانت إلى هذا جريئة ترافق فتيان الحي وتلاعبهم وتغدو معهم إلى شاطئ البحر أو تصحبهم إلى التل البعيد، تلهو وتمرح بين شجره الوريق وعشبه النامي وأزهاره البرية الكثيرة. وكان أبوها يعلم بهذا ولا ينفك يضربها بخيزرانته الرفيعة ضرباً موجعاً تتلوى منه كالأفعى،

ولكنها لا تصرخ ولا تتأوه ولا تطلب الرحمة، ولا تفكر في التوبة أبداً. ولم تكن تتخلف عن لهوها ومرحها مع فتيان الحي إلا خلال الأيام التي يتغيب فيها أبوها عن البلد. وقد كانت تضطر حينئذ هي وأمها إلى العناية بأغنامه وشياهه التي كان يقوم على تربيتها وتعهدها وبيعها. ذلك كان عمله في الظاهر، إلا أن سكان الحي كانوا يتهامسون فيما بينهم بأنه لص خطير، وأنه في غيابه، الذي يمتد أياماً طوالاً، يسطو على البيوت في أحياء أو مدن أخرى فيسرق وينهب مع رفاق له من الفتاك واللصوص، وانه من المهارة والخفة والجرأة بحيث لم يقبض عليه أبداً. إلا أنه لم يزاول لصوصيته في الحي الذي يقيم فيه. فهل كان هذا منه تصوناً ورعاية لحرمة الجوار أم كان في الأمر سر آخر؟ وعلى أي حال فان الرجل لم يكن يخالط أحداً، ولا يزور جيرانه، وكانوا هم يرونه يمر أمام أبوابهم سريع الخطو، مطرق الرأس، لا يلتفت ولا يرفع عينه كأنه مشغول أبداً بنفسه لا يعنيه من أمر الحي الذي يقيم فيه شيء. وعلى بذاءة لسان امرأته وقوة شكيمتها فلم يكن يحدث في بيتها ما يلفت النظر إلا صراخها المكتوم وأنينها الخافت في أوقات متباعدة. فقد كان زوجها يضربها بخيزرانته هي الأخرى ضرباً شديداً عنيفاً، فتكتم أنفاسها ولا تكاد تفعل أكثر من أن ترسل هذا الصراخ الخافت الذي يعقبه أنينها فترة طويلة من الزمن.

ولم يكن للابن في تلك الأسرة شأن يذكر، فقد كان صغيراً في نحو العاشرة من عمره وكان أبواه يدللانه، ويتركان له الحبل على الغارب، فينطلق في الأزقة والدروب يلهو ويلعب ويثير الغبار مع صبية الحارة. وكان شبيهاً بأمه، قاتم اللون، أسود العينين، قميئاً بديناً لا يرى إلا وفي فمه شيء يلوكه ويتلمظ ويمسح شفتيه بلسانه ويديره بين شدقيه.

«وردة» وحدها هي التي تعلمت، فكانت بذلك غريبة مرتين في تلك الأسره. غريبة بجمالها وحلاوة لثغتها وذهب شعرها المرسل. وغريبة بهذا العلم الذي نالت

منه حظاً يسّر لها العمل مرة في البريد، ومرة ضاربة على الآلة الكاتبة. وقد ظلت في شبابها المتفتح رضية الخلق، حلوة الشمائل، كما كانت في طفولتها. وقد رُوي - وكانت لما تزل طفلة غريرة - أن جيراناً لهم في بيت ملاصق سرقت لهم حلي وخواتم ثمينة مرصعة بالماس، وكانت وردة هي التي أرشدتهم إلى المكان الذي خبئت فيه تلك الحلي، وكان ذلك المكان في بيتهم، وكانت السارقة أمها نفسها!

وتزوجت وردة موظفاً ميسور الحال كفاها مؤونة العمل، وأسكنها بيتاً جميلاً، فانقطعت عن أهلها لا تزورهم إلا لماماً. ولم يكن يتردد على بيتها منهم غير أختها سميرة، وكانت كلما زارتها تهزأ بها وتسخر من جمال بيتها وزينته وهدوئه، وتقول لها فيما تقول: «لك الله يا أخت. ما كان أغناك عن هذا الركود الذي يشبه الموت. مسكينة.. مسكينة.. انه حظك.. لقد كنت أعلم هذا وأتنبأ به.. وكنت أقول لن تكون وردة سعيدة..»

وكانت وردة تجيبها مستهجنة ما تقول: «ولكني سعيدة يا اخت، وزوجي يحبني، وأمرنا ميسور ولله الحمد..» ولكن سميرة سرعان ما كانت تتضاحك ثم تضع يديها في خاصرتيها وتروح تهضب: «لا تقولي هذا.. انه مكابرة.. ولا تذكري زوجك.. فهو رجل خائب، قليل الحيلة وقعيد البيت كالنساء.. بختك يا اخت.. الدنيا كلها بخت..» وتسكت وردة يائسة، ولا تجد ما تقوله، وتروح تظن بعقل أختها الكبيرة الظنون..

ومضت الأيام ومات الرجل رب هذه الأسرة بطعنة سكين من يد زميل له اختلف معه على نصيبه من سرقة غنماها في احدى الليالي. وكان ابنه قد كبر وشب عن الطوق وذهب يعمل «قهوجياً» في بلد آخر، وأقامت الأم وحدها في غرفة منفردة، وجعلت تعنى بعنزات ثلاث فتبيع حليبها وتعيش بثمنه، ولا تذكر أحداً غير ابنها، ولا يرفّ قلبها إلا له وحده.

أما سميرة فقد انقطعت تماماً عن زيارة اختها وردة، وكانت قد أدمنت شرب الخمر والتدخين والسهر الطويل، وعملت راقصة في الملاهي، وقد ازدادت جرأة وعناداً واندفاعاً مع أعوامها. ولم تكن جميلة، إلا أن فتنة غامضة كانت تندّ عنها كأنها لهب النار المندلع، فينساق إليها العشاق صاغرين. وكان رواد الملاهي يشبهونها بالأفعى، لأنها كانت تتلوى وهي ترقص كما تتلوى الأفعى وتنفث من سحرها الغامض المريب ما يشبه السم يسري في أبدان عاشقيها ويلهب دماءهم. وكانوا يحبونها ويخشونها في آن واحد. وكانت هي تجد لذة خارقة في تعذيبهم وتحطيم قلوبهم والعبث بعواطفهم... ولكنهم جميعاً إذا نسوا كل شيء فلم يكن أحد منهم لينسى عبارة كانت سميرة تهمس بها همساً بعد أن تكون قد أسرفت في الشراب. كانت حينئذ ترفع الكأس قريباً من شفتيها وتتمتم وهي تصوب بصرها إلى بعيد: «مسكينة وردة.. ما أتعس حظها...» ولم يكن أحد يدري من عشاق سميرة من هي وردة وما علاقة سميرة بها....

الحاج مصطفى

كان الناس يسمونه في بلدنا الحاج اسماعيل الكتبي وكنت، وأنا طالب صغير، أشتري الحبر والورق من دكانه أو مكتبته إذا شئت. وكان جدي العجوز يعرفه ويزوره ويجالسه، ويطيب له أن يشرب عنده الشاي في أقداح بلورية مخصّرة لها ملاعق صغيرة صفراء تتلألأ دائماً كأنها من الذهب الخالص.

ومر الزمن، وشببت أنا عن الطوق، وجاء يوم فاذا الناس يدعونه الحاج اسماعيل الورّاق، وكنت أنا الذي أدخل على اسمه هذا التعديل البسيط، وكان إذا ملت إليه في دكانه يهش للقائي ويبسط لي يده ويبدأ حديثه معي وهو يقول:

- وهكذا إذاً.. فأنا الحاج اسماعيل الورّاق. ورّاق؟ ولماذا يا ولدي؟ أتراها جميلة هذه الكلمة.. وأفضل من الكتبي؟ لماذا فعلت ذلك بالله؟

وكنت أتضاحك وأقول له:

- ألا يرضيك أن تشبه زملاءك في العصر العباسي؟ كان الناس يسمونهم ورّاقين.. ان بعض كتبك يتحدث بأخبارهم وأخبار الأدباء والشعراء الذين كانوا يترددون عليهم.. ويقرأون كتبهم.. تماماً كما نفعل نحن في دكانك اليوم..

ويبتسم عندئذ الحاج اسماعيل ويقبض بيده على لحيته ويروح يفكر قليلاً ثم يقول:

- عـال.. عـال.. رحم الله جدك.. ليتـه عـاش ليراك ويمتّع نفسـه بشـبابك الحلو.. بورك فيك يا ولدي.. بورك فيك..

وكنت في الواقع أحب أن أتردد على دكـانه فـأشرب الشـاي في أقـداحـه البلورية المخصرة وملاعقه الصغيرة الصفراء.. ويخيل إلي وأنا أحمل قدح الشاي كأنه ياقوتة حمراء تتوهج في يدي. وكنت إذا فرغت من شرب الشـاي أنهض إلى رفوف الحاج اسماعيل أدير فيها نظري طويلاً، وأخرج هذا الكتاب وذاك الكتاب، ويمضي الوقت دون أن أحس.. وقلمـا كنت أغـادر دكـانه إلا وفي يدي كـتـاب من كتبه القديمة الصفراء. ما أكثر ما خيل إلي في ذلك العهد أن تلك الساعات التي أنفقها في دكان الحاج اسماعيل إنما كنت أعيشـها في دكاكين الوراقين في بغداد ابان ازدهار العصر العباسي، فقد كنت مشغولاً بأدب ذلك العصر وشعره وشعرائه وألوان الحـيـاة فـيـه. وكـانت بغداد تـتـمـثـل لخاطري بعـمـائرها البـاذخـة ورياضـهـا الفيحاء، وطرقها الممهدة وقصورها المترفة يضيئها الشمع المعجون بالعنبر، وتزين ابهـاءهـا البـسـط المـموهـة بماء الذهب المزدانة باللآليء واليـواقـيت، وتـخطر فـيـهـا الجواري والقيان وبأيديهن الدفوف والمزاهر، وكنت أرى بعين خيالي بركها وجناتها ومـلاعب جآذرها ودور العلم فـيـهـا، وتلوح لي بـاحـاتهـا وسـاحـاتهـا ومـسـاجـدهـا العامرة و.. دكاكين الوراقين في منعطفاتها..

وكـان يقع في روعي أن دكـان الحـاج اسـمـاعـيـل أشـبـه مـا يكون بتلك المكتبـات.. بل كـان خـيـالي يزين لي أن الحـاج اسـمـاعـيـل نفسـه هو من أولئك الوراقين الذين عـرفت بغـداد مكتـبـاتـهم المنزوية عند منعطف درب من دروبهـا أو في زاوية قريبـة من أحد مساجدها. وبالفعل كانت مكتبة الحاج اسماعيل تقع في مدخل يؤدي إلى الباب الرئيسي للجامع الكبير في مدينتنا، يقوم قريباً منه سبيل مـاء لا يغـيض أبداً، ويسـتـقي منه المارة بطاسـات من نحاس مـشـبـوكـة بسـلاسل حديدية.. أي نعم لقد كان يتراءى لي أن هذا الجو كله جو عباسي لا شبهة فيه..

وكان يقع في حسي إذ أكون هناك كأني اختزنت الزمان فكرّ راجعاً بي ألفاً من السنين أو تزيد..

وكان للحاج اسماعيل ولدان: محمد، وهو أكبرهما، ومصطفى. وما عرفت في حياتي قط أخوين يناقض أحدهما الآخر خلقاً وسلوكاً ومزاجاً وخصائص وطبائع كهذين الشقيقين.

كان محمد مسكيناً، مستضعفاً، طيّعاً، يحمل عبء العمل كله. لا تراه إلا مشغولاً يرتب الكتب وينظفها وينفض عنها الغبار، أو هو في زحمة الأسواق يشتري الورق والحبر والأقلام من باعة الجملة، أو يجمع ديوناً للمحل أو يسدد أثمان المشتريات، وإذا بقي له بعد هذا فراغ من وقت أكبّ على سجلاته يضبط حساباتها ويجمع ويطرح ويتصبب عرقاً حتى ليتقطر من أرنبة أنفه... وكنت لا أنفك أسمعه يتمتم قائلاً بين الحين والآخر:

- اللهم عفوك ورضاك.. اللهم عفوك ورضاك..

فيخطر لي أن أسري عنه فأقول له: - هون عليك.. إنما الدنيا تعب وكد.. وأنت رجل طيب.. وعضد لوالدك الشيخ..

فيلتفت إليّ ويروح يمسح عرقه بطرف قمبازه، وكأنما نكأت جرحاً له فإذا ببركان سخطه ينفجر، ثم سرعان ما يرفع قبضتيه وينهال بهما ضرباً على رأسه حتى إذا كلّت قبضتاه أخذ يدق رأسه بجدار ويصرخ كمن به مس من جنون:

- أقتل نفسي.. أموّتها.. يا ناس. لعنة الله على مصطفى.. لعنة الله على الكلب.. على الخنزير..

ويهدأ بعد هذا ويستكين، وتذوب ثورته دموعاً تتدفق من مآقيه في صمت

وسكون. وكان مصطفى إذا أقبل من بعيد أنبأ بقدومه عطر شديد يندّ عنه، وكان يتأنق في لباسه ويميل طربوشه إلى اليمين، ويحلق شاربيه ويفتنّ في عقد ربطة عنقه ولا يدع الغبار يعلق ببدلته أو يلوّث حذاءه المجلو، ويسير كأنه يخطر ويهتز، ويبدو عليه الاعجاب بالخواتم الذهبية في أصابعه، ويتظرف إذ يتحدث ولا يني يبتسم ويغمز بعين وحاجب ويصطنع اللهجة المصرية ويعزّز كلامه باشارات تمثيلية من يديه حيناً ثم يقع في وهمه أن غباراً قد تطاير وحطّ على ملابسه فيروح ينفضه برؤوس أصابعه حيناً آخر وهو يقول متأففاً:

- يا سلام.. يا سلام على كده أوساخ..

وكان مصطفى لا يعمل شيئاً، كان يعيش عالة على والده يستنزف دخل الدكان بالحيلة والمكر مرة وبالقوة والصياح مرة.. وكان الحاج اسماعيل، والده، يعطيه وهو يلعنه ويقول:

- ولدها هامل... ممثلاتي..

ويتأوه شقيقه محمد ويميل إلى أذني هامساً:

- إذا طال غياب مصطفى عن البلد فاعلم أنه في القاهرة يعيش تحت أقدام الممثلين والممثلات.. انه يعبد عزيز عيد، ويوسف وهبي، وفاطمة رشدي، ويقول أنا واحد منهم.. أنا فنان.. كده.. فنان والله العظيم.. وجاءنا من أعلمنا الحقيقة وهي أنه يتمسح بمسارح روض الفرج وغوغاء ممثليها وممثلاتها ويطرب إذا نادوه:

- تعال يا وله.. اقعد يا وله.. غور يا وله..

وكان هذا كله يحزّ في نفسي ويشوّه الصورة الجميلة التي أبدعها خيالي حول الحاج اسماعيل الوراق ورفوف كتبه القديمة وأقداح الشاي المخصرة بملاعقها

الصغيرة الأنيقة والجو العباسي الرائع الذي يلذ لي أن أرى نفسي أعيش فيه بعض الوقت كلما هفت عليّ أنسام نديات من أفق ذلك العصر البهيج.

ولعله كان يدور في نفسي أن الحاج اسماعيل لن يكون من بعده من يسعه أن يحل محله ويسد فراغه في ذلك الركن الهادىء الذي تلتقي فيه عبقريات الشعر والأدب، فما كان ابنه محمد ليركن إليه، فهو، على جده ودؤوبه والحاحه على نفسه بالعمل، ضعيف متخاذل فاقد الارادة، ولن يملأ الفراغ أبداً وأين هو من والده الذي كان ان لقيته مرة فلن تنساه أبداً بملامحه الوضيئة وابتسامته المشرقة وعينيه الذكيتين ولحيته المسبلة وسبحته الكبيرة وشخصيته التي توحي إليك بالمحبة والصفاء والثقة...

ومات الحاج اسماعيل فجأة قبل أن يبلغ الستين من عمره ولا شك في أن شذوذ ولده مصطفى هو الذي قضى عليه هماً وكمداً. وقضت ظروف عملي بعد ذلك أن أتغيب في الخارج نحواً من أربع سنوات طوال، عدت بعدها إلى بلدي، ومررت ذات يوم قرب الباب الرئيسي للجامع الكبير وحدثتني نفسي أن ألقي نظرة على دكان صديقي الوراق الحاج اسماعيل، وأنا على مثل اليقين بأن بقالاً أو بائع فطائر قد احتلها بعده.. وشد ما راعني أني وجدتها على عهدي بها: تعلوها لافتة كتب عليها بخط عريض أنيق (مكتبة الحاج اسماعيل الوراق) وأسرعت إلى الدكان خافق القلب ووقفت ببابها لا أكاد أصدق ما أرى.. فقد كان مصطفى... أجل مصطفى نفسه جالساً في الركن الذي اعتاد والده الحاج اسماعيل أن يجلس فيه... لقد عرفته على الفور رغم لحيته التي أطلقها، ورغم سبحته الطويلة ورغم معطفه الذي ارتداه فوق قمبازه المخطط ورغم عمامته الصغيرة المكوّرة... وكان أخوه محمد مكباً على سجلات حسابه يتفصّد جبينه عرقاً يتقطر من أرنبة أنفه. ونهض مصطفى وصافحني بحرارة وهو يقول بلهجة مسرحية:

- أهلاً.. أهلاً.. شرفت يا سيدنا الأستاذ.. ما شاء الله.. ما شاء الله.. وحشتنا قوي..

وجلست وتناولت من يد الحاج مصطفى.. قدح الشاي المخصر وكأنه ياقوتة حمراء تتوهج.. وجعلت أشرب منه على مهل وأنا أحس في قرارة نفسي كأن تلك السنين التي مرت وانقضت لم تكن أكثر من لمحة خاطفة في عمر الزمان...

زنجي في باريس

منذ متى كان هذا الوجه الزنجي العريض المنطفىء؟

منذ متى كانت هذه القامة الفارعة المترهلة، المرتخية؟ انها تكاد تتهرأ من الداخل ومن الخارج معاً.

منذ متى أنت في هذه الأرض الفرنسية، في باريس بالذات، في هذا الحي بعينه حي «لاموت بيكيه»؟

ألا تحدثهم عن نفسك؟

ألا تروي لهم قصة حياتك؟

دع هذه الاشارة الميتة من يدك المتهاوية. انك ترفض دائماً، تأبى دائماً. لم يعد للدنيا في نظرك لون أو طعم أو حس أو.. وجود.

لعل اذنيك الكبيرتين المتهدلتين، التقطتا فتاتاً من موائد الهازئين... الباحثين عن ذواتهم في بوليفار سان ميشيل وأزقة الحي اللاتيني، وكهوف سان جرمان دبريه... ربما تلقفت أذناك المتعبتان قهقهات أولئك الشبان، وضحكات هاتيك الغانيات النزقات، وكلمات كانت تبصقها الشفاه العريبدة فآمنتَ بأن الوجود عبث.. وضياع.. وصورة حية لأسطورة سيزيف...

لو كـان الأمـر كـذلك لما رثيت لحـالك... وإنما وجـودك في باريس كـان هو العبث... لماذا لا تحدثهم... لماذا لا تروي قـصـة حياتك؟ أراهن أن الخزي يفري قلبك.. ولذلك فـأنت تومىء بهـذه الاشـارة الواهنة... وترفض... وكأنك تتـقيـأ أحشاءك!

لقـد حططت رحالك أخيـراً في «لاموت بيكيـه». فـهل تلك نهـاية المطاف؟ وفي «لاموت بيكيـه» شوارع خلفيـة كما في كل مكان في باريس الغـادرة. وفي الشوارع الخلفية جحور تؤوي أمثالك من النفايات.

أترى؟ إني لا أكاد أجد فيـك جانبـاً نظيـفـاً أبدأ به قصـة حيـاتك. لقد أردت أنت هذا. أنبـتني أن أروي هذه القـصـة، فـاسـتـجـبت لطلبك وصـدري ممتلىء بالغـثـيـان. إن القلم، في يدي، أضـحى كأنه ملقط أمسك به متقززاً، بعـضـاً منك هنا... وبعـضـاً منك هناك... لكي أستطيع أن أكشف عن جلية أمرك.. إلى هذا الحد تملكني القرف منك.. لسبب بسيط جداً هو انك: موبوء.. لانك تركت قارتك الفتيـة السوداء، قـارتك البكر، وأتيت تجرر أذيال الخيبة في باريس... لو بقيت هناك لطفح محيـاك بالصحة، والقوة والاعـتـداد والشبـاب والآمـال... ولأحببـتك ولأعجبت بك...

أليـس هذا هو بدء حكايتك؟ من افـريقــيــا إلى باريس... من النـور إلى الظلام... رغم الأضـواء البـاهرة، ولماذا لا تقـول أن الأضـواء البـاهرة هي التي قتلتك؟

كـانت باريس تعـيش في أحـلامك. كـانت تسـتـهـويك بعـريهـا الفـاتن. كنت تهجس بهـا. حدثك بعـضـهـم عن سحرها، وعلمـوك لغـتـهـا، ثم ركـبت أول باخرة وانطلقت نحوها بجنون.

ولقد تركت زوجتك وطفليك.. ما أشد نذالتك! كانت زوجتك جميلة، جميلة جداً، رأيت واحدة تشبهها في قلب باريس. أؤكد لك أن العيون كلها كانت تحوم حول حسنها الزنجي، كانت أشبه بتمثال اغريقي فاتن، كأنها فينوس صبت في قالب من البرونز. ألم تشاهد آيتها في باحات اللوفر؟

ويوم عقصت الزنجية الحسناء شعرها، وعقدت حوله فراشة كبيرة من الحرير وانفلتت تخطو بقدها الرشيق في قاعات الفندق الكبير طارت معها قلوب البيض، ذوي العيون الزرق، والبشرة الوردية.. مثلها كانت زوجتك. ولم يكن في الدنيا أجمل من طفليك. ومع ذلك تركتهم جميعاً، وهربت إلى باريس... أيها الوغد!

وغبت طويلاً وكانت زوجتك، وحولها طفلاك، تسأل النجم عنك وهي جالسة على عتبة كوخها، وامتد غيابك دهراً بأسره وكبر طفلاك وهما يسألان عن والدهما وكانت زوجتك الحلوة تبكي، وتعود تسأل النجم.. والنجم لا يجيب. ولم تعد أبداً إلى كوخك، لم تعد إلى الشجرة الكبيرة التي كنت تجلس في ظلها خلف ذلك الكوخ، وبكتك امرأتك، وأيقنت أن البحر قد ابتلعك ولم تدر أن باريس هي التي افترستك..

وقفة واحدة في ميدان «الاوبرا» خلبت لبك وأضاعتك، لو استطعت أن تبصق في وجه باريس لنجوت، كان الكثير من أبناء جلدتك أقوى منك. لقد نعموا بها طويلاً، ونالوا منها المآرب، ودخلوا «سربونها» ومعاهدها وتعلموا، وضحكوا ملء أشداقهم، وكانت لهم صديقات شقر يتهالكن على لذات ينلنها من الجمال الأسود الرهيب، ومع ذلك فما جرؤت باريس أن تمد إلى صدورهم البرونزية مخلباً واحداً... لأنهم استطاعوا - في اللحظة الحرجة - أن يبصقوا في وجهها.. ويشمخوا بقاماتهم فوق اغرائها..

أما أنت.. أنت فيا لحزيك.. كنت فريسة طيّعة.. وصفقتك باريس بضحكة سن وغمزة عين... دخلت السوربون أياماً ثم عفتها ورحت تتسكع... والويل لمن كان يتسكع مثلك في باريس.

وتنقلت بك خطاك على أبواب ملاهيها، ومغاور فجورها أيها الابله! كنت كالكلب الضال تتمسح بمواطن عارها، وشالت بك وحطتك... وغدوت تستجدي لقمة العيش في أسواق «الهال» تحمل صناديق الخضر في منتصف الليل، من سيارات الشحن إلى المستودعات الكبيرة، حتى تكلّ كتفاك لقاء بضعة فرنكات... أتراني أجور على الحقيقة؟ حقيقتك أنت... أوه، دع هذه الاشارة المتخاذلة، لن تسكتني أبداً. سأقول ما أعرفه.

وفي أسواق «الهال» عرفت بنات الليل والهوى، على الأرصفة وفي زوايا الأزقة والدروب، واصطادتك «نينت»، كانت بحاجة إلى واحد مثلك لأمر ما ولقد امتصت نخاع عظمك... ثم بصقتك ورضيت بعد ذلك أن تكون أشبه بكلبها. وعشت زمناً خائر الجسد والروح ثم عدت تشتهيها، وتحلم أن تعود إلى أحضانك. فقلبت شفتها، وركلتك. أرأيت؟ انك لا تقوى على الامتعاض حتى على الشعور بالهوان، فإلى أي حضيض ترديت؟!؟ ثم ماذا؟ ثم جعلت تجرر ذيول مأساتك في مقاهي الهال، وباراتها الصغيرة المريبة. وكنت تجوع أياماً طويلة، وتعود الفرنكات البائسة إلى كفك، من شقائك في تفريغ حمولة سيارات الشحن في أسواق الهال. فتملأ معدتك الخاوية بعض الوقت.. ثم يعود الجوع يأكل أحشاءك... وخطوت الخطوة التالية.. عفواً.. لقد انحدرت دركة أخرى في سلم انحطاطك. فوجدت نفسك تمد يدك وتتسول. في مقهى الضفدع الذهبية، طلبت سيجارة من احداهن، فتناولك اياها وهي تتخلع من الضحك، وأطلقت عليك اسم «الزنجي الشحاذ» ولقد ذهلت هنيهة، وغامت عيناك، وأشعلت السيجارة، وجذبت منها نفساً عميقاً، ورحت تردد وأنت تقهقه كمعتوه: «أجل الزنجي

الشحاذ» وطاب لك اسمك الجديد، فلم تجد بعد هذا عسراً في أن تمد يدك وتسأل بنات الليل أن يعطينك سجائر.. وفرنكات ولقيمات.. وعرفنك جميعاً في زوايا تلك الأزقة والدروب، وفي المقاهي المريبة، وفي المنعطفات، وألفنك. وأصبحت من «لوازم» حياتهن الليلية.. ومع الأيام لم تعد تثير في نفوسهن شفقة ولا رحمة ولا رثاء لحالك. أصبحت في نظرهن «شيئاً» عليه أطمار، وهلاهيل، وعلى رأسه قبعة قذرة ممزقة الأطراف، وله شفتان متهدلتان، ولعاب يسيل من الشدقين وفيه خبال سكر... وطواعية لأية اشارة... فأي المأساتين كانت أفدح وأثقل: مأساتك أنت، أم مأساة كل من هاتيك اللواتي يبعن الغرام، ويصطدن العابرين في المنعطفات، وعند أبواب الفنادق المريبة؟!

ايه.. انني لا أرثي لحالك، وإنما أنا أروي حكايتك، أتدري أن كل انفعال يزول بعد أن تعتاد العيون رؤية البؤس، حتى الأوجاع يعتادها الانسان ويظل لائذاً بها لا يريد أن تفارقه!

ومرة وضعت نفسك تحت تصرف رجال العصابات الذين يتّجرون بأعراض الغريرات الوافدات من الريف إلى باريس.. أو من أقطار أخرى، ولكن أية خدمة كان في وسعك أن تقدمها لهم؟ لقد طردوك وهددوك بالقتل إن أنت عدت تتمسح بهم. ما أشد سذاجتك! هل وهمت حقاً أنك تستطيع، أنت، أن تكون واحداً من زمرتهم؟ أنت.. أنت..؟ دعني أضحك من غفلتك اذن... في تلك الفترة من تاريخ تدهورك لم تكن صالحاً حتى للجريمة... وحياة أولئك الرجال سلسلة متصلة الحلقات من جرائم القتل.. والنهب.. والسطو.. وانتهاك الأعراض والمكائد.. وأين، أين أنت من هذا كله؟! حتى امكان انقاذك من بؤس حالك أضحى أمراً ميؤوساً منه تماماً... كنت قد انتهيت.. ولما التقيت بأحد أبناء بلدك لم تجد في نفسك دافعاً لسؤاله عما حل بامرأتك وطفليك، وكوخك، والسياج الذي تتراكض حوله دجاجات ذلك الكوخ المتواضع الذي تواريه أوراق الشجر العريضة في

المناطق الاستوائية.

ورأيتك، أول مرة، في سوق «لاموت بيكيه» كنت أشتري نصف دجاجة محمرة مما يشوى في سفافيد يعلو بعضها بعضاً وتدور ببطء وتحمر الدجاج في مواجهة اللهب، ويتقطر من الدجاج ذوب دهن يتجمع في حوض مستطيل، وأتيت أنت، ومددت لبائع الدجاج المحمر رغيفك الوحيد. فرثى لحالك وأغرق الرغيف بالدهن الذائب وأعاده إليك، فتحركت شفتاك بكلمات لم يسمعها أحد، وحاولت أن تمضي ملهوفاً ولكنك وجدتني أتطلع إليك...

في تلك اللحظة قرأت في عينيك الذابلتين كل مأساتك. وحدثتني عيناك بأشياء كثيرة. حدثتني عن موطنك الذي فارقته بنذالة وهو يتحفز لينهض. وحدثتني عن امرأتك وطفليك، وعن كوخك والشجرة الكبيرة، والسياج الممتد، وأفضت لي عيناك بتدهورك في باريس، وشكت لي ما فعلته بك «نينيت» و«نيكول» و«جانيت» و«جوسلين» و«فرنسواز».. وبنات الليل كلهن.. وأومأت عيناك إلى الرغيف البائس المغموس بالدهن المذاب.. ومددت يدي إلى جيبي وأخرجت بضعة فرنكات أعطيتها لبائع الدجاج وقلت له أن يقدم لك دجاجة كاملة.. وناولك الرجل الدجاجة فذهلت، ولم تصدق عيناك أن بين يديك دجاجة بحالها.. وتحركت شفتاك بما لا يسمع.. ورفعت يدك الخائرة إلى قبعتك الرثة.. وحييتني.. ولكني مضيت دون أن ألتفت إليك. كنت واثقاً انك بعد يوم.. بعد يومين ستأتي إلى بائع الدجاج المحمر وستدفع إليه رغيفك ليغمسه في الدهن المذاب.. مضيت ولم ألتفت إليك لأن عينيك أخبرتاني بكل أمرك. كنت أسير متجهاً نحو «الانفليد» الذي دفن فيه نابليون - كنت أسير ولا أزال أرى في خيالي كوخك، والساحة الخضراء المترامية خلفه.. والشجرة الكبيرة ذات الورق العريض، والسياج الممتد، وأرى زوجتك تسأل النجم عنك حيناً وترأم طفليك حيناً و.. ولعنتك، ولعنت نابليون، لقد رأيت كثيراً من الأغبياء يدخلون على رؤوس

أصابعهم القاعة الواسعة التي دفنت في منخفضها جثته. ورأيت القاعدة الخضراء التي ينهض فوقها بناء قبره البني.. ورأيت الأغبياء يطلون على قبره من فوق حاجز الدائرة الأنيقة حوله بخشوع عظيم.. كأنما هم يعبدونه ورحت أغذ السير مشمئزاً ضيق الصدر.

وعند أسوار الانفليد التقيت فجأة بزنجي شاب.. يحتضن فرنسية شقراء ولكني تابعت سيري دون أن أتمهل.. ودون أن ألتفت..

الغلاف الأخير

... الإيراني

قصّاص فنّان أصيل، قلمه ريشة، وألفاظه خطوط وألوان وظلال وأنغام، وقصته جو مصوَّر كامل ينساب إليه القارىء انسياباً طبيعياً، ويعيش مع شخوصه وحوادثه في حياة نابضة واقعية...

دكتور ناصر الدين الأسد

أصابع في الظلام
(مجموعة قصص)

مدام بلانش

يومئذ كان في عنفوان رجولته.... ويومئذ أحب «مدام بلانش»... في قهوة البلور.. كانوا يسمونها قهوة البلور لأن لها واجهة كاملة من الزجاج، وربما لأنها كانت أيضاً تعرض الأبدان ناصعة تتلألأ تحت الأضواء... في النهار كانت مقهى، وفي الليل ملهى.. وكان لا بد لك من أن تصعد إليها ثلاثين درجة في سلم ضيق، مـتلو، معتم حتى في رائعة النهار... ولذلك كان يضيئه من أعلى مصباح خافت ينير لك موطىء قدم وحسب.. وبعد آخر درجة في السلم تدفع باباً صغيراً من خشب وزجاج وتدخل قاعة واسعة، عريضة، قديمة، واجهتها مربعات من زجاج... ولقد تنفق وقتك عندئذ في لعب الورق، أو النرد، وتشرب القهوة، وتشرب الشاي، ثقيلاً، وتدخن النارجيلة، وتضيف إلى الدخان المعقود في جو القاعة مزيداً من دخان نارجيلتك أو سكارتك، يتصاعد حلقات، حلقات... ثم تلمح في صدر القاعة المسرح العتيد.. مسرح الليل وصبواته وآهاته، تلك التي ترسلها الحلوق والحناجر ملهوفة حيناً ملوعة حيناً، صاخبة ضاجة في أكثر الأحيان... تلمح المسرح، وستاره الحديدي القاتم، وحواشيه الذهبية المغبرة، المتآكلة. وتهز رأسك وتمر في خيالك صور: واحدة تغني ولا تنفك أن تهتف «يا ليل» «يا ليل...» وواحدة ترقص وتكشف عن عريها... وأخريات يتماوجن... ويغنين... في شفوف ملونة «بالله يا ليل ترخي سدايلك علينا..» وتدور كؤوس العرق في الرؤوس، وتمتد الأيدي المترنحة إلى أطباق الحمص المدقوق والكباب المحمر، وتتمايل الأجسام ثقيلة، رازحة، وتنبعث الصيحات: «الله.. كمان...

الله يا ست فوزية.. كمان يا ست الطاف..» ويتفصد العرق مدراراً من الجباه والوجوه، وتنعقد في الجو سحب حامية مخمورة، ويحلم الكثيرون.. وقد تراخت مفاصلهم... على نغم ضبابي يصور لهم الليل وقد أرخى سدوله.. وطواهم في غمرات الهيام...

لما أقبل شاكر افندي على القاعة الواسعة، العريضة، بعيد الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم من أيام الصيف القائظة، ترك أصدقاؤه لعب النرد وهبوا واقفين، وهتفوا..من بعيد: «جاءت مدام بلانش... جاءت مدام بلانش يا أخا العز..»

فابتسم لهم، وظل يتهادى في مشيته، ورفع يده المكتنزة يسوي بها عقدة ربطته الحريرية حتى صار بينهم، فتلقوه مقهقهين، صاخبين، وربت أحدهم على كتفه متودداً وعاد يؤكد بلهجة مسرحية وهو مفتوح الذراعين: «مدام بلانش.. يا حبيبي.. مدام بلانش.. جاءت أخيراً...»

فابتسم شاكر افندي، من جديد، ابتسامة عريضة وقال متمهلاً:

- السلام عليكم أولاً...
- وعليكم السلام ورحمة الله... أهلاً... أهلاً
- مدام بلانش جاءت صحيح..؟
- صحيح..

وجلس شاكر افندي، وجلس اصدقاؤه، وجعل يجفف عرقه بمنديل من الحرير... ثم خلع طربوشه حذراً، متأنياً، لئلا يفسد شعره الممشوط، الملمع، المفروق إلى اليسار.. كان هو وحده، بينهم، الأشقر، الأبيض البشرة، الأزرق العينين، وكان أصدقاؤه يداعبونه أحياناً ويقولون له: لعلك الباني الأصل.. ألست

تذكر أحداً من أجدادك وفد إلينا من بلاد أهلها شقر، زرق العيون؟ وكان هو يضحك كثيراً، ويهز رأسه ولا يلبث يداخله الشعور بأنه ربما يجري في عروقه دم قوقازي أو الباني أو حتى اوروبي من غرب أوربا أو شمالها.. من يدري؟ انها الحروب... والفتوحات... والأمم والشعوب تختلط دماؤها وتتمازج... ويوم ذهب إلى باريس، في سنوات الثلاثين، حسبوه هناك فرنسياً... كان يرى أن لا فرق بينه وبينهم... وكان يحسن الفرنسية، وينطق را ءاتها مثلهم... سافر إليها بالباخرة ثم بالقطار من مرسيليا، ومكث هناك طويلاً.. أكثر من خمس سنوات... كان أبوه يريده أن يدرس الحقوق في «السربون» فخيب أمله، وظل ينفق أيامه ولياليه في حانات باريس وباراتها وملاهيها.. كان ينام نهاره كله وينشط مع المساء. فيرتدي ملابسه وينطلق إلى الأماكن التي يحس أنه يحيا فيها حقاً، ويتنفس ملء رئتيه حقاً: حي «بيغال» و«مونمارتر».. وقد يسأم أحياناً فيركب «المترو» إلى أزقة ودروب «ستراسبورغ ساندنيس».. ومنهما إلى «الهال».. حتى يتنفس الصبح.. وكانت له خليلة أو صديقة، هناك، اسمها «بلانش» لا يدري كيف علقت به...

مرض ذات يوم ودخل المستشفى وكانت هي ممرضته. ولما غادر المستشفى كانت في ركابه.. الواقع أنها أحبته جداً.. وكانت تمني النفس أن تتزوجه.. امرأة تنشد الستر.. وكانت جميلة، ناصعة، ولكن ما أكثر الجميلات في باريس.. حتى لتحار في الاختيار.. غير أن شاكر افندي ما كان ليخطر له الزواج في بال.. أتزوج؟ مصيبة.. لا.. أبداً.. كل شيء إلا الزواج.. ثم لماذا السرعة؟ ومن هو المجنون الذي يضع يديه ورجليه في القيود طائعاً مختاراً؟ نبقى أصدقاء.. نبقى حبايب.. فهذا أجمل وأحلى وأمتع...

وكان ينفق بسخاء.. كان أبوه ثرياً.. وله كلمته.. وصيته.. وكان يتمنى أن يكون ولده الأصغر هذا محامياً يملأ الدنيا... كان يحبه حقاً أكثر من حبه أخوته

الكبار.. كان يدلله.. ولكنه خيب أمله فيه.. «على كل حال الحمد لله. ما حاجته أن يكون محامياً؟ إنما كنت أحب أن يزين المال بالعلم.. استغفر الله.. يزينه بالشهادة الكبيرة.. فهو متعلم ويقرأ الكتب... ويتكلم فرنساوي.. لو صافحت مسمعك نغماته الحلوة لحسبته بلبلاً يغرد..»

ويوم غادر شاكر افندي باريس عائداً إلى بلده تنفس الصعداء. كانت بلانش قد ضيقت عليه الخناق.. كأنما قد ركبها عفريت اسمه الزواج.. صبرت أكثر من سنتين ثم انفجرت تطلب الزواج.. وتلح فيه وكان هو يسوف.. ويماطل.. ويتهرب.. ويحمل إليها الهدايا... لعله يلهيها عن فكرة الزواج.. ولكنها كانت قد صممت... وعقدت عزمها.. وقرر هو، في النهاية، أن يغادر باريس سراً.. وفي الباخرة التي أقلته إلى شواطىء بلاده ما أكثر ما كان يستند إلى حاجز السفينة، ويظل يغوص بعينيه في ماء البحر المتقلبة. وكان يبدو له حينئذ أن بلانش كانت، والحق يقال، وفية له.. قامت على خدمته، والعناية به، وكانت أطوع له من بنانه...

«صحيح كانت تحبني.. وهي لا تزال تحبني.. وكان العيش معها رغيداً.. ولكنني، أنا لم أخلق للزواج.. على الأقل في الوقت الحاضر.. ثم ما هو ذنبي؟ كنت صادقاً معها.. لم أعدها بالزواج أبداً.. بل كنت أقول لها: نبقى حبايب.. مجنون من يتزوج في باريس.. يتزوج ويترك الجمال المعروض في كل مكان؟ أنا نفسي ما أخلصت لها أبداً.. كانت لي علاقات.. ومغامرات... مع الكثيرات من وراء ظهرها.. ربما كانت تعلم.. ولكنها كانت تسكت.. وتغض النظر.. امرأة داهية، وصولية، ولا ريب.. كانت تدرك أنها بهذا السكوت.. بهذا الصبر.. ربما استطاعت، ذات يوم، أن تضع القيود في يدي.. يا للماكرة الخبيثة.. ولكن ها نحن قد انتهينا.. انتهى كل شيء.. وباريس كبيرة... كبيرة.. ولن تعدم بلانش، بين الملايين، رجلاً تافهاً يتزوجها، عجيب.. لا تكاد تتصل بواحدة منهن.. حتى

تضرب لك على نغمة الزواج.. او.. ف..»

كان في حديثه مع نفسه ينصفها حيناً.. وحيناً يلتمس لنفسه الأعذار.. والتماسه الأعذار كان يورطه في ظلمها... وفي قرارة نفسه كان موقناً أنه تصرف معها كما يتصرف الأنذال.. تركها هكذا.. هرب.. بعد عشرة طويلة...

«قد أكون ظالماً.. ربما تصرفت تصرف الأنذال.. ولكن ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟ ولماذا لم ترض معي بالواقع؟ لقد عاشت هذا الواقع سنتين.. أكثر من سنتين.. ربما ثلاث سنوات.. فلماذا لم تستمر؟ الزواج في نظرهن مستقبل.. وسعادة.. هكذا هو الأمر في رأيها، وفي رأي البنات كلهن هناك.. انهن يبحثن عن الزوج الذي يحببنه أولاً... الحب.. الحب.. كلمة ضخمة عريضة.. هائلة... مطبوعة على جبين باريس.. كأن الفتيات يرضعنه مع حليب أمهاتهن.. الأفضل أن تعود بلانش إلى التمريض.. قد يغري ثوبها الأبيض واحداً غيري.. وهل ضاقت باريس كلها عن أن تحقق أملها في الزواج؟ او.. ف..».

في غمرة اللقاء نسي أشياء كثيرة.. ولكن النسيان لم يدم طويلاً.. ظلت باريس تعيش في دمه وتتنفس فيه.. كانت شيئاً كالادمان على الخمر.. أو المخدرات... سكن ذات يوم في ضاحية «سان كلو».. كان قد أحس أنه مفكك المفاصل، واهن الجسم، فلاذ بشقة صغيرة في أحد أزقة «سان كلو»، وقد سره أن يرى أمامه، كل صباح نهر السين صافياً، متألقاً مرة، كدراً أغبر مرة أخرى.. وكان يمضي ساعات وساعات متفرجاً على السفن النهرية، وزوارق البخار، وذوات الأشرعة البيضاء، وبيوتها القديمة... ولكن قدميه كانتا تسوقانه على رغمه إلى حانات هناك وبارات، وإلى صبايا غندورات نزقات، وراء المشارب.. وعبثاً حاول أن يستنشق الهواء النقي الطلق في غابة «سان كلو» وكلها حدائق وأشجار لا أول لها ولا آخر.. ولكنه في النهاية عافها ورجع إلى باريس، وأقام في الحي اللاتيني...

ثم كان له تاريخ مع بلانش...

- اذن.. جاءت.. مدام بلانش؟

قال ذلك كأنه أفاق من حلم استغرقه استغراقاً.. فهتف صديقه ابراهيم:

- صح النوم يا سيد شاكر.. أين كنت شارد الفكر.. حسبناك غفوت.. مدام بلانش جاءت يا ناس..

- الأمر الواقع غير ما يتوقع.. صحيح أن صاحب قهوة البلور ملأ الدنيا اعلاناً عن مقدمها.. ولكن أن تكون هي نفسها هنا الآن... في البلد... أمر مختلف تماماً...

- كلام مضبوط...

وصفق شاكر افندي بيديه للساقي:

- فنجان قهوة على الريحة.. بسرعة.. ثم عاد يقول:

- نسهر هنا الليلة اذن؟

فأجاب صديقه الآخر عزت بحماسة ظاهرة:

- بدون كلام.. بدون جدال.. سهرتنا هنا الليلة..

وجاءت القهوة، وجعل يرشف منها متمهلاً، وأخرج منديله مرة أخرى، وأخذ يجفف قطرات من العرق على جبينه.. ولعب الورق مع أصدقائه ودخن سجاير كثيرة، وشرب بضعة فناجين أخرى من القهوة، ثم انصرف على لقاء في قهوة البلور ليلاً...

كان الاسم وحده هو الذي حرك كوامنه:

«من تكون مدام بلانش هذه؟ راقصة أجنبية بالطبع. ولكن لماذا «بلانش»..

لماذا لم تكن «بولين» مثلاً... أو «جيزيل»... أو حتى «مدام كلير».. واستبعد أن تكون هي خليلته التي فر منها في باريس. هذا مستحيل... انه مجرد اسم... الأسماء تتشابه، بل تتماثل كالأشخاص، ولكنه اسم جاء ليجدد لي ذكريات.. وجراحات... نهرب من بلانش في باريس لنجد بلانش أخرى في قهوة البلور... عجيب.. لا بد أنها جميلة هي الأخرى.. وزيادة على ذلك راقصة.. هل هي فرنسية؟ ربما كانت يونانية... أو هنغارية... أو حتى تركية... ربما استعارت هذا الاسم كما تفعل زميلاتها في كل مكان.. المهم: بلانش في قهوة البلور.. من كان يصدق هذا؟ سأراها مرة واحدة... ليطمئن قلبي.. ثم لن أراها بعد ذلك أبداً.. يظهر أن هذا الاسم يطاردني.. يريد أن يلصق بي.. أن يمسك بتلابيبي.. ولكن هذا لن يكون.. لن يكون.. او.. ف..».

كان مسرح البلور، في تلك الليلة، على غير مألوفه: أنواره أشد سطوعاً وتوهجاً.. عشرات المصابيح الملونة أضيفت إليه.. وكان ثمة عازفون لم يرهم شاكر افندي من قبل، بينهم واحد ينفخ في مزمار.. انه «السكسفون» الذي يعرفه في ملاهي باريس.. وثمة طبل فوقه صنجان كبيران.. كانت القاعة الرحيبة القديمة مكتظة بالخلق.. من لابسي الشروال.. ولابسي القمباز.. ولابسي البنطال.. ومن لهم شوارب فخمة وسمت ووقار.. ومن لا شوارب لهم.. خليط من الناس والسحن والمشارب.. وكان شاكر افندي وأصدقاؤه يحتسون عرقاً في كؤوس مترعة تروح وتجيء، وقد جلسوا في مكان يحجبهم عن الأنظار يتمززون حمصاً مدقوقاً وكباباً شهياً وخياراً مقشوراً..

غنت فوزية أولاً.. وتثنت ما شاء لها فنها... ان تتثنى.. وناجت الليل طويلاً... ونادته نداء شجياً مديداً... واحتلت المسرح بعد ذلك ألطاف.. وسميرة، وكريمة... وانفلتن على خشبته متثنيات، متخلعات وهززن أردافهن... وعرضن مفاتنهن من كل جانب.. ثم أسدل عليهن الستار بين تصفيق فاتر،

وقهقهات عربيدة، وكلمات مكشوفة... كان الرجال، في الواقع يتلهفون على ظهور مدام بلانش.. قد يكون للأجنبية مذاق خاص.. وفن خاص.. وظهر على المسرح رجل غنى مواويل على ألحان قانون متهالك.. وكان يشد قامته من حين لآخر... ويعتدل.. ويثبت قدميه.. ثم يصيح.. انه من أهل الفن المساكين، انحنى عوده تحت وقر السنين والتعب والعمل الشحيح، في ليالي الصيف، في ليالي الشتاء، في كل الليالي... لمحه شاكر افندي، بعد أن انتهى دوره، ينسل من باب جانبي وقد عادت قامته فانحنت.. ما بقاؤه في القاعة، أو في الكواليس؟ أصبحت لقمة العيش هي مطلبه.. ثم عزفت الموسيقى وأخذ «السكسفون» يهيء الجو لمدام بلانش.. كانت أنغامه العالية تقفز قفزاً، تدور في القاعة وتوقظ الغافلين... والسكارى، ثم تتهاوى عند قدمي صاحبها فيعود من جديد يطلقها حادة... نزقة... قافزة.. تغطي قرع الطبل ورنين الصنجانين.. كانت كأنها تصرخ في كل اذن: مدام بلانش.. مدام بلانش.. وفجأة اطفئت الأنوار كلها... ولم يبق غير دائرة واحدة كبيرة من نور أخضر في وسط المسرح.. وكأنما كانت مدام بلانش مغلفة بتلك الغلالة الزمردية فانشقت عنها.. وأرسلتها تدور وتتماوج كأنها قطعة من الفضة الناصعة... كانت تبدو كأنها تسبح.. مرة في انسياب بديع، يحملها التيار برفق وحنان، ومرة كأنها تطير خفيفة، مرحة مزهوة، ثم كأنما تضطرم في بدنها شعلة من نار فتروح تتخبط، وتدفع عن نفسها عدواً خفياً، مجهولاً تدفعه بيديها وذراعيها وساقيها، ولا تلبث أن تضرب خشبة المسرح بقدمها ضربة عنيفة يزيدها رهبة صرخة حادة، مديدة، مدوية، يرسلها «السكسفون»... وتهدأ الراقصة قليلاً، ويكون شعرها الأشقر الكث قد انحل تماماً وانسدل مشوشاً ثائراً حول عنقها وكتفها وذراعيها.. وعندئذ تبتسم منتصرة، ظافرة، وتتلقى عاصفة الزعيق والهتاف والتصفيق بانحناءة مرحة، ثم تفتح ذراعيها كأنها تعانق بهما كل الموجودين في القاعة، ورويداً رويداً تضمهما وتجعل من راحتيها شبه كأس، وتقطف من شفتيها قبلة تنثرها في أرجاء القاعة.

وتنثني بخفة ورشاقة ودلال عائدة إلى الكواليس فرحة، منتشية، وقد ألقت في كل خيال، وفي كل بدن، رجفة بعيدة القرار...

كان هذا كله حدثاً من الأحداث الجسام في قهوة البلور... ما كانوا قد رأوا مثل هذا البدن... شيء يخطف الأبصار والعقول حقاً.. وفن أي فن!.. لقد استقرت مدام بلانش في كل نفس... وملأت كل مخيلة.. وكان جماعة من كبار تجار المدينة، وذوي اليسار فيها، أصحاب الكروش النافرة والشوارب المصبوغة، والسمت والوقار... هم الذين تدلهوا في حبها... أحدهم أشعل لها سيجارة بورقة مالية من فئة العشرة الجنيهات، وآخر نال منها قبلة خاطفة من وراء لوح زجاجي بخمسين جنيهاً قدمها لها ورقة واحدة... وكثرت حولها الأساطير... وكان شاكر افندي من عشاقها، ولكنه كان الحبيب المقرب، حبيب الروح في تلك الفترة، أنفق الكثير عليها: هدايا.. ورحلات.. وفساتين من حرير... وحفلات باذخة.. ووجاهة.. وفي هذه الأثناء مرض أبوه أياماً وتوفاه الله فبكاه ساعات وورث عنه شيئاً كثيراً.. وجعل ينفق بدون حساب.. وقد أحبت فيه مدام بلانش سخاءه.. ولكنها أحبت أكثر من هذا حديثه الحلو بالفرنسية... وأحبت أناقته... وذكرياته عن باريس.. وأصغت طويلاً إلى حكاياته عن بلانش الأخرى، سميتها، وكانت تغرق في الضحك وتقول له: أنا بلانش.. وأنا كل امرأة يمكن أن تتطلع إليها... أليس كذلك؟.

وكان هو يدفن رأسه في شعرها ويظل يغمغم كأنه طفل «بلانش.. بلانش..»

وفي مرات كانت تقول له: «ألست تراني أحلى منها.. وأشهى؟..»

ويقول هو: «والله لا أدري هل في حلم أعيش أم في يقظة».

وكان صادقاً، فقد كان يلتبس عليه الأمر أحياناً كثيرة.. ويرى في أفق نفسه، كأن ثمة وجهين ولونين من الحسن لامرأة واحدة.. لكل مذاق.. وطعم.. ونكهة.. وكان يقع في وهمه أن نظرة الاثنتين واحدة، فكلاهما طويلة الأهداب، متمهلة اللمح، خضراء العينين، تسبح فيهما الأحلام في أوقات الصفاء والهدوء والحب.. كان الكل يعلم أن أوقاتها في النهار له وحده.. وللآخرين رقصها في الليل، وفتونها، وتلاعبها بقلوبهم، وابتزازها لأموالهم «شهور مرت هكذا.. كنت أعيش مع عطرها... وحريرها.. وضحكاتها.. كان يخيل إلي أنها صورة من الأخرى ولكنها أنضر وأشهى.. وكأنها تركت باريس في زي راقصة لتكون أبداً معي... ولكنني أوهم نفسي أنها باقية إلى الأبد.. لن تفلت من يدي.. ومع ذلك لبت نداء الآفاق.. لا تستطيع أن تبقى في بلد ما أكثر من بضعة شهور.. أحياناً بضعة أيام... وعرضت عليها أن أتزوجها فقهقهت طويلاً.. ثم قالت: «ليتني أستطيع.. كلا.. الزواج مهزلة يا حبيبي.. سأبقي لك من عطري.. من ذكرياتي.. ومن أنفاسي.. ستراني في أحلامك... وسيعيش اسمي على لسانك.. الزواج.. تصور هذا.. تصور حياة مشتركة بين اثنين سرعان ما يسأم أحدهما الآخر... انه يراه كل يوم.. وكل ساعة... يراه مريضاً.. ويراه ضعيفاً.. ويراه غاضباً، وحانقاً، ومشمئزاً، ويائساً، ومهموماً، ومتخاذلاً... ويسمعه يسعل.. ويتمخط.. ويبصق.. ويعاني الأوجاع.. وماذا يبقى من الجمال بعد هذا كله؟ يعود لا تراه العين... ولا يحس به القلب... ويخبو السحر.. ويموت الحب.. هذا هو الزواج يا حبيبي.. كلا لن أتزوج... لن أتزوج أبداً..»

بعد ذهاب بلانش ظل حقبة لا يدري كيف يعيش وكيف تمر الأيام ثم اعتاد أن ينسى على مهل.. وقد صدقت.. فما كان أجمل ذكرياته معها... لا يشوبها شيء غير احساسه، في أعقاب التذكر، بأنها ليست أكثر من أوهام كان يتراءى له أنها شبيهة بالأشياء النفيسة، المفقودة، لا سبيل إلى استعادتها.. كان قد أنفق عليها شيئاً من ماله الموروث... واستمر بعد ذلك يعيش متبطلاً... لم يكن

ينفع لعمل أو تجارة، وكان ما بقي من ماله يذوب شيئاً فشيئاً.... والأيام تمر كثيرة، سريعة، دون وناء.. وكان لا يحس بها.. ولا يحس بوجه الدنيا يتغير.. وتتبدل أحوال أهلها...

واستفاق يوماً فرأى الشيب قد انتشر في رأسه، وأحس أن خطوه أصبح أبطأ وأثقل.. ولم يبق بين يديه إلا رمق من مال.. واضطر أن يعمل مترجماً في الصحف.. وكاتباً من الدرجة الثانية أو الثالثة.. وجد نفسه يعيش على نحو ما.. كان كل شيء عنده بقايا من عز: ملابسه.. أشياؤه.. أثاث بيته أصدقاؤه القليلون.. عمره كله.. بقايا مغبرة.. ثم اضطر أن يقيم في غرفة واحدة بالبلد القديمة... كان يتضاءل وينكمش لكي يظل محتفظاً بمجرد البقاء... شيء واحد لم يقو على مفارقته؛ هو تردده على ملهى البلور.. كان يمضي سهراته هناك حيث يعرفونه ولا يتقاضون غير ثمن فنجان القهوة، أو لا يتقاضون شيئاً على الاطلاق..

في احدى الأمسيات مرت به «وجدان» المطربة الناشئة... ابتسمت له ابتسامة عابرة.. فتشبث بالابتسامة.. أضاءت له أفق نفسه هنيهة.. وبحث عنها ساعة خروجه ووقف معها لحظات كان يغمغم خلالها بكلمات لم تفهمها وجدان.. وإنما رأته يتحسس يديها الناصعتين الصغيرتين وترتعش شفتاه.. ثم قبل يديها وهو يقول:

– أجمل وأنفس يدين رأيتهما في حياتي..»

وابتسمت هي له.. كانت ابتسامتها احساناً خالصاً في هذه المرة.. وأحست كأنها تضع في يد سائل مسكين قرشاً كاملاً.. ثم انسحبت وهي تتثنى، وخلفت وراءها عطرها.. ومضى يقتلع قدميه ولا يقوى على رفع قامته.. كان منذ زمن طويل يسير محني الظهر.. أكثر من عشرين سنة مرت من يوم عرف مدام

بلانش.. ويومئذ كان في السابعة والثلاثين من عمره.. وكانت هي تخطو إلى الثلاثين... أين عساها تكون... وكيف تراها تعيش.. وماذا بقي من جمالها الأخاذ.. وبلانش الأخرى في باريس لا بد أنها وجدت من تتزوجه.. وأصبح لها أولاد وبنات... وترهلت.. وغاض سحرها... وغدت عجوزاً شمطاء...

في مساء اليوم التالي جلس في ركنة من ملهى «الانشراح» وجعل يدخن نارجيلته، وجلس معه صديق كان قد سمع الكثير عن حكايته مع مدام بلانش.. وطال بينهما الحديث.. وغنت احداهن على المسرح.. ورقصت أخرى.. أصبح قلما يلتفت إلى ما يجري على المسرح.. وفي نحو الساعة العاشرة اعتلت خشبة المسرح راقصة أجنبية، ناصعة البدن، وأطالت الرقص، والابتسام... والاغراء... فلم تظفر من الحضور بأكثر من تصفيق فاتر سريع.. ورفع شاكر افندي رأسه وحدق نظره في الراقصة التي كانت تبتسم وكأنها تستجدي الاعجاب.. وذهل هنيهة.. ثم أحس قلبه يغوص بين جنبيه... انها مدام بلانش.. لا يزال بدنها ناصعاً كالفضة.. وهو يتألق تحت أضواء الكهرباء... بلانش مرة أخرى في البلد... ولا تزال كعهده بها ؟ ونزلت هي عن المسرح، وأخذت تدور بين الرجال، فيضع بعضهم - هنا وهناك - قروشاً في يدها.. ولما صارت عنده تفرست فيه لحظة.. ثم صاحت.

- شاكر!

وتهاوت على كرسي قريب.. وراحت تلم أنفاسها.. أنت هنا أيها الصديق؟... وتناول هو يدها وقبلها.. وجعل يغمغم: «مدام بلانش مدام بلانش..»

ومال إلى صديقه الجالس معه وقال وشفتاه ترتعشان: «انها هي.. هي نفسها..»

كانت قد شاخت حقاً... ولكنها وارت الشيخوخة بالمساحيق.. وبالأسنان المستعارة، والشعر المصبوغ، والقامة المشدودة، لحظات.. إنها من بعيد فقط.. تحت الأنوار الساطعة، تبدو ناصعة متألقة...

كانت مدام بلانش أشبه بخشبة النجاة في عرض البحر.. خيل إليه أنه إذا تعلق بها فلن يغرق.. صحيح أن العز... والمجد... والشباب... قد ضاعت جميعاً.. ولكن ذكرياته القديمة معها ستنقذه وتنضر حياته.. وسيرتاح... وتزوجها بسهولة.. كانت هي الأخرى تريد أن يكون إلى جانبها رجل.. كانت تريد معيناً.. وسنداً.. ستحس أن ثمة انساناً تستطيع أن تفضي إليه بهمومها.. وتسمع منه كلمات العطف.. لن تظل الوحدة الرهيبة تفترسها افتراساً...

وأضحت حياتهما المشتركة تنقلا من بلد إلى بلد.. وكان القليل من المال يكفيهما.. وغدا، هو الآخر، يعمل نشيطاً، كان لا يفارقها أبداً..

وجعل من نفسه داعية لها في الملاهي التي لا يعرفه الناس فيها، كانوا يرونه كل ليلة يخلق من حولها جواً من الاغراء والتشويق.. ويدور بين الزبائن مشمراً عن ساعديه، حالقاً ذقنه، خفيف الخطو، ما استطاع، وهو لا ينفك يردد بحماسة بالغة: «مدام بلانش يا اخوان... أشهر راقصة من اوروبا.. يا سلام.. يا سلام.. مدام بلانش».

ويضحك بعضهم ويهز بعضهم رأسه.. ويحسبه الآخرون معتوهاً.. وكانت هي تؤدي رقصها مجهدة، متماسكة مع ذلك.. وتبدو للعيون المخمورة وكأنها قطعة من الفضة الناصعة... ثم تنحدر عن المسرح وتدور بين اللاهين تجمع قروشاً.. ثم تختفي.. وكان القليلون يلمحونها بعد ذلك تنسل من باب جانبي وقد تأبطت ذراع شاكر افندي وعادت قامتها وقامته إلى الانحناء.. ما بقاؤهما في القاعة أو في كواليس المسرح؟ أصبحت لقمة العيش هي مطلبهما...

في ساعات صفوهما كان يجد نفسه يقول لها وهي ترفو له جورباً أو قميصاً:

- كان يمكن أن نتزوج منذ طويل... أيام لقائنا الأول بباريس.. وتجيبه هي:

- في باريس.. انك تحلم بتلك الأخرى..

فيعود يقول:

- تلك الأخرى.. أنت.. انها أنت.. ما عرفت غيرك.. فلا أخرى هناك..

وتهمس:

- أتراك تهذي..؟

- أهذي؟.. كيف يمكن أن أهذي.. وإنما أنا أبكي.. وفي الواقع كانا يبكيان معاً.. يبكيان طويلاً...

خيط من حرير

كان عزيز صديقي

وكان يمكن أن يظل صديقي حتى الآن. أنا ما خنت صداقته أبداً. لقد أحببته حقاً، كنت أوثره بمودتي، وأبوح له بأسراري. أنت تدري ما أقول، ثمة أسرار تنهش في الصدر باستمرار.. لا ترتاح إلا إذا أفضيت بها.. كأنما تريد أن يشاركك الآخرون في تحمل جراحات مخالبها الكاسرة، كلنا أنانيون كما ترى، لا نريد أن ننفرد حتى بعبء أسرارنا الفادحة.. كنت أعتقد أن حق الصداقة أن تعطي الصديق الكثير من نفسك، أن تأخذ بناصره، أن تقف إلى جانبه في الملمات، أن تشعره أن ثمة انساناً يشد أزره ولا يريد له إلا الخير، أنا ما كنت واهماً، ما كنت واهماً أبداً.. حتى بعد أن مر الزمن الطويل لا أزال عند رأيي.. ولا أستطيع أن أقول أنه خان الصداقة.. لا.. عزيز ما كان بخائن.. هو الآخر كان يبوح لي بأسراره ومواجع قلبه.. وكنت أشعر أن هذا يشد من أسباب الرابطة المتينة بيننا.. لا ريب في أنه كان يجد الراحة في البوح هو الآخر.. الانسان الذي لا يبوح... لا يخرج ما في صدره.. لا يبثك أفراحه وأشجانه، كيف يمكن أن يكون صديقك؟ كيف يمكن أن يكون انساناً؟ لحظة البوح لحظة ضعف ولا شك. ولكنه ضعف من طبيعة البشر.. بدون لحظات ضعف كهذه.. كيف يمكن أن يوجد تعاطف.. ومشاركة وجدانية كيف يمكن أن يعود الانسان قوياً من جديد؟ أن تستمد القوة من الضعف.. من لحظات الضعف.. هذا ما يعطي الانسان قيمته..

وكان يتراءى لي أن صداقتنا أقوى من المرأة.. إلى هذا الحد بلغ اعتقادي بصداقة عزيز.. كنت أدرك أن لا شيء يصمد أمام المرأة.. لا شيء يقوى على دهائها.. لا شيء لا قوة يمكن أن تتحداها... ومع ذلك فقد أيقنت، في ساعة ما، أن ما بيني وبين عزيز يستحيل أن تمد المرأة إليه أناملها المدمرة.. ستهاب.. ستتراجع.. ستذهلها روعة صداقتنا.. ستفل عزمها حرارة العلاقة بين رجلين.. ثمة فرق كبير بين الحب والصداقة.. أعتقد أن الصداقة تمتاز بالصفاء.. تقوم على الصفاء.. والحب يتغذى بالقلق.. هو القلق نفسه.. وشتان شتان بين ما يتوهج في الصدر كالجمر الأحمر، وبين هذه السكينة التي تجدها مع الصديق..

كان يقع في روعي أحياناً أن الصداقة أجمل من الحب. ومع ذلك استطاعت أنامل المرأة أن تمتد إلى ما بيني وبين عزيز.. تسللت بدهاء.. برقة متناهية... قاتلة.. وخنقت صداقتنا.. خنقتها برقة أيضاً.. هل تعلم أن أحسن ما يكون الخنق بخيط من حرير؟ كانت أناملها خيوطاً من الحرير الأملس.. الناعم.. المتناهي نعومة وعذوبة. هذه الخيوط الحريرية هي التي خنقت صداقتنا.. انك لا تستطيع أن تتصور كيف تتسلل المرأة لكي تقتل وتدمر: بابتسامة، بنظرة، بكلمة، بحركة، بوعود تنطق بها عيناها، بهمسة في اذن، بضغطة من كف رخصة، بعطر مسكر يند عنها.. ما أشد دهاءها.

ما كان لعزيز أن يخون ويغدر.. وإلى الآن لا يمكن أن أصفه بالخيانة وهو ما أفشى لي سراً، ما تحالف مع عدو ضدي، ما نال مني بكلمة سوء واحدة من وراء ظهري.. ما فعل شيئاً من هذا أبداً.. وليته فعل.. ليته كان شديد الخصام.. ليته أخرج أسراري كلها وباح بها.. وأوصلها إلى من يهمهم أمرها.. ليته أتى أمراً يؤذيني.. إذن لهان كل شيء.. وكنت إما أن أقابله بالمثل.. وإما أن أزدريه وأحتقره.. وأسقطه من حسابي.. وكأنه لم يكن..

الصحيح أنه كان فناناً في تصرفه العجيب معي.. كان حاذقاً.. كأنما قد

علمته - هي - كيف يقطع ولا يجرح، كيف يطعن ولا يهدر نقطة دم واحدة.. هذا دهاء امرأة لا يقوى عليه الرجال.. وأنا لولا تلك المرأة ما ذكرته... لولا تلك المرأة لظل إلى هذه اللحظة صديقي.. انني يوم فقدت صداقته أحسست كأنني أضعت شيئاً نفيساً له قيمة فوق المال، وفوق كل تقدير.. في أيام التسلط الأجنبي على بلادي كان يستطيع بكلمة واحدة أن يدفع بي إلى الهلاك.. ولكنه لم يقلها تلك الكلمة.. لقد عذبوه.. وسجنوه.. وضربوه بالسياط فما باح بسر واحد.. ما باح أبداً.. ومع ذلك استطاعت أنامل امرأة أن تتسلل إلى نفسه، وتنفث فيها حقدها.. لكي يقطع ما بيني وبينه.. يوم عرف تلك المرأة هرع إلي كطفل غرير.. لم تكن هي أول حب له.. ولكنها كانت أول امرأة في حياته.. عزيز رجل جد وعمل، رجل حصيف، متزن، كانت عيناه السوداوان الناتئتان قليلاً، هما اللتان تنمان على عواطف جامحة تتوقد في صدره ولكنه كان يستطيع أن يكبتها.. أن يكبحها ويلجمها.. كنت أتصوره بدوياً قد تحضر.. كان أسمر اللون، أسود العينين، حالك الشعر، نحيف الجسم، فارع العود، قليل الكلام.. وكان يقع في روعي، أحياناً أن الصحراء التي سكنها أجداده أورثته هذا الصمت الطويل.. وهذا التحديق المستمر.. وكان يبتسم حين أمازحه وأقول له أنه بدوي فر من صحرائه الموغلة.. كان لا يزيد على الابتسام، ما سمعته يضحك أو يقهقه أبداً. وكان عزيز محاسب شركات، وكان مخلصاً في عمله، عاكفاً عليه، ما حدثته نفسه في يوم من الأيام أن يخون أو يغدر أو يتلاعب.. ويوم عرف تلك المرأة هرع إلي كأنه طفل غرير وأفضى لي بسر تلك العاطفة الجديدة التي تملكته.. وكانت هي امرأة عرفها في سهرة عائلية.. وكانت قد فقدت زوجها.. مات بعلة.. انتحر.. لا أذكر تماماً.. وكانت تعيش مع أخت لها أصغر منها.. وأجمل.. وأحلى.. أنا لو كنت مكانه لأحببت الأخت وقد شاء عزيز يوماً أن يقدمني إلى تلك المرأة - امتثال - وأيقنت يومئذ أن في وسعها أن تكبله، كانت لها نظرة كاوية تغلفها بالرقة، وابتسامة حلوة يكمن وراءها الكيد.. لم

تكن جميلة بالمفهوم الشائع للجمال.. كان جمالها خفياً، لا تستطيع إذا رأيتها أن تقول ما هو، ومن أين ينبع، ومن أي مفاتنها المحيرة يتطاير الشُرر.. أجل أحسست كأن لجمالها شرراً قد يصيبك بالتلف.. ووجلت.. ولم أتلبث طويلاً في تلك الجلسة، انسحبت منها معتذراً بعمل طارىء.. ودعتني هي بابتسامة.. بظل ابتسامة على الأصح... هذا النوع الخطر من النساء لا يمكن أن يكون صريحاً.. إن الابتسامة الكاملة تكشف صاحبها.. لا تبقي شيئاً مستوراً فيه، تقول كل شيء كالعين البريئة الساذجة التي لم يلوثها المكر بعد. هل كنت واهماً؟؟ هل كان هذا مجرد تصور؟ هل هي هواجسي التي ألقت ظلها على تلك المرأة؟.. ممكن. الدنيا علمتني أن لا أقطع برأي..

وفي اليوم التالي رآني عزيز وقال:

- ما رأيك؟
- في ماذا؟
- فيها

لم أجبه على الفور.. بقيت محدقاً في عينيه.. هل أصدقه القول؟ هل أقول له رأيي بصراحة.. أم أراوغ.. وأعطيه جواباً لا يدري معه، على أي جنبيه يستريح؟ كان كثيراً ما يقول لي: انك يا أخي لا يظفر منك الانسان بجواب مريح.. ولا يلبث أن يستدرك ويعود يقول: ولكنني أعلم أن غدرات الأيام جعلتك متوجساً هكذا.. ثم يبتسم ابتسامته الصافية التي كنت أحبها منه.. وسمعته يكرر سؤاله باصرار:

- ما رأيك؟

قلت:

- رأيي؟
- أجل رأيك..
- الحق.. انني لم.. أرتح إليها..
- قلنا لا توارب يا أخي..

وأطرقت هنيهة ثم رفعت رأسي وقلت:

- دعها
- أدعها؟
- اتركها
- السبب؟
- يخيل إلي أنها ستدمرك.. ليست هي المرأة الملائمة لك على أي حال..

واعتمد رأسه براحة يده وغاب عن الدنيا.. هل كان يفكر؟ هل أقنعه قولي؟ هل آلمته؟ هل كان يرجو أن يكون جوابي مشجعاً له؟

ثم نهض واقفاً.. لم ينبس بكلمة. مد يده فصافحني ومضى مسرعاً وهو يجذب من سيكارته أنفاساً قوية بعصبية ظاهرة..

غاب أياماً كثيرة.. كانت بضعة أسابيع ولا ريب.. ما رأيت في أثنائها أن أتصل به.. أحببت أن أتركه يفكر.. ويقارن.. ويوازن.. ويعرف أين سيضع قدمه.. وكان هو الذي اتصل بي بعد ذلك.. رأيته مقبلاً وهو يكاد يتواثب من فرط المرح.. وكانت ابتسامته تملأ وجهه.. وكانت عيناه السوداوان تومضان فرحاً.. كان في حالة من النعيم الذي يستغرق الانسان استغراقاً، وما كاد يستقر في مقعده حتى شرع يقول وهو يشعل سيكارة ويضع رجلاً فوق رجل:

- الصحيح أنك كنتَ واهماً

- خير ان شاء الله؟
- امتثال عظيمة.
- هذا يسرني والله
- امتثال جوهرة غالية.. يدهشني أنك أسأت الظن فيها
- أتراك تلومني يا عزيز؟
- كلا.. أبداً.. وإنما أنت أصبحت كثير الظنون في هده الأيام
- لا عليك.. ثم إني لم أرها غير مرة واحدة في جلسة قصيرة..

وتشقق الحديث بيننا، وشربنا القهوة، وعاد كشأنه دائماً، يتفقد أشيائي وينظر في رفوف مكتبتي، ويقف عند لوحات الرسم التي أحبها.. ويتناول بعض التحف ويقلبها بين يديه، ويروح يتأملها، ثم يعيدها إلىٰ مواضعها بعناية فائقة.. ثم ودعني ومضى مرحاً كما جاء..

ماذا فعلت تلك المرأة حتى سحرته هكذا.. وأخضعته. وفتحت قلبه عنوة وتملكته؟ وازددت توجساً منها.. وريبة في أمرها.. وخشيت على صديقي..

منذ ذلك اليوم قل تردده علي.. حسبته في أول الأمر مشغولاً بحبه.. مشغولاً بتلك المرأة التي ملكت عليه عقله.. ولكني أخذت ألاحظ أنه جعل يباعد ما بيني وبينه.. يلقاني ساعة ويغيب أياماً... ثم أسابيع... ما أحببت أن أسأله.. كنت أخمد هواجسي.. وألتمس له الأعذار.. قلت انني ما خنت صداقته أبداً.. ما أردت له إلا الخير.. كل الخير.. وعلى حين غرة مدت تلك المرأة أناملها الدقيقة، الهشة إلي أنا.. شرعت تلعب لعبتها الخطرة.. *طرقت* علي باب مكتبي ذات يوم.. كان ذلك قبل الغروب.. جاءت وقد أرخت على وجهها خماراً رقيقاً.. وكان عطرها الناعم الفريد يتضوع منها.. وكنت مكباً على دراسة قضية جنائية.. أنا بحاجة إلى عقلي كله في دراستها.. ولما دخلت غرفة المكتب نحت خمارها الرقيق.. وبهت.. وقلت هامساً وأنا أنهض لاستقبالها:

- أنت؟

قالت وظل ابتسامتها لا يفارق شفتيها:

- أجل. أنا..
- وأين عزيز؟
- عزيز.. مشغول..
- هل هناك خدمة يمكنني أن أقدمها لك؟
- خدمة كبيرة..

ثم ضحكت ضحكة قصيرة.. ضحكة حلوة.. أخاذة.. وجلست، ووضعت ساقاً فوق ساق وقالت:

- هل تركت التدخين؟
- أبداً

وأخرجت علبة سكائري، وقدمت لها واحدة وأشعلتها لها.. وجلست أتأملها صامتاً.. كانت تدخن متمهلة متأنية، تجذب النفس عميقاً.. وترسله على مهل، فينتشر حولها كغمامة رقيقة.. كانت تبدو في منتهى الهدوء.. وازددت توجساً، وخيل إلي أنني خليق أن يفلت زمام أعصابي من يدي.. كانت تديم إلي النظر، وقد أرخت أجفانها قليلاً.. تراءى لي أنها تروزني.. وداخلني الشعور بأنها خبيرة بالرجال... امرأة محنكة.. داهية.. ومع ذلك، حتى تلك اللحظة، ما خطر لي أنها مقبلة على تجربة خطرة.. ما دار في ذهني أنها جاءت لكي تجعل مني لعبة في يدها.. اعتدلت في جلستها وسألتني:

- ماذا تفعل؟
- أدرس قضية كما ترين

- أي نوع من القضايا؟ سمعت أنك محام ماهر..
- أستغفر الله.. انها قضية جنائية..
- قتل؟
- لا.. شروع في قتل
- آه.. عظيم

وأخذت نفساً مديداً من سيكارتها وسألتني مرة أخرى:

- هل في حياتك امرأة؟
- امرأة؟
- أجل امرأة
- ولكن يا سيدتي.. أعتقد أنه سؤال غريب
- سؤال غريب.. وجريء.. أليس كذلك؟
- تماماً..
- أجب. هل في حياتك امرأة؟

وسمعتني أقول دون تفكير:

- لا.. في الوقت الحاضر على الأقل..
- ولماذا لا تتزوج؟
- قد يحدث هذا.. في وقت ما..

وبدأت أشعر كأنني في موقف اعتراف.. وقلت:

- هل انتهت الأسئلة؟.. انك تذكرينني بمواقف التحقيق..
- مواقف لا شك في أنك اعتدتها..
- ولكني لا أحبها في شؤوني الخاصة..

- طبعاً.. طبعاً..
- ما هي الخدمة التي أستطيع تقديمها لك اذن؟
- افرض أن هناك امرأة.. تحبك
- تحبني أنا؟
- تحبك أنت..
- تريدين أن تعرفي رأيي؟
- بالضبط..
- يجب أن أعرف تلك المرأة أولاً..
- انها جميلة ورائعة..

وصوبت إليها نظرة طويلة وقلت متوجساً..

- من تكون؟.. أهي..
- هي أنا.. أريد أن تحبني.. فقد أحببتك مذ رأيتك.

أحسست أن الأرض تدور بي.. كان هدوؤها.. وكانت جرأتها.. وهي تقول تلك العبارة.. أكثر مما أستطيع احتماله.. لم أجد ما أقوله.. احتبس الكلام في صدري.. كل ما فعلته انني جعلت أحدق فيها النظر.. لم يكن هذا معقولاً.. لم أكن أتوقعه على سوء ظني بها.. وظلت هي تبتسم.. وأشعلت سيكارة أخرى.. وكنت لا أزال أنظر إليها بعينين حائرتين.. متسائلتين.. وعادت تقول:

- أحببتك من اللحظة الأولى..

وأخيراً استطعت أن أقول وأنا أبتلع ريقي بصعوبة:

- وعزيز ألا تحبينه؟

قالت باستخفاف:

- ما أحببته أبداً
- انه صديقي..
- أعلم ذلك.
- ولن أخونه..
- وما شأني أنا؟..
- أليست هذه خيانة.. أن..
- أن تحبني.. أليس كذلك؟
- ثم.. من قال انني أحبك.. أو سأحبك؟

نهضت بتراخ، واقتربت مني ببطء.. أحسست بأنفاسها المعطرة الدافئة على وجهي.. ومدت أصابعها الدقيقة.. الناصعة.. ومرت بها على شعري.. ثم على عيني الاثنتين.. وغلى الدم في عروقي، وخيل إلي لحظة انني أوشك أن أسقط، أن أنهار.. تحت قدمي تلك المرأة.. وعلى مهل أخذت أتماسك.. واقف في وجه العاصفة.. وألم أنفاسي.. ومددت يدي بهدوء ونحيت تلك الأصابع الثعبانية.. وقلت لها لاهثاً:

- هل تعلمين، يا سيدتي، إن أحسن ما يكون الخنق بخيط من حرير؟

انها امرأة داهية.. وذكية.. فهمت ما تنطوي عليه هذه العبارة من معان بعيدة.. وكان هدوئي، وأنا أنحي أصابعها الدقيقة الناصعة، قد أكد في ذهنها تلك المعاني.. إن المعركة التي اختارت هي موقعها وسلاحها كانت قد انتهت.. وأيقنت انني تمالكت نفسي تماماً.. وانني نجوت.. وانثنت هي تأخذ حقيبة يدها.. ثم نظرت إلي من طرف عينها نظرة سريعة، خاطفة، وأرخت خمارها الرقيق على وجهها، واتجهت إلى الباب شامخة، منتصبة القامة وقالت وهي تهم بالخروج:

- سأذكر جيداً ما قلت.. أحسن ما يكون الخنق بخيط من حرير.

وتزوجته.. تزوجت عزيز.. حتى هذه اللحظة يجهل عزيز ما حدث بيني وبين.. وبين زوجته.. كانت موقنة أن المعركة انتهت في غرفة مكتبي.. وانني أحصف من أن أقول كلمة واحدة لعزيز.. عزيز الذي لم أعد أراه.. كانت قد أطبقت عليه.. على مخنقه بخيط من حرير.. أخمدت به صداقتنا.. وكان من أوهامي أنني حسبت في يوم من الأيام أن الصداقة العميقة أقوى من المرأة.. رأيتها بعد ذلك مرة أو مرتين في بعض المناسبات.. وهي تتألق بين جمع من السيدات والرجال.. وقد تعمدت في كل مرة أن تنظر إلي طويلاً من خلال أهدابها البديعة وعلى شفتيها ظل ابتسامة.. وكأنها تقول: لا تحسب أنك أنت الذي انتصر.. كان النصر لي أنا في النهاية كما ترى.. ثم تلتفت إلى الناحية التي يقف فيها زوجها عزيز.. وكأنها تشير إلي وتقول: انظر..

انظر ماذا ؟ كانت أصابعها الدقيقة، النحيلة، الناصعة قد مزقت ما بيني وبينه.. وانها لبقايا صداقة.. ما فكرت أن ألمها أبداً.. وتراءى لي في لحظة، كأنها ممسكة بطرف خيط من حرير ملتف حول عنق صديقي تقوده به حيث تشاء.. ولا تنفك، هي، من وراء ظهره، تلهو، تلهو.. وتلهو.. في تلك اللحظة أدركت: لماذا انتحر زوجها الأول.. ورثيت لحال صديقي عزيز..

ذات الشعر الأحمر

في مقهى «جان بارت» بباريس كنت أراه كل مساء حتى ساعة متأخرة من الليل. ولم يكن من حي «لاموت بيكيه»، أنا واثق من أنه لم يكن من سكانه، «لاموت بيكيه» حي سكن هادىء في باريس الصاخبة.. وما كنت لأستطيع أن أقيم في حي يموج بالخلق، وتصطخب فيه حياة الليل، واللهو، والمرح.. لقد كانت أعصابي دائماً لا تطيق العنف والجموح والانطلاق، ومع ذلك فإن مقاهي لاموت بيكيه تظل ساهرة حتى الثانية صباحاً... وكان - هو - يغادر مقهى «جان بارت» في نحو الواحدة بعد منتصف الليل.. ما رأيته ليلة تخلف عن ذلك المقهى، بل ما رأيته جالساً أبداً لا في الداخل، ولا في الخارج، كان يظل واقفاً عند طرف ركن من المشرب الطويل العريض، ركن لم يغيره قط. وحتى في الليالي التي كنت أقضي سهراتها بعيداً عن «لاموت بيكيه» وعن مقهى «جان بارت» أو «ملغاش» كنت ألمحه لدى عودتي من «موغارتر» أو «سان جرمين دبريه» واقفاً عند ركنه بل كنت، وأنا ما زلت في قطار «المترو»، وهو يقترب من محطة المدرسة العسكرية، أتصوره واقفاً هناك دائماً... كان يقع في روعي أنه جزء متمم من ذلك المقهى، لو غادره يوماً، لأي سبب، فسيكون ثمة فراغ لا يمكن أن يسده غيره... كانت صورة المقهى، في رأيي، لا تتم إلا به...

ماذا كان يفعل ذلك الرجل دائماً؟ بماذا كان يشغل تلك الساعات الطوال في وقفته تلك؟ كان يخيل إلي، في بادىء الأمر، انه قارىء صحف ومجلات. كان

معه دائماً أكثر من صحيفة، وأكثر من مجلة ينظر فيها. ثم لاحظت أن في يده، باستمرار، قلماً يكتب به أحياناً. ووقفت مرة عند المشرب وطلبت شيئاً أشربه، وجعلت أنظر إليه بطرف عيني لأرى ما يفعله. لقد أثار تطلعي حقاً، أثاره رغماً عني... واني لأعلم من أمري انني قليل الفضول والتطفل على الآخرين. ولكن تلك الوقفة الدائمة، في ركن بعينه، وتلك الصحف والمجلات، وتلك الساعات الكثيرة ينفقها ثمة دون حساب، أثارت فضولي حقاً.. جعلت أخالسه النظر بضع لحظات ثم ذهلت... كان الرجل يعكف على حل رموز الكلمات المتقاطعة.. وكان إذا فرغ من مربعات صحيفة انتقل إلى غيرها.. كان يفكر طويلاً، ويبدو أحياناً كالذاهل، ثم يشعل سيجارة ويروح يدخنها، ويخط بقلمه حرفاً هنا وحرفاً هناك في تلك المربعات.. كان يفعل هذا كل ليلة، كل ساعة، كل لحظة.. باستمرار ودأب.. لا يكل ولا يمل، ولا يحس بمضي الوقت وانطواء الساعات.

كنت أسائل نفسي محتاراً: هل فيه لوثة؟ هل كان لا يدري ما يفعله بأوقات فراغه؟ لماذا لم يكن يقرأ في كتاب؟ لماذا لم يكن يتشاغل بالحديث؟ يلعب النرد على الطريقة الفرنسية؟ لماذا - بصورة خاصة - لم يكن يجالس الناس؟ لم لا يجعل بينه وبينهم صلات مودة سهلة هنيئة، فيناقلهم الحديث ويضحك، ويبتهج كما يفعل سائر الخلق؟ ثم لماذا اختار هذا المقهى بالذات؟ أليس في الحي الذي يقيم فيه ما يغنيه من المقاهي والبارات، وباريس كلها قهوات وبارات؟ بل لماذا لم يحاول، ولو مرة واحدة، أن يذهب إلى قهوة «ملغاش» مثلاً، وهي مقابلة لقهوة «جان بارت» في الناحية الأخرى؟ كنت أدير هذه الأسئلة في نفسي وأنا في المصعد الذي يحملني إلى غرفتي في الطابق السادس من فندق «المنارة الملكية» الذي ينهض فوق مقهى «جان بارت» مباشرة..

أقمت في باريس طويلاً فألفتها وألفت ناسها، وأحببت حياتها، وعرفت الكثيرين، ولكن عيني لم تقع على مثل حال ذلك الرجل.. حتى قبعته ما كان

ليخلعها في وقفته تلك، بل كانت دائماً على رأسه، وبيده القلم، وأمامه صحفه ومجلاته.. وبدا لي، في النهاية، أن للرجل قصة، أو هموماً يعاني منها، أو هو قد عانى منها فترة من حياته على الأقل.. وكانت همومه تقتضيه أن يفكر ويعلل، ويستنتج، ويحاول أن يجد حلولاً لمشاكله العويصة...

أو ربما يهرب من همومه في هذا الذي يفعله، لكي لا يظل يفكر فيها فيمضه التفكير، ويضنيه، ويعذبه بلا جدوى.. ولعل هربه، أو انسحابه و«تقوقعه» كان ضرباً آخر من التفكير وحسن التفطّن. وتذكر مختلف المعلومات يريحه، لأنه يهتدي، في النهاية، إلى الحلول الصحيحة... الحلول المريحة التي يفتقدها في شؤونه الخاصة... وهمومه ومشاكله إذا صح أن له هموماً ومشاكل.. فيما بدا لي.. بعض الناس يغرق همومه ووساوسه في كؤوس من الخمر، أو المغيبات الأخرى.. انه الهرب من الواقع المقيت على كل حال. انه انكار لهذا الواقع، ونفض اليدين منه.. وكنت أحياناً أقول في نفسي: ماذا عسى أن تكون هموم هذا الرجل؟ هل هي هموم حب، هموم عمل، مشاكل مالية معقدة، هل هي أوهام تتبدى له وكأنها حقائق بغيضة؟ ولا أدري لماذا كنت أميل، بعد كل هذا التفكير في أمره، إلى الاعتقاد بأنه مجنون، أو شبه مجنون على الأقل.. وهل من الضروري أن يصخب، ويزعق ويهدر كالبعير، ويسير منطلقاً يفعل ما بدا له لكي يكون مجنوناً؟ ربما كان الجنون الصامت، الذي يلزم صورة واحدة، أو حالة واحدة، هو الجنون الأشد خطراً.. الجنون الذي لا يمكن أن يشفى منه صاحبه أبداً.

وتذكرت، فجأة، وأنا أرشف من فنجان القهوة في «جان بارت» حالة مشابهة.. كيف تذكرتها بعد حقبة طويلة من عمري؟ ربما كان تداعي الخواطر هو الذي ذكرني بها، فلا يمكن أن يضيع شيء من الذاكرة، انها تختزن كل الصور، كل المرئيات، وحتى الروائح، وخصائص الأمكنة، وجوها، ومشخصاتها، حتى الأشياء الصغيرة لا تضيع: صوت ما، زقزقة عصفور، ابتسامة عابرة، نظرة

سريعة، مذاق خاص، هذه الأشياء كلها ومثيلاتها وشبيهاتها لا تنفك مرتبطة في الذاكرة بمشاهد وحوادث، وعواطف، واحساسات، وانفعالات تعاودنا ظلالها في أويقات التذكر.. ورأيتني فجأة، صبياً أركض مع رفاقي في حارتنا الكبيرة، أدور واياهم في الأزقة والدروب. وندخل بناء الطاحون، البناء المتهدم الذي اهمله أصحابه فظل أنقاضاً تطل بينها بقايا أرحاء حجرية، ودواليب صدئة متآكلة، وحطام أعمدة وركائز... كنا نتخذ من هذا البناء المتهدم معقلاً لنا نستريح فيه، ونتحدث ونضحك ملء أشداقنا، ونضع خططاً محكمة لألعابنا، ونرتب المواعيد، ويخيل إلينا كأننا قادة جيش، وأن الحارة كلها تحت امرتنا، واننا نحن المتصرفون في أحوالها، المالكون لرقاب سكانها، المتحكمون بمصيرها... وكانت حارتنا بأزقتها، وبيوتها العتيقة قريبة من البحر، بل كانت من مرتفعها تطل على شاطئه الفسيح الذي كنا نهرع إليه بين الحين والحين، أسعد ما نكون. وننضو ثيابنا، ونلقي بأجسادنا في مياهه، ونروح نضرب موجه بسواعدنا الصغيرة، وكنا إذا نال منا التعب نتسلق صخوره البارزة فنقتعدها أو نستلقي في استرخاء لذيذ فوق سطحها الأملس الذي تغطي معظمه طحالب الماء...

وقد يركبنا شيطان العبث والفضول، فندس أصابعنا بحذر في شقوق الصخور نحاول ان نستخرج أحياءها الصغيرة، أو قد تقع في أيدينا قطعة حديد أو بعض قضيب صغير ندفعه في تلك الشقوق، نظل نعمله فيها حتى نعجن تلك الأحياء الصغيرة عجناً، وقد نفلح أحياناً فنستخرج محارات أو أم الخلال، أو اخطبوطة صغيرة، أو بعضاً من القريدس أو السرطانات ذوات الكلابات المنشاريّة الرهيبة وما شاكلها من الصدفيات المختلفة شكولاً وأنواعاً... كان هذا يفرحنا، ويلهينا طويلاً حتى لا يكاد يخطر لنا على بال اننا نؤذي تلك الأحياء المائية، ونشوهها، أو نحن نقتلها بقسوة بالغة داخل شقوقها... وكنا إذا شبعنا من هذا اللهو نعود فنلقي بأنفسنا في أحضان الماء، نسبح ونتقلب في أطواء الموج، ولا ننفك نضرب بسواعدنا حتى نعود إلى الشاطىء وقد استنفدت السباحة طاقاتنا

من النشاط والحيوية والمرح.... ايه.... ايه.... تلك الأيام ما كان أحلاها وأشهاها...

هل يستطيع صبي في الثالثة أو الرابعة عشرة على أبعد تقدير أن يحب؟ هل هو يفهم الحب كما يفهمه الكبار؟ الأرجح أن الحب عنده مجرد تفتح على دنيا الغرائز... ولكنه على التحقيق ابتداء شعور بالجمال، شعور يصحبه الذهول، والانبهار، واللهفة، ثم الانطلاق وراء الخيال والتصورات.. في تلك الفترة كانت «مهجة» تشغل بالي كثيراً، وتملأ خيالي، وكانت تتراءى لي وأنا مكب على دروسي، وأنا ألعب وأمرح، وأنا أسبح وأضرب الموج الفائر بذراعي. كانت «مهجة» تقيم مع أهلها الفقراء في دار صغيرة متداعية الجدار قرب بناء الطاحون المتهدم، بل كانت ملاصقة لذلك البناء، ورأيتها، أول مرة، تسقي أزهاراً في أصص جعل أصحاب الدار منها سوراً صغيراً حول مساحة الغرفتين العتيقتين اللتين يسكنونهما. كانت «مهجة» فارعة الطول، مكتنزة البدن ناصعة البياض، حمراء الشعر.. ما كنت رأيت قبلها، امرأة لها شعر أحمر، يتوهج إذا تخللته أشعة الشمس... أحسبها كانت فوق العشرين من عمرها، وكانت ترانا نلهو ونلعب فتبتسم ابتسامة خفيفة، وكأنها، فيما كنت أحس، تستصغر شأننا.. ثم تدخل احدى الغرفتين مسرعة... كل ما أذكره الآن أن قلبي كان يخفق بشدة كلما وقع نظري عليها، وكنت أتلهف إلى رؤيتها، وأظل شاخص البصر إليها... ولذلك جعلت أتردد كثيراً إلى بناء الطاحون، وأغري رفاقي بالبقاء فيه أطول مدة ممكنة لكي يتاح لي أن أخالسها النظر، أو ألمحها، على الأقل، وهي تمر، أو وهي تسقي الزهر، أو تتنقل بين الغرفتين...

وتسامعنا، في بيوتنا، أن «مهجة»، ابنة الجيران قد خطبت أخيراً. ذكرت أمي هذا النبأ وتنفست الصعداء، وسمعت به أختي الكبيرة ثم خالتي، وعمتي، وتنفسن الصعداء هن الآخريات، وخيل إلي أن كل بيت في الحارة تنفس الصعداء

لخطبة «مهجة»... فهل كان ذلك لأنها كانت فقيرة، أو لأنها كانت ما تزال عبئاً على أهلها؟ هل كانت نسوة الحارة يخشين أن تصبح عانساً؟ أو أنه كان ثمة سر أجهله أنا الصبي الذي يلعب ويمرح في الأزقة والدروب، ولا يفقه من أمور الكبار شيئاً؟... ورأيت «مهجة» بعد ذلك وقد ازدادت جمالاً وبهاء، كما ازدادت عناية بزينتها، وأخذت تضع على شفتيها ما يزيدهما احمراراً وفتنة... ورأيتها مرات تقطف وردة، أو قرنفلة، وترشقها في شعرها. وتخطو وهي تتثنى وتميس... وعظم اهتمامي بها وشوقي إلى رؤيتها وتأمل محاسنها والافتتان بشعرها الأحمر المتوهج... وأرسلتني أمي إليها مرة ومعي طبق كبير فيه أنواع من الفاكهة... وتلقتني هي مبتهجة، ضاحكة السن، وأخذت مني الطبق، وقالت لي، وهي تمر بأناملها الناصعة على وجهي: «سلم على أمك يا حبيبي واشكرها بالنيابة عني»... وأحسست دمي كله يصعد إلى رأسي، ودق قلبي بعنف، وانبهرت أنفاسي، ومضيت مطرق الرأس لا أدري أين أضع قدمي، ولا إلى أي مكان أتجه.. وهدأ روعي قليلاً، فانطلقت وحيداً إلى شاطىء البحر، وخلعت ملابسي، وألقيت نفسي في مياهه ورحت أسبح، أضرب صفحة الماء بساعدي، وألاحق الموجات، وأتصدى لها فتجتاحني ثائرة مزبدة، وأحس كأنها تطويني طياً بين أشداقها، فانقلب فيها... ولا تنفك «مهجة» تترا ءى لي وهي تبتسم، وتتحسس وجهي بأناملها الناصعة وتقول: «سلم على أمك يا حبيبي»... وأبت إلى دارنا خائر القوى، وأويت إلى فراشي واستغرقت في نوم عميق...

كان خطيب «مهجة» رجلاً يلبس الشروال الجوخ والسترة العربية القصيرة، ويلف حول خصره شملة حريرية حمراء ويتأنق في امالة طربوشه إلى اليمين.. وخيل إلي يوم رأيته، وقيل لي انه خطيبها، انه مزهو بشاربيه المبرومين اللذين لا ينفك يتحسسهما ويقيم طرفيهما بين اصبعيه بمهارة ورشاقة... كان طويل القامة، أسمر اللون، يسير وهو يطوح بيديه، وحسبته في أول الأمر بحاراً، ثم علمت أنه «ريس» برتقال. يربح كثيراً، ويأتمر بأمره عدد كبير من العمال الذين

يقطفون البرتقال، والآخرين الذين يحملونه في السلال المبطنة بالخيش إلى الأرض الفضاء. حيث يفرغونه تلالاً متعالية يتولاها نفر من «النقاد» المهرة يفرزون جيده تحت عين «الريس» اليقظة، ثم يلف بالورق الشفاف الملون ويعبأ في صناديقه، ليشحن في السفن إلى اوروبا...

وكانت «مهجة» تعد العدة ليوم زفافها، وكثيراً ما رأيتها منهمكة، مشغولة البال، نشطة الحركة، تروح وتجيء وهي تحمل الأقمشة، وتتردد على خياطات الحارة، وتنفق عندهن وقتاً طويلاً، وتذهب أحياناً إلى السوق وتعود ومعها أشياء كثيرة اشترتها لعرسها.. وفي أحد الأيام شاهدتها تتحدث إلى خطيبها من وراء أصص الزهر... كانت الفرحة تطل من عينيها حقاً، وكان هو يستمع إليها ويبتسم، وترتفع يده إلى شاربه يبرمه برفق ولا ينفك يهز رأسه... ثم مضى وظلت هي واقفة تداعب بأناملها هذه الزهرة وتلك الزهرة، وتتبعه بنظرها حتى وارته منعطفات الأزقة...

واقترب موعد الزفاف.. وكان خطيبها «جميل» قد أخذ يكثر التردد على دارها، وبدا هو الآخر منهمكاً، كأنما قد نفد صبره، فهو يتعجل الأمر ويحمل الهدايا، ويتنقل هنا وهناك سريع الحركة بادي النشاط، ثم وقعت الكارثة المروعة قبل يومين، أو ثلاثة من موعد الزفاف.... كان ذلك في صباح يوم أحد... انني أذكره جيداً... وكان «جميل» قد ارتدى أحسن شروال من الجوخ عنده، ولف حول خصره أجمل شملة من الحرير النفيس، ووضع في عروة سترته قرنفلة كبيرة، وأمال طربوشه جيداً، وراح يسير مزهواً في دروب الحارة... وعند المنعطف الضيق، الذي يفضي إلى المنحدر ويؤدي إلى شاطىء البحر، التقى بالفتى البحار «أيوب».. وكان بينهما عراك.... وصراع... وأخذ المارة يتجمعون حولهما، وعبثاً حاولوا أن يبعدوا أحدهما عن الآخر. ولما شعر البحار أن خصمه يوشك أن يتغلب عليه، استل من حزامه سكيناً برقت في يده لحظة... ثم أغمدها في صدر المعلم

«جميل» مرة، وفي خاصرته مرات... حتى أرداه قتيلاً يشخب دمه حول جثته...

هل كان أيوب يحب «مهجة»؟ هل كان يطمع في أن تصبح زوجته فخاب أمله؟ هل بقي كل هذا الوقت الطويل يمضغ حقده ويجتره حتى شفى غليله في النهاية بالدم الذي أراقه؟ زند البحار قطعة من صخر.. ما من أحد يجهل هذه الحقيقة... وسلاحه، أغلب الأحيان، سكينه التي لا تفارق حزامه... وما من أحد أبرع منه ولا أسرع إلى استلال السكين واغمادها في صدر أو خصر، والبحار إذا استفز أو أهين، أو دفع إلى أخذ ثأر، لا ينثني إلا قاتلاً أو مقتولاً... ومرة أخرى، هل كان الحب العاصف، أو الغيرة المدمرة سبب هذه الجريمة؟ بمثل هذا كان يتساءل سكان حارتنا ذاهلين...

لا أعرف كيف أصف انقضاض هذه الكارثة على ذات الشعر الأحمر... وحسبي أن أقول هنا اني لم أرها بعد ذلك إلا واقفة عند أصص الزهر، في المكان الذي رأيتها تتحدث منه إلى خطيبها وهي تبتسم له وتداعب هذه الزهرة مرة، وتلك الزهرة مرة، كانت تقف هناك سحابة نهارها تائهة النظرة، شاردة اللب، جامدة الملامح، وبيدها سكين صغيرة من سكاكين المنزل لا تنفك تعملها في أظفار يدها حيناً، وحيناً آخر تتحسس رؤوس الأزهار دون وعي...

ومضت الأيام وذات الشعر الأحمر لا تبارح موقفها ذاك... وغبت سنوات أدرس في الخارج وعدت لأجد «مهجة» في موقفها... ولم يطرأ عليها جديد، سوى أن الشيب انتشر في شعرها، فغدت حمرته الخلابة مغبرة ناصلة، وسوى أن ثيابها قد رثت، وتهضم محياها الجميل، وهزل بدنها المكتنز... ولم تفارق السكين الصغيرة قط... كانت لا تزال تعملها في أظافر يدها حينا، وحيناً تتحسس رؤوس الأزهار... كان جنونها من هذا النوع الصامت الذي يلزم صورة واحدة أو حالة واحدة، ويقف عند لحظة من الزمان لا يتعداها أبداً، لأنه لا زمان هناك غيرها... أو... أتراها كانت ترمز بالسكين إلى الأداة التي قتل بها

خطيبها؟ وبتحسسها رؤوس الزهر، إلى الآمال العذبة، المشرقة الغضة التي كانت تتفيأ ظلالها أيام أفراح قلبها؟

واني لأحس الآن انني لو غبت في باريس عشرة أعوام طوال، وعدت إليها من جديد... وساقتني قدماي إلى مقهى «جان بارت» في حي «لاموت بيكيه» لوجدت ذلك الرجل واقفاً في ركنه من المشرب الكبير، وقبعته على رأسه، وقلمه الصغير، بيده، وأمامه صحف ومجلات يملأ فراغ مربعاتها الأفقية والعمودية بحروف لا تنتهي... لا تنتهي أبداً...

حنين

أيها السادة: - أنا الماثل أمامكم الآن محمد مصطفى أبو درويش، قررت أن أفضي إليكم بقصتي كاملة، لا أخفي منها شيئاً إلا ما لم تعد تحتفظ به الذاكرة. سأقول لكم، اذن، وأنا في كامل قواي العقلية والبدنية، انني لا أزال والحمد لله بخير وعافية. ولا أزال أستطيع أن أفل الحديد. في يدي هاتين تكمن قوة عشرة رجال... كنت، والموج يطغى طغيانه وتفتح المياه أشداقها، أضرب الموج المتقلع بمجذافي حتى أصل بمركبي سالماً إلى السفينة الرابضة في عرض البحر، ولا أكاد أحس بتعب أبداً... هكذا كنت... ولا تزال في صدري بقية من تلك القوة... صحيح الانسان ينسى أحياناً... هموم الدنيا تنسى.. وهموم الدنيا تخمد في الانسان حيويته... ولكنه في لحظة واحدة، على حين غرة، يعود فيذكر أشياء كثيرة، ويعجب كيف أن بعضها كان غائباً عن باله تماماً.. أنت يا سيدي لا تحاول أن تقاطعني.. أرجو أن تترك لي، أن تتركوا لي كلكم، الوقت الكافي لكي أقول كل شيء.. تطلب مني أن أوجز.. ولماذا الايجاز يا سيدي، ما فائدته؟ أنا أريد أن أنفض عن صدري كل ما كتمته حتى الآن.. وسيريحني هذا.. لقد تعبت جداً.. وآن لي أن أرتاح.. والبوح راحة كبيرة أيها السادة... اسمي كما قلنا محمد مصطفى أبو درويش. مصطفى هو والدي، ودرويش جدي وجد العائلة، كلنا بحارة. ما اشتغل منا أحد في غير البحر. البعض كان ينقل صناديق البرتقال في المراكب الكبيرة إلى السفن الراسية في عرض البحر.. لا يهمه شتاء.. ولا تهمه أنواء.. وبعضهم كان، في الصيف، يتلهى بصيد السمك.

أنا نفسي كنت أنقل صناديق البرتقال في الشتاء.. وأصيد السمك في الصيف.. البرتقال حمولة وراء حمولة.. عشرات.. مئات.. ألوف الصناديق.. وصراع مع البحر.. في وجه الأنواء.. وصراع أشد مع الريح.. الريح غادرة، أيها السادة، توهمك لحظة أنها ركدت وهدأت.. ثم تغافلك فتهب.. وتهب.. كأن بها مساً من جنون، تلويك من هنا، وتلويك من هناك.. تريد أن تقتلعك.. ولكنك تثبت قدميك.. وتركزهما بعزم في قاع المركب.. وتشد ذراعيك على المجذافين الغائصين في الماء.. وتدفع بصدرك إلى الأمام وتصيح صيحة واحدة؟ (يا محمد) فتحس أن المركب غدا خفيفاً منساباً، دون مشقة، وأن الريح همدت والموج تراجع ليدعك تمر بسلام...

وفي الصيف يرتاح البحر. يرتاح من صراع مرير، طويل. فتنبسط صفحته ملساء كالحرير الأزرق، حتى الأفق البعيد.. لا يكاد يتململ.. وكان يتاح لنا إذ ذاك أن نصيد السمك الكثير بشباكنا.. أخي يساعدني، وابن عمي يطبخ لنا العدس بالأرز ويتوجه بالبصل المفروم المحمر بالسمن.. لنروح نتناوله تحت نجوم السماء المتلاحمة التي لا نهاية لها كأنها ذرات رمل الشاطىء... ذاك البحر العنيد الثائر مرة، الهادىء الساكن المطاوع مرة.. هو بحرنا.. بحر يافا الذي كان يغدق عليها الرزق الكثير.. الواحد لا يستطيع أن ينسى بلده.. ولا يستطيع أن ينسى بحره.. وسأموت وأظل أرى دارنا هناك.. دارنا، هي الأخرى، تواجه البحر.. وهي قريبة من الشاطىء.. على مرمى حجر منه.. في دارنا، هناك، غرفتان، وفراش نظيف كان يطوى نهاراً في أحد الأركان، ويفرش ليلاً للنوم.. وحصير ممدود في كل غرفة.. ومطارح طرية للجلوس عليها، وأباريق وأكواب منقوشة بماء الذهب. ومحفوظة للضيوف، يشربون منها عصير البرتقال أو الليمون.. ولدارنا ساحة سماوية مكنوسة، مرشوشة دائماً، وفي ناحية منها شباكنا.. هذه الشباك كنت دائماً أجلس القرفصاء لاصلاح فتوقها.. تقيني من الشمس ياسمينة كانت تملأ دارنا شذاً فواحاً.. وفي ناحية أخرى ثلاث شجرات

ليمون.. ما انقطع عطاؤها أبداً.. وفي أوقات الفراغ والراحة كان يحلو لي أن أجلس على كرسي صغير، سطحه قش مجدول، من صنع أولاد بلدنا، وأروح أشرب فنجان القهوة متمهلاً.. متذوقاً، وأدخن سيكارة.. وبصري عالق بالبحر أمامي.. ونفحات من زهر الياسمين والليمون تعطر الجو.. في أثناء تلك الجلسة كنت أتذكر أشياء وأشياء.. وكان يبدو لي أنني مرتبط بالبحر، وبمراكبه، وأنوائه وموجه، وبلياليه التي تحس فيها أنك وحيد، ومنقطع عن الدنيا، وعن الناس، لا سند لك من أحد غير الله.. لا تدري مصيرك ولا تملك من أمرك شيئاً.. ومع ذلك لا يعتريك ضعف فقد أسلمت أمرك لله وحده، وهو يقويك، ويأخذ بيدك، ويدفع عنك الشر وينصرك.. لا إله إلا هو.. ارتباطي بالبحر كان هو حياتي كلها.. أهواله نفسه كانت كأنها أعياد قلبي.. لأنها دوماً انتصار على المجهول، على الأقوى، وعودة سالمة، غانمة، إلى البيت.. إلى الأم الصابرة، والأخوات المنتظرات.. وما أذكر أمي إلا قائمة تصلي لله وتبسط كفيها بالدعاء لي.. وما أذكر اخواتي الثلاث إلا قلقات متوجسات لغيابي.. ولا يكدن يلمحنني وأنا عائد إليهن موفور الرزق حتى تبتسم لي وجوههن كلها ابتسامات من القلب.. لن أنسى هاتيك الابتسامات.. لن أنساها أبداً.. فقد كانت تؤنس وحشتي وتملأ قلبي فرحاً، وحناناً وضياء.. كنت أحس كأنني أذوب من الانعطاف.. وكانت دموع الفرح تترقرق في عيني إذ ذاك.. ولهذا قصة سأرويها في حينها أيها السادة.. في أمثال تلك الجلسة كنت أذكر أشياء وأشياء.. وأجد انني أشد تعلقاً ببلدي وحباً له، حتى أبي وجدي يرقدان في تلك المقبرة المطلة على البحر فوق التل العالي.. وهما قد أورثاني دارنا الصغيرة وياسمينتها، وشجرات الليمون الثلاث ومركب نقل البرتقال العتيق، وزورق الصيد، وكوماً كبيراً من شباكهما... عملية استمرار كما ترون، أيها السادة، وديمومة، ولا ينفك العيش حلواً، والحياة صافية، ونعمة الله باقية.. كانت شباكنا في الصيف تمتلىء سمكاً، نعود به مثقلين بعد غياب يومين أو ثلاثة.. سمك كثير ذو ألوان وأشكال، بعضه كأنه

مصنوع من الفضة الخالصة، أو الفضة المموهة بالذهب، وبعضه مستطيل رشيق، وغيره عريض، أعرض من كفي الاثنتين.. نطرح الشباك وننتظر.. وتغوص الشباك في الماء بفضل قطع الرصاص المعلقة بها..

هذا الانتظار تعلمنا منه الصبر.. والحياة بدون صبر واتكال على الله كيف يمكن أن تكون؟ كنت أروح أدخن سيكارة وراء سيكارة، ويدي تتحسس الشباك من حين إلى حين، فإذا أحسست بارتعاشة خفيفة.. أيقنت أنها أخذت تمتلىء برزقها.. وتمضي الساعات طويلة، طويلة، ويداخلني شعور عميق بأني بعض هذا الوجود، بعض هذا الماء وتلك السماء، بعض رمال الشاطىء الحريرية.. ويتراءى لي أن لكياني كله جذوراً تضرب بعيداً في أعماق تربة بلادي، منذ خلق الله الكون.. وكنت أحس في قرارة نفسي أنني شبيه بشجرة البرتقال إذا اقتلعت من منبتها ماتت.

وبرتقالنا أيها السادة عطاء من السماء، و«بياراتنا» جنات ملتفة ذات أفياء وظلال وثمر هو كرات من الذهب. ما من بلد في الدنيا، مثل بلدي يافا، يظل ينفح بالعطر والطيب من مغارس البرتقال أيام الربيع ولياليه الملاح الزاهرات.. أروني أيها السادة، بلداً واحداً في الدنيا يهب أهله العطر والطيب والذهب بلا حساب...

أنا رجل بسيط من أبناء يافا. وما كنت أسأل الله، وأنا خاشع مع الخاشعين في المسجد الكبير، إلا أن يديم علينا نعمته.. وأن يرزقنا من حيث لا نحتسب.. وكانت لي آمال، أيها السادة، أن أتزوج بنت الحلال.. ويكون لي خلف صالح يعمل في البحر مثلي، ويرث دارنا العتيقة، ويأتي يوم يستظل فيه بالياسمينة المعروشة، ويصلح شباك الصيد ويملأ رئتيه بعطر شجرات الليمون.. ويحمل البرتقالة بين راحتيه مزهواً بها كأنها كنز العالم... اي... يـ.. يه.. لقد حصل ما حصل بعد ذلك.. أقول لكم الحق فقد ذهلت في أول الأمر.. كيف كنت أدري أن

هذا كله سيقع؟ مرات كثيرة. من قبل، كنا ندحر الواغلين... أما في هذه المرة فكأنما تألبت علينا الدنيا كلها.. أي نعم الدنيا كلها أيها السادة... هكذا خيل إلي.. ماذا كنت أستطيع أن أفعل؟.. وماذا كان يستطيع أخي أن يفعل؟ لسنا نملك غير حياتنا.. وسواعدنا.. وقوة قلوبنا.. ويافا الحبيبة تستحق أكثر من هذا.. ما قيمة الانسان بدون أرضه.. بدون بحره.. بدون بياراته.. بدون تربته الخيرة.. بدون أحبائه؟.. وكنا ننفذ الأوامر - نضرب رصاصاً ونبث ألغاماً ونجازف حتى وراء حدود تل أبيب.. الواحد كان يضع روحه على كفه.. في لحظات الاغفاء القليلة كنت أتمدد ويدي على البندقية تحت شجرة البرتقال.. وأغفو.. فأراني أقاتل وأضرب بالرصاص، أو أتسلل لبث لغم.. مرة واحدة حلمت انني تزوجت فعلاً.. وفجأة امتلأ قلبي بالفرح، فرح لا يمكن أن يتصوره العقل.. ثم اكتأبت، فجأة، بدون سبب.. وعلى الاثر رأيتني في مركبي الذي أنقل فيه البرتقال.. والبحر جبال وأشداق مفغورة.. وعبثاً حاولت النجاة، فقد ارتطم المركب بصخرة كبيرة فتحطم، ووجدتني في الماء يتقاذفني موجه في كل اتجاه.. لقد أشرفت على الغرق، وليس ثمة أحد على الاطلاق ليأخذ بيدي.. وأفقت مذعوراً.. وتناولت بندقيتي على عجل.. وانتصبت واقفاً وأنا ألهث.. ومنذ ذلك اليوم لم أعد أراني إلا كمن يغرق.. يضرب الموج بساعديه.. ويضرب.. بلا فائدة.. بل هو يغوص في الماء المالح ويعب منه.. ثم يطفو برأسه يطلب نسمة هواء.. ويعود يصارع الأشداق المفغورة.. ويوم نسف الأعداء «السراي» في قلب يافا فقد أخي ذراعه اليمنى.. ضاعت ذراعه في كوم من الأشلاء.. أشلاء المساكين الذين كانوا يقيمون في السراي التركية القديمة بعد أن نزحوا من أطراف البلد.. وعن الحدود المتاخمة لليهود. كان أخي أحمد ساعة الانفجار المروع.. يمر قرب السراي.. اقتلع الانفجار السراي القديمة ودكها فوق رؤوس ساكنيها.. واقتلع كذلك ذراع أخي.. استأصلها من الكتف.. وكتب له أن يعيش بدون ذراع.. تسألونني أين هو؟ انه هنا، أيها السادة، يبيع خضراً وفاكهة فوق عربة يد.. ولكنه في الشتاء لا يبيع

غير البرتقال.. انه، دون سائر الباعة يغسله وينظفه، حتى تتألق البرتقالة كالذهب الخالص.. وأمي أبعدتها، أخذتها بنفسي عند أخوال لي في اللد.. باختصار ماتت هناك من الهم والكمد.. واحدى أخواتي - نفيسة - بقرت بطنها شظية قنبلة مما كان يرمينا به اليهود.. وأخت غيرها -سكينة- كانت قد تزوجت ونزحت مع زوجها.. ولا أعرف اليوم تحت أي سماء هي.. الأخت الثالثة - مديحة - وهي صغراهن تعيش معي في المخيم.. نسيت أن أقول لكم أنني تزوجت بصورة ما، زواجاً بائساً كحالنا الآن.. ولي اليوم ولدان.. يعرفان كل شبر في يافا التي لم يرياها أبداً.. حديثي كله لهما عن يافا وشوارعها، وحاراتها وبحرها وبرتقالها، وتجارتها، وعن دارنا.. وياسمينتنا،.. وشجرات الليمون الثلاث، وشباكنا المكومة في ركن الساحة السماوية.. ان سؤالهما الذي يوجهانه إلي دائماً وفي عيونهما الشوق الملح هو: متى نعود؟ وأنا بدوري أحيل سؤالهما إليكم أيها السادة: متى نعود؟

لست أحب أن أبدو أمامكم بطلاً.. إنما كما قلت لكم رجل بسيط.. وأعتقد أن كل واحد فعل مثلي وأكثر.. كل واحد كان لا يتردد أن يفدي بلده بروحه كل لحظة.. كل واحد كان يحب يافا.. وبحرها.. وشاطئها.. وبرتقالها.. وداره العتيقة هناك. غيري لاقى حتفه وهو يدافع ويقاتل.. قافلة الشهداء أولئك لم يكتب لي أن أكون منهم.. سوف لا أروي لكم كيف خرجنا.. انكم تعرفون ذلك تماماً.. ولكننا كنا نظنها أياماً وتنقضي.. فإذا هي أعوام طوال.. طوال.. كيف عشت.. ماذا فعلت؟؟ انني أحمل بطاقة ورقماً.. بطاقة من مليون.. ورقماً من مليون.. ذرة تائهة لا تملك شيئاً.. وليس لها دار عتيقة، ولا فراش مطوي في النهار.. مفروش في الليل.. ولا أكواب وأباريق من بلور منقوش بماء الذهب، ولا ياسمينة معروشة، ولا شجرات ليمون.. ولا مركب لنقل البرتقال.. وزورق للصيد..

مرة طلبني أحد الفنادق لكي أستقبل السياح على بابه وكان الشرط الوحيد أن أرتدي الشروال الفضفاض، وألف حول خصري الشملة الحريرية القرنفلية اللون، وأميل طربوشي إلى اليمين فقبلت ومارست هذا العمل مدة كنت فيها بحاراً على باب فندق.. تصوروا هذا، أيها السادة، كانت مهزلة دفعتني إليها الحاجة.. كنت أحس طيلة الوقت انني معروض هناك للفرجة. عجائز السياح كن يتأملنني.. ويصعدن بي أبصارهن وبعضهن كن يعجبن.. وأخريات يبتسمن.. وغيرهن يمضين وقد علقت عيونهن بالشملة الحريرية الزاهية.. واحدة، مرة، تحسستها بيدها وسألتني من أين تستطيع أن تحصل على شملة مثلها.. الحقيقة انني قرفت.. بحار على باب فندق.. مخلوق مقطوع.. منبت.. أضاع مركبه وشباكه.. اعتصرت قلبي المرارة.. وأحسست بالتمزق فعفت العمل.. وتبطلت مدة.. ثم جعلت أبيع بيضاً وكعكاً مرة، وعملت ساقياً في قهوة مرة، وطراشاً، ودهاناً، إذا لزم الأمر.. المهم أن نجد لقمة العيش.. الفول الأسود، والدقيق الرديء افترسا أحشاءنا..

تسألونني، لماذا أنا الآن أمامكم.. لماذا أروي لكم حكايتي..؟

بالأمس ذهبت إلى قلقيلية.. كي أشتري بعضاً من فسائل شجر الليمون الشهري الذي لا ينقطع عطاؤه في صيف أو شتاء.. إنني أبيع هذه الفسائل، في هذه الأيام، لمن يطلبها هنا، ليغرس بعضها في حديقة منزله البديع.. بالأمس، أيها السادة، ضحكت وبكيت.. وقبلت تراب قلقيلية.. لما أقبلت عليها في سيارة النقل رأيت الشجر الوريق يمتد حتى ليكاد يسد الأفق.. انه شجر البرتقال وفروعه المثقلة.. شجر كثير متلاصق، ملتف، يملأ السهل كله.. بعضه القليل لأهالي قلقيلية وسائره، حتى الأفق الغربي، في أرضنا المحتلة وشاهدت البحر غير بعيد.. وراوحت جبيني أنسام حلوة، ولا أدري هل سكرت أم صحوت أم حلمت.. انها أنسام يافا.. فضحكت، وابتهجت وأحسست انني خفيف..

نشيط.. مرح.. كنت كالطفل العائد إلى أحضان أمه يرتمي على صدرها ويستسلم لعناقها بعد طول الغياب.. بعد التعب.. بعد الضياع.. كانت لحظة.. ساعة.. أكثر.. أقل.. ثم صحوت بعدها.. فبكيت.. يافا هناك.. أستطيع أن أصل إليها مشياً على قدمي.. وهمت على وجهي في أرجاء قلقيلية بين مغارس برتقالها.. انها هي تربة بلدي وها هي قد أنبتت شجر البرتقال في كل اتجاه.. في قلقيلية لم يتركوا شبراً دون أن يغرسوا فيه الشجر الذي يحمل كرات الذهب.. حتى الصخر حملوا إليه التربة السخية.. وغرسوا فيها الشجر.. فنما.. وعاش.. وأينع.. وأغدق خيره.. أبناء بلادي، سواعدهم مفتولة.. وهمتهم عالية.. انهم يستنبتون الصخر بارادة راسخة في صدورهم، هذه الارادة لم تمت أبداً.. وهذا العزم ما وهن اطلاقاً، تلك الوجوه السمر التي لوحتها الشمس لا تزال تبرق فيها العيون السود التي لا تعترف بالهزيمة.. وتظل تحاول وتحاول وتفعل المستحيل حتى يكتب لها النجاح.. وما أكثر ما ترويه عيونهم.. انها تروي حكايات من ليالي الهموم والأرق والعذاب والصبر.. وتروي قصص أفراح قديمة لا تزال لها أصداء وأغاريد في قلوبهم.. وتتحدث عن أشواق لهم.. ولهفة في نفوسهم.. وتنطق بلوعة الانتظار.. بالأمس رأيت، أيها السادة، مدينتي على مرمى البصر.. وشممت رائحتها.. إن لها رائحة خاصة أستطيع أن أميزها بين روائح المدن كلها... هل هي مزيج من لهاث البحر.. وعبير البرتقال.. وأنفاس أهليها.. وأنسام جوها وتربتها وتاريخ أفراحها.... وجراحاتها.. لا أدري إلا أن لها هذه الرائحة الفريدة.. وقفة واحدة على شاطئها أملأ صدري برائحتها.. وأموت بعدها قرير العين...

أيها السادة قلت لكم في أول قصتي أنني أستطيع أن أفل الحديد، وأن في يدي هاتين قوة عشرة رجال.. إنها البقية الباقية من شبابي الذي ذهب.. وفي صدري نار لا تنطفىء على الأيام.. ولي ولدان فتيان يضطرم قلباهما حقداً على الغاصبين.. وأنا أنتظر بل نحن ننتظر أن تقولوا كلمتكم لكي ننطلق كاعصار...

كالأنواء التي تقلب مياه البحر من الأعماق... وتحيلها موجاً هادراً طاغياً، مخيفاً، لا يهدأ حتى يبلغ آخر المدى..

أيها السادة، في عالمنا العربي الواسع، إن في داري غرفتين نظيفتين وياسمينة معروشة وشجرات ليمون وشباكاً مكومة... وان حنيني لا ينقطع، بل لقد أضواني الحنين إلى جلسة هنيهة على الكرسي الصغير المجدول سطحه من القش... جلسة تحت الياسمينة وبصري عالق بالبحر... ألف بيدي سيكارة عربية، ثم أدخنها وأشرب القهوة العطرة، وأشعر أخيراً أنني ارتحت بعد الصراع، وأن كل الأهوال ما كانت إلا حلماً.. مجرد حلم من الأحلام.

كتبت سنة ١٩٦٤

ماذا حدث للأطفال؟

أشياء كثيرة كان يرجنها إلى أيام العيد: الملابس الجديدة للأولاد، الحلوى من كنافة مبرومة وبقلاوة ذات رقائق محشوة بالفستق الحلبي، الدجاجات المحمرة أو ضلع الخروف الطري، الاجاص الكبير الذي يذوب في الفم ويتسايل رحيقه بين الأشداق... كان يقول وعيون أطفاله تبرق إذ يتحدث:

- العيد قريب يا أولاد... العيد قريب...

وتقول ابنته آمنة التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها:

- أريد فستاناً

ويجيبها وعلى فمه ابتسامة عريضة:

- فستان أخضر من حرير... وأيضاً حذاء جميل.

ويقول ابنه محمد وهو في السابعة:

- وأنا أريد بدلة جديدة

- طبعاً.. بدلة وحذاء... وطربوش لرأسك الصغير...

ويصفق الأطفال ويتصايحون مرحين ويندفعون نحو والدهم ويتسابقون إلى

تقبيل رأسه... وهكذا كان هو يوزع هداياه قبل أن يشتريها للبنات والصبيان، ومن تحت شاربه ترف ابتسامة المحبة والحنان.

وما جاء عيد قط إلا واستطاع أبو محمد أن يفي بوعوده كلها. كان يدخل البيت متأبطاً الفساتين، والبدلات، والأحذية، والقمصان لصغاره، وقطعة ذهبية براقة لأم محمد زوجته، يهديها مرة خاتماً، ومرة سواراً رفيعاً من الذهب الخالص، وحيناً قرطاً يزين أذنها ويلتصق بها على شكل زهرة صغيرة.. وكان يحس أن البيت يستضيء فجأة بأنوار ساطعة غير مرئية، وتشيع فيه روائح الجنة... وكان مرح صغاره وكانت ضحكاتهم كأنها زقزقة عصافير تلك الجنة... أيام حلوة ما كان أشهاها. وكان يعلم أن العيد لأولئك الصغار حقاً، وأن المائدة الحافلة باللحم والأرز والحلوى هي لهم أولاً. وكان أبو محمد يؤمن بأن العيد جنة الأطفال، ولذلك كان هو نفسه يأخذ بأيدي صغاره ويذهب بهم - صباح يوم العيد - إلى شاطىء العجمي أو شاطيء المنشية لكي يراهم يتأرجحون ويتصايحون إذ تعلو الأرجوحة وتهبط وهم وقوف عليها، متشبثون بحبالها المتينة، مفتونة قلوبهم بعلوها وهبوطها، منتشية صدورهم بهذا الهواء الذي يلامس وجوههم ويتخلل ثيابهم كأنه أنفاس ملائكة غير منظورة كل همها أن ترعش الأبدان الصغيرة رعشة الفرح والسعادة الغامرة... في هذه الأثناء كان أبو محمد يرسل بصره مرة بعد مرة، على امتداد الشاطيء فلا تقع عينه، من ملابس الأطفال في العيد، إلا على ما يشبه سهلاً منبسطاً تزاحم فيه النبت والزهر مختلف الشكول والألوان وقد تداخل الأحمر بالأصفر بالأخضر بالأزرق ورفت حواشي هاتيك الألوان رفيف الورود ابان ازدهارها الربيعي المونق.. وكانت صيحات الفرح تملأ قلبه غبطة ومسرة، ونداء الباعة والتفاف الأطفال حولهم يشترون الحلاوة السمسمية أو يحشون جيوبهم بالفستق والقضامة وأنواع الملبس وصنوف الحلقوم. كان هذا كله يضاعف فرحته حتى تبلغ ذروة الاحساس بالسعادة فيرتد به الخيال بأسرع من ارتعاشة هدب، إلى طفولته، كان هو الآخر في يوم بعيد، صبياً صغيراً، وكان

العيد هو الحلم الذي يداعب خياله... كهؤلاء الأطفال، أطفاله وأطفال الآخرين. وقد كانت دائماً هذه الأراجيح، مغروسة في الرمال كمخلوقات خرافية، هي نفسها كأنها لم تتغير ولم تتبدل.. وهذه الملابس القزحية الزاهية، وأولئك الباعة وما يحملون من المغريات... وشعر كأنما الأرجوحة تطير به صاعدة في أعالي الجو ثم تهوي ويهوي قلبه معها.. وتطير به مرة أخرى مستجيبة لفرحته.. وتعود تهوي ولكنه سرعان ما يستفيق من حلم لحظة عابرة... ويضحك ملء فمه، ويمسك بأرجوحة صغاره ويدفعها بكل عزمه إلى الأمام فتطير محلقة ويتصايح الصغار، ويحس هو أنه في جنة الأطفال حقاً...

في تلك الأيام كان أبو محمد معلم برتقال. كان هو المهيمن على «الورشة» كلها: يلاحظ كل شيء منذ أن تمتد الأيدي لقطف البرتقال من أعرافه في سلال مبطنة بالخيش إلى أن يلف بالورق الناعم الشفاف الملون بأصابيغ مطبوعة ويوضع في صناديق الشحن. وقد كان هو الذي يميز بعينه الخبيرة ويده الحاذقة بين ما يجب أن يعد للشحن وما ينبغي أن يدفع للبيع في الأسواق المحلية. وكان يقبض جمعيته صباح يوم الجمعة من كل أسبوع. في أيام الخير كانت تملأ كفه عشرة جنيهات على الأقل، ويمر بالأسواق ومعه الحمال ويقف عند صديقه اللحام «أبو اسماعيل»:

- هات هذه الفخذة السمينة يا أبو اسماعيل...

وعند أبو خميس بائع الفاكهة:

- رطل اجاص اميركاني.. وموز.. وشوية تفاح... تسلم ايدك...

وعند بائع الخضر يشتري البطاطا النظيفة، والبندورة البلدية، والباذنجان الأسود اللماع، والكوسا الرشيق... وتظل حبة البندورة تملأ خياله: كبيرة حمراء

متوهجة، ناضجة تماماً، ومستديرة هكذا تملأ راحة اليد تماماً كأنها برتقالة شموطية... ويذهب الحمال بالسل الكبير طافحاً بالخيرات وتتلقاه أم محمد فرحة مزهوة، وتحدث نفسها بأنها ستصنع للرجل الطيب الذي يتعب كثيراً، كل ما يشتهيه ويحبه الصغار مما يقلى أو يشوى أو يحمر ويدفن في الأرز أو تصنع منه الطواجن المنداة بالسمن البلدي، ذات البهارات التي يتحلب لها الريق إذ تعبق رائحتها الشهية في أرجاء الدار.

هكذا كانت الدنيا: رخاء، وصفواً ورضى... وهكذا كانت الأعياد.. أفراحاً وأغاريد. وما كان أبو محمد ليطلب من الله غير الستر ودوام العافية: أنت كريم يا رب، أدم علينا نعمتك يا أرحم الراحمين...

أجل. كان الحياة نعمى... أما اليوم... أما اليوم فهي بلوى... لم تبق له غير ذكريات، ذكريات البرتقال والبيارات الوارفة، والمياه الغدقة، والشواطيء المتألقة... وقد كان هو «الريس» وكان سيد من لف شمله قرنفلية زاهية حول خصره وأنق من ارتدى «الشروال» الجوخ يخب فيه خباً وينفضه بين ساقيه برشاقة واعتداد من حين لآخر، وما كان أبرعه إذ يميل طربوشه إلى جانب ويبرم شاربيه حتى تصبح لهما ذؤابتان دقيقتان مشرئبتان، ويروح يخطو مزهواً، شاعراً أتم شعور بأهميته وبصيته الذي كان يعرفه تجار البرتقال كلهم... إنها ذكريات، مجرد ذكريات، لا يدري أهي حلوة أم مرة، وإنما تتراءى له غائمة مهزوزة من فرط الالتياع...

وها هي أم محمد قد شاخت، وجف عودها، وتيبست أطرافها، وضعف بصرها، وقد باعت كل حليها، كل هداياه إليها... الأساور، الخواتم، الأقراط... كلها باعتها قطعة قطعة في سبيل كسرة الخبز... يا لله... ما كان هذا ليخطر لهم حتى في كوابيس الأحلام... ولقد تفرق الأبناء والبنات تحت كل نجم، كبروا جميعاً... كبروا في الظلال السوداء... ظلال المخيمات... وهو قد انحنى ظهره،

وتقوست قامته، وأصابت يديه الحاذقتين رعشة دائمة... بقي ابنه الكبير محمد يبيع البرتقال على عربة يد، ويبيع الخس، والبطيخ، ويتصبب عرقاً، وتتشقق قدماه من التعب والشقاء كل يوم، ولا يدري كيف يأتي باللقمة لأطفاله... وعندما يزور والديه يجلس القرفصاء، شارد الفكر، مشدود البصر إلى الأفق البعيد، ويهمس لنفسه كمن يحلم:

- ترى متى نعود ؟

ويجيب والده بتأوه:

- سنعود

- ولكن متى؟

- عندما يشاء الله

- ومتى سيشاء الله؟

- يوم تصفو قلوبنا يا بني...

وقد أقبل العيد ذات صباح، وامتلأت الآفاق ضياء، وجاء محمد ومعه أطفاله، وقد ارتدوا المرقعات وقبلوا يدي جدهم وجدتهم العجوز. ورفع الجد إليهم عينين خابيتين، وابتسم لهم وأدناهم منه، ومسح براحة يده على رؤوسهم، ثم راح يتشممهم ويقبل وجناتهم ويقول:

- سأحكي لكم حكاية... حكاية من أيام زمان...

والتصق به الأطفال وعاد هو يقول:

- كان يا ما كان، كان هناك أرض فيها بيارات، وكان الشجر في تلك البيارات تتدلى منه دائماً عناقيد الضياء في قوارير الذهب... وكان هناك رجل يسمونه «الريس» هو وحده المسؤول عن تلك القناديل المعلقة...

وكان لهذا الرجل أطفال مثلكم... وكان الأطفال إذا جاء العيد... إذا جاء العيد...

ويجهش أبو محمد في البكاء...

ولكن أحفاده يتصايحون من حوله متلهفين لسماع بقية الحكاية:

- قل... قل... ماذا حدث للأطفال؟

الرصاصة الأخيرة

«كان لا بد من هزة كبيرة، بل هي الرجة الشاملة من الرأس في القدم لكي نصحو من نوم القرون...» هكذا كان يتحدث ذلك الرجل، لا أدري أين رأيته، أتراني رأيته فعلاً؟ هؤلاء الناس يتشابهون، البدلة الثمينة الجديدة، ربطة العنق المحكمة، القميص الأبيض الناصع، الشعر الممشوط بعناية، المشية المتزنة، والكلمات التي تقال باتئاد... تخرج بطيئة مع دخان السيكارة في الهواء.. دائماً هذه الكلمات تقال للصحاب والجلساء في رحاب فندق كبير أو مقهى أنيق... والآخرون أيضاً ينفخون مع سكائرهم كلمات... كلمات... كان هذا متوقعاً... كل شيء كان ينذر بـ... النكسة... الكارثة... النكبة... كلمات كلمات... ومعها أحياناً ابتسامات ما أغربها. لا أستطيع أن أفهم كل شيء. وهذه الكلمات تذهلني وأكثر منها الابتسامات... عاد الرجل يقول بوقار: - كان لا بد من هزة... بل رجة.. لكي... وكنت قد حملت صينية المشروب والكؤوس الفارغة فوقها... وكان لا بد أن أدير ظهري وأمشي... هم متابهون، في شرفات وأبهاء الفنادق هنا في عمان، وهناك في القدس يوم كانت القدس لنا.. «يجب أن أكون سعيداً». - هكذا قيل لي.. قالها رجل من أولئك. ربما كان في الخمسين أو دونها أو فوقها، من الصعب أن يميز الانسان أعمارهم وإنما هي البدلة الجيدة دائماً، وربطة العنق الثمينة، والشعر الممشوط، وتلك الكلمات.. والابتسامات.. وهزة الرأس أحياناً.. يجب أن أكون سعيداً، لماذا؟ قال بهدوء وهو يشعر بأهميته وحكمته:

- من حسن حظك أنك وجدت عملاً بعد أن نزحت..

ثقوا أنه رجل طيب، وقور، يقول كلمات من ذهب ولا ريب. ولكن لماذا يجب أن أكون سعيداً؟ ألأني فقدت بيتي هناك... في القدس.. كنت أحب حاكورة ذلك البيت. هي والبيت ملكي. ورثتها عن أبي، وأبي عن جدي.. وجدي عن أبيه وجده... كانت أمي تزرع الحاكورة، كانت تسخو بأيامها القليلة المتبقية لها في الدنيا لذلك البيت الأخضر، ولتلك الزهور الندية. كان بيتنا يضحك دائماً ضحكة مع كل نبتة وزهرة. وكانت أمي العجوز الطيبة تضحك هي الأخرى في جلستها عصر كل يوم في طرف الحاكورة وأنبوب الأركيلة في فمها وماؤها يتقلب ويقرقر وتصعد أوراق الورد فيه وتهبط مع كل نفس... تضحك أمي، وأضحك أنا ويضحك أبنائي، ويضحك البيت كله. أحد هؤلاء الأبناء - أحمد - قتلته شظية قنبلة هناك على حافة الحاكورة لما دخل اليهود القدس. وعندما نزحنا لم يكن أحمد معنا. كان قد مات ودفن بسرعة كأنه شيء محظور.. ولم تكن أمي معنا.. ماتت قبل أن ترى كل ما حدث... قبل أن يذهب البيت والحاكورة... عملت طويلاً خادماً في المقاهي، مقاهي القدس، وحاراتها وأزقتها ودروبها الكثيرة الصاعدة والهابطة. كنت أصعد درج حارة النصارى وأهبط منه كل يوم مرات، وأرى دائماً رهباناً وراهبات وأسمع قرع النواقيس... في أحيان كثيرة كان جيبي يطفح بالقروش، هبات الزبائن، ومع الأيام غدوت، «غرسوناً» في الفنادق. مرة في «الاوريانت» مرة في «الامبسادور» ومرة في «الوطني»... وبقيت أرى أولئك السادة وأسمع الكلمات المصنوعة من ذهب، وأقدم الطلبات وأرجع بالكؤوس الفارغة تماماً.... كان الفراغ صورة حية أكاد ألمسها بيدي.... كيف تراني تركت مدينتي؟ من يصدق اني كنت سأفعل هذا؟ كان يخيل إلي دائماً كأنني حجر قديم في أسوارها. كان دكان أبي صغيراً جداً، ضيقاً جداً، لا يكاد يتسع إلا له ولبسطته التي تحمل خضراً وفاكهة... وسلة بيض في ركن من الدكان دائماً... كان يعتز، رحمه الله، بأنه يبيع بيضاً طازجاً كبير الحجم ليس

كمثله بيض... ومن الدكان الصغير الضيق كنت تستطيع أن تسير يساراً فتجد دكاكين أخرى كدكان أبي وبسطات وسلات بيض، ثم تجد دكاكين النحاسين والمنجدين، وبعدها سوق السقط حيث تباع الأطرافِ والكرش والرؤوس والطحال والمعاليق... يوم كان يعود أبي بعد الغروب ومعه رأس وأطراف كنت أنط من الفرح وأروح أتخيل سلفاً بركة صغيرة من مرق ولحم، تلك «الفتة» ما كان أحلاها وأشهاها حتى لكنت أمصمص أصابعي بعدها وأتلمظ طويلاً.. أما عن يمين الدكان فبضع خطوات كافية لتجد نفسك وسط الطريق الرحب الذي يفضي من باب صغير واطيء إلى ساحة كنيسة القيامة. وفي هذا الطريق يمر أكثر السياح، ويشترون أشياء للذكرى، مسابح وأيقونات، وصلباناً، وقوافل جمال صغيرة، وكتباً مقدسة مغلفة بالصدف، وأشياء كثيرة مصنوعة في القدس وبيت لحم من خشب الزيتون والصدف، والفضة أحياناً... كم مرة كنت أهم أن أروي لأولئك السادة كيف أنفقت طفولتي في حارات القدس ودروبها وأزقتها جافاً، مشعث الشعر، أرتدي قمبازاً مهلهلاً أو قميص نوم فقد لونه... كم مرة كنت أهم أن أضع الكؤوس الفارغة تماماً في ناحية لاذكر لهم ما كنت أحسه في تلك الرحاب، رحاب المسجد الأقصى، وبرك الماء هناك ونوافيره، وقبة الصخرة العالية، وأصداء تلاوة القرآن، وتسابيح المصلين، وأذان المؤذنين وتراتيل المرتلين في القيامة والشموع المضاءة، وقرع النواقيس، وجموع الزوار والسياح من كل لون وجنس... كم أحببت أن أحدثهم عن رفاقي صبية القدس: - محمود، ويوسف، وعلي، وصالح... وعن لعبنا، وركضنا، ومرحنا، وصخبنا، واحساسنا بأن القدس بقبابها، ومآذنها، ومساجدها، وكنائسها، ودورها، وأزقتها، ودروبها، وأسوارها هي ملكنا، هي دارنا.. وفي كل مرة كنت أرتد واجماً متهيباً... كانت كلماتهم التي ينفخونها مع دخان سكائرهم تلجمني، تقطع علي الطريق إلى قلوبهم... فأستدير يائساً، وأعود بالكؤوس الفارغة، الفارغة تماماً... قال ذلك الرجل يجب أن أكون سعيداً... مرة واحدة جرؤت وقلت له:-

- ولماذا لا أكون سعيداً يا سيدي؟
- لأنك نجوت بنفسك ووجدت عملاً..
- ولكن ابني أحمد مات... قتل هناك...
- ونجوت أنت... هذه سعادة...
- وتركت بيتي والحاكورة والزهر الذي كانت تغرسه أمي
- لا يهم.. سيعود إليك بيتك...
- متى يا سيدي؟
- سيعود يوماً...
- إن شاء الله.. الله يسمع منك...
- كان لا بد من هزة.. من رجة كبيرة لكي...

ولم أقف لأسمع بقية العبارة... مضيت بالكؤوس الفارغة تماماً... واشتهيت أن أروي له حكاية عشتها.... ولكنه لما أخذ يقول تلك الكلمات، وينفخها في الهواء مع دخان سيكارته وجمت، وحبست حكايتي في صدري.. أحببت أن أقول له أن ذلك كان في حزيران الماضي، في يوم كهذا اليوم.. يوم دخل اليهود القدس.. ويومها جاءت شظية من قنبلة قتلت أحمد عند حافة الحاكورة... لا يهم أن أتحدث عن نفسي.. يومها حاربت مع الرفاق ساعات استطعنا أن نقتل بعضهم... ضربنا رصاصاً وقنابل... واجهنا الموت مراراً... ولما تدفقوا بآلاتهم الجهنمية انسحبنا... خلفنا سلاحنا وذخيرتنا... لم يكن في المستطاع أن نواصل القتال... كان قد انتهى الأمر بسرعة، بقي بعض جنودنا في مرابضهم فوق الأسوار، لم يكونوا أكثر من ثلاثة أو أربعة... كنت أحب أن أروي هذه الحكاية لذلك السيد الوقور.. كنت أحب أن أقول له أنني من المكان الذي اختبأت فيه رأيت تلك المعركة.... شاهدها الكثيرون مثلي.. معركة كاملة، رهيبة. كان أبطالها أولئك الفتية من جندنا، صبوا نيرانهم وقنابلهم على الواغلين.. مئة جندي اسرائيلي... قل أكثر.. رأيتهم مذعورين يفر منهم من يفر، ويقتل من

يقـتل، ويبـقى من يبـقى... وتأتيـهم نجدات... ورصاص أولئك الفتـيـة لا ينفك يزمجر، ويصفر، ويقتل... والواغلون يسلطون مدافعهم الرشاشة، وصواريخهم ونارهم كلها على مرابض أولئك الفتـيـة... ويتعـالى صراخ الواغلين وأنينهم... كانوا والله يستغيثون بكلمات من لغتنا... ثلاثة أو أربعة من جندنا أشعلوا نار تلك المعركة الرهيبة... وغسلوا الأرض بدماء الواغلين... وعلى حين غرة شاهدت أحدهم... أحد فتيـتنا يصوب سلاحه إلى رأسه ويطلق رصاصة واحدة تهاوى بعدها ملتصقاً بجدار السور.. وفهمت فوراً... تلك كانت الرصاصة الأخيرة في حوزته ادخرها لهـذه اللحظة... لكي لا يقع حيـاً في أيدي الواغلين... أخفـيت وجهي براحتي الاثنتين وبكيت وأنا أعض أصابعي... بكيت كأني طفل صغير.. لم أبك على أحمد مثلما بكيت في تلك اللحظة.. ايه تلك الساعات لا تنسى... ولما هدأت العاصفة تماماً أدركت ما حدث لكل من زملاء ذلك الفتى الجندي... ربما كانوا من الكرك، من الطفيلة، من جنين، من نابلس، الله أعلم... كانت في حوزة كل منهم رصاصة أخيرة... كنت أحب أن أروي هذه الحكاية لذلك السيد الذي يقول كلمات كبيرة ينفخها مع دخان سيكارته في الهواء ويقول وهو يضع رجلاً فوق رجل ويغوص في مقعده الطري المريح إني يجب أن أكون سعيداً... وأحاول أنا أن أحدثه فتردني كلماته... فأعود أحمل الكؤوس الفارغة، الفارغة تماماً، وألوي قدمي وأمضي...

أصابع في الظلام

لماذا تراه اختار هذا المكان بالذات؟

كان المحل يصلح لكل شيء إلا أن يكون لبيع هذه الأشياء الصغيرة التي يقتنيها الهواة لغرابتها أو لمدلولاتها الأثرية، ويشتريها السياح هدايا لأصدقائهم من بلاد زاروها، وأقاموا فيها طويلاً، أو مروا بها مروراً سريعاً...

فتحت النافذة ذات صباح فوجدته يتنقل في دكانه، وقد خلع سترته، وشمر عن ساعديه، وأخذ ينظم أشياءه، متئد الحركة، بطيء الخطى، متريث اللفتات. كان دكانه، في الناحية المقابلة من ذلك الشارع الضيق، يواجه نافذتي تماماً، وكان لا يستطيع أن يراني إلا إذا تعمد ذلك، ورفع رأسه عالياً، واشرأب بعنقه... فقد كانت الشقة التي أقيم فيها تقع في الطابق الثالث، وما أكثر النوافذ والشرفات في واجهة العمارة... فكيف يسعه أن يدرك أن انساناً ما يراه، ويراقبه، ويترصد حركاته وسكناته في نافذة بعينها من عديد تلك النوافذ؟... وأكثر من هذا: كيف يسعه أن يقرأ أفكار الآخرين الذين يصوبون إليه أنظارهم من فوق؟ قراءة أفكار الآخرين فن، وحنكة، ومهارة، وموهبة لا يتصف بها غير قلة من الأشخاص أنت لا تعرفهم... لا يمكن أن تعرفهم إلا إذا استطعت أن تلتقط ابرة تائهة في كوم كبير من الرمل... أو غائصة في قاع المحيط.. أشخاص معدودون، وتائهون في أنحاء الدنيا كالذرات التي لا تراها العيون... أحدهم يستطيع أن يقرأ أفكارك، ويحدثك عن نفسك، ويروي لك ما كان ويكون

من أمرك.. كأنه يقرأ في كتاب مفتوح.. وبعضهم يستطيع أن يخط لك قدرك.. ويصنع من وجودك حكاية... بل حكايات.. بعضها يتصل ببعض، حتى يوم نهايتك المقدور...

ولذ لي أن أراقبه كل صباح، كل مساء، كل وقت... وماذا تراني أفعل غير هذا؟ انني لا أشكو السأم والملال أبداً.. ويخيل إلي، في أكثر الأحيان، انني أمتلك أصابع دقيقة، خفية، غير منظورة، تمتد بسهولة، بل هي تتسلل تسللاً، برفق، بدهاء، بحذق، فتشد من هنا خيطاً، ومن هناك خيطاً، وتأتي - في الوهم - بمسرح تحرك فوقه الشخوص التي ارتبطت بمجموعة الخيوط الخفية... تحركها في حومة صراعها، في مجال حياتها، وتسوقها إلى مصايرها، وتخلق لها علاقات، وأزمات، وأحزاناً وأفراحاً، وعثرات في الطريق، وتضحكها، وتبكيها، وترتفع ببعضها إلى الذرى العالية، وتضع بعضها الآخر حتى تصل به إلى ما دون الحضيض... وتمرغه في الوحل... ولا تنفك تلهو... وتلهو... إلى ما لا نهاية.. لعبة الحياة شائقة حقاً... وكلما كنت بالغ الحذق في تحريك الخيوط الخفية ازددت متاعاً بما تفعل، وبلغت من اللهو أبعد من مبتغاك... إن أولئك الذين شاهدوا مسرح الدمى يدركون ما أقول...

طاب لي أن أراقبه حقاً، وتحركت أصابعي لتمسك بالخيوط، إنها خيوط من ألف لون، وأصابعي تتبينها من ألوانها، ترى ألوانها، على كثرتها وتعددها واختلاطها، إنها أصابع ترى وتدرك، وتميز ولا تخطيء أبداً... والويل لها إذا أخطأت، فإنها، عندئذ تجعل من الملهاة مأساة، ومن الفاجعة مهزلة... الخطأ الواحد، إذا حدث، سرعان ما يغير مصاير وأقداراً... ولقد يقع الخطأ دون عمد، دون قصد، انه خطأ لا تستطيع أن ترده...

كان يدور في دكانه كل صباح، كل مساء، كل وقت... وينال منه التعب... ويخطر لي، عندئذ، أن أدفع به إلى كرسيه، وراء مكتبه، وسجلاته ودفاتره...

وأجذب الخيط قليلاً فيتجه إلى مكتبه، ويقف قليلاً يقلب كفيه، وينظر هنا وها هنا، ويتردد، ويطول تردده ثم لا يجد أفضل من الجلوس... وابتسم أنا... انه لا يدري أن هناك خيوطاً غير منظورة تتحكم بتصرفاته وحركاته وسكناته... وتجذب الأصابع الدقيقة الماكرة خيطاً آخر... فإذا هو يفكر، ويفكر، ويتذكر، وتتلاعب أصابعي بالخيوط تحرك، وتجذب، وتشد، وترخي، وأروح أشاهد، في تلافيف دماغه حشداً من الشخوص... ويكون، هو، أول من يبدو لعيني المترقبة: انه صبي صغير، يلعب، ويجري في الحارات حافي القدمين، مكشوف الرأس، أشعث أغبر... يشتبك مع الصبية زملائه فيضربونه، ويلوذ هو بالحائط يبكي، ويعمل أصابعه في عينيه، ويستشعر الوحدة... ويكبر الصبي... ويتعلم في مدرسة، ثم في جامعة... ويكون آخر من ينجح دائماً... وكلما حاول أن يبتعد عن الخصومات لاحقته هذه الخصومات وتشبثت بأذياله، وعضته في ذات بدنه... وهو الفتى الوحيد بين أخوات ثلاث.. وأجذب الخيوط دائماً... وأزوج الفتيات الثلاث: احداهن لثري كبير متقبب الكرش، مبروم الشاربين، شعاره في الدنيا: مال، وأكل، وخمر، ونساء، وبعدي الطوفان... والأخرى جعل نصيبها موظفاً لا ينفك يشكو البؤس وظلم الأيام، ويلعن رؤساءه خفية، ويتمسح بأعتابهم علانية ودون حرج... أما الثالثة فتكاد تصبح عانساً، وقد ضاقت بحياتها وضاقت حياتها بها، فوجدت لها، في النهاية كهلاً متصابياً، كان ما يزال يحلم بفاتن لم يشبع منها ولم يرتو... وبقي هو مع والده وأمه العجوزين.. وكان لا بد أن يترهل قليلاً، وأن يتساقط بعض شعره... فجعلت له أصابعي صلعة جميلة تبرق وتسطع إذا انسكبت عليها أنوار المصابيح الكهربائية... ويا للخبيث الماكر، ألست ترى أن له أسلوباً غريباً في اصطياد الغريرات، المفتونات؟ انتظر قليلاً.. أجل... في لحظة عبث جعلت له أصابعي موهبة فذة: قراءة البخت في فناجين القهوة... أنظر إليه كيف يتناول فنجان القهوة، وكيف يديره بين أصابعه، ويدقق النظر فيه، ويفكر، ثم يبتسم.. وهاتيك الفتيات، من حوله، مشوقات لما توشك

أن تنفرج عنه شفتاه الغليظتان: «الحب أعمى، يا فتاتي، يضرب بسهامه فلا تطيش أبداً... إن سهماً منها قد استقر في فؤادك... ولكن حذار... لا تصدقي كل ما يقال.. ستتألمين طويلاً... ولكن السعادة تنتظرك في نهاية المطاف.. إني أرى هذا كله بوضوح... كما أرى عينيك الحلوتين...» وتتضاحك هاتيك الفتيات. ويتواثبن من حوله، ويثرثرن ويصف هو ثرثرتهن بتغريد العصافير.. ويروح يزوم... ويهمهم.. ويلقي نظرات نهمة من فوق النهود... وتقع احداهن في شباكه.. في الشبكة صيد باستمرار... ولذلك طالت أيام عزوبته.. حتى اكتهل... وقد ماتت أمه والحسرات تفري صدرها، وبقي أبوه العجوز يلعنه صباح مساء، ويرميه بالفجور، الا تسمعه يقول له:

- كنت أعلم أنك ستكون فاجراً وخائباً... فقد حبلت بك أمك في ليلة غائرة النجم... وكان الحقد في صدري يتلظى كالجمر.. والنحس يسد في وجهي كل المسالك والدروب...

ويجيبه ابنه وهو يضحك ضحكة عريضة، حتى يستلقي على قفاه:

- أنا بعضك اذن... يا سيدي الوالد المفضال....

ويعود والده يقول:

- أجل.. البعض الشيطاني... لعنة الله عليك...

ويوم مات ذلك الشيخ.. تحركت الخيوط الخفية.. فنفض هو يديه كأنه تخلص من مشكلة عويصة.. وأطلقته أنا بصلعته، وبدانته المترهلة... أطلقته لكي يتردى أكثر فأكثر... ويزداد ترهلاً، وتخاذلاً، وينبت الشيب في عارضيه، وتكثر التجاعيد والغضون في وجهه وحول عينيه، ويتثاقل خطوه.. ويشعر بحاجته إلى امرأة تبقى إلى جانبه.. وما أسرع ما تحركت أصابعي وجذبت خيطاً

فإذا على المسرح امرأة نصف.. لا تدري أهي كهلة أم شابة... أهي جميلة أم دميمة... أهي مخلصة أم خائنة... وأغراه بها مالها فتزوجها.

ليس في وسعك أن ترى كل التفاصيل ولا أستطيع أنا، أن أسير بك وراء خطوة بخطوة، والا سئمت، وأصابني الملال... إن الحكاية التي تروى مرتين تفقد قيمتها، ووقعها، ورونقها... تركته، اذن، مع زوجته مدة... ربما كانت عشرين عاماً، أو أقل، أو أكثر، لقد تشاغلت الخيوط بغيره.. وغيره... ولكن الأصابع الخفية لم تهمله... لم تنسه... كانت تدرك أنه أصبح كمن يسبح في بحر.. تارة يعلو موجه، وتفور مياهه، وتزبد وترغي.. وتارة يهدأ، وتنبسط صفحته الزرقاء كأنها غلالة من حرير لا تكاد تحركها نسمات الربيع الوانية... لقد تاجر... وغامر... وقامر.... وضارب... واغتنى وافتقر. وعاد فأثرى، ثم أصيب بخسائر فادحة.. وترك لزوجته الحبل على الغارب.. وكانت قد أنجبت له ابناً وبنتاً... وكان لا ينفك يقول أن لعنة والده تلاحقه... ويوم ضحك ابنه في وجهه بوقاحة واستخفاف أدرك أن اللعنة أعمق مدى مما يتصور، وأيقن في قرارة نفسه أن التاريخ يعيد نفسه حقاً.

وتعال معي الآن إلى النافذة... قف هكذا إلى جانبي ودعني وحدي أحرك هذه الخيوط... لقد استطاع أخيراً أن يلم شتاته... جمع بقايا مترسبة هنا وهناك... إنها أشبه بفضلات الطعام.. فتح بها هذا الدكان... انظر إليه كيف يروح ويجيء.. خيوطه تحركها أصابعي الدقيقة الحاذقة... لقد طاب لي أن أعذبه عذاباً هادئاً متصلاً... منذ طويل وأنا متلبث هكذا أرقبه وأدفع به فيتقدم... وارده فيتأخر.. وأحيره فيرتبك... وأثير مواجد في قرارة نفسه فيتلهف ويكاد يقتله الشوق.. أترى هذه السائحة الجميلة تدخل دكانه؟ أتراه كيف يحادثها بأنصاف الكلمات والعبارات، ويتلجلج، ويهمهم... ألست تراه مبهوراً، مأخوذاً؟ سيتساهل معها.. سيعطيها ما تشاء... وسيستجدي ابتسامة منها... انها

خطوة في ضياعه الأخير، سيلجأ الآن إلى حيلته القديمة... يسقيها فنجان قهوة تركية... ها هو قد أتى لها بفنجان القهوة.. وهي تبتسم ثم تضحك لأنه يقول لها انه ماهر في قراءة البخت في فنجان القهوة.. ها هي تقبل عليه... المرأة تقف ذاهلة أمام المجهول، وهو يريد أن يكشف لها عن هذا المجهول.. ولكنها في النهاية تخيب أمله.. لقد أثار فضولها برهة... وانتهى الأمر... لن نذهب معه إلى أبعد من هذا... وماذا ترى قد بقي فيه؟... انه ليس أكثر من حطام... أتسألني عن تلك الأخرى؟ انها زوجته... حركت أنا هذا الخيط فأتت... انظر إليها كيف تتنمّر له.. انها تسلقه بلسانها تشويه به شياً.. وتضحك ساخرة... وهو حائر بين يديها.. تسأله عن الأرباح... ولكن لا أرباح... كل يوم يتأخر خطوة أو خطوتين... ويسألها هو عن «البنت».. عن ابنتهما... يقول أنها غدت فضيحة كاملة... أصبحت لها رائحة تزكم الأنوف.. وتجيبه هي: «من كنت أنت والدها.. كيف تعجب أن تكون هذه سيرتها؟...» أتريد أن ترى هذه الفتاة؟ حركة واحدة من هذا الخيط وتراها مقبلة... ها هي قد أقبلت فعلاً.. أتراها كيف تسير وتتخلع.. وتضحك.. وتثير الفتون؟... انها تدخل الدكان... ويرتبك هو.. ويشيح بوجهه،... وتعود أمها تسخر.. ويحس بأن لعنة والده العجوز تطارده.. وتفح في أعماقه فحيحاً... وتمضي الأم وابنتها.. ويروح هو ويجيء... ويتناول أشياءه الصغيرة بيد مرتعشة ويعيدها إلى مكانها... ويفتح درجاً ويغلقه.. ويبسط صحيفة يومية ويطويها، ويجلس هنيهة وراء مكتبه ثم ينهض.. هذا هو عذابه اليومي.. عذاب كل ساعة.. وكل دقيقة... وكل لحظة.. انظر انه يتناول فنجان القهوة.. فنجان البخت.. ويضرب به الأرض ويحطمه... وها هو يقف أخيراً على عتبة دكانه.. شفتاه تتحركان.. تتمتمان... الآن فقط خطر له أن يرفع رأسه إلى أعلى.. هل أحس أنه مراقب؟ هل داخله الشعور بأن هناك أصابع غير منظورة، أصابع في الظلام تخط له مصيره؟ من يدري... من يدري.. انها أول مرة يرفع فيها رأسه إلى فوق.. ويحرك شفتيه بكلمات من أعماق قلبه..

أهو موقف ابتهال.. موقف ذهول.. موقف جحود.. موقف يأس.. موقف جنون؟.. فلنحرك الخيوط اذن بسرعة.. فقد طالت اللعبة.. وطال انتظاره... ولا بد من خاتمة لهذا المطاف الطويل.. أتدري؟ سأجذب خيطاً واحداً فينتحر بمسدس.. بخنجر.. بالقاء نفسه تحت عجلات سيارة منطلقة.. بأن يرمي نفسه من شاهق.. بأن يتناول سماً.. بشيء ما.. لا تهم الأداة والوسيلة... وإنما العمل نفسه له كل الأهمية.. وهو مستعد، ومتأهب.. وسيشعل النار في دكانه أولاً.. وسيعلو اللهب والدخان... ويتراكض الناس.. وتأتي الاطفائية.. ويكون، هو، قد انتهى.. هكذا أريد.. انها ارادتي أنا... دعني أشد الخيط إذن... ولكن... رباه... ما الذي حدث؟.. لا شك في انني أخطأت الخيط فجذبت غيره... لقد وقع الخطأ الذي لا يحدث إلا نادراً.. مرة في العمر.. وانقلبت الآية.. فلم ينتحر.. ولم يحرق دكانه.. كان الخطأ جسيماً.. وتحولت المأساة إلى مهزلة... وهذه هي نهايته الآن يطوف حاملاً أوراق «اليانصيب» بعد أن أفلست تجارته.. ويجهد دائماً أن يبيع احداها.. لقد تهدم كما ترى... وتقوس ظهره.. وهزل بدنه.. وأصبح أعجف معروقاً، مبري العظام، وها هو يدخل هذا المقهى وذاك المقهى ويحاول أن يهرج.. ويضحك الآخرين... ويروي لهم نوادر... وحوادث.. فيقهقهون.. ويصفعونه على قفاه.. كيف أخطأت هذا الخطأ الكبير.. كان يجب أن يموت منتحراً.. ويحرق دكانه... وأين زوجته، وابنه، وابنته؟ لم أعد أدري شيئاً، اختلطت علي الأمور.. انني أراهم جميعاً يغذون السير في درب حياتهم.. لا يبحثون عن شيء غير لقمة العيش.. انها الآن، وحدها، مبتغاهم.. شد ما يلقون في سبيلها من قسوة، وعثرات، ومهانة... وعرق ودموع... ولا ريب في اني قد أجهدت نفسي طويلاً.. وحق لي أن أستريح.. لكي لا أعود إلى مثل هذا الخطأ من بعد...

آن للشمس أن تطلع في منتصف الليل

سليم.. اسمي سليم... هل أثبته في رأسي بالمطارق والمسامير؟ ألا يحدث أن تنسوا أنتم أسماءكم؟ من أنتم؟ من هم آباؤكم؟ من هن أمهاتكم؟ متى ولدتم؟ أين نشأتم؟ لست أنا وحدي الذي ينسى، لست وحدي الذي يخيل إليه... أنه... غير موجود... لا... تصدقوا أبداً... هذا الاسم ليس اسمي... وإنما كالمعتاد... كالمعتاد دائماً حسبته اسمي... لو ناداني أحدكم: ابراهيم، أحمد، يوسف، زكريا... لأجبته من فوري، دون أي تردد.. ومع ذلك فلاكن، الآن «سليم».. هذا.

ولكن كيف السبيل أن لا أنساه؟ كيف السبيل أن أظل محتفظاً به؟ هل أدقه في جدار رأسي بالمطارق والمسامير؟... قد يتبادر إلى أذهانكم انني مجنون.. أنا لست مجنوناً... أنا لم أفقد ذاكرتي... أنا رجل في غاية قواي العقلية... وهأنذا أضحك، كما ترون، أغرق في الضحك... بل أقهقه ملء أشداقي.. وحنجرتي، ألا يكفي هذا لكي أثبت لكم انني لست بمجنون؟ ولكن يطيب لكم أن ترموني بالجنون... دائماً تريدون أن تتخلصوا من شيء، من انسان،.. من مشكلة... وتنفضوا أيديكم من كل ذلك.. فانفضوا أيديكم، انفضوها جيداً.. فسليم لا يهمه، لا يكترث، كما لم يكترث بشيء قط في حياته... الصحيح أن كل شيء قد بدأ منذ زمن طويل، منذ أزمنة سحيقة جداً.. منذ رأيته في السقف... كان له رأس كأنه القبة العظيمة وفم كالهاوية...

وساعد جبار كذراع روافع الأحمال في الموانىء... وكان في راحته مغرفة يقبض عليها بأصابعه الضخمة الخمس.. ويرفعها إلى فمه يصب فيه حساء... رأيت هذا كله في سقف الغرفة.. وارتعدت.. انتفض جسمي كله... عظامي كلها قضقضت.. وتصبب عرقي.. وتكورت على نفسي.. لا مفر.. لا مفر.. أبداً.. وأين المفر.؟ أين أفر والحمى تذيبني؟.. أمي قالت هامسة لا أدري لمن: «ان جسمه يغلي».. أسمعتم؟ بلغت الحمى بي درجة الغليان... وكان هو يصب في فمه حساء.. وطعاماً... ويتحرك فكاه من فوق.. وتحت... وتتفتح الهاوية الرهيبة.. وكنت أهذي.. أهذي.. باستمرار... وأقول ابعدوا عني الرافعة.. رافعة الأثقال.. ستنقض علي بين دقيقة وأخرى.. وتسحقني.. لم يكن شيء يخيفني في تلك اللحظة، غير أن تهبط ذراعه من السقف.. وتتناولني صغيراً ضئيلاً.. متداخلاً في بعضي كالعصفور المسكين.. ثم تطوح بجسمي المتهالك.. وتضرب بي الأرض فتدق عنقي.. وصرخت.. يخيل إلي أنها كانت صرخة مدوية... وتراكضت أمي وأخواتي... احتضنتني أمي ووضعت شفتيها على جبيني.. كانت شفتاها رطبتين، ولعلها كانت تبكي... أما أخواتي الثلاث فكن يعولن... ما أزال أسمع عويلهن إلى اليوم.. واستمر هو يرفع المغرفة.. لا بد أنها مغرفة لا ملعقة... ويشرب حساء العدس... لم يتحرك، لم يفعل شيئاً.. كل ما هنالك أن قبة رأسه الهائلة ظلت تهتز قليلاً، وتتحرك ذات اليمين وذات اليسار، ومن اليسار إلى اليمين.. وبين كل برهة وبرهة تنفتح هاوية فمه... وكانت كتلة جسمه تملأ السقف ولم يقل أحد شيئاً... كانوا مثلي يخشون أن يقولوا أي شيء.. كانوا مثلي يخافون أن تنقض عليهم تلك الذراع، تلك الرافعة التي تقتل، وتسحق، وتدمر، بقيت أمي إلى جانبي.. ويدها على رأسي.. وكنت لاتذأ بها وكانت يدها تحميني.. كنت واثقاً أنه لن يستطيع أن يهوي علي بساعده، ما دامت أمي يدها تحميني.. مرة واحدة في حياتي أهوى بكفه على صدغي.. صفعة واحدة يومئذ، وكانت كافية لكي ترج بدني.. وتنثر اللقمة.. القتني صفعته على الأرض..

أحسست كأن يد عملاق شالتني وضربت الأرض بي.. بقيت في مكاني أبكي بلا دموع ويدي ترتعد على خدي. وكنت أحس أن رأسي غدا ثقيلاً.. لاصقاً بأرض الغرفة.. وقد تجمدت رقبتي... وسرت النار في وجهي وعيني.. إني ما أزال أذكر.. أذكر ماذا؟ انني ما فعلت شيئاً.. ضربت صبياً في مثل سني، كان قد اعتدى علي، ضربته بحجر صغير أصاب قدمه وهربت.. ولما جاء، هو، في المساء، كانت أم الصبي تنتظره في مدخل الزقاق.. روت له ما حدث.. أرته الجرح في رجل ابنها... وبكت... ولطمت خديها.. وكان هو، شهماً... ففار دمه في عروقه وصفعني... ودرت على نفسي، وارتميت أبكي بلا دموع... كان سيدوسني، سيسحقني لولا أن حمتني أمي.. وداسها هي.. داس يديها.. وركلها... وكان يرغي ويزبد، ويروح في الغرفة ويجيء.. كالنمر الهائج... ثم يعود يدوسنا أمي وأنا، ويركلنا.. ولم تقل أمي شيئاً، لم تثر، لم تتوجع، لم تئن، لم تبك.. كانت تؤثر أن تموت ولا يرتفع صوتها بكلمة واحدة، كانت تؤمن أن هذا هو نصيبها.. المكتوب على جبينها... ولما ذهب صفق الباب وراءه فاهتزت الغرفة... وكنت ما أزال أبكي بلا دموع.. كان بكائي نواحاً... وتحاملت أمي على نفسها، ونهضت... ومضت أيام وأيام.. ويداها متورمتان، زرقاوان، ومرة واحدة شاهدتها تبكي.. كانت دموعها تسح على وجهها... وتتقطر من ذقنها... ما كانت تريد يوماً، أن أراها تبكي، حتى وقع في روعي أن الكبار لا يبكون... ولكني، في ذلك اليوم، فاجأتها.. كنت ألعب في الزقاق.. وعدت فجأة... فرأيت دموعها تملأ وجهها، ولما أحست بوجودي أسرعت وجففت هاتيك الدموع... وأدنتني منها، وقبلتني.. وقالت لي أن والدك يحبك.. وابتسمت.. اغتصبت تلك الابتسامة اغتصاباً... والدي يحبني؟ والدي يحبني؟ ولكني كنت أحس في أعماق ذاتي أنه لا يحبني ولا يحبها... ولا يحب أحداً.. أتراها كانت تكذب اذن؟ لا.. مستحيل أمي لا تكذب.. الناس كلهم يكذبون.. وأمي لا تكذب... كانت تحاول أن لا ينهار، هو، في نفسي... كانت تريد أن لا ينهار كل

شيء... أن لا تنهار حياتنا في غمضة عين.. كان بؤسنا حسبنا.. وكان الفقر والجوع، والتضوّر أكثر من أن نضيف إليه البغض والكراهية.. والحقد... والدك يحبك... سيزول الشر... ويأتي الفرج... انه يخرج في الصباح، فلا يجد عملاً.. يخرج كل صباح.. ويعود بلا عمل.. ويخرج في الليل ويعود يتطوح ويترنح.. ينفق قروشه اليسيرة.. في خمارة خريستو.. وسيأتي الفرج.. وهو يحبك.. ويجب أن نصبر.. نصبر.. نصبر.. نصبر وها هو يملأ سقف غرفتنا الوحيدة.. رأسه كالقبة الكبيرة.. وفمه هاوية مفغورة.. والذراع الرهيبة تصعد وتهبط.. وحساء العدس.. دائماً حساء العدس... وسمعته يتمتم بما لا يفهم.. كانت الحمى التي تفترسني قد أخذت تتكسر... انكسرت تماماً... تفصد جسمي عرقاً بارداً.. وارتحت قليلاً.. رفعت عيني إلى السقف... وخيل إلي أنه، هو، قد تضاءل... وانكمش، ان ظله في السقف أصبح صغيراً، كان مصباح الغاز يلقي الظلال على السقف، ولكني واثق أن له دائماً هذا الرأس.. وهذا الفم.. وهذه الذراع.. وأغفيت وأمي تهمس في اذني.. والدك يحبك.. ويسأل عنك.. واستغرقت في النوم، انزلقت فيه انزلاقاً.. والشفتان تهمسان.. والدك يحبك ويسأل عنك...

كل شيء بدا منذ زمن طويل.. في أزمنة سحيقة.. منذ رأيته في السقف بل قبل أن أراه في السقف.. ربما قبل أن أولد.. وهو قد مات وأمي ماتت أيضاً... وأحسست كأني أقف في مهب الرياح.. يوم مات، هو، أحسست كأن لم يحدث شيء... ومضت سنة.. سنتان.. وكنت أحس بوجوده في أعماقي: بقبة رأسه، وهاوية فمه، وقبضته التي تزلزل الدنيا.. كنت لا أخطو إلا وأحس أن نظرته الملتهبة تطاردني، ويده متحفزة لصفعي وكلماته القليلة تحفر اذني وتندس، كاوية، في بدني.. كان يقع في روعي أن ذراعه العملاقة تمتد إلي دائماً من وراء قبره.. ولذلك كنت أسير والسلاسل الغليظة تكبلني... أتدركون لماذا أسير اليوم وئيداً... وكأنني أترنح؟ كنت أسير ويد خفية تشدني من خلفي دائماً لا تريد أن تترك لي حتى حرية السير... وكنت لا أجرؤ أن أفكر، أو أبدي رأياً في شيء...

كنت أهم بالأمر ويقعد بي شعور غامض يرهقني.. حتى المرأة لم أستطع أن أحبها.. لم أستطع أن أكون كغيري.. كنت أهرب من المرأة إلا من أمي.. كنت أرى بدن المرأة فارتعد وينتفض كل عصب في جسمي.. وأمضي سريعاً، منسحقاً، مقهوراً والقيود غير المنظورة تكبلني، وتردني بعنف، بقسوة جارحة... ثم ماتت أمي.. لا أعتقد أنها ماتت بعلة.. لم تمرض.. لم تلزم الفراش... وإنما هي انطفأت فجأة.. في لحظة واحدة... وأحسست كأني أقف في مهب الرياح تتقاذفني من كل جانب.. يومئذ شعرت بالوحدة.. بالصمت.. بالفراغ.. وغدوت أكره الشمس.. لماذا لا تصدقون..؟ كنت أهرب من أشعة الشمس.. بل أنا، اليوم أهرب منها... أفر... ألوذ بظلال الجدران والعمائر... أمكث في غرفتي لا أبارحها... أعيش في عتمتها وحولي علب السردين، وقشر البيض، وفضلات الخبز والروائح التي لا أحس بها... والصراصير الباحثة عن طعامها.. والتي تتسلق الجدران الرطبة... وتسرح حيث تشاء.. انها تؤنس وحدتي.. أؤكد لكم.. اني أشعر بصداقة تربط بيني وبينها... انها تفهم وتدرك.. جاء صديق يزورني.. أنا لا أصدقاء لي.. انه انسان لا أدري لماذا أحب أن تكون له علاقة بي.. كنت أبعده.. أنحيه عن طريقي.. وكان هو يبتسم دائماً.. يربت على كتفي.. فيقشعر بدني.. دخل غرفتي.. ورأيته كمن يتقيأ... بقيت أرقبه جاحظ العينين.. لم يجد ما يقوله فمضى. ولم أعد أراه.. اخواتي الثلاث تزوجن.. لا أدري أين هن... تزوجن قبل أن تموت أمي.. قبل أن يموت أبي. لا شك في أن لهن أولاداً لا يعرفون شيئاً عن خالهم... لم يروه قط.. ولماذا يرونني.. أو يعرفون عني أي شيء؟. أنا لا أريد أن يقتحم عالمي أي مخلوق.. حتى تلك المرأة التي وهمت انني سأجد في لحظات خلوتي معها بعض العزاء... طردتها... لما رأيت في عينيها انها ربما ترثي لحالي.. ربما تشفق علي... أنا لست بحاجة إلى عاطفة أي انسان.. صحيح انني وجدت معها بعض متعة.. كنت قد تغلبت حيناً على الاشمئزاز.. وحسبت أن المرأة.. ان البدن... يمكن أن ينقذني.. أتسمعون؟ أقول

يتقذني... ولكن من أي شيء؟ لست أدري، ولا أنتم تدرون... قالت يوماً:

- من أنت؟

وضحكت.. استلقيت على قفاي من الضحك... من أنا؟ وهل أدري من أنا؟ واسترقت أنفاسي وقلت:

- لماذا هذا السؤال؟

- هكذا... مجرد سؤال...

- هل يمكنك أن تقولي من أنت؟

- يمكن...

- لا.. مستحيل.. أنا وحدي أعرف من أنت... عرفتك قبل عام.. قبل عشرة.. قبل ثلاثين... عرفتك دائماً... حتى يوم كنت طفلة تحبو.. ربما قبل أن تخلقي..

حدقت بي مندهشة.. أذهلها ما أقول... قرأت الذعر في عينيها... حملت ملابسها... وانسلت... ولاحقتها ضحكتي العالية المدوية... وحسبت انها لن تعود... ولكنها عادت... بعد أيام.. لا أدري لماذا؟ ألكي أنسى في ذوباني فيها: من أنا.. ومن أكون؟.. ولكني نسيت منذ منذ طويل.. منذ رأيته في سقف الغرفة... ورأيت قبة رأسه.. وهاوية فمه.. ومنذ كانت السلاسل الغليظة تكبلني.... ودعوني الآن أطلعكم على ما لا تعلمون... هاتوا آذانكم لأهمس فيها بالسر الكبير... اسمعوا: ان معي مسدساً تحت وسادتي.. معبأ باستمرار... لا ينتظر إلا أن أضغط باصبعي على الزناد لينطلق رصاصه.. ولن أرتاح حتى أضغط... ولو مرة واحدة.. وستأتي، هي، ستتجرد كعادتها، ستندس

إلى جانبي... انها لا تدري اني لم أعد أطيقها.. عاودني الاشمئزاز والغثيان.. منها.. ومن كل شيء.. وفي لحظة ما... سأتناول المسدس... تمتد إليه يدي تحت الوسادة... بخفة.. بهدوء... دون خوف أبداً... بارادة.. لن أتراجع.. أبداً.. سأطلق الرصاصة في صدرها العاري.... تحت نهدها الأيسر... الذي يعلو ويهبط مع تنفسها... وستغوص الرصاصة في بدنها... ستذهب إلى الأعماق... دائماً في الأعماق البعيدة.. ولن تقول شيئاً.. لن تفوه بكلمة، بل ستدرك، فقط، أنه قد آن للشمس أن تطلع في منتصف الليل... وأنا لن أخاف في تلك اللحظة.. لن أحس بدبيب أي شيء في جسمي.. ويكون القمر قد غاب... امحى.. سقط وتفتت... ولن أعود أرى قبة رأسه... وهاوية فمه... تملأ السقف كله.. ولن ترتعد أوصالي، ولن يتصبب عرقي.. ولن ألوذ بأمي... ولن أحس بشفتيها الرطبتين تبللان جبيني المحموم... وسأدع رفيقتي تنسج خيوطها بسلام في الركن العالي من غرفتي... إياكم أن تحدثكم أنفسكم باقتحامها علي... انكم لا تقوون على دخول عالمي.. انه ما يزال بعيداً عن الشمس.. أتراكم تنسون اسمي بعد اليوم؟ سليم... اسمي سليم... لن أدعه يفلت مني هذه المرة... هل أثبته في رؤوسكم أنتم بالمطارق والمسامير... أيها المجانين؟... وليبحث كل منكم عن شيخه... ليجد له رأساً كالقبة... وفماً كالهاوية... وساعداً كذراع الروافع في الموانىء... وقيوداً... وسلاسل... لا نهاية لها... لا نهاية لها...

أربعة أشخاص.. يبحثون عن مؤلف

.. والله يا سيدي ما كنا لنريد أن نزعجك في مثل هذه الساعة من الليل. ونحن نعلم جيداً أن حاجتك إلى الهدوء وصفاء الذهن أكثر من حاجتك إلى ما ستسمعه من لغو الحديث في هذه الساعة المتأخرة. انني أرى في عينيك أنك تنكر وجودنا انكاراً.. ومع ذلك فأنت الذي سوى هذه الملامح في وجوهنا، ووضع هذه النظرات في عيوننا، وأنت الذي جعل أحدنا بديناً قميئاً، وقد كان في الواقع نحيلاً، معروقاً مديد القامة... وأنت الذي أضفى علينا من اللباس ما لم يكن يخطر لأحدنا أن يرتديه.. فهذا وضعته في بنطال وقميص وقد كان يرتدي القمباز المخطط، وذلك أقمت فوق رأسه طربوشاً مائلاً إلى اليمين وقد كان يحب أن يكون حاسر الرأس أبداً... وزوجتي أرسلت شعرها طويلاً، مضفوراً، وقد كانت تقصه على الطريقة الغلامية... وأسميتني أنا يعقوب وقد كان اسمي في دنيا الناس بطرس، ثم أجريت بيننا حوادث وأحداثاً بدلت فيها وغيرت حتى كدنا ننكرها وننكر أنفسنا معها... وأدرت على ألسنتنا كلاماً كثيراً، وحواراً طويلاً، لا نذكر أنه كان مما تحدثنا به أو خطر على قلوبنا..

تسألني يا سيدي، من أنا ومن أكون؟ عجيب والله، ألم تعد تعرفني؟ انني أحد شخوص قصتك الأخيرة التي فرغت منها قبل قليل.. أنا الزوج.. أنا بطرس.. بطرس الذي سميته في قصتك «يعقوب»... أجل، ان هذا يحدث لأول مرة في تاريخ الكتابة القصصية، أو كما تسمونها: الخلق القصصي.. انها أول

مرة يخرج شخوص قصة ما، من الورق إلى الوجود، من رأس المؤلف وخياله إلى دنيا الواقع الحي. انها قوة فوق قوتنا هي التي بعثتنا أحياء أسوياء كما ترى.. ولسنا نريد أن نقاضيك الحساب يا سيدي. وإنما أتينا لكي نحتج. لكي نفرغ ما في أنفسنا، فأنت لم تصورنا في قصتك على حقيقتنا. يبدو لنا أنك شوهتنا، وزيفت واقعنا، وأضفت إلينا ما ليس فينا، وحذفت من طباعنا وأهوائنا، وحوادثنا ما كان أصيلاً في نفوسنا وحياتنا. لماذا تراك فعلت هذا يا سيدي؟ تقول انك تشاهد الآن حدثاً تاريخياً. فما تعرف، من قبل، أن شخوص القصص تخرج من بطون الكتب إلى دنيا الناس.. هو في الواقع حدث تاريخي كما تقول.. ونريده أن يكون عبرة لك ولغيرك.

لماذا تزعم، يا سيدي، أن جميع الذين يكتبون القصص يفعلون مثلك؟ ما شأننا نحن بغيرنا؟ انها قصتنا نحن، والأمر يخصنا نحن، وكاتب القصة أنت لا غيرك. فأنت المسؤول لا سواك. هذا رأينا يا سيدي. أتسمع ما تقول زوجتي، وما يقوله الخواجه اندراوس، وما يقوله «القهوجي» ابراهيم العواد؟ انهم جميعاً – مثلي – يحتجون.. بل هم، إذا أردت الحقيقة، ناقمون، ثائرون، وسينتظر كل منهم دوره لكي يتكلم.. لكي يقول لك رأيه فيك...

جميل جداً أن تسألني: ما أريد.. وما هي شكواي.. اسمع اذن:

– لقد كنت في دنيا الناس رجلاً بسيطاً انساناً لا يكاد يلتفت إليه أحد. بل ربما كنت أثير الاشفاق.. وصحيح انني كنت كثير الصياح والزعيق في مقهى السيد ابراهيم العواد، وصحيح انني كنت أغش في لعب الورق لكي أربح بضعة قروش كل يوم.. وكان بعضهم يمسك بطوقي ويدق لي عظامي.. هذا كله صحيح.. ولكني في الواقع كنت أفتعل الصراخ والزعيق افتعالاً.. وأغش عامداً متعمداً، غشاً مكشوفاً لكي أضرب وأركل وألطم.... ولكنني كنت في النهاية لا

أسكت إلا إذا نلت ثمن الضرب والركل واللطم... أفهمت؟ وباستثناء هذا كان الناس يحبون حديثي.. ويحبون النوادر الطريفة التي كنت أرويها، والفضائح العديدة التي كنت أسمعهم إياها.. فيغرقون في الضحك وتهتز كروشهم ويربتون على ظهري راضين، مغتبطين، وينفحني بعضهم بقروش أخرى، أو يدفع ثمن ما أكون قد استهلكته من قهوة وشاي.. وكانوا ينسون - وهذا هو الأهم - حكاية زوجتي.. ينسيهم إياها مرحي...

هكذا كان يجب أن تصور شخصيتي... ولكنك ماذا صنعت بها؟

لقد جعلتني ألبس البنطال والقميص.. وما ارتديت في حياتي كلها غير القمباز المخطط القاتم... ثم أكثرت من الحديث، وصورتني من زوايا متعددة... فإذا أنا رجل مربد السحنة دائماً، مكفهر الملامح أبداً، يقرأ الانسان مأساتي على وجهي... وفي تصرفاتي وحركاتي.. جعلتني من شخوص المآسي فلا يكاد قارىء يتصورني إلا ويضيق صدره، ولا أكاد أعيش في ذهنه هنيهة إلا وتظلم الدنيا في عينيه.. فأنا ثقيل على النفوس، أملأها كآبة وأسى، وأضيف إلى همومهم هماً جديداً، وإلى وساوسهم وساوس علم الله أنها من صنعك وتلفيقك أنت ولا شأن لي بها.. انني أعيش الآن مكروهاً في أذهان الناس.. وقد كانوا يصفونني حبهم خالصاً من كل شائبة...

ثم حكاية زوجتي.: هل كنت أنا، يا سيدي، أول رجل تخونه زوجته؟ ما أعجب أمرك أيها المؤلف، لقد دفعتها إلى الخيانة في ضوء مأساتي أنا... جعلت الفاقة والعوز... سبب الخيانة.. وما كانت خيانتها إلا نزوة من نزواتها... واندفاعاً وراء شهواتها... وانصياعاً لنداء الشيطان.. وما أكثر ما نكدت عيشي وأهملتني وازدرتني.. وماذا كنت أستطيع أن أفعل في تلك الساعات الجهنمية؟ كانت تضع يديها في خاصرتيها وتروح تكويني كياً بكلماتها الجارحة وعباراتها

الوقحة وشتائمها العجيبة.. لقد كانت هي أول من أطلق علي لقب «أبو عص».. وتلقفه منها صبية الحارات، ورجال الأزقة ونساء الحي كله.. حتى حجب هذا اللقب اسمي تماماً.. ولم أعد أعرف إلا به...

هذا كله، يا سيدي المؤلف، تركته.. ولم تأبه به... وجعلت همك أن تصورها - هي - طرفاً آخر في المأساة المروعة التي ابتكرتها ابتكاراً.. وما هي بمأساة.. انها مهزلة.. أسامع أنت؟ مهزلة.. انها يوم خانتني ارتحت تماماً.. ولما توالت خيانتها هدأت وأحسست أن عبئاً ثقيلاً كان يبهظني قد انحط عن كاهلي.. وشعرت انني غدوت حراً، طليقاً، خفيفاً، كهذه النسائم الحلوة التي تهفو على وجهي الآن من نافذة غرفتك المفتوحة على الليل... أصبحت وكأن لي جناحين أطير بهما في الأجواء الرائعة فلا تقع عيني إلا على ما يسر ويبهج...

أتراك تفطنت إلى شيء من هذا كله وأنت تصور شخصيتي.. وتروي قصتي؟ لقد فقدت ذاتي الأصلية في قصتك.. واني لأحس اليوم أنني ضائع بين خيالك المضل.. وواقعي الصحيح.. فأي الرجلين أنا؟ وأي الشخصيتين هي شخصيتي؟ هذه الحيرة ستظل تفري قلبي.. وتملأه بالحسرات.. أنا.. من أكون أنا؟ قل.. قل.. أليست هذه جريمة.. ألا يعاقب عليها القانون؟ ان تشويه وجه انسان بضربة سكين أو بماء النار... تؤدي بالفاعل إلى السجن.. وأنت.. هل تظل هكذا طليقاً بعد أن شوهتني تشويهاً كاملاً أيها الرجل؟ ماذا أسمعك تقول؟ أحقاً تزعم انني لست ملك نفسي؟ وتزعم أنك حر تصنع ما تشاء.. وانني لم أكن أكثر من «خامة» تستطيع أن تشكل منها ما تريد... تماماً كما يصنعون بالزجاج الذائب... والحديد المصهور... وغيره من المعادن واللدائن والخامات التي لا تعد ولا تحصى.. وتزعم أنك لا تستطيع أن تلزم شكلاً خاصاً ولا صورة بعينها.. وأن مزاجك كفنان هو الذي يقرر الشكل الذي تعطيه لشخوصك.. وأن نظرتك إلى الأوضاع الاجتماعية هي التي تملي عليك حوادث القصة.. وأحداثها... وانك

تأخذ من الواقع ما تريد وتدع ما تريد.. وتصوغ قصتك على مثال ما يتراءى لك.. ما شاء الله.. ما شاء الله... هل سمع أحد بمثل هذا... انني لا أفهم ما تقول يا سيدي... رد إلي شخصيتي.. رد لي حقيقتي...

***

وأنا يا سيدي المؤلف، أحسب أن دوري قد جاء الآن لكي أتكلم... أنا الزوجة.. أنا التي ألبستها في قصتك اسم «اميلي» والناس كلهم في – حينا – يعرفون اني أدعى «جوليا»... حقاً يا سيدي فانني لا أكاد أعرف نفسي في قصتك.. من أين أتيت لي بضفائر طويلة، مكتنزة، مرسلة على كتفي.. وقد كنت أقص شعوري على الطريقة الغلامية؟ طبعاً.. الضفائر «الرومانطيقية» تلائم موضوعك.. تلائم الجو الذي وضعتني فيه... جو المأساة.. جو الشعر القاتم المريد... جو المرأة التي أذلها المجتمع.. وأيأسها الفقر... فانزلقت إلى مهاوي الخيانة في ليل حالك بهيم... هو ليل المجتمع الفاسد... أليست الضفائر هي أحسن ما يلائم هذا الجو؟ والخد الأسيل.. والخصر النحيل.. والعيون التي تنظر على استحياء.. وخفر العذارى الغريرات.. هذا كله أليس هو الذي يضاعف تأثير قصتك في النفوس.. ويستدر عطف قرائك... ويستثير شهامتهم.. ويملأ مآقيهم بالدموع؟

الصحيح، يا سيدي المؤلف، انني امرأة أخرى، فيما يخيل إلي، وأنا كما كتبت في قصتك، خنت زوجي هذا... ولم يكن الفقر.. ولم يكن العوز.. هو السبب... هذا الرجل التافه.. الصفيق.. هو زوجي.. وأنا كما ترى، لست دميمة.. ولماذا لا أقول الحقيقة: أنا امرأة جميلة... وما أكثر ما أدارت مفاتني الرؤوس.. وكان يمكن أن يتزوجني رجل غيره.. ولكن أسرتي.. وبيئتي... ما كانتا لتسموا بي إلى من هو أفضل منه.. لم أكن من طبقة شعبية وحسب.. وإنما

كنت من أسرة مشبوهة... ليس فيها غير السكير، والعربيد، والمقامر، والفاسق، والسارق وطريد العدالة... كلهم كانوا أشقائي وأبناء عمومتي... وأهلي.. فكيف كنت تريدني، أنا الزهرة المتفتحة، كما وصفتني، أن تنشأ؟ ان زهرتك الجميلة تفتحت في الوحل أيها المؤلف الحاذق..

ومع ذلك لو كان زوجي هذا، أبو عص، لو كان رجلاً آخر، رجلاً لا تنبو العين عند مرآه، ولا تشمئز النفس من وجوده، لهان الأمر.. ولكنه كما تراه أمامك الآن: ممصوص العود، أعجف القامة، مهيض الساقين، شعره القذر يسرح وراء قذاليه، وعيناه مفقوءتان، ووجهه مسنون شاعت فيه التجاعيد والغضون، وسعاله لا ينقطع، ورائحته تزكم الأنوف... كيف كنت تريدني أن أرتمي بين أحضانه دون أن يقشعر جسمي كله... دون أن يقف شعر بدني من الغثيان... لقد خنته أيها المؤلف، مع أول رجل مال إلي.. مع أول رجل اشتهاني وخلبت مفاتني لبه... وقد كان الرجل ثرياً... ولكن ثق انني ما بحثت عن المال... كان بوسعي أن أعيش مع زوجي فقيرة... من غير جوع... من غير أن ألبس حريراً وذهباً.. عيشة ستر وكفاف.. ولكن لماذا؟ ما من شعرة اهتزت في بدني يوم خنته... كنت أتصور انني عادلة... وانني أنصفت نفسي... ثم، كما قلت لك، ما عرفت في أسرتي وبيئتي تلك الزواجر والنواهي والروادع التي تغرس في النفس غرساً وهي بعد طرية، قابلة للتوجيه والتكييف.. ولهذا السبب لم أندم.. ولم أحس في قرارة نفسي انني ارتكبت اثماً من الآثام... انني أنا التي استخف بها الطرب، أنا التي أحست أن النشوة كادت تطير بها بجناحين خفيين.. وليس هو.. ولقد ألزمته حده.. كنت لا أسمح له أن يقربني... كان حسبه أن ينظر إلي ويتحسر، ويشتهيني وتتمزق أحشاؤه، وأختال أمامه فيطير صوابه... وأتبرج فيئن ويتفطر قلبه.. وترن ضحكتي مرحة عالية، مديدة، في أرجاء البيت فيبهت كمن به مس من جنون... ولذلك كان يعربد، ويزعق، ويتحرش بالآخرين، في مقهى صاحبه ابراهيم... وكان يا سيدي، يضرب دون ما رحمة، وتدق عظامه دقاً، فيهدأ

ويستكين كأنه يجد في الاهانة والاذلال وأوجاع الضرب لذة ونشوة...

وقد لبست الحرير، يا سيدي، وازدان معصماي بالذهب، وكانت صورتي في المرآة تبعث الفرح في أعماق كياني، ويذهلني شعري الغلامي المقصوص، فأتخطر، وأميس، وأغني، وأضحك، ويزداد افتتاني بجمالي، ويتضاعف احساسي بمفاتني كلما رمقتني العيون... العيون الجائعة إلى مثل حسني.. لقد كنت فتنة الحي كله.. وكانت قلوب الشبان تتحرق تحت سطوة اغرائي... وتشتعل النار في صدور الرجال كلما حملت الريح شذاً من أنفاسي المعطرة، وتنطوي النساء على أنفسهن كمداً من مفاتني، ولا يتحدثن عن أحد غيري، ولا يتسقطن أخباراً سوى أخباري... وما أكثر ما كن يروين عني.. حكايات وحكايات يبالغن فيها، ويضفن إليها من ذوات أنفسهن، ومن أخيلتهن، ما ينم على أشواق لهن مكبوتة، وأمانٍ خائبة منسحقة ترقد في أعماقهن...

هكذا كنت يا سيدي، وتلك هي حقيقتي.. ومعالم شخصيتي.. فماذا فعلت أنت بها؟ لقد أحلتها صورة باهتة، بدلت بهجتي حزناً وفرحتي غماً، ومرحي تعاسة وشقاء، وضحكاتي أنيناً موجعاً، ورثيت لحالي فأقمت الدنيا وكدت تصوغ مني صورة جديدة لغادة الكاميليا... ارفع صوتك قليلاً لأسمع ما تقول... أتزعم أنك لم تفعل أكثر من أنك أخذت من ملامحي شيئاً هنا وشيئاً هناك.. وانني إنما حركتك إلى الكتابة... أو إلى الخلق والابداع كما تصف عملك... ثم لم يعد لك بي شأن... وانك من خلال شخصيتي كنت تنظر إلى ما في المجتمع من مفاسد... وانني على رغمي ضحية هذا المجتمع.. سواء كان الفقر هو سبب سقوطي، أو كان سبب هذا السقوط الرجل الذي لم يكن يلائمني.. ولم يكن أهلاً لي؟...

هكذا اذن تشوّه الواقع.. وتجرد الأشياء من سماتها، وتكون من جملة

شخوص، أو من جملة ملامح، شخصية أخرى مغايرة، تبدل وتغير من طبائعها وخصائصها على هواك.. يا لك من رجل فذ يا سيدي... ويا لشقائنا نحن مخلوقات خيالك العجيب الذي لا يعرف حدوداً ولا قيوداً... سيدي المؤلف انني أعرفك جيداً.. ولا أحب أن أذهب إلى أبعد من هذا.. ولكن لا بد أن أقرر هذه الحقيقة وهي أنك سلبت شخصيتي وفعلت فيها ما فعلت، واني لأنكر نفسي، ولا أعرف من أنا.. رد إلي شخصيتي.. أعدني كما كنت هي حقيقتي التي لا أريد غيرها...

***

أحسب انني أستطيع أن أتحدث الآن. فأنا «اندراوس»... الخواجة اندراوس كما يدعوني الكثيرون الذين كانوا يبدون لي الاحترام.. ولكي أكون واضحاً فاني أقول انني أنا الرجل الذي قيل لك أنه أحب تلك المرأة «جوليا » التي سميتها أنت في قصتك «اميلي»... لقد شوهتني أنا أيضاً وغيرت من ملامحي، يا سيدي، وبدلت من طباعي وخصائصي، وحدود شخصيتي... جعلت مني رجلاً فاسقاً، وقحاً، زير نساء، لا هم له غير البحث عن اللذات والتماس أسباب الشهوات حيثما وجدت، ومن أي سبيل أتت... وجعلتني، يا سيدي، مستهتراً بجميع القيم الخلقية والاجتماعية، فبلغ بي الاستهتار حداً بعيداً لم أعف معه عن اغراء تلك المرأة حتى أوقعتها في حبائلي... ولوحت لها بالمال، وهي الفقيرة المحرومة فخلب لبها المال، فزلت قدمها إلى آخر هذا الهراء...

انني أستميحك العذر، أيها السيد، فلم يكن كل هذا الذي فعلته، وقلته في تصويرنا إلا... هراء... فالناس كلهم يعرفون تماماً انني رجل محترم... رجل فاضل... يتمتع بمنزلة اجتماعية كريمة... وتاجر كبير له كلمته ونفوذه.. وما كانت هذه المرأة لتخطر ببالي... لولا أنها هي التي تصدت لي.. هي التي طرحت

شباك الغواية في طريقي.. ولا أدري كيف انزلقت... ثم اندفعت في طريق الاثم... لقد سحرتني يا سيدي.. اصطنعت كل دهائها النسوي الأصيل.. وتسلحت بكل مفاتنها لكي تذلني.. وتخضعني لسلطان هواها.. وكنت أصحو بين الحين والحين.. وأحس بمدى تدهوري، فأحاول أن أتخلص منها وأنجو بنفسي من شيطان غرامها، وأحطم قيود سحرها، ولكنها كانت سرعان ما تغرقني في لجة لا قرار لها من مفاتن غرامها، فأعود وكأني عبد ذليل لها، حتى اعتدت في النهاية جوها المعطر، وسكرت برحيق أنفاسها، وأحببت شعلة النار التي كانت تضرمها في بدني... وأدركت هي انني لن أستطيع أن أقاوم، ولن أستطيع أن أستنجد بارادتي التي أخمدتها... فاستغلت ضعفي، وتحرقي إليها، واستعذبت خضوعي، وراحت تبتز من مالي وتحيط نفسها بضروب النعيم، وترفل بحلل العز، وتملأ معصميها ذهباً، وتتقلب على مطارف من الحرير... ولكنك أيها المؤلف، لم تكلف نفسك مشقة النظر في هذا كله، لم تعن نفسك بالتفكير في حقيقة أوضاعنا، فتركت لخيالك العنان يصوّر الأشياء، على غير حقائقها ويطمسها طمساً، ويزور الوقائع تزويراً، ويبدل من ملامح الشخوص ومن حقائقهم النفسية كيف يشاء...

أراك تبتسم، يا سيدي، وتهز كتفيك.. أتقول انك لست مصوراً للواقع.. وان فنك القصصي أبعد ما يكون عن التقاط الحكايات من قارعة الطريق وإلا لغدوت مصوراً فوتغرافياً تافهاً، وانك انما تحتفظ بحريتك كفنان يفسر الأشياء، ويحاول أن يستبطنها، وينظر في سرائر النفوس، ويستخلص الحقائق الأبدية القابعة في الأعماق.. مما لا تراه العيون.. انني لا أفهم هذا الذي تقوله.. وتزعم أيضاً أن ما يظهر للعيون ليس أكثر من قشرة خارجية، ليس أكثر من مظاهر خادعة، وأقنعة يضعها الناس فوق وجوههم.. وأن على القصصي المبدع أن يرى ما وراء الأقنعة وما يكمن في الأعماق.. ما أعجب وقاحتك يا سيدي الكريم... أتبلغ بك الجرأة فتقول انني كنت رجلاً فاضلاً.. ومحترماً.. في الظاهر فقط..

وانني كنت أخفي وراء هذا المظهر الماكر حقيقتي الكبرى.. وهي انني رجل فاسد لا يبالي بأية قيمة خلقية.. وانني كنت أداري هذا كله خلف قناع محكم من النفاق الاجتماعي... والمنزلة الكريمة المصطنعة... انك في الواقع لا تستحق أيها المؤلف، غير ازدرائي... و...

***

مهلاً.. مهلاً.. يا خواجه اندراوس... لا تدع للغضب سبيلاً إلى نفسك.. وأنت، يا سيدي، المؤلف لقد آن لي أن أتكلم فأنا ابراهيم العواد صاحب القهوة، أنا رجل من صميم الشعب كما تعلم واني لعاتب عليك، يا سيدي، لسبب أو لآخر، فلقد حسبت أن دوري في قصتك الطريفة يجب أن يكون ثانوياً... وان علاقتي في القصة هي علاقة صاحب المقهى الذي كان يجلس فيه الزوج بطرس أو يعقوب كما سميته في قصتك... ولا شيء غير هذا.. وأنا عاتب عليك لأن الذي يقرأ قصتك سيتبادر إلى ذهنه أن مقهاي من تلك المقاهي الحديثة بكراسيها الأنيقة، ومقاعدها الوثيرة، وصورها العصرية، ومراياها الصقيلة المتألقة... ولكنك تعلم جيداً أنه مقهى شعبي، يقع تحت تلك القناطر القديمة، وهو واسع رحيب، وسقفه عقد جميل مقبب، وجدرانه ذات سمك، وبابه رتاج كبير، ومقاعده كراسي واطئة سطوحها من القش المجدول، وطاولاته صغيرة خفيفة، مصنوعة ببساطة من خشب رخيص مدهون...

وكنت أنت، يا سيدي، تحب الجلوس فيه كثيراً، وكنت تحدثني وتقول لي: أن مقهاك يا ابراهيم مصدر الهام لي.. وكنت أشد ما تكون اعجاباً بصوره الملونة الزاهية، صور عنترة، والزير سالم، وسيف بن ذي يزن، والأميرة عليا، المعلقة على جدرانه، وكانت شوارب أولئك الرجال، ودروعهم، وسيوفهم، وخيولهم المطهمة، تخلب لبك، كما كانت ضفائر الأميرة عليا، وعيناها النجلاوان،

وصدرها العامر.. تملأك طرباً... وكنت تنشيء علاقات مودة بينك وبين رواد المقهى من بحارة وسائقي سيارات، وباعة متجولين، وأصحاب حرف بسيطة، وكنت تتحدث إليهم حديثاً طويلاً، وتقدم لهم السكائر، وتطلب لهم فناجين القهوة السادة الزكية الرائحة... ثم كنت ألمحك حين تخلو إلى نفسك، في ركن من المقهى، تسجل في دفتر صغير ملاحظات ومذكرات لعلها كانت تنفعك في كتابة القصص... قد أكون واهماً، يا سيدي، ولكن هكذا كان يخيل إلي..

وأذكر يا سيدي أنك كنت لا ترتاح إلى فنجان قهوة مضبوطة إلا في مقهاي أنا... كنت تقول لي: أنك فنان يا ابراهيم في صنع القهوة... ودعني أذكر أيضاً أنك كنت تطرب لسماع اسطوانات الغناء التي كانت تدار فوق «الفونغراف» في المقهى.. كنت تقول أن أمثال هذا الحاكي القديم ببوقه الأحمر أصبحت نادرة الوجود في هذه الأيام، وكنت تصغي طويلاً إلى أغاني السيد سفطى ولياليه الشجية، وصالح عبد الحي، وآهاته الحلوة ومواويله المؤسية.. وكان يحلو لك أن تدخن «النارجيلة» وتنفث دخانها من خرطومها الطويل عالياً في جو المقهى كما يفعل سائر الزبائن من أبناء شعبنا الأصيل.. هكذا كنت أراك..

وذاك هو مقهاي، فلماذا بالله عليك أضفيت عليه ألواناً غريبة حتى التبس علي الأمر فلم أعد أعرفه بين المقاهي؟

أجل، ابتسم هكذا، أيها السيد الكريم، ودعني أتحدث الآن عن أولئك الذين نقموا عليك منذ قليل لأنك أثرت سخطهم بتصويرك اياهم على غير حقيقتهم في قصتك...

أنت تعلم أن الزوج كان من زبائن المقهى المداومين فيه في ساعة متأخرة من الليل... وكنت أراك تخالسه النظر... ثم تستدرجه إلى الحديث. فكان يروي ما يحسب أنه يروق في نظرك . ولذلك ربما كان يختلق أو يبالغ فيما يرويه لكي

يرضيك... والواقع، كما عرفته أنا، أنه ليس مسكيناً، وليس شريراً، وإنما هو بكل بساطة مخلوق عادي، قد هيضت ساقاه، وله وسائله الخاصة في الكسب، منها المقامرة اليسيرة الهينة كما روى لك، ومنها القيام ببعض الوساطات... وربما تعجب أشد العجب إذا أخبرتك أن من وسائل رزقه استطلاع الغيب، والتنبؤ بقراءة الكف أو ضرب الرمل، وقد كان لديه كتاب أصفر قديم يصف بعض الأمراض وعلاجها.. لقد نظر يوماً في كفي، وتطلع في وجهي طويلاً: وقرأ في كتابه ثم زعم، وهو يهز رأسه آسفاً، انني مصاب بداء «الكولونج» وبعد هذا قال كلاماً كثيراً فلم أعره التفاتاً ولم أفهم ما هو داء الكولونج... ولكنني نفحته ببضعة قروش وقدمت له فنجاناً من القهوة الطيبة... كان الكثيرون يجودون عليه بمثل هذه القروش اليسيرة لكي يمتعهم بحديثه، وينظر في أكفهم ويتنبأ لهم بلهجته الخاصة وتهريجه ومبالغاته، وكثرة اشاراته وما يرتسم على وجهه من تعابير مضحكة... وكنت أنا أحب أن يبقى في ركنه من المقهى، فقد كان بعض الرواد لا يدخلون محلي إلا إذا كان موجوداً فيه.. كان باختصار، عنصر ترفيه في المقهى... حتى عاهته كانت تثير النشوة في النفوس وتنتزع الضحك العريض، بدلاً من الرثاء كما زعم، كلما سار متقلقلاً، متخلعاً، إلى اليمين مرة وإلى اليسار مرة، وهو كما تراه هزيل، مبري العظام، مهذار، يدير بين شدقيه عبارات وأنصاف عبارات، ويطوح بيديه في كل اتجاه...

وبقيت حكاية زوجته: الحقيقة أن الرجل كان يشعر آن جوليا - أو اميلي كما شئت أن تسميها - مخلوق ثمين... فوق قدرته ومستواه.... وكان يحس أن جمالها أعلى مما يستطيع أن يرفع إليه بصره، وأن شخصيتها بجموحها، ونهمها وقسوتها، أكثر من أن يسعه أن يعيش معها بسلام... ولعلك لم تكن لتعلم أن والدها واخوتها رموها في أحضانه وزوجوها اياه لكي يستروا فضيحتهم وعارهم بعد أن أبقت وعاشت فترة على هواها... ولقد أعطوه أيضاً بعض المال.. تسوية محبوكة كما ترى، رضي هو بها، وأدرك سلفاً أنه لن يكون أكثر من ستار، وأنها

- هي - لن تقلع عن غيها، وأن عليه أن يذعن للواقع... ويرضى بما قسم له... ولكنه، في قرارة نفسه، يا سيدي، كان مغتبطاً، فرحاً، فقد رأى فيها مورد رزق جديد... كان يرجو أن ينال بعض المال بين حين وآخر... أن يلتقط فتاتاً، كان يتصور أن ينهال عليه من عطاء الآخرين... لكي يسكت ويغض الطرف... ويخلي المكان المكان... ولكن خاب فأله فقد كان، في نظرها، أحقر من أن تهبه شيئاً، أو تقيم له وزناً.. إن مجرد اقترابه منها كان يصيبها بالغثيان، جعلته يكلمها من بعيد، وهي لا تنفك تنفض برؤوس أصابعها شيئاً تتوهمه عالقاً بها منه... ولهذا السبب ازداد سوء خلق... كان يكبت في نفسه اهانتها واحتقارها ولا يجرؤ أن يفوه بكلمة واحدة أمامها... ولكنه كان ينفجر صاخباً، صارخاً، معربداً، في مقهاي أنا لسبب ولغير سبب... هذه هي الحقيقة.. وكان في سورة غضبه أشد امتاعاً للزبائن منه في وقت هدوئه وسكينته...

الصحيح، أيها المؤلف، أنك شوّهت شخصيته، وحذفت منها، وأضفت إليها، وأخفيت حقائق، وذكرت حقائق أو ظلال حقائق.. ومن أهم هذه الحقائق أن جوليا - واسمح لي أن أدعوها دائماً باسمها الحقيقي - لم تتخذ الخواجة اندراوس خليلاً لها وحسب، لقد كان لها غيره أخلاء... وكان يقع في وهمه أنه الحبيب الأثير وحده، وكان هذا من فرط دهائها، فقد استطاعت أن توهمه، وإذا شئت أن تغمض عينيه بأناملها الشعبانية، فلا يقع في روعه أن أحداً يشاركه في غرامها... وهكذا ظل مبسوط الكف، وقد أضفى عليها الحرير والذهب، وأتاح لها أن تحقق أحلامها كلها.

ألم تتساءل يا سيدي: ماذا كانت تجد في الخواجة اندراوس؟ إنه كما ترى يقارب الستين من عمره، وهو بعين واحدة سليمة والأخرى زجاجية... وشعره الأسود هذا مصبوغ، وشارباه المفتولان لا يشرئبان هكذا إلا بفعل مادة «الكزماتيك» التي لا ينفك يدهنهما بها... وهو ليس بمحترم ولا فاضل كما

وصف نفسه... انه لم يكترث بزوجته وأبنائه وبناته... أبناؤه رجال، كانوا يعلمون علاقته بها ويسخرون منه... وكان هو لا يحس أبداً أنه امتلك خليلته بفضل المال الذي كانت تتلهف عليه... جعلته يعتقد أنه فتنها عن نفسها. وشغفها حباً وهياماً، وأنها إنما خضعت لسلطان هواه، وانصاعت لرجولته الطاغية... وكان هذا هو الوهم الكبير يزدهيه، ويثير كبرياءه، فيسير مزهواً، ويميل طربوشه، ويعدل قامته ويقع في نفسه أنه لا يزال يرفل في حلل الشباب... إنها بدهائها الخبيث اختارته من بين الكثيرين ليكون فريستها... وما أكثر ما استنزفت من ماله لنفسها ولكل خليل حبيب كانت تصطفيه مَن وراء الخواجة اندراوس التاجر الكبير.

لا تضطرب يا سيدي المؤلف.. لماذا تجهمت أساريرك هكذا... وغاضت الابتسامة العريضة التي كانت تتراقص فوق شفتيك... وعقدت ما بين حاجبيك؟ ألأنك تخشى أن أذكر تلك الحقيقة الضخمة الأخرى، التي أخفيتها، يا سيدي، وفي قصتك اخفاء شديداً، مقصوداً، متعمداً؟ ولكننا الآن في موقف البوح والافضاء، أيها السيد الكريم، ولذلك فسأقولها أنا تلك الحقيقة وهي:

– أنك أنت كنت خليلها أيضاً... خليل تلك التي سميتها اميلي في قصتك.. وكنت تنعم بمفاتنها.. وتعيش كل يوم ساعات في ظلها... دون أن يخطر ببال الخواجه اندراوس ولو شبه ريبة من هذا كله... وقد كنت أنت، أيها السيد الكريم، الحب الوحيد الصحيح في حياتها... أما سائر مغامراتها الأخرى فقد كانت مجرد نزوات لا تدوم طويلاً... يخيل إلي أنها أحبتك لأنك كنت من طراز جديد، طراز الرجل المثقف، والمؤلف المشهور الذي تتحدث عنه الصحف والمجلات وتنشر مقالاته وقصصه وصوره وتشيد بنبوغه، ويجد في مجتمعه التكريم والترحيب والاعجاب... كانت تتصور أنها فازت بك، وانتزعتك من بين الفتيات والنساء المعطرات، اللواتي يحطن بك ويقرأن أدبك ويزدهين أنهن

يعرفنك ويلقينك في مجتمعهن... وأحسب يا سيدي أن تلونك، وتقلب عاطفتك ولهجتك الآمرة، إذ تتحدث.. أحسب أن هذا كله جعلها تهواك... وتذوب في غرامها بك... والعجيب... العجيب... يا سيدي... أنك كنت ترى أن هذا الحب لا يعدو أن يكون مغامرة عابرة في حياتك... كنت أنت تلهو... وتمرح... وتضيف هذا الغرام إلى قائمة انتصاراتك... وكانت هي تسهر الليل وتناجيك... وتستعد لساعة لقائك فتتزين وتتبرج، وتتعطر، وتملأ رحاب البيت زهراً وورداً وغناء وطرباً... وتخطر وتميس، في انتظار الحبيب الغالي...

أتسألني كيف عرفت هذا كله؟ ان جوليا، يا سيدي، كانت بنت حارتنا منذ نشأت... ولما كبرنا كانت كثيراً ما تهرع إلي تستشيرني وتطلب رأيي فيما تلقى في حياتها... وكانت تفضي إلي بدخيلة نفسها ولا تخفي عني من أمرها شيئاً... كانت يا سيدي، إذا نأيت عنها، وعذبتها، ووقع في وهمها أنك توشك أن تقطع ما بينك وبينها... كانت تهرع إلي وتبكي وتبثني أشجانها وترتاح إلى كلماتي الحادبة المشفقة... وما أكثر ما انصرفت وهي تستغفر اللّه، أشد ما تكون احساساً باثمها، وقد عقدت العزم أن تقلع عن غيها، وتطهر نفسها بالحرمان، والعكوف على الاستغفار وطلب رحمة اللّه... ولكنها كانت لحظات سرعان ما تمحى من أفق نفسها، فتعود أشد ما تكون تهالكاً على أسباب الغواية والضلال...

هذا كله، أيها المؤلف المفتن، لماذا لم تذكره في قصتك؟ ثم هي نفسها لماذا لم تشر إلى مغامرتك معها ولو اشارة سريعة عابرة في حديثها إليك منذ قليل؟ أتراها ضنت بحبها -الوحيد- على البوح؟ ثم أرأيت يا سيدي ماذا صنعت بنا جميعاً في قصتك، حتى كدنا أن ننكر أنفسنا؟ لماذا لم تكن أميناً، محايداً في سرد الحوادث، لماذا غيرت وبدلت في ملامحنا لماذا تركتنا هكذا مضيعين، وحائرين، وقد فقدنا حقائقنا، ومعالم شخصيتنا؟... انك شردتنا، يا سيدي،

وسنغادرك الآن لكي نبحث لنا عن مؤلف غيرك يضعنا في قصتنا الحقيقية... ويرد إلينا ما ضيعته أنت من أنفسنا.. وما محوته من ذواتنا...

أتعود ثانية إلى الحديث عن حرية الفن والفنان؟ ماذا يهمنا نحن... ثم انك لن تقنعني بقولك اننا نحن أنفسنا ناقض بعضنا بعضاً في سرد حقائقنا، وأن كلاً منا روى قصته من زاوية بعينها، ورواها الآخر من زاوية غيرها... واننا نحن أيضاً قد بدلنا وغيرنا، وأظهرنا أشياء وأخفينا أشياء، ووضعنا على وجوهنا أقنعة، واننا لم نكن صادقين كل الصدق... انك لن تقنعني أبداً... ولا أزال أنا، بل لا نزال نحن، نصر على البحث عن المؤلف الذي يضعنا في قصة معقولة... قصة تتحدث، عنا، وتروي أخبارنا دون ما تلفيق... سنظل حائرين، مضيعين، ما لم نجد المؤلف الآخر الذي يستطيع، باخلاص، أن يضع قصتنا في اطارها الملائم لها... وأن يصور مشكلاتنا، وهمومنا، وأزماتنا، تصويراً لا يداخله التحريف...

وداعاً يا سيدي... سنظل نبحث حتى نجد ذلك المؤلف الذي يردنا إلى حقائقنا... ويعيد إلينا معالم شخصيتنا...

نهاية الرحلة

- تقول أنه مات... مات...؟
- مات في لحظة كان قبلها في تمام عافيته...
- انها السكتة القلبية اذن...
- هي تلك.. كما قال الطبيب.. كان رجلاً طيباً...
- ايه يه.. دنيا.. نمر فيها كالأشباح...
- وقع في دكانه.. بين العمال.. تصور
- أشباح.. نحن أشباح في هذه الدنيا...

وتنهد مجدي بك، ومر بيده على ذقنه يتحسسها وعاد الحلاق يقول له:

- تسمح أحلق لك؟
- طبعاً.. طبعاً...

كان يرتاح لـ «سمعان» الحلاق، يرتاح لحديثه وليده الخفيفة، انه يمر هكذا بالموسى على صفحة وجهه بخفة، بلباقة، ويحس دائماً أنه يعنى بشأنه عناية خاصة، كلماته تترفق به ترفق هذا السلاح الماضي في يده... وقد زال الكثير من الكلفة بينهما على فرق المنزلة الاجتماعية... كان قد ارتاح إليه منذ أمد.. انها سبع سنوات طوال.. أم تراها أكثر؟... وقد ألف مجدي بك هذا الدكان الصغير، وهذه المقاعد، وهذا العبير الدائم الذي يشيع في أرجاء الدكان، وزجاجات العطر والقوارير العديدة، في بعضها قطن أبيض نظيف، وفي بعضها الآخر معاجين

طرية، ناعمة، كأنها المراهم، وفي غيرها مادة التعقيم... ثم الأمواس والمقصات والأمشاط، والفوط البيضاء، الناصعة، والمرايا المتألقة، وجهاز الراديو الصغير، العاجي اللون لا ينفك يرسل أنغاماً هادئة خافتة، كأنها آتية من بعيد... من بعيد... وما أبرع سمعان الحلاق في التقاطها من بين شتى المحطات... وسمعان كله ذوق، وهو وان زال الكثير من التكلف بينهما، فانه لا ينسى أن يدعوه بلقبه العزيز عليه بعد أن زالت الألقاب.. انه يقول له دائماً، ودون ما يخطىء مرة واحدة: مجدي بك أهلاً وسهلاً.. مجدي بك، صحتك اليوم عظيمة والحمد لله... مجدي بك الجو اليوم يلائمك... البرد خفيف، والشمس دافئة.. ويبتسم مجدي بك مزهواً ويهز رأسه ويقول له:

«سأسهر الليلة عندك..» والسهرة عند سمعان الحلاق حلوة ودافئة ومريحة.. وكان مجدي بك يعجب أحياناً كيف استطاع هذا الحلاق الظريف أن يكون له مثل هذا البيت بحديقته الصغيرة، وسلمه الرخامي، وشرفته التي تزينها الورود، وغرفة الاستقبال التي تتوسطها سجادة عجمية مزدانة بعناقيد الزهر، وليس فيها أكثر من أربعة أو خمسة مقاعد مريحة، حديثة، وجهاز تلفزيون ورسوم ذات ألوان زاهية في اطرها المذهبة، وكان مجدي بك يتخذ لنفسه مجلسه في ركن قد اعتاده، ويروح يشاهد ما تعرضه شاشة التلفزيون من هذه البرامج المختلفة تحملها إليه عمان، وسائر المحطات، ويستمع إلى همسات سمعان الحلاق، وتعليقاته السريعة المؤدبة على هذه البرامج... وكان مجدي بك لا يجد غضاضة في أن يشرب كأساً أو كأسين من الوسكي مع سمعان الحلاق.. هكذا على مهل، وبنشوة يسيرة ممتعة.. وقد يتناول قطعتين صغيرتين من شواء الكبد، وقطعاً أخرى قليلة من هذا اللحم الطري الذي تعالجه الست أم أنيس بالزبد والبهارات وتفتن في صنعه ايما افتنان... وتبلغ نشوة مجدي بك ذروتها حين تقبل زوجة سمعان الحلاق مشرقة الوجه، متضوعة العطر، رشيقة القدم، فتجلس وهي لا تنفك ترحب بمجدي بك، وتبتسم له، وتخافت من صوتها اذ تتحدث اليه، وتضج ضاحكة مرحة اذا

روى بعض المفاكهات، او انثالت على لسانه ذكريات الشباب.. وكان يتضاحك هو الآخر ويقول:

- كان هذا ايام زمان.. ايام أنس.. ايام حلوة... ويقول سمعان:

اي والله.. أيام حلوة.. ليتها تعود...

انها مجاملة لطيفة ولا ريب.. فان سمعان ما يزال شابا، يصلح ان يكون ابناً لمجدي بك... ألا يمكن لمن بلغ الأربعين أن يكون من ابناء من تخطى السبعين؟ ولكن ماذا تراه يخسر حين يطيب خاطر مجدي بك بهذه الكلمات واشباهها؟

وتحمله السيارة الى غرفته في الفندق. تشق به الطريق، وتهبط من هذا الجبل وتصعد ذاك الجبل من جبال عمان، ولا ينفك مجدي بك يدير عينيه في الشوارع، واضواء النيون، وواجهات المتاجر، ويلمح السائرين لمحا، ويعجب لمن يتسكعون في الطرقات، ويخطر له انه أحسن صنعاً إذ قدم لحلاقه بضع زجاجات من الويسكي.. انه يفعل هذا بين حين وآخر، ويقول له: «انها هدية بسيطة.. بسيطة..» وكذلك بعض الدنانير كان يمنحه اياها مع راتب الحلاقة الشهري، ويهمس في اذنه: «احتفظ بها.. ساحتاجها في يوم من الايام...» فهو لا يريد ان يقع في روع سمعان الحلاق انه... انه... وتراءى له، والسيارة ما تزال منطلقة به الى فندقه، كأنه بهذا كله يشتري شيئا ما، شيئا عزيزا، ما اعمق حنينه اليه، ولكن ما هو هذا الشيء؟.. ان خاطره اصبح لا يسعفه، هذه الايام، بما يريد التعبير عنه.. ولم يستطع ان يرى في افق نفسه الا صورة هذه السهرة الدافئة... العائلية.. وهذه الاحاديث المؤدبة اللطيفة، المرحة احيانا، والضحكات الحلوة.. ونشوة الكأسين...

ومع ذلك فها هو ينكفىء عائدا الى فندقه، الى وحدته، الى هذه الجدران

الاربعة، الى وجوه الخدم. ونفاقهم.. ولهجاتهم المؤدبة الباردة، والى فطور الصباح الذي لا يتغير ابدا: مربى، وزبد، وبيض، وشاي وحليب، وحليب وشاي وزبد وبيض... باستمرار... الالوان الابدية نفسها: في قاعة الاستقبال، في الردهات، في غرفته، في الشرفات، في الحديقة الكبيرة... حتى الحديقة اضحت لا توحي له بالمودة، وبالبشاشة، وابتسامة الصداقة...

كان مدير الفندق يهرع الى لقائه، ويرحب به، ويضع نفسه تحت امرته.. ومع الايام والليالي... يبدو انه سئم... وتبلد... فهو لا يكاد يرفع رأسه اذا رآه خارجا او مقبلا يتوكأ على عصاه.. غاية ما يفعله ان يبتسم احيانا ابتسامة مصطنعة آلية، تنفرج عنها شفتاه قليلا، ثم تعودان فتنطبقان باسرع من لمح البصر...

ويوم اقعده المرض واشتدت عليه وطأته، ضاق به الفندق.. وتقدم المدير الظريف ينصح له بكلمات مؤدبة ان ينتقل الى المستشفى.. وامضى في المستشفى اسابيع، ثم عاد الى الفندق مضطرا... والا فأين عساه كان سيذهب؟ وعادت الصور نفسها تتكرر.. ولا منجى الا هناك.. في ذلك الركن الدافىء.. والحديث اللطيف، ونشوة الكأسين، والمفاكهات المحببة، ورواية الذكريات البعيدة.. كان ذلك ايام زمان... ايه... ايام زمان...

وايام زمان كان مجدي بك في عنفوان شبابة: يشرب، ويأكل وينصب شباك الغواية، ويطلق ضحكة عريضة، مدوية اذ يرى الحياة تمتد امامه ولا نهاية لها... ولا آخر لورودها المنثورة تحت قدميه... وهل يمكن ان يكون للحياة الضاحكة، المزهوّة، حد؟ اين تراه هذا الحد؟ ان العين لا تتبين منه شيئا على الإطلاق... وانما هي جنة مترامية الاطراف... واغبياء اولئك الذين يموتون قبل الأوان.. بل لا اوان هناك.. وليس في الحياة كلها ما يساوي حزن ساعة.. وكيف يحزن الناس... ولماذا يحزنون.. ولماذا يموتون... ولماذا يحملون الهموم.. انهم يصنعونها بايديهم

ويضعونها فوق اكتافهم... بل لماذا يموتون؟ اغبياء... دون ريب...

ويوم جاوز الاربعين اخذ يتئد قليلا.. يتريث.. عاد لا ينصاع من فوره للنفس الأمارة... ويتردد... كأنه يواجه مشكلة عويصة..فلا يتخلص منها الا بالاندفاع من جديد... فيحب.. وينفق عن سعة.. ويتخذ من هذه وتلك خليلة شهرين او ثلاثة... ثم يعاف اللون الواحد، والطعم الواحد، ويبحث عن جديد.. ويبالغ في التأنق ويبالغ في الأمر والنهي في مكان عمله... ويعبس، ويتجهم، وينصب قامته، ويشدها شداً كلما قابله أحد مرؤوسيه من الشبان... وفي نهاية الدوام يمضي قبلهم مرفوع الرأس، مبروم الشارب، وقد أمال طربوشه الأنيق إلى الجانب الأيمن من رأسه، ودس يده في جيب بنطاله.. فهكذا ينبغي أن يكون حزم الرجال وعزمهم...

كان شعوره بأهميته، في تلك الفترة من حياته، قد ملأ نفسه وكان ربما لاح له أنه يحسن أن يستقر، ولا استقرار بدون زوجة وبيت، ولكن أليس في الوقت متسع؟ والحياة أليست جنة مترامية الأطراف، دانية القطوف؟ من قال هذا؟ غباء وسخف... فإن لكل شيء نهاية... وستكون لكل حياة نهاية... وما أكثر المنغصات والهموم.. انه يعاني منها كل يوم... والمرض، لعنه الله... يأتيك من حيث لا تحتسب... مرض يومين أو عشرة.. هو مرض السلام.. ولا تنهض منه إلا متخاذلاً، منهوكاً، ولا بد من أيام تمضي قبل أن تسترد عافيتك وقوتك.. والناس كلهم يمرضون فما شكواك؟...

إلا أنه ما تزال في العمر سعة.. وإذا كان لا بد من زواج فيجب أن تتمهل.. أن تفكر.. أن تتروى.. لكي تختار.. ليكون اختيارك صحيحاً، موزوناً، هذه مسألة لا يجوز فيها الخطأ أو الزلل.. وفي العمر سعة... وأنت لست على عجل من أمرك... سبحان الله متى كنت تتخذ القرارات الخطيرة بسهولة، دون روية، دون امعان تفكير؟ رح يا شيخ... دع هذا التفكير الذي يحيرك.. وهل ثمة من

شيء أثمن من هذه الحرية الرائعة التي تنعم بها، حرية يتلهف عليها الكثيرون من أولئك الأزواج المساكين.. الرازحين.. تفترسهم زوجاتهم ببطء.. ويفترسهم الأبناء.. والهموم.. ومشكلات العيش..

كنت تفكر في «الهام»... فكرت طويلاً أن تصبح زوجة لك.. بل أوشكت أن تتورط حقاً.. هممت أن تطلب يدها.. وماذا أعجبك فيها؟ قدها، عيناها، شقرة شعرها، اكتناز بدنها؟ ألست تجد هذا كله وأكثر منه وأمتع في انصاف، وسعاد، وهيام،... تغص بهن حياتك.. رح.. رح.. لا تكن سخيفاً.. لقد تمتعت، وانتشيت، ولم ترتبط بواحدة منهن.. لم تضع، بعد، قيداً في يدك.. أتراك تجازف حقاً، وتضع اليوم هذا القيد طائعاً مختاراً؟.. انك والله لأحمق.. وحتى وأنت في الخمسين ما تزال العين تراك شاباً ملء اهابك قوة وعزم ورجولة..

نعم كان يحسن أن تتزوج... أن تجد بنت الحلال.. وصحيح أن «الهام» قد أصبحت زوجة لسواك منذ طويل.. وأن لها لأطفالاً... وصحيح أنك رأيتها، وقد ترهلت، وأهملت نفسها، وذبلت ملامح محياها، وكأنما قد انطفأ فيها شيء تحس به ولا تدركه.. صحيح.. ولكن أما كان يحسن أن تتزوج؟ أن تكون إلى جانبك امرأة تسكن إليها، وتعنى بك، وتملأ لك هذا الفراغ؟ انه هذا الفراغ الذي يعذبك اليوم.. حتى الكتاب لم يعد ينفع ولم يعد صالحاً لقتل الوقت... انك مثل الكثيرين الذين تعلموا... ودرسوا حتى في اوروبا نفسها.. ومع ذلك بقي الكتاب في اعتبارهم، أداة لقتل الوقت.. وهل أمسكت يوماً بكتاب إلا مترفعاً، متعالياً، ومشمئزاً في بعض الأحيان.. وهو لن يفيدك اليوم شيئاً، لن يملأ فراغاً في حياتك... أتراك تأسف؟ وما جدوى الأسف؟ ألم يكن نصيبك هو الأوفى؟ انك من القلة المختارة التي عاشت بلا قيود.. بلا هموم... بلا مشكلات... بلا زوجة وأولاد... سيخدمك الجميع فأنت والحمد لله ذو مال..

كانت رحلة طويلة، حط مجدي بك رحاله، بعدها في دكان سمعان الحلاق،

وكانت الرحلة في نهايتها.. وانه ليحمد الله... فما زال يتحرك.. ويروح ويجيء، ويتحدث، ويسهر عند سمعان الحلاق مرة، مرتين في الاسبوع، ولقد منعه أطباؤه من أشياء كثيرة، وأباحوا لن أن يشرب كأساً أو كأسين من الوسكي أحياناً، وقالوا له أنه ينفع شرايينه، على أن لا يبالغ ولا يفرط.. وقد أحب سمعان الحلاق حقاً، وارتاح إليه، كثيراً، وما شكا يوماً أو توجع أو تأوه إلا بادر يقول له:

– سلامتك مجدي بك.. سلامتك.. راح الشر..

وشيئاً فشيئاً أخذت تزول الكلفة بينهما، وتمحي الفوارق، كان الأصدقاء قد انفضوا من حوله، وتخطف الموت أكثرهم.. وكان هو لا يبكيهم لأنه في شغل شاغل بنفسه، وأمراضه، وأوصابه.. وما أضيق العيش، وما أقصر الحياة.. بالأمس فقط كانت القطوف دانية حتى ليحيرك الاختيار.. وكانت الدنيا فسيحة، عريضة، لا نهاية لسعتها.. وماذا أنت الآن؟ ذبالة تحترق، اناء نضب ماؤه حطب كان، ذات يوم، شجرة فينانة خضراء، ماذا أنت؟ كان يسائل نفسه أحياناً فترتعد أوصاله، وتنبهر أنفاسه، ويسارع إلى دكان سمعان الحلاق، فيضع نفسه بين يديه ينعم بحلاقته النظيفة، وكلماته المعسولة، وتبهجه فكاهة يقولها، أو دعابة ظريفة تزيل الهم عن قلبه... ويضحك مجدي بك ضحكة خارجة من القلب، ثم ينتابه سعال طويل، ويرتج جسمه، ويروح يلتقط أنفاسه.. ويقول في النهاية «سمعان.. سأسهر عندك الليلة..» ويشعر، من فوره، أنه يذوب من فرط الحنين والانعطاف والتطلع إلى تلك الساعة التي يسترخي فيها هكذا... ويمد رجليه الموجعتين، ويشاهد برامج التلفزيون ويستمع إلى تعليقات سمعان الحلاق وهمساته، ويشرب الوسكي متمهلاً، متذوقاً، ويتناول قطع اللحم الشهي، ويرخي اذنه متوقعاً، في كل لحظة، أن تقبل أم أنيس وتملأ حجرة الاستقبال شذاً وطيباً واشراقاً..

مرة واحدة فقط خطر له خاطر أزعجه، ولا يدري كيف طرأ هذا الخاطر على ذهنه: تصور أنه يعيش على فتات مائدة حلاقه... رأى نفسه كشحاذ على بابه.. يمد يده مستعطياً، ذليلاً، منسحق القلب.. في ذلك اليوم لم يبارح فندقه... وآثر لؤم مدير ذلك الفندق، وابتسامته الكريهة، وحديقته الكاذبة، وصور الأشياء والمرئيات المعادة المكررة ألف مرة... وانطوى على نفسه يجتر آلام روحه.. ولكنه، في الغداة عاد ليرى من جديد زجاجات العطر، وقوارير القطن والمعاجين، والأمواس، والمقصات، والأمشاط والفوط، وجهاز الراديو، العاجي الصغير، والمرايا المجلوة التي ترد إليه صورة من شخصه تروي له تاريخ حياته بسرعة الخواطر التي تمر في الذهن.. عاد ليرى هذا كله.. ويهز رأسه، ويذكر كتاباً واحداً من بضعة كتب قرأها... يذكر «صورة دوريان غراي». ولا يدري هل يأسى، أم يأسف، أم ينسى... ينسى كل شيء.. ولا يهتم إلا باللحظة التي هو فيها.. ويتأدى إليه صوت حلاقه:

- كان جاري.. كنت أحب صباحه كل يوم... مات في دكانه فجأة بين العمال.. رحمه الله.

هكذا يمضي الناس اذن؟ وألقى مجدي بك نظرة إلى الشارع الكبير.. ومر شريط الحياة أمام عينيه.. رأى فتاة شابة نشيطة.. وعجوزاً شمطاء.. الفتاة تسير بخفة ورشاقة وسرعة، وعلى مبعدة منها العجوز تشيل قدماً وتحط أخرى بجهد عظيم.. ومر رجال، وعجائز، وصبية، ونساء، وباعة متجولون، وسياح أجانب، وفي الزحام كانت تسير جنازة ميت... لا يكاد يلتفت إليها أحد، ووقع في روعه أنه هو المحمول هكذا على الأكتاف، وسمع بعضهم يقول: «رحمه الله..» ومال آخر على اذن رفيقه وقال: «لقد مات أخيراً.. كنا نحسب أنه لن يموت..» وخاض آخرون في سيرته: كان رجلاً طيباً.. لا... لم يكن طيباً... كان تافهاً... بل كان زير نساء.. بل كان متغطرساً جباراً.. بل كان وكان.. يرحمه

اللّه.. ما تجوز على الميت إلا الرحمة... واستفاق مجدي بك من ذهوله، ومر بيده على جبهته، وتمتم الحمد للّه... الحمد للّه.. والتفت إليه سمعان الحلاق جازعاً:

- سلامتك مجدي بك..
- سلمك اللّه..
- هل تشعر بشيء؟
- كلا.. إنما الحمد للّه.. الحمد للّه...

ولم يفهم الحلاق شيئاً وهو واقف يفرك يديه.. ثم ما لبث أن اشرقت أساريره وهو يسمع مجدي بك يقول له بلهفة:

«سأسهر عندك الليلة.. سأسهر عندك الليلة...».

نفايات

كنت أعرف أنه طماع، كنت أرى طمعه الكثير في عينيه، تنظران إليك وكأنما تسألانك شيئاً ما باستمرار، بالحاح، بوقاحة متناهية. ما رأيت مثلهما عينين تلتهمان كل شيء. تلتهمان خبزة تأكلها، وهواء تستنشقه، وحذاء تنتعله، تلتهمان الوجوه، والسماء، والماء، وحجارة الطرق، وزهر الحدائق، كل شيء حتى النفايات...

يأتي في الصباح الباكر، يدق الباب بقبضته، ويتعامى عن الجرس الكهربائي فلا يضغطه أبداً. هكذا.. بقبضة يده دائماً يدق الباب دقاً. انه لا يطرقه بلطف، ولا ينقر عليه باصبع أو باصبعين، ويتعامى دائماً عن الجرس الكهربائي، يضع وقاحته كلها في قبضته ويدق، حتى أخرج له بصندوق القمامة فيتناوله دون أن يفوه بكلمة، حتى تحية الصباح لا يلقيها. وأعود أنا فأغلق الباب وأدعه وشأنه مع صندوق النفايات. ومرة حدثتني نفسي أن أرى ما يفعله. أتراه يفرغ الصندوق في الكيس الكبير ويمضي؟ كلا. أبداً. انه يروح يتفحصه، وينبشه بأصابع يديه الاثنتين، وبعينيه الطماعتين. ويظل ينبش ويبحث باهتمام وبهمة غريبة. وأحياناً يضع في جيبه شيئاً ما يجده بين النفايات والأقذار. وعبثاً حاولت أن أعرف هذا الشيء. وكنت أكره أن تلتقي عيني بعينه، لأنني أحس أنه يكاد يلتهمني عندئذ: يصوب إلي نظرة جامدة، نظرة تريد دائماً شيئاً ما. كأنها تأمرك بأن تمد يدك إلى جيبك وتستخرج هذا الشيء وتدفعه له.

حدث أن أعطيتـه قطعـة نقود مـرة وبعـدها ازدادت نظراته الحـاحاً وتوغـلاً. وأعطيته مرة أخرى، وثالثة، ثم أحسست أنه غدا يستفيد من الموقف بلؤم، غدا يستغلني. ربما أدرك أنني لا أطيق نظراته. ربما خيل إليه أنني أخشاها. قلت في نفسي: لا.. لا يمكن.. لن أعطيـه شيئاً بعـد اليوم. ومع ذلك بقيت أتهـرب من نظراته، وجعلت أرقبـه من النافـذة خلسـة دون أن يراني فـألمحه يسير مـتقلقلاً، مرتجاً، وعبؤه على ظهره، ولكن عينيـه الملتـهمتين الطماعتين تحملقان في كل شيء، حتى في حجارة الطريق، انه طماع، طماع كبير. ومضت أيام كثيرة وأنا لا أنفك أسائل نفسي: ماذا تراه يجد، وعم تراه يبحث في صناديق النفايات؟ وهذا الشيء الذي كان يدسه في جيبه، دون أن أتبينه، ما هو؟ كسرة خبز يابسة؟ بقايا من مـربى في علبة؟ قطعـة جبن فـاسدة؟ شيء من لحم مـحفـوظ؟ نصف برتقـالة ملقاة؟ لا، لا شيء من هذا على الاطلاق. ما حاجته إليـه؟ إن أحداً لم يمت جوعاً بعـد. مرة واحدة استطعت أن ألمح هذا الذي يبحث عنه ويجده أحيـاناً ويسـارع فيغيبه في جيبه. كان قد نبش النفايات والقاذورات طويلاً، حتى تصبب عرقه في ذلك اليوم الذي اختنق هواؤه، ثم أمـسكت أصابعه بهذا الشيء.. أطبقت عليـه كأنهـا كلابة. وبخـفة عجيـبة دسه في جيب بنطاله الرث، ثم راح يجفف عـرقه المتصبب بطرف حطته المزقة، ومسح شاربيـه المتهدلين براحة يده، وزم شفتيـه، وتلمظ كـأنه قد تناول، من توه، قطعـة من الحلوى. وكان هذا الشـيء الذي لمحتـه في يده: ملعقـة صغيرة من مـلاعق الشاي. طبعاً فهـو يجد ملعقة في يوم، وشوكة طعـام في يوم آخر، وسكيناً في يوم ثالث، وأشيـاء كـثيـرة مماثلة كـل يوم، كل يوم... وفي البيوت أطفـال، وخدم، وستات لاهيـات.. والأطفال والخدم والستـات يلقون أشيـاء البيت هكذا بلا مبالاة. ومع فضـلات الطعـام، ومع النفايات تذهب الملاعق، والشـوك، والسكاكين، وربما الصـحـون، والأطبـاق والفناجين وغـيـرها، وغيرها، فـيجمعهـا هو، يبحث عنهـا بحذق، ينبش النفايات والفضـلات وقشر الخضر والفاكهة بمهارة الخبير الماهر المتدرب فلا تخطئها يده أبداً. انه لا ينفض

يديه من القمامة والنفايات إلا بعد أن يستوثق، ويطمئن إلى أن ليس فيها شيء، أو لم يبق فيها شيء مما يبحث عنه.

شاهدته مرة يلتقط شيئاً عن جانب الطريق. أنزل العبء عن كتفه. حطه على الأرض كمن يلقيه بكراهة وحقد دفين. ثم انحنى قليلاً، وانحنى كثيراً، والتقط هذا الشيء: قطعة نقود.. قرش.. خمسة قروش.. من يدري؟ التمع في كفه هنيهة ثم ألقاه في جيب بنطاله المهلهل. واستراح لحظات. جلس نصف جلسة فوق قمة كيس القمامة الكبير، وعاد فجفف جبينه، بطرف حطته، ومسح شاربيه براحة يده، وتلمظ... لماذا تراه يفعل ذلك كلما وجد شيئاً؟ غنيمة.. أليس كذلك؟ خيل إلي أن القط يفعل هذا أيضاً، بعد أن يخطف قطعة لحم أو فخذ دجاجة ويأكلها نهشاً بأنيابه يروح يتلمظ هكذا، ويدور بلسانه حول شفتيه مستمرئاً مسروراً. انه يفعل هذا بدون شك. أما هو، ذلك الزبال الصفيق، فانه يزيد على ذلك فيمسح شاربيه براحة يده، كأنه يثني على نفسه، ويطمئنها بأن الغنائم لن تنفد أبداً..

كنت أعرف، منذ أمد طويل، انه طماع. ثم غدوت أتصوره، وقد جمع أكواماً من ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق وأدوات أخرى شتى، وهو يبيعها ويتجر بها ولا شك. تجارة سهلة، وربح، ربح.. ربح... أراهن أنه لم يستشعر الندم قط، وأقسم أنه يخون ويغدر ويأخذ ما ليس له فيه حق بكل ارتياح. اشتهيت ولو مرة واحدة في العمر أن يطرق الباب، دون صفاقة، ويقول: «وجدت هذا.. في صندوق الزبالة» لو فعل لرثيت له، لأحسست أنه يتعب ويأكل خبزه مغموساً بعرق جبينه، ولكنت خليقاً أن أساعده، وأعطف عليه، وأمنحه قطعة صغيرة من نقود بين حين وآخر. ولكن لا.. مستحيل. طماع هذا الرجل. وذو تجارة. وغنائمه لا تنفد... لا تنفد.. وفوق هذا كله ما أوقح نظراته التي تلتهمك، وتهبط إلى أعماقك. ولن أنسى أنه يخبط الباب بقبضته الصلبة، انها تقتحم علينا هدوءنا وصفاءنا. ولماذا تراه يتعامى عن الجرس الكهربائي فلا يضغط زره أبداً؟

وارتديت ملابسي. كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة صباحاً. ولما صرت في الشارع خطر لي أن أدور ببصري هنا وهناك، وأحملق في الأرض، والحجارة، في كل شيء، فقد أجد هذه القروش التي يجدها هو. أين هي؟ أين تراه يجدها؟ انه يذكرني بالحواة الذين يستخرجون الحيات والأفاعي من الشقوق وأكوام الحجارة. ومضيت، مضيت، فأنا لا أحب أن أتأخر عن صديقي «أبو محمد». في هذه الساعة نجلس معاً نشرب فنجان قهوة، ويسرني منظره وهو يستل أنفاساً مديدة من نارجيلته، ولا يفتأ يقدم لي سيكارة، ثم أخرى، ثم ثالثة من سكائر فاخرة يدخرها لأصدقائه. أبو محمد رجل محترم. تاجر محترم. صديق محترم. لا يمكن أن يدخل على ماله قرشاً واحداً غير حلال. هذا الرزق الحلال يستأثر باعجابي حقاً. ويعجبني أكثر من هذا ذكاؤه. رجل ابن صنعة. ولو لم يكن كذلك لما استطاع أن يجد لكتفيه متسعاً في الزحام، ولما استطاع أن تكون له في تجارة الجملة قدم راسخة. ينفث دخان نارجيلته هكذا بهدوء وثقة بالنفس، ويكتب لك «الفاتورة» متأنياً كأنه يقوم بأخطر مهمة في حياته، ثم يأمر أحد أجرائه أن يهيء لك هذا الكيس، وذاك الشوال. وتدفع له الحساب مطمئناً ولسان حالك يقول: «أبو محمد رجل محترم» وحتى يوم فقد التمباك العجمي من السوق لم تنفرج الأزمة إلا على يديه هو... رمى في الأسواق ما اختزنه منه. وجاءه الربح الحلال يسعى إليه مجرراً أذياله. يومها قلت له:

- من كان يظن أن هذا سيحدث؟ حصافتك أنقذت السوق.. وأجابني على استحياء...

- أستغفر الله.. أستغفر الله.. كان الأمر مجرد مصادفة لا أكثر ولا أقل.

هؤلاء الرجال ما أبرعهم. خذ، مثلاً، صديقي الآخر «أبو الياس» الكومسيونجي. رأس ماله: قلم وورق ولغة أجنبية يجيدها. إنني لا أراه إلا مكباً يكتب رسائله أو على الأصح يدقها على الآلة الكاتبة دقاً ويرسلها إلى الخارج.

وتأتيه عينات من معلبات، وعطور، وأقلام، وأدوات مطابخ، وجوارب، ومناديل، وربطات عنق، وأمشاط، ودبابيس، ومعاجين أسنان، ومعاجين حلاقة، وكريمات تطرية للستات، وتحف، ولطائف، وحمالات مفاتيح، وشفرات حلاقة... أشياء كثيرة لا أول لها ولا آخر يمتليء بها مستودعه، ولا ينفك هو يبيع منها ويبيع، ويأتيه غيرها، وغيرها... وانها لكافية، بل فوق الكفاية.

تدخل بيته فينشرح صدرك. جمع قرشاً فوق قرش، وبنى هذه الدارة الأنيقة، قال لي يوماً ونحن نشرب الشاي في ركن من حديقته المنسقة:

- البساطة هي سر الجمال

وأعجبت أنا بهذه البساطة، فهي واضحة في كل شيء.. حتى في هذه المقاعد الوثيرة التي أوصى عليها من ايطاليا، تجلس على احدها فيخيل إليك أنك تغوص فيها مرتاحاً منتشياً كأنك في عالم الأحلام. وأنت واجد هذه البساطة في الحديقة وممراتها المعروشة، وأحواضها التي يحتشد فيها الزهر شكولاً وألواناً، وفي هذه النوافير الرشيقة تمج الماء حلقات ودوائر وسهاماً منطلقة لا تلبث أن تنكسر، وتتهاوى قطراً يتفقأ فوق مرمر ورخام... هذه البساطة أخذت بمجامع قلبي، وذكرتني بذكاء صديقي، وذكرتني بإكبابه المستمر على عمله، وتعبه الدائم وجلوسه ساعات طوالاً في مستودعه يتلقى الطلبات هاتفياً، ثم يأمر فتلف تشكيلة من العينات وترسل على جناح السرعة إلى طالبيها. أهداني مرة ربطة عنق من باريس. قلت:

- ادفع ثمنها.. لا أريدك أن تخسر..

قال:

- ولو.. أنت صديق وما خسارة دينار إذا أرضتك؟

هؤلاء رجال لا يلتهمونك بعيونهم، ولا يهبطون إلى أعماقك، ولا يقرعون باب بيتك بقبضاتهم. وحسبك منهم هذه الابتسامات اللطيفة، وهذا الكلام الحلو، والجلسات الممتعة، والحديث المفيد، والاخلاص الذي لا ريب فيه. وأنا لولا اخلاص صديقي أبو الياس لذهب مالي لقمة سائغة في فم الفتى السفيه: ابن أخي...

مات أبوه. وقمت أنا على تعليمه ورعايته. وقال لي أبو الياس يوماً:

- ومن يضمن لك أن يرد عليك بعض ما تنفقه عليه؟

وأفقت، ساعتئذ، من غفلتي. وسألته:

- وبماذا تشير؟

قال:

- دعه على الأقل يوقع لك توكيلاً بأرضه التي ورثها في جبل عمان.. انها كما قلت لي مرة، بضعة دونمات مربحة...

- توكيل؟

- أجل. ضمان لمالك. أستغفر الله.. هو ابن أخيك، وأنت عمه.. ولكن في الدنيا...

- موت وحياة...

- اذن فهذا التوكيل أمان لك..

ووقّع الفتى توكيلاً عاماً، شاملاً، مطلقاً... وأنفقت أنا عليه من حر مالي

طوال سنتين كاملتين. ولما اشتد عوده واستطاع أن يدبر أمره على نحو ما أشاح بوجهه، ولم يعترف بحق أو مال. واستعدى علي أصدقائي، وطالب بالأرض، وقال له أبو الياس:

- عمك عيب...

وقال له أبو محمد:

- عمك مكان والدك...

المهم: ولد عاق. جحود. لم تنفعه الدعاوي والمحاكم. وأنا لولا نصيحة صديقي لأكلني.. وانه والله لطماع، وان له لعينين وقحتين، نظراتهما مسامير تدق في صدرك. وما لامست أصابعه يدي إلا ارتجفت وخيل إلي أنها لا عمل لها إلا أن تنبش باحثة عن شيء ما، عن سر ما، عن غنيمة ما، ومن ورائها عيناه الجارحتان، الملحتان، المتلصصتان، أعوذ بالله... شد ما كفر بنعمتي وجحد حقوقي عليه. أف... أف... لعنة الله عليه ما أشبهه بذلك الزبال الباحث أبداً عن النفايات والفضلات والأقذار، لعنه الله هو الآخر، لقد أفسد علي يومي، وسأريه منذ الغد، منذ الغد سأطرده، لن أخشى عينيه الجامدتين، ولا قبضته القذرة تقرع بابي، سأقول له أنه لص، حرامي، يسرق ملاعق الناس وشوكهم وسكاكينهم وأطباقهم... سأقول له بصراحة اني رأيته كيف تنبش أصابعه الثعبانية صناديق القمامة وتستخرج أكواماً من ملاعق، وأكواماً من شوك، وأكواماً من سكاكين وأكواماً من أطباق تتكدس كلها في بيته ولا ينفك يبيع منها ويبيع. ويضع في جيبه مالي ومال الآخرين غنيمة باردة... هكذا دون خوف، دون مبالاة، بصفاقة نادرة. أجل... منذ الغد... سأركله ركلاً... سأطرده... ولن أعود أرى عينيه الملتهمتين... الجائعتين... ولا أصابعه الثعبانية التي تنبش، وتنبش، ولا تشبع أبداً... ولكن.. ولكن... والله لن أخشى قبضته...

المرأة والكلب

في ذلك اليوم كانت سماء باريس مرآة قديمة مغبرة... في ذلك اليوم ضقت ذرعاً بسماء باريس... شعرت أن باريس كلها أضيق من أن تتسع لانسان واحد يريد أن يقتل السأم بالبحث عن ذاته.... في ذلك اليوم كانت باريس شديدة الوطأة.. وسرت طويلاً، كنت أحس انني أكره كل شيء... أكره الشجر العاري،: عظام معوجة منصوبة في الطريق... عظام بمفاصل.. بعقد... عظام مخلوقات عاشت قبل التاريخ.. قائمة في كل مكان لتثير في نفسك الفزع... كنت أحس أنني أكره كل شيء... أكره هذه النافورة... وتلك النافورة... لفظت أنفاسها على قاعدة من بلور... وقاعدة من رخام منحوت... وعادت لا تمج إلا سأماً وملالاً... ملالاً لا ينتهي أبداً... كرهت في ذلك اليوم حتى صبايا باريس: أخفين الغدر بالابتسام... وبعطر شانيل... وبعطر ديور... عيونهن يطل منها البحث عن فريسة... عيون تصيبك بالخدر... وتستسلم أنت للخدر... وتتأهب لتحلم... ويمتد ظفر فيغتالك.... الجمال في باريس لا يرحم أبداً... فخذ حذرك منه... كن دائماً على حذر... وكنت أكره تلك المقاهي... في عواصم اوروبا لا تجد مثلها أبداً.... في كل خطوة مقهى... وفي كل ركن دكان يبيع سكائر الغولواز... والجيتان... والكابورال... ويبيع الفتنة،... والقهوة المعصورة... وهذه الأشياء الصغيرة التي تحملها معك للذكرى... ويبيعون الابتسام أيضاً... لكل شيء ثمن... كنت قد إعتدت أن أضع في جيبي ألف ابتسامة... حسبي أن أمد يدي وأستخرج منها ما أريد فأضعها فوق شفتي... وبعد قليل أزيلها...

أنتزعها... وأضع أخرى محلها... أخرى من لون مختلف... وشكل مختلف.... ومعنى مختلف... وأنظر إلى وجهي في مرآة لأرى.. لأستوثق انني نجحت في وضعها على شفتي محكمة، متقنة، بارعة... ومقاهي باريس كلها مرايا: جدرانها مرايا... سقوفها مرايا... زواياها مرايا... تريك شخصك من كل جانب... تفضحك في عيني نفسك... تفضح أنفك الغليظ القبيح، وعينيك المدورتين... والتواء ما في صورتك... تحدثك ساخرة عن سحنتك العجفاء.. وأذنيك العريضتين القائمتين إلى جانبي رأسك لتذودا عنك العطف والمودة... تحدثك عن قامتك القميئة التي شد ما شكوت منها...! أم تراك تحسب أنك من أرباب الجمال؟.

في ذلك اليوم كنت أرى الناس كلهم ذوي قامات هزيلة... قميئة... وآذان عريضة... وأنوف غليظة... كان يقع في روعي أنهم جثث ملقاة على أرصفة المقاهي... جثث قتلها السأم مثلي... وكان نهر السين يخترق باريس ملولاً.. صفحته غبراء كسمائها... ووقفت طويلاً عند جسر اسكندر الثالث... لقد كلت قدماي... كنت أريد أن أستريح... وبدت لي نصب منحوتة، قائمة على أطراف الجسر... نصب في قممها تماثيل صغيرة مجنحة... ربما تروي قصص حب وفتنة،: شعر من رخام... هل رأيت هذا؟ كيف يكون الرخام شعراً؟ اذهب إلى باريس اذن لكي ترى هذه المعجزة... ورحت أتأمل هذا الرخام.. أقرأ هذا الشعر... أتأمله... أتملاه... أستجلي سحره... ولكن السأم حجب الجمال... زواه... ذهب به.. وأبقى في النفس خواء.. قلت: «سيأتي المساء..» وفي انتفاضة واحدة تتخذ باريس زينتها.. انها لا تتبرج إلا ليلاً كالغانية اللعوب... وتمتد عقود أنوارها وتمتد... وتشع وتضيء... وتسخر من سأمك... وتستخف بوجودك.. على أصداء من موسيقى عربيدة... ورقص مجنون... ولهو حتى مطلع الفجر... وخفت... تذكرت أن رصاص الجزائريين لا ينطلق في باريس إلا في الليل.. رصاص يئز... ويروع... ويملأ الجو رعباً... ويجد مستقره دائماً في

الصدور... وقد لا يميز بن صدر فرنسي وآخر غريب... ومرت سفينة نهرية صغيرة، ذبابة، يسمونها هناك ذبابة... لا تفتأ تنفث دخانها الأسود الكثيف... سفينة جرباء... ذبابة ولا ريب... واشتد السأم... ولازمه الاشمئزاز... واستدرت فرأيتها... كانت تسير متمهلة خلفي... وكان بيدها سير مبروم.... ربطت به كلبها... امرأة ترتدي بنطالاً مخملياً... وفوقه معطف قصير ترابي اللون... وفي قدميها جزمة قصيرة العنق... وشعرها غلامي مقصوص.. وكانت عابسة... امرأة عابسة... في باريس، تلك والله معجزة من المعجزات... ألقت علي نظرة عابرة ألقت مثلها على النصب الجميل... وعلى حافة الجسر... وعلى الذبابة التي تسبح في ماء عكر مريد... وتلبث كلبها قليلاً وراءها، فالتفتت إليه، وانتهرته بنبرة آمرة... مخيفة... فانقاد لها صاغراً... وذيله بين فخذيه... كلب ما رأيت مثله: كبير... ضخم... له عضلاتٍ بارزة تتحرك إذا سار... وفكان عريضان، مروعان... تبرق فيهما أنياب راسخة.. مدببة.. وابتعدت المرأة.. وبدا لي كأنها خرجت لتوها من أطواء قصة لـ «تشيكوف» أو «غوركي».. لا أدري لماذا وثبت هذه الصورة إلى خيالي.. لا أدري أبداً.. وعدت أتسكع.. ونبرتها الآمرة لا تزال ترن في أذني... وكان «الانفليد» غير بعيد... لقد وضعوا في مداخله العريضة دبابة قديمة، صدئة، لماذا وضعوها هناك؟ أتراها من غنائم الحرب؟ ما أكثر هذه الغنائم في باحات الانفليد وفي ممراته... وفي حجراته. دبابة... لعبة أطفال... ما عادت هي ومثيلاتها بنافعة... قل ما نفعها في عصر الذرة؟ أولى أن توضع في المتاحف.. لا يزالون هناك يحتفظون برفات نابليون... أجمل من فتوحاته غرامياته... كان فاتحاً فيها أيضاً.. بل كان فاتكاً... هالة المجد فتحت له كل الأبواب... إذا لم تر لوحة تتويجه في «اللوفر» فأنت لم تر شيئاً.. وها هو يرقد في الانفليد... انه رفات وذكرى ولا شيء غير هذا... لا شيء... أبداً.. كنت أسير في اتجاه برج ايفل.. تاركاً ورائي الانفليد والكونكورد وساحة النجمة... وقوس النصر... والأشجار العارية...

العظام الخرافية المغروسة.. السوداء... وحاملاً على كتفي ذلك الكابوس: السأم... تركت لقدمي الاثنتين أن تقوداني.. عثرت باحداهن... ممن يمارسن الحب... ويبعنه... أبعدتها بحركة من يدي... وسمعتها تعوي ورائي... انك لن تنجو منهن في باريس.. سينلن منك ولو بكلمة... بضحكة يبصقنها في وجهك في أعقاب عبارة جارحة: «أيها المغفل... امض...» ومضيت... مضيت إلى مقهى «ملغاش» كانت المرآة المغبرة قد انفثأت رذاذاً.. وقلت: «سأشرب في ملغاش شاياً ساخناً في ركن هادىء... لن أدع لاحداهن أن تقترب.. حسبهن أولئك الضباط الصغار وقد أفلتوا من قيود حياتهم الصارمة لليلة أو ليلتين..» إن للبزة العسكرية، ولا ريب، سحرها واغراءها، ودخلت المقهى... وكانت المطربة الكهلة، المتصابية «اديت بياف» تغني بصوتها القوي الرنان من اسطوانة دائرة في صندوق زجاجي.. كانت أغنيتها جريئة... كانت تقول انها ما عادت لتهتم لشيء... لا للخير... ولا للشر.. والحب... والذكريات قد أعملت بها مكنستها... لا شيء.. لا شيء... لا شيء... وتذكرت انني شاهدت المطربة الكهلة تغني في مسرح «الكابوسين» كانت تذوب وهي تغني.. كانت تحلق بعينيها... بجسدها الضئيل.. كانت لحناً يرف في الفضاء... ولا شيء آخر... وفهمت لماذا يحبونها هناك... لماذا اغتفروا لها أن تحب شاباً صغيراً كأنه أحد أولادها.. ثم تتزوجه... وعاد صوتها الرنان يملأ «ملغاش»: لا شيء... لا شيء... لا الحب.. ولا الذكريات.. لا شيء... لا شيء... وبين خليط الموجودين كانت المرأة... ومعها كلبها... تقف هناك... في زاوية الآلة الحاكية.... كانت تصغي بكل جوارحها... وكانت تصاحب الأغنية بضربات خفيفة من جزمتها القصيرة... وساءلت نفسي: «لماذا تراها خرجت من تضاعيف قصة لتشيكوف؟» وسرت نحوها... سرت مطمئناً... واثقاً... سرت نحوها كأني أعرفها منذ طويل... واقتربت منها... وقلت لها وكأنني أواصل حديثاً انقطع منذ برهة:

- لماذا خرجت هكذا يا سيدتي؟

والتفتت إلي عابسة.

- ماذا تقول يا سيدي؟

- أقول... لماذا خرجت هكذا؟

- أهذه عادتك؟ تخاطب من لا تعرف؟

- ولكنني أعرفك...

- تعرفني؟

- أجل. وجدتك عند تشيكوف.. ذات يوم....

- أنت تهذي أيها السيد...

- إنك إحدى بناته... أو إحدى نسائه..

وضحكت طويلاً... وتطلع إليها كلبها الرابض عند قدميها... واسترقت أنفاسها.. ونادت كلبها:

«فيدال... فيدال..»

وانتصب الكلب... وكشر عن أنيابه... وارتعدت أنا وقلت لها:

- لا... يا سيدتي.. هذا لا يليق..

فقالت

- لا تخف.. لا شك أنك...

وعادت تضحك.. وتهتز من الضحك...

وجعلت أنا أقول:

- لا.. لست مجنوناً كما تحسبين... فهل لك بكأس يا سيدتي... هناك في ذلك الركن الهادىء؟ وصعدت في نظرها من قدمي حتى قمة رأسي.. وقالت:

- أجل.. نجلس هناك.. لقد أثرت فضولي حقاً... وجلسنا... وربض كلبها... قريباً منها...

ورحت أرتشف الشاي متمهلاً، ولا أنفك أحدق فيها النظر... وقلت:

- تشيكوف.. ربما تعرفينه؟

قالت:

- وشاهدت مسرحيته «حديقة الكرز» في الاديون، مسرح فرنسا
- وأنا أيضاً شاهدتها منذ أيام..
- ولماذا تراك حسبتني احدى نسائه.. نساء قصصه بالطبع...؟
- لا أدري.. ذلك من أوهام النفس... وربما كان السبب انني شاهدت أيضاً تمثيليته «النورسة» وتمثيليته الأخرى «الخال فانيا» ففيهما كما لا بد أنك تعلمين نساء مختلفات الطباع... قولي هل أنت معلمة؟
- ولماذا أكون معلمة؟
- لهجتك الآمرة أيتها السيدة... وهذا الكلب الضخم يرتعد فرقاً من نبراتك... إذا لم تكوني معلمة فأنت سيدة قاسية القلب ولا ريب.
- قاسية القلب؟
- هذا العبوس... وهذه النظرة الصارمة...
- عادة... مجرد عادة...
- ولكن عينيك.. ما أجملهما... لو سمحت لهما أن يكونا أكثر رقة.. وحناناً
- لا تحاول..
- محاولة بريئة... أؤكد لك... أتدرين أن السأم كاد يفترسني اليوم؟
- وحيد؟ أعني.. هل تعيش وحدك في باريس؟
- من الصعب أن يكون الانسان وحيداً.. هنا...

- سر... تنزه... اشرب... افعل ما بدا لك.
- ومع ذلك.. فثمة أوقات لا ينفع فيها هذا كله...
- هذا شأن العواصم الكبيرة...
- تفترس الناس... أليس كذلك؟
- يظهر أنك تعيش في.. أعني... في كتبك...
- آه.. لا... القصصيون هم الذين ينقلون الناس.. أعني يضعونهم في قصصهم...
- وأنت.. واحد منهم...؟
- قد أكون... ربما أكون... واحداً منهم؟
- وستضعني في قصة؟
- سأضع الكلب أيضاً.. تصوري هذا. أنت وفيدال.
- ولم؟
- يخيل إلي أنه لا يفارقك أبداً... أليس من العدل أن...
- طبعاً... ولكن.. ألا تضع معنا زوجي أيضاً؟
- زوجك؟ ألك زوج؟
- وسيأتي قريباً... موعدنا هنا...
- وماذا يفعل زوجك؟
- يعمل في آليات التلفزيون...
- وتلتقيان في المقاهي؟
- نلتقي في المقاهي.. أليس هذا أجمل؟
- أجمل.. أجمل.. كيف؟
- نغير الجو... جو حياتنا في البيت.

وجاء زوجها... كان نقيضها في كل شيء... كان ضئيلاً... قليل المنة... أعجف العود... وأومأت له بعينها أن يجلس.. كان فيه شيء واحد حي:

لسانه... تحدث كثيراً... وكان لا ينفك يضرب بكفه على كتفي... ويضحك.. بل يقهقه.. ويستبيح سكائري... وعلى حين غرة زجرته... كما زجرت كلبها عند جسر اسكندر الثالث. كلمة واحدة فقط: «اسكت» وسكت الرجل.. سكت صاغراً منقاداً... لو كان له ذيل لوضعه بين فخذيه.. ونهض لحاجة.. وابتعد وقلت لها:

– أتدرين؟ أنا لا يمكن أن أسكت... لن أسكت أبداً.

فقالت:

– أنت.. أمرك مختلف.. من طراز آخر.. علمت ذلك من اللحظة الأولى.

وراحت تتأمل أصابع يديها الاثنتين... أصابع مستطيلة... دقيقة.. بيضاء ناصعة... وابتسمت... كانت ابتسامتها من عينيها الزمردتين... ابتسامة خفيفة... حلوة... مسكرة... تندس في صدرك... في اهابك... ناعمة... ومثلها ابتسامة «الجيوكوندا» في اللوفر.. مثلها تماماً... وقلت:

– أتعلمين؟ أنا... أنا... أستطيع أن أضربك.. أصفعك...

قالت بهدوء:

– أتراك تفعل هذا؟
– أحب أن أراك تبكين... تتعذبين... تئنين...
– لن تجرؤ...
– بل أجرؤ... ولن أكون الكلب الثالث...
– قلت انك رجل مختلف... طراز آخر...
– ولذلك.. فلي عندك أسلوب آخر.. أليس كذلك؟

وعادت تتأمل أصابع يديها المستطيلة.. الدقيقة... الناصعة... وابتسمت

عـيناها من جديد... وأحسست أن شيئاً أملس ناعـماً... يوشك أن يندس في صدري... ويشرئب برأس ثعباني إلى مخنقي... وقلت بصوت أبح وأنا أنهض متثاقلاً:

- ستكونين... مع كلبين... فقط في الصورة... أعني في القصة..

قالت:

- أتهرب؟ تتقي الفتنة... أيها الجبان؟....

قلت:

- بل أنجو من الأسلوب... الآخر...

- والسأم الذي يفترسك؟.

- أجهزت عليه أنت..

وسرت خطوات... وسمعتها تسألني من بعيد:

- وما سيكون اسم تلك القصة...

وأجبتها وأنا ألوح بيدي:

- المرأة والكلب... المرأة والكلب...

وتأدى إلي صوتها وأنا أغذ السير:

- ستجدني هنا... غداً... مساء...

الغلاف الأخير

يعد محمود سيف الدين الايراني الرائد الأول للقصة في فلسطين، لقد بدأ يكتبها منذ الثلاثينات ومايزال إلى اليوم علمها المفرد كماً وكيفاً في النصف الجنوبي من بلاد الشام.

دكتور نعيم حسن اليافي
أستاذ الأدب العربي في جامعة دمشق

... ومضى الأستاذ محمود في هذه المرحلة يحاول أن يبلغ بمدرسته غاية بعيدة. فأتقن عملية الامتزاج بين مضمونه الايديولوجي وبين الشكل الفني، وكان أشد الناس حرصاً على أن لا يخلو عمله الفني مطلقاً من المضمون الايديولوجي...

دكتور عبدالرحمن ياغي
أستاذ الأدب العربي في الجامعة الأردنية

ربما كان محمود سيف الدين الايراني أكثر أدباء الأردن وفلسطين انصرافاً إلى القصة وتخصصاً بها، حتى ليكاد يقتصر تعبيره الفني عليها. إن ثقافة الايراني الفنية، واطلاعه الواسع العميق على القصص الأروبي والمذاهب المختلفة فيه، وقراءته الكثيرة المتصلة للآثار الفنية بالانكليزية والفرنسية - كل ذلك جعل القصة بين يديه أطوع تعبيراً وأتم صورة وأكمل فناً منها بين أيدي كثير غيره ممن لم تجتمع لهم هذه الوسائل.

دكتور ناصر الدين الأسد
مدير الجامعة الأردنية الأسبق

غبار وأقنعة

(مجموعة قصص)

أحلام رندة

وجدت رندة نفسها في قصر فخم كالقصور التي تتحدث عنها القصص والكتب المصورة، والتي يتزوج فيها أبناء الملوك الراعيات الفقيرات...

وكانت رندة جالسة فوق عرش من ذهب مبطن بالحرير... وكانت هي نفسها مرتدية الملابس الثمينة المصنوعة من القطيفة والمخرمات النادرة. وكانت تمسك في يدها بعصا صغيرة جميلة تلوح بها هنا وهناك فيتغير كل شيء وفق هواها.. وكان يلهيها مثلاً أن تضرب ضربة صغيرة خفيفة فوق صندوق حتى يصبح هذا الصندوق، بلمح البصر، دباً كبيراً محشواً بالقطن، وله عينان تبرقان من الياقوت الأحمر المتوهج.. أو قفصاً من فضة تغرد فيه العصافير المرحة، أو إذا هي تمنت دراجة بديعة تدرج بخفة ورشاقة ليغدو الصندوق هذه الدراجة المشتهاة...

وإذا عطشت رندة أو جاعت لوحت بالعصا الصغيرة وسرعان ما تمتلىء المائدة بالكؤوس الذهبية وقد طفحت بعصير الليمون والبرتقال، وبغمضة عين تتزاحم الأطباق الفضية فوق المائدة، وقد امتلأ بعضها لحماً وأرزاً، وبعضها حلوى فاخرة وفاكهة لذيذة...

وقد تولاها شيطان العبث فلوحت بعصاها مرة فاذا أمامها دجاجة محمرة في طبق، وعنب وتفاح في طبق آخر... ولم تمد رندة يدها إلى شيء من هذا.. لأنها كانت تريد فقط أن تتأكد من أنها تستطيع أن تفعل ما تريد، ويتحقق لها كل ما

تتمناه...

ما هو هذا السر، وما هي هذه القدرة التي تفعل رندة بها المعجزات؟

ليس ثمة سرّ خفي، وبكل بساطة فقط تحولت رندة إلى جنية ظريفة كتلك الجنيات التي كانت تقرأ عنها في الكتب وتتمنى أن تكون مثلها وتفعل فعلها...

وتطلعت رندة إلى فستانها فإذا له لون كلون السماء، وقد ازدان بالماس البراق، والمخرمات الجميلة، وتهدل شعرها كالحرير فوق كتفيها... وكانت تسير فوق بُسُطٍ ثمينة وسجاد قد رسمت عليه فروع الشجر والورد والأزاهير، وكان جوّ المكان كلّه روائحُ جميلة فلا تستنشق غير عطر الياسمين والزنبق...

وقد زاد من كبرياء رندة أنها وجدت في الأركان خدماً مستعدين لتلبية أوامرها بأدب وطاعة عمياء.. فلا تكاد تأمر بشيء حتى يسارع الخدم فينفذون أمرها دون وناء...

وخطر لرندة أن تسمع ألحاناً من الموسيقى فقالت:

- أريد أن أسمع أجمل الأنغام.

وعلى الفور تصاعدت في جو القاعة ألحان من معازف خفيفة ملأت قلبها سروراً...

وعن لها أن تطير في الفضاء، فوجدت نفسها بلحظة واحدة محمولة فوق غيمة بيضاء ناصعة تطير بها فوق القصور والمنازل...

وكانت رندة تقول: أريد هذا.. أريد ذاك.. فتفعل العصا السحرية ما تريد،

ويسارع الخدم إلى تلبية أوامرها بطاعة وخفة وامتثال.. حتى سئمت رندة هذه الأوامر، وملت هذه المشتهيات.. وتأكدت في النهاية أنها قد ضجرت حقاً.. وقالت وهي تتثاءب:

- ليتني أعود تلك الطفلة الصغيرة التي لا تستطيع أن تفعل ما تريد، ولا تستطيع أن تجد كل ما تتمناه أو تشتهيه.. والتي إذا أساءت مرة وبخها أهلها..

وفي الحال استفاقت رندة من نومها مشوشة الأفكار.. وجلست في سريرها، وفركت عينيها، وكان نور الصباح قد انسل من ثنايا الستائر وملأ غرفتها. وأجالت رندة عينيها من حولها في دهشة عظيمة، ورأت كل شيء في الغرفة: فهذا هو الصندوق، وذاك هو الكرسي، وهناك المشجب، وفي الناحية الأخرى خزانة الملابس، ولعبتها مركونة في أحد الأركان، وهي دمية جميلة إذا نامت أغمضت عينيها...

وأتتها من الخارج أصوات وحركات، فإن أمها في المطبخ تحرك الأواني، وتوقد النار، وتعد طعام الفطور كما تفعل كل صباح.. أجل فقد استيقظت رندة من نومها العميق دون ريب.. وفتحت أمها عليها باب الغرفة، فنهضت رندة بخفة العصفور وأسرعت إلى أمها، وألقت بنفسها على صدرها، ولفت ذراعيها حول عنقها... وقالت لها الأم:

- أما آن لك أن تنهضي يا حبيبتي؟ لقد تأخرت في النّوم.. هيا أسرعي لتتناولي فطورك وتستعدي للذهاب إلى المدرسة...

وقالت رندة:

- ليتك تعلمين يا أماه، أيّ حلم عجيب حلمته.

وسألتها أمها:

- وماذا رأيت في حلمك؟

فقالت رندة:

- رأيت في الحلم أنني جنية.. وكنت أنال كل ما أريد وأشتهي.. ومع ذلك فلم أشعر بالسعادة.. وأجابتها أمها:

- طبعاً يا بنيتي... إننا نرى في أحلامنا الأشياء التي نشتهيها ونتمناها.. ولكننا لا نستطيع الحصول عليها إلا بالعمل والجهد.. وهما اللذان يبعثان إلى نفوسنا بالمسرة.

وقالت رندة:

- صحيح يا أماه.. ما أعظم سعادتي أن لا أكون جنية.. كما كنت في أحلامي..

فندق السرور

هذا الفندق ما استطعت أن أغيره في خمس سنوات طوال، وما غادرته إلا بعد أن حوله من آل إليهم إلى مكاتب لصغار المحامين، وعملاء التجارة، وأشباههم. ربما لأنهم وجدوا ذلك أجدى لهم من أن يظل فندقاً للسرور الموهوم.. فما كان فيه شيء يسر القلب أو يبهج الخاطر، ومع ذلك لم أقوَ قطّ أن أفارقه. ولقد كان في المدينة فنادق كثيرة أجمل موقعاً، وأطيب ريحاً، بعضها يطل على حدائق وبساتين زهر وفاكهة، إلا أنني كنت أوثر فندق السرور، وأشعر وأنا في غرفتي فيه أنني في بيتي، وأن صاحبه الذي يديره، مع امرأته العجوز بعض أهلي.. حتى في باريس نفسها نزلت فندقاً ولم أبارحه سنة كاملة. وكنت كلما زرتها بعد ذلك أهرع إلى فندق (المنارة الملكية) كأنما أنا عائد إلى بيت لي بعد طول الغياب.. فهل هي العادة التي تفعل هذا كله في نفوسنا؟ كلا ليس مجرد عادة وحسب هناك أشياء نسكن إليها، وأماكن نرتبط بها وكأنما قد قامت بيننا وبينها صلات مودة، ووشائج صداقة، فهذا درب نحب أن نسير فيه، وذاك منزل يؤنسنا أن نمر به، وتلك أصوات يريحنا أن نسمعها، وريح يبهجنا أن نتنسّمها، ووجوه يشوقنا مرآها، وثمة مقهى لا يؤنس وحشتنا غيره، ودكان نشتري منه حاجاتنا ولا نميل إلى سواه على كثرة دكاكين البيع والشراء.. لا، على التأكيد إن الأمر فوق أن يكون عادة وحسب...

وفندق السرور كان يقع في ناحية من البلدة القديمة. وكان لا بد، لكي أصل

إليه، أن أجتاز طرقاً مرصوفة ملتوية، وأزقة ضيقة، ودروباً مزدحمة بالخلق ولا أدري لماذا كنت دائماً وأنا أخطو لأجتاز عتبته، أرفع رأسي وأقرأ اسمه مكتوباً بخط رديء فوق لافتة عتيقة سوداء.. ثم أعبر دهليزاً طويلاً معتماً، وأميل بعد هذا إلى اليمين فأرقى سلماً حجرياً ضيقاً، وأجدني أخيراً في مدخل قاعة رحيبة تضيئها أشعة الشمس، وقد انتثرت فيها مقاعد قليلة متهالكة، وقام في إحدى الأركان مكتب «أبو الياس» مدير الفندق وصاحبه، وعلى الجدار فوقه علقت ساعة حائط مستطيلة، وإلى ركن من المكتب تتكيء صورة في إطارها لشاب مفتول الشاربين، وقد لا تخطيء العين، الحين بعد الحين، آنية زهر أثرية فيها ورود سرى فيها الذبول وتناثر بعض ورقها.

وأدخل القاعة مطمئناً، وأجلس على مقعد قريب من المكتب، وأسأل «أبو الياس» عن حاله وصحته، وأروح أرقب قطة الفندق البدينة ذات اللون الزيتوني والعينين السوداوين المتألقتين، والمواء اللطيف ترسله وهي تتمسح بي وتشول بذنبها كأنها تلتمس برقة موائها أن أعطيها طعاماً أخفيه عنها.. وفي هذه الأثناء يتأدّى إلي صوت أبو الياس واهناً، متقطعاً:-

- الحمد لله.. ايـ.. يـ.. يه إن ركبتي تتعقدان يوماً بعد يوم.. ولا تسل يا حبيب إذا ما صعدت سلماً.. فإنهما تتخلخلان.. وسرعان ما تخونانني فأكاد أتهاوى وأنا في وسط السلم... وقاك الله شر داء المفاصل.. يا حبيبي..

وأقول له وأنا أمر براحة يدي فوق رأس القطة وظهرها:

- شفاك الله يا سيدي.. شفاك الله.. وأمّ الياس أين هي؟ عساها بخير..

ويجيبني منوهاً:

- أظنها تلقي نظرة على الطعام المطبوخ.. أو تتشاغل بإعداد المائدة.. لها

الله هي الأخرى.. ما رأيتها يوماً مبهورة الأنفاس.. كهذه الأيام.. الكبر عبر.. يا حبيبي.. وأتضاحك متفائلاً، وأعتدل في جلستي وأقول:

- أبو الياس.. ما هذا الكلام؟ ستعيشان طويلاً أنت وهي إن شاء الله.. وأنتم أبناء زمان.. ما رأيت مثلكم قوة أجسام.. وصلابة أعواد.. وشدة احتمال.. وانهض وقد عبق الجو برائحة الطعام المطهو، وأسير مسرعاً إلى حجرة الأكل ويتبعني الرجل ثقيل الخطوة، محنيّ الظهر يشد يده على وركه ويتأوه.

ونجلس مع أم الياس نتناول طعامنا في صمت ووجوم ولا أجد غير بضع كلمات معادة مكررة أطري بها مهارة الست أم الياس في طهو الطعام، ومعالجة اللحم بالتوابل والأفاويه ثم أروح ألتهم طعامي بشهية وأنا أشهد لها، في سريرتي، شهادة حق بالحذق والافتنان وطيب النفس في ما تصنع من صنوف (الطواجن)، ومن شكول ما يشوى وما يحمر، وما يحشى بالأرز واللحم وما يصنع بأخلاط من خضر تعالج بالزبد، وتمزج بالبهارات، وتنضج على مهل، وفي مزيد من الأناة والرفق.. وفي النهاية أختار بعض الفاكهة فأصيب منها متمهلاً، متذوقاً، ثم تأتي الخادم بالقهوة فاحتسي فنجاني مُتّئداً وأنا أنفخ دخان سيكارتي في الهواء، حتى إذا أحرقتها ولم يبق منها غير عقب صغير نهضت متثاقلاً إلى غرفتي الخاصة فأغلق بابها، وألقي بنفسي فوق السرير، وأروح أغطّ في نوم عميق حتى بُعَيدْ الساعة الرابعة عصراً...

تلك كانت حياتي في فندق السرور: حياة رتيبة، كل يوم فيها ككل يوم، ومع ذلك فما كنت أقوى على مفارقة ذلك الفندق، كما كنت لا أطيق أن يمر يوم دون أن أجلس في فندق «زعترة» بعيد العصر، فأتخذ مكاني المعتاد في ركن من رصيفه العريض، وأستغرق في مشاهدة صور الحياة وهي تمر أمامي كالشريط السينمائي فأعجب لازدحام الناس، واختلاف سحنهم وأزيائهم وسلوكهم وأحاديثهم.. وأظل هكذا أدخن «الشيشة» واضعاً ساقاً فوق ساق ومتكئاً بمرفقي

إلى منضدة المقهى حتى تخف الحركة وينحسر موج الداخلين والخارجين من باب العمود، فأطوي عندئذ خرطوم الشيشة حول عنقها الممشوق، وأغادر رصيف المقهى، ولا تزال صور الرجال والصبية والنساء تغص بها رحبة خيالي، وكأن كل أولئك الخلق عادوا يعيشون من جديد في أفق نفسي ولا يضيرهم أن يرووا لي (المأساة) أو المهزلة التي يعيشها كل منهم بجميع تفاصيلها الدقيقة، يتخفف بهذا الافضاء، من حمل يؤوده ويكربه، وقد يحسن أن أقول أنني أمرؤ لا بيت لي سوى الفندق الذي أقيم فيه، فقد عشت دائماً منفرداً، ولم أتزوج، وهذا في رأيي ذو أهمية كبيرة، ولست أعلم تماماً لماذا لم أتزوج، وأنا بالطبع لو تزوجت لكان لي بيت وأولاد ينهشون من لحمي هم وأمهم، ولكانت حياتي غيرها الآن ولست أريد أن أموّه الحقيقة.. ولعل الأرجح أني ما تزوجت لأني كنت أرى أن في العمر سَعَه، وأن ما يمكن أن أفعله اليوم يسهل أن أفعله غداً.. ومرت الأيام غير متلكئة.. ففاتني القطار كما يقولون.. ربما كان هذا صحيحاً إلا أني على كل حال يستحيل أن أنسى الرجل الذي ذبح زوجته.. كنت فوق العاشرة بقليل من عمري، وقد رأيت في الحي الذي كنا نقيم فيه ذلك الرجل وبيده السكين تقطر دماً، وقد تقاطر الناس، وجاء رجال الشرطة واقتادوه صاغراً بعد أن ألقى السكين الطويلة من يده.. وقد ظل عويل النساء، ونواحهن ينفذ إلى أذني ويتسرب في نفسي الليل بطوله..

وقد أكون جبنت عن تحمل مسؤوليات الزواج فآثرت العافية وراحة البال.. ولعلي أحب وحدتي، وأضن بعاداتي أن تبدل فيها وتغير امرأة لا تعرف ما أحب وما أكره، ولا يسعها أن تتصور أي جانب من العيش يصفو ويحلو في نظري، وأي جانب يسوء..

وذات ليلة كنت أحدث نفسي بمثل هذا وأنا في غرفتي بفندق السرور وعن لي أن أبحث عن شيء ما في خزانة الملابس، وراحت يدي تتحسس قاع الخزانة

مرة، وجوانبها مرة، ثم خيل إلي كأن إحدى أصابعي قد مست حفة دقيقة جداً في جانب من الخزانة، فعجبت للأمر، وجعلت أتفحص ذلك الموضوع حتى أيقنت أن ثمة درجاً سرياً قد وضع بدقة وإحكام في الجانب الداخلي بحيث يصعب الاهتداء إليه. وجعلت أعالجه ساعة حتى انفتح.. ودفعت يدي متلهفاً أبحث عما يخفيه هذا الدرج السري، فعثرت على دفتر رقيق وبعض الأوراق المطوية بعناية، وقد لفت بشريط حريري فأخرجتها مع الدفتر ووضعتها تحت المصباح الكهربائي مباشرة وجعلت أتأملها. كان الشريط ناصل اللون، والأوراق قديمة جداً ومصفرة في مواضع، باهتة في مواضع، والدفتر وإن كان لا يزال متماسكاً فإن أكثره قد بلي ورث، وهبت على أنفي، من تلك الأوراق جميعاً، رائحة الأشياء القديمة، التي مر دهر طويل على إخفائها.

ومضيت أقلب صفحات الدفتر برفق فإذا فيه «يوميات» واضحة مقروءة تارة، ومطموسة لا سبيل إلى قراءتها، تارة أخرى، ثم قطعت الشريط وجعلت أنظر في الأوراق المطوية فإذا بعضها مسوّدات رسائل، وبعضها يشبه أن يكون أجوبة على تلك الرسائل، وأنفقت ساعات طوالاً مستغرقاً في القراءة، لا أكاد أحس بمضي الوقت ولا بالحاجة إلى الراحة والنّوم حتى أنهيت قراءتها جميعاً في موهن من الليل.

وأنقل هنا بعض تلك اليوميات كاملة وفقرات منها وفقاً لوضوحها أو غموضها، كما سأورد نصوص مسودات بعض الرسائل وما خيل إلي إنه أجوبة لها. وما جاء في اليوميات:-

٨ آذار سنة ١٨٩٥

كان أخي يوسف يتحدث إلى أبي هذا الصباح، حديثاً قوي اللهجة والنبرة وكان يقول له: إن الحب عار كبير، وإن الرجل الحق هو الذي يستطيع أن يكون

صارماً مع بناته وأخواته، وكل امرأة في بيته، وأن يصونهن من التطلع إلى الرجال، فالرجال ذئاب لا يؤمن شرهم على امرأة أو فتاة. وكان يقول له إن الزواج عصمة من الفتنة والغواية، وما لم يشد رب الأسرة قبضته جيداً فما أسرع ما يفلت زمام الأمر كله من يده.. وكان والدي يوافقه متحمساً ويندد بالفتاة التي لا تتحسب من عواقب هذه الأمور...

٢٥ اذار ١٨٩٥

إن بلدنا يضج دائماً بحشود من السياح يفدون إليه من أقطار الدنيا. وإني لأرى نساء ورجالاً يلبسون القبعات، وألمح في عيون الكثيرين والكثيرات بوارق السعادة.. والرجل لا يتحرج أن يسير مع المرأة ويضاحكها ويضع ذراعه في ذراعها. فهل الحبّ عار كبير كما يقول أخي يوسف؟

١٥ نيسان ١٨٩٥

حتى في يوم الأحد لا أستطيع أن أخرج إلى كنيسة القيامة إلا مع الأسرة كلها: أبي وأمي وأخي وبعض الأقارب، فنقطع المسافة بين البيت والكنيسة صامتين وكثيراً ما يخيل إلي إنني أكاد أتعثر في طريقي من الخجل والشعور بأن ثمة عيوناً ترقبني وتتطلع إليّ.. وفي مثل هذه الظروف تعود إلى ذهني عبارة والدتي التي كانت دائماً يحلو لها أن ترددها «أنت يا صوفيا بنت جميلة جداً. وإذا البنات يحذرن الشباب مرة فعليك أن تحذريهم أنت مرات..» وعندئذ يزداد عبوسي، ويخيل إليّ أن الرجال ذئاب حقاً كما وصفهم أبي...

١٠ تموز ١٨٩٥

إن أبي لا يخفي إعجابه بـ (نجيب) فهو فتى ظريف، يزورنا بين الحين والحين ويجلس معنا، ويتحدث ويضحك ويمرح. ما أحلى حديثه! لا أدري من أين يأتي

بهذه الكلمات والعبارات الشائعة التي تهز مشاعرنا... أبي يثني عليه كثيراً. ويقول إنه فتى شهم، ومستقيم ومن أسرة طيبة، وإنه حريص على تجارته لا ينفك ينميها ويعمل على إزدهارها ما وسعه ذلك. لقد غدوت أحب مجلسه وحديثه ومرحه وخفة ظله...

٥ كانون الثاني ١٨٩٥

نجيب؟

أنا بصراحة أحبه.. وهو أيضاً يحبني.. ليس ما بيننا غير نظرات وتأوهات، وضغط على الأيدي، إذا ما غَفَلت عيون الرقباء.. ورسائل نتبادلها في الخفاء.. إنني أحس بأن الدنيا جميلة وأن الأنسام حين تهفو على وجهي أشبه بالقبلات الحلوة.. أيمكن أن يكون هذا الحب عاراً كبيراً كما يقول أخي يوسف؟ إن الحبّ نعمة كبرى لا تعرفها غير الأرواح التي تسمو سموها عن طين الأرض.. إنه هبة الحياة وعطيتها لمن تصطفيهم من أبنائها..

نجيب..

إني أحبه من أعماق قلبي.. إن كل حس، وكل عصب في كياني يهتز لمرآه.. وينجذب إليه بسرور عظيم.. ما أجمل أن نسمي دارنا، بعد اليوم، «دار السرور»..

مسودة رسالة بتاريخ ٢٥ كانون الثاني ١٨٩٦

يا حبيبتي

ما أعذب هذه الكلمة التي ترددها شفتاي، صباح مساء، ما أحلى عينيك يا حبيبتي، هل أحسست بأني كنت كالمأخوذ بهما ليلة أمس.. وأنا جالس أتحدث

مع أفراد أسرتك؟ كنت أشعر أنني أسير تينك العينين الفاتنتين اللتين تتراخى حولهما ظلال من أهدابك الساحرة.. لقد غدت داركم موطناً للسرور حقاً ما دمت أنت فيها يا حبيبتي، إن جمالك هو الذي يشيع السرور في جوانبها...

مسودة رسالة بتاريخ ٣١ كانون الثاني ١٨٩٦

حبيبي نجيب

.. غدوت أخشى أخي.. إنه يحدق النظر فيّ ملياً من حين لآخر... كنا ليلة أمس جالسين نتناول عشاءنا وقد شغل والدينا الحديث في شؤون البيت والعمل. أما هو، فقد جعل يديم إلي النظر بعينين ثابتتين، ملحتين في الاستطلاع، فاحمرّ وجهي حياء وحيرة وارتبكت ونهضت عن المائدة معتذرة بصداع شديد ألم بي. ماذا؟ أتراه قد عرف سرنا... سر حبنا؟ ما أشد شقائي إذن! إن أخي رجل لا سبيل للرحمة إلى قلبه.. أكتب إليك وأنا شديدة الخوف ولا يكاد النوم يعرف طريقه إلى أجفاني، احذر شقيقي يوسف يا نجيب.. فما عرفت إنساناً أشد جرأة وإقداماً منه.. حفظك الله ورعاك..

فقرة وحيدة واضحة في إحدى اليوميات

٥ آذار ١٨٩٦

يبدو أن الشك يغري قلب أخي يوسف، وقد أصبح يحصي علي حركاتي وسكناتي، بل لقد بدأ يضطهدني، ويقسو علي في معاملته وحديثه.. وقد سمعته ليلة أمس يصيح في وجه والده ويقول له: هذا الانسان التافه، نجيب يجب أن يبتعد عن بيتنا.. إنني لا أطيق أن أراه أو أن أسمع اسمه... وصوب إليّ نظرة تتوقد كالجمر.. ومضى يقول: فليبتعد نجيب عن هذه الدار وإلا... قتلته.. وحاول أبي أن يستوضح الأمر.. وحاول أن يذكر الصفات الطيبة التي يتحلى بها

نجيب، وجدِّه، واستقامته، ولكن أخي عاد يدق المائدة بقبضة يده ويصرخ: أبعدوه عن هذه الدار...

مسودة رسالة بتاريخ ٢٧ آيار ١٨٩٦

حبيبي نجيب؟

أكتب لك هذه الرسالة على عجل. دعني أولاً أطبع قبلة حارة على شفتيك وشاربيك. إنني أتعذب يا نجيب عذاباً مروعاً في الليل وفي النهار. لقد استحالت دار السرور جحيماً لا يطاق. أستحلفك بحبنا أن تبتعد عن طريق يوسف. هو رجل لا يؤمن بالحب، بل هو يراه عاراً كبيراً. ولا سبيل إلى انتزاع هذه الفكرة من رأسه. إن نشأته وبيئتنا، ومعتقدات الناس والتقاليد، جعلت منه هذا الانسان المستريب، المتشكك. ابتعد عن طريقه، إنه لا ينفك كالنمر الهائج، يثور ويتوعد وتبرق عيناه بالحقد.. وليس لنا غير الصبر، وغير أن نكتم حبنا الطاهر عن أعين الناس.. ونحتفظ به حباً رائعاً في حنايا ضلوعنا إلى أن يشاء الله حالاً غير هذه الحال.

رسالة بتاريخ ١٥ حزيران ١٨٩٦

أيتها الحبيبة:

لشد ما كنت أود أن يكون ليوسف في قلبي تلك المنزلة الكريمة من المودة والإكبار. ولكن موقفه الغريب خيب آمالي فيه. وأنا بعد كل شيء رجل، وليس ليوسف أن يملي علي ما يشاء. وما يضيرني أن أجهر بحبي لك أمام الناس أجمعين وما من قوة في الدنيا تستطيع أن تحول بيني وبينك. وأنا بالطبع لن أستثيره، ولكني لن أقف مكتوف اليدين، ذليلاً، أمامه، إذا ما حدثته نفسه أن ينال مني ولو بكلمة واحدة. وأنا لو تخاذلت له وارتضيت الإهانة فلن أكون جديراً

بك ولا بحبنا العظيم.

فقرة أخرى واضحة في احدى اليوميات.

١٠ ايلول ١٨٩٦

.. وهكذا وقعت الكارثة المروعة.. اختلق أخي يوسف أسباب الخصام بينه وبين نجيب. وعبثاً حاول نجيب أن يتجنب الاشتباك معه إلا أن العبارات الجارحة التي وجهها أخي إليه استفزته فثار لكرامته وصفعه في المقهى أمام الجميع، فاستل أخي سكينه وأغمدها حتى النصل في قلب حبيبي...

أواه، لن يجف دمعي بعد اليوم.. ولن أنضو ثياب الحداد عليهما معاً.. يا لشؤم ذلك الحب.. ويا للأوهام التي كانت تملأ حياتي.. إنني أطوف بكل زاوية وركن في دار السرور هذه.. لقد كانت جنتي وفردَوسي.. وغدت جحيمي وناري.. إنها منذ اليوم دار الأحزان.. حدثتني والدتي أمس عن قريبها الذي يرجو أن أقبله زوجاً لي في يوم من الأيام.. ووصفته أمي بأنه رجل هادىء ومتزن وقالت وهي تذرف الدمع بحرقة، إن بيتنا أصبح بحاجة إلى رجل.. والدك قد هدّه مصابه بولده.. ثم إن الشيخوخة قد داهمته بعللها وعجزها.. ولم أسمع بقية كلامها فقد أصابتني نوبة بكاء فأسرعت إلى غرفتي وارتميت إلى سريري وجعلت أبكي وأبكي..

في صباح اليوم التالي خرجت وفي نفسي أسئلة محيرة تدور في نفسي وتقلقني: فندق السرور.. دار السرور هل كان هذا الفندق في يوم من الأيام هو تلك الدار التي عرفت حب صوفيا ونجيب.. وهل هي حولته مع الأيام إلى فندق سمته «فندق السرور» تكريماً لذكرى ذلك الحب في زمن كان الحب فيه جريمة لا تغتفر.. وهل «أم الياس» هي صوفيا نفسها وقد هرمت وامتد بها العمر حتى

نيفت على السبعين.. وهل أبو الياس هو ذلك القريب الذي نصحت لها أمها أن ترضى به زوجاً لها في تلك الأيام الخوالي.. وغدا اليوم رجلاً عجوزاً، متهدماً، يجر نفسه جراً إذ يسير، ويشد يده على وركيه ويتأوه؟ أم تراها قصة وقعت عليها مصادفة في ذلك الصوان القديم الذي اشتراه صاحب الفندق من دكاكين باعة الأثاث العتيق دون أن يدري أحد بوجود اليوميات والرسائل المغبرة فيه؟

وعدت إلى فندقي مع الظهر، فقطعت إليه الطُرق والأزقة الضيقة المرصوفة بالحجارة، وقبل أن أخطو مجتازاً عتبته رفعت رأسي وقرأت عبارة «فندق السرور» مكتوبة فوق لافتة عتيقة سوداء بخط رديء، ثم عبرت الدهليز الطويل المعتم، وصعدت السّلم الحجري، ودخلت القاعة التي تضيئها أشعة الشمس وتبدو من نوافذها قبابٌ ومآذن وجرسيات، وجلست على مقعد قريب من مكتب «أبو الياس» وجاءت القطة الزيتونية البدينة تتمسح بي وتشول بذنبها.. واستمعت إلى شكوى «أبو الياس» من داء المفاصل، إلا أني كنت لا أنفك أتأمل صورة الشاب المبروم الشاربين التي يتكيء اطارها المتزايل فوق ركن من مكتب «أبو الياس» وأسائل نفسي: أتراها صورة الأخ.. أم صورة الحبيب؟ ثم نهضت وقد عبق الجو برائحة الطعام المطهو، وأوسعت الخطى إلى حجرة المائدة، وأبو الياس يخطو خلفي بجهد، ويشد يده على وركه، وجلست مع أم الياس ورحنا نتناول طعامنا في صمت ووجوم ولكني لم أثن هذه المرة على طعامها كمألوف عادتي، وإنما جعلت أخالسها النظر.. وأحاول أن أرى في هذه المرأة العجوز المترهلة.. تلك الغادة الباهرة الحسن، الساحرة العينين، التي خيل لي أنني قرأت مأساتها وقصة حبها العاثر في تلك الأوراق القديمة المصفرة، وسألت نفسي: أترى لا يزال حبها حياً في نفسها.. أم أن رماد هذا الدهر من السنين قد تكاثف فوقه وحجبه وغدا مجرد ذكرى بعيدة.. بعيدة.. حتى لا تكاد تخطر لها على قلب؟ وأبو الياس.. إنه، ولا ريب، هو ذلك القريب الذي تمنته أمها زوجاً لها، ويكفي أنها تزوجته لكي يكون ذلك الحب العظيم قد هدأت سورته، وأخذ يذوب ويمحي من نفسها

على الأيام حتى لم يبق منه في شتاء العمر شيء يثير في نفسها ألماً أو حسرة أو أسفاً.. كما لم يبق من حسنها الذاهب غير هذه التجاعيد والغضون الكثيرة وهذا الشيب وتلك النظرة الكليلة من عينين ذابلتين واهيتين.. أم أن هذا كله لا يعدو أن يكون وهماً قد وهمته؟ ليت من يدريني وإنما أنا أشعر الآن، وقد غدا الفندق مكاتب لصغار المحامين وعملاء التجارة وأشباههم، إنه لم يسم فندق السرور عبثاً واعتباطاً.. ولكنه كان في يوم من الأيام، مربع سرور، وموطن بهجة، وإنه كان للحب فيه ألحان وأغاريد...

مكتوب غرام

(انظر الدستور ع ٣٥٥ تاريخ ١٩٦٨/٤/٦)

مسعود الكلش المشهور بـ «أبو اصبع» أنت لا تعرفه ولا تعرف لماذا نسي الجميع اسمه كله، ولم يذكروا إلا أنه أبو اصبع...

فهل أخبرك أنا بذلك؟ انظر اذن إلى يسرى يديه تجد أنه لم يبق من اصبعه الوسطى غير جذعها، أما سائرها فلا وجود له، فكأنه قد ذاب، أو قط قطاً. وهكذا فقد مسعود الكلش واسطة العقد بين أصابعه الخمس، وظلت الأربع الأخريات حائرة تبحث أبداً عن جامع شملها.

وهو لا يذكر كيف طارت اصبعه، وإنما هو يروي أن والده أخبره، قبل أن يموت، أنه كان يلعب وهو طفل في خرابة قريبة من بيتهم، وقد تناول قطعة صغيرة من معدن وجدها مطمورة في أتربة الخرابة- فجعل يعبث بها، فانفجرت في يده وذهبت بمعظم اصبعه...

ظل مسعود الكلش يفخر بهذه الكارثة القديمة التي ذاق مرارتها في طفولته زمناً طويلاً ولا ريب. وما كان ليرى في اللقب الذي لصق به ما يدعو إلى الامتعاض أو يحط من شأنه أو يشعره بالمهانة، وكيف يكون هذا، واللقب العتيد استمر يتحدث إلى من يعلم ومن لا يعلم أن أمراً جللاً قد وقع له ولا يكاد يقع لغيره أبداً؟

ثم انطوت الأيام بحلوها ومـرها، ونسي الناس أحـداث حـربين عـالميـتين كبيـرتين، ونسوا الأربعين مليـون نسـمة الذين ذهبـوا وقـوداً لهـمـا، ولم يعـودوا يذكرون القنبلة الجهنمية الصغيرة التي محت من وجه الدنيا هيروشيما وسكانها بلمحة عين، وكان مما نسوه، كذلك، تلك الكارثة التي حلت بمسعـود الكلش إذ كان طفلاً يدرج، ولا يكاد ينهض على قدميه حتى يتعثر وينكب على وجهه.

ومنذ أيام كـان شيء يحك في صدر مسعـود الكلش، ولا يدري بوضـوح ما هو. فهو لا يكاد يدرك إلا أن حياته كأنما قد اختزلت اختـزالاً في يوم واحد لا يتغير ولا يتبدل: ينهض. ثم يتناول فطوره واقفاً.. لقيمات يتبلع بها مغموسة بالزيت والسعتـر، أو مطوية على حبات زيتون. ويهـرع من ثم إلى عمله الذي يلتهم يومه من السابعة صباحاً إلى بعيد الغروب، وهو لا ينفك يجمع أرقاماً ويطرح غيـرها دون ونـاء، ويسجل حسابات التـاجر صاحب المحل دون انقطاع.. دون انقطاع...

كل شيء في هذا المستودع الكبير، يباع بالجملة: الصابون والأرز والسكر والشاي والمعلبات... وفي السـاعة الثـانية عشرة والدقيـقة الثلاثين بالضبط، ينهض مسعود الكلش ليستريح قليلاً ويتناول غداءه، ثم يعود مرة أخرى إلى أرقـامه وسجل حسـاباته.. هكذا كل يوم، دون أن يطرأ جديد... دون أن يطرأ جديد أبداً...

وعلى حين غره، وفي لحظة صفاء نادرة، تراءى لمسعود الكلش أن هذا الذي كـان يحك في صدره منذ أيام، دون أن يدرك كنهـه، قـد اتضح له أخيـراً، أحس بذلك وهو يرسل نظرة تومض وراء فستان سيدة كانت تسير مهتزة الأعطاف. فقد هجس في نفسـه خاطر تملكه، وهو لم يقع له منذ كـارثة اصبعـه حادث مـا على الاطلاق.. لا جديد اطلاقاً في حياته.. انها أشبه بصحراء قاحلة جرداء مريدة، لا شيء فيها غير هذه الأرقام البغيضة التي يحس أنها تتراقص أمام عينيه حتى

في أوقات فراغه وساعات نومه، ولا شيء غير غرارات الأرز والسكر والصابون وصناديق الشاي. وأولئك الزملاء في المحل - لا ريب في أن حياتهم مليئة بالحوادث المثيرة، وإلا فما يضحكهم ويجعل عيونهم تلمتع بالسرور دائماً؟ وماذا يغريهم به فيعابثونه، ويروون له، في فترات الغداء، حكايات خلابة.. حكايات حب وغرام، ومغامرات عاطفية، هم أبطالها الغارقون في نعيمها إلى ما فوق هاماتهم؟

لا جديد.. لا جديد.. كان مسعود الكلش يردد في سريرته هذه العبارة وهو عائد بعيد الغروب إلى داره القديمة في زقاق عصفور... ولكنه وقف فجأة وراح يتأمل شاباً ظريفاً يقبل غانية لعوباً على لوح اعلان للسينما، ووجد نفسه يتساءل وهو يحدق النظر في بقية اصبعه الوطىء، «لماذا لا أحب، مثلاً؟» لا ريب في أن الحب حادث خطير كبير في عمر الانسان، حادث يمكن أن يملأ عليه حياته. هكذا قرأ مرة في كتاب ما...

كان قد وصل، عند نهاية حي الأشرفية، إلى محل المصور «مدحت» فتمهل يشاهد صوراً معروضة في الواجهة الزجاجية العريضة، انه مصور هذا الحي الشعبي منذ طويل، لا ينافسه فيه أحد. ما أشد ولعه بتصوير أولئك الرجال ذوي الشوارب المبرومة. في الواجهة أكثر من عشرة رجال بشوارب ناهضة، لها ذؤابات منيفة. أوه، يستحيل أن يكون له شاربان مبرومان هكذا.. يستحيل. ليبحث «مدحت» المصور عن أصحاب هذه الشوارب الشامخة، أما هو، مسعود الكلش، فلن يكون واحداً منهم على أي حال.

وهَمَّ أن يمضي متابعاً سيره، ولكنه عاد فتمهل. فقد فطن إلى صور خيل إليه أنها جميلة فعلاً. انها صور نساء، فهذه احداهن عارية الكتفين، مرسلة الشعر، ألقت برأسها إلى الخلف، وعلى شفتيها ابتسامة.. ابتسامة مغرية واعدة. وضع المرأة كله فتنة واغراء هي أجنبية.. يونانية أو ايطالية ما في ذلك ريب. استغفر

الله، بناتنا لا يفعلن ذلك أبداً. وتلك فتاة محتشمة، ولها غرة حلوة. وثالثة اعتمدت رأسها براحة يدها، وقد استغرقها كتاب تقرأ فيه. ثم هذه.. آه.. هذه القريبة من زجاج الواجهة، انها تملأ العين، حقاً، لعلها تخطت الثلاثين قليلاً.. ولها مثل هذا الصدر العامر، والوجه الممتلىء، ولها هاتان اليدان السمينتان، بدن ريان كله حلاوة، لماذا تراها تنظر إليه وحده؟ عينها عالقة بعينه هو.

أتراها ادخرت له هذه النظرة دون سائر الخلق؟

وقف طويلاً يتأملها ويشبع عينيه منها. وخامره شعور بالأسف والمرارة أن تكون بين أولئك الرجال ذوي الشوارب الناهضة. ثم مضى موقناً أن المصور ينقصه الذوق السليم، وإلا لما وضع هذه السيدة وعن يمينها وعن شمالها أصحاب الشوارب أولئك.

شغلت المرأة خياله وألهبت حسه، وكان في ذهابه وايابه يقف متسمراً قبالة واجهة المصور. وعلى مر الأيام وقع في روعه أنه يعرفها منذ طويل، وأنه قد أحبها دائماً حباً ملك عليه مشاعره كلها، وانها في الواقع تبادله حباً بحب، وتبتسم له وحده، وتكشف له عن مفاتنها، ولا تشتهي إلا أن يكون له شاربان مبرومان ناهضان كشوارب أولئك الذين يحيطون بها عن يمين وعن شمال كأنهم رجال أسرتها.. وكثيراً ما كان يتحسس موضع شاربه مندفعاً باحساس مبهم، ثم لا يلبث أن يضيق صدره هنيهة، ويروح يغذ السير وهو يحملق بالوجوه التي تمر به.

وذات صباح وجد على مكتبه رسالة زرقاء صغيرة الحجم باسمه - غلاف أنيق يند عنه عطر خفي. وخفق قلبه. كان يسمع كثيراً بأمثال هذه الخطابات، وكان يقال له أنها «مكاتيب» غرام. وأراد أن يفض الرسالة، ولكن يده ارتعشت، فوجم لحظة، ثم شخص ببصره وانسان عينه لا يكاد يتحرك أيفض الخطاب، أم لا

يفضه؟ وتمثلت له واجهة المصور «مدحت» والمرأة ذات الصدر العامر واليدين السمينتين الطريتين والنظرة العطوف. وغص بريقه، وتحركت شفتاه... ربما.. ربما... من يدري؟

كانت أصابعه قد فتحت الغلاف الأزرق، فهفت على أنفه من جديد نسمة عطرة. فانتبه وأخذ يقرأ. انه مكتوب غرام حقاً:

«حبيبي ونور عيني» هكذا استهلت المكتوب، وانها لتقول فيه: «أنا أكتب إليك وقلبي يدق بين ضلوعي. انك لا تدري مبلغ هيامي بك. هل تصدق، يا حبيبي، انني أترقب أوقات مرورك؟ وانني أراك وأتنهد؟ وأنا أشاهدك، في أحلامي، ما عرفت الحب إلا ساعة وقعت عيني عليك أحسست عندئذ انني صعقت. مرّ غداً.. قبيل الغروب: عند منعطف الطريق المؤدي إلى حديقة البلدية، وفي عروتك وردة كبيرة حمراء وعندئذ أوقن أن قلبك لن يضيق بحبي، فأقبل عليك، ونذهب معاً إلى حيث تشاء..»

قبيل غروب ذلك اليوم شاهد بعض المارة، عند المنعطف المؤدي إلى حديقة البلدية، رجلاً ضاوي الجسم معروق الوجه كثير التلفت، تتأرجح في عروته وردة كبيرة حمراء، فهزوا رؤوسهم عجباً ومضوا متضاحكين. وروى آخرون بعد ذلك، انهم رأوا امرأة جريئة تصفع رجلاً في عروته وردة حمراء.. ثم تبصق في وجهه وتمضي وهي تلعنه..

والحقيقة أن مسعود الكلش المعروف بأبي اصبع ذهب إلى موعد غرامه واستمر وقتاً يرقب الطريق. ومرت امرأة حدّقت النظر في الوردة المتأرجحة في عروته وقد تملكها العجب. فأسرع هو إليها يريد أن يتأبط ذراعها، فصفعته وبصقت في وجهه، ولعنته ومضت. وانتخى بعض الرجال من ذوي الشوارب المبرومة الناهضة، فانهالوا عليه ضرباً موجعاً، ثم طردوه من الحديقة.

أما هو فقد أيقن، فيما بعد، أنه حدث سوء تفاهم، وأن صاحبة المكتوب لا بد قد أتت في موعدها بعد طرده، فضاعت عليه فرصة لقائها، ويئست من حبه، وخنقت نداء قلبها إلى الأبد. وما فكر قط أن حكاية مكتوب الغرام ربما كانت من تدبير زملائه الخبثاء في محل بيع الأرز والسكر والصابون..

المهم أنه قد وقع في حياة مسعود الكلش حادث كبير آخر لم يفرغ حتى اليوم من روايته لأصدقائه ومعارفه. وهو يقول لهم أن تلك المرأة برح بها هواه. وكان يصفها بأنها امرأة حلوة، عامرة الصدر، ممتلئة الوجه، ريانة البدن، لها يدان سمينتان طريتان ونظرة متفترة. وكان يصمت قليلاً كمن يفكر أو يحلم، ثم يعود ينبىء أصدقاءه بأنها، في سبيل حبه، تحدّت رجالاً أشداء ذوي شوارب ناهضة مبرومة. ويمد مسعود الكلش يده إلى جيبه الداخلي ويخرج قصاصة من ورق أزرق، ويميل على اذن أقرب أصدقائه إليه، ويروح يقرأ كمن يهمس «حبيبي ونور عيني.. أنا أكتب إليك وقلبي يدق بين ضلوعي. انك لا تدري مبلغ هيامي بك. هل تصدق، يا حبيبي، انني أترقب...» الخ..

رسالة الحياة

هل كانت الغيرة هي التي تصور لسعاد أنها أقل هناءة وأتعس حظاً من زميلتها ليلى؟

الواقع أن صديقتها ليلى تتألق في هذه الأيام، كأن ثمة أضواء باهرة لا تنفك تسلطها عليها يد خفية. لم ترها إلا ضاحكة السن، مشرقة الأسارير، مرحة الأعطاف، رشيقة الحركة، خفيفة القدمين، تسير وكأنها ترقص أو تطير من نشوة ومرح.. حتى فستانها المهفهف يسمع له ما يشبه الحفيف... امرأة سعيدة ولا ريب.. وماذا تراها فعلت لكي تقع عليها عينا ذلك الرجل الذي يعمل في السلك الدبلوماسي؟ لقد أحبها من النظرة الأولى، بل هو أولع بها، وما استراح إلا بعد أن ظفر بها وتزوجها.

ومع ذلك فقد كانت زميلة سعاد.. ونشأت معها في حي واحد، وفي مدرسة واحدة.. ونالتا شهادة الدراسة الثانوية معاً في عام واحد، وكان يقال دائماً إن سعاد أجمل، وأحلى، وأحد ذكاء، وأطيب ريحاً.. حتى الصديقات كن يحسبن أن حظ سعاد في الحياة سيكون هو الأوفر دون ريب. ولقد تزوجت سعاد موظفاً في الحكومة حسن المنزلة، ولكن ليلى كان ذلك الرجل نصيبها... هو ليس سفيراً، ولكنه يوشك أن يكون كذلك، وبعد سنة أو سنتين على الأكثر يصبح ممثلاً لبلاده في إحدى عواصم الدنيا.. وحتى اليوم استطاع أن يذهب بها إلى بعض هاتيك العواصم.. عاشا مدة في روما، وأقاما في لندن، وباريس، ومدريد، وبون،

وبيروت... وحسب المرء أن يسمعها تتحدث، ليدرك أن حياتها كانت سلسلة من الأحلام العِذاب...

وسعاد ما بارحت بيتها إلا نادراً.. وربما ذهبت مرة أو مرتين إلى دمشق وبيروت، وزارت القاهرة مرة واحدة.. كانت كلها زيارات سريعة، عابرة، بضعة أيام هنا ومثلها هناك.. هكذا دائماً في لهفة وعلى عجل.. يحلان هي وزوجها في الفنادق.. الفنادق المتوسطة التي لا تعلق ببال أحد.. إنها لا تكاد تذكر متعة كبيرة واحدة.. ولا سهرة عظيمة يمكن أن تفتن في وصفها، وتغرق في تصوير أبهتها... وليلى لا تنفك تتحدث عن تلك الفنادق الفخمة.. في باريس كانت تغشى الحفلات في «مكسيم» و«كريون»، وتسهر في الليدو و«كازينو دي باري» و«الفولي برجير» وكهوف الوجوديين في حي «سان جرمين دي بريه».. وفي روما كانت تؤم فندق «لا بلازا» وتذهب إلى «كابري» في الصيف.. وفي فينا ما أكثر حديثها عن الموسيقى والاوبرات هناك... وحفلات السفارات الكثيرة.. والرقص.. والشرب.. والمرح.. انها تصف هذا كله بأنصاف العبارات وهي تبتسم نصف ابتسامة.. هذه الابتسامة الخفيفة هي التي تحز في قلب سعاد.. فان فيها ضرباً من الكبرياء، والترفع يثيرها حقاً.. وحتى حركات يديها تحنقها وتغيظها.. إنها تتظرف هكذا وهي تتناول الأشياء أو تخرج سيكارة وتروح تشعلها وتتألق في تدخينها.. وتبدي خضاب أظفارها المستطيلة المصقولة وتنفث دخانها وكأنها تقول: «ما أكثر ما رأيت..» وما أكثر ما تمتعت» لا إن هذا كثير حقاً. لقد أعطتها الحياة أكثر مما كانت تحلم به.. بل أكثر مما تساوي في الواقع..

وكانت سعاد تكتم تأوهها إذ تبلغ هذا الحد من تصوراتها، وفي قرارة نفسها كانت موقنة أن ليلى أحسن حالاً منها، أحسن حالاً بكثير.. وأوفر حظاً.. وأن عيشها أهنأ وأرغد وأمتع. وماذا تفعل هي غير أن تلد طفلاً بعد طفل.. ولا

تدري كيف تدبر الأمور على نحو ما.. إن دخل زوجها محدود، ومقتضيات العيش لا ترحم أبداً.. وتربية الأطفال هم ثقيل. وهناك أيضاً المرض.. والأطباء.. والعلاجات.. تستنفد كلها دخل هذا الزوج الذي وقف في قمة الدرجة الرابعة لا يتزحزح عنها... وماذا يمكن أن يفعل راتب الدرجة الرابعة؟ إنه لا يكفي لتدبير أمور العيش إلا بمشقة فادحة.. وبالديون من هنا وهناك.

ويوم أمس زارتها زميلتها الأخرى «سميرة» وكانت قد تزوجت طبيباً.. يقال إنه أحب هذا الانحراف البسيط في عينها.. وهام بشفتها السفلى الناتئة.. عجيب ذوق الرجال.. جاءت في سيارتها.. وبقيت عندها ساعة، ثم نهضت وهي تدير عينيها في مفروشات البيت.. كأنها لا تعجبها.. وقالت بفتور وهي تصافحها مودعة: «ابقي زورينا».. ومضت مهتزة الأعطاف.. شامخة الرأس.. وعطرها الغالي يتضوع منها ويملأ الفضاء حولها... وسميرة هذه كانت زميلتها.. وكانت طالبة فاشلة على طول الخط... وكانت سيئة الطباع... سليطة اللسان.. جامحة العاطفة.. وها هي قد تزوجت طبيباً... يجمع المال بالراحتين وينفقه عليها في رحلات ومجوهرات وفساتين فاخرة وعطور من باريس، وخدم، وسيارات، ووجاهة تملأ العين.. وتبقى هي، سعاد قعيدة بيتها.. تصلح من فساتينها بين الحين والحين، وإذا اشترت جديداً خاطته هي نفسها. وما استطاع زوجها أن يشتري ثلاجة إلا بالتقسيط على شهور عديدة. وأولادها يكبرون يوماً بعد يوم، ويشبون عن الطوق، فهل يسع هذا الزوج أن يعلمهم كما تحب لهم أن يتعلموا... أن يصل بهم إلى التعليم العالي الذي لا مفر منه في عصر التزاحم هذا؟ من يدري.. الحياة، فيما يبدو لئيمة... تأخذ بيد اللاهي والخامل وتصعد به إلى القمة... وتخلف وراءها من يكدون... وأحست سعاد أنها كانت خليقة بحظ أفضل.. وبزوج أحسن حالاً، وساءلت نفسها: «كيف قبلت به.. ما الذي أعماني عن حاله» وتأوهت، وهزت رأسها مرات وقالت: «ليتني انتظرت.. كان الإنتظار أجدى وأنفع.. كنت غريرة ولا ريب.. فحسبته جوهرة نادرة...» وبدا لها أن

زميلاتها كلهن أوفر حظاً منها. وأنها وحدها هي التي كتب عليها أن تشقى وتراءى لها أنها لن تستطيع أن تجاري أياً منهن.. ولن يسعها أن تطمح ببصرها إلى شيء من هذا الترف الذي ينعمن به... وتأملت يديها ورأت فيهما آثاراً من كدها وتعبها.. في شؤون البيت... وخيل إليها أنها تذبل شيئاً فشيئاً، وأن جمالها يذوى وينضب ماؤه على الأيام.. وأن الحياة الغادرة أخذت منها الكثير ولم تعطها إلا أقل القليل... بل هي لم تعطها شيئاً غير الهم والنكد.. وسوء الحال.. وكيف يكون في وسعها أن تزور ليلى زوجة السفير المقبل، وسميرة زوجة الطبيب الثري، ولمياء زوجة المهندس الناجح الذي بنى لها دارة كأنه نقل تصميمها من دنيا الأحلام... إن الواحدة منهن إذا ردت لها الزيارة فستدير عينها في بيتها وأثاث هذا البيت، ويبدو عليها أنها تنكر ما تراه.. ويلوح التعالي في ملامحها، وتقول لها بفتور هذه الكلمات الجارحة: «ابقي زورينا»..

وترقرقت الدموع في مآقيها... وأحست كأن شيئاً صلباً يقف في حلقها ويأخذ عليها مسالك التنفس.. فأكبت على وسادتها، وانفجرت تبكي بحرقة، وراح بدنها كله يهتز من شدة البكاء.

وانقضت ساعة الحرج... وخففت الدموع من حرقة قلبها فاعتدلت وكفكفت عبراتها وأصلحت من شأنها، وأخذ ينساب في كيانها هدوء مريح، وكأنما نزلت على قلبها سكينة لم تدر مصدرها.. ورأت نفسها طفلة تلهو وتمرح وتهتز على ظهرها جديلتان من الشعر الكستنائي عقدت طرفيهما انشوطتان من الحرير الأبيض، ولاح لها كأن والدها قد فتح لها ذراعيه لكي تلقي بنفسها على صدره وتروح تقبله، ويمر هو براحته على شعرها، ويضحك لها ضحكته الصافية الحلوة التي لا يمكن أن تنساها... لقد كان يؤثرها دائماً بحبه، ويناغيها ويحمل لها الهدايا اللطيفة، ويقول دائماً: «سعاد بنت حلوة... أمورة... حبيبة البابا...» وكانت أمها حازمة حقاً، تحب أن تأخذ الأمور مجراها الصحيح ولكنها كانت

تعتقد أن سعاد بنت مستقيمة، وأن الله يرعاها، ويسدد خطاها، وهو - سبحانه - سيوفقها، ويرزقها ابن الحلال الذي يستحقها... ورأت نفسها تلهو لهو الطفولة البريء، تلعب وتنط، ويفرحها حنان الأم وترعش قلبها الصغير ضحكة الأب الرحيم وتمضي الأيام... وتكبر هي وتتفتح براعم جمالها ويتألق الصبا في عينيها العسليتين الواسعتين... تزداد انكباباً على دروسها، وتقصي بنظرة صارمة رادعه كل عابث، طامع بحسنها. ولما جاء «كامل» وخطبها قَبِلَتْهُ زوجاً لها، بعد أن استوثقت من استقامته وشهامته ومتانة أخلاقه. وما كان موفور الرزق، ولكن مستقبله كان يبشر بالخير.. وعلى حين غرّة فتح باب غرفتها واندفع منه صبيان في عاصفة من المرح، وتدافعا نحوها فاحتضنتهما وطفقت تقبلهما بشوق ولهفة.. وتتشمّم رائحتهما، وتدخل أناملها في ذهب شعرهما، وترفع وجهيهما إليهما، وتتأملهما والابتسامة العريضة تملأ وجهها، والفرحة الغامرة تطل من عينيها، وهمست تقول: «إنهما الخير كله» ووقع في روعها لحظة أنهما قد أصبحا شابين ملء السمع والبصر، وأنهما يسيران في درب الحياة متفائلين، لا يلقيان بالاً إلى أشواكهما الجارحة، وانهما يخطوان إلى القمة بهمة عازمة لا تبالي الصعاب.. وعادت تهمس: «انهما الخير كله...» وتذكرت أن زميلتها ليلى، زوجة السفير المقبل. لم تكتحل عيناها بمرأى طفل واحد حملته أحشاؤها، وقد مر على زواجها عشر سنوات طوال.. وعادت إلى خاطرها عبارات كانت تهمس بها الشفاه حول سلوك سميرة زوجة الطبيب... إن سمعتها أضحت مضغة في الأفواه.. والله يعلم صحة ما يقال.. ولكن ما من دخان دون نار.. وزوجة المهندس، هي الأخرى، تجد من تعنت أهل زوجها وتنكرهم لها ما يملأ قلبها هماً وأسى وتساءلت سعاد: «وماذا ينفع المال والجاه إذا ما أضحت المرأة مضغة تلوكها الأفواه.. وما تنفع مظاهر الترف إذا كانت الحياة جحيماً من الهمّ والنكد لا يطاق؟ «وأخذ يتسلل إلى نفسها شعور بالاعتزاز.. واتضح لها أنهن لسن أحسن حالاً منها. بل هنّ التاعسات المسكينات على التحقيق... وهي السعيدة

بزوجها الذي يكد في سبيلها وسبيل هذين الصبيين اللذين يضيئان لهما طريق الحياة. إن لوجودهما - هي وزوجها - غاية وهدفاً. وفي سبيل الغاية والهدف يحلو التعب ويعذب الكد وبذل الجهد حتى آخر المدى... ولقد أعطتها الحياة كنزاً من السعادة كادت تعمى عنه عيناها... ثم ان زميلاتها لسن ليلى وسميرة ولمياء وحسب، بل هناك عائشة وسلمى وحليمة واعتدال وغيرهن كثيرات يحسدنها... ويرين أن الله قد وفقها وأرضاها... وأن منهن من تعاني قسوة الزواج، ومنهن من يذهب مال زوجها في سبيل الشيطان، ومنهن الفقيرة التي كانت لا تتسع الدنيا لأمالها وأمانيها... وقد ترامى إليها، منذ أيام، أن زوج زميلتها «اعتدال» قتل شقيقه في ساعة غضب لخلاف بينهما على إرث. وقد لا ينجو من حبل المشنقة أبداً.

ولاح لسعاد أن الحياة هذا شأنها: تعطي من ناحية وتقبض يدها من ناحية. والخير الذي تغدقه قد لا تعرف قيمته إلا بعد فوات الوقت... وليس المال هو السعادة دائماً وليس الترف والبذخ هما غاية الحياة... وما أكثر ما يكون النعيم مظهراً أو ستاراً يخفي الفضائح والقبائح. أو تكمن وراءه آلام النفس وأوجاع البدن.. وتساءلت في قرارة نفسها: «أين السعادة اذن؟ وجاءها الجواب من نظرة طافحة بالبشر اشرأبت إليها من عيون طفليها... وجاءها الجواب من داخل نفسها: العمل والبذل، والتضحية، والايثار، وأداء رسالة الحياة.. هي كلها السعادة.

وهان المال... وهان الترف في عين سعاد، وأدارت لحظها في بيتها وأثاث هذا البيت، فوجدت كل شيء فيه ينطق بمواصلة الجهد في سبيل أداء رسالة الحياة في معناها الإنساني الرفيع... وتصورت زوجها وهو يغذ السير إلى بيته، ثم وهو مقبل عليها وابتسامته الواثقة لا تفارق شفتيه رغم التعب والكد طيلة اليوم.. فخفق له قلبها من الحب.. ورأت نفسها أنها، عما قريب، سترتمي بين

أحضانه.. وسيسألها إذ يرى آثار الدموع في مآقيها:

- ما الذي أبكاك يا عزيزتي؟

وستجيبه وهي مشدودة البصر إلى عينيه:

- بكيت من فرط سعادتي.. وأنا أقبل ولدينا.. يا حبيبي..

ابتسامة المنتصر

كنت في الثالثة والعشرين أو الرابعة والعشرين من عمري على الأكثر. وكنت قد أمضيت في مهنة التعليم سنتين اثنتين، وما تصورت قبلهما قط أنني سأصبح معلماً... إنما الظروف هي التي أرادت ذلك وحملتني عليه حملاً، فقد كنت، في ذلك الوقت أريد أي عمل، إذ أرهقني فراغ الوقت، وأثقلت الوحدة على نفسي. ولما عرض علي العمل في التعليم اغتنمت الفرصة وقبلت دون تردد...

مثل هذا كثير يحدث في حياتنا، إننا، في الواقع، لا نملك أمر أنفسنا. فالحياة، والظروف، والمقادير، حتى المصادفات هي التي تخط لنا سبيلنا، وتوجهنا، وتتحكم بمصائرنا من حيث لا ندري.

وأحسب أنني كنت معلماً ناجحاً، وكأنما كنت مهيأ لهذه المهنة دون سواها منذ أمد طويل.. ربما كان هدوء طبعي هو السبب، وربما كان السبب هو الاستعداد الكامن في نفسي للتعليم ومقتضياته جميعاً.

ومع ذلك فقد كانت تنتابني فترات أعاني فيها من السأم والملال حيناً، ومن ضيق الصدر والغضب حيناً آخر، وأطامن من حدة شعوري بالحرج، وأروح أقول فيما بيني وبين نفسي: هذه حالات لا يختلف في المعاناة منها انسان عن انسان... وهي تتسلل إلى نفوسنا خفية كائناً ما كان العمل الذي نزاوله..

وصحيح أن التعليم تعب ومشقة وبلاء للأعصاب، ولكن أين هو العمل الذي لا يرهق ولا يشق على النفس؟ وإنه لخليق بنا أن نهدأ ونطمئن، ونعالج الأمر بالروية والحلم وضبط النفس فتمر ساعات الحرج بسلام، ونشعر بأننا، في النهاية، انتصرنا على ضعفنا، فما كان الغضب وسوء الطبع، والتشكي ومطاوعة نوازع الشر إلا من ضعف ما فطرنا عليه، ونحن قمينون، بقوة إرادتنا وصحة عزمنا، أن نقهر هذا الضعف ونتحرر من بلائه.

وكنت أرى زميلي «شكري» إذ يثور، ويتسخط، ويفور مرجل غضبه، فيتناول الطالب الصغير يريد أن يمزق جلده، ويقطع أوصاله، ويقتلع عينيه ويطحن عظمه...

وكنت أراه يرغي ويزبد، وتجحظ عيناه، وتتقبض أساريره، وتنتفخ أوداجه، وترتفع عقيرته بالصياح والصراخ، ويرفع عصاه الغليظة عالياً فوق رأسه ويهوي بها على الطالب المسكين، لا يبالي أين تقع فلا يتركه إلا وقد شجّ رأسه وأدمى يديه وجنبيه، وورم له اليته، ودق عظامه كلها دقاً مخيفاً..

وكنت أقول له - في ساعة صفاء - ما كان أغناك عن هذا الذي تفعله بطلابك الصغار إذ تثور ثائرتك... وأنك لتحزنني حقاً.. وما أحب لنفسي أن أقف منك موقف الناصح فأنت أكبر مني سناً، وأقدم عهداً في مهنة التعليم، ولك فيها تجارب عديدة ومثلك من يسدي النصح، ويرشد ويوجه.. وانك لتسيء إلى نفسك، وإلى صحتك بغضب وشدة أفعالك.. ثم إنك لا تدري ما يخبئه الغيب المحجوب.. فقد تصيب طالبك بعاهة لا تزول أبداً.. وقد يموت بين يديك فما الذي ينجيك يومئذ؟ وعلى أنك بعملك هذا تدفع بطلابك إلى مهاوي الانحراف دفعاً.. فيكون منهم - في مستقبل الأيام - القاتل واللص، والآبق، والمخل بالأمن، والخارج على القانون...

وكان هو يهز رأسه، ويتطوح ذات اليمين وذات اليسار، ويروح يتمتم:

- إن فيهم لعفاريت وشياطين... عفاريت وشياطين أي والله.

وأجيبه رفيقاً به:

- وهل ترى أن أمْرَ أولئك العفـاريت والشيـاطين... لا يصلح إلا بمثل ما تفعل ولماذا يسمينا الناس، إذاً، معلمين ومربين؟

ويقول وهو يهدد من بين شدقيه:

- وأنت.. ألا تغضب؟

فابتسم وأقول موافقاً:

- انني أغضب كما يغضب جميع الناس... ولكنني أكبح جماح نفسي.. ولا أندفع، غير أنه يلح قائلاً:

- وإذا أحرجوك؟... بل إذا أخرجوك عن طورك... فماذا تراك تفعل؟

وأجيبه بمودة:

- في مثل هذه الحالات القليلة.. أشاغلهم.. بالأعمال الكتابية وقتاً ما حتى تهدأ أعصابي.. وأثوب إلى نفسي.. وتزول ثورة غضبي.

وهذا صحيح، فقد كانت هذه هي وسيلتي.. أحياناً.. إلى تهدئة أعصابي، ومعالجة الغضب لكي لا يجمح بي، ولا يطغى طغيانه غير المحدود.

وكنت في أثناء انشغال الطلاب بأعمالهم الكتابية أروح وأجيء في أرجاء الصف، وأقف عند نافذة في صدر القاعة تطل على السوق.. فأرى دائماً دكان

«البيطري» في مواجهة النافذة، وأشاهده مكباً على عمله وقد طوى قمبازه العتيق بين فخذيه وأمسك مرة بالمكشطة يزيل بها ما يراه زائداً من حافر الفرس أو البغل، ومرة يروح يسمر، فوق الحافر، نعلاً أو حذوة من حديد في كثير من الهمة والبراعة والنشاط...

وما كان «البيطري» في الواقع هو الذي يثير اهتمامي، وإنما كان أجيره - أبو موسى - هو الذي يشغل بالي، فما رأيته إلا صامتاً، عابس الأسارير متجهم الوجه، لا ينفك يجلس القرفصاء، مشمراً عن ساعديه القويين، محيطاً جبهته دائماً بعصابة حمراء، مسترسل اللحية، وقد خالط بياضها سواد فهو أشمْط أربد، أغبر، لا يني، - بيسرى يديه - يناول معلمه البيطري سكيناً مسنونة، أو مكشطة مشحوذة، أو مطرقة من حديد، وبيمناه يقبض بشدة على طرفي قُدَّة من الجلد مستطيلة ثنى فوقها إحدى قوائم الفرس، أو البغل ورفعها شيئاً ما ليمكن للبيطري أن يعمل بسهولة ويسر وحرية حركة...

لقد رأيته يفعل ذلك طوال سنتين كاملتين. وكنت أشتهي أن أسمعه يتكلم أو يضحك، أو يتسخط، أو يغضب.. حتى وقع في روعي أن الرجل أبله ضعيف العقل، قليل الشعور بآدميته... وكنت أعجب لصبره، وتطامنه، وجَلَدِه المستمر على العمل وأقول في نفسي ربما كانت قوته البدنية، سبب بلاهته وضعف عقله.

وهي التي أماتت إحساسه بالتعب، وهي التي أفقدته الشعور بأن لآدميته حقاً عليه ولكنه، وعلى حين غرة ودون إنذار أو مقدمات، أثار دهشتي وعجبي في يومين متعاقبين: لمحته وأنا أمر قرب النافذة ذات صباح - وقد أحنقه أمر لا أعلمه - ينفض يديه فجأة من عمله، وينهض غاضباً فيتناول المكشطة الطويلة الحادة ويرفعها يريد أن يهوي بها على قمة رأس معلمه البيطري لولا أن حنَّ بعضهم فأمسك بيده وحال بينه وبين أن يبطش بمعلمه.. ثم مضت ساعة فرأيته مرة أخرى مكباً على عمله، صامتاً، ساكن الطائر كعهدي به.. وكأنما لم يحدث

شيء على الاطلاق.

وفي صباح اليوم التالي كان أبو موسى واقفاً بباب الدكان، وقد عقد يديه وراء ظهره، وأخذ يدير عينيه في المارة من باعة متجولين ورجال ونساء وخلق كثير يروحون ويجيئون مشغولين بأمور عيشهم.. وبأسرع من لمح البصر أقبل طفل يركض، لا تزيد سنُّه على السادسة أو السابعة.. وقابلته سيارة منطلقة كانت خليقة أن تعجنه عجناً تحت عجلاتها ولوالبها... لولا أن «أبو موسى» – أجير البيطري – اندفع نحو الطفل بأسرع من رفة عين فنترة نتراً عن طريق السيارة.. فنجا الطفل.. ولكن الرجل أصيب في وركه اصابة حطمته ولا ريب فانقلب فاغراً فاه يئن ويتوجع.. وتجمهر الناس، ونقلوه إلى حيث لا أعلم.. فما كان يخطر لي ببال أن له بيتاً أو زوجة، أو أحداً يُعنى به أو يهمه أمره.

وغاب أبو موسى أكثر من شهر.. ثم عاد إلى عمله.. فقد رأيته من نافذة الصف يسير في الدكان وهو يظلع.. ويتقلقل.. ويميل بشدة إلى جانب كلما مشى أو تنقل من مكان إلى مكان...

أجل عاد إلى عمله صامتاً كما كان دائماً... مشمراً عن ساعديه القويين محيطاً جبينه بعصابته الحمراء... ولا ينفك يناول معلمه بيسرى يديه سكيناً مرة، ومكشطة مرة، ويرفع دائماً بقبضته الكبيرة الأخرى طرفي قُدّة الجلد المستطيلة، وقد ثنى عليها إحدى قوائم فرس أو بغل ليمكن للبيطري أن يعمل بسهولة ويسر...

ولا أدري لماذا أذكر زميلي المعلم شكري كلما تذكرت هذا الرجل الهرم.

أجير البيطري...

وربما ساءلت نفسي أحياناً:

أتراه كان جديراً أن يفعل مثله فينقذ طفلا، ويعرض نفسه للهلاك؟

ومنذ ذلك اليوم كبر أبو موسى في عيني... وعظم شخصه جداً... وأصبحت أراه بعين خيالي وقد زال اغبرار محياه، وتوارى اربداد سحنته، وعبوسه، وتجهم أساريره... ليكون له -بدلاً من هذا كله- إشراق، ووضاءة، وابتسامة حلوة خيّرة تملأ وجهه كله... ابتسامة انتصار كاملة...

غبار

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد الظهر، ربما كانت الثالثة وعشر دقائق، أو الثالثة والربع على الأكثر. وكان الرجل لا يزال مكباً على مكتبه: «اغفاءة بسيطة» كما قال في نفسه. وامتدت الاغفاءة ساعة كاملة.. ولما أخذ يستفيق كانت أم كلثوم لا تنفك تردد بصوتها العالي: «اللي شفته قبل ما تشوفك عيني...»

وتمتم وهو يكمل اللحن في سره «عمر ضايع يحسبوه ازاي علي...» ثم أعمل قبضتيه في عينيه الاثنتين.. كان يريد أن يستفيق تماماً، وأن تزول غشاوة النوم من ناظريه..

وفكر أن يطلب فنجان قهوة - سكر قليل - ثم عدل عن تفكيره، وطلب بدلاً من القهوة زجاجة كوكا كولا... هكذا دفعة واحدة.. وقال لصبي المكتب:

- أريد الزجاجة باردة جداً، ولا بأس من بعض قطع الثلج في الكوب.. وهمس كمن يعتذر لنفسه: «الدنيا حر.. حر شديد...»

وتراءى له، مع ذلك، أن حر عمان أخف وطأة من حر بيروت: «بيروت في هذه الأيام، يكاد يخنقها الجبل.. يكاد يكتم أنفاسها.. ولا سبيل إلى شيء من الأنسام الرخية المنعشة إلا على الشاطىء.. «سمع صوته ينطق بهذه الكلمات..

ولم يعجبه.. كان قد تعود أن يحدث نفسه هكذا منذ أشهر.. ربما منذ سنة أو تزيد.. انه لا يدري بالضبط. قد تكون وحدته القاسية هي التي مكنت لهذه العادة في طباعه.. وكان يخشى أن يضبطه أصدقاؤه وعملاؤه وهو يحرك شفتيه ماشياً، أو جالساً، أو منهمكاً في عمله.. والواقع أنهم لاحظوا ذلك، وأخذوا يتحدثون عنه فيما بينهم حديثاً سريعاً فيه رثاء واشفاق وفيه سخرية خفيفة لا تكاد تبين إلا في التماع عيونهم وابتساماتهم الخاطفة، فيقول أحدهم:

- لا.. الرجل تعبان..

ويضيف آخر وهو يسحب نفساً مديداً من سيكارته...

- يا أخي... هو متعّب نفسه

ويعجب ثالث:

- هو راح يا خدايش من الدنيا؟ يستريح... يزهزه شوي.. أنا والله بحبه.

وعاد صوت أم كلثوم يملأ الفضاء: اللي شفته...

وأرخى سليم افندي اذنه للحن.. وبحركة عفوية جعل يصاحبه بنقرة واهنة هنا.. وبنقرة هناك.. فوق مكتبه.. ثم ما لبث أن تبين أن المكتب مغبر هكذا في عمان.. ومغبر كذلك في بيروت.. كان في السابق، منذ عامين أو ثلاثة لا يكاد يطيق هذا الغبار فوق المكتب أو المقاعد، أو أي شيء.. وكان رأيه أن «الكومسيونجي» يجب أن يكون نظيفاً تماماً، وبحسب قوله:

«مظهر نظيف... قيافة مقبولة ينشرح لها الصدر.. وغرفة مكتب يجد فيها الزبون راحة، والاطمئنان، والنظافة التامة...»

ولأمر ما كان له مكتبان: واحد في عمان، وواحد في بيروت. شؤون العمل اقتضته أن يكون له هذان المكتبان وظلت حياته موزعة بين المكتبين ينام ليلة في بيروت.. وليلة في عمان... وكانت له كذلك حياة في بيروت.. وحياة في عمان.. هناك ينام في داره مع زوجته العجوز.. وهنا ينام في الفندق.. وقد تعود الفنادق الرخيصة.. وربما أمضى في عمان اسبوعاً كاملاً أو عشرة أيام.. هذا أمر تقرره طبيعة العمل دائماً.. وصلاته بعملاته.. ولكنه لم يفكر قط أن ينزل في فندق من الدرجة الأولى أو حتى الثانية. المال بالطبع موفور ولكن المبذرين اخوان الشياطين والتبذير سفاهة، فلماذا يكون مبذراً؟.. ثم ان «النومة» واحدة في فندق كبير.. أو فندق حقير.. وتلمس برؤوس أصابعه غبار المكتب من جديد.. وحدق هنيهة بعينات أقلام حبر من النوع الرخيص، وعينات لبرايات.. وأقلام رصاص.. وزجاجات حبر مختومة.. ومحايات.. ومثاقب... وبلاطات صغيرة من الصيني الأبيض والأزرق والأخضر والوردي.. وأرسل نظره إلى ركن الغرفة فشاهد نماذج لمواعين الطبخ العادية المصنوعة من الالمونيوم... ومواعين أخرى ذات أحجام مختلفة مما ينضج فيها اللحم في دقائق معدودة بفعل ضغط البخار... وفي ركن آخر أخذت عينه «ديكورات» وزخارف مغبرة ومبعثرة، وبعض تماثيل صغيرة لزنوج وزنجيات في شتى الأوضاع فهذه متربعة واحدى راحتيها مبسوطة على رأسها، برشاقة، وتلك الأخري عارية ركعت على ركبة واحدة ونفر نهداها.. إلى جانبها زنجي مفتول العضل غليظ الشفتين، شيق النظرة... وتحرك في نفس سليم افندي خاطر سريع أومض في أعماقه ايماضاً حاداً، فارتعش بدنه، وابتلع ريقه، وراحت أصابعه تعبث بطرف راية صغيرة لشعار تجاري معلق بقضيب رفيع من حديد له قاعدة خشبية مستديرة، ثم نقل الراية من يسار المكتب إلى يمينه.. ولكنه سرعان ما أعادها إلى موضعها الأول في حيرة بادية.. وكان يصل إلى سمعه صوت أم كلثوم بعيداً، نائياً هذه المرة كأنه يسمعه في حلم: «.. عمر ضايع يحسبوه ازاي علي..» وجعلت شفتاه

تتحركان من جديد: الغبار في كل مكان.. حتى تماثيل الزنج مغبرة.. مزبدة.. وأحس في قرارة نفسه أنه يكره الزنجي المفتول العضل، الغليظ الشفتين.. وابتسم بمرارة وهو يعاود إليه النظر وسره أن يكون الغبار قد كساه.. وتساءل لماذا تراه لا يزال معروضاً، في هذا الركن؟ لماذا لم يتخلص منه بأية وسيلة.. يجب أن لا يبقى أبداً مجاوراً للزنجية الحسناء.. الراكعة.. ذات النهدين النافرين.. وعنّ له، في هذه اللحظة بالذات أن رغبته في زيارة بعض أقطار اوروبا لا تزال أمنية خائبة، قابعة في أعماقه.. كان في أول الأمر يرجو أن يزور لندن ليرى هناك ولديه الاثنين، ويطلع على أحوالهما ويطمئن إلى دراستهما.. كان هذا في السابق.. قبل أعوام.. وكانت لا تزال رواسب من قراءته للأدب الانكليزي تجسم له أمنيته... وفي تلك الأيام كان يعمل محاسباً مرموق المكانة في شركة تجارية كبيرة... وكان شاباً.. وكان يقرأ الأدب الانكليزي ويعجب بمسرح شكسبير خاصة... ويمني نفسه أن يشاهد «هملت» و«مكبث» تمثلان هناك.. ثم انت لا تدري كيف تلعب بك الأيام وتخط لك مصيرك.. كان قد وصل إلى منعطف حاسم في حياته.. فاستقال من الشركة الكبيرة.. وعمل تاجراً وسيطاً.. في «الكومسيون».. وكبر ولداه، فأرسلهما يدرسان في لندن.. وما استطاع هو أن يشبع رغبته وأضحت مشاهدة تمثيليات شكسبير شيئاً باهتاً في نفسه... إنما هو غدا يتحرق إلى رؤية أشياء أخرى... في لندن.. وباريس.. وروما.. وأنهى الولدان دراستهما وذهبا للتخصص في أميركا.. وآثرا البقاء هناك فعمل أحدهما طبيباً جراحاً في أحد المستشفيات والتحق الآخر باحدى شركات الصناعة الكيميائية برواتب كبيرة.. وتقدمت به، هو، السن... وشاخ.. وشاخت معه زوجته.. هكذا هي الدنيا.. ومع ذلك لا يزال سليم افندي يتسلم عينات ونماذج من المصانع والشركات الألمانية والانكليزية والأميركية... يعرضها على التجار في عمان، وفي بيروت.. وغدا لا يكاد يحس وجود زوجته.. ويقع في وهمه أنها شيء ملقى كأحد هذه النماذج المغبرة التي تملأ مكتبه.. ويوم أن خطر له أن

يستعرض قصة حياته ملأت قلبه الحسرات.. ووقع في روعه أنه لم يعش قطعاً.. لم يذق طعم الحياة كسائر خلق الله.. وإنما هو كان يعمل ليل نهار، يعرض عيناته.. ويكتب رسائله، يدقها هو نفسه على الآلة الكاتبة... ويقوم بأعمال المحاسبة.. ويجمع الديون، وينام في فندقه الرخيص مبكراً.. ويستيقظ مبكراً.. وينسى أن يحلق ذقنه.. حدث هذا بضع مرات.. ثم انقلب عادة.. وأصبح لا يحلقها إلا مرة أو مرتين في الاسبوع.. وأهمل من هندامه ذات يوم... ثم استطاب هذا الاهمال الذي يوفر عليه تعباً ومالاً. وعاد لا يخلع بذلته إلا إذا تلفت تماماً. وها هو أخيراً اعتاد أن يحدث نفسه ويحرك شفتيه وهو في الطريق.. أو في المكتب... أو حتى مع عملائه ومعارفه.

ومن بعيد، من أغوار سحيقة، كانت أم كلثوم كأنما تهمس في اذنه وحده... «عمر.. ضايع يحسبوه الزاي علي». وأرسل نظرة تائهة تبحث عن الزنجي ذي العضل المفتول والشفتين الغليظتين... وزم فمه بمرارة.. وتحسس وجهه المسنون المتهضم براحة يده.. وأيقن أنه لم يحلق شعر لحيته منذ اسبوع كامل.. واستدار فجأة إلى مرآة صغيرة مغبرة معلقة على الجدار خلف مكتبه، وراح يتفحص وجهه.. ومنظره كله.. وشاهد بقايا شعر أشيب مشعثة في رأسه، ووجهاً كثير الغضون والتجاعيد، وعينين صغيرتين ذابلتين منطفئتين، وربطة عنق معوجة على قميص قذر، وفماً مزموم الشفتين... ومد يده تمسح الغبار عن المرآة بعصبية ظاهرة.. ثم تناول ممسحة قديمة مهترئة والتفت إلى مكتبه وراح، بحركة مضطربة، يمسح الغبار، ويقلب الأشياء رأساً على عقب، ويزعق منادياً صبي المكتب وهو يلهث لهاثاً شديداً:

- تعال.. يا ولد.. يا حمار.. تعال امسح الغبار...

ودون أن ينتظر جواباً اندفع خارجاً من مكتبه، ثم راح يهبط السلم بسرعة

غريبة، وسار في الشارع الكبير، وهو لا يحس أنه يرتطم بالناس، ويزاحم الخلق المنتشر على الأرصفة وأمام دور السينما.. ولا تنفك شفتاه تتحركان وتتمتمان:

«.. عمر ضايع يحسبوه ازاي علي»

ووجد نفسه أخيراً على عتبة دكان يوسف الحلاق فتلقاه هذا مرحباً به، أجلسه على كرسيه الكبير، وجعل يحلق له ذقنه... ثم عطره، وصفف بقايا شعره مفروقة إلى اليسار.. وخرج مندفعاً من دكان الحلاق، فبهرت عينيه أضواء «النيون» وقد تلألأت بها شوارع المدينة... وانساق مع حركة الغادين والرائحين... ورفع رأسه قليلاً فشاهد فوق قمة عمارة كبيرة اعلاناً ضخماً بالأنوار الملونة الخاطفة عن «بيرة امستل» المنعشة.. وعلى الفور ركب سيارة إلى مقهى «الكابيتول» وشرب هناك عرقاً حامياً، بدلاً من البيرة المثلوجة.. وأمضى سهرة صاخبة ضحك فيها كثيراً، وتغنى مبحوح الصوت، بكلمات بعينها لم يسأم ترديدها: «عمر ضايع يحسبوه ازاي علي...» وتناول عشاء لحماً ودجاجاً محمراً، ونهض قبيل منتصف الليل يجر رجليه ويتطوح عائداً إلى فندقه الرخيص.. ووجد صاحب الفندق ساهراً يدخن نارجيلته ويسوي حساب فندقه في سجل كبير... وبهت الرجل الذي يدخن النارجيلة إذ سمعه يقول مبهور الأنفاس.. متعثر اللسان:

– ذلك الزنجي.. أنت تعرفه طبعاً.. ذلك الزنجي القذر.. المفتول العضل.. الغليظ الشفتين.. لا أريد أن أراه بعد اليوم.. خذه بعْهُ.. حطّمهُ.. افعل به ما تشاء.. لا أريد أن أراه.. لا أريد أن أراه أبداً.. هكذا هي الدنيا أيها الغبي.. هكذا هي الدنيا..

ومضى مترنحاً إلى غرفته وهو يقهقه ويردد كمعتوه: ذلك الزنجي القذر..

ذلك الزنجي القذر.. واندس في فراشه وهو يتحدث إلى نفسه بما لا يفهم.. في حين كان صوت ناشزٍ يهمس في أعماق روحه بالحاح:

عُمرْ ضايع يحسبوه ازاي علي...

مات الغول

(أفكار عدد ٥٦ شباط ١٩٨٢ ص٤٢)

ما كان المعلم يوسف ليرحم نفسه أبداً، وكانت مهنته تمتلكه بأكمله وأتمه.. لقد كان أضخم من أن يستأثر به كله أمر واحد، إلا حرفته فقد اجتازته بأجمعه.. ومن جميع أقطاره.. ذلك أن المعلم يوسف كان جسيماً، لحيماً، هائل الانحاء، بعيد مطارح الجسم، يخيل لمن يراه أن لوجهه الكبير المستدير المنتفخ الغارق في لجة من الشحم كياناً مستقلاً، ولقبّةِ بطنه كياناً آخر قائماً بذاته، ولكتلة صدره البدين مع لحم منكبيه وجوداً خاصاً وحيزاً عظيماً يستوفي حقه كاملاً ويغتصب من حقوق الآخرين في فضاء الله الرحيب... وكانت عيناه أصغر ما فيه: مجرد ثقبين في مسطح وجهه الشحيم..

وكان زملاؤه في حيرة من أمره في أكثر الأحيان، لا يستطيعون أن يدركوا - إذا دخلوا غرفة المعلمين وهو رابض فيها - أنائم هو أم مستيقظ.. فقد كان من العسير أن يطمئنوا إلى أن عينيه مغمضتان راكدتان أو هما مفتوحتان تخفق أجفانهما وترتعش أهدابهما... لو صح أن لهذين... الثقبين... أهداباً ترف وترتعش.

وكيف كان في وسع المعلم يوسف أن يرحم نفسه، وقد اطمأن - منذ بعيد - إلى أن الله قد اختاره ليكون معلماً قلما يجود الدهر بمثله... ووهبه من صنوف

العلم وألوان المعرفة ما لا سبيل لغيره أن يلم ببعضه القليل.. ولهذا كله كان المعلم يوسف في شغل شاغل عن الدنيا كلها بهذه الرسالة التي كان يحملها - مع الشحم واللحم - فوق كتفيه الهائلتين..

ولقد كان له أسلوب فذ في التربية ظل عمره كله يجهد في تطبيقه جهده في تلاميذه الصغار وضربهم على أقفيتهم وف ة، الـا- مصاه الصغيرة ة المعقدة.. فإن العصا، فيما كان يؤمن ـتقد، هي وحدها التي تفعل ـاجيب وتأتي بالمعجزات.. على أن يكون الضرب موجعاً حقاً، مؤلماً حقاً، ياً كالجمر فوق إليات صغار الطلاب...

أجل كان المعلم يوسف إذا اعتزم أن يؤدب طفلاً، ويهذبه، ويقوم اعوجاجه، يجلس فوق كرسيه ويأتي بالطالب فيثنيه على ركبته ويضع يسرى يديه على رأسه ويضغط بقوة ثم ينهال على إليته ضرباً سريعاً مبرحاً بعصاه الغليظة المعقدة على مرأى من زملائه، الذين ألجمهم الخوف، حتى يملأ الطالب المضروب غرفة الصف صراخاً وعويلاً وهو يسترحم المعلم ويستحلفه أن يكف عن ضربه، ويعلن توبته عن ذنب مجهول لا يعرفه ويسأل الله أن يديم له أمه وأباه.. وأن يجعل الجنة مأواه.. وعندئذ كان غضب المعلم يوسف يبلغ قمته العالية... إذ يتصور، بأسرع من لمح البصر، أن الله قد استجاب لهذا الطفل.. فهو لن يلبث أن يموت.. وأن يخرج أولئك الشياطين الصغار... يشيعونه مع المشيعين حتى مستقره الأخير.. ويسخرون منه في سرائرهم.. وربما يتغامزون عليه.. ويخرجون لجثته المحمولة على الأكتاف ألسنتهم الصغيرة الحمراء.. ويفركون أكفهم فرحاً أن تخلصوا منه أخيراً... ويتهامسون متضاحكين... (مات... مات.. مات الغول.. مات) ويصرخ المعلم يوسف، على حين غرة، صرخة مدوية ويروح يهذي: (آه.. يا كلب.. مات الغول.. مات.. هيه.. خذ.. خذ..) ولا يفيق الطالب الصغير من غشيته، بعد الضرب المبرح الكاوي، إلا أن ينضح وجهه بالماء.. ثم يتحامل على

نفسه موجعا مكدوداً، متوكئاً على بعض زملائه، ويروح يمسح دموع عينيه براحة يده ويتحسس بالأخرى إليته ويجر نفسه جراً حتى يصل إلى مقعده فينحط عليه وقد استقر في روعه أن الدنيا كلها غول مخيف، مولع بالضعاف الذين لا ينتظر أن تمتد إليهم يد تحمي ضعفهم، وتدفع عنهم الأذى..

وقد أفلح المعلم يوسف.. ونجح نجاحاً باهراً.. وكانت آية نجاحه طائفة من النشء استخدمتهم المصارف المالية والشركات والدوائر لجمال خطوطهم.. وانطوائهم على ذواتهم، وحياتهم وقناعتهم الجميلة..

ومع ذلك فقد أقلع المعلم يوسف ذات يوم، عن ضرب طلابه الصغار على إلياتهم.. واضطر أن يعيد النظر طويلاً في أسلوبه الفذ في التربية... إلا أنه دفع الثمن غالياً جداً.. من ذات نفسه وخالص سعادته الخاصة.. أي والله.. فقد كان ينعم بألوان من السعادة كانت حديث الناس ومدار.. مفاكهاتهم، إذ كان يعيش مع أمه العجوز وأختيه في بيت صغير ينهض فوق دكاكين على قارعة الطريق العام.. وكان لهذا البيت القديم شرفة حولها حاجز من قضبان الحديد، وكان المعلم يوسف لا يُرى إلا غادياً إلى مدرسته أو عائداً منها أو جالساً في الشرفة، وقد ارتدى مباذل البيت من ثوب فضفاض وطاقية من صوف مشغول ذات كبة منفوشة مستقرة على قمتها، وخف مخرق تلوح منه أصابع قدمه، وسبحة صغيرة من (كهرمان) لا ينفك يدير حباتها وهو يدندن.. ويتنغم بصوت خفيض جداً لا يكاد يبين.. كانت تلك إحدى مزايا المعلم يوسف.. وكان الناس يقولون أن له صوتاً حلواً.. ونقراً بارعاً على العود ولذلك كان خاصة أصدقائه يدعونه إلى سهراتهم في البيوت لكي يسمعوه يغني ألحاناً لعبد الحي، وسيد درويش ومنيرة المهدية.. وهو يغمز أوتار العود برفق ويسترسل في نشوة وطرب مردداً أغنية منيرة المهدية (أسمر.. ملك.. روحي...) وكانت (أسمر ملك) هذه يرق فيها صوته.. ويصفو... ويلين ويتكسر من فرط الشوق ويكاد يذوب من التحنان... ويجاريه

فيها القوم بآهات اللوعة.. والتحرق. إلى حبيب أسمر مجهول تشتهيه قلوبهم وأبدانهم...

ذلك لون من ألوان سعادته.. ومن ألوانها الأخرى أنه كان يدعو أمه وأختيه ليجلسن حوله في شرفة الدار. ويضع هو رجلاً فوق رجل فيبدو لمن يراه كأنه فيل صغير قائم في زاوية الشرفة ويروح يخطب بكلام كثير يحرك معه يديه ورأسه، ويروي لأمه وأختيه أعماله المجيدة في تربية الأولاد الصغار.. الشياطين... الكلاب. الذين يستحيل أن يدخل العلم عقولهم إلا بعد إعمال العصا في الياتهم الحقيرة.. وكانت أمه العجوز وشقيقتاه يصغين إليه بإعجاب... وتهيب وإجلال.. ويسألن الله أن يوفقه إلى الخير... ويسعده.. ويبارك فيه.. فينتشي عندئذ ويمس شاربيه الصغيرين برؤوس أصابعه.. ويشرئب نحو السماء.. ويقول: (التربية فن.. والتعليم مقدرة.. وأصول.. نعم.. تماماً.. فن وأصول..).

ولعل سعادة المعلم يوسف كانت تبلغ ذروتها يوم الأحد من كل اسبوع، فقد كان عصر ذلك اليوم يرتدي بدلته البنيّة الثمينة، ويختار لها ربطة عنق حريرية مشجرة، ويرشق في عروة سترته وردة أو قرنفلة كبيرة ويركز عويناته على أنفه ويسير كمن يتدحرج بين أختيه إلى شاطىء البحر في يافا حيث يتخذ هو واياهما مقاعد مستطيلة مريحة ويروح يقزقز بذر البطيخ ويأكل الفستق المقشور ويضحك كثيراً مع شقيقتيه وهو يرنو إلى موج البحر يتدافع وتهم الموجة بالموجة تلاحقها ثم تغيب فيها وتضربان الصخر معاً فتتكسران ويتطاير رشاشهما عالياً... ويقهقه المعلم يوسف وتهتز كرشه فيلتفت ذات اليمين وذات الشمال ويقول لجيرانه من حوله: (الموج بيلعب.. الموج بيضحك... قه.. قه.. قه..)

وينهض المعلم يوسف بعيد الغروب ويتأبط ذراع إحدى شقيقتيه ويسير متثاقلاً، راضياً عن نفسه وعن الدنيا، مفكراً في هدوء قرير بما سيفعله في الغداة، لكي يدخل العلم الصحيح في عقول طلابه، فيرتسم على شفتيه

الغليظتين ظل ابتسامة ويقول كمن يخاطب نفسه: (التربية فن.. والتعليم أصول).

وما كان لشيء أن ينغص على المعلم يوسف هناءته إلا أن شقيقته الكبرى قد مات عنها زوجها فرجعت إلى بيت الأسرة منذ سنوات تعاود العيش فيه منكسرة، مهيضة، وأن شقيقته الأخرى لم يتقدم أحد لزواجها وقد قاربت الثلاثين... فسدت الأختان بهذا الحظ التعيس، باب الزواج في وجهه هو... (ايه.. دنيا قذرة.. لا تعرف من أين يأتيك أذاها.. كأنها تخبىء لك نصيبك منه.. ثم تغافلك وتضرب ضربتها...).

وقد كانت هذه الدنيا العجيبة بارعة حقاً في تسديد ضربتها إلى قلب المعلم يوسف وبدنه على السواء.. فقد افتتح يومه المدرسي ذات مرة بضرب أحد طلابه الصغار ضرباً شديداً على إليته حتى أغمي عليه، وهو يرغي ويزبد ويصرخ: (آه... يا كلب.. مات الغول.. مات.. هيه.. خذ.. خذ..).

وفي اليوم التالي كان والد الغلام، وهو رجل قوي العضلات، متين الألواح شديد الأسر، ينتظر المعلم يوسف في طريق المدرسة، وما أن لاح له وهو يحث خطاه ويتقلقل من بعيد حتى تحفز واستعد كالنمر الضاري، ولما أصبح المعلم يوسف على مقربة منه انقض عليه انقضاضاً وأمسك بطوقه وأخذ ينهال عليه لكماً وصفعاً ولطماً وركلاً بقدميه، ويدق له عظامه دقاً بقبضته وهو يقول له: (خذ.. خذ.. تعلم كيف يكون الضرب.. خذ) وتجمهر المارة وخلّصوا المعلم يوسف من قبضة الرجل وذهب به بعضهم إلى بيته.. وهو يقول بصوت واهن مختنق: (هذا جزاء إحساني.. هذا جزاء تعبي في تعليم أولادكم.. وتربيتهم. أيها الجاحدون...).

ثم مضت الأيام، ولم يعد المعلم يوسف يمد يده لضرب تلميذ، واختفت عصاه

الغليظة المعقدة.. ثم أخذ ينحل يوماً بعد يوم كأن به سقماً.. فضمرت كرشه وترهل لحمه، وتهدلت كتفاه، واسترخى جلده، ودقت معارف وجهه.. وكانت أمه وشقيقتاه يرينه يروح ويجيء في أرجاء الدار وهو مطرق يهمهم بما لا يفهم وتبدو له، فيما يشبه الحلم، جماعة الشياطين الصغار يشيعون جثة محمولة على الأكتاف، وتملأ السخرية صدورهم ويتغامزون خلسة، ويخرجون للجثة المحمولة السنتهم الحمراء الصغيرة، ويفركون أكفهم فرحاً ويتهامسون وهم يتضاحكون: (مات.. مات.. مات الغول.. مات..).

مسرحية

غبار وأقنعة

(الأقنعة في الأصل قصة قصيرة للمؤلف حولها إلى مسرحية)

الشخوص :-

المؤلف: في نحو الخامسة والثلاثين. تبدو عليه سيماء المفكرين.

الزوج: يرتدي البنطال وهو أعرج الساقين. إذا سار أو تحرك أو تكلم يتخلع ويتقلقل. نحيل الجسم. دميم الشكل لا يحلق ذقنه إلا لماماً. عليه أن يمثل دوره كما صوره المؤلف في قصته «الضحية» مرة، ومرة أخرى كما هو في الحياة.

الزوجة: بين الخامسة والعشرين والثلاثين. تبدو جميلة وبشعر مرسل ضفائر على كتفيها. يتراءى للناظر انها بريئة، رومانطيقية، إلا أن بعض حركاتها ونبرة في لهجتها تنم على غير ذلك.

صاحب المقهى: رجل من صميم الشعب يرتدي قمبازاً عتيقاً، طربوشه مائل إلى الخلف دائماً، قلما يحلق لحيته، نشيط متفائل، ذكي بالفطرة، صريح الخ...

العشيق: في الستين، متأنق كما يفعل المتصابون. له شاربان ناهضان بفعل الكوزماتيك. إحدى عينيه سليمة والأخرى من زجاج.

زوجة المؤلف: ربما في الثلاثين. جميلة. المهم أنها ربة بيت.

المكان:- غرفة مكتب المؤلف. خزانة كتب. مكتب أنيق، فوقه مصباح كهربائي، وبعض الكتب، وأدوات الكتابة، وورق، ويقوم في أحد أركانه تمثال صغير من البرونز. في صدر الغرفة كنبة مستطيلة، وثلاثة فوتيلات مريحة وكرسيان صغيران. صور زيتية معلقة على الجدران في الوسط طاولة مستطيلة أنيقة وفوقها زهرية مليئة بالزهور، وكتب قليلة منتشرة. ستار عريض مسدل على إحدى نافذتي الكتب، والأخرى مفتوحة على الليل. باب داخلي في أقصى اليمين.

الوقت:

ربما بعد منتصف الليل.

[نغم موسيقي، يتأدى ناعماً عذباً، من بعيد، يحسن أن يكون عزفاً منفرداً على الكمان].

يرفع الستار ببطء. المؤلف وحده وقد ارتدى مبذل البيت (روب دي شامبر) يرى جالساً في أحد ركني الكنبة المستطيلة، بيده كتاب عنوانه ظاهر بخط عريض: «الضحية» يقلب صفحات الكتاب متوقفاً هنيهة عند هذه الصفحة وتلك الصفحة. يجذب نفساً عميقاً من سيجارة بين اصبعيه. ثم يضع الكتاب جانباً ولكن في مكان ملحوظ.

المؤلف: [هامساً لنفسه] لن أجد فنجان القهوة الذي أريده الآن. الكل نيام. وأنا وحدي في هذا المكتب [ينظر في ساعة يده] تجاوزت الساعة منتصف الليل. هذا قدرنا: نسهر ونسهر... ونظل نكتب أو نقرأ.. وينام الآخرون في فراش دافىء ينعمون بالأحلام.

: [يلتفت فزعاً] آه... من أنت... من أين دخلت.. ماذا أتيت تفعل؟ لص؟

لن تجد شيئاً ينفعك في هذا البيت.. إلا هذه الكتب...

الزوج: مصيبتنا هي هذه الكتب يا سيدي.

المؤلف: هذه الكتب؟!

الزوج: دعني أولاً أقدم لك التهنئة. قصتك الأخيرة هذه [مشيراً إلى الكتاب الذي كان في يد المؤلف] نالت الاعجاب. ما أجمل اسمها «الضحية».. مبروك يا سيدي.. مبروك...

المؤلف: [مرتاحاً] لست لصاً اذن؟.

الزوج: [بسخرية بالغة] قد تصنع مني لصاً إذا شئت..

المؤلف: ماذا تقول؟.

الزوج: كما صنعت مني إنساناً آخر في قصتك..

المؤلف: ما شأنك بقصتي؟ من عساك تكون؟ من سمح لك بالدخول في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ لا شك في أنك دخلت من النافذة.. كما يفعل اللصوص..

الزوج: لا تخف يا سيدي. واهدأ قليلاً، أنا واحد منهم.

المؤلف: منهم؟ ماذا تعني؟

الزوج: من أشخاص قصتك هذه.. ألست أنت مؤلف «الضحية» التي يقرأها الناس يا سيدي؟.

المؤلف: [وبدهشة كبيرة] من أشخاص قصتي؟ ما هذا الهراء؟

الزوج: هذا هو الواقع؟

المؤلف: إذا صح هذا فإنه يحدث لأول مرة في التاريخ... عجيب متى كان أشخاص القصص يخرجون من الورق ويزورون المؤلفين بعد منتصف الليل؟.

الزوج: منتصف الليل أو غيره... المهم أنا هنا.

المؤلف: إن لم تكن محتالاً... ونصاباً... فأنت خرافة.. أسطورة. هل تفهم؟.

الزوج: [بهدوء] هذه هي الحقيقة... لقد جعلتني اسطورة [يجلس متهيباً في الركن الآخر من الكتبة. المؤلف يروح ويجيء في الغرفة ويحدق النظر في الزوج من حين لآخر].

الزوج: ألا تعطيني سيجارة وتشعلها لي؟ خرجت من قصتك دون سجائر.

المؤلف: [ويقدم له سيجارة من علبته ويشعلها له] تستطيع أن تدخن الآن... هل تريد أن أصنع لك فنجان قهوة أيضاً؟!

الزوج: [متلعثماً] استغ.. فر.. الله.. ولكن هل أستطيع أن أتحدث أيضاً.. وأقول الحقيقة؟.

المؤلف: الحقيقة؟! أية حقيقة؟.

الزوج: لا مؤاخذة.. يظهر انك انسان غير أمين؟.

المؤلف: سأقطع لك لسانك يا سفيه...

الزوج: اهدأ قليلاً يا سيدي.. ولا تتعجل الأمور.. السفيه من يشوه الناس...

المؤلف: [محتداً] اسمع يا هذا.. أنا رجل مشغول.. ووقتي أثمن من أن أضيعه مع واحد...

الزوج: [يقاطعه] مع واحد مثلي، أليس كذلك؟ أنسيت اني أحد الذين قامت شهرتك على أكتافهم؟.

المؤلف: [ساخراً] أنت؟ قامت شهرتي على كتفيك؟!

الزوج: بكل تأكيد... لولاي ما كانت قصتك ولولا غيري ما كانت قصصك كلها... التي أتاحت لك هذا العيش الرخي... فيما أرى..

المؤلف: [وقد نفد صبره] أعيد عليك السؤال: من أنت؟.

الزوج: [متخلعاً متقلقلاً وهو ينهض] حبيبي!... أنا الزوج.. الذي سميته في قصتك.. يعقوب.

المولف: أنت... أ... الزوج؟!

الزوج: أنا هو... حبيبي... أنا هو... وأول ما صنعته في قصتك أنك غيرت اسمي الذي يعرفني به الناس... وألبستني اسماً آخر. كان أول الرقص حنجلة...

المؤلف: ماذا تعني؟.

الزوج: [مستمراً] ثم رحت تبدل وتغير على هواك.. وتصنع مني ما تشاء..

وها أنذا أخرج من ورق القصة إلى الوجود، من رأس المؤلف وخياله إلى دنيا الناس.. ولكن بصورة مزيفة.. من أين لك هذا الحق يابا؟.

المؤلف: [جاداً] لم تكن أكثر من خامة أصنع منها ما أريد.. أشكلها كيف أشاء.

الزوج: كيف تشاء؟ وواقعي؟.

المؤلف: إني التزم بالواقع الذي أراه أنا..

الزوج: تراه أنت؟.

المؤلف: أجل. من خلال مزاجي بوصفي فناناً. من خلال نظرتي الخاصة إلى الحياة. من خلال تفكيري ورؤيتي الشخصية.

الزوج: لا أفهم...

المؤلف: أرأيت؟ لم تكن بين يدي أكثر من خامة.. عجينة..

الزوج: أنا خامة.. عجينة؟!.

المؤلف: كل شخوص المؤلفين خامات يشكلونها كيف يريدون. [يشير إلى التمثال الصغير فوق ركن مكتبه] هل ترى هذا التمثال الصغير؟.

الزوج: [يقترب من التمثال وهو يتخلع ويروح يتأمله] أجل. أراه...

المؤلف: لم يكن أكثر من قطعة من الحديد أو البرونز. كان خامة ملقاة. والنحات الفنان هو الذي صنع منها هذا التمثال الجميل. هل فهمت؟.

الزوج: ولكني لم أكن خامة كما تقول.. كنت إنساناً.. على غير ما صنعت مني.

المؤلف: ربما جعلتك في الورق أحسن حالاً. .

الزوج: بل أسوأ حالاً.. صحيح أني كنت كثير الصياح والزعيق في مقهى الانشراح.. وصحيح أني كنت أغش في لعب الورق لكي أربح بضعة قروش كل يوم...

المؤلف: [ضاحكاً] وكان بعضهم يمسك بطوقك ويدق عظامك.

الزوج: [ممثلاً دوره في الحياة] حبيبي.. كنت أحب اضحاك الناس.. هكذا خلقني الله.

المؤلف: اني أعرفك أكثر مما تتصور... كنت تفتعل التهريج، وتغش في اللعب عامداً متعمداً وبصورة مكشوفة لكي يضربوك ويركلوك فلا تسكت إلا إذا نلت ثمن الضرب والركل واللطم...

الزوج: [مستمراً في تمثيل دوره في الحياة] ولكن رواد المقهى كانوا يحبون حديثي ونوادري يا با.. وكانوا يحبون الفضائح التي كنت أرويها لهم فيستلقون على أقفيتهم من الضحك.. وتهتز كروشهم [يمثل ذلك وهو يتخلع] وينفحني بعضهم قروشاً قليلة أو كثيرة... [برهة صمت. يعود بعدها إلى تمثيل دوره كما في القصة]. وكانوا ينسون، وهذا هو الأهم، حكاية زوجتي.. هكذا كان يجب أن تصور شخصيتي...

المؤلف: كنت اضحوكة للآخرين وأنت تتخلع هكذا.. فرفعت منزلتك. البستك البنطال والقميص، ولم تكن ترتدي غير القمباز المخطط البالي. جعلت

منك انساناً محترماً في الظاهر على الأقل.

الزوج: [محتجاً] لا تقل هذا. لقد جعلتني من أشخاص المآسي. لا يكاد قارىء يتصورني إلا ويضيق صدره. فأنا ثقيل على الناس. لا أنفك أضيف إلى همومهم هماً جديداً، بسحنتي المربدة، وملامحي المكفهرة، انني أعيش الآن مكروهاً في أذهان الناس، وقد كانوا يحبونني ويطربون لنوادري.. وكل هذا بسبب تلفيقك...

المؤلف: كانوا يهزأون بك.

الزوج: [يعود يمثل دوره كما في الحياة] كلام فارغ.. ثم حكاية زوجتي؟ هل كنت أنا، أيها المؤلف العظيم، أول رجل تخونه زوجته؟ الذي صنعته أنت أنك دفعتها إلى الخيانة في ضوء ما سميته مآساتي... التي صورها لك الوهم.. جعلت الفقر والحرمان سبب الخيانة. وما كانت خيانتها إلا نزوة من نزواتها، واندفاعاً وراء شهواتها، واستجابة لنداء الشيطان - كانت هي أول من أطلق علي لقب «أبو عص» وتلقفه منها صبية الحارات ورجال الأزقة ونساء الحي.. حتى حجب هذا اللقب اسمي تماماً، ولم أعد أعرف إلا به.. وصورتها هي طرفاً آخر في المأساة المروعة المزعومة التي زينتها لك تصوراتك.. وما هي بمأساة.. بل مهزلة..

المؤلف: ألم تكن خيانتها مأساة؟! ما أعجب أمرك!.

الزوج: يوم خانتني ارتحت تماماً، ولما توالت خياناتها شعرت أني غدوت حراً طليقاً خفيفاً كهذه النسمات الحلوة التي تهفو على وجهي الآن من نافذة غرفتك المفتوحة على الليل..

المؤلف: [مقهقهاً] كانت خيانتها سبباً في رغد عيشك...

الزوج: [حانقاً] كلا.. أبداً.. كان هذا من أوهامك... هذا شأنك: تزور الواقع!

المؤلف: [مبتسماً باشفاق] لا تغضب.. اني آخذ من الواقع ما أريد وأدع ما أريد..

الزوج: [متألماً] ما شاء الله.. لا أفهم ما تقول يا سيدي... رد إلي شخصيتي.. أعد إلي حقيقتي.. أحس أني ضائع الآن بين خيالك وأوهامك وواقعي الصحيح... فأي الرجلين أنا؟ أنا.. من أكون أنا؟ قل. أليست هذه جريمة؟ ألا يعاقب عليها القانون؟ إن تشويه وجه انسان بضربة سكين أو بماء النار يؤدي بالفاعل إلى السجن... وأنت هل تظل طليقاً بعد أن شوهتني تشويهاً كاملاً؟!. وفي هذه الأثناء تتسلل الزوجة من خلف الستار المسدل وتتقدم ببطء دون أن تسمع لها حركة].

الزوجة: وأنا يا سيدي المؤلف؟.

المؤلف: [يلتفت مرتاعاً] أنت أيضاً.. من تكونين.. ومن أين أتيت؟.

الزوجة: [بهدوء مشيرة إلى الزوج] من حيث أتى هو.. من بين صفحات قصتك.. لقد جعلتنا مضغة في الأفواه.. فضحتني...

المؤلف: ومن تكونين؟.

الزوجة: أنا الزوجة [واضعة يديها على خاصرتيها كما كانت تفعل في الحياة] أتيت لأناقشك الحساب أنا أيضاً. أنا التي منحتها اسم إميلي.. والناس كلهم يعرفونني باسم جوليا..

المؤلف: جوليا.. إميلي.. يعقوب.. ماذا دهاكم هذه الليلة؟ ألا تعودون للرقاد بين ورق القصة وتدعونني بسلام؟.

الزوجة: [متهتكة] نفيت النوم عن عيوننا بتلفيقك.. من أين أتيت لي بهذه الضفائر المرسلة... كنت أقص شعري على الطريقة الغلامية.. كما تعلم..

المؤلف: هذه ضفائر رومانسية وهي تلائم موضوع قصتي.. تلائم الجو الذي وضعتك فيه.. جو المأساة.. جو المرأة التي أذلها المجتمع وأيأسها الفقر والحرمان فانزلقت إلى مهاوي الخيانة في ليل حالك، هو ليل المجتمع الفاسد. أليست هذه الضفائر أحسن ما يلائم هذا الوجه؟ والخد الأسيل.. والخصر النحيل، والعيون التي تنظر على استحياء.. وخفر العذارى.. أليس هذا كله أفضل؟ رفعت قدرك أيتها السيدة..

الزوجة: [تمثل دورها في الحياة] بل شوهتني. وزورت شخصيتي. يوم خنت زوجي هذا.. لم يكن الفقر هو الدافع.. ولا الحرمان كما زعمت في قصتك.. كان هو السبب... [مشيرة إلى الزوج] ألست تراه؟ إلا تشمئز النفس من وجوده؟ ممصوص العود... أعجف القامة.. مهيض الساقين... شعره القذر يسرح وراء أذنيه.. عيناه مفقوءتان، وجهه مسنون شاعت فيه التجاعيد والغضون، وسعاله لا ينقطع، ورائحته تزكم الأنوف.. كيف كنت تريدني أن ارتمي في أحضانه دون أن يقشعر بدني كله.. [متهتكة] وأنا كما ترى امرأة جميلة.. وما أكثر ما أدارت مفاتني رؤوس الرجال! كان يمكن أن يتزوجني رجل أفضل بكثير...

الزوج: قبحك الله أيتها الفاسقة.. [يتقدم متخلعاً رافعاً يديه نحوها].

الزوجة: اخرس أنت.. إياك أن تقترب مني..

المؤلف: [يرجع الزوج، متخاذلاً] لكن.. لم يتقدم إليك من هو أفضل منه...

الزوجة: إنه ذنب أسرتي.. وبيتي.. أسرة مشبوهة.. ليس فيها غير السكير والعربيد والمقامر والفاسد، والسارق، وطريد العدالة. كيف كنت تريد لزهرتك المتفتحة، كما وصفتني في قصتك، أن تجد من هو أفضل منه؟! لقد خنته مع أول رجل اشتهاني..

المؤلف: [معرضاً] ذلك الرجل.. كان ثرياً.. أليس كذلك؟

الزوجة: لم أبحث عن المال أبداً.. وإنما انتقمت لنفسي وأنصفتها.. وشعرت بأن ذلك عدل.. ويوم خنت هذا الزوج التافه كنت أنا التي استخف بها الظرف وامتلأت نفسها بالنشوة لا هو... ولقد ألزمته حده.. كنت لا أسمح له بأن يقترب مني.. كان حسبه أن ينظر إلي ويتحسر، واختال أمامه فيطير صوابه، وأتبرج فيئن ويتفطر قلبه.. وترن ضحكتي مرحة، عالية، مدوية في أرجاء البيت فيبهت كمن به مس.. ولذلك كان في مقهى الانشراح يعربد، ويزعق، ويعلو الزبد شفتيه.. وبعد أن يضرب ويركل يهدأ ويستكين كأنه يجد في الاهانة والاذلال وأوجاع الضرب لذة ومتعة...

الزوج: [متقلقلاً مهمهماً] أتبلغ وقاحتك هذا الحد.. سترين.. سترين.. والله.. سـ.. سـ.. سترين.. يا... يا.. [يرتج ويعلو الزبد شفتيه ويروح يهذي] سأ... قتلك... دعوني.. آخذ.. قد... ها... د.. د.. [المؤلف يرفق به ويأخذه مبتعداً].

الزوجة: [متنمرة] إخرس.. سأقطع يدك يا «أبو عص»..

المؤلف: [بعد أن يكون قد هدأ الزوج] هذا لا يليق.. لا يليق أبداً.. لا أسمح به في بيتي..

الزوجة: [متحدية] كل هذا بسببك أنت...

المؤلف: وهل بسببي أنا، يا سيدتي، كانت قلوب الرجال تتحرق في وهج اغرائك، وتشتعل النار في صدورهم كلما حمل الهواء رائحتك المثيرة؟! وهل بسببي أنا كنت حديث النساء ومدار حكاياتهن في حارتك؟ ولكني أبعدت هذا كله في قصتي، وجعلتك امرأة فاضلة.. وضحية لفساد المجتمع..

الزوجة: من أعطاك حق الحكم؟ كنت أفضل أن تبقيني على حقيقتي.

المؤلف: ولكني حر.. لا تستطيعين أن تفرضي نفسك على فني..

الزوجة: هراء.. لم تكن مخلصاً يا سيدي.. بل كنت كاذباً ومزوراً عندما قلت في قصتك إنك من خلال شخصيتي كنت تنظر إلى مفاسد المجتمع.. ما أبعدك أيها المؤلف عن مثل هذه الأوهام [تبكي بحرقة].

المؤلف: [حائراً] ولكن..

الزوجة: [من بين دموعها] كفى.. لا مكان لكلمة واحدة.. أنت تعلم جيداً أنني أعرفك تمام المعرفة... ولا أحب أن أذهب إلى أبعد من هذا...

المؤلف: [بضعف ظاهر] وماذا تريدين أن أفعل أيتها السيدة؟.

الزوجة: [تكفكف دموعها] من أنا يا سيدي؟ التي أنكر نفسي في قصتك التي يقرأها الناس. رد إلي شخصيتي، أعدني كما كنت في حقيقتي التي لا أريد غيرها.. حقيقتي التي تعرفها أنت حق المعرفة.. أليس كذلك والا اضطررتني أن... [يقاطعها دخول العشيق متسللاً من وراء الستار].

العشيق: مهلاً.. وأنا يا سيدي.. ماذا فعلت لكي تشوهني؟

المؤلف: [وقد اعتاد دخول أشخاص قصته على هذا النحو] وأنت أيضاً؟ لقد

عرفتك.. أنت الرجل الذي أنشأ تلك العلاقة مع هذه المرأة.. أليس كذلك؟

العشيق: هو ذاك...

المؤلف: أتراك غير راض أنت أيضاً عن شخصيتك في قصتي؟.

العشيق: بل دعني أسألك: لماذا بدلت وغيرت في شخصيتي؟

المؤلف: العمل القصصي يحتاج إلى ذلك؟

العشيق: العمل القصصي يحتاج أن تقول إنني كنت رجلاً فاضلاً ومحترماً في الظاهر فقط.. وان حقيقتي الكبرى هي أنني رجل فاسد لا يبالي بأي قيمة خلقية، وأنني كنت أواري هذا كله خلف قناع محكم من النفاق الاجتماعي والمنزلة الكريمة المصطنعة؟ إنك، في الواقع لا تستحق أيها المؤلف، غير ازدرائي...

المؤلف: لست تهينني بهذه الكلمات... فأنا أعرف من أنت. يكفي أني سكت عن رقصك فوق كل الحبال لكي تصل.. وتكدس الأموال من كل طريق..

العشيق: هذا افتراء.. وإنما واقعي هو...

المؤلف: [يقاطعه] واقعك؟! واقعك الذي تراه العيون... أليس كذلك.. أما واقعك الآخر.. فهو الذي لا تراه العيون أيها السيد... إن ما يظهر ليس أكثر من قشرة خارجية براقة.. ليس أكثر من أقنعة يضعها الناس فوق وجوههم.. ونحن الذين نرى ببصيرتنا ما وراء الأقنعة...

العشيق: هراء... هراء.. لقد كذبت دائماً. فأنت تعلم جيداً أنني لم أتصد لهذه المرأة، لم أحاول إغراءها.. ولا مددت لها حبالي وشباكي.. ولم ألوح لها بالمال لكي تزل قدمها وتسقط.. كل هذا الذي كتبته في قصتك هراء.. والواقع

أنها هي التي سحرتني واصطنعت كل دهائها النسوي وتسلحت بكل مفاتنها لكي تخضعني لسلطانها فلم أدر كيف انزلقت..

المؤلف: [ساخراً] أنت الضحية إذن... [يقهقه] دعني أضحك يا هذا...

العشيق: اضحك ما شئت... كنت ضحيتها حقاً... كنت أصحو بين الحين والحين وأحس بمدى تدهوري فأحاول أن أنجو من شيطان غرامها، ولكنها كانت سرعان ما تلهيني بنار مفاتنها فأخضع واستعذب هواني.. وأغدق عليها المال لكي أظل أعيش وأتنفس في جوها الساحر المعطر.

الزوجة: [باحتقار] يا منحط.. انظروا إلى الوغد.. واسمعوا ما يقوله العجوز المتصابي الذي يصبغ شعره وينهض شاربه بالكوزماتيك وله عين سليمة وأخرى من زجاج.

الزوج: [ضاحكاً متخلعاً مهرجاً] مدهش.. أجل.. هكذا فليلعن كل منكما صاحبه.. ويكشف عن حقيقته.. [للمؤلف] بدأت أقتنع معك يا سيدي.. هناك أقنعة كما قلت.. أقنعة تختفي وراءها الحقائق العارية.. مدهش.. قه.. قه.. قه.. انها والله فرحة.. كقصص المسارح.. قه.. قه..

المؤلف: [مبتسماً بإشفاق] أيتها المخلوقات التعسة.. شد ما أرثي لك.. أما كان الأفضل أن تبقي قابعة في طوايا تلك القصة؟ [كأنما لنفسه] رباه.. لقد استرحت من هؤلاء الشخوص يوم أخرجتهم من رأسي وخيالي.. وحبستهم في قصة.. ومع ذلك ها هم يعودون ليقلقوا راحتي [يخاطبهم] إن رائحتكم تكاد تزكم الأنوف الآن.. عودوا إلى ورق القصة.. [فيما هو يتكلم يتسلل صاحب المقهى من خلف الستار].

صاحب المقهى: [بمرح] لا.. كله إلا هذا.. يعودون إلى ورق القصة، وأنا؟

إنني أحدهم صاحب مقهى الانشراح..

المؤلف: [ضاحكاً] حسبتك قد ضللْت سبيلك.. مرحباً بك.. كنت أنتظرك في الواقع...

الزوج: [متخلعاً مهرجاً] يا سلام!.. أهو الذي تضحك له وترحب به دوننا؟

المؤلف: إنه صديق قديم.. كان وحده صديقي..

صاحب المقهى: [عاتباً] ولكنك في قصتك أنكرت هذه الصداقة.. أهكذا تفعل بمقهى الانشراح فتجعله كأنه «كباريه»... لا... لا.. كله إلا هذا.. مقهى الانشراح يا رجل، بمقاعده الصغيرة الواطئة المجدولة من القش.. وسقفه المقبب وطاولاته الشعبية الظريفة والصور الزاهية المعلقة على الجدران، صور عنترة والزير سالم، وسيف بن ذي يزن، والأميرة ذات العينين الحلوتين والصدر العامر والضفائر المرسلة.. وشوارب أولئك الرجال، وسيوفهم، ودروعهم.. والقهوة السادة الزكية الرائحة..

المؤلف: صحيح.. صحيح..

صاحب المقهى: ألم تكن تجد في مقهى الانشراح الراحة والطمأنينة، وتروح تدخن اركيلتك بمتعة عظيمة، وتنشىء علاقات المودة مع رواده وتحادثهم، وتكتب في دفتر صغير ما يروونه لك.. هل نسيت هذا كله وجعلت من مقهى الانشراح باراً للبكوات وأبناء الذوات؟

المؤلف: ماذا أقول لك؟! كان هذا ضرورياً يا أخ ابراهيم. مقهى الانشراح في ذاكرتي دائماً.. كان في الواقع مدرسة لي. هو الذي علمني كتابة القصص.

صاحب المقهى: وتفعل به هذا؟ سامحك الله..

المؤلف: سأرد له اعتباره يوماً، ستراه كما تحبه في إحدى قصصي.

صاحب المقهى: هؤلاء الذين ينقمون الآن عليك [مشيراً إلى بقية الأشخاص] ألا ترى أنك ظلمتهم إذ بدلت وغيرت من ملامحهم وأحوالهم وأوضاعهم. وهل كان الزوج المسكين غير ألعوبة من بين يديك أنت؟ ألم تكن تستدرجه إلى الحديث فيروي ما يروق لك لكي يضحك ويرفه عنك.. طمعاً بقروش قليلة تعطيها له وهو يكاد يقبل يديك؟ كل وسائله كانت لكسب قوته: يهرج، يضحك الآخرين، يقرأ الغيب في فنجان القهوة، يزعق، يعربد، ويتخلع، وفي النهاية ينجح في إشاعة السرور في قلوب الآخرين..

الزوج: [متخلعاً] زيف حقيقتي في قصته.. جعلني بغيضاً في أذهان الناس.. [تكثر حركاته ويزداد تقلقله] لا بد أن يدفع الثمن.. لا بد أن يدفع الثمن.. أو يعيد إلي شخصيتي الضائعة...

صاحب المقهى: [حادباً] أنت على حق.. ولكن زوجتك، ولا مؤاخذة، عشيقها ربما كان أحق بالشكوى منك..

العشيق: [يده على شاربه الناهض] رجل مزور.. سأريه.. ما يفعل الرجال.

صاحب المقهى: [متهكماً] تريه.. فات الأوان يا عم..

المؤلف: [ممتعضاً] دعه يهرف.. وأنت يا ابراهيم هل أتيت لتحاكمني؟

صاحب المقهى: مجرد ذكر الحقائق فقط.. يبدو أن ذاكرتك ضعيفة يا صديقي.. حكاية زوجته مثلاً.. الحقيقة أنه كان يشعر بأنها مخلوق ثمين فوق

قدرته ومستواه.. إنها حقاً من تلك العائلة المشبوهة.. أفراد عائلتها هم الذين دفعوها إليه.. وأعطوه بعض المال بعد أن فاحت رائحتها.. فرضي بهذه التسوية.. المهم أنه أدرك سلفاً أنه لن يكون أكثر من ستار وأنها، هي، لن تقلع عن غوايتها..

الزوجة: [متألمة] هل كان هذا عشمي فيك يا إبراهيم؟.

صاحب المقهى: لا جدوى من إخفاء الحقيقة.. ولكن انتظري قليلاً.. وجد زوجك فيك مورد رزق.. وظن أنه سينال بعض المال من حين لآخر، ويلتقط فتاتاً من مائدة لهوك وغوايتك.. ولكن خاب فأله، كان في نظرك أحقر من أن تهبيه شيئاً.. مجرد اقترابه منك كان يصيبك بالغثيان.. ولذلك كان في مقهاي ينفجر صاخباً، معربداً لسبب وغير سبب.. هذه هي الحقيقة..

المؤلف: وما شأني أنا في هذه الحقيقة؟ هناك دائماً حقيقة أخرى أراها ولا ترونها أنتم..

صاحب المقهى: ربما كانت حقيقتنا نحن البسطاء أصدق من حقيقتك.. وحقيقة خيالك..

المؤلف: لا تقل الخيال.. وإنما الأمر هو معرفة دخائل النفوس.

صاحب المقهى: وإذن فقد كان هذا يقتضيك أن تذكر أنه كان لهذه السيدة عشاق وأخلاء غير هذا الرجل [مشيراً إلى العشيق] هذا العجوز الأخرق المتصابي..

العشيق: انك تهينني.. امسك لسانك..

صاحب المقهى: أهينك؟ هل أهينك إذا قلت إن أوهامك صورت لك، وأنت العجوز المتصابي، أنك فتنتها عن نفسها وخلبت لبها؟ كنت لعبة في يديها وأنت في هذه السن... ما أكثر ما استنزفت من مالك لنفسها ولكن خليل حبيب كانت تفضله من ورائك.. وأنت لا هم لك إلا أن تصبغ شعرك وتنهض قامتك وتدهن شاربيك بالكوزماتيك.. أليست هذه هي الحقيقة يا صديقي المؤلف؟

المؤلف: ربما..

صاحب المقهى: بل هي الحقيقة... ولا حقيقة غيرها..

المؤلف: أنا لا آخذ من الحياة غير عجينة أعطيها الشكل الذي أريده أنا.. لا الذي تريده أنت وغيره يا ابراهيم.

إبراهيم: هذا كلام لا أفهمه.. أنا رجل بسيط.. قهوجي.. من أبناء الشعب.. والأسرار العويصة لا أستطيع أن أفهمها..

المؤلف: [متضايقاً] وهل بقي شيء لم تقله؟

صاحب المقهى: أجل. الحقيقة الكبرى.. وسأقولها الآن.

العشيق والزوج: [بلهفة كبيرة] ما هي.. قل.. ما هي؟

صاحب المقهى: [بهدوء وجد مشيراً إلى المؤلف] لقد كنت أنت أيضاً خليلها يا صديقي المؤلف..

العشيق والزوج معاً: [في دهشة بالغة] كان خليلها؟

ابراهيم: هذا ما لم يخطر ببال أحد منكم... ولا حتى في بال العشيق

المحترم..

المؤلف: [محتداً] كيف.. ما أدراك؟

صاحب المقهى: [مشيراً إلى الزوجة] كانت بنت حارتنا منذ نشأت. ولما كبرنا كانت تهرع إلي تستشيرني كأخ.. وتفضي إلي بدخيلة نفسها.. ولقد حدثتني عن قصة حبها لك.. وكنت أنت تلهو فقط.. في حين أخلصت هي لك الحب.. بل كنت أنت الحب الوحيد الصادق في حياتها.. ما أكثر ما تعذبت كلما كان يلوح لها انك ستقطع ما بينك وبينها.. كانت تبكي أمامي وتبثني أحزانها وترتاح إلى كلماتي المؤاسية.. وما أكثر ما انصرفت من عندي وهي تستغفر الله وكلها عزم أن تقلع عن غيها وتطهر نفسها بالاستغفار والحرمان.. ولكنها كانت لحظات سرعان ما تمحي من أفق نفسها.. [العشيقة تبكي بمرارة]

صاحب المقهى: [متأثراً] أرأيت يا صديقي؟ هكذا كانت تبكي عندما كانت تحدثني عنك.. يخيل إلي أنها أحبتك لأنك من طراز جديد.. نوع الرجل المثقف، والمؤلف المشهور، كان تصورها الساذج يوهمها أنها استطاعت أن تفوز بك وتنتزعك من الأخريات.. المرفهات.. المعطرات.. أما حبك لها فقد كان مجرد مغامرة غرامية عابرة أضفتها إلى مغامرات سابقة...

المؤلف: [غير مرتاح] هذه حكاية قديمة لا شأن لها في قصتي.

صاحب المقهى: [محتداً] ولكنك مسؤول..

المؤلف: عن ماذا؟

صاحب المقهى: عن ضياع هذه المرأة.. لو كان حبك صادقاً لأنقذتها.. أنا الرجل البسيط استطعت أن أدرك هذا.. ليتك كنت مخلصاً لقصتك وصادقاً في

كتابة أحداثها..

المؤلف: الصدق الفني.. هو غير الصدق الذي تذكره..

صاحب المقهى: الصدق الفني!.. قلت لك أنا رجل بسيط لا أفهم إلا الأشياء الواضحة.

العشيق: [مشيراً إلى المؤلف] هكذا إذن.. كنت تحبينه هو.. وتضحكين على ذقني أنا..

الزوجة: إخرس.. قَطّع لسانك يا عجوز النحس [تبكي بمرارة].

الزوج:]يتخلع ويعربد موجهاً كلامه إلى صاحب المقهى] المهم.. يا سيد ابراهيم.. المهم.. ويتلعثم ويزداد تخلعاً وكأنما هو يضرب الهواء بيديه] المهم.. المهم..

صاحب المقهى: [للزوج] لا تحزن.. تجمّل بالصبر..

الزوج: [لا ينفك يتقلقل] أحزن؟! ما شاء الله... أحزن؟ ولماذا.. هي أحبت حضرة المؤلف.. أحبت غيره.. كلّه واحد..

العشيق: [كمن ينتقم] المهم.. المهم أن للمؤلف قناعاً هو الآخر.. وقد زال هذا القناع الآن.. وأصبح مثلنا عارياً..

صاحب المقهى: المهم.. ليس هنا.. أنتم كلكم تعلمون ما هو المهم.. الجميع بصوت واحد ما عدا المؤلف: [كأنما عثروا على الحقيقة لأول مرة] صحيح... المهم هو أننا نريد أن يعيدنا المؤلف إلى شخصياتنا الحقيقية.

صاحب المقهى: لا نزال نصر على البحث عن مؤلف يضعنا في قصة معقولة، قصة تتحدث عنا حقاً، وتعرضنا كما نحن حقاً، وتروي أخبارنا دون تلفيق..

المؤلف: ولكن الفن يريد..

صاحب المقهى: [يقاطعه] فن.. فن.. هي تستطيع أن تقول لي لماذا أحب، أنا، أولئك الرجال ذوي الشوارب والسيوف الملتهبة الذين كنت ترى صورهم معلقة على جدران مقهاي؟ أنا لا أستطيع أن أقول لماذا أحبهم.. [في حيرة] وإنما.. أحس أنهم... [لحظة صمت] أني كثيراً ما أراهم في أحلامي يضربون بسيوفهم.. ويقدح الشرر من عيونهم.. وهكذا أفهم ما تسمونه فناً..

المؤلف: [شارداً] ربما.. ربما.. ليت من يدري.. كنت تراهم في أحلامك؟ غريب...

صاحب المقهى: ما وجه الغرابة؟

المؤلف: [ما يزال شارداً] ربما كانت البساطة.. البساطة الذكية.. هي لب الفن.. ربما..

صاحب المقهى: والآن يا صديقي؟

المؤلف: [كمن أفاق من حلم] ما.. ذا

صاحب المقهى: قصتنا نحن..

العشيق: أجل نريد مؤلفاً يستطيع باخلاص أن يضعنا في قصة تصور مشكلاتنا وهمومنا وأزماننا دون تلاعب.. و..

المؤلف: [وقد نفد صبره].. وإلى أن تجدوا هذا المؤلف.. عودوا إلى الورق.. إلى القصة التي وضعتكم أنا فيها.. هيا.. [يختفون بلمح البصر].

المؤلف: [متذمراً] أف.. أف.. ما أغرب هذا كله.. أحس أن رأسي يتحطم. [في هذه الأثناء تدلف زوجته من الباب الداخلي وهي بقميص النوم. تقول متثائبة].

زوجة المؤلف: من كان عندك في هذا الوقت المتأخر؟ يخيل إلي أني سمعت منذ قليل أصواتاً.. حسبتني أحلم في أول الأمر.. هل كنت حقاً تحب تلك المرأة؟! سمعت كلاماً بهذا المعنى.. أم تراني كنت أحلم؟!

المؤلف: [مذعوراً] كنت تحلمين.. كنت تحلمين ولا شك..

زوجة المؤلف: لست على يقين.. دعني أبحث [تبحث وراء الأبواب وخلف الستائر] لا أحد.. ومع ذلك لست على يقين.. ستظل مريباً في نظري.. ماضيك لا يبعث على الثقة..

المؤلف: كلام فارغ.. تعلمين أني أحبك..

زوجة المؤلف: أشعر أحياناً بأنك تحب نساء قصصك أكثر..

المؤلف: [فزعاً] أوه.. كلا.. مستحيل.. هذا وهم..

زوجة المؤلف: بلى. الضحية.. بطلة قصتك الأخيرة.. انها من لحم ودم.. لم تركبها من عدة أشخاص كما تدعي في تصوير النساء والرجال في قصصك.. لا شك في أنك عرفتها.. وأحببتها.. وجعلت منها بطلة قصتك.. أتراها كانت ضحيتك أنت؟ لا شك في هذا.. قلبي يحدثني أنك أنت الذي جنى عليها..

المؤلف: [مضطرباً] أقسم لك.. إنها امرأة على الورق فقط..

زوجة المؤلف: [متنمرة] واضطرابك هذا ؟! إنه الدليل على صدق فراستي.. كانت تلك المرأة ضحيتك.. كما سأكون أنا ضحيتك يا خائن.. يا صانع المآسي والضحايا..

المؤلف: [محتاراً ومرتبكاً] أرجوك.. لا لزوم لهذا..

زوجة المؤلف: لا لزوم لهذا ؟! تريد أن تختفي وراء قناع.. إني أمزق هذا القناع الآن.. يا خسارة شبابي وحياتي معك.. ويا لحيرتي وضياعي بين نسائك ورجالك.. أنا الضحية.. أنا الضحية.. [تبكي بحرقة].

المؤلف: [كمن فقد صوابه] كفى.. كفى.. انهم أشخاص على ورق.. على الورق فقط..

[يهبط الستار ببطء].

الغلاف الأخير

يسر الأمانة العامة للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب أن تكون باكورة منشوراتها مجموعة لواحد من رواد القصة القصيرة في الأردن وفلسطين وهو القاص المرحوم محمود سيف الدين الايراني.

ويعود سرورنا إلى قيامنا بالبحث والتنقيب في كميات كبيرة من الورق الذي خلفه الايراني، إلى أن خرجت معنا هذه «التوليفة» الأدبية، التي رأى فيها الزميل الدكتور ابراهيم خليل جسماً متماسكاً نفترض أن المرحوم سيرضى عنه لو كان ما يزال يسعى بيننا.

واعترف هنا بالفضل في ابراز هذا الجهد إلى حيز الوجود لرابطة الكتاب الأردنيين، التي أوكلت إلى الدكتور ابراهيم خليل مهمة البحث الصعبة، ومهمة التحقيق والتدقيق والشروحات والتقديم، ولذلك، فإنني أسجل الشكر هنا له، لما بذله من وقت وجهد ومتابعة.

وأقول بعد هذا، ان منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، سوف تسعى إلى اصدار سلسلة من المؤلفات ذات الطابع الأدبي العربي المميز، وربما كان السبب في اعطاء أولوية النشر لكتاب الايراني هو توفره بين أيدينا، بالاضافة إلى قيمته الفنية والأدبية، إلى جانب عدم ورود أية مخطوطة أخرى من أقطار عربية أخرى، رغم قيام الأمانة العامة للاتحاد العام بطلب ذلك من سائر

الاتحادات والروابط الأعضاء في الاتحاد العام، آملين أن يتم التجاوب مع خطتنا كي نتمكن -على الأقل- من اصدار كتاب لكل قطر من الأقطار العربية.

فخري قعوار

الأمين العام

للاتحاد العام للأ ' ء والكتاب العرب

قصص مخطوطة

متحف الذكريات

(انظر: الدفاع، ١٨/١٩/١٩٦٨)

كان صاحبنا وحيداً في تلك الليلة، وكان يتقي البرد، بمعطف قديم ووشاح من الصوف الناعم الرقيق لف به عنقه، وهو لا يعرف منذ فتح عينيه على الدنيا إلا أنه يخشى البرد على صدره وحنجرته. ربما كان واهماً، وربما أضحت، هذه عادة ملكت عليه أمره. وبرد (باريس) لاذع، شديد الوطأة، كثير الرطوبة في الليل خاصة.

وألقى صاحبنا نظرة متفحصة على مياه نهر (السين)، وكان هو يسير في أنحاء ضفته الشمالية، وكان الماء ينساب هادئاً، ولكنه كدر، مغبر، تزيده الأنوار الكابية من فوق ضفتيه اغبراراً... وكآبة.... فانقبض صدر الرجل قليلاً، فاندفع يخطو بقوة خطوات واسعة، كأنما يريد أن ينجو، ولكن السماء، أيضاً، مكفهرة، غائرة النجم، وتذكر قصة لـ (موبسان) يصف فيها ليلة حالكة الظلام، ويصف تدفق نهر السين، ومرور الوقت، والسماء المتجهمة، وباحات أسواق (الهال) الخالية إلا من نباح كلب بعيد، وهدير عربة مقبلة من الريف ومحملة بخيراته... صور موبسان موت مدينة كبيرة في موهن من الليل، وصور مشاعره وأحاسيسه الغريبة، من قرأ هذه القصة يدرك بوادر الجنون عند موبسان... ثم كانت قصته (لاهورلا) هي ذلك الجنون نفسه الذي أطبق عليه فيما بعد وقتله.....

ولكن باريس تغيرت عما كانت عليه في زمن مؤلف رواية (أقوى من الموت) وقصة (كرة الدهن) وهي رائعته الفذة في القصة القصيرة. ولقد تضيق بمدينة النور لحظة أو لحظات، ثم سرعان ما تخرج إلى الأضواء الساطعة في ساحة الكونكورد أو ساحة (الاوبرا) فتنسى الظلام، ولا تعود تذكر كآبتك ووحدتك. انها مدينة النور حقاً.....

تنقل صاحبنا في (بولفار سان ميشيل) بعض الوقت، وعرج على الحي اللاتيني، وابتسم للشباب يملأ الأزقة والدروب، والمقاهي حياة، وصخباً، ومرحاً، هكذا الشباب دائماً، يتدفق، ويسخر بالحدود والسدود، ويصنع حياة جديدة.... وهو على حق دائماً ولو أخطأ، ولو تعثر، إن له منطقه، وله تهوره، ولكنه يجدد الحياة دائماً، يزيل عن جمرها الرماد، وينفخ فيها من روحه، ومن وثباته، ومن جرأته.

وعلى الفور تذكر صاحبنا أنها ليلة رأس السنة فهذه الشوارع والبولفارات قد أخذت تزدحم بالخلق، أكثرهم صبايا وشبان، وما أجمل أن يمرحوا هكذا، وترتفع حناجرهم بالغناء والأناشيد، وتتشابك أيديهم وسواعدهم، وأنهم ليدخلون المقاهي والمراقص والحانات أفواجاً صاخبة، ويخرجون منها أفواجاً هادرة لا سدود ولا قيود أمام عزم الشباب... والليل، هذا الليل، ملكهم، وأنهم ليملكون اللذة أيضاً، والهوى والشباب، وماذا ترانا نستبقي لغد إلا الذكريات؟

وحسب صاحبنا أنه سيستريح قليلاً إذا دخل أحد هذه المقاهي التي لا تجد مثلها في غير باريس، تلقته الفتاة التي تقوم على خدمة الرواد بابتسامة خاطفة، ثم أرشدته إلى كرسي طاولة صغيرة وانصرفت خفيفة رشيقة كما أقبلت خفيفة رشيقة.

كان يحس ببعض الغربة في هذا الجو. انه لم يعد شاباً، لم يعد في العشرين أو الثلاثين لقد ودع أيام المرح وجنون الشباب منذ طويل، وأضحت حياته، من ثم، كتاباً وقلماً وورقاً للكتابة. كانت قد بقيت له الذكريات. وحتى الحاضر سرعان ما يستحيل إلى ذكريات. ومن هذه الذكريات يأخذ عادة ما يكتب. زيارته لمتحف (اللوفر) ولمتحف (رودان) ولمعارض الفن الحديث أيضاً دخلت هي الأخرى متحف الذكريات، حيث تصنع من جديد، حيث تتخذ أشكالاً جديدة، تصوغها المشاعر والانطباعات والتفسيرات...

وتحامل على نفسه في محاولة للانسجام مع الجو الصاخب المرح. وقد انعقد 'ن السجاير كما انعقدت في الجو سحابة من الصخب والصياح والضوضاء ىطت الدخان وألحان موسيقى عربيدة، وحانت من صاحبنا التفاتة إلى الباب فشاهد ثلاثة: رجلين وامرأة:

أخذوا يتحسسون طريقهم في الزحام بعصيهم البيضاء... هم اذن مكفوفو البصر..... وان في أيديهم أوراقاً يوزعون لمن تحلقوا حول الموائد. ثم هم يتلبثون قليلاً عند كل مائدة ثم يمضون.... ولما وصلوا إلى مكان صاحبنا أعطوه ورقة.. وانبرى أحدهم يتكلم، وكان طلق اللسان، بليغ العبارة، جريء القلب... وقال انه شاعر، وهذا المكتوب في الورقة شعر له، وانها لليلة رأس السنة: أفلا تقرأ أيها السيد، هذا الشعر....

وأجال صاحبنا نظرة سريعة في ورقته، وراقه الشعر:

- لنا عيون ترى، أحدُّ بصراً من عيونكم -

قلوبنا ترى، وهذا حسبنا....

لا نسألكم شيئاً....

غير أن لا تقفوا في طريقنا

طريق النور هو...

وأخرج بضعة فرنكات دسها في كف الشاعر الكفيف، فطوى عليها أصابعه ومضى، مضى دون أن يشكره بكلمة لو لم يعطه شيئاً لمضى دون أن يقول كلمة، انه لا يستجدي ولكنه يبيع الشعر....

انتقل صاحبنا إلى مقهى آخر، لقد خف الزحام، أصبح الناس كلهم في الشوارع، لم يكن في المقهى غير نفر قليل بينهم بضع نساء، ولم يبق على انتصاف الليل أكثر من ربع ساعة... وشرب صاحبنا كوباً من جعة، وراح يتناول بعض الشطائر وهو واقف إلى خوان المقهى.. وعلى حين غرة انطفأت الأنوار كلها، وكان فمه لا يزال محشواً بقطعة من شطيرة الكبد وأحس بفم.. بشفتين تقبلانه على هذا الخد، وبشفتين أخريين تقبلانه على ذاك الخد.. واشتعلت الأنوار ثانية بفعل ساحر.. ووجد أجمل صبيتين في المقهى إلى جانبه.. كانتا هما اللتان قبلتاه.. في الظلام... تلك هي العادة، أو ذلك هو التقليد عند منتصف آخر ليلة من ليالي العام الذي يجر أذياله إلى دنيا الماضي.... وأرسل نظرة جانبية إلى إحدى الفتاتين فإذا بها تبكي، تسح دموعها غزيرة على صفحة وجهها...

- تبكين؟...

- لا تهتم أيها السيد....

- ولكن. في مثل هذه الليلة؟

- في مثل هذه الليلة من عام مضى ذقتُ الشقاء....

- مأساة عاطفية...

- ربما.. أرجوك.. لا تحاول

عاش للحب

(من أوراق الكاتب المخطوطة)

في سطرين اثنين قرأت نعيه في الصحف. كان قد نيف على السبعين من عمره، وله أبناء وأحفاد تجاهلوا وجوده منذ أمد طويل، وأنكرهم وعاد لا يستطيع أن يسمع حديثاً عنهم أو ذكراً لهم. وقد ساعد على ذلك بعدهم عنه، فهم يقيمون في قطر وهو في قطر آخر. وكانت المرأة هي سبب هذا البلاء. لقد عاش ومات والمرأة معبودته والحب هيكله الذي يتعبد فيه ليل نهار.

في الصيف الماضي رأيته فجأة. كان قد مر دهر طويل دون أن ألقاه. وكثيراً ما حسبت أنه مات وأصبحت عظامه مكاحل كما يقال. وما أعجب المصادفات؟ كيف أمكن أن يكون هذا اللقاء، هكذا فجأة أين؟ في مدينة البندقية كنت قد أمضيت أسابيع طويلة في لندن، وباريس وميونخ وروما. واختلطت بملايين الناس والسياح فلم يطالعني بينها وجه أعرفه. وكنت سعيداً بذلك، لا أريد أن يعرفني ـد أو أعرف أحداً من الصحاب والخلان والمعارف، كنت دائماً، كلما أمضيت ـماً أو أسابيع في ربوع ايطاليا سرعان ما أهرع إلى البندقية. تلك مدينة لها ـحر خاص، وطابع خاص، وحبك إياها لا ينقضي: قصورها، كنائسها ـاتدراياتها، وباحاتها ومنحدرات أبراجها العالية، قنواتها وزوارقها التي ـقون عليها اسم الفندولات، هي بنهوضها هكذا وسط بحر الادرياتيك.. ثم تاريخها القديم وما يحيط به من ذكريات هذا كله يضفي على هذه المدينة المائية

سحره الخاص الذي لا تجد مثله في أية مدينة أخرى في العالم. حتى أزقتها الضيقة ودروبها، ودورها العتيقة، وهذه المطاعم الصغيرة الأنيقة التي تدعوك موائدها المستديرة بأغطيتها البيضاء الناصعة، وشموعها الحمراء الرشيقة إلى أن تدخلها وتتناول طعامك فيها.. ثم تلك الأنغام التي تتأدى إليك خافته، حالمة كأنها تسبح بك في غندول، ويعزفها موسيقيون ارتدوا هذه المزركشات الملونة لكي يرضوك.. انها تشدك إلى هاتيك الموائد، وإلى الجو القديم الذي يحتفظ بطابعه ويضيف إليه ملامح حديثة معاصرة لها هي الأخرى جمالها وعذوبتها.

كنت خارجاً من أحد هذه المطاعم التي أحبها، وما أن خطوت خطواتي وأنا لا أزال ثملاً بما أتيح لي من متاع، حتى رأيته أمامي وجهاً لوجه، وقد تأبط ذراع امرأة شقراء، مكتنزة اللحم، تخطت الأربعين من عمرها، تملأ الأصباغ وجهها الذي امتدت عليه ابتسامة عريضة لا تفارقه.

وقفت هنيهة أحدّق النظر فيه مرة، وفي المرأة مرة أخرى ثم هتفت:

- خليل؟!

- بعينه... وبعروقه وعظامه....

ثم أرسلها ضحكة كبيرة، وأقبل علي يشد يدي وهو يردد:

- سلامات... والله سلامات.... وقدمني إلى تلك المرأة ببضع كلمات ايطالية عرجاء:

- صديقي عزيز.. صديقتي فلورا.. زهرة...

وضحكت وقلت له بالعربية: زهرة؟ انها عجوز....

فأجاب محتجاً وضاحكاً ملء شدقيه في وقت معاً:

- لا.. لا.. قد أصبحت سقيم الذوق يا صديقي.. انها والله زهرة فواحة الأريج: كان كما عرفته دائماً، نحيلاً ضامراً، معروق العود، منتصب القامة، خفيف الحركة، ضاحك السن كأن الزمان لا سلطان له عليه. لقد كان هكذا قبل ربع قرن. لم يتغير فيه شيء، وما استطاعت مخالب الزمان أن تمسه بخدش، وها هي قد أخفقت أيضاً في اطفاء شعلة الحب المتضرمة في قلبه. وبأسرع من لمح البصر مرت صور حياته في بهرة خيالي. وانها لتتجمع في صورة واحدة كبيرة لا أراه فيها إلا غارقاً حتى أذنيه في بحر الغرام، ولقد تزوج مرة وأنجب أبناء ثم لم يلبث أن نبذهم وهجر أمهم... وعاد يعب من كؤوس أخرى مترعة... ويتنقل من حبيبة إلى أخرى، ومن شقراء إلى سمراء، ومن لعوب طروب إلى ذات خفر وحياء، ومن راقصة تهز خصرها على مسارح اللهو والسهر، إلى فتاة غريرة لا تزال تتفتح عنها أكمام الصبا والفتون....

وقد كان مولعاً بأن يسير مع كل حبيبة في شوارع مدينتنا وقد تأبط ذراعها، وارتدى أجمل ثيابه. وعقد ربطته الحمراء على شكل فراشه، ورشق في عروقه وردة فاتنة، أو قرنفلة زاهية وغطى صلعته بطربوشه المائل على رأسه... وكان يسكره أن تملأ الحبيبة معصمها بالأساور الذهبية من هداياه، وتضع في عنقها عقداً من اللآليء وتشبك على جهة القلب من صدرها فراشة من ذهب وقد ازدان جناحاها بيواقيت صغيرة براقة.

كانت رؤيته، مع حبيبته، (فرجة) رائعة قلما يجود الزمان بمثلها، يتحدث بها أبناء البلد ضاحكين، دهشين، وهم يتغامزون، ويميل بعضهم على آذان بعض ويتهامسون، ثم يعودون يقهقهون ملء أشداقهم، ويرددون عبارة تعودوها: (رجل ابن حظ.. وكيف....)

غير أن الكثيرين كانوا يجهلون سراً من أسرار صديقي خليل. اليوم فقط أستطيع أن أبوح به. بعد أن توفاه الله، وكان هو قد رواه في سهرة، بين سيجارة وكأس:

في مطالع شبابه أحب حسناء لعوباً بارعة الجمال. وقد كان يتخشع في محراب حسنها، ويذوب من فرط الهيام بها، ويرى الدنيا كلها بمباهجها ومسراتها، لا تجتمع إلا في ابتسامة من فمها الضاحك، ونظرة من عينيها المتألقتين. أنفق عليها من ثروته الموروثة ما لم تكن تحلم ببعضه. واشترى لها أغلى الفساتين، وملأ يديها وعنقها بالحلي، وحملها معه إلى عواصم الدنيا.. ومع ذلك... أجل مع ذلك أحبت غيره ونبذته.... أحبت صعلوكاً يشتغل في الملاهي، ويسهر الليل ويعيش مع أهل الفن، ويهرج ويضحك، ويضحك الآخرين، ويعلق باستمرار قرنفلة فاقعة وراء أذنه... ولا يملك من مال الدنيا شيئاً....

ظل صديقي خليل أياماً طويلة يضرب كفاً بكف ويقول:

- كيف؟ كيف أحبت هذا الصعلوك.. وتركتني أنا... الذي ملأ حياتها بالذهب والأحلام ومباهج الغرام؟ مرة قال لي:

- اسمع يا أخي. أنا أكبر منك سناً وأكثر تجارِبَ. احذر المرأة. لا تأتمنها على شيء.

واياك أن تصبح عبداً لهواها. والا نكّلت بك وخانتك وأذاقتك العذاب ألواناً.. المرأة غريبة الأطوار خفيفة النزاعات والميول والأهواء.. هكذا خلقت فلا ذمة، ولا شرف، ولا عقل، ولا وفاء ولا صدق. وهي إذ تحب إنما تحب نفسها وتعبد ذاتها، وفي أية لحظة يمكن، إذا استطاعت، أن تسحق قلبك وروحك وبدنك أيضاً....

ومع ذلك فقد كثرت معاشق صديقي خليل، وكان لا يرى، دهره، إلا وإلى ذراعه امرأة كان لا ينفك يبدل، ويغير، ويراوح بين السمراء والشقراء والمقدودة الهيفاء والبدينة الكثيرة اللحم والشحم... ولا يخلب لبه إلا أن يرى متأبطاً ذراع احداهن، وفي عروقه وردة كبيرة متألقة وطربوشه مائل على رأسه.... وهي معه تضحك، وتتخطر، وتعلك اللبان، مزهوة بفستانها الصارخ الألوان، وحليها وشعرها المصبوغ، وتبرجها العجيب... حتى ليغدو معها، ضرباً من (الفرجة) يتهافت على رؤيتها صبية الحارات، ورجالها ونساؤها على السواء....

وكنت أنا أرثي لحال صديقي خليل وأتساءل: كيف يمكن التوفيق بين النصيحة القديمة التي قدمها لي عن المرأة وغدرها، وسحقها القلوب، وعبادتها لنفسها... أجل كيف يصح التوفيق بين معاشقه الكثيرة وانتقاله من امرأة إلى أخرى وبين مأساته السابقة مع تلك التي تدلّه بحبها وأنفق ماله عليها، وخصها بكنوز قلبه وعاطفته فخانته وآثرت عليه صعلوكاً مهرجاً... كيف السبيل إلى التوفيق بين هذه المتناقضات.. وصديقي خليل لا ينفك، وقد بلغ السبعين من عمره يسير وإلى ذراعه أبداً امرأة ما، وفي عروقه تلك الوردة الخالدة، وفي نظرته ألق شباب متوقد لا يريد أن يزول؟!....

هل كان هذا ضرباً من الغرور ومخادعة النفس؟ هل كان تحدياً واثباتاً لرجولته ووجوده؟ أم انتقاماً مما فعلته به تلك التي شغف بحبها في مطلع شبابه... انتقاماً من الجنس كله؟ أم هي طبيعة فيه لا قوة له على فعاليتها؟

كلها أسئلة محيرة لم يتسع الوقت لتوجيهها إليه حتى يوم جلست معه نصف ساعة في احدى مقاهي البندقية وإلى جانبه تلك المرأة الايطالية التي وصفها بأنها زهرة فواحة الأريج... لم يتسع الوقت بعد ذلك في مدينتنا لارساله.. فقد تلقفته يد الموت، ولم أدر أنا بذلك إلا صبيحة قرأت في الصحف نعيه في سطرين اثنين...

رحم اللّه ذلك الصديق، وأجزل له من الثواب قدر ما بذل من عافيته وماله وقلبه للغواني الحسان... فقد عاش دهره الطويل للحب.. ولا شيء غير الحب....

قصة يوم الكرامة

(انظر: الدفاع، ٣/١/١٩٧٠)

ليس هذا شعراً بأي حال. وإنما هو قصة مكتوبة بأسلوب جديد.

انسان عربي

أنا.

بسيط

كالملايين

طيب القلب

مثلهم

أحمل بندقية أو رشاشاً

أجيد التصويب

والضرب....

ولي بزة، وشارة.

الألوف مثلي

في الجيش

في الفدائيين

كلنا بسطاء
طيبو القلوب
كتلك الأرض،
هناك،
في وطني
المصفد بالأغلال.
حيث يعبث
الغرباء
الدخلاء
المحتلون.
بعد الخامس من حزيران
عبثاً حاولت
أن أنهض بقامتي
وأشرئب بعنقي
لكي أتنسم
الهواء النقي
كان إحساسي
بالعار
كأنه جبل،
أحطه على كتفي.
لا أستطيع أن أرفع
عيني بأحد...

كنت أسائل نفسي:
هذه البندقية
ما جدواها ؟
وهذا الساعد الفولاذي
ما نفعه؟
ترونني الآن:
بلا ذراع
ذراعي اليمنى
هي التي ذهبت
ولهذا حكاية،
لا بأس أن أرويها لكم،
فأنا، كما قلت لكم،
انسان عربي
بسيط وطيب القلب
ويعرف أن له وطناً.
في هذا الوطن:
بحر، وموج، وشطآن
رمالها حرير
وفي هذا الوطن:
جنات برتقال
وسماء صافية
ومواويل

ونسمات حلوة
محملة بالعبير
وليال
يطل فيها القمر
كأنه لؤلؤة
مضيئة.
وفي وطني عرائش
وأعناب
وقبورآباء وأجداد
لا تؤنس وحشتها
إلا زقزقة عصفور
يعبر الفضاء.
ولكن يوم الخامس من حزيران
كان: عاري،
عار كل عربي،
وما جدوى البندقية
وما نفع الساعد
الذي كأنه
جذع شجرة برتقال؟
دبر العدو أمره
في ليل.
شأنه الغدر

ككل الجبناء

أعد جحافله

وصف مدرعاته

ودباباته

وأوعز لطائراته:

تأهبي،

ثم عبر النهر

ليضرب الكرامة

ليصفع، ليذل

ويدمر

ويحرق بالنابالم،

يحرق الصغار،

يحرق النساء،

يحرق الشيوخ

وكل المدنيين

العزل من كل سلاح،

النازية الجديدة

تجسدت

في «موشه دايان»

الذي يضع فوق عينه

عصابة سوداء

ودارت الرحى

يا أصدقاء،

تطحن، وتطحن

وتمزق الأعداء.

ما نفعت الدبابات

ولا المدرعات

ولا الطائرات

ولا قنابل النابالم،

الجبناء الرعاديد:

جنودهم مرتزقة،

مشدودة الأقدام

بسلاسل الحديد

في الدبابات،

لكي لا يهربوا

من الموت

إذا حمي الوطيس،

كنا نصرخ:

الله أكبر

يا رفاق.

معركة خضنا دماءها

بالسلاح الأبيض

وجهاً لوجه

ذراعاً لذراع

سلاحاً لسلاح.

ولكنهم يفرون

يولون الأدبار

ولا منجاه...

الانسان العربي

في هذه المعركةكان: كألف بطل

كألف نسر

كألف سبع.

كان: ثورة

وعاصفة

وصاعقة

سلاحنا الأبيض البتار

سقيناه

روينا غليله

من دم الدخلاء

يستنجدون،

يتوسلون،

يتضرعون....

في ساعات الهول

دباباتهم

غدت

لعب أطفال،

يا صحاب،

في المواجهة، عادوا

كشأنهم أبداً:

جبناء.

لا شيمة لهم

إلا الغدر.

قلت لكم:

ذراعي المبتورة

هذه: لها حكاية.

وتلك حكايتها:

أصبت بشظية

في معركة الكرامة

ورد الاعتبار.

كان رفاقي،

هم الأبطال.

جمع العدو فلوله

وعاد

يجرر،

من الخزي

والهزيمة

جثث الأموات

وأحسست

أن شجر البرتقال

في تربة بلادي

اشرأبت منه

الأعناق

إلى السماء.

والبحر

أرسل آلاءه

ثملاً

بنشوة الانتصار،

وجبل العار

الذي كنت أرزخ

تحت وطأته

قد زال

ذهبت ذراعي

ولكن

بقيت لي ذراع

منذورة

لمثل هذا اليوم

ومثل هذا النزال

وسيكون نصر،

وتكون عودة

إلى الأرض

أم الخير

والبركات

وإذا مت، أنا

يومئذ

في معارك الكرامة

والشرف

فألف بطل من بلادي

سيعانقون

شجر الليمون

،البرتقال

ويلثمون الثرى الطهور

ويضحكون

للبحر،

للأنسام الندية،

ويطربون

لزقزقة عصفور

يهيم في سماء بلادي

ويحتضنون الأطفال

وعلى جباههم

يزرعون

قبلة النصر

والأمل.

انها حكايتي يا صحاب

بسيطة،

وجميلة

ككل الأشياء

الأصيلة

التي لها:

صفاء السماء.

«الأعـــــرج»

تمثيلية تلفزيونية

المشهد الأول **خارجي – فجر**

البحر

– انفجر عند الأفق في تكوين جمالي وتتراجع الكاميرا كي نرى عم حمزة الصياد وهو يتحرك عارجاً بساقه حاملاً معدات صيده على كتفه ومن خلفه يسير كلبه وهو يقفز في سعادة.

– عم حمزة الصياد يتوقف عند الشاطىء وينظر ومن خلال وجهة نظره نرى قارباً صغيراً يتأرجح.. ومن خلف هذا القارب نرى وجه زوجته (بهية) وهي تستحم في الماء ولا يظهر منها غير وجهها...

– الرجل يلوح لها..

– هي تتراجع بالقارب.. حتى يصل إلى الشاطىء..

– عم حمزة يركب القارب وجزء من وجه الزوجة العاري الصبوح يطل..

– والكلب يندفع إلى الماء سابحاً خلف الزورق...

– بينما انهمك عم شباره في مناولة الجلباب لزوجته..

– الزوجة ترتدي الجلباب وهي لم تزل في الماء...

– وتصعد إلى القارب بحيث لا نرى شيئاً من عريها وربما تبلل الثوب قليلاً...

– الكلب يحوم في المياه إلى جوار القارب

– والقارب يبتعد..

موسيقى مناسبة

(قطع)

المشهد الثاني **داخلي - ليل**

ردهة في منزل فقير

- الردهة طويلة وفيها مستويات ويطل منها بروز لسلالم قديمة متهالكة وأرضها مبلطة ببلاط عريض من الحجر.

- هناك بابان.. الباب الأول موصد والثاني تجلس عليه زوجة الصياد وهي ترتق شبكة من شباك الصيد وحولها مجموعة من الكتاكيت الصغيرة تلهو ومصباح غازي صغير بالكاد ينير المكان...

- الباب المغلق ينفتح ويطل منه رجل عجوز لا تكاد تحمله ساقاه..

- العجوز يقترب من بهية زوجة الصياد

العجوز: كيف حالك يا بهية...

بهية: حالي على الله يا عم كيلاني.. حاسب اياك والفراريج احذر أن تدهم واحداً.. منها بقدمك..

العجوز: لا تخافي يا بهية..

- ويمر من أمامها

بهية: إلى أين.. الدنيا صقيع بالخارج

كيلاني: لدي سهرة في المصبنة..

بهية: ولماذا لا يذهب ولدك بدلاً منك

كيلاني: ولدي طريح الفراش منذ البارحة يا بهية.. لقد أصابته عين لم تصلي على نبيها...

بهية: وتتركه مريضاً وتذهب للسهرة

كيلاني: الحاجة يا بهية.. لعنة الله عليها...

بهية: وهل هو نائم الآن...

كيلاني: دعيه يستريح ولا تفتحي عليه الباب لأنه يتصبب عرقاً.. وأخاف عليه من لفح هواء الليل..

- ويتحرك مبتعداً..

- هي تتطلع إليه.. هو يبتعد هابطاً الدرج ويختفي.. وهي تتطلع إلى الباب الذي خمنته الشبح كيلاني..

- وتفكر للحظة ثم تنهض متناولة مصباحها وتتجه إلى الغرفة.

(قطع)

المشهد الثالث **داخلي - ليل**

غرفة الكيلاني

- غرفة بسيطة بها مصطبة تشبه السرير في علوها ومفروشة ولكنها ليست ...

- ونرى خليلاً وهو شاب في مقتبل العمر ينام على هذه المصطبة المفروشة..

ى جواره قلة ماء ومقطف معلق على الحائط.

- بهية تفتح الباب وتطل منه برأسها.
- وتتقدم داخله والمصباح الغازي في يدها...
- بهية تقترب من خليل..
- وتحملق في وجهه طويلاً..
- الوجه من خلال وجهة نظرها يتصبب عرقاً وعينا الشاب مسبله الأجفان...
- بهية تتحسس وجه الشاب بكفها وتمسح عنه العرق في رقة ونعومة
- وتهم في أن تقبله..
- ولكن الشاب يستيقظ مفزعاً

خليل: مين..

بهية: لا تنزعج.. اطمئن انه أنا...

خليل: لعنة الله عليك يا بهية.. لقد أيقظتني..

بهية: وهل أنت مريض حقاً.. أم تتمارض كي تبقى في الدار ويخلو لنا الجو..

خليل: وأين زوجك حمزة..

بهية: في السوق...

خليل: لعنة الله عليك.. كنت محتاجاً لأن أنام قليلاً...

بهية: يا رجل قم واهزر...

خليل: بهية ارجوكِ.. كفى عن هذه المداعبة فرأسي يكاد ينفجر من شدة الصداع

بهية: لن تروق رأسك إلا بثلاث قبلات واحدة على خدك الأيمن والثانية أطبعها على الأيسر أما الثالثة فأنت تعرف مكانها جيداً...

- وتهم في أن تفتنه

- هو يدفعها عنه قائلاً

خليل: بهية احذري العدوى فأنا مريض..

بهية: ولماذا تدفعني هكذا عنك بعنف.

خليل: لأني أخاف عليك...

بهية: هذه دفعة من لا يحب..

خليل: الحقيقة انني لم أعد هكذا.. لأني سوف أتزوج عما هو قريب...

بهية: اياك أن تفعل هذا.. اني أحذرك

خليل: بهية تعقلي.. وفوقي إلى نفسك أنت زوجة...

بهية: وهل تذكرت الآن فقط أني زوجة

خليل: كانت شقاوة عيال...

بهية: إذا أردت أن تتزوج فلن يكون لك زوجة سواي...

خليل: وزوجك عم حمزة..

بهية: سوف أتركه...

خليل: هو يرفض طلاقك..

بهية: إذا رفض هذه المرة فسوف أصبح أرملته...

خليل: ما هذا الهراء ..

بهية: سوف أقتله وأقتلك أيضاً إذا اقتضى الأمر...

خليل: هل جننتِ يا امرأة.. اني لن أتزوجك... مهما كان الأمر...
لأني أحب صبية من فتيات المصبنة التي أعمل فيها...

بهية: سوف ألوي لك عنقها وأدقه دقاً...

(قطع)

المشهد الرابع **داخلي - ليل**

المصبنة

- ونرى فتاة جميلة تحمل وعاء الصابون السائل وتصعد به إلى حيث تصبه في الحوض الكبير.

- عم كيلاني يمر إلى جوارها وهو يحمل الوعاء..

- الاثنان يتوقفان للحظة

الفتاة: كيف حال خليل؟

كيلاني: حمداً لله.. ان صحته تسير إلى أحسن...

- تناوله تميمه

الفتاة: خذ هذه التميمة وعلقها له على رأسه.. وسوف يخف باذن الله...

- الكيلاني يضحك

كيلاني: مقبولة يا ريم ومباركة باذن الله يا ريم..

- الاثنان يواصلان تحركهما هي تصعد وهو يهبط..

(قطع)

المشهد الخامس **داخلي - ليل**

الردهة الضيقة

- الصياد قادم يعرج وهو يحمل الوعاء الذي يبيع فيه السمك خاوياً وقع خطوات

- الصياد يتوقف متطلعاً إلى المكان والكاميرا تركز على دمامته ولحيته الكثة..

- الصياد ينادي

الصياد: يا بهية.. أين أنت يا بهية لقد جبرنا الليلة يا أم السعد.

(قطع)

المشهد السادس **داخلي - ليل**

غرفة خليل

- بهية تتكمش في خليل وهي تهمس له

بهية: لقد عاد الرجل على غير موعد

خليل: وماذا في هذا..

بهية: سوف يتضايق عندما يكتشف وجودي عندك.. لأنه يغار علي منك...

خليل: وهل يعرف شيئاً من هذا الذي بيننا...

بهية: يخيل إلي أنه يعرف..

خليل: يعرف ويسكت..

بهية: وماذا عساه أن يفعل هذا الأعرج غير السكات...

- حمزة يطل برأسه من الباب

حمزة: بهية هل أنت هنا...

بهية: أجل يا حمزة.. تعال..

- الضيق بادي على وجه حمزة

- هي تنهض وتقترب منه...

بهية: ادخل.. فالرجل مريض

- هو يتطلع إليها...

- ثم إلى خليل...

- وتسود لحظة صمت..

حمزة: ماذا ألم بك يا خليل..

خليل: أعاني من صداع في الرأس

حمزة: لا بأس عليك...

- ويتراجع عن الباب مختفياً

- وقع خطواته العرجاء على وجه بهية

- بهية تنظر إلى خليل وهي تبتسم

بهية: ألم أقل لك اني روضت الرجل

خليل: بهية اذهبي إلى رجلك..

بهية: أتطردني... من عندك يا خليل...

خليل: بهية أرجوكِ.. اذهبي الآن

- هي تضج بضحكة ناعمة..

- وتنصرف خارجة..

(قطع)

المشهد السابع **داخلي - ليل**

الردهة

- ونرى حمزة واقفاً في الردهة كالأسد الجريح..
- والدموع في عينيه..
- هي تخرج وتقترب منه وتنظر إليه
- هو ينكّس رأسه

بهية: هل بعت كل السمك..

حمزة: أجل...

بهية: وأين النقود...

- هو يخرج لها كيساً به نقود فضية ويناوله لها...
- هي تفض الكيس وتعد النقود ثم تناوله قطعة فضية...

بهية: اذهب إلى السوق واشتر سكراً وشاياً وحذار أن تتأخر.. ثم اشعل النار واغلي الماء إلى أن تأتي...

حمزة: أجل.. وهل تريدين شيئاً آخر..

- هو يتطلع إليها صامتاً...

بهية: اشتر بقرش اسبرين لخليل.....

- ويدلف متحركاً...
- هي تنظر إليه بطرف عين

«وقع خطواته العرجاء وهو يبتعد»

- باب غرفة خليل ينفتح..

- خليل ينظر لها..

- هي تتلفت إليه

بهية: لماذا قمت..

خليل: كنت أتسمع عليكما...

بهية: وهل وجدته يثور..

خليل: مسكين هذا الرجل..

بهية: بل مسكينة أنا..

خليل: لو كنت مكانه لجدعت أنفك..

- وتضحك بضحكة ماجنة

بهية: لقد روضته وأصبح أليفاً كما ترى..

- عينا خليل يتطاير منهما الشرر في غيظ شديد..

خليل: سوف أ

أؤدبك أنا بدلاً منه..

- ويجذبها من شعرها وينهال عليها ضرباً مبرحاً..

(قطع)

المشهد الثامن **خارجي -**

ليل

سطح منزل

- فرح شعبي على الطريقة الأردنية الراقصين والراقصات وهم يزفون خليل على فتاة المصبنة

أهازيج شعبية

- وخليل مرتدياً سروالاً من الجوخ وشملة حريرية وطربوشاً مائلاً..
- وجه خليل في كل الكادر ويسمع صوت بهية وهي تغني..

صوت بهية: يا ريتني ما عرفته ولا عرفته بحالي

- بهية من خلال وجهة نظر خليل وهي تغني في تأثر..
- خليل ينظر إلى ناحية أخرى...
- فيرى زوجها حمزة جالساً صامتاً وهو منهمك في لف لفافة تبغ في استسلام كامل...
- خليل يسبل أجفانه والضيق بادٍ على ملامحه...
- عروسه إلى جواره تلكزه..
- هو يتطلع إليها

العروس: مالك...

خليل: سرحت قليلاً...

العروس: هذه المرأة التي تغني.. من تكون

- تشير..

- ونرى بهية من خلال اشارتها وهي لم تزل تغني أغنيتها..

خليل: انها بهية جارتنا...

العروس: ولماذا تتطلع إليك كثيراً في يأس

خليل: ماذا تعنين بكلامك هذا؟

العروس: هل كان بينكما شيء..

خليل: كفى عن هذا الهراء.. فزوجها باني إلى جوارنا...

- بهية تغني أغنيتها في كل الكادر

(مزج)

المشهد التاسع **داخلي - نهار**

المصبنة

- والد خليل يتحرك حاملاً وعاء الصابون ويصبه في الحوض..
- ثم يتحرك هابطاً الدرك في خطو مرهق..
- يقابل خليل صاعداً..
- الأب يستوقفه قائلاً

الأب: هل علمت بالذي حدث ليلة البارحة

خليل: ماذا حدث..

الأب: لقد مات عم حمزة الصياد..

خليل: مات.. كيف..

الأب: مات غرقاً.. سقط من قاربه... ويقولون أن زوجته بهية هي التي دفعت به إلى الماء...

خليل: غير معقول هذا الذي تقول..

- وينفعل
- قدمه ينزلق في كل الكادر..
- ويقع من فوق السلم الخشبي بالوعاء..

(قطع)

المشهد العاشر **داخلي -**

نهار

غرفة خليل

- غرفة غير الغرفة الأولى... انها غرفة الزواج.. السرير نظيف...
- والزوجة ترتب شؤون المنزل وتغسل الأوعية من (برميل) موضوع في ركن...
- نسمع طرقاً منفعلاً على الباب..
- الزوجة تفتح..
- ونرى والد خليل واقفاً وهو منفعل

الزوجة: أبتي.. ماذا ألم بك..

الأب: خليل..

الزوجة: ماله؟

الأب: انزلقت قدمه وسقط من فوق سلم المصبنة...

الزوجة: وماذا جرى له...

الأب: نقلوه إلى المستشفى...

الزوجة: يا لِ المصيبة التي حلت بنا

- وتجهش باكية في تأثر كبير

(مزج)

المشهد الحادي عشر **داخلي - نهار**

غرفة مستشفى

- ونرى خليلاً راقداً في فراش المستشفى وهو فاقد الوعي
- والطبيب إلى جواره يربت على خده...
- خليل يفيق قليلاً ويفتح عينيه

خليل: ماذا جرى يا سيدي الطبيب..

الطبيب: أنت بخير.. كل الذي حدث أننا اضطررنا لبتر ساقك...

خليل: بترتم ساقي.. يا لمأساتك يا خليل...

- ويجهش باكياً في انفعال شديد
- الزوجة تطلّ داخلة من الباب

الزوجة: خليل...

- هو يتطلع إليها والدموع في عينيه..

خليل: لقد بترت ساقي..

- وتزداد اجهاشته..
- الزوجة تئن باكية أيضاً..
- وتندفع إليه وتحتضنه وهو لا يزال جالساً على السرير...

(فيد)

المشهد الثاني عشر داخلي – نهار

غرفة خليل

– خليل يتحرك على ناقوس... وزوجته تتطلع إليه.. والحزن بادٍ في عينيها..

الزوجة: خليل.. ألا نذهب إلى المصبنة

خليل: كيف أذهب وأنا مبتور الساق أعرج...

الزوجة: يجب أن تعمل وإلا ستموت جوعاً

خليل: أخاف من عيون الناس.. انها تجرحني...

الزوجة: هذا قدر الله يا حبيبي...

– بدهشة يتطلع إليها

خليل: تقولين حبيبي..

الزوجة: أجل.. وماذا في هذا.. ألست أنت زوجي وحبيبي...

خليل: أتحبين رجلاً أعرج...

الزوجة: الرجال لا يصيبهم غير فقرهم فاذهب واعمل كي تكسب....

خليل: لا أقوى على حمل الوعاء وأنا بساق واحدة...

الزوجة: إذاً سوف أعود إلى عملي في المصبنة من جديد...

خليل: لا.. لا.. أرجوك كله إلا هذا لن تخرجي من المنزل ولن تعملي لأني أغار عليك من عيون الناس..

الزوجة: خليل.. افهمني.. يجب أن نتدبر أمور معيشتنا وإلا متنا جوعاً

خليل: ريم أرجوك.. دعيني الآن..

الزوجة: خليل.. ليس عندنا نقود..

- ويتركها متجهاً إلى الباب...

- هي تستوقفه

الزوجة: إلى أين.. كلمني.. أريد أن أطمئن...

خليل: تطمئنين على ماذا؟

الزوجة: معيشتنا.. حياتنا.. مستقبلنا

- هو يتطلع إليها صامتاً

- ثم يتركها ويخرج...

- الزوجة متهالكة باكية على مقعد...

- هو ينظر إليها من عند الباب وينصرف وهو يدق الأرض بناقوسه..

«وقع خطواته العرجاء»

(قطع)

المشهد الثالث عشر **داخلي - نهار**

ردهة منزل الوالد

- بهية جالسة تصلح من حال شبكتها..
- والد خليل يمر عليها خارجاً من غرفته..

بهية: كيف حال خليل الآن..

الأب: نفسه تعاف كل شيء.. لقد زهد في الدنيا.. ويرفض الخروج أمام الناس بساقه العرجاء..

بهية: وماذا فعلت معه زوجته..

الأب: تحايله حتى يخرج إلى العمل ولكنه يرفض كل الرفض...

بهية: زوجة النحس هذه.. فمنذ أن تزوجها وهي شؤم عليه...

- وتعود إلى عملها في الشبكة
- الأب يتحرك منصرفاً

الأب: هذا قدره..

- الزوجة تعمل في رتق الشبكة منهمكة...
- وفجأة تسمع وقع خطوات عرجاء
- بهية تتلفت...
- ومن خلال وجهة نظرها نرى خليلاً
- خليل يتوقف وينظر لها صامتاً..
- هي تنظر إليه...
- مونتاج متبادل ما بين الاثنين

خليل: كيف حالك يا بهية...

بهية: كما تراني.. أصبحت أرملة ولم تعزني فيه..

- ويتقدم منها

خليل: وهل أنت حزينة عليه حقاً؟

بهية: كان رجلي..

خليل: يقولون أنك قتلته..

بهية: وهل صدقت هذه الاشاعة..

خليل: إلى حد ما.. لأني كنت أعرف نواياك...

بهية: الحقيقة.. اني لم أقتله.. هو الذي انتحر بالقاء نفسه في الماء.

خليل: استراح وأراحك...

- تنظر إليه

بهية: اجلس...

- هو يظل واقفاً ويتطلع إليها

- هي تتطلع إليه

بهية: ورثت عن المرحوم ساقه الخشبية.. هل تصلح لك...

خليل: لا لست في حاجة إليها..

- ويتركها ويتحرك..

بهية: إلى أين..

- هو يتوقف وينظر إليها

خليل: أراكِ تشمتين في بعد أن أصبحت أعرج مثل المرحوم...

بهية: تعال.. فأنا موعودة بالعرج..

خليل: ومن قال لك انني سوف أستجيب لك

بهية: اسمع يا خليل.. لقد علمت من أبيك أنك ترفض الذهاب إلى المصبنة وأنا أعرض عليك الآن قارب المرحوم فما رأيك..

- خليل يتطلع إليها هامساً

خليل: بئس به من ميراث قارب المرحوم وأرملة المرحوم...

بهية: خليل.. تعقل.. إني أعرض عليك صفقة.. فاغتنمها ولا تضيعها من يدك...

- خليل يصمت..

- هي تهزه

بهية: هيه ماذا قلت..

خليل: أين هو القارب...

- ينظر لها صامتاً

بهية: هناك في مكانه عند الشاطىء...

- ويعطيها ظهره ويتحرك مبتعداً

- وهي تتطلع إليه في دهشة

بهية: خليل.. لم تحرِ جواباً...

- يهمس بنبرات هادئة

خليل: الجواب.. ستعرفينه بعد قليل..

- ثم يواصل تحركه

- تلاحقه

بهية: إلى أين تذهب...

- يتطلع إليها

خليل: إلى الشاطىء...

- هي تبتسم

بهية: ستجرب أن تصطاد بالقارب

خليل: سأحاول...

- ويتركها ويمشي

بهية: وزوجتك ماذا ستفعل معها..

خليل: لا تتعجلي الأمور...

- هي تبتسم في كلوز وعلى وجهها نسمع صوت ناقوسه وهو يبتعد...

(قطع)

(لقطة سيما ١٦ مللي)

المشهد الرابع عشر **خارجي - نهار**

الشاطىء

- خليل يتحرك على الشاطىء وهو يعرج...
- يتوقف أمام القارب وينظر إليه
- لم يتخطَّ حاجزه..
- ويجلس بداخله ويجدف
- القارب يبتعد عن الشاطىء
- خليل يجدف..
- القارب في وسط البحر..
- خليل يتطلع إلى المياه..
- المياه تهدر من خلال وجهة نظره
- خليل يصبح في هستريا

خليل: لا تكن جباناً يا خليل...

- ويترك المجاديف ويقفز إلى الماء
- خليل يصارع الماء..
- إلى أن يختفي في اليم
- القارب وحده في الماء والموج يتلاطمه..
- والكاميرا ترتفع إلى عنان السماء مع موسيقى حزينة..

(فيد)

فهارس المجلدات الثلاثة

* الفهارس *

فهرست المجلد الأول

المــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

فهرست المجلد الثاني

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

فهرست المجلد الثالث

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

المـــــادة	صفحة

مؤسسة عبد الحميد شومان
هاتف ٠٦٧٩١١٦٦ (٦-٩٦٢)
فاكس ٠٦٧٢٠٤١ (٦-٩٦٢)

منتدى عبد الحميد شومان الثقافي
هاتف ٤٦٠٩١٠٤ (٦-٩٦٢)
فاكس ٤٦٠٩١٦٤ (٦-٩٦٢)
ص.ب (٩٤٠٢٥٥) عمان (١١١٩٤)
عمان- المملكة الاردنية الهاشمية

محمـــود سيف الـــدين الايـــراني

ولد محمود سيف الدين الإيراني في يافا سنة ١٩١٤ . وأنهى تعليمه الإبتدائي والثانوي في مدارس الفرير سنة ١٩٢٩ واستطاع أن يجيد فيها الإنجليزية والفرنسية وأن يلم بالفارسية فضلاً عن اللغة العربية. واستهل حياته العملية بوظيفة حكومية قضى فيها بضع سنين عكف خلالها على قراءة الأدب العربي والغربي مترجماً وغير مترجم وأعجب بآثار تشيكوف وموبسان ودستويفسكي وتولستوي .

وفي سنة ١٩٣٥ أنشأ مجلة الفجر الأسبوعية التي صدر منها خمسون عددا، وعدت من أرقى المجلات الأدبية التي صدرت في فلسطين زمن الإنتداب.

قدم الإيراني إلى الأردن عام ١٩٤٠ ، فاختارته وزارة المعارف في الحكومة الأردنية مدرساً للغة العربية ، فتنقل بين مدن الأردن من عمان إلى إربد والكرك، وترقى في سلك التدريس إلى أن أصبح مفتشا في وزارة التربية والتعليم . وفي سنة ١٩٦١ غادر عمان في بعثة دراسية للتخصص في شؤون اليونسكو على نفقة المنظمة العالمية، وقد مكنته هذه البعثة من الإقامة في باريس مدة اطلع خلالها على أنماط من الحياة الباريسية تركت آثاراً واقعية في أدبه، وبعد عودته الى عمان عين مستشاراً في دائرة الثقافة والفنون، وأشرف على إعادة مجلة أفكار للصدور .

كتب محمود سيف الدين الإيراني المقالة والخاطرة والبحث والتحقيق الصحفي والدراسات والنقد الأدبي، لكنه برع في القصة القصيرة التي يعد رائداً من روادها في فلسطين والأردن وبلاد الشام قاطبة.

صدرت له المجموعات القصصية: أول الشوط ١٩٣٧ وفيها ظهرت ملامح النبوغ، ولفتت إليه النظر، ثم ظهرت مجموعته الرابعة متى ينتهي الليل؟ ١٩٦٤ وأصدر في العام ١٩٦٩ مجموعة قصص مترجمة لكتاب عالميين باسم أقاصيص من الشرق والغرب، وتابع الكتابة القصصية فصدرت له في العام ١٩٧٢ مجموعة خامسة بعنوان أصابع في الظلام. وحين توفي في الحادي والثلاثين من آيار (مايو) ١٩٧٤ ترك تراثاً غير منشور في القصة والمقالة والمسرحية وقد نشر بعض ذلك في الكتاب القصصي غبار وأقنعة الذي أشرف على إصداره د.إبراهيم خليل. وللإيراني كتاب في أدب الرحلات بعنوان ملامح من الغرب ١٩٧٢. وقد أبدى في أيامه الأخيرة إهتماماً كبيراً في المسرح تأليفاً وترجمة وإقتباساً ونقداً. فترجم ل ساروبان وبكيت وحول إحدى قصصه القصيرة الى مسرحية بعنوان الأقنعة وقد عرضت هذه المسرحية في مهرجان دمشق ١٩٧٦ .

اعمال الايراني

لم يكن سهلا علينا ان نصل الى هذا اليوم ، الذي تظهر فيه أعمال المرحوم محمود سيف الدين الايراني الأدبية . فقد كان في الأمر مشقة لكثرة ما خلف الايراني من كتابات منوعة ، منشورة في الصحف أو المجلات أو في كتب ، أو مخطوطة ومحفوظة في ركام من قصاصات الجرائد والمجلات ، مما يحتاج لجهد واسع من البحث والتنقيب والتنظيم والتصويب . ولولا التشجيع الذي لاقيناه من مؤسسة عبدالحميد شومان، والدعم الصريح لهذا الكتاب ، لما كان لمؤلفات الايراني أن تظهر أو ان يتاح لها الوصول الى أيدي القراء والمهتمين ، وأيدي أبناء جيل لم يعرف الايراني عن قرب كما عرفناه . ورغم كل الصعوبات، فقد استطعنا ان نحقق ما أردناه ، من اعادة إحياء لتراث رائد بارز من رواد الأدب في فلسطين والأردن ، وخاصة في مجال القصة القصيرة .

ولعل هذا الجهد المشترك الذي تقوم به الأمانة العامة للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب بالتعاون مع مؤسسة شومان ،يكون نواة لجهد أوسع ، وحلقة من مسلسل التعاون الهادف الى احياء ما يمكن احياؤه من ادب الرواد العرب.



فخري قعوار
الأمين العام
للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب

